الرحلة



فكري الخولي

رواية

الرَّحلــة

فكري الخولي

الإهداء

إلى ابنتي فوزية..

كلمة لا بد منها..

أقولها الآن ردًا على العديد والعديد.. من الأسئلة.. التي تدور الآن في أذهانكم.. حـــول موقفي.. ولا مرد لي إلا أن أسجل كل حياتي في هذا الكتاب.. لكي تعلموا لماذا اخترت هـــذا الطريق..

فكري الخولي..

الفهرس

تقديم

بقلم: صلاح حافظ

لم يسبق في تاريخ الرواية العربية عمل من هذا الطراز!

فنحن ألفنا – في عالم الرواية – أن نرى الفلاح بعين ابن عمه الذي تعلم في المدينة واحترف الكتابة. وأن نرى العامل بعين "المثقف الثوري" الذي انحاز لقضيته، بعد أن عرف أنه إنسان مثله.

لكننا لم نقرأ أبدًا رواية بقلم فلاح، أو بقلم عامل، يصور فيها حياته كما يراها بعينيه.. ويتيح لنا أن نراه كما يرى هو نفسه.

وهذا الذي لم نقرأه أبدًا هو ما ينفرد به هذا العمل الروائي الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ أدبنا العربي.

فهنا لا يكتب "محمد حسين هيكل باشا" عن زينب الفلاحة الجميلة النبيلة، وقريتها الجاهلة التي تضطهد عواطف العذارى الجميلات، وهنا لا يكتب وكيل النيابة توفيق الحكيم عن لغز "ريم" التي يختلج رمش عينها فينبسط ظله على فدان.

وهنا أيضًا لا يصف حياة العمال نجيب محفوظ من مقعد القهوة أو شرفة البيت من وراء المشربية. ولا يسرد الحكايات من قاع المدينة "الدكتور يوسف إدريس".. مستعينًا بالسماعة وكشف الأشعة قبل أن يتولى وصف الحالة.

هنا يتولى كافة هذه المهام صاحب الشأن نفسه!

هنا الفلاح يروي قصته بلسانه، والعامل يسجل سيرته بقلمه ولا يستعين "بخبراء أجانب" من أساتذة القلم المتطوعين باسمه.

وقد لا يكون هذا شيئًا جديدًا في أوروبا.. حيث ينشر الجميع ما يكتبون، ويقرأ الجميع كل ما ينشر.

لكنه في مصر، وفي بلادنا العربية، زلزال!

بل هو زلزال مرتين:

- مرة لأن الكاتب عامل. وليس من تقاليدنا أن يكتب العمال روايات، أو يحكوا للناس ما مروا به من تجارب..
- ومرة لأن هذا الكتاب، العامل، وضع كافة الذين كتبوا عن الفلاحين والعمال في موقف بالغ الحرج، فكل سطر في روايته الفذة حقيقة عايشها بنفسه، وكل هذه

الحقائق أبلغ من كل ما صوروا من خيالاتهم التي بذلوا غاية الجهد والإخلاص في تأليفها!.

وفي اعتقادي أنه سيمضي وقت طويل جدًا قبل أن يظهر عمل أدبي مشابه في مصر والبلاد العربية.

فالأدب عندنا حرفة للخاصة والقلم له أهله. ولا يتصور الناشر العربي أن ينشر "يوميات ساعي بريد" إذا كان كاتبها ساعي بريد بالفعل. أو "آخر أيام ابنتي" إذا كانت الكاتبة ربة بيت تحكي تجربتها في المستشفى إلى جوار سرير ابنتها الراحلة، فالسيرة الذاتية للإنسان العادي لا تعتبر عندنا مادة صالحة للنشر، ولا تضاف إلى رصيد الأدب... ما لم يكن صاحبها من أهل القلم المعتمدين.

وقد كانت هذه النظرة "الكهنوتية" للأدب، ولا تزال سببًا في حرمان المكتبة العربية المعاصرة من ذخيرة هائلة من كنوز التجربة الإنسانية.

وليس صدفة أن تبدو مكتبتنا العربية هذه بالغة الفقر أمام مكتبات العالم المعاصر. فثلاثة أرباع ما تنشر مكتبات العالم اليوم من طراز "الأدب المباشر" أي التجربة التي يكتبها صاحبها بنفسه، ويضيفها إلى حصيلة المعرفة الإنسانية بقلمه ومكتبتنا ترفض الاعتراف أصلاً بهذا الطراز من الأدب ولا تسمح لنفسها بنشره، لأن كتابه "دخلاء" يقحمون أنفسهم على أهل القلم.. ويمارسون مهنة الكتابة بدون ترخيص!

وليس صدفة أن يكون أدب المحترفين نفسه، في عالمنا العربي، بالغ الفقر أمام الآداب المعاصرة، فالأديب المحترف الأجنبي يتزود بذخيرة هائلة مما تنشر المطابع للأقلام غير المحترفة، ويتعلم منها، ويتشكل بها وجدانه، وتتعمق بها نظرته، ويستمد منها الوقود الذي يجعله لسان عصره ومجتمعه، بينما الأديب المحترف العربي لا يملك مثل هذا المرجع، ولا يفهم عصره إلا في حدود تجربته الشخصية المحدودة القاصرة لأن تجارب غير المحترفين لا يتاح لها أن تنشر، ولا يتاح له أن يطلع عليها. وهذا هو السبب في أنني أعتبر نشر هذه الرواية نقطة تحول في تاريخ الأدب العربي المعاصر، وحدثًا جديدًا تمامًا على مساره.

فنشر الرواية، في حد ذاته، إعلان عن سقوط "الكهنوت الأدبي" الذي حرم على غير المحترفين حق التعبير.

ونشر الرواية، في حد ذاته أيضًا، دعوة إلى كل عربي أن يسجل تجربته بلا حرج ولا تردد ولا تكلف.. لا لصالح القارئ وحده، وإنما أيضًا لصالح الأديب المحترف.

لكن قيمة الرواية لا تتلخص في هذه الاعتبارات وحدها. إنما هي تتمتع – فوق هذه الاعتبارات – بتكامل فني فريد، مستمد من فطرة فنية نادرة، يتمتع بها مؤلفها العامل الفلاح: فكري الخولي.

وقد كنت شخصيا أحد الذين قرءوا هذه الرواية قبل أن تكتب لأن صاحبها كان سجينًا معي في منفى "الوحدات الخارجة" وكان يرويها ببساطة، جزءًا بعد جزء، ومشهدًا بعد مشهد، على امتداد شهور وأعوام. وكان يمكن أن يعيد رواية أي مشهد فيها حين نرجوه أن يفعل، ودون أن يبذل أي جهد. فهي لم تكن مؤلفاته. وإنما كانت حياته. ولعلي كنت أحد الذين حرضوه على أن يسجل على الورق ما كان يرويه لنا.

ولماذا حرضته؟

لأنني وجدت ما يرويه يغطي مرحلة مهملة تمامًا في تاريخ مصر المعاصرة.

وهي المرحلة التي نشأت فيها الصناعة المصرية الحديثة أيام طلعت حرب، وشركات المحلة.

ففي مختلف بلدان العالم التي سبقتنا إلى الثورة الصناعية، سجل الأدب صورة المجتمع الذي عاصر هذه الثورة، وسجل الآلام والآثام والضحايا الذين قامت الصناعة على أكتافهم. وبرز في هذا المجال أدباء عظماء مثل "تشارلز ديكنز" وغيره، وغيره.

أما الآلام المصرية، والآثام المصرية، والضحايا المصرية، التي صاحبت عصر النهضة الصناعية المصرية.. فقد تجاهلها الأدب المصري تمامًا. وكان طبيعيًا أن يتجاهلها، لأن الصناعة في مصر نشأت في صراع مع صناعة الاستعمار الأجنبي. فكان طابعها الوطني يمنع الرأي العام المصري، والعمال المصريين، من التشهير بآثامها.

والآن وقد زال هذا الاعتبار، فإن تاريخ نشأة الصناعة المصرية الحديثة، والآلام التي صاحبتها، والضحايا الذين سقطوا في سبيل أن تدور عجلاتها.. أصبح ممكنًا، وواجبنا أن يعرفه الجميع.

وهذه الرواية تؤدي هذا الواجب.

وصفحاتها هي أول تسجيل أدبي – بل هي التسجيل الأدبي الوحيد – لميلاد الصناعة المصرية الحديثة، وللهزات التي أحدثها هذا الميلاد في قرى مصر ومدنها وقيمتها، بقلم معاصر يروي التجربة من واقع التجربة.

وعند ما أقول "التسجيل الأدبي الوحيد" فإنني أقصد التسجيل الذي أتيح له أن ينشر.

فالواقع أن في مكتبي نصوصًا أخرى كانت تستحق النشر منذ سنوات. ومنها نصوص كتبها "محمد شطا" أحد زعماء عمال النسيج المصريين في الأربعينيات... وتركها لي قائلاً: لعلها تلهمك بعض موضوعات قصصك. لكن هذه النصوص لا تزال مع الأسف في درج مكتبي، ولم أستفد بها.

ثم جاء فكري الخولي يصرف نظري تمامًا عن الاستفادة بها، وأمرني بأن أنسحب من الساحة، لأن العامل الذي كنت سأتكلم باسمه قرر أن يتكلم هو بنفسه، وأن يكتب بقلمه.

وعجيب أن فكرى الخولي لم يكن في حاجة إلى دراسة فن الأدب، ولم يتلق دروسًا في التعبير.. لكي يصوغ هذا العمل الأدبي النادر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الأدب العربي.

وقد يعود جزء من هذا النجاح إلى أنه في حقيقة الأمر فنان موهوب.

وقد يعود جزء منه إلى أنه عاش حياة بالغة الخصب، تستحق أن تروى، وتجتذب انتباه المستمعين لكنني أعتقد أن جاذبية هذا العمل الأدبي، وأهميته، تعود إلى صدقه، وإلى أنه من طراز "الأدب المباشر" الذي يروي تجربة الإنسان كما تجري في الحياة. وينافس المحترفين بصدق البسطاء.

والدليل على الصفحات التالية... بقلم المؤلف الذي لم يخترع كلمة من خياله: فكري الخولي!..

"صلاح حافظ".

الخروج من القرية

كان أبي يشتغل بناءً في بلدتنا والبلاد المجاورة. وكثيرًا ما كان يسمع الأمهات تنادين على أبنائهن في أكثر البلاد بأسماء: محمد وإبراهيم وعلي والسيد وعمر. كانت هذه هي الأسماء المألوفة لديه. وأثناء عمل أبي، حضر أحد المقاولين من مصر واتفق مع كثير من عمال البناء، ومن بينهم والدي، على العمل في مصر. وهذه كانت أول مرة يتغرب فيها أبي عن بلدتنا وذهب أبي للعمل في مصر. وذات يوم، وهو واقف على إحدى سقالات البناء في الدور الرابع، سمع إحدى الأمهات تنادي "يا فكري، يا ولد.. تعال كلم أبوك". سمع أبي هذا ولم يصدق.. لم يصدق أن هناك ولدًا بهذا الاسم.. وتوقفت يداه عن العمل. وأخذ ينظر من فوق العمارة دون أن يصدق. وظل في ذهول إلى أن سمع الأم تحضن ابنها وتقول: "يا واد يا فكري كنت.. كنت فين يا ولد" وقال والدي لنفسه: "أصل أحنا في مصر، ومصر كلها متعلمين، وعشان كده فيه أسامي زي دي".

"يا واد يا فكري.. تعال يا واد كلم".

دق الاسم في أذنه، واستمر يردده وقال لنفسه: "نادرين عليّ لأسمي هذا الاسم في بلدنا".

وانتهت مأمورية أبي في مصر، وعاد إلى بلدنا وقال أبي لأمي: "أنا جبت لكي هدية من مصر.. جبت لك اسم فكري. لو جبت ولد سميه فكري.. اسم من مصر".

وأعجبت أمي هي الأخرى بهذا الاسم لأنها لم تسمع به من قبل. وفي ٢٦ فبراير سنة ١٩١٧ ولدت أميّ، وسعد أبي بمولدي وتسميتي بهذا الاسم لأول مرة في قريتنا. ومرض أبي بعد ولادتي بشهرين. ودخل المستشفى. وكلما زارته أمي كان يقول لها: "التوصيّ بفكري.. علميه عشان يبقى زي الناس اللي في مصر".

ثم مات أبي بعد ولادتي بثلاثة أشهر.

وعلمت أميّ بالوصية، فخصتني دون إخوتي بالرعاية والاهتمام. ولأنها كانت تحب أبي، أحبتني ولم تنزلني من فوق كتفها. وكانت كلما تعبت، أعطتني لإحدى أخواتي زينب أو حُسْن أو خسكيّه. وتربيت في أحضانهن الأربعة. وبعد أن بلغت من العمر ست سنوات، حاولت أميّ أن تعلمني. وكانت دائمًا تقول لي: "أنا عايزاك تبقى زي الناس اللي في مصر.. أنا عايزاك تبقى أحسن من أخواتك وأحسن من أولاد البلد كلهم. اللي بيتعلم بيشتغل كاتب

ويتوظف، واللي ما بيتعلمش بيشتغل خدام وفواعلي ويشيل على الحمير حــدا العمــدة. أنـــا عايزاك تبقى سيد نفسك".

وأحسست بالعاطفة، عاطفة أمي، وعاطفة إخوتى نحوي، كما أحسست بعاطفة كثير من نساء قريتنا وشبابها، لأنهم كانوا يحبون أبي كما كانوا يحبون أمي ولأن أبي مات بعد ولادتي بثلاثة شهور، ولأني نشأت يتيمًا بلا أب.

وعملاً بما قالته أميّ ذهبت إلى الكُتّاب في قريتنا وفي الكُتّــاب تعرفــت علـــى الولـــد "الغريب" والولد "السيد الصفطي"، ونمت بيننا صداقة. وكثيرًا ما كنا نذهب إلى البحر، ونتسلق أشجار النخيل وأشجار التوت بعد خروجنا من الكُتّاب كل يوم. وفي ليالي كثيرة يأتيـــان إلـــى بيتنا ونلعب جميعًا مع أختي خسكية وأختي حُسْن ألعاب "جمال الملحة" و "حط الحمام – شـــال الحمام" وكنت أرى السعادة بادية على وجه أميّ وهي ترى أختي حُسْن تحملني على ظهرها، وتلف بي مثل الجمل على الفرن حول أخواتي. وكلما رأت أختي "خسكية" وأختي حُسْن إلـــى الغيط أحضرت لي معها "الذرة المشوي" وعقل عيدان الذرة المسكرة كالقصب. وكلما ذهبــت أختي "خسكية" مع أميّ لبيع البطاطا أو الخس أو البصل في سوق محلة مرحوم أو في طنطـــا أحضرت لي معها الحلاوة الطحينية والعيش الخاص والفلافل. وهذا كان يسعدني ويدفعني إلى ملازمة أميّ، فأينما ذهبت أمسكت بذيلها. كنت أذهب مع أميّ وهي ذاهبة تطلب بهائم عمِّـــي "السيد الصعيدي" وتتفق معه على حرث فدان الغلة. وكثيرًا ما كنت أسمع أمِّي وهي جالسة مع عمِّى "محمود الصعيدي" وعمِّى "محمد مشعل" وعمي "السيد أبـــو الـــدهب" وعمـــي "محمـــد الصراف" وخالتي "نظلة" وأم الولد الغريب كنت أسمعهم يتحدثون عـــن الإنجليـــز وســـوقهم الرجالة إلى السلطة قسرًا واستيلائهم على الجمال والحمير، كما كنت أسمع أمِّي تقـــول عـــن الإنجليز وسوقهم الرجالة إلى السلطة قسرًا واستيلائهم على الجمال والحمير، كما كنت أســـمع أمِّي تقول عن الإنجليز: لما كانوا بيجوا البلد راكبين الحِصنة، النسوان كانوا بيستخبوا ويقفلوا على نفسهم البيبان لَحْسَن الإنجليز لو شافوا واحدة كانوا ياخدوها ويعتدوا عليها".

وكنت أسمع عن "سعد"، وعن المظاهرات ضد الإنجليز. وكنت أسمع الرجالة والنسوان وهم يدعون للوفد و"لسعد باشا" أن ينصره على الإنجليز. كما كنت أسمع الشباب والعيال وهم يقولون: "يا عزيز يا عزيز كبة تِصَيِّع الإنجليز" وكنت أردد هذا مع الأطفال كلما ذهبت علـــى الكُتّاب كما كنا نردد "الله حي، سعد جاي، ضرب البمبمة في ط... العمدة وهو جاي".

وأذكر أنني كنتن أسير بجانب أمِّي وعدد كبير من نسوان بلدنا وهن يزغـــردن لـــسعد وللدستور وكان الرجال يهتفون للوفد لأنه عاد للحكم. لم أكن أعي ما يدور حولي، ولكني كنت أردّد تلك الأغاني لأني أرى أخواتي والعيال والشبان يرددونها في الحواري والعُطف. وكـــان

هذا يضايق عمدة بلدنا ويدفعه إلى الحقد على الرجال وعلى الشبان الذين يهتفون للدستور، لأنه كان عدليًا (من أنصار عدلي باشا).

وكان يدفعه حقده هذا إلى إرسال الرجال والشبان إلى بلاد بعيدة في أيام الفيضانات للعمل في الجسور. وكنت أرى أمي وهي تبكي لأخذ أخي "إبراهيم" كما كنت أراها وهي تقف فوق سطح منزلنا وتنكش شعرها وتتطلع إلى السماء وتدعي على العمدة الذي أخذ أخي وأرسله إلى البلاد البعيدة. وكانت المدة التي يقضونها بعيدًا عن القرية تتراوح بين ثلاثة أشهر وستة أشهر بلا أجر. وكان هذا يضايق أمِّي وكل الأمهات، لأن تغيّب الشبان طوال تلك المدة يتلف الكثير من الحاصلات المزروعة. لم يكن العمدة يأخذ إلاّ الرجال والشبان القادرين على الزراعة، وهذا يدفع الأمهات إلى الولولة والصوات والدعاء على العمدة وعلى "عدلي" وعلى الإنجليز الذين يخربون بيوتنا ويأخذون أبناءنا، كما كان ذلك يدفع الأمهات والزوجات إلى العمل في الزراعة بدلاً من الرجال. وكنت أذهب مع أميّ لجمع القطن وتكسير القصل وجمع الفول وتقليع البطاطا وكثيرًا ما كنت أذهب مع أمّي يوم الخميس والجمعة إلى الجبانة لزيارة أبي، وأراها تحتضن التربة وتقول: "أنا عملت بالوصية.. أنا رايحة أعلمه، أنا رايحة أخليه زي الناس اللي في مصر زي أنت ما قلت.. اقرأ يا واد سورة الفاتحة.. سمع أبوك" وتستمر أمِّي في ترديد هذا وهي تحتضن التربة وتحتضنني، إلى أن يأتي إخوتي إبراهيم ومحمد وزينب لأخذها عنوة وهي تبكي.

وكنت كلما طلبت من أمِّي قرشًا وأنا ذاهب إلى الكُتّاب أعطتني ولم تؤخر لي طلبًا. كنت أشتري بالقرش حلاوة من رجل كان يأتي عند الكُتّاب وينادي: "حلاوة زمان يا ملبن".

وفي يوم من أيام الصيف لم أذهب إلى الكُتّاب بسبب مشاجرة تمت بالليل مع الأطفال، قطعت فيها ملابسي. وفي الظهر، جلست أمي أمام منزلنا وخلعت عني كل ملابسي لخياطتها، وجلست بجانبها عاريًا كما ولدتني. وسمعت الرجل وهو يقول: "حلاوة زمان يا ملبن" وجُنَّ جنوني وطلبت القرش من أمِّي، ولكنها تباطأت، فقذفتها بزلطة كانت بجانبي. ورأيت الدم ينزف بغزارة من فمها، فجريت، وجرت هي ورائي تصرخ باكية على أن لحقت بي في أحد غيطان الذرة بجانب بيتنا. وفي غضب، قلعت أمي أحد عيدان الذرة وانهالت ضربًا على جسدي العاري إلى أن تَوَرَّم. ولم تكتف بذلك بل جرتني برجلي على الأرض إلى أن دخلنا منزلنا. ولم تنتبه أمِّي إلى ما حل بي إلاّ على صرخات النساء اللائي جئن لنجدتي.. هالها جسدي الذي تحول إلى قطع زرقاء والدماء تنزف منه، ولم أعد أسمع منها إلاّ همهمة الكلمات وقد انكفأت عليّ وأخذتني في حضنها وهي تقول: "الحقوني، الواد حيموت يا خلق هوه... آه يا بني.. إلهي كان ينشل دراعي".

ولما أفقت وجدت نفسي في حضن أختي "خسكية" وأختي "حُسْن وزينب" وخالاتي والولد الغريب والولد السيد الصفطي ونسوان كتيرة وعيال زملائي في الكتاب وكنــت أتنقــل بــين أحضان خالاتي وأخواتي وأمي، وكانوا يعطونني حلاوة وكراملة ويسقونني لبنًــا ويعطــونني كحكًا ورأيت أمي وهي تبكي وتقول: "الحمد لله" وخالتي عطا الله وخالاتي وهن يقلن: "هــاتي نرقيه – حسدونا الناس" وكانت أختي "خسكية" وهي تحضنني تقول: "آه يا بنت الكلب يا مّــه، ضربت أخويا.. آه يا خويا، واد يا فكري، خد القرش ده واصحى لأخواتك".

وبقيت في أحضان أخواتي وأميّ وخالاتي أستمتع بالرعاية والعطــف إلــى أن شــفيت وعدت إلى الكُتّاب وختمت سورة ياسين وفرحت أمي لنجاحي.

وتزوجت أختي "حُسْن"، كما تزوج أخي "محمد". وكانت أميّ هي التي سعت لذلك لأنها محتاجة لواحدة بدلاً من أختي لمساعدتها في البيت تقوم بما كانت تقوم به أختي وتربت بينــي وبين زوجة أخي ألفة. ولم تكن تذهب إلى منزل والدها إلاّ وتأخذني معها وتعطيني مما كنــت تعطيه لها أمها، وتطعمني بحنان.

وفي الأيام الأولى لعام ١٩٢٨، ذهبت إلى الكُتّاب كعادتي، وإذا بمــشايخ البلــد يــأتون ويطلبون منا الذهاب إلى دوار العمدة. وهناك وجدت أمِّي وإخوتي وكثيرًا من نــساء قريتنــا والشبان والرجال والعيال. وطلب منا العمدة الجلوس ووقف واحد أفندي مع العمــدة، وتكلــم بصوت عال: "يا أهالي كفر الحما، احنا جينا عشان نتكلم معاكم. بنك مصر عمل مصنع يغزل القطن اللي أنتم بتزرعوه ويعمل منه القماش اللي أنتم بتلبسوه.. كنا زمان بنزرع القطن ليأخذه منا الإنجليز.. إحنا النهاردة بنزرع القطن وحنحوله إلى قماش، إحنا اللــي حــانزرع القطــن وحنغزله وحننسجه عشان يبقى كل شيء من مصر.. صناعة وطنية. ابعثوا بأبنــائكم عــشان يتعلموا صنعة، ولما حيتعلموا حياخدوا أجر كويس".

وتكلم العمدة هو الآخر في هذا الاتجاه. وقال: "البيه رايح ييجى بعد أسبوع ويجيب معاه عربية لوري وياخد معاه كل الناس اللي عايزين يروحوا ويشتغلوا في المصنع".

وفي اليوم الذي حدده العمدة جاءت العربات إلى بلدتنا واتلمت الناس عند الجامع لتوديع المسافرين للعمل في المصنع الجديد. وكان كل واحد وهو جاي جايب معاه قفة مليانة عــيش ومخلل، وكل أم تأخد أبنها المسافر في حضنها وتوصيه بأن يأخد باله من نفسه. وجلست أنــا بجوار الواد الغريب والواد السيد الصفطي، جلست بجانبهما أبكي لأنهما مسافران. ووضــعوا كل القفف، وركبوا العربات وكل الناس اتلمت حواليهم ويقولون لهم "مــع الــسلامة" ومــشت العربات، وسار حولها الرجال والنسوان تبكين وجريت أنا الآخر مع النسوان والرجال عشان الواد الغريب والواد السيد الصفطي.

وجاءت أمِّي خلفي تقول: "تعال، أنا عايزاك تتعلم زي أبوك ما قال" وأخذتني معها وهي تقول: "بكرة ييجوا تاني، ما تزعلش، وعدنا إلى منزلنا. وفي الصباح، ذهبت إلى الكُتّاب. ولم أجد الواد "الغريب" ولا الواد "السيد الصفطي". وعدت إلى البيت أفكر في أصدقائي الذين تعودت أن أراهم في الكتاب وأراهم معي على البحر. ولم يطل بي التفكير طويلاً ففكرت أن أهرب وأروح المحلة.

وذات صباح، طلبت مني أمِّي أن أحرس البيت لأنها رايحة السوق مع زوجة أخي لشراء بعض الأشياء الخاصة بالمنزل، وأعطتني خرزانة طويلة لأمنع بها الفراخ من الخروج، وطلبت مني أن أحط الأكل للبهائم كلما جاعوا. وقالت لي: "أنا رايحة أجيب لك عيش وحلاوة طحينية. أوعي حد ياخد حاجة، أوعي البهايم، أوعي الفراخ" قالت لي أمي هذا وتركتني ذاهبة إلى السوق ومعها زوجة أخي وأختي. وبقيت وحدي أمام باب منزلنا.. الباب مفتوح، والفراخ رايحة وجاية وسط الحوش. وجلست أنا أمام الباب أتأمل كل ما في منزلنا وعاودني مرة أخرى التفكير في الولد الغريب والولد السيد الصفطي زمانهم بيشتغلوا على المكنة اللي الراجل جه وقال عليها.

ولم يطل بي التفكير وأخذت الخرزانة، وتركت الباب مفتوحًا على البهايم، ومشيت على السكة اللي رايحة على الغيط. وعلى رأس الغيط دفست الخرزانة في الأرض وأهلت عليها التراب. ومشيت أسأل كل من أقابله: "فين طنطا"؟

ولما وصلت طنطا سألت على سكة المحلة الكبيرة فدلّني الناس على السكة، وقالوا لي: "أمشي بجانب السكة الحديد وتانّك ماشي لحد ما توصل" وواصلت السير بجانب شريط السكة الحديد. وقرصني الجوع وأنا ماشي إلى أن وصلت بلدًا اسمها "الرجدية"، وهي أول بلد بعد طنطا. وبجانب هذه القرية وجدت مصلية فجلست بجانبها أبكي وتطلعت خلفي فوجدت المسافة بيني وبين طنطا كبيرة، فبكيت لأني لم أتعود الشحاتة ولم يسبق لي أن شحت. وتذكرت أمِّي والفراخ والبهايم.. زمان الناس سرقوا كل حاجة في البيت دلوقتي أمي بتلطم.

وكلما تذكرت هذا ازداد خوفي من أمي وازددت بكاءً بجوار المصلية وبقيت على هذه الحال حتى آذان الظهر وعند خروج المصلين رآني أحد الرجال فقال: "مالك يا ولد بتعيط؟ أنت منين؟ تعال معايا" وأخذني معاه إلى البيت وقال لامرأته: "هاتي للولد ده يأكل.. أنت منين يا واد؟"

قلت: "أنا من كفر الحما مركز طنطا".

"وإيه اللي جابك هنا"؟.

قلت: "أنا رايح المحلة الكبرى".

قال: "ليه؟"

"أصل الولد الغريب والولد السيد الصفطي راحوا يشتغلوا هناك وسابوني".

"وأنت مالك بيهم؟ هم قرايبك؟".

"لا، هم كانوا معايا في الكتاب".

قال: "أمك عارفة؟".

"لا"

يعني أنت هربان، هربان من أمك".

وصاحت زوجته: "الله يلعن العيال ويلعن خلفهم، زمان أمك دايخة عليك. إيه اللي موديك المحلة؟ عربية تهرسك واللاحاجة.. هات الحمار وخد قدامك ووديه لأمه ينوبنا ثواب" هنا تذكرت البيت اللي أنا سايبه، والفراخ اللي زمان الدياية كلتهم. وارتعدت فرائضي خوفًا من عودتي. وانتهزت فرصة انشغالهم في حلّ الحمار وأخذت بعضي ودورت الجري على بره، والراجل يجري ورايا، وامرأته تقول: "امسك يا جدع يا للي ماشي، امسك يا جدع، امسكي الولد ده" ولكني طرت كالريح خوفًا من أمي.

وأخيرًا هدأت من سيري وكلمات الولية تزن في أذني "الله يقطع العيال وخلفهم.. زمان أمك دايخة عليك" وواصلت طريقي متجهًا نحو المحلة الكبرى. ومن بعيد رأيت المداخن، ورأيت الدخان يتصاعد منها.

وكلما اقتربت رأيت المباني العالية والدخان يملأ السماء وقلت لنفسي: "هنا يكون المصنع، هنا سوف ألتقي بالواد الغريب والواد السيد الصفطي".

الليلة الأولى في المحلة

اقتربت من مشارف المدينة.. وفي أول طريقي إليها رأيت ناسًا كثيرين يملئون الشوارع. ناس زي الناس اللي شفتهم في بلدنا.. لابسين هدوم زي اللي بنلبسها، هدوم بلدي وصداري زي اللي أخواتي بيلبسوها. ورأيت عيالاً صغيرين كل واحد ماسك طرف جلابية الثاني وعاملين قطار زي اللي بنعمله في بلدنا. ومشيت أدقق في وجوه كل الناس.. أنتقل من رصيف إلى رصيف، باحثًا عن الواد "الغريب" والواد "السيد الصفطي". وسألت بعض الناس: فين المحلة؟

- هيّ دي.
- وفين المصنع.
- تانك ماشي في الشارع ده على طول وحوّد في أول حوادية وامشي على طول يقابلك المصنع.

وصلت المصنع. وأمام بابه الكبير رأيت ناسًا كثيرين، كثيرين جدًا ترش الملح ما ينزلش!! ووقفت أنظر في الوجوه، وجوه كل الواقفين باحثًا عن الواد "الغريب" والواد "السيد الصفطي". وأحسست بإرهاق شديد من كثرة السير، فجلست على الأرض أستريح، فوجدت أقدامي متورمة. جلست أستريح وأنا أنظر في وجوه كل اللي جايين واللي رايحين. طال تأملي، وأحسست بالجوع يمزق أحشائي. أحسست بالغربة عن أمي وإخوتي. ووقفت أتأملّ الوجوه من حولي وأتفرسها. ورحت أحدث نفسي: "حاكل منين؟ أشحت؟.. أنا عمري ما شحت.. وأنام فين؟..".

وقطع تأملاتي صوت صفارة لم أحتمل سماعها لشدة قوتها. وفتح باب المصنع الكبير.. ودخل كل الناس اللي كانوا واقفين أمامه، ووجدت نفسي تسوقني الجموع إلى داخل العنابر ورأيت ناسًا كثيرة تزق عربيات مليانة قطن. وناس واقفة على مكن كبير، وعيال تزق عربيات مليانة بكر. كنت لا أتطلع إلى المكان بقدر ما كنت أتطلع في وجوه كل ما يقابلني باحثًا عن الولد "الغريب" والولد "السيد الصفطي". دخلت كل العنابر فلم أجد أثرًا لأحدهما، فخرجت، ووقفت في حوش المصنع أتطلع في وجوه كل الناس الرايحين والجايين. وأوشكت الشمس على الغروب، وأنا واقف أتطلع إلى السماء تارة وإلى الوجوه تارة أخرى بعيون زائغة متطلعة إلى ما رواء الأفق. وجال بخاطري ما كان يردده أخي من أغاني الحنين إلى الأهل:

"يـــا عـــم دانــــا غريـــب والغربـــة كايـــداني"
"والقلــــب والبــــين والأيـــــام كايــــداني"

أفكار قاتمة سوداء. وكدت أيأس فلم أستطع منع الدموع من عينيّ. فجأة تبددت الأحزان والمخاوف، واختلطت الدموع بالابتسامات عندما وجدت يدًا توضع فوق عينيّ مـــن الخلـــف، ويدًا أخرى تحتضنيّ. كانت الأيدي هي أيدي من جئت من أجلهما. وبقينا لحظات كـــل منّـــا ينظر للآخر ودموع الفرح باللقاء تتساقط! وبعد فترة صمت، قال الولد "الغريب":

- أنت جاي منين؟
- من البلد.
- جاي إزاي؟
- جاي ماشي.
- ماشي؟! يا نهار أسود! أمك عارفة؟
- أبدًا.
- رُحنا في داهية. طيب تعال. إحنا رايحين نكلم الريس عشان يشغلك معانا. إحنـــا بنشتغل الأسبوع ده بالليل من الساعة ٨ للساعة ٧ صباحًا. والأسبوع اللي جـــاي بنشتغل بالنهار، من الساعة ٧ للساعة ٨ بالليل. إحنا بنشتغل على مكـــن بيغـــزل القطن. عملوا لنا قرش صاغ في اليوم، ولما نتعلم رايحين يزودونا. الريّس قـــال لنا كده. أنت جعان؟
- ميت من الجوع.
- خد كل الأول.

أثناء الأكل سمعت صفارة، ولم أستطع إلاّ أن أسد أذنيّ من شدتها. فقال الولد "الغريب": "الصفارة دي هيّ اللي بتنادي على العيال. دلوقت الساعة ٨، ودي آخر صـــفارة". وأخـــذني فدخلت معه عنبر الغزل ووجدته مليئًا بالعيال الصغار في مثل سني، لا يزيد عمر الواحد عن ١٠ أو ١١ سنة. وقفت كالتائه، أنظر إلى المكن تارة وإلى الأولاد تارة أخرى وهم يتـــدافعون جماعات، وفي يديّ كل منهم أسطوانة مليئة بالبكر. وكان هناك آخرون يركبون البكر علـــى الماكينات. وإلى جوار صندوق من الخشب وقفت أنظر إلى كل هـــذا دون أن أتحـــرك مـــن الخوف.. شيء لم أره قبل ذلك في حياتي. المكن طويل مرصوص، كل مكنة بجوار الأخرى في شكل جميل. والأطفال واقفون بين المكن بملابسهم المخططة الملطخـــة بـــالزيوت وهـــم يروحون ويجيئون، وكلما سقطت بكرة أسرعوا يركبونها. ولكل ماكينة سير من الجلد طولـــه

أكثر من عشرة أمتار يدور حول طارة. وإذا نظرت إلى السقف لا تستطيع أن تراه من كثـــرة السيور.. وضجيج الآلات يجبر الجميع على سدّ آذانهم بالقطن. واختفت لغة منـــاداة العمـــال بالاسم وحلت محلها لغة الإشارة بالأيدي. وإذا أراد أحد العمال زميلاً زعق بصوت جهـــوري "هوه.. هوه.." فيتطلع الجميع إليه، فيطلب العامل من يريده بالإشارة. كل هذا وأنا واقف فـــي مكاني تائه. وإذا برئيس العمل يأتي ويطلب أن أسجل اسمي في دفتر كان بيده، وطلب مني أن أعمل مع الأطفال في تقليع المواسير من مكن الغزل.

وتقدمت وأنا في ذهول. وكلما نظرت إلى المكن وهو يدور لم أستطع الاقتـــراب منـــه. وعلى بعد، وقفت أنظر إلى الأولاد وهم يركبون البكر. نـــاداني المباشـــر ووقـــف يعلمنـــي ويشجعني على الاقتراب من المكن شيئًا فشيئًا إلى أن دخلت الطمأنينة قلبي. واقتربـــت مـــن المكن. وشجعني على ذلك من سبقني من الأطفال، فاندفعت إلى العمل بحماس بدافع الغيـــرة. واندمجت في العمل إلى أن تمكنت من وضع يدي على بكرة وتركيبها والمكنة دايـــرة. وزاد هذا من ثقتي بنفسي، وبدد جزءًا من خوفي ومن الرهبة التي كانت مسيطرة عليَّ. وانـــدفعت التقط كل بكرة من أي مكنة وأركبها مكانها.

وفي النصف الثاني من الليل كان التعب قد أنهكني وأنا أغالب النوم. وحاولت المقاومة بوضع رأسي تحت حنفية ماء خوفًا من الرؤساء، ولكن دون جدوى، فجفـــوني قـــد تـــشابكت وغلبها النعاس مرة أخرى. فذهبت نحو صندوق الْبَكَرِ الكبير. ولشدّ ما كانت دهشتي عنـــدما وجدت الصندوق خاليًا من البكر ومرصوص بداخله بدلاً من البكر أطفال نـــائمون، فألقيـــت بنفسي معهم ونمت. ولم أصح إلاّ على جرادل المياه التي انصبّت علينا وأغرقـــت ملابـــسنا. صحونا مذعورين وإذا بالرؤساء أمامنا، فعاد كل منا إلى ماكينتـــه جريًـــا. وبجـــوار إحـــدى الماكينات خلعت كل ملابسي، والتفّ الأطفال حولي وساعدوني على عصرها ونشرها علـــى جوانب المكنة، وأنظارنا تتطلع إلى الرؤساء وهم يتمتمون بكلام لا نسمعه. وبجانـــب المكنـــة وقفت أنظر إلى الطرقات وفرائسي ترتعد من شدة البرد. ورأيـــت الأطفـــال وهـــم يجيئـــون ويروحون وقد هدّهم التعب. رأيتهم وبأيدي كل منهم أسطوانة مليئة بالمواسير، وهم يـــسيرون ببطء متهالكين يتساندون على الحائط وعلى جوانب المكن، وجفونهم قـــد تـــشابكت. ورأيـــت المباشرين يسيرون وفي أيديهم جرادل مليئة بالزهرة المبللة يلطخون بها وجوه كل طفل نـــائم أو على وشك النوم. ورأيت الأطفال يتدافعون إلى دورة المياه بالعشرات لغسل الزهـــرة عـــن وجوههم. وحاولت التغلب على النعاس، ثم لبست ملابسي بعد أن بدأت تجف.

وانطلقت أتجول بين مكنة وأخرى. وكلما تجولت رأيت الوجوه تتطلع إلى السماء في انتظار طلوع الفجر. ومع بزوغ الشمس كانت السعادة بادية على الوجوه. سعادة بانتهاء الليل وانقضاء ساعات عمله الطويلة المنهكة.

استقبل العمال النهار بلغة المصنع "هُو. هُو.. هُو"، صيحات تهز الجدران وتطغي على زئير السيور وضجيج الآلات وهي تتردد من آلاف الحناجر في فرح واستبشار. رويدًا رويدًا بدأ نور الصباح الساطع يطغي على نور الكهربا. واتجهت الأنظار نحو عقارب الساعة المعلقة على الحائط انتظارًا لتوقف عقاربها عند السابعة. وكلما اقتربت من الموعد كلما هدأت النفوس.

وعدوت أبحث عن الواد "الغريب" وعن الواد "السيد الصفطي" وسط ذلك الحشد الهائل من الأطفال خوفًا من أن أتوه. عدوت نحو دورة المياه. وهناك وجدت عشرات الأطفال يضعون رءوسهم تحت حنفيات المياه، وآخرين يمشطون شعورهم استعدادًا للخروج، ووجدت الواد "الغريب" والواد "السيد الصفطي"، "فأخذاني معهما، وتوجهت إلى باب العنبر. كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة. وفتح باب العنبر. وتلاقت الوجوه. وجوه عمال الليل مع وجوه عمال النهار. وتلاقت الأيدي بالسلامات. وبدأت عمليات تسليم المكن. كل منهم يسلم الآخر: "كل شيء تمام".

وعدوت أنا والواد "الغريب" والواد "السيد الصفطي" في طريقنا إلى خارج المصنع.

الجثة المحشورة

..خرجنا من المصنع، وقلت للولد الغريب.

- على البيت؟
- إحنا ما لناش بيت.
- يا نهار أسود.. ما لكمش بيت أزاي.

– أصل أحنا ما عندناش فلوس نسكن بيها.. لمَّا جُم وخدونا من بلدنا قالوا: إن الشركة حتريحنا وتوفر السكن. إحنا صدقناهم. ولما جينا هنا قعّدونا في حوش المصنع مع آلاف العمال اللي جابوهم من كل البلاد. وبعدها قالوا خلاص، شوفولكم سكن خارج الشركة. ولم يمهلونا، وطردونا بعد عشرة أيام من وصولنا. فخرجنا وكل واحد يحمل أمتعته. وسرنا في شوارع المحلة. كل جماعة من بلد واحد أجروا حجرة بخمسة وعشرين قرشًا في الشهر وأصحاب البيوت هنا بيَسكّنُوا العمال "بالراس" إيجار الراس قرش صاغ واحد في الشهر. كل ٢٥ شخصًا يسكنون مع بعض، وأحيانًا ٣٠. ومعظم الجماعة من بلد واحد أو من بلاد متجاورة أو من مديرية واحدة. ولم نتمكن من إيجار حجرة لأننا لم نجد عددًا كبيرًا من بلدنا. كنا في بداية مجيئنا عشرة ولم يبق منا غيري أنا والولد السيد الصفطي. ومعناش فلوس نأجر بيها حجرة. وجلسنا على الرصيف. وتجمع الناس حولنا. وأخذنا راجل طيب صاحب طابونة اسمه "محمد الطباخ" وقالوا تعالوا معايا يا ولاد على الفرن لغاية ما تشوفوا سكن. ففي أسبوع عمل الليل ننام بالنهار على البحر تحت الشجرة، أما أسبوع النهار فننام في الطابونة.

قلت: أحنا حنموت بالطريقة دي.

فقال: فاضل ١٨ يومًا على العيد. إن ما كانوش يعطونا زيادة نبقى نروح وما نجيش بعد العيد.

وصلنا إلى البحر. وقرب المستشفى الأميري، وتحت شجرة صفصاف قال الولد الغريب: "هذا هو بيتنا المؤقت، اقعد".

كان الإنهاك يهد جسمي، فنمت نومًا عميقًا لم أصح منه إلا على أصوات صرخات نساء. نظرت من حولي فرأيت عشرات النساء وكل واحدة تحمل صفًا من الحلل والأواني، والكل منهمك في تنظيفها في المياه بالقرب من بيتنا المؤقت. ورأيت عشرات من الشبان

والأطفال عراة كما ولدتهم أمهاتهم يسيرون على الشاطئ ويتمرغون في الرمال، ويقفزون في البحر، ويعاكسون النساء ويرشوهن بالماء. وهذا ما دفع النساء إلى الصراخ والشتيمة:

"يا ولاد الكلب يا شركاوية، من نهار ما جيتوا غليتوا علينا المش".

"غليتوا علينا السكن. كنا مستريحين، كانت الواحدة تسكن في أودة وجنب منها عشر أود فاضيين. وكان اللي عندها بيت تتحايل علينا عشان نسكن عندها. النهاردة بيطلبوا منا نعزل عشان يسكنوها بالرأس. البيت بحاله كان زمان بعشرة صاغ. النهاردة بيسكنوه بجنيه.".

"ومن نهار ولاد الكلب دول ما جُم واحنا ما حناش عارفين ناكل. كانت الواحدة منا بتروح السوق تشتري قفة البدنجان بقرشين صاغ، وكانوا يتحايلوا علينا. النهاردة مش ممكن نشتريها إلا بستة أو بسبعة صاغ".

"إلهي تتخرب" وتواصل سيل الدعوات والشتائم ضد الشركة وضد العمال، واللي حدفهم إلى هنا. وبقيت في مكاني مضجعًا أسمع وأنا مكاني تحت شجرة الصفصاف إلى أن غلبني النعاس مرة أخرى. ولم نصح هذه المرة إلا قرب بداية الوردية.

ونحن في طريقنا إلى المصنع، قال الولد الغريب موجهًا كلامه إليّ:

- أنت عملت إيه امبارح في الشغل؟ عرفت تشتغل على المكنة؟
- لسه. أنا عرفت بس أركب البكرة والمكنة دايرة.
- المباشر ما ضربكش؟
- لأ بس أنا لما كبس عليّ النوم رحت على صندوق البكر لقيت عيال كتيرة مترصصة فنمت جنبهم، ولم نصحُ إلاّ على جرادل المياه تدلق من الرؤساء.

فقال الولد الغريب:

- أنت خايب. أصل العيال دول جُداد.. إحنا بنهرب في عنابر تانية وننام.. وأول الكاتب ما ييجي ويكتب الأسماء بنزّوغ على عنبر البرْم وعنبر السّحب وعنبر الكرد وعنبر التنظيف وعنبر النسيج، ولما نتعب من اللف نيجي تحت أي حيطة أو صندوق وننام.. أحنا رايحين ناخدك معانا ونفرجك.

قلت:

- أنا عاوز أشوف مكن النسيج.

وكنَّا قد وصلنا إلى بوابة المصنع ونحن نشق طريقنا وسط زحام الآلاف الواقفة في انتظار توقف عقارب الساعة على الثامنة مساءً، وهو موعد بدء العمل. وحولنا الباعة من الرجال والنساء يصيحون بصوت يصم الآذان: "القوطة المخللة بالتوم... البدنجان المخلل

المحشي بالبهارات.. الجبنة البلدي.. الفجل والكرات..." أصوات لا تهدأ، كل واحدة وكل واحد عايز يخلص. الكل عايز يبيع قبل ما تدخل الجموع إلى العمل.

زعقت صفارة الدخول في الثامنة مساءً وبدأ العمال يدخلون متجه إلى عنبره، وفي يد كل واحد منديل مربوط على العيش، وفي اليد الأخرى ما اشتراه عند باب المصنع: بدنجان مخلل كل اثنين بمليم، أو كوم من القوطة المخللة كل ثلاثة باتنين مليم. ووصلنا إلى عنبر الغزل واستقبلنا العمال بلغة المصنع "هُو.. هُو.. هُو" صيحات تغطي على زئير السيور وضجيج الآلات ابتهاجًا بانتهاء يوم العمل.

وأخذ الرؤساء يوزعون العمل. مجموعة تسمى عمال التقليع، وهم من العمال الجدد، ومجموعة أخرى تجلب لهم البكر. وعمال آخرون لكنس الأرض ولم المواسير من تحت المكن. وكنت أنا ضمن عمال التقليع. وكنت جادًا في أن أتعلم الصنعة لأن العمال القدامى كانوا يتأمرون على العمال الجدد. وكان هذا يدفعني إلى أن أتعلم بسرعة تركيب المواسير ورش المكنة وتدويرها. وكنت أجري نحو كل عامل يدور المكنة كلما توقفت، وكلما دورت المكنة مرة أخرى كان هذا دافعًا جديدًا لي.

وبدأت أسأل الأطفال عن بلادهم، فمنهم من قال أنا من الباجور "منوفية" ومنهم من قال من "دمياط" وثالث من تلا "منوفية" وآخر من كوم النور.. وكانوا هم يسألونني عن بلدي فأقول أنا من كفر الحما "غربية". ونشأت بيني وبين الكثيرين صداقة، وخاصة حين يعلمون أن أبي مات دون أن أراه. ومنهم من ساعدني على تعلم تركيب البكر وتدوير المكن.

وطلب مني الولد الغريب أن أزوغ معه بعيدًا عن العنبر فرفضت، لرغبتي في أن أتعلم سريعًا من كل من تعلم قبلي فتركني وذهب. ولم يمض وقت طويل حتى حضر المباشر وأخذني لكي أجمع البكر الواقع تحت ظهر المكن. ولرغبتي في سرعة العمل، دخلت تحت المكنة. وعند خروجي وجدت كل ملابسي ملطخة بالشحم والزيوت السوداء ووقفت مذهولاً لا أقوى على الكلام لأني لا يوجد معي من يغسل ملابسي. وسرحت بخاطري نحو أمي التي لم تكن تحب أن تراني هكذا، فبكيت ولم يترك لي المباشر فرصة للتفكير، وحتى للبكاء. وأمرني أن أكنس الأرض متظاهرًا بعدم رؤية ملابسي.

وفي النصف الثاني من الليل، تهالك جسدي، وغلب النعاس عينيّ. وحاولت المقاومة خوفًا من الرؤساء بغسل وجهي في دورة المياه، ولكن دون جدوى، والرؤساء في هذه الساعة يشيعون القلق والخوف في النفوس. كانوا يحملون جرادل بها شحم ويسيرون بين المكن وفي الطرقات لدهك وجوه كل من يغلبهم النعاس، وهم كثيرون. وكان النعاس يغلب كل من لم تتوفر له وسائل الراحة في بيته. وهذا ما كانت تتحدث به العمال:

"أصلنا ما بنَّامش بالنهار".

"إحنا رايحين ننام فين يا عم. الواحد بينام وحاطط إيده على قفة العيش أحسن تتسرق".

"هو إحنا عارفين ننام واحنا عشرين ساكنين مع بعض ف أوده. يعلن أبو دي شغلة. دا الواحد يروح البلد أحسن ولا البهدلة دي".

"تصور أنا ما لقيتش حتة أنام فيها امبارح. رحت نمت في عربخانة.. عربخانة بهايم." "أنت نمت مع البهايم؟".

"أيوه، نمت مع البهايم. شوف يا سيدي. في المحلة فيه سوق التلات – والسوق ده بتيجي له ناس كثير.. الحاوي ييجي عشان يظهر مواهبه، والقرداتي ييجي عشان يلعب ألعابه.. كل دول ييجوا يوم الاثنين عشان يحضروا السوق يوم التلات. كل دول بيناموا في العربخانة. وأنا كمان ومعايا ناس كتير لم نجد مكانا ننام فيه فرحنا ننام في هذه العربخانة مع البهايم.. تصور، ننام مع البهايم – طبعًا مش ممكن نعرف ننام – وبعدين نيجي عشان نشتغل ١٢ ساعة. يا عم دي شغلانة منيلة. لازم نيجي هنا ننام. وآخرتها الرؤساء يلطخوا وشنا بالزهرة ويسودوه بالشحم".

"ليه يا عم ضحكوا علينا وجابونا من بلادنا وقالوا احنا حنريحكم. هي دي الراحة؟" "المباشرين دول أول العمل ما بيبدأ يروحوا موزعين العمال على المكن وتبص ما تلاقيهومش. يروحوا يناموا ويشبعوا نوم وييجوا بعد نص الليل يضربونا ويبهدلونا بالشحم والزهرة والمية.. دول أندال يروحوا يناموا ويشبعوا نوم وبعدين ييجوا يشيعوا الرعب فينا".

"هو حد قادر يحوش النوم، النوم سلطان، تعال شوف العيال نايمين فين، شوف الرعب خلّي الولد حاشر نفسه فين.. في الأسطوانة.. أسطوانة من بتوع البرم.. ليه عمل كده؟ عشان الليل طويل، ١٢ ساعة. وهو طول النهار في الشارع فلازم ييجي هنا ينام".

"تعال شوف كمان. آدي صناديق مكفيّة".

اللي يشوفها يقول ما فيش تحتها حاجة.. تعرف تحتها إيه؟ تحتها عيال نايمين".

قالت: "دول ممكن يموتوا كده".

قال: "هو اللي بيموت هنا حد يسأل فيه؟".

قلت: "أزاي؟ هو مفيش قوانين؟ ما فيش حكومة؟".

قال: "حكومة مين يا عم؟ مش شايف الناس عينهم نصف نايمة من التعب أزاي؟ تعال لما نقلع الوش ونرش المكنة".

وبينما نحن منهمكون في العمل وإذا بأطفال ورجال يجرون إلى وسط العنبر وصياحهم يغطي على ضجيج الآلات: "واحد مات.. واحد مات... السير خطف واحد.. علقه في سقف العنبر.. الدم نازل يشرشب.. الدم نازل على العنبر" وجريت أنا أيضًا في نفس الاتجاه ووجدت مئات العمال وقد وقفوا صامتين وعيونهم كلها على الجثة وهي محشورة بين السقف والطارة المركب عليها السير، والدماء تتساقط بغزارة ملطخة المكن المجاور.

وبسرعة، أحضر العمال السلم العالي الخاص بالكهرباء، وانتزعوا الجثة المحشورة بين السقف والطارة. ولم يتمكنوا من إنزالها برفق، فسقطت من بين أيديهم على الأرض. وازدادت وجوه العمال شحوبًا من هول المنظر، وخاصة بعد أن غطيت الجثة بالخيش.

فقد العمال القدرة على مواصلة العمل.. كانت أبصارهم جميعًا معلقة بالجثة، والأعصاب محطمة، والفزع يسود، والقرف يستولي على العمال ويتحول إلى حقد على المكان وعلى السيور.

وتوالت أحداث من هذا النوع تثير الفزع بين العمال خمسة عمال آخرون من عمال الشلل كانوا يركبون السير فلفهم بين السقف والطارة، فماتوا بعد أن تحول العنبر إلى بركة من الدماء. والكل أصبح ساخطًا على المصنع وعلى المكن. ويتضاعف السخط كلما حدثت حوادث أخرى من هذا النوع.

وازدادت الهمسات بين العمال:

"المكن لما يخرب ما يشتغلش إلاّ لَمَّا يظّفر بدم بني آدم".

"احنا زمان لما كانت مكنة الطحين تخرب، كانوا يسرقوا لها عيّل عشان يدبحوه ويظفروا بيه المكنة، وعشان العفاريت تتنطط، وتنطيط العفاريت هو اللي بيدورّ المكن.

كانت أهالينا ما تخليناش نروح نواحي مكن الطحين.

وآدي احنا النهارده جايين لحد المكن برجلينا".

"الواحد يروّح أحسن يشتغل ويحرث الأرض ويطلع غلة أحسن من الشغلة دي".

"تصور الواحد منا زي الفحل ويشتغل بتلاتة تعريفة من الصبح لحد نص الليل.. الواحد لما يروح ويموت على فرشته أحسن ما يموت غريب.. هو حد عارف الناس اللي ماتت دفنوها فين؟".

المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين. وآدي أحنا بنشتغل لحد العيد، ولما نقبض ونروّح، وإذا كان ربنا قاسم لنا نرجع تاني حنرجع".

أحاديث.. وأحاديث... والأيام تمر. وكل يوم نرى عربات محملة بالمئات قادمـــة مـــن قرى متعددة تملأ الحوش المعد لاستقبال العمال الجدد.

مع الشحاتين

قبل انتهاء يوم من أيام العمل علقت على جدران العنابر وفي الطرقات إعلانات تقول:

"بناء على رأي الفنيين، أصدر المدير العام أوامره بصرف خمسة مليمات علاوة لكل عمال الغزل والسحب والكرد والتنظيف والشلل، ما عدا عمال النسيج".

واستقبل العمال هذا المنشور بالتهليل والفرح، وأصبح لا حديث لهم إلا هذه الزيادة. فمنهم من قال:

"ياللا يا عم.. بعد الواحد ما كان حيقبض ١٥ قرشًا حيقبض ٢٢,٥ قرش".

وآخر: "أهو الواحد دلوقت حيقبض ٣٠ قرش بعد ما كان حيقبض ٢٢,٥ قرش في الخمستاشر يوم. أهو دلوقت الواحد أصبح عنده أمل، دي بركة العيد".

وثالث: "شيء أحسن من لا شيء".

وقال الولد الغريب: "إيه رأيك" حظك عال.

جايالك علاوة ٥ مليمات أهوه. مش قلنالك الريس حيجيب علاوة للعمال.. أهي جت العلاوة يا عم".

قلت: "علاوة إيه؟ أنتم ما شفتوش العيال اللي ماتوا؟ زمان أمهاتهم بيلطموا.. أنا عايز أسيب العنبر ده، المكن بتاعه بيموت العيال. الواحد يروح عنبر النسيج أحسن، المكن فيه صغير ومحدش مات فيه، كمان الأجر هناك أحسن من الغزل. الواحد أجره خمسة وعشرين مليم.. خمسة تعريفة.. ولما أم الواحد تقول له: أنت بتشتغل فين – يقول: أنا بشتغل في النسيج، بعمل القماش اللي انتم بتلبسوه الواحد يشتغل في حاجة مفيدة.

هو الغزل ده حد بيلبسه؟".

وردّ الولد الغريب:

- ما هو من غير الغزل ما يبقاش فيه قماش.
- أنا عارف. بس مكن النسيج ما فيش حد بيموت فيه أنا كرهت عنبر الغزل. لازم نشوف عنبر تاني.
- طيب لمّا تيجي بعد العيد أهه فاضل خمسة أيام على العيد، وحنقبض ونروّح ومش عارفين أمك حترضى تخليك تيجي معانا والاّ لأ. زمان أمك داخت عليك.

زمانهم فكروا إنك غرقت في البحر وعلموا عليك محزنة.. أحنا مالناش دعــوة. أنت اللي جيت لوحدك.

وسرحت لحظة أفكر في أمي. وكانت وردية الليل قد انتهت ونحن متأهبون للخروج من المصنع. قال الولد الغريب:

- وردية الليل خلصت، وما عدناش حنّام عَ البحر.

من بكرة حنشتغل بالنهار من ٧ صباحًا حتى ٨ مساءً.

١٣ ساعة في اليوم آهو يدوب الواحد يصحى من النوم ويروح الشغل وما يجــيش إلا نص الليل. بعد ما يأكل يدوب ينام.

- واحنا رايحين ننام إزاي في الحر ده؟

- نعمل أيه؟ لازم نستحمل ما احنا غلابة معناش فلوس. مش كتّر خير الراجل ده اللي بينيّمنا في الفرن ببلاش. آهم يومين فاضلين ونروّح ولما نيجي بعد العيد نشوف لنا سكن.

وكنّا قد وصلنا إلى الفرن، فوجدنا ناسكا كثيرين. اللي بيخبز واللي بيعجن، واللي بيشيل عيش ويحمّل على عربيّة، وناس كتير داخلين وطالعين: اللي بيشتري عــيش واللـــي معــاهم صواني وصاجات فيها كحك عشان العيد. واستقبلنا صاحب الفرن قائلاً:

- أنتم جيتوا؟ كنتم فين من زمان؟
- كنَّا بنشتغل بالليل وننام تحت شجرة الصفصاف على البحر مــن الــصبح لحــد المغرب. خلصنا وردية الليل ورايحين نشتغل بالنهار، وجايين عشان ننام هنا على الفرن.
- أهلاً وسهلاً. أنتم عارفين الحته اللي انتم بتناموا فيها. ياللا على هناك. أوعى حد يجي ناحيتكم من الناس اللي بتنام هنا من الشيالين والشحاتين، وإذا حد جه كلمكم ابقوا تعالوا قولوا لي.

ودخلنا على الفرن فوجدنا ناسًا كثيرة، معظمهم بملابس ممزقة، وبجوار بعضهم زلــط من النوع الكبير. ولم تكن هذه المناظر غريبة بالنسبة لي. فقد سبق لي أن رأيت مثــل هــذه المناظر في بلدان والبلاد المجاورة. رأيتهم وهم يحملون الزلط نصف عراة ويخبطون به على صدورهم قائلين: عشا الغلابة عليك يا رب وكنت أسير خلفهم عندما كانوا يأتون للشحاتة فــي بلدنا. وكنت أسرق العيش من أمي وأعطيهم. مثل هذه المناظر لم تكن غريبة. ولكن الــشيء الغريب الذي أحزنني وأبكاني هو أنني لم أكن أتصور ولا أتخيل أنني سوف أنام مثــل هــذه النومة: مرة على البحر، ومرة على الفرن.. دونما سبب. ودارت بي الدنيا، وحزنــت، وازداد

حزني كلما نظرت إلى الذين ينامون خلفي وبجانبهم أدوات الشقاء التي يكسبون بهـا قـوتهم اليومي. وتساءلت: لماذا لا يعملون معنا في المصنع؟ ولم أقدر أن أوجه إليهم هـذا الـسؤال فنمت. صحوت على صوت الولد الغريب وهو يقول:

"ياللا ياللا.. احنا حنقبض النهاردة.. ما فيش شغل، ما فيش شغل، فيه أجازة العيد".

وذهبنا إلى المصنع فوجدت آلاف العمال في انتظار صرف الأجور، فجريت وسط هذا الحشد الهائل أسأل عن عمال الغزل. وبصعوبة، تمكنت من الوصـول إلـى المكـان الـذي يتجمعون فيه انتظارًا للرئيس الذي ذهب لإحضار النقود.

وقفت معهم ناظرًا إلى ما حولي من حشود هائلة متجمعة في حلقات: حلقـات لعمـال الغزل. وأخرى للنسيج، وثالثة للسحب، ورابعة للكـرد، وخامـسة للبـرم، وسادسـة لعنبـر التنظيف.. الكل متجمع في حوش كبير كان هو بداية العمل في المصنع، معدّ لاستقبال العمال الجدد الذين لا سكان لهم. وهو الآن ملعب للكرة.

وبدافع المعرفة رحت أتجول بينها.. وكانت الهمسات الدائرة:

"همّ رايحين يجيبو لنا الفلوس إمتى؟"

"همّ رايحين يموتونا من الجوع؟".

"إحنا حنقبض العلاوة وإلا لأ؟".

"همّ رايحين يحسبوا العلاوة من أول المدة والا من أول ما قريناهـا فـي المنـشور؟" همسات.. وهمسات، وأسئلة حائرة.. وآخرون يقولون: "علاوة إيه يا عم؟ الحمد لله اللي احنـا رايحين نروح بالسلامة لأخواتنا وأولادنا، دي عاملة زي المستشفى، الداخل مفقود والخـارج مولود".

"آدي أحنا جبنا مصاريف العيد".

ومن بعيد، رأى العمال الرؤساء وهم يحملون أكياس النقود قادمين في اتجـاههم، ولـم يتمالك العمال أنفسهم من الفرحة. وبدأ كل رئيس يأخذ مكانه وسط عماله. وقبل بدء الصرف، طلب الرؤساء من العمال الهدوء والوقوف صفوفًا كل وراء الآخر.

وبدأ الزحام في الصفوف، واختل النظام أكثر من مرة، وحدثت تشابكات بالأيدي. الكل مستعجل، الكل عايز يقبض ويروّح.

وازدادت الاشتباكات مرة أخرى. وتدخل الخفراء بالعصي وكثيرًا مـا هـدد الرؤسـاء بالتوقف عن الصرف ما لم يُحفظ النظام.

وانتهزت حالة الهرج والمرج وتمكنت من الوقوف في الصفوف الأولى بعد جهد شاق، وبعد أن أصابتني عصى كثيرة على ظهري. وبعد لحظة كنت أمام المختص بصرف الأجر ومددت يدي فناولني مبلغ بريزتين "٢٠ قرش" وثلاثة قروش صاغ، قيمة عمل ١٥ يومًا. لم أصدق نفسي ووقفت أمام الرجل في ذهول. ولم أنتبه إلاّ على صوت الرئيس وهو يقول: "إوع حد ياخذ منك الفلوس.. طبق إيدك عليهم كويس.. إوع حد يسرقك".

انصرفت.. وكلما سرت خطوة فتحت يدي للتأكد من أني أملك كل هذه النقود. أول مرة أحصل على هذا القدر من النقود كأجر على عمل أديته.

خرجت من باب المصنع في اتجاه الفرن في انتظار الولد "الغريب" والولد "السيد الصفطي". وبعد فترة جاء الاثنان. وجلسنا نفكر. وكانت الفرحة بادية على وجوهنا.. أنها أول مرة نشعر بأننا حنروّح وحنعيّد.. ودفع كل منّا ١٥ قرشًا لصاحب الفرن، كنا قد أخذناها منه طوال تلك المدة التي قضيناها. وتبقى مع كل واحد ٨ قروش صاغ. ولمّا حسبناكم سيبقى مع كل منّا لو سافرنا بالقطار، ودفعنا ٣ قروش صاغ، قررنا أن نروّح من المحلة إلى طنطا سيرًا على الأقدام، موفرين بذلك ثمن التذكرة لتتبقى معنا مصاريف العيد..

عودة الغائب

في النصف الثاني من الليل، وتحت ضوء القمر واصلنا السير. وكانت الرياح البـاردة منعشة محببة، والسماء الزرقاء الصافية تنبئ بطلوع الفجر، والبهجة تملأ قلوبنا وتتزايد كلمـا قطعنا شوطًا أكبر من الطريق الطويل، إلى أن وصلنا طنطا مع شروق الشمس.

ذهب الولد الغريب إلى أخيه العامل في بلدية طنطا. وذهب الولد "السيد الصفطي" إلـى أبيه الجنايني في بيت مدير المديرية. ومضيت وحدي، في استياء، متجولاً من شارع لـشارع وسط زحام الذين أتوا من القرى المجاورة لشراء احتياجات العيد. الشوارع ملآنـة عربـات محملة بندق ولوز. وأخرى بطاطس وقوطة، وقفف ملآنة كرنب، وطشوط ملآنة سمنة، وناس تبيع وناس تشتري، وعربات أخرى ملآنة مناديل حريمي ومناديل رجالي، وصنادل وأحذيـة للأطفال.

وصلت إلى شارع كفر حصان الذي يوصلني إلى الطريق لبلدتنا كنت سائرًا أتأمل فـي الوجوه التي تقابلني ولم أشعر إلا وأيدي ناعمة تقبض عليّ وتمسكني من ملابسي التي طمست الزيوت زهوتها، وهي تقول: "ضبطناك أنت كنت فين يا واد؟ الدنيا داخت عليك تعال".

كانت أيدي البت "رتيبة"، صديقة أختي، وشعرت برعشة هزت كياني.. وتذكرت كل ما كنت قد نسيته تذكرت أنني تركت باب منزلنا مفتوحًا وهربت.. ودارت بي الدنيا.. وخفت من المصير وجلست بجانبها، فاطمأنت وإذا بها تنادي: "يا بت يا زينب، يا بت "يا فاطمة"، الولـد فكري ابن أمك السيدة البنَّايةَ أهه، أنا لقيته" فازداد خوفي فنتشت ملابسي من يدها وجريت.

كان كل شيء بالنسبة لي محيّرًا. كيف سأقابل أمي بعد هروبي وتركي الباب مفتوحًـا وهل يمكنني ألا أعود إلى البيت؟ وأين أذهب؟ كان الأمر بالنسبة لي غامضًا وغريبًا وتذكرت الخرزانة التي أعطتها لي أمّي عندما طلبت مني أن أحرس البيت وأمنع الفراخ من الخـروج للشارع. وقلت لنفسي: "لمّ لا أذهب لأخذ الخرزانة من الغيط. النهاردة وقفة العيد، وما فـيش حد في الغيط. الكل مشغول أمّي بتطبخ، وأختي زمانها جنب الخياطة وسرت في اتجاه الغـيط متجنبًا الشوارع التي من المحتمل أن يكون بها ناس من بلدنا خوفًا من القبض عليّ، وأخْـذي إلى أمّي، وأنا في طريقي إلى الغيط رأيت بعض النسوة يحملن على رءوسهن مـا اشـترينه للعيد، ويسرن أمامي إلى قريتنا، سرت بعيدًا عنهن بخطوات لأتجنبهن واستمريت في طريقهن يتحدثن عن العيد، وعن هدوم العيال اللي عند الخياطة، وأنا على بعد خطوات منهن، متطلعًـا إلى الغيط، متمنيًا أن أصل وآخذ الخرزانة وإذا بي أجد – على البعد – أختي آتية من البلد في

طريقها إلى الغيط وأمامها حمارنا محملاً بنقلة من السَّبخ. ولشدّ ما كانت دهشتي عندما رأيت أختي تلبس ملابس سوداء، الشيء الذي لم أكن أتوقعه. أختي صغيرة، ولم تتعود أن تسير بملابس سوداء، والنهاردة وقفة العيد، وكل الناس تشتري حاجات العيد، والعيال جنب الخياطة. أختي ليه لابسة ملابس سوداء؟ وليه معصَّبة رأسها بطرحة سوداء؟ ماذا حدث؟ ودارت بي الظنون والهواجس، هل مات أحد؟ ومن هو؟ هل البهايم سرقت؟

لم يطل بي التفكير، فأختي تقترب، وملامحها تبرز، وتتمتم بكلام غير مسموع، ووقفت تحت شجرة التوت، وإذا بي أجد النسوة اللاتي كنت ماشيًا خلفهن يقلن بصوت واحد: "يا بت يا خسيكية يا بت.. إحنا لقينا أخوكي، إحنا شفناه عند وابور الجبانة، كان واقف عند وابور الطحين".

لم تنتظر أختي بقية الكلام. قلبت نقلة السباخ في نفس المكان وصاحت بجنون وكأنها فقدت عقلها: "فين؟.. فين؟" وأطلقت العنان للحمار، وركبت فوقه، وهي تقول: "آه يا خويا.." وحاولت أن أخفي نفسي تحت شجرة التوت. وأحسست بعدو الحمار نحوي مسرعًا، فتخيلت أن أختي قد رأتني، فجريت كالريح وسط الأرض الشراقي مطرح الغلة.، لم تكن أختي تتوقع أن تراني، فكانت مفاجأة. ولم تعرفني إلاّ من ملابسي وأطلقت العنان للحمار يجري ورائي في قلب الشراقي، وهي تزعق: "يا خويا.. يا واد يا فكري... يا واد تعال لأختك... آه يا خويا، ما تخافش يا واد" ولم تستطع اللحاق بي لولا أن تعثر قدمي وسط شق من شقوق الأرض، فانكفيت على وجهي، وسال دمي.

واصلت أختي صراخها: "آه يا خويا.. آه يا خويا.. قوم لأختك يا وله" وانكفت عليّ وهي تبكي قائلة: "قوم يا وله.. قوم يا وله" ورفعتني من على الأرض، ماسحة وجهي بشاشتها السوداء قائلة: "بص في وش أختك يا وله.. أنت كنت فين؟ بوس أختك يا وله بوس.. آه يا خويا.. كل الناس النهاردة بتعمل كحك، وإحنا ما عملناش عشانك. النهاردة الوقفة، وكل الناس بتطبخ وفرحانة وأمك بتفحت في الزريبة وبتشيلني سباخ، كل ده عشانك.. آه يا خويا، كل العيال جنب الخياطين عشان يأخذوا هدومهم وأمك ما جابتليش، كل ده علشانك" وراحت قالعة الطرحة السودة من على رأسها، وهدت الشدة اللي كانت مشدودة بها، وضمتني في حضنها في حنان وهي تقول: "قوم يا واد أركب قدامي.. آهو دلوقت بس إحنا حانعيّد". أحسست بمعنى العيد عندما وصلت إلى البيت، إلى أحضان أمّي.

وحكيت لأمي كل ما حدث لي طوال تلك الفترة. حكيت لها عن نومي تحت شجرة الصفصاف على البحر، وعن نومي على الفرن فترة أخرى. وعن المصنع، وعن المكن وطلبت من أمّي أن أعود للعمل في المصنع، وكنت واثقًا من أنها ستوافق ولكنها لم تفعل،

وقالت لي بغضب: "إزاي تبعد عني تاني؟ وأنا ما نمتش طول ما كانت غايب، كنَّا حزانى من غيرك" وبكت أمي. ولكني ألححت عليها. وأمام إلحاحي. وتدخل كثير من أقاربي، قبلت أمي، وبدأت تعد لي احتياجات السفر وحضرت بعض المأكولات لآخذها معي. وأعطتني بعض النقود بالاشتراك مع أم "الولد الغريب" والولد "السيد الصفطي" أجرة للحجرة التي سنسكن فيها خوفًا علينا من النوم تحت شجرة الصفصاف أو على الفرن.

وفي يوم السفر، خرجت أمي مع عدد من أقاربي ومع إخوتي لتوديعي.. وطوال الطريق كانت أميّ تبكي وتقول: "إيه اللي زانقنا على الغربة دي.. اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين".

وعلى المحطة، وسط زحام المسافرين، دخل القطار، فركبت، طللت من الشباك على أميّ وأخواتي، وكان "الولد الغريب" والولد "السيد الصفطي" بجانبي، وأمي تقول: "خلي بالكم من نفسكم... أوعوا تروحوا ناحية البحر.. إلهي ترجعوا لنا تاني بالسلامة" وفجأة زعق الباجور على السفر فبكت أمي وقالت: "أنت حاتيجي لنا بعد كام يوم؟".

وسار القطار ببطء، وأمي وأخواتي يجرين خلف القطار، ويشاورن ويلوّحن بأيديهم ولم تستطع أمي ملاحقة القطار، واختفت عن الأنظار.

بيت عبد المعطي

كان أول عمل عملناه بعد وصولنا إلى المحلة هو البحث عن حجرة للسكن. ولم يكن هذا سهلاً من كثرة الزحام وتحكم أصحاب المنازل. وبعد جهاد شاق تمكنا من الحصول على حجرة بمنزل عبد المعطي. وبدأت أشعر بالراحة والطمأنينة. وعندما فرشت حصيرتي بالحجرة أحسست باسترخاء، ونعست من كثرة التعب، ولم أصحُ إلاّ على صوت صاحبة المنزل وهي تقول: "الساعة بقت سنة، أغسلوا وشكم يا ولاد واستعدوا للمصنع".

وفي طريقي إلى دورة المياه وجدت نفسي وسط ثلاث حجرات في كل منها أكثر من ٢٠ ساكن، وكلهم في حالة استعداد: اللي بيطلع عيش من القفة ويلفه في منديله لأخذه للغداء في الشغل، واللي واضح أمامه رغيف وفوقه قطعة من المخلل أو الجبنة وعمال ياكل، واللي ماسك مسلّة ملضوم فيها دوبارة وبيخيط على العيش في القفة خوفاً من الضياع أو السرقة. وكانت الساعة قد بلغت السادس والنصف صباحًا، فأخذت منديلي تحت باطي، وبه ثلاثة أرغفة وقطعة من الجبن، هي غداي وفطاري. وخرجت من الحجرة، وإذْ بي أجد نفسي وسط هذا العدد الضخم من سكان الغرف المجاورة ووجدنا أنفسنا نتكلم ونحن في الطريق إلى المصنع. فسألت أحد العمال:

- أنت منين؟
- من طاطاي.
- وأنت؟
- من كوم النور.
- وأنت؟
- من تلا.
- بتشتغل فين؟
- في المصنع.
- ما نا عارف.. فين يعني؟
- عتّال.
- عتّال إيه؟

- ما انتش عارف عتال إيه؟
- لا.
- عتال يعني أشيل قطن على عربية من عنبر التنظيف وأوديه عنبر السحب.
- بتاخذ كام في اليوم؟
- قرشين صاغ بعد العلاوة الأخيرة.
- وأنت بتشتغل فين؟
- في الشلل.
- وأنت؟
- في النسيج.
- بتاخد كام.
- خمسة تعريفة في اليوم.
- أنتم كلكم من بلد واحدة؟
- لأ.
- أمال إيه اللي خلاّكم تسكنوا مع بعض؟
- مفيش... اللي خلانا نسكن مع بعض هو إن الواحد ما يقدرش يأجر أودة لواحده، ولا اثنين ولا تلاتة.. الأجر ما يكفيش، وعشان كده أصحاب البيوت بيسكنوا بالراس، اللي عندها حتة أودة بتحاول تملاها وتحشرها عشان تاخد فلوس أكتر. كل واحد عاوز يسكن بيمشي ويسأل اللي عندها مكان فاضي يسكن فيه.. فتطلع صاحبة البيت، ويتفق معاها، ويخش، وأهه، أدي احنا بنتعرف على بعض.
- كام أنتم؟
- إحنا عشرين في كل أوده.

***

وصلنا إلى المصنع، ودخل كل منّا عنبره بعد غياب استمر أكثر من أسبوع قضيناه في البلد، فوجدنا المكن مليئًا بالزغبار، وكان أول شيء عملناه هو مسحه. وبدأت الموتورات تدور، وتحركت السيور معلنة، بدء يوم العمل، وأخذ كل منّا مكانه. وبدأ العمال الأكثر مرانًا يضعون أيديهم على الفرامل، وفي بطء شديد تحركت الأيادي نحو تحويل السيور من على

البطّال إلى العمّال من أجل حماية الخيوط من التقطيع. وكان هذا مــن مــستلزمات تحويــل الفرملة ببطء.

وبدأ عمال التقليع يستعدون لجمع الصناديق المليئة بالمواسير الفارغة ووضعها بجــوار المكن استعدادًا لتركيبها بدلاً من المواسير التي مُلئت.

وعمال آخرون يوصلونها إلى عنبر اللحمة الذي يوصلها بدوره إلى عنبر النسيج.

وكان العمل يسير بحماس وخاصة في الساعة الأولى من النهار. والمباشرون في حركة دائمة خلف العمال يكرهونهم على العمل تارة، ويضربونهم تارة أخرى، محاولين بذلك إرضاء رؤسائهم الكبار.

ورويدًا رويدًا يبدأ الحماس يفتر، وخاصة بعد الثالثة ظهرًا، بعد أن كان التعب قد نــال منهم. فالكثير يجلس على الأرض، وآخرون يتساندون على الحائط، والبعض يهرب من العمل ويزوغ في عنابر أخرى منتظرين مرور الكاتب الذي يقيد لهم يــومهم. والحركــة الــسريعة تبطئ، والكسل يضرب أطنابه كلما أحس العمال بالتعب والإرهاق وأحسوا بطول يوم العمــل. حتى المباشرين أنفسهم كانوا ينتهزون فرصة غياب رؤسائهم الكبار ويزوغون بــين دواليــب الملابس، معطين الحق لأنفسهم دون خوف، والعمال يراقبونهم، فإذا بدعوا يتحركون للمــرور على المكن أعطوا لبعضهم الإشارات تفاديًا لأي أذى.

وكثيرًا ما كان الحديث حول الأجور يجري بين العمال.

العامل الذي تمرّن يرى أنه صاحب حق في علاوة أكثر. والعامل الذي في حاجة إلــى تمرين يرى أيضًا أنه صاحب حق في علاوة وأن أجره لا يكفيه. وتزداد الأحاديث شدة:

"ياللا يا عم، هوّ حد عارف حاجة، اللي بيشتغل زي اللي ما بيشتغلش".

"اللي واقف طول النهار على المكنة زي اللي طول النهار هربان. دول ما بيجــوش إلاّ وقت الكاتب ما ييجي. دا الواحد إن ما كنش خايف من ربنا كل يزوغ هوّ كمان وما يشتغلش".

"الواحد ما بيصدق إن النهار يخلص ويروّح".

"دا الواحد على بال ما بيروّح ما بيعرفش يستنى صاحبه خمس دقائق وينام من التعب".

"طول النهار الواحد واقف على رجليه من الصبح لحد بعد العشاء من الساعة ٧ الصبح لحد الساعة ٨ بالليل... والواحد رايح يموت.. دا ما كنش كده في البلد، دا في البلد لما كــان الواحد بيشتغل من الصبح لحد الضهر كان بينام أو يستريح، أما هنا فما فيش راحة.".

قاربت الساعة الثامنة مساءً، وهو موعد انتهاء وردية النهار. وإذا بالولد الغريب والولد السيد الصفطْي يمسكان بيدي ويقولان: "تعال لما نتشطف علشان الوردية بدأت تخلص. أنــت

هامك نفسك ليه أوي كدة في الشغل؟ هم رايحين يدوك نشان؟ د احنا طول النهار عمالين نلف في المصنع نتفرج على النسيج وعلى المكن اللي بيبيض القماش وبيعمل فيه نقش زي الشيت اللي بتلبسه العرايس في البلد. وأتفرجنا على الديزل اللي بيشغل المصنع كله بالكهرباء، وعلى عنبر الزوي اللي مليان مية والعمال فيه واقفين لابسين خيش. طول النهار عمالين نتفرج على كل حاجة وأنت واقف مرشوق على المكنة ما بتتحركش".

قلت: "أنا عايز أتعلم تدوير المكنة، واركب البكر المليان وأشيل البكر الفاضي والمكنة شغالة نرى العيال اللي اتعلموا علشان المباشرين ما يشغلونيش كل ساعة على مكنة. أنا عايز أتمرن كويس عشان أقف على مكنة على طول وأسيب الشغلة المهببة دي، شغلة عامل التقليع".

قال الولد الغريب: "هي دي شغلة؟ دا الواحد ما بيخشش العنبر ده إلاّ وهو ماسك قلبه بإيده. دا المكنة عاملة زي الداهية، دا الواحد خايف ييجي ناحيتها دي كل يوم بتموت واحد. هوّ احنا بنهرب من شوية. إيه اللي زانقنا على الشغل؟ ما أحنا نيجي ونقبض زينا زيّ اللي واقف طول النهار بيشغل".

قلت: "طول النهار بسمع كلام زي ده. يعني لو كل واحد ساب المكنة وهرب، مين اللي حا يدوّرها؟ ما هم رايحين يدوروا علينا ويجيبونا".

قال الولد الغريب: "يا عم، دا كل يوم العربيات بتحول عيال ورجال من كل البلاد، هي رايحة تيجي علينا؟ أحنا عايزين نشوف شغلة غير دي. إحنا عايزين نشتغل في النسيج أحسن، هناك نأخد أجرة أحسن ونبعد عن المكن اللي بيموت كل يوم عيّل".

وتساءلت في نفسي: "لماذا لا أتجاوب معهم في البحث عن عمل أحسن طالما هذا في الإمكان؟" واقتنعت بالفكرة. وكان عليّ أن أبحث من جانبي.

كنّا قد وصلنا إلى المنزل منهوكي القوى من طول يوم العمل. وأخذت طبقا، وذهبت لشراء فول بخمسة مليمات لثلاثتنا. ولم أتباطأ في الطريق. ولما عدت دهشت عندما وجدت الاثنين غارقين في النوم تاركين باب الحجرة مفتوحًا، فحاولت إيقاظهما، فاستيقظا بعد جهد شاق. وعندما وضعت الأكل بيننا غالبهما النعاس من جديد، وتشابكت جفونهما وهما جالسان ورأساهما تهتزان. وكلما قطعا لقمة محاولين وضعها في الطبق كانت تأتي خارج الطبق على الأرض من شدة النعاس، وناما دون أن يكملا عشاءهما، فأغلقت الحجرة، وأخذت مكاني بجانبها ونعست بعد أن غطيتهما.

وفي الصباح، توجهت إلى العمل كالعادة. كنت أنتظر مجيء الكاتب بفارغ الصبر لاحتساب يوم العمل في الغزل لأذهب إلى العنابر الأخرى، وبخاصة إلى عنبر النسيج لأبحث عن عمل آخر.

لم يطل انتظاري، فقد حضر الكاتب مبكرًا، وبعد أن قيدت اسمي ذهبت إلى عنبر النسيج.

عالم المكن

وجدت كل ما في عنبر النسيج مختلفًا. المكن أصغر من مكن الغزل، والعمال أكبر سنًا، والحركة فيه مختلفة. المكنة تدور وبها ذراعان كل منهما يحدف المكوك للآخر بسرعة لا تراها العين، والعمال في حركة، منهم من يقف أمام المكنة بغير المكوك كلما فرغت ماسورة اللحمة، وآخر يقف وراء المكنة يسلك الخيوط، وعمال آخرون يدفعون أمامهم عربات محملة بلوحات مليئة بمواسير اللحمة ويسيرون بها بين المكن لأخذ اللوحات الفارغة ووضع لوحات مليئة بالمواسير محلها. ودفعني حب المعرفة للاقتراب من المكنة. وسألت أحد العمال الواقفين بجانبها، وقلت:

- أنا عايز أشتغل في النسيج.
- روح واتكلم مع الريس.

ذهبت إلى الريس، وكان يمر بين المكن، وتحدثت معه شارحًا رغبتي في العمل في النسيج: فقال لي:

- أنت سنك صغير.
- بكرة أكبر.
- لما تكبر أبقى تعال وأنا أشغلك.
- أصل أبويا ميت، وأنا عايز اشتغل في النسيج لأن أجره أحسن، وأنا عايز أساعد أمّي.

فنظر لي الريس نظرة تأمل، وأخذني من يدي وقال: "طيب تعال" وشاور لأحد العمال وقال: "خد الولد ده علمه إزاي يدوّر المكنة".

وذهبت مع العامل والفرحة تملأ قلبي. ولمّا اقتربت من المكنة، انتابني الفزع والخوف. كان كل شيء بالنسبة لي جديدًا. كل شيء في المكنة يتحرك. خيوط ملفوفة على "مطوة" مثل الخيوط الملفوفة على بكرة الخيط، ولكن على شكل أكبر، وكل فتلة من تلك الخيوط ملفوفة في سلك في "تبرة"، وبهذا السلك عين مثل عين الأبرة، ومركبة على مكن كله من حديد. وشد ما كان يدهشني أن المكنة كل ما فيها يتحرك بمجرد أن يعشق العامل الفرملة ويحول السير من على البطّال إلى العمّال: تروس تتحرك في لف القماش، وذراعان يحدفان المكوك من درج إلى درج، وخيوط تهتز كلما تحرك الدرج.. إلى درج، وخيوط تهتز كلما تحرك الدرج..

ونظرت إلى كل الأشياء التي لم أرها من قبل، وانتابني الفزع. وابتعدت عـن المكنـة واضعًا طرف جلبابي بين أسناني، وتلفّت حولي، فوجدت بعض العمال ينظـرون لـي وهـم يبتسمون.

اقترب مني أحدهم وقال لي: "أنت خايف؟ أحنا كنا زيك كده أول ما جينا من البلد وأنت كويس اللي وقفت شوية. دا حنا أول ما جينا من البلد وشفنا المكن دورنا الجري علـى بـرة. وجربوا ورانا عشان يجيبونا.. ما هي حاجات ما شفناهاش، أحنا ما شـفناش غيـر الفـاس والنورج والمحرات، دي حاجات جديدة علينا... طول بالك، بكرة تتعلم.

أنت منين؟".

- أنا من كفر الحما مركز طنطا.
- يعني احنا بلديات.
- وأنت منين؟
- من الجعفرية مركز طنطا. تعال لما أوريك المكنة تدور إزاي. إمسك الفرملة دي بإيديك الاثنين، واستجمع كل قوتك وزقها مرة واحدة ولا تتركهاش إلا لما تعشّق.

فعلت كما قال لي، وكل ما في جسدي يرتجف. ولما نجحت في تعشيق الفرملة، بـدأت الرهبة تزول لتحل محلها الطمأنينة. ثمّ علمني كيف أوقف المكنة في حالة قطع فتلة أو أكثـر، وعلمني كيفية ترجيع القماش وفك التروس. وكلما تعلمت شيئًا زاد إيماني بإمكان تعلم الكثيـر مما لا أعرف. كذلك بدأ يعلمني كيف أخذ الفتلة في النبرة وتركيبها في المشط. وكـان هـذا أصعب شيء بالنسبة لي في بداية العمل في النسيج. وبقيت طول اليوم واقفًـا علـى المكنـة بجانب العامل الذي كلفه الريس بتعليمي.

ولما حضر الكاتب أبلغه العامل أن يضع اسمي في الكشف بناءً على تعليمات الـريس. وقف الكاتب مندهشاً وهو ينظر إليّ في ذهول: "مش معقول... دانت قصير، وما انتش طايل تجيب الماسورة من على اللوحة". ورفض أن يضع أسمي في الكشف. وتشبثت به، كما تشبث به العامل الذي كان يعلمني، وقلنا في نفس واحد: "الريّس هو اللي قال كده" فقال" "كيب، تعال معاي للريس".

ونحن في الطريق إلى الريّس كنت في منتهى الخوف من أن الريس قـد يـسمع كـلام الكاتب. وعند الريس، وقف الكاتب يحدثه عن صغر سنّي وعن عدم قـدرتي علـى العمـل. ووقفت وأنا شابب على ضوافري لأزداد طولاً أمامهم. وبعد أن فرغ الكاتب من الكلام، شاور لي الريس وقال: "خلي بالك كويس، اوع تتعور على مهلك وأنت بتتعلم، أوع المكوك ينط في

وشك يخزق عينك. أدي أحنا كتبناك في الكشف. ومن اليوم محسوب لــك اليوميــة خمــسة تعريفة".

تركتهم وأنا لا أتمالك نفسي من الفرحة وفي الطريق إلى المكنة، حدثت نفسي: "بكــره أمي تعرف أني اشتغلت في النسيج، وتفرح لما تعرف إن أجري زاد". وعندما وصــلت إلــى المكنة، شدّ على إيدي العامل وقال:

- كويِّس أنت عملت إيه؟
- وقفت على ضوافري وشبيت.
- أنا كنت شايفك وأنا هنا، دا الكاتب ده أصله واطي مالوش شغلة غير قطع أرزاق الناس.
- وأمك أصلها داعية لك.. يالله، أنا عايزك تاخد بالك كويس. أنت عرفت المكنــة، تبقى تيجي كل يوم هنا. إوع تتوه. أحنا بلديات، ومن مديرية واحدة، وأنا عــايزك تتعلم، أنا حاعلمك كويس.

وكان اليوم قد انتهى. وفي الطريق، سرت شارد الذهن أفكر في المستقبل وأمني نفــسي بالأحلام. أجري زاد، وحاقبض كويس، وأجيب مقطع حرير وجزمة كويــسة وأمــشي مــع الرجالة، وألبس طربوش، وأحط ريحة وأنا مروّح. ودخلت الأوضة ولم أشعر بطول الطريق من كثرة التفكير فوجدتها مظلمة. وأشعلت عود كبريت وأضأتها، وجلست في انتظــار الولــد الغريب والولد السيد الصفطي. وانتظرت، وطال انتظاري، وبــدأ القلــق ينتــابني عليهمــا، وتصورت أنهما قد ماتا. وخرجت من الغرفة وأغلقتها خلفي. وخرجت إلى الشارع أتطلع في وجه كل من يقابلني. وبجانب أحد المنازل، وقفت من كثرة التعــب، مــستندًا إلــى الحــائط، وعيناي مرغرغة بالدموع. وعلى البعد لمحتهما يسيران وأيديهما متشابكة، وهما في طريقهما إلى المنزل. وجريت نحوهما زاعقًا: "يا واد يا غريب، يا واد يا سيدي" فوقفا يتلفتان حولهما، وإذا بهما يريانني أحتضنهما. ووقفنا لحظة صامتين، والدموع تتساقط من عيوننا. وتــشابكت أيدينا في الطريق إلى المنزل، وقال الولد الغريب: "أنت كنت فين؟ أحنا طول النهار بنــدوّر عليك، لفّينا عليك المصنع، ما خلناش حتة إلاّ ودورنا عليك فيها، أصل النهاردة فيه ولد جــه جديد من البلد، وما يعرفش حاجة خالص. واقف كده وبص للسير بتاع المكنــة لقــاه بيهتــز ويتطوح، فراح ماسك السير بإيديه بغشومية، فراح لافعه على فوق، وانحشر في السقف، والدم غرق المكنة، والعيال اتلمت وهم يصرخون ويقولون هوه.. هوه بصوت عال. وجاء الرؤساء ونزّلوا الولد ميت، وكرشونا من جنبه. ولكن أحنا شفناهم من بين المكن وهمّــه بيلفــوه فــي الخيش بتاع الشولة. والعيال ملت جرادل مية وغسلوا الأرض من الدم. وشالوه، ما نعــرفش

ودوه فين. ومن ساعتها وإحنا بندور لحد دلوقت عليك. كنا خايفين أحسن تكون مت.. والعيال طول النهار مرعوبة، وما كانوش عايزين يقربوا نواحي المكن، والمباشرين نازلين فيهم ضرب يا خدوهم بالعافية ويوقفوهم على المكن، ويقولون لهم: أوع حد ييجي ناحية السير.. كل واحد يحزم هدومه عشان السير ما يشبكش فيها.. طول النهار عمالين ندور عليك.. بيضربوا في العيال والعيال بتعيط لما بقت عينهم زي الدم.. أنت كنت فين امّال؟".

قلت:

- أنا رحت اشتغلت في النسيج، وانكتبت في الكشف.
- اشتغلت في النسيج واللا كنت هربان هناك.
- أنا اشتغلت في النسيج، وانكتبت في الكشف، وانحسبتلي اليومية خمسة تعريفة، وبعدت عن المكن اللي بيموت كل يوم عيّل.

قال، والاهتمام باديًا على وجهه:

- اشتغلت إزاي؟

فحكيت له إزاي اشتغلت في النسيج. فقال:

- يجب أن تأخذنا معاك عشان نبعد احنا كمان عن المكن ده، وأجرنا يزيد. مش احنا من بلد واحدة. زي ما شغلناك الأول معانا شغلنا؟
- طيب بكرة تعالوا معايا وأنا أكلم لكم الريس عشان يشغلكم.

وفي الصباح، توجهنا إلى العمل. وفي الطريق، التقيت بالآلاف المؤلفة وهي تسير بخطوت حزينة مؤلمة نحو عالم يجهلون أسراره وخباياه. عالم المكن الذي لم يروه إلاّ وهو يقطع في أجسادهم. عالم لم يروه ولم يسمعوا عنه من قبل. واستطعت، وأنا أسير معهم على نفس الطريق، أن المح في وجوههم من خلال نظراتهم الحادة الإصرار على كشف هذا العالم. وفي وسط هذا الحشد، إذا بيد توضع على كتفي، وكانت هي يد العامل النساج الذي كلفه الريس بتعليمي. وشد على يدي مرحبًا.

دخلنا العنبر. وعلى المكنة وقف يحدثني عن أهمية أخد بالي كلما دورت المكنة أو أوقفتها، كما حذرني من وضع يدي على أي قطعة من قطع المكنة وهي دايرة. وقال:

- اللي بيموت هنا مالوش دية.
- هوّ فيه ناس في العنبر ده بتموت؟
- – طبعًا.
- إزاي؟

- المكوك لو نط وجِه في عين واحد راح يخزقها، ولو نط وجِه في صرصور ودنه راح يموت، ولو واحد غلط وحط إيده بين التروس تقطعها. كل شيء هنا ممكن يموّت. عمر الواحد هنا على كف عفريت. الواحد بيمشي ويتلفت حواليه.
- أنا سبت عنبر الغزل علشان بيموّت عيال كتير.
- هوّ الواحد له في نفسه حاجة؟ إذا كان ربنا أمر بالموت هنا حنموت، وإن ما أمرش مش حيموت حتى لو انحط في النار. ما تشغلش بالك بالموضوع ده، وخليّ بالك كويس وأنت تتعلم.

وقفت أنظر بانتباه لكل ما في المكنة من حركة. نظرت إلى التروس وهي تتحرك في اتجاه دوران القماش، وأنظر للمكوك الذي يحركه ذراعان كل منهما في اتجاه. ولفت نظري الخيوط الملفوفة على مطوة "كما تسمى في عرف النسيج"، وهذه الخيوط تسمى السّداه. وكان عدد الفتل يزيد أو ينقص حسب عرض القماش، ولا يقل بأي حال عن أربعة آلاف فتلة، وكل فتلة في نبرة وموضوعة في المشط. كان عليّ أن أعرف كل ما في المكنة، وأعرف كل العيوب التي يمكن أن تحدث أثناء العمل، ومحاولة علاجها. وكان وقوفي خلف المكنة يعطيني الفرصة للتطلع إلى أيدي العمال وهي تتحرك بسرعة، ترفع المكوك من المكنة بعد أن تفرغ ماسورة اللحمة وتركب غيرها بحركة خفيفة مدهشة، واليد الأخرى موضوعة على فرملة المكنة استعدادًا لتدويرها بعد أن تنتهي عملية وضع المكوك في الدرج. وكل هذا لا يستغرق أكثر من ثوان.

وأثناء وقوفي هكذا، إذا بالولد الغريب والولد السيد الصفطي يحضران، ويشاوران لي من بعيد، فذهبت إليهما، وأخذتهما إلى الريِّس، وتحدثت معه في أمر تشغيلهما معي فقال: لا، دول صغيرين. أنا شغلتك بس عشان أصلك يتيم وأبوك ميت".

- أصلهم من بلدنا، وأحنا ساكنين مع بعض في أوده، وبنمشي في السكة سوا عشان نتونّس.

فسكت الريّس لحظة، وشاور لأحد العمال وقال:

خد دول علمهم.

ووجه كلامه لي قائلاً:

- ما عدتش تجيب لي حد تاني من العيال الصغيرين دول. هوّ احنا حنقرد، أنا شغلتهم بس عشان خاطر أنكم رايحين تمشوا سوا ياللا روح على الشغل، وخلي بالك وعلى المكنة، قال العامل:

- همّ دول من بلدكم؟ دول عيال صغيرين. أنتم من بلد واحدة؟
- أيوه، أحنا التلاتة من بلد واحدة وساكنين مع بعض.
- دا أنتم عال قوي، يا بختكم، أنتم مرتاحين مع بعض، وبتسكنوا الأودة وتأخدوا مفتاحها معاكم. دا الواحد منا كل يوم بيروح يلاقي العيش رايح من قفته. كل ليلة الناس بتتخانق مع بعض، وبننام نومة زي الزفت.
- كنّا الأول ننام على البحر. أول ما روّحنا البلد وأمهاتنا سمعوا، زعلوا خالص، وأدونا فلوس عشان نأجر أودة ونشوف احنا حننفع والا ما ننفعش.
- – لا، حتنفعوا. شد حيلك واتجدعن وخلي بالك. أنت لسّة لحد دلوقت ما انتش عارف تلضم المكوك. لازم تخلي بالك مني وأنا باشتغل. بص لكل حركة باعملها وأعمل زيّى. خلي عينك على القماش، لما تشوف فتلة تقطع أو "تلخبط" أو "تشيف"، تروح موقف المكنة على طول.
- وأنا حعرف إزاي؟

قال:

- بص.. القماش ده نظيف؟
- أيوه.
- خلاص. إذا لقيت حاجة وحشة بتشوه القماش تروح موقف المكنة على طول. لازم عينيك تبقى على القماش، وتبقى إيدك رايحة جاية عليه تحسس عشان تعرف إن كان في القماش عيب.
- هوّ الواحد يفضل واقف وعنيه على القماش على طول؟
- أيوه.
- دا الواحد عينيه تتعمي.
- الشغل عايز كده. حنعمل إيه؟
- يا نهار أبيض. اسمع، أنت اتعلمت إزاي؟
- اتعلمت زي ما أنا بعلمك كده.
- لكن إيدك سريعة قوي في الشغل زي اللهلوبة، مين اللي علمك؟
- واحد من المحلة، من البلد دي. أصل البلد دي كلها صنايعية، عمال بيشتغلوا على الحرير، وعلى النول البلدي. أمال هم جابوا المصنع هنا ليه؟ علشان البلد دي فيها

نسيج من زمان. ناس متعلمين. عشان كده جابوا المصنع في المحلة، عشان يلاقوا ناس يعلموا اللي زي حالاتنا. أول ما جينا لقينا عمال من المحلة هم اللي بيعلمونا لحد دلوقت. هم اللي عاملين أسطوات علينا دلوقت.

- ومن اللي بيلضم الفتل دي كلها في النير؟
- فيه عنبر بحاله اسمه عنبر "اللقي".
- ودول أجرهم أد إيه؟
- المصنع لحد دلوقت مش عاوز يقولوهم على الأجر.
- أمال بيقبضوا إزاي؟
- بيعطوهم سلفة على المدة على أساس أربعة صاغ في اليوم.
- بس؟
- أيوه، ما هم عندهم أمل ياخدوا أجر أكثر، ما هم كل يوم والتاني يلموا بعض ويروحوا للريس يطلبوا إنهم يحددوا لهم أجرهم، وكل يوم يقول لهم النهاردة.. بكرة – لحد دلوقت ما عملهمش حاجة. وأهو المصنع كل يوم يلم ناس من كل البلاد وإحنا نعلمهم. عمال المحلة علمونا، وإحنا بنعلم غيرنا.
- طيب، لما فتل كتيرة تتقطع، بتعمل إيه؟ تعرف تاخدها؟
- لأ. لسه أيدي ما خدش. لسه أيدي تقيلة. ولكن لما فتل تتقطع ويصعب علينا أخدها نجيب واحد من بتوع اللقى ياخدها، وده من العمال اللي المصنع بيديهم أربعه صاغ في اليوم، العمال المتعلمين.

وطال الحديث واستمر. وإذا بالمكنة تتوقف.

واستمر الحديث بيننا ونحن نغير المكوك، وغفلنا عن إخراج المكوك من الدرج الآخر. ودورنا المكنة، فاصطدم المكوكان معًا وسط رقعة القماش، فاهتزت المكنة، وانقلب المشط، وانكسر المكوك وقطع كثيرًا من الفتل.

وقفنا نتطلع مدهوشين. وقال العامل:

- شايف... آدي احنا سُهى علينا نطّلع المكوك، والمكنة عطلت.
- طيب، حانعمل إيه؟
- مش ممكن نقول نسينا المكوك.
- ليه؟

- يضربونا.
- أمال حنقول إيه؟
- لازم نشوف حاجة نعملها عشان الريس ما يضربناش.. اسمع.. احنا نطلع المواكيك ونركب المشط، ونقطع الجلدة بتاع الدراع.. ولما يسألونا: إيه اللي جرى؟ نقول: الجلدة انقطعت.

لازم نعمل كده، وإلا يموتونا من الضرب.

لم نضيع الوقت. طلعنا المواكيك، وقطعنا جلدة الدراع. وذهب هو لإحضار عامل اللقي..

الأسطى المحلاوي

بعد قليل، حضر عامل يلبس جلابية من الحرير الإفرنجـي، ومربـي شـعره كريـه ومسرحه على ناحية، ومشمر كمامه، وفي أيده الشمال ساعة فيها حاجة بتلمع ومركب سـنان دهب ممكن تشوفها كلما تكلم، وعينه زرقة زي عيون القطط، ووجهه أبـيض زي الـشمع، وقال:

- إيه اللي عمل كده؟
- جلدة الدراع انقطعت.

فوقف ينظر إلينا والشرر يتطاير من عينيه. ولم يكن يبدو عليه الاقتناع.. وبعد لحظـة، حضر آخر، ووقف الاثنان يتحدثان بصوت مسموع.

- حا نعمل إيه؟ رايحين نستنى كده لحد امتى لازم نشوف لنا حل.
- كل يوم الحالة بتغلي، وأهالينا قالبين دماغنا وبيقولوا لازم تـشوفولكم حـل مـع الرؤساء، إن ما جابوش زيادة، سيبوا الشغل وتعالوا اشتغلوا في النول تاني.
- الواحد يا أخي يخش البيت يلاقيه مليان ناس زي النمل، ترش الملح ما ينـزلش: ناس لابسة لبد، وناس لابسة طواقي، وناس حافية وعمالين يهرسوا فـي البيـت رايحين جايين زي البهايم. أمي وإخواتي زي المساجين طول النهار فـي الأودة، كلما أرادوا الذهاب لدورة المياه يلاقوها مليانة ناس ما بتخلصش، وكلما تحـدثت أمي مع صاحبة البيت حول سكن هؤلاء العزّاب تقولها: سيبوا البيت وامشوا..
- أنت عارف أصحاب البيوت بتعمل ليه كده؟ عشان مصلحتهم. دول بيسكنوا فـي كل أودة خمسة وعشرين وتلاتين، بيناموا زي السردين، همّ دول ناس؟
- أهل البلد طلع دينهم وبيشتكوا وبيقولوا كل حاجة غالية، والسبب جيوش الحـوش اللي جايين من كل البلاد.
- الرؤساء لازم يقولوا لنا إذا كانوا حيدونا زيادة والا لأ. إحنا لازم نعرف مصيرنا.
- همّ ليه لحد دلوقت مش عايزين يحددوا أجرنا؟
- مش عارف. يمكن عايزين يضحكوا علينا لما نعلمّ ناس كتير... أمال إيه سـبب المطوحة دي؟

وكلما تطلع الاثنان إلى العمال الواقفين حولهم بملابسهم الزرقاء وأقدامهم الحافية تطاير الشرر من عيونهم. وكانوا يعتبرونهم مصدر شقائهم وتعاستهم.

وطول هذه الفترة كنت أتطلع إلى أيديهم وهي تعمل ببطء في ترتيب الفتل في "السماسم" ولضمها في "النيرة" دون حماس. وقلت لزميلي الواقف بجانبي.

- لماذا يتهجمون على العمال هكذا ويشتمونهم؟

- يعتبروننا غزاة لمدينتهم كل يوم نسمع شتايم من عائلاتهم في البيوت.. "يـا ولاد الكلب يا شركاوية.. غليتوا علينا المش. غليتوا علينا السكن.. الله يلعن أبو المصنع ويوم ماجه هنا.. دي سنة سودة علينا..." شتايم من عيالهم ونسوانهم كل يوم وإحنا رايحين دورة المية.

- أنت شفت أمهات هؤلاء؟

- أيوه شفتهم.

- همّ حلوين وعيونهم زي عيون القطط كده؟

- طبعًا حلوين... لازم يكونوا حلوين، دول أصلهم من البندر، طول النهار في الضلّ يغسلوا وشهم بيجي ثلاث مرات في اليوم. طول النهار بيلبطوا في الميةّ أما أحنا مش كده.. احنا فلاحين، طول النهار في الغيط. في الشمس، طول عمرنا – من نهار ما اتخلقنا واحنا في الشمس. نضم الغلّة في شهر بؤونة في عزّ الحر.. وإحنا كناّ طول النهار بنمشي في خط القطن ونجمع في عزّ الحر، عشان كده الشمس لفحت وشنا. إحنا بنشتغل في الأرض ونجيب لهم كل حاجة وهمّ قاعدين على ط... في البندر. ليه ما يكونوش حلوين؟ لكن حنعمل إيه كان يتحدث بهدوء وبآهات مكتومة عندما قال:

- إنهم يحتقروننا.. ونسمع كل يوم شتائمهم لنا ولأهلنا. هذا الاحتقار السافر لنا لا يمكن السكوت عليه. دا الواحد في البلد لما كان حد يشتمه كانت تروح فيها رقاب ناس ما بتختشيش. ويسلطوا علينا العيال يحدفونا بالطوب في الأودة، العيال الصغيرة بتجرّ شكلنا، وبنسمعهم يقولوا: غليتوا علينا المش يا ولاد الـ... مش إيه اللي احنا غليناه؟ الواحد مش عارف.. كل ليلة نسمع العيال الصغيرين يشتمونا ويمشوا ورانا يزفونا.. فلاحين النبي أهم.. لحد ما يوصلونا البيت. حنعمل إيه؟ حنتخانق هنا في الغربة دي؟ إحنا جينا هنا عشان نأكل عيش.. النسوان همّ اللي بيسلطوا العيال. الواحد لما يخش البيت يلاقي نسوان مترصصين جنب بعض، وكل واحدة قدامها حاجة كده معمولة من البوص بيقولوا عليها "دولاب" ويركبوا

عليه شلة خيط. ويمسكوا طرف الشلة ويحطوه على حتى ماسورة – يا دوب قد صباح الواحد. وتلف شلة خيط. ويمسكوا طرف الشلة ويحطوه على حتة ماسورة – يا دوب قد صباح الواحد. وتلف شلة الخيط على مواسير عشان يشغلوا بيها النول اليدوي.. البيوت كلها مليانة أنوال بيشتغلوا عليها المقاطع الحرير والملايات. طول النهار عمالين يكركروا، ومن الفجر بيشتغلوا، قلقوا منامنا وما حدش يقدر يتكلم معاهم.

والحديث مستمر.. وعقارب الساعة تقترب من الثانية عشر ظهرًا.

ساعة الغذاء

توقفت عقارب الساعة على الثانية عشر ظهرًا. وقفت الموتورات واحدًا بعد الآخر بعد أن انقطعت عنها الكهرباء. وضجيج الآلات يخفت والسيور تبدأ في التوقف ويسود الهدوء رويدًا رويدًا. هدوء كامل بعد أن توقفت كافة الآلات عن العمل. وبدأ العمال يخرجون من العنابر، كل يحمل منديلاً مربوطًا على عيش أحضروه للغذاء. ونحن في الطريق إلى الخارج قال لي العامل:

- أنت معاك عيش؟
- أيوه.
- كام رغيف؟
- ثلاثة.
- راح تاكل فين؟
- في أي حتة.
- طيب تعال معايا لمّا نشوف حتتين مخلل ولاّ حاجة من برّه ونشوف لنا حتة نأكل فيها.

وخرجنا من باب عنبر النسيج إلى الطرقة العمومية الموصلة إلى كافة العنابر الأخرى، وإذا بي أجد نفسي وسط حشود ضخمة من كل العنابر لم يكن بينها مكان لقدم..

آلاف من العمال والموظفين خرجوا للغذاء في وقت واحد، وأمامهم ساعة واحدة فقط.. الكل مستعجل يريد أن يشتري ما يلزمه ويأكل قبل فوات الساعة.

سرت وسط تلك الحشود وزميلي يمسك بيدي، وكاد نفسي يختنق من شدة الزحام... وكلما تطلعت إلى أعلى أحاول أخذ نَفَسي رأيت كثيرًا من الوجوه مصفرّة وزغبار القطن يغطي الشعر ورموش العيون.. ورأيت وجوهًا وأيدي كثيرة ملطخة بالسواد. وكنت أستطيع أن أميز هذا من ذاك: هذا من عمال الورش.. وهذا من عمال الحدادة.. وذاك من عمال التنظيف أو السحب أو الكرد..

وبعد جهد شاق وصلنا إلى باب المصنع. ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت عددًا من عمال الورش الذين يعلو السواد أيديهم يقفون أمام الباب ويشترون القوطة والبدنجان المخلل ويفترشون الأرض سريعًا ويأكلون دون أن يغسلوا أيديهم. اقتربت منهم واندفعت نحوهم وقلت: البدنجان والقوطة اتلطخت من أيديكم.. قالوا: ما إحنا عارفين.. هوه فيه وقت للغسيل؟ عبال ما نغسل تكون الساعة خلصت.. إحنا عيال ما طلعنا من جوه لحد هنا خدنا أكثر من نصف الساعة.. احنا لازم ناكل كده ونخلص بسرعة وربنا يستر.. أكل العيش عايز كده.. إن لقينا الميّه مش حنلاقي الصابون.. يا عمّ، إيش رماك عَ المُر – قال الأمرّ منّه!!

واشترينا نحن أيضًا بذنجانة بمليم وفجل بمليم وفرشنا على الأرض بجوار وابور الحلاجة، وجلسنا نأكل بسرعة خوفًا من ضياع الوقت. وبعد أن انتهينا من الأكل، سرنا في الاتجاه إلى العنبر محاولين أن نتفادى زحام العمال، ولكن دون جدوى. وجدنا أنفسنا وسط الآلاف المتجهة نحو العنابر والكل يتنفس بصعوبة.. الجو حار والعرق يتصبب على الموجوه.. كل واحد يدفع الآخرين ليجد مكانًا لقدمه، وصرخات تنبعث من الصفوف المتراصّة المتجهة ببطء نحو العنابر... "دست على جلابيتي قطعتها لي..".

"ما تحاسبوا يا ناس.. الأجر ما يجيبش جلابية.."

"دست ع البلغة.. هو انتو ما بتشوفوش؟.. ما تبصوا تحت رجليكم..

ولكن الصرخات تضيع وسط الزحام ولا أحد ينتبه إليها.

" يا هوه.. يا هوه.. رايحين تموتونا.. يا لطيف..".

"أحنا زي ما نكون رايحين على جهنم..".

"إيه العالم ي كلهم.. ده ولا يوم القيامة.. ولا يوم الحشر!!"

وكلما وصل عمال إلى عنابرهم كنا نراهم وهم يعصرون ملابسهم ووجوههم مزروده.. وتمنيت أن أصل إلى عنبر النسيج كما وصل الآخرون.

عندما وصلت إلى العنبر: لم أستطع البقاء واقفًا على قدميّ فجلست على الأرض منهك القوى ونفسي مقطوع. وأخذني بعض العمال إلى دورة المياه ووضعوا رأسي تحت الحنفية، فشعرت بعروقي تنتفض والحياة تعود لي. وذهبت إلى المكنة فوجدت زميلي العامل واقفًا يغير لها المواكيك. وعندما رآني قال:

- أنت رحت فين؟
- رحت فين!!.. دي حاجة تتوّه.. أنت عاوز الواحد يمشي وسط الحشود دي ولا يتوهش؟! دا أنا كنت راح أموت.. على أي الحالات، من بكرة الواحد منّا يجيب

معاه الغموس من الصبح.. ولمّا المكن يقف الضهر نبقى نقعد في الطرقة ونأكل جنب العنبر ونتقادى الزحام وناخد فرصة للراحة.

واستمر الحديث بيننا، وقال:

- خلّى بالك كويس. خليّ بالك من الشغل، أحسن بكرة يا خدوك يوقفوك على مكنة ويجيبولك عمال جداد عشان تعلمهم. أنت شايف العمال الليل كل يوم بيجيبوهم، دول عايزين يعلموا عدد عدد كبير منهم، دول بيبنوا عنابر جديدة وبيركبوا فيها مكن جديد، ولما ويخصلوا من التركيب ياخدوا كل العمال اللي اتعلموا عشان يوقفوهم عَ المكن ويبقى عندهم باستمرار عمال متعلمين عشان المكن ما يقفش من غير شغل.. دول بيعملوا توسعات للنسيج وبيعملوا عنابر للغزل وعنابر للسحب وعنابر للبرم، والمصنع راح يتوسع. أنا عايزك تشد حيلك وتتعلم عشان ما يقولوش علينا خايبانين، إحنا عايزينهم يقولوا علينا إننا ناس بنفهم.

ومنذ تلك اللحظة وأنا أكثر اهتمامًا بكل ما يدور حولي وخاصة لضم الفتلة في النبرة وأخذها في المشط. وكنت أسأل عن الأسباب التي كثيرًا ما تقطع الفتِل لمحاولة تلافي هذه الأسباب. وكنت كثيرًا ما ألف وراء المكنة وأقطع العُقد الطويلة من السداء لكي لا تتسبب في قطع الفتل. وهذا ما كان يشير به عليّ العامل الذي كان يعلمني. وكلما حدث في المكنة عطل وجاء احد الأسطوات لتصليحها كنت أتطلع بها ما يقوم به من الأعمال باهتمام شديد. كنت أرى كيف يغير التروس كلما تغير نوع الأقمشة. كما تمكنت من معرفة كيف يقلّل الحدفة أو يزيدها كلما كان ذلك لازمًا للحفاظ على سير المواكيك في الدرج بشكل أكثر انتظامًا. كنت أنظر إليه كلما حرّك المفتاح وفك صامولة وركّب غيرها. وكان لانتباهي أثر كبير في مجرى حياتي في مهنة النسيج. وكان العمال الذين إلى جواري يلاحظون ذلك. وشد العامل الذي يعلمني على يدي وقال: أهو كده، إحنا عاوزينهم يقولوا علينا إن أحنا عرفنا نتعلّم ونعلّم وبدل ما يقولوا علينا الفلاحين دول زي البهايم ما بيفهموش نثبت لهم إن إحنا بنفهم.

وسالني: أنت بتروح البلد كل كام يوم؟

- كل ١٥ يوما، يعني كل قبضية أروّح أجيب من البلد زوّادة آكل فيها المدة اللي بعدها.

- طيب يوم الحد اللي ما بتروّحش فيه بتروح فيه؟

- مسجونين في الأوده أنا والواد الغريب والواد السيد الصفطي.

- طيب ما تيجوا تزورونا يوم الحد اللي جاي في الأودة بتاعتنا.

- فين؟
- في عزبة أبو جحشة، هنا جنب المصنع.
- هوّ أنت ساكن لوحدك.
- لا.. أنا ساكن مع عشرين واحد من بلاد مختلفة.
- وبتعلموا إيه؟
- ولا حاجة، حنعمل إيه؟ كل واحد عايش لوحده، ياكل وقت ما هو عايز ويشتري الحاجة اللي ف نفسه.. مفيش حد له سلطان على حدّ. مفيش حاجة بتجمعنا إلا النوم بس. كل واحد عارف القفة بتاعته.. قفة العيش.. كلما جاء لأحد ضيف يطلّع عيش من قفته وياكلوا مع بعض.. لازم تيجي لزيارتنا.

إحنا بلديات ولازم نعرف بعض هنا. اللي يحصل له حاجة التاني يشيله. كانت الساعة تقترب من الثامنة، ويواصل العامل حديثه قائلاً:

- الواحد ما بينامش طول الليل. دا فيه ناس ساكنين معانًا بيشتغلوا في عنبر التضيف بيجوا كل يوم وملابسهم مليئة بالقطن.. طول الليل يكحوا كحة ناشفة، وكثيرًا ما يقومون بالليل يستنطقوا.. الواحد منهم طول الوقت بيتف زغبار.
- وبتعملوا إيه يوم الحد في الأوده؟
- حنعمل إيه؟ كل واحد عنده جلابية وسخة يروح عَ البحر يغسلها. تصور، بنغسلها من غير صابون، نغسلها بالطين وننشرها ونستناها لما تنشف. القمل عشش في الهدوم. كل واحد بالليل يخلع هدومه قطعة بعد أخرى ويقرقش القمل بأسنانه.. يقرقش بين الخياطة وبعضها.. حنعمل إيه؟! عشرين واحد في الأوده!! القمل بيزحف في كل حتة والبراغيت ماليه الأوده طول الليل تتنطط على وشنا.. دا فيه ناس في الأوده جسمها اتقطع من الهرش، حنعمل إيه؟

وكل واحد ما عندوش غير الجلابية والقميص الدمور واللباس لابسهم طول الليل والنهار، في النوم وفي الشغل عرقان فيهم. دي عيشة زي الزفت. دا الواحد خايف يجربّ في وسط الناس دول.

والحديث مستمر، وإذا بأصوات تنبعث من كل مكان في العنبر. أصوات تغطي على ضجيج المكن وزئير السيور، حتى خيل إليّ أن المكن يتزحزح من أماكنه. كانت تلك أصوات عمال وردية النهار المعبرة عن الفرحة بانتهاء يوم العمل. واسترسل العامل في حديثه:

- شايف العمال فرحانين أد إيه.. فرحانين بانتهاء اليوم.. الواحد من بعد الساعة ٣ بعد الظهر يبقى واقف على المكنة يشيل رجل ويحط رجل زي الحمار التعبان.. اتناشر ساعة الواحد واقفهم على رجليه لازم يتهدّ حيله من الوقفة. الواحد يا دوب يصحى الصبح ويغسل وشه، ويعقد الرغيفين في المنديل اللي رايح يأكلهم ويطلع من البيت والشمس يدوب بتطلع تصور ندخل المصنع والشمس بتطلع، ونروّح ما نلاقيش حدّ صاحي.. نروحّ نص الليل، وطول الوقت ده واقفين على رجلينا، والواحد بيبقى ماشي يجرجر فِ رجليه، وما بيصدق إنه يروّح وينام، وفْ ليالي كتير الواحد بينام من غير عشا.

ولم يتوقف عن الكلام إلاّ بعد أن حضر عامل الليل الذي تسلّم المكنة

وبعد انتهاء عملية التسليم أخذني من يدي وقال: أوعى تنسى الكلام اللي أحنا قلناه. لازم تيجي تزورنا يوم الحد.. أنت عرفت العنوان. وشدّ على يدي قائلاً: أنا في انتظارك، أنا مش طالع من البيت إلاّ لما تيجي. وانصرف.

وفي الطريق إلى المنزل كانت الشوارع مزدحمة بالعمال وهم يسيرون بخطى بطيئة، والتعب باد على الوجوه. وسرت، أنا والولد الغريب والواد السيد الصفطي وسط الزحام، ونحن نتلفت إلى وجوه بعضنا دون أن نتكلم لأن الواد السيد الصفطي كان يبدو عليه الإعياء الشديد.. وفي الأوده قلت للولد الغريب: العامل اللي بيعلمني طالب منّا إن احنا نزوره يوم الحد، تيجي معايا؟ فوافق، كما وافق أيضًا الولد السيد الصفطي.

يوم الإجازة

في الصباح توجهنا إلى عزبة أبو جحش، وكانت هذه أول مرة نذهب فيها إلى هناك منذ أن جئنا إلى المحلة. وكانت دهشتنا كبيرة عندما وجدنا أن كثيرًا من بيوت هذه العزبة مبنيـــة بالطين وأبوابها من الصفيح الصدئ، وأشكال البيوت والعشش متشابهة لا تستطيع أن تميز بين بيت وآخر أو بين عشة وأخرى. وبعد جهد شاق، عثرنا على بيت العامل في إحدى العُطــف وعند دخولنا وجدناه في انتظارنا. وفي المنزل وجدنا أكثر من حجرة مليئة بالسكان. والقفــف مترصصة على جنب متجاورة بعضها مع بعض، وكل واحد قفته معروفة.

أخذنا العامل على حجرته. وعند دخولنا استقبلتنا أسراب البراغيت تنتطط على رجلينـــا ولاحظ العامل هذا فوجه كلامه إلينا قائلاً: معلهش يا إخواننا البراغيت مالية العزبة. ونظرنـــا إلى جدران الأودة فوجدناها ملطخة بدماء البق، ورائحة العفن تنبعث مـــن كـــل مكـــان فـــي أرجائها. ومن أركان الحجرة تخرج الخنافس من الحجور.. ومال عليّ الولد السيد الـــصفطي قائلاً: ياللا بينا أنا قرفان، أنا هطرش، أنا نفسي قايمة عليّ. والولد الغريب يقرص فـــيّ هـــو الآخر. ونظر العامل الذي نحن في ضيافته إليّ قائلاً: إحنا رايحين نتغدى سوا. أنا اشـــتريت رنجة وحاشويها وندش بصلة ناشفة ونأكلها، حنعمل إيه؟ على أد حالنا. فقلنا نحن الثلاثة فـــي نفس واحد لأ.. لأ ولكنه ألح علينا أن نبقى، فبقينا على مضض وقام هو يشوي الرنجة، وعاد بعد قليل.

وعندما نظرنا إلى القفف المترصصة إلى جوار بعضها رأينا صراصير كثيرة تنتقل من قفة إلى أخرى.. وخاصة عندما وضع يده في قفته ليخرج منها عيشا ليضعه أمامنا. ولم نقبـــل نحن على الأكل مع أننا كنا جعانين بسبب ما كان يحيطنا من روائح. وأدرك العامل هذا فقال: معلهش الأودة زي الزفت ما فيش حد مهتم بنظافتها. واللي قاعد شهر مش قاعد التـــاني، مـــا فيش حالة استقرار. وأصحاب البيوت زي ما أنت شايفهم. ما همش عـــايزين يبيـــضوا لنـــا الأوده. شوف الأوده كلها مفحرة ازاي والخنافس عملتها جحور، والصراصير عشـــشت فـــي القفف. والبراغيت ماليه الأودة وكل يوم والتاني ترد وجوه جديدة وإذا حد منا أتكلم، صـــاحبة البيت تكرشه. أصلهم بيسكنوا بالرأس، وعشان كده ما فيش حد قلبه ع النظافة. تصور، كـــل البيوت اللي اتعملت دي، اتبنت من يوم المصنع ده ما اتعمل بس عملوها بالطريقة دي عشان يكسبوا. ما هي ناس بتيجي كل يوم وتمر ع البيوت وتقول إحنا عايزين ســـكن عـــشان كـــده

بيتأمروا علينا. هيّ دي بيوت؟ دي معمولة بجواليص الطين، ما فيش فيها ولا طوبة والسكن كله زي ما أنت شايف معمول بالصفيح، حتى مافيش شبابيك، والشمس ما بتدخلش الأوده. ياللا، ياللا نتمشي برّه يحسن الواحد حيطرش اللقمة اللي كلها ياللا نشم شوية هوا ع البحر. فيه حته اسمها الشون، عندها مراكب كتيرة مليانة قصب. تعالوا لما نشتري كل واحد بنكلة ونقعد عَ البحر جنب المراكب ونمص القصب.

ولم نمانع نحن، فقد كنا في ضيق وقرف شديد.

ونحن في الطريق إلى البحر قلت للعامل:

- فين العمال اللي قلت لي إنهم لا ينامون طوال الليل من الكحة ويقلقون منامكم.
فسكت لحظة، ثم قال:

- أظن أنك تقصد العمال الذين يعملون في عنابر الكرد والتنضيف.

- أنا لم أرهم، ولكنك أنت الذي حدثتني عنهم ونحن نعمل أمس على المكنة، وأفضت في الحديث عنهم لدرجة أنني أصبحت مشتاقًا لرؤياهم. حدثتني عن صدورهم المليئة بالأتربة والزغبار.

أنت لسه فاكر؟

- إنهم لم يفارقوا خيالي مع أني لم أرهم. أنا عشت بالأمس وأمام عيني العديد من الصور، صور الرجال الذين أراهم يوميًا يسيرون وسط الآلاف الخارجة كل يوم من المصنع أنا لم أكن أميز بين هذا وذاك، وكنت أعتقد أن الكل يعمل ويتسخ، ولم أكن أظن أن الأتربة والزغبار تحشد الصدور. إن حديثك معي نبهني لما لم أكن أعرفه.. ولهذا أردت أن أراهم، وخاصة بعد أن قلت لي أنهم يسكنون معك في الأوده. ومنذ أن دخلت حجرتك وأنا أتطلع يمينا ويسارًا باحثًا عنهم. وكنت أتخيل أنهم ينامون في أحد الأركان، فلم تقع عيناي على أحد. أين هم؟

فتلفت حوله وقال:

- إنهم ذهبوا إلى المستشفى.

- مستشفى؟ مستشفى إيه؟

- ما انتش عارف مستشفى إيه؟ المستشفى الأميري اللي عَ البحر. دا طول الليل عمالين يكحوا كحة ناشفة وصدورهم عمالة تعلى وتوطي.. كانوا بيشخروا.. زي ما يكونوا جريوا تلاتين مشوار.. دا أحنا طول الليل سهرانين عليهم. وما كناش قادرين نبص في وشهم.. كان وشهم مزنهر، وحب عينهم كان حينط، والعروق

في دماغتهم كانت نافرة زي الخيار، وما هديوش واستريحوا إلا قرب الفجر، وما راحوش المستشفى إلا بعد أن تحايلنا عليهم.

وطمناهم من الخوف. وأهم راحوا من طلعة النهار ولسه لحد دلوقت ما حدش منهم جه، وما حناش عارفين عملوا إيه.

فقال الولد السيد الصفطي:

- ما تيالله بينا نتفسح في سكة المستشفى يمكن يقابلونا في السكة، وإن ما قابلوناش آدي إحنا نواصل لحد هناك ونشوفهم في المستشفى وادي إحنا ينوبنا ثواب.

فرد العامل قائلاً:

- إن الذي عاقني عن الذهاب معهم هو أنني كنت في انتظاركم. إن الله لا يخلف الميعاد. وكنت متوقعًا أن تأتوا مبكرين، ولهذا أثرت البقاء محافظة مني على الميعاد.

إنها أول مرة تأتون فيها إلى حجرتي. وكل السكان، بما فيهم المرضى، يعرفون ذلك، يعرفون أني انتظر ضيوفًا من بلدي. وكثيرون منهم ذهبوا إلى البحر لغسل ملابسهم وزمانهم في انتظارنا عند مراكب القصب عند الشون. تعالوا الأول نشتري عود قصب ونمشي نمصه في السكة.

فقالت:

- بالطريقة دي أحنا نتأخر. إحنا عايزين نروح بدري، يمكن يقابلونا في السكة ونأخذهم معانا ونروح نمص قصب على الشوَن.

- أصل فيه ناس من سكان أودتنا في انتظارنا هناك. نروح لهم الأول.

ونحن في الطريق، ومن على بعد، وقبل أن نصل، رأينا أشرعة المراكب تعلو سطح المنازل وهي معبأة بالهواء ومن أعلى السارية رفعت قطع حمراء مشيرة إلى نشاط الريح.

وكلما اقتربنا من البحر بانت المراكب وأصبحت أكثر وضوحًا، وعندما وصلنا وجدنا عالمًا يتدفق من الرجال والأطفال. وأسرعنا الخطى للحاق بهم، والكل متجه نحو المراكب. ورويدًا رويدًا وجدنا أنفسنا نسير وسط تلك الحشود. وتشابكت أيدينا خوفًا من أن نتوه. الأطفال يسيرون بملابسهم المخططة، وكثير منهم حافي الأقدام، ورءوسهم عارية. والرجال ذوو الشوارب المفتولة يسيرون بملابسهم البلدية التي تغلب عليها الألوان الغامقة، وفي أيديهم عصيّ من الشوم الطويل، المسمى بالشمروخ، وعلى رءوسهم اللبد السمراء والحمراء والبيضاء، المعروفة بالنكلتي.

كنت أشعر، ونحن نسير بخطانا البطيئة، أننا نمشي في فرح في الريف. وعلى البحــر، وعلى طول الشاطئ الممتد يسير الناس في انتظار أن ترسوا المراكب. البحر زاخر، والميــاه تغزو الشواطئ، والأمواج تسير واحدة وراء الأخرى. المراكب تأتي بطيئة تعاكسها الريــاح.. الموجة تمشي وراء الموجة والعيون تتطلع بانتباه لكل ما يدور في البحــر. وعلــى كــوبري الشون وقفنا نحن نتطلع إلى المراكب وهي ترسو على الشاطئ والناس تتجمع من حولها. وفي ثوان. كانت المراكب فارغة من حمولتها وبدأ عملية الشراء. وقال زميلي العامل: ياللا بينــا عشان نلحق نشتري بدري.

وبجوار المراكب التقينا بسكان حجرته الذين طال انتظارهم لنا وبدأت السلامات وقــال أحدهم:

أنتم من بلد عبد العظيم؟

- نعم
- أنا لم يسعدني الحظ بالالتقاء بكم في حجرتنا، أنتم عارفين طبعًا أننا فــي غربــة، وما أحناش من هنا، وما فيش حد يغسل لنا هدومنا. تصوروا الهدوم لسه ناشــفة دلوقتي. الواحد من الصبح طالع دينه في غسيلهم، واهم نضفوا شوية أحسن مــن الأول. واللا إيه يا عبد العظيم؟

فتمتم بكلام، وهزّ رأسه موافقًا. وقال آخر:

- إحنا مستنيين إيه؟ يالــله بينا نشتري القصب قبل ما يخلص الكويس.

وقال عبد العظيم:

- مش أحسن نشتري لبشة على بعضها؟

وافق الجميع. وأخرج كل منهم محفظته من جيب الصديري، محفظة مرصعة بالكبسول الأصفر الزاهي. وأخرج كل منهم خمسة مليمات وأعطوها لعبد العظيم وقــالوا: هــذا تحــت الحساب. وعندما بدأنا نحن ندفع ما يخصنا قالوا: أنتم ضيوف عبد العظيم، وضــيوف عبــد العظيم يبقوا ضيوفنا، واللا إيه؟ عيب، ما يصحش.

وذهب عبد العظيم لشراء القصب، وبعد لحظة، حضر ومعه لبشة القصب وبها أكثر من اثني عشر عودًا. وعلى شاطئ البحر، وعلى صوت الأمواج، والنسيم الرطب، جلسنا نقــشر القصب. ونمص. وقال أحد الحاضرين موجهًا كلامه لعبد العظيم:

- الناس اللي راحوا المستشفى الصبح، ما حدش عارف عملوا إيه؟
- لحد ما كنا في البيت ما سمعناش عنهم حاجة.

وقال آخر:

- مساكين دول والله، الله يكون في عونهم ويساعدهم ويعجل بشفاهم بحق جاه النبي. الواحد عمره ما شاف كحة زيّ دي.

وقال ثالث:

- دا لا هوّ باين برد، ولا هو باين حاجة.
- لو كان عندنا باجور كنَّا عملنا لهم جنزبيل يدفي صدورهم.

فردّ عبد العظيم قائلاً:

- يعني هيّ مشكلة باجور، إحنا نقدر نجيب قوالح ونعمل راكية في الحجرة، ونعمل عليها جنزبيل ونطفش الناموس اللي طول الليل يلدع ف جتتنا.

ورد عليه آخر.

- إن لقينا القوالح ما نلاقيش البراد اللي نعمل فيه الجنزبيل، هوّ أحنا نقدر نولع في المدعوة الأودة؟ هو أنتو نسيتوا أن احنا بننام على بعض عشرين واحد زي السردين.

فردَ عبد العظيم قائلاً:

- يعني هوّ اللي يعيا في وسطنا ما نشيلوش داحنا كلنا عيش وملح مع بعض، والنبي وصىّ على سابع جار، ودول بيناموا في وسطنا كل ليلة، لازم نعمل لهم حاجة تريحهم. إحنا كلنا متغربين عن أهالينا واللي يعيا ف وسطنا لازم نشيله. لازم نريحه. إحنا بنعتبر أنفسنا زي أهاليهم. هوّ حد عارف أهاليهم عامله أيه دلوقتي؟

فردّ أحد الحاضرين:

- زمان أمهاتهم عمالة تشرق، وودانهم بتصفر، ورموش عينهم بترف.

وقال آخر:

- ما تياللا يا جماعة تشوفو لكم حاجة تانية غير الكلام ده، ما تفكروناش بأهالينا، الله يلعن الغربة اللي بتفرق بين الأم وابنها، ما بتخليش حد يعرف عن التاني حاجة.

وتكلم عبد العظيم بحزن.

- معليهش يا جماعة، إحنا رجالة وما خلقناش إلا للعمل في أي مكان، واللي مكتوب عَ الجبين لازم تشوفه العين. ما أحنا قبل ما نيجي في المحروق المصنع ده كنا بنتغرب ونقعد أسابيع بعاد عن بلادنا، مش كنّا بنروح في التفاتيش الملكية

والأبعديات بتاعة الباشوات ونلم فيها الدودة. وياما ضربونا وجريوا ورانا بالكرابيج. الله ما عاد يعودها تاني. على أية حال، هنا أحسن رغم الشقاء اللي أحنا فيه. أحسن لأن أحنا أصبحنا ضامنين عمل باستمرار الواحد أصبح ضامن يقبض قرشين على بعض ويدفعهم لأمه ولإخواته عشان يسددوا إيجار القيراطين اللي وأخدينهم من الوسية وندخل شوية الحب للعيال ياكلوهم. دا أحنا لما كنا نتأخر شوية في دفع الايجارات كل نظار الخاصة الملكية ما يكتفوش بالحجز على الحتة الجاموسة اللي حيلتنا، وإنما كانوا بيحجزوا على الشوية الحب في الغيط اللي أحنا طول السنة طافحين الدم فيهم. أهو دلوقتي فيه أمل شوية أحسن مما كنا في البلد، بس لو ما كانش المكن ابن الكلب ده بيموت الناس.. كانت تبقى عال. دا إحنا لما كنا في البلد ما كانش الواحد منا يقدر يتحصل على حتة بريزة صحيحة أبدًا. ولا حتى على نصها. والعمدة لما يكون عنده عزيق في الأرض كان بيلمنا ولا يديناش أجرة ولما كان حد من الناس يطلبنا عشان نعزق لهم الزريبة بتاعة البهايم ونطلع منها السبخ، كانوا يقولوا استنوا شوية لما نبيع كيلة درة وإلا حتتين سمنة. عشان كده عشنا في البلد وعمرنا ما شفنا فلوس مجمدة أبدًا. وما كانش ممكن. وعشان كده كنا تعبانين صحيح هي غربة، لكن أكل العيش عايز كده، والمهم ربنا يكفينا شر المرض، وكل واحد يروح لأهله بالسلامة.

فقال أحد الحاضرين:

- ما هو الحال من بعضه إيش رماك عَ المُر، قال اللي أمر منه. وهوّ لو ما كانش الاحتياج كنا أتغربنا وسيبنا بلدنا؟
- ما تسيبونا من الكلام ده بقه، ويالا نروح المستشفى نشوف الناس عملوا إيه. فرد عبد العظيم قائلاً:
- أهو كده، هي دي الشهامة.

وقال آخر:

- وبعد كده نروح فين؟
- نروح نزور الناس أصحابنا اللي ساكنين في محلة البرج، النهاردة الحد، إن لقيناهم في البيت ناخدهم معانا ونتفسح، أهو يوم نرفه فيه عن نفسنا.

وقبل أن نهم بالوقوف ونتحرك إذ بنا نرى كثيرًا من العمال والأطفال يسيرون في حلقات على طول الشاطئ وبأيديهم عيدان القصب يمصونها وهم سائرون. وعيونهم للمياه لا تفارقها. كانوا يهللون كلما رأوا الدوامات تمتزج بأمواج البحر. وكثيرًا ما كانوا يقذفون

بالورق وقشر القصب في تلك الدوامات. وكانت البسمة لا تفارق وجوه كل من يقف يتفرج على الأوراق التي تلفها الدوّامات السريعة.

وقال عبد العظيم يستعجلنا: ياللا يا جماعة نمشي عشان نلحق الناس اللي في المستشفى عملوا إيه، ويمكن نلحق نتفسح في البلد دي. دا احنا ما بنقدرش نتفسح إلا يوم الحد اللي ما بيقاش فيه قبض.

وبينما نحن نسير، التقينا بعدد آخر من العمال زملاء عبد العظيم في السكن. فسألهم عبد العظيم:

- أنتم كنتم فين؟
- كنّا في البيت.
- متى إمتى؟
- من حوالي ساعتين.
- انتم ما عرفتوش حاجة عن..

وقبل أن يكمل سؤاله أخذه أحدهم بعد أن استأذن منًا. ومال على أذنه، وهمس إليه بحديث لم نسمعه، جاء بعده عبد العظيم ممتقع الوجه وعيناه دامعتان، وكل جسده ينتفض، ولماّ سألناه عمّا حدث لم يجب. وقال باختصار: قربوا شوية، مدوا، مدوا لحسن.. وكانت الدموع تنساب على خدية فيمسحها بطرف جلبابه، وأسرعنا خلفه مخترقين شوارع المدينة.

المستشفى الأميري

في الطريق إلى المستشفى لم يقابلنا أحد.. الأراضي الشاسعة تكسوها الخضروات، وبجانبها مساحات كبيرة من القمح ذي السنابل العالية. وفي الجانب الآخر من الطريق مساحات من أرض الشيشينى مغطاة بشجر الموز.. الهدوء على طول الطريق.. لم نكن نسمع سوى تغاريد الطيور وهي على شواشي الشجر.

وأمام باب المستشفى لم نر أحدًا سوى البواب فسألناه:

- ألم يأت أحد اليوم من العمال؟
- جت ناس كتير وأخذ كل منهم الدواء اللازم وانصرف.
- ألم يحجز الطبيب أحدًا؟

فسكت لحظة وقال:

- حجز ناس من ذوي الأمراض الخطرة.
- من أي بلد؟
- من كل البلاد.
- هل حجز أحدًا من عمال المصنع؟

فهزّ رأسه وقال:

- ما هو من يوم المصنع ما اشتغل هنا والمستشفى ما هيش شغالة إلاّ على حسابه. معظم المرضى من عمال المصنع، والإسعاف كل يوم بتحوّل ناس متعورة من المكن.. أنتم بتسألوا ليه؟ أنتم لكم هنا حد مريض؟

فردّ عبد العظيم قائلاً:

- أيوه، فيه الناس اللي ساكنين معانا في الأوده، وسمعنا من ساعة أن الطبيب حاشهم، أنا اللي شرت عليهم الشورة السوده دي. دول كانوا خايفين بيجوا، واللي حسبوه أهم لقيوه، زمانهم بيدعوا علينا.

فنظر إلينا البواب وقال:

- يعني همّ يهموكم؟
- أيوه.

– طيب استريحوا جنب الشجرة دي لما الأطباء يخرجوا وأنا أدخلكم تشوفوهم.

جلسنا بجانب الشجرة ننتظر، ولم نكن نسمع سوى صفير الرياح وتساقط أوراق الشجر. الصمت يخيم على المكان. لا صوت ولا حركة. الأنظار تتطلع إلى المستشفى تتلهف على رؤية أحد بداخلها. وعبد العظيم قاعد ينتظر وأسنانه تصطك ويحدث نفسه قائلاً: "أنا المسئول، أنا السبب.. أنا اللي دفعتهم إلى هذا المكان.. أنا كان مالي، أنا لو كنت عارف أنهم رايحين يحوشوهم ما كنتش اتكلمت ولا كلمة.. يا ترى همّ عاملين إيه جوّا دلوقتي.. الدنيا ساكتة كده ليه؟ دا ما فيش حد بيتكلم.. ما فيش صوت.. هم ماتوا؟.." وإذا بعربية إسعاف تأتي مسرعة وتقف عند الباب. وانتشر الكل حولها محاولين رؤية ما فيها. وفي لمح البصر نزل منها ثلاثة رجال بملابس صفراء يتوسطها صف من الزراير الصفراء اللامعة، وعلى رءوسهم برانيط تتوسطها شارات حمراء. وفتح الباب... وإذا بداخل العربة رجل نائم على نقالة غطت الدماء وجهه، وبجانبه ثلاثة نسوة بملابس سوداء ريفية ومشدودة رءوسهم بطرح سوداء، ووجوههم ملطخة بالطين. ونزلت النسوة من العربة ووقفت تولول إلى جانبها، ونزلت النقّالة التي عليها الرجل الغارق في الدماء وسار به الرجال ذو البرانيط الحمراء إلى داخل المستشفى.. وحاولت النساء الدخول خلفه فمنعهن البواب. واستمرّ النساء في الصراخ ورفع الأتربة على الرءوس، ونحن واقفون عاجزون عن تهدئتهن لعدم المعرفة بهن. وتعالت النداءات وازداد الصراخ. وعندما نادت الأم أبنها الجريح الغارق في الدم قائلة:

"تعال لأمك يا وله، آه يا بني.." لم أتمالك منع الدموع من عيني. واسترسلت الأم تعوي قائلة: "أنا موش قلت لك ما لكش دعوة.. إيه اللي نابك؟ أنا قلت لك ما لناش دعوة.. أحنا ناس على أدّنا، لا لنا دعوة بالوفد ولا بالانتخابات. هي المية تطلع العالي؟ أهي ما جتش إلاّ في الغلابة. عملوها وما حدش وقع فيها إلاّ إحنا يا ولدي..".

لم أستطع أن أتمالك نفسي من البكاء فجلست بجانب الشجرة وأحنيت رأسي إلى الأرض محاولاً إخفاء بكائي عن الأم التي أخفى الطين وجهها. وسرحت ولم أعد واعيًا بما حولي ومرت أمام عيني صور عديدة متلاحقة. وكانت أمّي بملابسها السوداء هي الصورة البارزة. تصورت أمي وهي واقفة وعيناها تبكيان يوم أن أخذ العمدة أخي ومعه كثير من شباب قريتنا وبعث بهم إلى بلاد بعيدة لردم الجسور أيام الفيضانات. تصورتها وهي واقفة على سطح منزلنا ناكشة شعرها ويداها مرفوعتان متطلعة إلى السماء داعية على العمدة الذي أخذ ابنها الأكبر اللي بيعمل في الغيط. تصورتها وهي تقول: أربي اليتامى دول إزاي يا رب؟ إلهي يتربى عياله من بعده.. دول كوم لحم أعمل فيهم إيه يا رب بعد ما أخذ العمدة ابني الأكبر؟..

وصحوت من سرحتي على أصوات أقدام تعدو مسرعة نحو الباب، كانت هي أقدام العمال الذين كانوا معي يتجهون نحو رجال الإسعاف الثلاثة يسألونهم عن الرجال الذي حملوه إلى الداخل على النقالة، ولكنهم لم يجيبوا بأية كلمة تطمئن الباكيات. وركبوا العربة وساروا بها مسرعين.

بعد لحظة، لمحنا البواب وهو عند الباب الداخلي للمستشفى، ولوح لنا بيديه مشيرًا إلينا بالدخول. سرنا خلفه. وسألنا.

- أنتم عارفين العنبر اللي همّ موجودين فيه؟
- لأ.
- يعني أنتم حتدوخوني معاكم، ولسه الأطباء مامشيوش.. واسترسل قائلاً:
- طيب اسمعوا.. أنا رايح أخش معاكم، إذا واحد من الأطباء شافكم ابقوا قولوا احنا جايين للراجل المتعور اللي دخل دلوقتي..

فرد الواد السيد الصفطي:

- طيب وحنقول كده إزاي؟ داحنا ما نعرفوش.
- بسيطة، هو من محلة أبو علي.

فسألته:

- هو متعور من إيه؟
- العمدة سلط عليه أنصاره ضربوه بالشوم، أصله يظهر عليه من الوفد، البلد فيها دوشة.

وتلفت حوله يمينًا ويسارًا ليتأكد من أن أحدًا لم يره، واسترسل قائلاً:

- الحيطة لها ودان، اللي يتكلم كلمة ينقطع عيشه. ما فيش أمان.. ربنا يستر.. يااللا.. فهمتوا تقولوا إيه: إذا حد من الأطباء قابلكم. آهي مجازفة – يااللا..

وسار ونحن خلفه. وتلفتّ حولي ونحن نسير فلم أجد أحدًا سوانا. الهدوء يخيم على المكان. لا صوت ولا حركة سوى صفير الهواء الذي كاد أن يخرق أذنيّ. وتملكني الخوف عندما اقتربت من الداخل. وثارت أشجاني ووردت في ذهني ذكرى مؤلمة، عندما كنت أسير خلف أمي قبل شروق الشمس كل يوم جمعة لزيارة أبي في المقابر. كان كل شيء يشبه ما نحن فيه الآن. لا صوت إلاّ صوت الرياح والزوابع، والصمت يخيم على المكان كصمت القبور. ازددت فزعًا واقشعر بدني عندما وصلت إلى الباب الداخلي للمستشفى. رأيت برميلاً مليئًا بالقطن المخضب، فتحاملت على نفسي وأنا أكاد أشعر أن أحشائي ستخرج من فمي.

وفي الداخل توقفنا أمام باب مكتوب عليه" أمراض باطنية" ودخلنا. وإذا بي أجد أسـرّة على الصفين، على كل منها رجل بجلباب أبيض باهت، ورءوسهم محلوقة بالموس.. البعض ينام منكفئًا على وجهه ويداه متدليتان من جانب السرير. والبعض الآخر مضطجع ومغطى بملاءة دمّور.. الوجوه شاحبة، والعيون صفراء، وهم جميعًا يتطلعون في لهفة. لم نكن نسمع سوى آهات حزينة منبعثة من أجساد أنهكها المرض، آهات تقطع الأكباد.

وكلما تقدمنا في المسير لم تفارقنا نظرات المرضى، وكأنهم يرغبون في أن يتحدثوا إلينا ويقولوا لنا شيئًا. خرجنا من العنبر بعد أن تفحصنا وجوه المرضى. ولم نعثر على أحد من العمال الذين نعرفهم، وخرجنا نبحث في باقي العنابر. وأمام عنبر كتب على بابه "الجراحة" توقف البواب وبجانبه عبد العظيم.

قال البواب:

- تخشوا تشوفوهم هنا؟
- العنبر ده مكتوب عليه جراحة، وهمّ ما حدش فيهم متعور، دول قاموا من البيت الصبح بسلام ما فيش عندهم حاجة غير الكحة اللي ما بتخليهمش يناموا طول الليل.

فرد البواب:

- هو أنتم حاتخسروا حاجة؟ تعالوا خشوا وشوفوهم، أنا رايح أدخلكم كل العنابر علشان أبقى عملت اللي عليّ. آهو كل شيء بثوابه. ياللا..

وتقدمنا بالدخول ونحن خلفه.

وفي الداخل، وجدنا نفس النوع من الأسرة وعليها رجال وأطفال لم يبلغ الواحد منهم أكثر من ١٢ سنة، ومنهم من كان جالسًا القرفصاء واضعًا يده تحت خده واليد الأخرى مبتورة، الوجوه صفراء ليس بها نقطة دم. وآخرون نائمون غطى القطن والأربطة وجوههم. وبينما نحن نسير سمعت صوتًا يناديني باسمي فتلفتّ حولي باحثًا عن المصدر. ولشدّ ما كانت دهشتي عندما وجدت طفلاً جالسًا القرفصاء يلوح بيده نحوي. تقدمت إليه، فنهض واقفًا، واحتضنني، وقال:

- أنت مش عارفني؟ أنا سيد اللي كنت بشتغل معاك في الغزل. انت مش فاكر لما كنت نايم في الصندوق والمباشر دلق عليك جردل الميه وغرق لك هدومك – أنا اللي نشفتها معاك. بص في وشي وأنت تعرفني. بص.. أنت ناسيني، أنا فاكرك..

نظرت إليه طويلاً متأملاً، وتذكرته بعد فترة وقال هو:

- هيه.. عرفتني؟
- أيوه، افتكرتك. مش أنت اللي كنت واقف على مكنة الغزل وبتدورها لمّا كان المباشر بيجمعنا ونقلّع الوش لما يخلص.
- أيوه.. أهو أنت افتكرتني.
- أمال مالك كده وشك أصفر؟
- من الدم اللي اتصفي مني. شوف دراعي.. قطعهولي الحكيم..
- من إيه؟
- أنا عارف؟ أنا كنت وقفت المكنة وقعدت أنظف القطن اللي لفّ على التروس وسّخها، وجِه واحد من العمال يدور المكنة من غير ما آخد بالي، فالتروس دغدغت إيدي، لم أشعر بما حدث لي. ولما صحوت وجدت نفسي هنا ودراعي مقطوع.

قالها وهو يبكي – ثم استرسل قائلاً.

- خلاص، ما عدتش أقدر أشتغل.
- أمك عرفت؟
- لأ.. دي لو دريت رايحة تتنقط. يا ما قالت لي ما تروحش، خليك مع أخواتك. أنا اللي رفضت وفرحت لمّا جت الأتومبيلات البلد ولمتّ الناس، أنا اللي اتشعبطت معاهم. لو كنت سمعت كلام أمّي ما كانش دراعي راح.. وبقيت أكتع بيدّ واحدة..

وبينما نحن في حديثنا وضع عبد العظيم يده على كتفي قائلاً:

- ياللا بينا عشان نشوف الناس اللي أحنا جايين علشانهم، ياللا يَحْسَن البواب زعلان.

تركت العامل الطفل باكي العينين. وكلما تقدمت خطوة تلفّت ورائي لأراه واقفًا وعيناه الدامعتان تتبعاني إلى أن حجبني الباب عنه. وسرت خلف عبد العظيم لحظات، ولكني عدت مرة أخرى لأنظر للعامل وعيناي تبكيان. ألقيت عليه نظرة أخيرة، وقلت في نفسي: "هو ده اللي كان بالأمس معي واقفًا على مكنة الغزل يتنطط ويداه سليمتان..

انصرفت أسير خلف عبد العظيم، وإذا بالبواب يقول فجأة: "حاسبوا.. اتداروا." قلنا:

- حنتدارى فين؟ حصل إيه؟..
- خلاص.. خلاص وصل، ما فيش فائدة.

وإذا بنا نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام واحد لابس بدلة وفوق منها مريلة بيضاء شفافة ومعلقة في أذنيه سلوك تشبه النيكل – وتكلم قائلاً:

- إيه دول؟ أنتم إيه؟ إيه اللي جابكم هنا؟ فأسرع البوّاب بالإجابة قائلاً:
- دول يا سعادة الباشحكيم ناس جايين من محلة أبو علي عشان يشوفوا الراجل اللي جه دلوقتي متعور، ويّطمنوا عليه.

فردّ بلهجة حادة قائلاً:

- إيه اللي جابهم هنا ودخّلهم.
- أنا اللي دخلتهم يا سعادة البيه.
- الراجل اللي جه دلوقتي متعور فاقد النطق، وما حدش يروح ناحيته.

فقال البواب بصوت حزين خافت:

- حاضر يا سعادة البيه.

وتطلع إلينا البواب وقال:

- سامعين؟ آدي أنتم شفتم بعينيكم.. تعالوا استريحوا جنب الحمام على بال ما يروق وندخلكم تشوفوه. وأخذنا واتجه نحو الحمّام، وسار الباشحكيم إلى مكتبه. ولمّا ابتعدنا قال البواب:
- شايفين.. كنت حا روح في داهية، لولا ربنا سلم ولساني ما توقفش عن الكلام، أنتم أصل نيتكم سليمة والناس اللي جايين تشوفوهم يظهر ولاد حلال. دي كانت فيها رفت.. اللا. قبل ما يطلع من المكتب.

أسرعنا الخطى خلفه نبحث عن العمال في بقية العنابر. وأمام عنبر مكتوب على بابه بالخط العريض "عزل" توقف البواب وقال:

- رابحين تخشوا تشوفوهم هنا وإلاّ إيه؟

فرد عبد العظيم:

- وإيه عنبر العزل ده كمان؟
- العنبر ده هوّ اللي فيه الناس اللي عيّانين بمرض معدي، عشان كده سموه عنبر العزل.
- وإيه اللي راح يجيبهم هنا في العزل؟ دول طالعين من البيت سُلام، معندهمش لا مرض معدي ولا حاجة...

ولم يكمل عبد العظيم حديثه، لأن أيدي بعض المرضى ارتفعت وأخذت تلوح من بين البطاطين.. ووقف عبد العظيم ينظر وعيناه تتسعان من الدهشة. وبعد فترة صمت لم تدم طويلاً زعق عبد العظيم بصوت عالٍ: "أهم.. همّ اللي نايمين وبيشاوروا.. إيه اللي جابهم هنا؟.. والله العظيم همّ..".

تركنا واقفين وأسرع نحوهم، وأسرعنا الخطى خلفه، وعبد العظيم يتنقل من سرير إلى آخر ويتمعن في وجوه الرجال النائمين على ظهورهم وعيونهم تسيل منها الدموع. قال أحدهم لعبد العظيم وهو يبكي.

- كده يا عبده تشور علينا الشورة دي؟ آدي احنا جينا وسمعنا كلامكم.. أهم حاشونا هنا والماهية بتاعتنا حتنقطع، وأمهاتنا زمانهم مستنيينها علشان يسددوا بيها إيجار الأرض. حانعمل إيه دلوقت؟ لو كنا عارفين كده ما كناش جينا وفضلنا نشتغل لما نموت، والواحد هنا لما بيعطش ما بيلاقيش حد يسقيه.

فتساءل عبد العظيم قائلاً:

- إيه اللي حصل؟ همّ حاشوكم ليه؟
- هوّ إحنا عارفين حاشونا ليه؟ دا أول الحكيم ما كشف علينا كتب على التذكرة "عنبر العزل" وأول ما بص في وشنا قال: أنتو بتشتغلوا في الشركة؟ كما لو كان عارف.. إيه.. إيه.. حتبقى غربة فوق الغربة.. مش كفاية أتغربنا عن بلدنا، كمان حنتغرب عن الناس اللي سكنا معاهم وعرفناهم.

وانتابته الكحة.. كحة متواصلة، يعقب كل منها تأوهات حزينة، ويردد باستمرار: "آه ياني.. آه يا مّه تعالي لي..." واشتدت الكحة وتعالت التأوهات، وصدره يعلو ويهبط. وفجأة انتطر من رقدته جالسًا، ولم يتمالك أن يمنع نفسه فتقيأ دمًا أغرق ملابس كل من كانوا يجلسون بجانبه. وذعر من هول ما رأى، فصرخ صرخة عالية أزعجت كل المرضى النائمين في العنبر، فأتوا والتفوا حوله. وأتى أحدهم بطبق أبيض واسع ووضعه أمامه. وظل يتقيأ دماء حمراء زاهية إلى أن غاب عن الوعي. وتدلت رأسه ومالت على الشباك، وشحب وجهه فأصبح أصفر ليس فيه بقعة دم، وحول عينيه سواد وحضر الحكيم على أثر الصرخة المدوية ومعه عدد من التمرجية ورُفعت البطاطين الملطخة بالدم، وأعاد الحكيم الكشف، وأخذ تذكرة كانت معلقة بالسرير وكتب بها كلامًا وأعادها إلى مكانها، وتكلم مع التمرجية كلامًا لم نسمعه، ثم خرج وطلبت منّا التمرجية الخروج من العنبر لأجل راحة المريض. وقبل أن نخرج، أعدنا النظر فيما كتبه الحكيم على التذكرة، فاستطعنا أن نقرأ ما يلي: "بالكشف على المريض عند دخوله أمرنا بعزله لاشتباه في مرض صدري [سُل] ناتج من سوء تغذية وإرهاق في العمل.

وقد أثبتت التحاليل التي أجريت حتى الآن ذلك" وفي سطر أخير كتب: "بالكشف عليه الآن بعد أن استدعيت تبين أن نبضه مرتفع وحالته ليست مطمئنة".

خرجنا من العنبر ونحن ننظر إليه في نومته، ورأينا الدموع تسيل من عينيه المسبلة. وخرجنا دون أن نتمكن من الكلام معه لأنه كان فاقد الوعي لا يتحرك.

ونحن في الطريق إلى باب المستشفى الخارجي، كنّا نسير ونحن في ذهول من هول ما رأينا. كان شبح المريض النائم على السرير ورأسه المائلة وعيناه المسبلتان والدموع منسابة من بين الجفون.. كانت كلها ماثلة أمامنا في كل خطوة نخطوها. ولم نشعر بما حولنا إلاّ على صوت البّواب وهو يقول: "أنت مالك يا واد انت وهوّ كده؟ ماشين مش على بعضكم كده ليه؟ ورجليكم عّماله تلف على بعضها؟ هوّ أنتم بتعيطوا؟ أمسح عينيك يا واد أنت وهوّه، خليكم رجالة. أمال خليتوا إيه للنسوان. تعالوا اغسلوا وشكم تحت الحنفية دي وروقوا عينيكم. انتم طالعين على سكة مليانة عربيات ومعاكم عيال صغيرين، عربية تلطشكم واللا حاجة".

واسترسل في حديثه قائلاً: "هوّ أنتم اللي كنتم عيتوهم؟ ما أنتم شفتم بعينيكم اللي عينه مقلوعة. واللي رجله مقطوعة، واللي نايم بيطرش دم.. كل الناس دول من يوم المدعوق المصنع ده ما انعمل هنا. وأنا بقالي هنا مدة طويلة عمري ما شفت حاجات سودة زي اللي شفتها الأيام دي. خلوا بالكم يا ولاد من نفسكم وربنا يكفيكم شر المرض.".

فردّ عبد العظيم قائلاً:

- أنا السبب. لو ماكنتش شرت عليهم ما كانوش جمُ واترموا الرمية دي اللي زي الهباب. يا ريتهم كانوا روحوا بلدهم، كانوا يبقوا قدام أهاليهم. ما هو ده الشيء اللي مزعل الواحد وقاهره، أنهم عيانين هنا وأهاليهم في البلد ما يعرفوش عنهم حاجة.

وقال البواب:

- هوّ انتم حاتشركوا بالله يا واد أنت وهوّ واللاّ إيه. إن الله على كل شيء قدير. ما هو قادر يروحهم بالسلامة.
- كتر ألف خيرك، ياللا بينا يا جماعة، آهو ربنا معاهم.

وقبل أن نهمّ بالسير، سلّم علينا البواب، وقال:

- شدوا حيلكم. أنا رايح أخدمهم من عيني، ورايح أعوضهم عن أهاليهم وما خليهمش محتاجين حاجة. كل شيء عايزينه أنا رايح أجيبه لهم. وأنتم ما تبقوش تيجوا إلاّ يوم الجمعة يوم الزيارة.

قالها وانصرف متوجهًا إلى الداخل.

وعندما وصلنا نحن إلى الباب الخارجي للمستشفى وجدنا كل ما هو في الخارج محمرًا. السماء حمراء والشمس حجبتها السحب، والعواصف على طول الطريـق، والأتربــة تعلــو شواشي الشجر. سرنا في الاتجاه المعاكس للريح، والريح تدفعنا فــي صــدورنا ووجوهنـــا، ونحن لا نتمكن من السير إلاّ وأيدينا فوق عيوننا من كثرة الأتربـــة. وكلمـــا اشــتدت الـــريح تساقطت أوراق الشجر. وسنابل القمح تتمايل كما يتمايل الجوعى عندما يــشبعون. واصـــلنا السير رغم كثرة الأتربة ومعاكسة الريح لنا.

في عزبة البرج

عندما دخلنا المدينة وجدنا كل شبابيكها مغلقة، والشوارع خالية، والباعـة المتجولـون ينزوون وراء الأبواب. وخرج عبد العظيم عن صمته الحزين وقال:

- هيه، حنروح محلة البرج نشوف العمال أصحابنا، والاّ حَنْرُوح فين؟

فسأل الولد السيد الصفطي:

- هىّ بعيدة؟

- لأ. إحنا قريبين منها، هيّ اللي متطرفة هناك دي فنظر عبد العظيم إلى زملائـه سكان حجرته وسأل:

- إيه رأيكم أنتم كمان؟

فردوا قائلين:

- ياللا... احنا حنروح فين دلوقت؟ نروح نضيع وقت.

- طيب.. ياللا بينا.

واصلنا السير، وكنت أسير أنا مسرعًا لأني كنت شغوفًا برؤياها. فقد كنـت أتخيلهـا – عندما اسمع اسم محلة البرج – ولها منازل رائعة تعلوها الأبراج التي تحجب الـسماء عـن السائرين في الشوارع. وسألت عبد العظيم:

- أنت جيت محلة البرج قبل كده؟

- إيوه.

- جنسها إيه؟ هيّ حلوه؟

فقهقه عاليًا بعد حزن استمر ساعات، وقال:

- أنت مستعجل ليه؟ ما احنا رايحين عليها أهوه. أنت شايف الولـد اللـي راكـب الحمار وساحب الجاموسة ده؟

- أيوه

- أهوّ رايح على هناك.

فنظرت في الاتجاه الذي أشار إليه، فإذا بي أجد قرية لا تختلف عـن قريتـي أو عـن القرى المجاورة لقريتي: بيوت من دور واحد من الطين، فانقبض قلبي، وأصبت بخيبة أمـل. وقلت في نفسي: ما هيّ دي الأماكن اللي العمال بتبحث فيها عن سكن. وكنا قد وصـلنا إلـى مدخل القرية. وهناك وجدت محل بقالة بضلفة واحدة. وواصلنا السير مخترقين الحواري وفي عطفة بجوار الشيخ سليمان دخل عبد العظيم وخبّط على شباك من ضلفتين، ونادى قائلاً: يـا واد يا شحات. وفتح الشباك بعد لحظات، وأطلت منه وجوه كثيرة. وعندما رأوه قالوا: أهـلاً وسهلاً، تعالوا، اتفضلوا. تعالى يا عبد العظيم.. أتفضل خش.. أفتح يا جدع أنت وهوه الباب.

وعندما دخلت الحجرة وجدت جانبًا منها مفروشًا بالحصير، وجانبًا مفروشًـا بـالخيش، وجانبًا مخصصًا لوضع القفف. رحبوا بنا ترحيبًا حارًا، وأصروا ألا نجلس إلا على الحصيرة. وقال شحات لعبد العظيم.

أهلاً وسهلاً. أنت كنت فين لحد دلوقت. أنا مستني من الصبح، كنت فاكر أنك حـاتيجي بدري.

ووجه كلامه إلينا قائلاً:

- أنتم مالكم؟ جايين وشكم متعفر كده ليه.. لبدتك يا عبد العظيم مليانة تراب ليـه؟.. مالكم عاملين زي اللي دافنين ميت وعينكم حمرة.. حصل حاجة يا عبد العظيم؟
- ما فيش حاجة، ده شوية شرد بس.
- شرد ده إيه اللي يحمر العنين؟ قوم يا واد يا حسن قوم، ولع الجوزة وأعمـل لنـا كرسي دخان. واسترسل في حديثه قائلاً.
- ما تتكلم يا عبد العظيم، هو حد اتخانق معاكم؟ انت جاي مش على عادتك.
- ما فيش حد اتخانق معانا ولا حاجة. أحنا جايين من المستشفى.
- مستشفى إيه حد الله.
- ما فيش حاجة، دا شوية عمال من اللي ساكنين معانا في الأوده عيانين من مـدة، عندهم كحة، ما كانوش بيناموا طول الليل، فأنا شرت عليهم بالمرواح للمستـشفى عشان يجيبوا شوية دوا يروقوا صدورهم، فالحكيم لما شافهم أمر بعزلهم في عنبر العزل. أحنا لسة جايين من هنا على طول.

فسأل شحات:

- وازيهم؟ وحاشوهم ليه يا ترى؟

- صحتهم ما تسرش حبايب. داحنا سيينا واحد منهم فاقد النطق من طرش الدم اللي طرشه.

قالها ولم يتمالك نفسه من البكاء، فبكى. فالتفت كل من كان بالحجرة وقالوا في نفس واحد:

- دم إيه؟ هم مسمومين؟ هو حد سمهم؟ دا ما بيطرش الدم إلا المسموم.

فقال عبد العظيم:

- لا هم مسمومين ولا حاجة. الحكيم لما كشف عليهم لقى عندهم سُل، وكتب في التذكرة إن المرض ناتج من سوء التغذية والارهاق في العمل.

فسأل أحدهم:

- هم بيشتغلوا إيه؟
- بيشتغلوا في عنبر الكرد والتنظيف. ومعظم العمال اللي موجودين في عنبر الغزل بيشتغلوا في العنابر دي. وقال الولد الغريب:
- دا احنا شفنا في المستشفى عمال كتير إيديهم ورجليهم متقطعين.

فرد كل الحاضرين قائلين:

- يا نهار أسود، دي حاجة زفت خالص. داحنا ما بنشوفش حاجة على كده. وقال عبد العظيم:
- اللي عايز يشوف المصايب اللي جت ع العمال يروح يشوفها في المستشفى. دا الواحد منا حياته ممكن تروح في شربة ميه، خبطة واحدة من المكنة ممكن تجيب أجله.

انقبضت وجوه كل الحاضرين، وهز البعض رءوسهم وآخرون جزوا على أسنانهم أو وضعوا أيديهم تحت خدودهم وأحنوا رءوسهم وهم يفكرون فيما يخبئ لهم الغد من أحداث. ثم قال أحد الحاضرين.

- انتم سكتم كده ليه؟ ما توحدوا الله. هو حد حيموت ناقص عمر. اللي مكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين، سوا كنا في المصنع أو ماشيين ورا الجاموسة، فرفش يا جدع أنت وهوّه كده، وقوم يا واد يا شحات ولع شوية قوالح وأعمل لنا كرسيين دخان. انتم دخلتم علينا زي هم الموت كده ليه؟ يا قعدين يكفيكم شر الجايين. احنا كنا قاعدين من الصبح في أمان الله مستنينكم علشان نتمشى شوية بره فجيبتوا ركبتونا هموم الدنيا. قوم يا واد يا علي قوم خد من جيب الصديري قرشين هات

لنا عسل وطحينة من الدكان اللي ع الشارع. وأنت يا واد يا شحات قوم فز وخد شوية عيش من القفف وروح بلهم بشوية ميه على بال ما ييجي العسل والطحينة وخلينا نتغدى. ونظر إلى عبد العظيم وقال:

- هو أنت تروح المستشفى تجيب لنا الغم معاك ما تعرفنا يا جدع بالناس اللي زي الورد دول.. اللي خايف من الشغل ومن المكن يروح بلده أحسن ولا يعتبهاش. هو انتوا كل ساعة تتغصوا علينا باللي انقطع دراعه واللي انقطعت رجله واللي كلته المكنة. ياللا يا خويا أنت وهو ياللا.. بلا قرف أحنا ما دام جينا من بلدنا ورضينا بالشغل ده يبقى نشتغل واللي حيعمله ربنا هو اللي حيكون.

فرد آخر عليه قائلاً:

- هو أنت يا واد يا إبراهيم عشان ما بتشتغل عتال وبعيد عن المكن تقوم تتكلم الكلام الفارغ دهه.

فرد إبراهيم منفعلاً:

- عتال إيه؟ يعني إيه؟.. ما أنا بشتغل في المصنع زي أي واحد منكم وأكتر. الواحد منكم واقف على حتة مكنة ما بيتنقلش من قدامها طول النهار. أنا بقى طول النهار بجرجر عربية مليانة قطن وبوديّها في عنبر فيه كل مكنة ومكنة قد البيت ده، ولما أفضيها أقف جنب المكنة أساعد العمال. أنا بشتغل شغل قد الواحد منكم عشر مرات. الواحد منكم ما فهش إلا لسان. أنا أراهن لو كان حد منكم يقدر يعمل مكاني ربع ساعة. والله العظيم ما حد يقدر. الواحد فيكم لو راح ناحية العنبر نفسه ينسد من الزغبار والأتربة اللي مالية العنبر. دا الواحد يبقى طالع زي الأعمى من الزغبار اللي معشش على عنيه. تقوم تقول أنت بتشتغل عتال. ما له العتال؟ مش عامل زيه زيكم طافح الدم طول النهار.

فرد عليه قائلاً:

- هو أنت زعلت؟ أنا أقصد أنك ما بتشتغلش على مكن، وعشان كده ما نتاش خايف. ده قصدي. هو العتال إيه واللي واقف على مكنة إيه، ما هو كله محصل بعضه. قوم بقى ياللا كده طلع زرين خيار مخللين من المحلبة واغسلهم وحطهم جنب الأكل ع الطبلية.

وتوجهت بنظري إلى إبراهيم الذي تحدث منذ لحظة والذي يعمل في عنبر يملؤه الزغبار لدرجة تكتم الأنفاس. وتأملته طويلاً. وزاد تأملي له وهو يتحرك في الحجرة، ولم تبرح عيناي وجهه ولم أشعر بما حولي وقد سرحت بخيالي إلى المستشفى مع الذين كانوا

يعملون بالأمس في نفس العمل، وهم الآن راقدون على الأسرة فاقدو النطــق لا يــستطيعون الحركة. وصحوت من سرحتي على صوت شحات وعبد العظيم وهما يقولان: ياللا استعدوا، الأكل جهز وطلب الأكيلة.

التففنا حول الأكل وكل منا يدفع الآخر محاولين خلق جو من البهجة في الحجرة. ومــع ذلك لاحظت أن إبراهيم كان شارد الذهن وعيناه الحادتان نصف مغمضتين وهو يضع أصبعه بين حاجبيه ولاحظ عبد العظيم ذلك فهزه هزًا عنيفًا قائلاً:

- مالك يا إبراهيم؟ مالك كده حزنان ليه؟ ما كنت بتتكلم زي البربند. هو من ســاعة ما قال لك أنت بتشتغل عتال وأنت زعلان ونزل عليك سهم الله. ليه؟ ما تأكل يــا جدع، العسل والطحينة قربت تخلص. الناس نزلوا عليها هرس زي الغيلان. كــل يا جدع بلاش كلام فارغ. أنت لو كنت جيت معانا المستشفى وشفت بعنيك العمال وهم نايمين كنت عرفت إن الله حق. اللي رجله مقطوعة واللي.. كنت عــذرتنا. داخلنا لما رحنا المستشفى وشفنا البلاوي اللي هناك جينا والهم راكبنا. الواحد مــا بقاش عنده أي اطمئنان، وكان لنا حق نزعل. وأنت بتزعل عشان بيقول لك أنت عتال، هو بس يقصد أنك بعيد عن المكن..

فأسرع إبراهيم يرد قائلاً.

- أنا مش زعلان ولا حاجة. أنا من ساعة ما أنتم جيتوا من المدعوقة المستشفى وأنا من ساعتها مش مطمئن على حياتي وأنت مش قلت يا عبد العظيم إن العمال اللي بيشتغلوا في عنابر الكرد والتنظيف هم اللي في المستشفى وبيطرشوا دم. ما أنــا بشتغل في نفس العمل. أنا ليه ما زعلش بقه؟ ما أنا مصيري زيّ مصيرهم. وأنا لما كنت بتكلم كنت بهون عليكم الموضوع.

فرد عليه عبد العظيم:

- يعني خلاص ما انتش زعلان من كلمة عتال؟
- لأ.
- طيب.. الأعمار بيد الله. هو الواحد رايح يعيش أكتر من عمره. ودخل شحات في الحديث قائلاً:
- ما تسيبوكم من الكلام ده وتخلصوا أكل عشان نشرب لنا كرسيين دخان ونــشوف حنعمل إيه.. هو أحنا حنقعد نتكلم طول النهار؟ ياللا يا إبراهيم، القوالح ولعــت،

يااللا عشان تسلك لنا الجوزة وتصلحها. قوم ما حدش بيعرف يولع الجوزة ويخليها تصهلل غيرك.

واسترسل شحات في كلامه قائلاً:

- لا مؤاخذه يا خوانًا، ما عندناش حاجة نعمل عليها شاي، وما عندناش براد ولا كبايات..

فنهض إبراهيم وهو يقول:

- خلاص، أنا قايم أرض الجوزه واشرب لي نفسين بسرعة، ونطلع نتفسح. ووجه كلامه إلى عبد العظيم قائلاً:
- أنت رحت فين يا عبد العظيم النهارده.
- إحنا رحنا الصبح مصينا قصب على الشون قبل ما نروح المستشفى.
- يا بختك يا أخي. إحنا هنا من الصبح لحد دلوقتي ما خرجناش، يا دوب غسلنا كل واحد الجلابية اللي حيلته.

وقعدنا مستنيين حضرتك.

ووجه إبراهيم كلامه إلى الحاضرين قائلاً:

- إيه رأيكم بعدما نشرب لنا نفسين نطلع نتمشى بره شوية ونضيع الغم. وسأله الشحات:
- نتمشى نروح فين؟

فرد إبراهيم:

- نروح نتمشى ناحية الخبّيزة.. نروح نهيص. ونظر إلينا الشحات متسائلاً، فقلت:
- خبيزة إيه؟ هي الخبيزة فيها نسمة. إحنا حنروح نهرس في أرض الناس؟ واللي عنده حتة أرض لو شاف حد ماشي فيها يقطع رقبته. يااللا نروح نقعد عند محطة الدلتا نتفرج ع البوابير وهي جايبه الناس من بلادهم.

فضحك شحات وإبراهيم ضحكًا عاليًا، واستمرا يقهقهان... وشاركهما في الضحك عدد كبير ممن كانوا يجلسون في الحجرة. وبهتّ من ضحكاتهم، وشعرت بالخجل، وتلفت حولي ناظرًا إليهم وهم يمسحون الدموع التي تنساب على خدودهم من كثرة الضحك بأكمام جلابيبهم. فهزيت رأسي، وآثرت الصمت، وأخذ العرق يتصبب من جبيني. واستمروا هم في ضحكاتهم التي جذبت عددًا آخر من العمال المجاورين للحجرة. وانقلبت الحجرة على مسرح كان مكبوتًا. لم تفارق عيناي الوجوه المرحة وأنا أسائل نفسي: لم يضحكون؟ أنا لم أقل شيئًا

يستحق الضحك. هل أضحكتهم الكلمة التي قلتها عن الخبيزة، أم أضحكتهم كلماتي عن الذهاب لمحطة الدلتا لرؤية القطارات؟ هل ضحكوا استخفافاً من كلمتي هذه أم من تلـك؟.. وبعـد أن هدأت الضجة، وكف العمال عن الضحك قال عبد العظيم:

- انتو بتضحكوا على إيه؟ هو ده كلام ينضحك عليه؟ ما هو صـحيح لـه حـق. ما لقيتوش غير الخبيزة تروحوا تتفسحوا فيها؟.

فرد إبراهيم وهو منهمك في وضع الحجر ع الجوزة:

- ما هو ده اللي احنا بنضحك عليه. أحنا في وادي وأنتم في وادي آخر، ما هـوّ ده اللي ضحكنا.
- وقال عبد العظيم.
- ما هو لسه صغير، ما يعرفش إيه الخبيزة، وافتكر أنها خبيزة مزروعة.

فرد إبراهيم:

- هو أنت كمان مش عارف.. قال عبد العظيم.
- ما هو من يوم الواحد ما جِه من البلد وهو من البيت للشغل ومن الشغل للبيت. ما هو صحيح الخبيزة حد يتفسح فيها؟ داللي عنده حتة أرض ما حدش يقدر يخـش ويمشي فيها. هل تضحكون من هذا؟ أم تضحكون استخفافاً؟ ياللا نروح نقعد فـي حته تانية غير دي ونشوف الدنيا، نروح نمص قصب عند الـشون. الـدنيا ليـل دلوقت والقاعدة هناك تبقى جمال.

فرد إبراهيم قائلاً، والبسمة تعلو شفتيه:

- ياللا نروح الخبيزة يا جدع أنت وهو. نروح ونتفسح واسترسل قائلاً:
- أما أنتم صحيح لسه لابسين اللبد!

فرد شحات وقال:

- احنا كده، وحنفضل لابسين اللبد والهدوم الزرقة على طول احنا جايين ناكل عيش وعايزين نعيش زي أهالينا.

وقال إبراهيم:

- انتو مش عارفين الخبيزة يعني إيه؟ الخبيزة دي الناس اللي مكتوب على جبيـنهم الوعد.

جولة في الشوارع

سأل عبد العظيم:

- يعني إيه الناس اللي مكتوب على جبينهم الوعد؟

فردّ الشحات:

- ما سمعتش على الموال اللي بيقول:

من يوم ما اتخلق سيدنا آدم وسيدنا نوح.

وأنا ببص في اللوح ألاقي الوعد مكتوب لي.

كل واحد مكتوب عليه وعد لازم يؤديه. هوّ إحنا جينا علشان مكتوب على جبينّا لازم نتغرب عن أهالينا ونعيش العيشة اللي زي القطران دي وكمان النسوان اللي جايين في الخبيزة جايين من بلادهم هنا عشان يؤدوا الوعد المكتوب على جبينهم.

قال عبد العظيم:

- وهمّ جايين يشتغلوا زينا
- أيوه جايين يشتغلوا، بس شغلة من نوع تاني.
- يعني إيه من نوع تاني؟
- يعني نخش ندفع قرشين أو ثلاثة تعريفة..

نخش نحضن ونبوس.. يا خرابي! يا هوه!.. ملبن يا ابنى – والله اللي يعيش يا ما يشوف، واللي يمشي يشوف أكتر.. حاجات على كيفك، ما تخليكش تنام.

فقلت، وقال الولد الغريب معي:

- يا نهار أسود! بقرشين صاغ أو تلاثة تعريفة تخش تحضن وتبوس وتهيصّ، ليه؟ هم مالهومش أهل؟ دولا لو كانوا في بلدنا كانوا أهاليهم دبحوهم ودفنوهم في التراب بالليل.

فردّ إبراهيم قائلاً:

- في بلدك حاجة، وهنا في المحلة الكبرى حاجة تانية، هاهاها.. إيه رأيكم، وأيه رأيك يا عبد العظيم، ياللا نشوف الدنيا، ياللا ندّردح.

فردّ عبد العظيم.

- مش حرام يا واد أنت وهوه
- حرام إيه؟ هوّ لو كان حرام كانوا سمحوا بيها؟ مش حرام ولا حاجة، هــو إحنـــا بنسرق؟

احنا بندفع فلوس.

- هيه.. إيه رأيكم؟

هزيت رأسي وقلت:

- نروح نشوف الحاجات دي.

وقال الشحات:

- يالا بينا يا واد يا عبد العظيم، ياللا نشوف الحاجات اللي ما شفناهاش يـــا ســـلام. واهو من حظكم الدنيا راقت والسما صفيت والسحب مشيت وزرقة الـــسما باتـــت صافية نشوف فيها النجوم.

فقال عبد العظيم:

- أهي ليلة، نروح ونشوف الناس اللي مكتوب على جبينهم الوعد والمكتوب. بـــس على شرط يا جماعة، أحنا نروح ونتفرج ونيجي على طول، أحسن حدّ من العيال بتوع بلدنا يشوفنا ويروح البلد يعمل لنا فضيحة.

فردّ الحاضرون وقالوا:

- احنا نطلع وما نروحش الخبّيزة إلا بعد الدنيا ما تضلّم. ياللا يا جدع أنت وهـــوّ، والبس هدومك، وياللا نمشي واحدة واحدة.

خرجت أنا والولد الغريب والولد السيد الصفطي نتمشى في حوش المنزل ونتطلع إلـــى الحجرات التي يسكنها العمال وفجعنا حين لاحظنا وجود غرفة في آخر الحوش ليس بها أحـــد من السكان وتنبعث منها رائحة كريهة جدًا. جرينا مسرعين عائدين إلى أصـــدقائنا، ولاحـــظ إبراهيم ذلك فقال:

- مالكم؟

فشاورنا على الحجرة التي تنبعث منها الرائحة. فابتسم وقال:

- أنتم رحتم ناحيتها ما طقتوش. أمال أحنا اللي رايحين جايين داخلين فيهـــا نعمـــل إيه؟

وقال الولد الغريب:

- الريحة الوحشة دي من إيه؟

دي كانت زريبة تتربط فيها البهايم قبل ما يسكن العمال في البيت. أما الآن فهي مرحاض يستخدمه أكثر من أربعين ساكن. واللي يخش يعمل زي الناس يعمل نُقْرة في الأرض وبعدين يردم عليها. لكن ما حدش بيستعمل المنقرة ويفحت في الأرض ويردم بعد ما يخلص، معظمهم ما بيعملش كده، وده سبب الريحة الوحشة.

- هوّ انتو بتخشوا واحد ورا واحد واللا بتخشوا مع بعض؟
- ونخش واحد ورا واحد ليه؟ هو المرحاض زي الزريبة؟

احنا بنخش أكثر من واحد، بنبقى قاعدين أكثر من واحد مترصصين زي ما كنا في البلد، بنعمل زي الناس على الكوم. هوّ احنا رايحين ننكسف، ما أحنا رجاله. وصحاب البيت كل حين وحين لمّا – يجيبوا حملين ردم ويحدفوهم لنا في الزريبة، ما همش سائلين فينا. هم بس ييجوا ياخدوا الإيجار وخلاص. مالهومش دعوة إن كنا نتقرف والاّ ما نتقرفش.

كان العمال قد انتهوا من تغيير ملابسهم. وأغلقوا الحجرة وقالوا: "ياللا بينا" فقال عبد العظيم:

- اسمعوا، أنا بقول أهه، إحنا مش عايزين نروح الخبيزة إلاّ بعد الدنيا ما تضلّم، يعني لما تبقى الدنيا كُحل.

ونحن في الطريق، عند أول شارع الحنفي، وجدنا زفّة طالعة من الشارع والمزيكة بتدق، ونسوة على الصفين، وأخريات يسرن خلف المزيكة بأيديهن صحب الورد متعددة الألوان، وخلفهن عربات كارو تجرها الخيل محملة بشوار العروسة. وفي مقدمة الزفة رجالة من أهل البندر بملابسهم الإفرنجية والبلدي، وآخرون من العمال الذين يشتغلون في المصنع. وفي ميدان فسيح، خلف صهريج المياه العالي، وقف الرجال خلف المزيكة في حلقة دائرية، ويتوسط الحلقة شاب يلبس مقطع حرير سكروتة سماوي اللون وبيده عصا محلب ذات يد معوجّه واتسعت الدائرة، ووقف الشاب يلعب بالعصا، وعلى دقات الطبول وأنغام الموسيقى، وقف الشاب يرقص. وتعالت الأنغام، وازداد حماس الشباب في الرقص وأبدع وعندما نام الشاب على ظهره وبدأ يرقص تدافعت النسوة واختلطن بالرجال، وأخذ الشاب يرقص رقصة البطن، وكانت بطنه تتموج كما يتلوى الثعبان، وتهتز على الأنغام وتتلوى.. ولم تتمالك النسوة فوقفن يتطلعن إلى حركات البطن وهي تتماوج كأمواج البحر. وانفعل كل من كان في الدائرة، وبدا النصف التحتي للنسوة يهتز على الأنغام وانتهى الشاب من رقصته، ووقف يضرب الأرض بالعصا. وعند الضربة الأولى توقفت الطبول كما توقفت الموسيقى عن العزف. وردّد

الشاب: الفرح – أهل الفرح – العريس – أهل العريس– المحلة – المحلة بس – الغُرب لا – الصنايعية – صنايعية النسيج بس– أهل المحلة – الشركاوية لأ – اللي غلّوا علينا المش لأ – دُقّي يا مزيكة.

وعزفت الموسيقى، وتعالت الزغاريد، واشتعل الحماس. وعلى الأنغـام، بـدأ النـاس يرددون بأصوات تشق السماء: "يحيا سعد" ترن تن تن.. "يحيى سعد" ترن تن تن.. وأخـذني الحماس، فصحت هاتفًا: "الورد كان شوك من عرق النبي فتّح" فعاد الشاب يردد مرة أخـرى: الغربا عن أهل البلد لأ – اللي غلوا علينا المش لأ. وتلفتت أنظار أهل المحلة إلى العمال ذوي الجلاليب المتعددة الألوان نظرت تنّم عن التحدي وتنذر بالاشتباك.

ولم أكن أعي أن هذه النظرات تتجه إليّ إلاّ بعد أن داس أحدهم علـى قـدمي بعنـف، فصرخت صرخة مدوية. واختطفتني بعض النسوة من تحت الأقدام وضممني في صدورهن، وأخذن يشتمن من داس على قدمي: "حرام عليك، هو أنت مالكش أخـوات؟ مـالقيتش غيـر الغلبان ده تتشطر عليه؟! ما يجيش قد دراعك" وأخذن يطبطبن عليّ يحاولن تهدئتي. ونظرت محاولاً أن أرى ذلك الذي داس على قدمي. فلم أتبينه من كثرة الدموع التي ملأت عينيّ وجاء عبد العظيم وأخذني من بين أحضان النسوة قائلاً: أنت بتعيط؟ قوم، دلوقتي تخف. وحاولـت النسوة منعي من السير معه، ولم يسمحن بذلك إلاّ بعد أن عرفن أنه معي. ومسحت إحـداهن عيني بطرف ملاءتها قائلة: معلش، ربنا يوعدهم بالأقوى منهم. وسرت على قدم واحدة رافعًا الأخرى من شدة الألم.

لم أستطع السير، فجلست على الرصيف وأصداء الموسيقى ودقات الطبول تخرق أذني وتطلعت حولي من خلال الدموع فرأيت إبراهيم والشحات وعبد العظيم والولد الغريب والولد السيد الصفطي وعددًا كبيرًا ممن لا أعرفهم من العمال ينظرون إليّ وعيونهم تتطـاير منهـا الشرر قائلين: "إيه ده؟ إلى متى نحتمل كل الإهانات والشتائم؟ مش إيه ولاد الـ... اللي أحنـا غليناه عليهم. كل ما ندخل حارة أو عطفة نسمع الكلام ده. هو أحنا كنـا قتلنـا أبَّهـاتهم والاّ أتجوزنا أمهاتهم". ويقول آخر: "ما هو الكلب ما يتشطرش إلا قدام بيته، عشان ما أحنا غُـرب ومش من هنا يقوموا يعملوا فينا كده.. راجل زي الفحل يتشطر على عيل زي ده ويدوس على رجله يفرمها له".

وقال عبد العظيم: "دي كانت تصلبيطه" دول كانوا بيجروا الشكّل لما داسوا على رجله، دول عايزين يتخانقوا معانا بأي سبب والله العظيم الواحد عايز يروح يعملها معاهم، وزي مـا يكون" فردّ رجل طويل ذو شارب مفتول: "اقصر الشر يا جدع. بات مغلوب ولا تبات غالب. اصبر لما تتمكن. أنا غريب زيكم وباشتغل عامل في الشركة.. زيات باشحّم المكن، وباسـمع

شتيمتي بودني، أكل العيش عاوز كده. دا الواحد لو كان بياخد على كل كلمــة كــان زمانــه بيتخانق تلاتين خناقة في اليوم. دول شبان متفرعنين وشايفين نفسهم، بكره يعقلوا ياللا أتوكلوا على الله وشوفوا رايحين على فين".

كانت الشمس قد غربت، وسطع نور الكهرباء. وتفرق الواقفون من حولنا وسرت مــن خلفي الولد الغريب والولد الصفطي وهما ينظران لي بعيون تملأها الدموع. سرنا في شــارع السكة الجديدة، وكان مزدحمًا بالناس هربًا من الحرّ وبجانب الأرصفة عربات محملة بالترمس والفول المقلي على الصفين، وعربات أخرى كثيرة. وكان الزحام علــى عربــات التــرمس تاركين العربات المحملة بالبرتقال والهريسة وجوز الهند. كان كل واحــد يحمــل قرطــاس ترمس، وهم يقزقزون ويرمون القشر في الشارع. واجتذبنا الزحام على التــرمس فاشــترينا ويسرنا نقزقز ونرمي القشر في الشارع كالآخرين وكانت قدمي مازالت تؤلمني. سرنا وأيدينا متشابكة تهتز ولفت نظرنا الضوء المنبعث من الدكاكين، فاتجهنا نحوها. رأينا الرفوف عليهــا جميع أنواع الأقمشة: حرير ودمور وشيت ودبلان من اللي بيجيبوه للعرايس في بلدنا. ووقفنا ننظر وأيدي كل منا تشاور على النوع الذي يهواه ويتمنى أن يشتريه. وتسمر نظــري علــى مقطع حرير سماوي اللون، وتمنيت شراءه، وعزمت على أن أطلب ذلك من أمــيّ عنــد أول لقاء. ونظر إبراهيم إلى الرفوف وعليها الأقمشة قائلاً:

- واد يا شحات، شايف القماش المتلتل في الدكاكين. دا قماش من اللي بنشتغله فــي الشركة والواحد ما عندوش غير الجلابية اللي بيروح بيها الشغل.
- معلهش يا إبراهيم، بكره يعدلها وتحوّش المهر، ولما تيجي تتجــوز تعــال خــد كسوتك وكسوة العروسة من هنا، وتبقى تلبس بدل الدمور دبلان.
- يا سلام يا شحات، أمتى ربنا يعدّلها للواحد ويتجوز.. هوّ الواحد لما ربنا يعــدلها ويحوش المهر ييجي ويشتري من هنا ليه؟ ديك الساعة الواحد يبقى يعتّــر مــن محلات الويشي والشيمي من طنطا.. أحسن محلات.
- ليه؟ هو أنت من الأعيان.. ده ما يروحش المحلات دي إلاّ أصحاب الأطيــان. دا أنت نهار ما تتمطع مش حتدفع أكثر من خمستاشر أو عشرين جنيه، تبقى تــروح محلات الويشي أو الشيمي أزاي؟ أنت حتخسر؟ ما تعيش عيشة أهلك وتتكلم كلام مضبوط. عريان الــ يتقمز تقميز ويقول باب الخمارة فين.

فردّ إبراهيم قائلاً:

- لا تستكتر على الله. يمكن تيجي الطوبة في المعطوبة والواحد يلاقــي لقيّــة فــي الشارع. ما هي تيجي مع العور طابات.

وقال الشحات والبسمة تعلو شفتيه:

- ما تقول أحسن تلاقي طاقية الاخفا.. تروح تنهب بيها المحلات.
- يا ريت.. دا كان الواحد ينبسط ويلبس كل يوم جلابية ويهيص مراته ويجيب لأمّة واخواته هدوم.

ودخل آخر في الحديث قائلاً:

- واللا أقولك، شوف لك عفريت أضربه بندقية وأنت تلاقي تحته طاقية الاخفاء تجيب بيها كل حاجة أنت عاوزها، مش بس الهدوم.. التفاح والرمان والخوخ والحاجات اللي أحنا مجرومين منها وما بنشوفهاش.
- هو أحنا حنلاقي العفاريت فين؟ فين دلوقت؟ العفاريت سيبناها في البلد كنّا بنشوفها في الغيطان تحت الشجر مطرح الناس اللي كانوا بيتقتلوا أو اللي وقعوا من فوق الحمير.. أحنا سيبنا البلد باللي فيها وبعفاريتها وبقينا هنا في البندر، لا بنشوف فيها عفاريت ولا حيكون فيه عفاريت. هيّ العفاريت بتطلع إلاّ في الضلمة. ما فيش إلاّ إذا كان الواحد يلاقي لقية.

فردّ الشحات قائلاً:

- دا الواحد اللي معاه قرشين يربطهم على وسطه ويتحزم عليهم.

فقال إبراهيم:

- أنت بتتكلم أزاي؟ أمّال اللي بنوا الشركة دي بنوها منين؟. ماهم معاهم فلوس، واللا بنوها منين؟.

وقال الشحات:

- وهمّ اللي بنوا الشركة دول بيمشوا في الشارع زيّنا. دول ما بيمشوش خطوة على رجليهم، دول بيركبوا الأتومبيلات وساكنين في السرايات قول أحوّش من الماهية عشان الجواز يبقى الكلام معقول، أو تبيع قيراطين أرض إذا كان عندك، أو تبيع الجاموسة. هو الفلاح أو العامل حيتجوز إلاّ لو عمل كده؟

فردّ إبراهيم:

- وهي الجاموسة شركة، ولا نملكش بيعها. دي هيّ اللي بنعتمد عليها في زراعة القيراطين اللي أمي واخداهم بالإيجار.

وقطع الحديث الواد السيد الصفطي قائلاً.

- هوّ احنا حنفضل ماشيين لحد أمتى؟ دا الواحد رجله ورمت من المشي.

فزدّ إبراهيم:

- انتم تعبتم؟ إيه رأيك يا عبد العظيم؟ العيال دول تعبوا من المشي، احنا دوّخناهم معانا طول النهار. وأنت مش شايف أن الدنيا ضلمت ياللاّ بينا نروح.

- فين؟-

- أنت نسيت واللاّ إيه؟

وقال الولد الغريب:

- نروح الخبّيزة. مش انتم كنتم في البيت بتقولوا كده؟

فقهقه عبد العظيم وقال:

- شايف العيال، ما ينسوش حاجة، عقلهم زي الدفتر.

وردّ إبراهيم:

- أهي الدنيا ضلمت وما عادش عندك حجة، ولا تقدر تقول حدّ يشوفنا ولا حاجة.

فتمتم عبد العظيم قائلاً.

- هيّ فضيحة والاّ أكتر.. ربنا يستر.. يالاّ بينا.

اللي مكتوب على جبينهم الوعد

واصلنا السير. ونحن في الطريق سأل عبد العظيم:

- اسمع يا شحاته، هو أنتم قبل كده، رحتوا الخبّيزة؟
- أيوه، رحنا، الواد إبراهيم هوّ اللي ودّانا هناك. دا واد زي العفريت، ما نعـرفش إزاي عرف الحتة دي، الواحد بيجي من الشغل مهدود حيله، طول النهار الواحد واقف قدام المكنة ١٢ ساعة على رجليه، ويا دوب الواحد ياكل وينام زي الكتاكيـت مـن شـدة التعب. أمّا الواد إبراهيم ده ما تعرفش إزاي بيجي من الشغل ويا دوب ينـام شـويه، وبعدين يصحى وتنّه طالع على بره ويتنطط طول الوقت في البلد حايبها مـن أولهـا لآخرها.

فردّ إبراهيم قائلاً:

- أمال إيه؟ زيكم كُرُديات. أنا بشتغل على قد الفلوس اللي بيـدوهالي. بـشتغل سـاعة واحدة بس. يا دوب الكتاب يمر ويكتب اسمي ويتحسب اليوم وأروح واخـد بعـضي وتني ماشي على أي حتّه، أشوف لي صندوق وأروح حاطط نفسي تحته وتنـيّ نـايم للفجر. حنعمل إيه، ما هي فوضى. هو حد عارف حد؟ آلاف من العمال بتيجي كـل يوم بالعربيات من كل البلاد، وكل ٥٠ عامل واقفين على مكنة، اللي بيـتعلم واللـي واقف.. وما دام أنا اتعلمت أبقى لازم أنام، ولمّا يبقوا يوقفونا على مكنة أقف وأشغّلها وتكون تحت مسئوليتي، مش حاهتم إلاّ لما يشغلوا العنابر اللي بيبنوهـا وأكـون أنـا عرفت مصيري، وأكون عرفت كل الحاجات اللي في البلد دي، دانتو رايحين تشوفوا حاجات حلوة، دلوقت تشوفوها.. يا سلام، نسوان تقول للقمر قوم وأنا أقعد مطرحك.. أجدع واحدة بخمسة صاغ، وفيه بقرشين وبثلاثة تعريفة وكمان بقرش كل الأصـناف تلاقيها.

وكان عبد العظيم يسمع باهتمام بالغ كلما تعددت أمامه الأصناف، ووجهه الأسمر يـشع بالدم، وعيناه العسليتان قد اتسعتا، وأصابته رعشة ملكت كل حواسـه كمـن أصـابه مّـسْ. وبحركة لا إرادية خلع اللبدة من فوق رأسه وقذف بها على رأس إبراهيم هاتفًا: يحيا الوفد ولو فيها رفت. قالها بصوت عالٍ لفت أنظار كل المارة من نساء ورجال، حتـى وقـف الـبعض متعجبين فنظر عبد العظيم وهو ينظف اللبدة مرتبكًا، وتمتم بكلام غير مسموع، ثم قال:

- إحنا حنشوف إيه هناك؟
- حنشوف حاجات حلوة، حتعجبك.

وقف بعض المارة ينظرون إلينا، وقالوا بصوت عالٍ:

- شايفين الفلاحين عاملين إيه.. أمّا شركاوية صحيح.. الفلاح لما يتمدن يجيب لأهله داهية..

ونظر عبد العظيم وهو يبدى عدم الاهتمام بكلامهم. وواصلنا السير بتباطؤ، وقال إبراهيم وهو ينظر خلفه:

- الناس مش عاوزينا نضحك، مش عاوزينا نطّلع الهم اللي على قلوبنا. قربوا شوية، دول واقفين يبصوا لنا، قربوا نبعد عن عينيهم، دول من أهل البندر اللي بيعتبرونا غلينا عليهم المش. دا الواحد ماشافش بلد تكره الغريب زي البلد دي.

وقال عبد العظيم وهو يتلفت حواليه:

- واحنا حنفضل ساكتين لإمتى عَ الناس دول؟
- قرّب يا جدع، أبعد عن الشر وغني له، اسمع من هنا وفوت من هنا، والواحد لو خد على كل كلمة ما كانش عاش. هوّ الكلام بيندفع عليه فلوس. سيبك، دلوقت حتشوف حاجات تخليك تفرفش وتسيب الهم لحظة.

وكنت أتطلع إلى وجوههم وهم يتحدثون متمنيًا أن أصل لرؤية ما يتكلمون عنه منذ كنّا في مجلة البرج. وكنت كل ما أتمناه هو أن أصل إلى المكان الذي به النساء اللي تقول للقمر قوم وأنا أقعد مطرحك. كنت أسير خلفهم بسبب ما تعانيه قدمي من ألم. وعندما اقتربنا من نهاية الشارع قال إبراهيم:

- خلاص، إحنا قربنا. فتح عينيك أنت وهوّه وتوقف عن السير فجأة وقال:
- إحنا داخلين عَ الحتة من أول البيت اللي هناك ده اللي عليه لمبة كهرباء، وعلى الباب من الأول للآخر على الصفين نسوان. والنسوان اللي واقفة في الشارع ده همّ اللي بياخدوا خمسة صاغ. أمّا الشارع اللي وراه ففيه النسوان أم ثلاثة تعريفة وقرشين صاغ.

وسأله عبد العظيم:

- هوّ ممنوع نتفرج عَ النسوان دول؟ ممكن نتفرج وماحدش يقول لنا حاجة؟
- ممكن. أنا حبيت أعرفكم أحسن حد يتخم ويخش. وهو مش عارف وما يدفعش، دول كانوا يتلموا عليه كلهم ويقلعوه هدومه ويمشوه ملط. دول بايعين جتتهم. دا أنا لمّا

جيت المرة اللي فاتت شفت واحد طالع من جوّه ونازلين عليه بالشباشب وهوّ يزعق: يا ناس ما أعرفش ما حدش قال لي. وهمّ يقولوا: هو أنت أعمى؟ هي وكالة؟ لحد لمّا ولاد الحلال دفعوا له، وعشان كده باقول لكم قبل ما تخشوا تتفقوا معاهم عَ الثمن.

وسرنا، وعبد العظيم في المقدمة واضعًا يده في يدي. وأمام باب المنزل اللي على بابه لمبة كهرباء مضيئة توقفنا وإذا بنا وجهًا لوجه أمام ثلاثة نسوة بيضاوات، فارعات الطول، بملابس حريرية شفافة تكشف عن أجسادهن. وأذرعهن عاريات، ونهودهن بارزات شبيهة بأفحل الرمان، وفي أيدي كل منهن زهور كثيرة الألوان ذات رائحة منعشة، وعيونهن واسعة مستطيلة، وأنوفهن قائمة، وشفاههن ممتلئة، وذقونهم بديعة المثال، وخصلات شعورهن متدليات حتى الجفون.. كنّ غاية في الجمال، لم يسبق لي رؤية مثيلتهن. كنّ يقفن في دهليز المنزل يتمخطرن جيئة وذهابًا عارضات أجسادهن على الذين جاءوا يشبعون الشهوات ويدفعون الثمن، كنّ يوزعن الابتسامات على المتفرجين، ومن بين الشفاه تبرز أشياء تلمع وتبرق، وكل واحدة منهن تغمز بعينيها الساحرتين لكل من تستطيع جذبه، وكثيرًا ما كنّ يقمن بكل عوامل الإغراء.. ترفع واحدة ساقها أو ترفع طرف فستانها بقصد إبراز الجسد للواقفين.. ووقفت مشدوهًا وعيناي لا تفارقهن لما يقمن به من أعمال لم يسبق لي رؤيتها منذ ولدتني أمي. وإذا بالولد الغريب يقول بصوت عالٍ: شايف النسوان بتشلح أزاي، يا خبر أسود! ووقفوا يهللون كلما رفعت إحداهن فستانها. وجذب هذا عددًا من الرجال الذين يمرون في الشارع إلى التجمع حول النسوة الواقفات. واستمرت النسوة في الكشف عن أجسادهن، وإذا بأحد الرجال من ذوي الملابس الإفرنجية يشق طريقه إلى الداخل محتضناً إحداهن. وفي حرارة التصقت الشفاه وتعددت القبل، وتشابكت الأيدي، والتصقت الأكتاف، وسارا إلى الداخل.. ولم تمرّ لحظة إلاّ واقتحم أحد الشبان الطريق إلى الداخل، وفي حركة بارعة أخذ الثانية واجتذبها إلى صدره واضعًا شفتيها في فمه، ويداه ترفع في تباطؤ خصلات الشعر المدلاة على الخدود، وسارا إلى الداخل وهما متعانقان... ولم تمر ثانية إلاّ ودخل شاب ذو شارب مفتول وأخذ المرأة الباقية وسار بها إلى الداخل وهو يطوقها بذراعه. وقبل أن تختفي عن الأنظار قبض عبد العظيم على يدي وأطراف أصابعه تنتفض، وقال الشحات:

- إيه يا ولاد ده؟ هو احنا كنّا فين والحاجات دي فين، داحنا ما كنّاش في الدنيا.

فردّ إبراهيم:

- يالّلا بينا وأنا أوريكم نسوان تانيين. اللي يعيش ياما يشوف، واللي يمشي يشوف أكتر. هو أحنا مستنيين إيه؟ كل واحد واخد بيها على أوضة، وزمانهم.. وقهقه عاليـًا، ثم استرسل:

- ياللاّ بينا، هو أحنا قد دول، دول المتيسرين اللي معاهم فلوس أكتر. ياللاّ لما نتفرج عَ النسوان اللي على قدنا... اللي على قد حالنا.. والاّ نقف نسمع شوية؟!!

فقال الشحات:

- نسمع إيه؟ ما هم جوه دلوقتي.. هأو أو.. ياللاّ نتفرج على غيرهم عبال ما يطلعوا، دول زمانهم..

تقدمنا نحو الشارع ونحن نتلفت للنسوة الواقفات مستندات إلى الحائط، ونحن نسمع بعضهن يقلن:

- اتفضلوا.. هنا أرخص من اللي قدام، والعيال الصغيرين اللي معاكم فوق البيعة من غير فلوس.. تعالى يا واد يا صغير أنت وهوّه..

وقفت أنا والولد الغريب والولد السيد الصفطي وأيدينا متشابكة ننظر إلى النسوة الواقفات اللائي يلوحن لنا بأيديهن. وإذا بالولد الغريب والولد السيد الصفطي يخرجان لسانيهما ويحاورانهن، فاندفعت النسوة إلى الجري وراءنا وهن مصهللات من الضحك كالأطفال الذين يلعبون "حاورينا يا طيطا" وأسرعنا الخطى بعيدًا عنهن، وجاء خلفنا عبد العظيم والشحات. وأمام إحدى المنازل في العطفة الثانية رأينا امرأة طويلة رشيقة ذات عينين زرقاوين واسعتين، شعرها أسود طويل ويصل إلى الفخذين جالسة وسط مقعد مائلة بظهرها إلى الوراء، واضعة رجلاً على رجل فانحسر فستانها الحريري عن بطن فخذها، وأخرجت من صدرها علبة سجاير وأشعلت سيجارة وأخذت تدخن بشغف وهي تقذف الدخان في الهواء غير عابئة بالأنظار المتطلعة لما انكشف من لحم فخديها البيضاوين. وقفنا أمامها نتطلع إلى فستانها الحريري الأبيض الذي كشف عن مفاتن جسمها.

فنفخت دخان سيجارتها في استهانة، ورمت العقب، وأخذت تتطلع إلينا مبتسمة ابتسامة رقيقة وهي تتسلى بمعاكسة الرجال الذين يسيرون في الطريق، وإذا بعبد العظيم يقبض على يدي ويسير مدفوعًا نحوها، وتهمّ هي بالوقوف من على المقعد، فاجتذبها إلى صدره وهي تميل إليه راضية. أحاطها بذراعه الأيمن ويده الأخرى قابضة على يدي. نظرت إليهما في ذهول متطلعًا إليهما وهما يتبادلان القُبل. وحاولت الفرار، ولكن قبضته القوية على يدي لم تمكنني من أن أهرب.. ومالت هي نحوي واضعة يدها الناعمة عن رأسي وهي تقول بصوتها الناعم الرقيق: أنت خايف؟ تعال لما أبوسك. ولم تمهلني، وضمتني إلى صدرها.

ووضعت قبلة على فمي، ونظرت إلى بعينيها نظرة تأمل. ورقّت عيناها، وشحب لونها، وسرحت بخيالها كما لو كانت تتذكر أشياء. وبعد لحظة صمت تكلمت بصوت ضعيف قائلة: أنا ست منكسرة وضمتني إلى صدرها في حنان وهي تقول: تعال، ما تخافش. واستسلمت

لرقة قلبها وصوتها العذب الحنون غير عابئ بالأصوات التي تناديني من الخلف، صوت الولد الغريب والولد السيد الصفطي وهما يناديداني قَالِيَنّ: تعال، تعال يا وله، ما تـروحش. ولكـن رغبتي في معرفة ما سيدور بالداخل أقوى من هذه النداءات. سرنا إلى الداخل وذراعها الناعم على كتفي وأنا ملتصق بها، وعبد العظيم يسير في الجانب الآخر.

في الحوش الداخلي للمنزل وجدنا امرأة طويلة ذات عينين سوداوين وبـشرة سـمراء، تميل إلى السمنة وتناهز الخمسة والأربعين، جالسة على مقعد وبجانبها طقطوقة عليها كنكـة وفنجان صيني وبيدها جوزة فوقها حجر طمباك، والغابة بين شفتيها. قـذفت بالـدخان فـي الهواء، ووقفت أمامها مشدوهًا متعجبًا من هول ما رأيت، وقلت في نفـسي: امـرأة تـشرب الجوزة دون حياء، يا خراب أسود، دي ولا الراجل. ولم استمر في تأملاتي، فقد مالت المرأة التي كانت معنا على المرأة الجالسة وهمست كلمات في أذنهـا، فـردت الأخـرى بقولهـا: ما تتوانيش في الداخل. وكان الجواب: حاضر يا معلّمة.

وواصلت السير إلى الداخل واضعة يدها على كتفي. وأمام باب إحدى الحجرات، توقفت ووضعت يدها على زرّ فأضيئت الحجرة، وقالت: اتفضلوا. وبالداخل كان بـالحجرة سـرير مفروش بملاءة بيضاء مدلاة حتى البلاط المتعدد الألوان، وبجانب السرير كنبة وثلاث كراسي خيزران. وعلى الكنبة جلس عبد العظيم يخلع حذاءه وجلست هي بجانبه.

وفي الحال خلعت الشابة فستانها الحرير الأبيض وبقيت بقميصها الفستقي الشفاف الذي كشف عن مفاتن الجسد، ووقفت شبه عارية وعيناها لا تفارقني، ثم قالت لعبد العظيم بـصوت حزين خافت بعد أن خلع جلبابه وتوجه نحوها: "عبد العظيم" جذبها نحوه ووقفا يتبادلان القبل ذات اليمين وذات اليسار، فقالت بدلال: "ما تحاسب، هوّ أنت شهوان؟" فردّ عبد العظيم: "إيـه، شهوان طبعًا، حاجات حلوة ماشفتهاش، ملبن". فاحمرت وجنتاها، ونظرت لـي بعـين شـبه ناعسة وقالت: "وأنت حتستنى كده لوحدك؟ استنى لما أجيب لك حاجة تتسلى بيهـا عبـال.." ومالت على كيس على الشباك وأخرجت برتقالة ووضعتها في يدي وقالـت: "خـد، فكرتنـي بالحبايب، كنت ناسياهم" واتجهت نحو السرير ومالت على الوسادة وبجانبهـا عبـد العظـيم، واحتضنها. لم أتمالك نفسي فأحنيت رأسي على الأرض، ووضعت يدي على عينـي لكـي لا أرى. وبعد قليل جاءت ورفعت يدي من على عيني وقالت، "خـلاص، شـيل إيـدك، أنـت مكسوف؟" وضمتني إلى صدرها في حنان وقالت: "أنا زي أختك" ووضعت قبلة على عينـي، فأسرعت – وبدون أن أعي – قلت: "لا" وفلفصت منها وقلت: "أنت لو كنت زي أختي كـان زمان أخويا موتك". شحب لونها ونظرت إلى بعينين مغرورقتين بالدموع وصمتت لحظة كما لو كانت تستعيد ذكرى، ولم تستطيع حبس الدموع فتساقطت. ورقت نظرة عينيها، وتكلمـت

بصوت ضعيف قائلة: "أنا واحدة تعيسة أفقدني الشقاء وعيي، وهربت خائفة بعد أن أسلمت له نفسي، وأنا أدفع ثمن جريمتي. لم يف بوعده، وتخلّى عني بعد أن أسلمت له أعز ما أملك، ورجوته أن يستر العرض الذي انتهكه فلم يستجب للرجاء.. لم أستطع مواجهة أمي التي ولدتني وتولتني برعايتها، ولا أخي الذي كان مصدر فخر الأسرة، وخرجت بالليل أهيم في الطريق دون وعي خائفة من الفضيحة ومن شماتة الأعداء، فاشتغلت ضعفي واحتياجي تلك الأيدي الشريرة في نفس الطريق.. بيع الجسد في سبيل لقمة العيش. كل ما يؤلمني أنكم تنظرون لي على أني عاهرة، والحق أني يائسة خدعني الشيطان.. كلما رأيت رجلاً يسير في الطريق تذكرت أخي يوم كان يسير في عطفة قريتي رافع الرأس، وكلما رأيت امرأة تحمل طفلاً تذكرت أمي..." واسترسلت قائلة: "دا وعد مكتوب، واللي مكتوب عَ الجبين لازم تشوفه العين." وتطلعت إلى السماء قائلة: "كفاية.. كفاية يا رب، أريد أن أكون بعيدة عن هذا المكان... أنا الآن أكرهه.. أكرهه بكل ما فيه من شقاء ومهانة" وأحنت رأسها واستسلمت للبكاء. وفجأة فُتح الباب وأطلعت منه المعلمة وعيناها يتطاير منها الشرر، وقالت بصوت خشن: "خبر إيه فيه ناس عند الباب، مش خلاص.. الليلة خلصت ولسه لحد دلوقت ما استفتحناش وزرعت الباب خلفها، وخرجت غاضبة. وهمت الشابة من المقعد، وسحبت الفستان من على الشماعة، ووقفت تجفف الدموع المنهمرة من عينيها، وبقيت صامتة لحظة، ثم تكلمت بصوتها الناعم الحنون: "خبر غيه.. ملهوفة عَ الفلوس، والفلوس بس.. كل شيء واخده" وسكتت لحظة وقالت: "امتى الوعد يخلص وينمحي المكتوب." ونظرت إليّ لحظة خاطفة وتحركت دون أن تتكلم.

خرجت من الحجرة ويدي في يد عبد العظيم، أتوقف بين خطوة وأخرى وأتأمل بعينين لا تريان شيئًا. خرجت من الباب ونظرت أمامي فوجدت الولد الغريب والولد السيد الصفطي، والتفّا حولنا مهللين في انتظار أن يسمعا ما رأيناه وما فعلناه مع تلك الشابة في الداخل، ولكني لم أتكلم، وابتسمت ابتسامة مريرة، وتطلعت حولي وقد بدا لي كل شيء كريهًا تعافه النفس.

قال الشحات: ما لكم كده طالعين مبلّمين؟ هي خبطت منكم الفلوس. أصل معظمهم بينتهزوا فرصة شهوة الإنسان وقت اللحظة الحاسمة ويخبطوا ما معه من نقود.

فقال عبد العظيم.

- انتم بتتوهموا أشياء لم تحدث. هي لم تأخذ مني سوى ما اتفقت عليه. وهي لم تأخذ الفلوس وحدها، بل اقتسمتها مع من شجعتها عن السير في هذا الطريق. إنها جميلة جدًا وكريمة جدًا، أعطت فكري برتقالة، وبكت كثيرًا لما ذكرها به من ذكريات مؤلمة..

وقاطعه الولد الغريب موجهًا كلامه لي:

- أنت مالك كده؟ طالع عينك حمره.. أنت مش أخدت برتقالة وشمطها لوحدك.

ولكنني لم أجب، وبقيت صامتًا شارد الذهن لا أتكلم.

وقطع الصمت إبراهيم قائلاً:

- فاضل معاك فلوس يا عبد العظيم؟
- لأ.. خلاص، الله جاب الله خد الله عليه العوض راحوا في نزوة واحدة.

فقال الشحات.

- أمال حتصرف منين طول الأسبوع؟
- حاصرف منين؟ يعني إيه؟ كله على الله. اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب.

استمروا يتحدثون وأنا صامت. وكانت أعين الولد الغريب والولد السيد الصفطي لا تفارقاني طوال الطريق.

تفرق الجميع كل إلى منزله. وبقيت صامتًا رغم محاولات الولد الغريب والولد السيد الصفطي إخراجي عن صمتي لمعرفة ما حدث. ولكن شبح الشابة وبكاءها كان ماثلاً أمامي رغم ازدحام الطريق وكثرة الجالسين على المقاهي، وضجيج الباعة المتجولين. لم أكن أتصور أن النساء يبعن الجسد في سبيل لقمة العيش. كنت أظن غير ذلك. أعرف أن النساء يتزوجن مثلما كان يحدث في قريتي، وأن أي بنت تجلب العار لأهلها يجب أن تذبح. هذا ما كانت تقوله أمي، وهذا ما قلته للشابة، وهذا ما أبكاها. لم أكن أظن أن الرجل – أي رجل – يتخلى عن البنت بعد أن يسلبها أعز ما تملك. وهكذا رأيت بعض النسوة واقفات بملابس شبه عارية، لقد وجدن في هذا المكان مأوى. إن الخوف من الفضيحة، ومن مواجهة الأهل والموت، قذف بهن إلى هذا المكان.

إن الأيدي الشريرة قد تلقفتهن وسارت بهن في هذا الطريق، مستغلة في ذلك ضعفهن والاحتياج للقوت والمأوى.. وهن يكرهن من تسببّ في ذلك ويحقدن عليه، ويتمنين أن ينتهي الوعد وينمحي المكتوب... هكذا قد سمعت.

استمر شبح الشابة وبكاؤها ماثلاً أمامي طول الطريق، ولم يفارقني هذا الشبح إلاّ بعد أن أغمضت عيني واستسلمت للنعاس...

الخفراء والمدير

صحوت في الصباح على دقات عالية متوالية، وصوت لم أتعود سماعه. وقمت مفزوعًا وفتحت الباب فإذا بي أجد بنتًا في حوالي الخامسة عشرة من العمر، ذات عينين خضراوين وبشرة بيضاء وشعر طويل أصفر خصلاته غزيرة. تكلمت وهي ترفع خصلات شعرها المدلاة على الجبين بذراعيها العاريين، قالت:

- أمي بعتاني عشان أصحيكم، الساعة بقت ستة، يا دوب تغسلوا وشكم.. أنتم كنتم فين طول النهار امبارح، الأوضة ما اتفتحتش وكانت مسكوكة طول النهار.. أمي كانت قلقانة عشانكم من يوم ما سكنتم عندنا لم تتعودوا الخروج في يوم العطلة. كانت أمي تخبط على الباب كلما عادت من الخارج. كانت عاوزة تسيّق الأوضة، وكانت خايفة عليكم أحسن حضّ الله يكون جرى لكم حاجة.. أنتم كنتم فين؟

فرد الولد الغريب:

- كنّا بنتفسّح، مصّينا قصب، ورحنا المستشفى نزور ناس والعمال المتعورين، عورهم المكن، وعمال تانيين كانوا بيكحوا وطرشوا دم قدامنا، وسيبناهم هناك نايمين.

فشحب لونها، ورجعت خطوة إلى الوراء، وقالت:

- يا عيني، حضّ الله، من إيه؟

فرد الولد السيد الصفطي:

- عيانين بالسّل، الحكيم قال كده.

وازداد شحوب لونها، وامتعضت صارخة:

- حض الله، حضّ الله، يا رب.. خليّ بالكم يا واد أنت وهوه، خلوا بالكم من نفسكم.. وإذا طفل يناديها، فتخرج مسرعة وهي تقول:

- اتجدعنوا... اتجدعنوا... اغسلوا وشكم عشان تمشوا على مهلكم.

واختفت.

وبدأ كل منا يخرج من قفته العيش ليصره في المنديل، وعيش آخر للفطار. وبينما نحن منهمكون في التحضير، إذا بنا نسمع صفارة المصنع تزعق معلنة توقف عقارب الساعة على

السابعة إلاّ خمستاشر دقيقة، وهو الميعاد الذي يبدأ فيه فتح الأبواب الأربعة ليتدفق العمال إلى داخل العنابر. وخرجنا من الأوضة مسرعين، وأغلقناها دون أن نفطر.

في الشارع، وضع كل منا طرف جلبابه بين أسنانه وطرنا كالريح، ولم تسعفنا أقدامنا في الجري فخلعنا أحذيتنا.. لم نكن وحدنا المتأخرين بل كانت الشوارع مكتظة بالمئات مثلنا، وكل منهم واضع حذاءه تحت باطه وطرف جلبابه بين أسنانه، الكل بيرمح زي الخيل، كل واحد عاوز يوصل قبل أن تغلق الأبواب ويحرم من أجر اليوم. كل واحد لا يفكر إلاّ في نفسه. وكنت أجري كالريح خوفًا من التأخير، وأنظر خلفي فأجد الكثيرين يجرون ووجوههم شاحبة وألسنتهم بارزة بين الشفاه كالدواب التي أنهكها العمل. وتذكرت قول أمي: إذا جالك الطوفان حط ابنك تحت رجليك. هكذا رأيت وتذكرت. رأيت من وقع على وجهه وتكعبل من الجري ولا أحد يأخذه بيده. ورأيت من يقذف بزميله إلى الخلف ليتقدم هو. ونظرت حولي، فلم أجد الولد الغريب ولا الولد السيد الصفطي، فقد فرقنا الزحام. واصلت السير وأنا الهث. ومن على بُعد خطوات قبل أن أصل إلى البوابات الأربع المفتوحة، وجدت الشحات وإبراهيم وآخرين ممن كانوا معي بالأمس، وجدتهم يمسكون بيدي ويقولون:

- أنت متأخر زينا؟ أحنا كانت حتروح علينا نومة. إجري أحسن الأبواب حتقفل ونحرم من حساب اليوم.. أجري يا ولد.. إجري احنا قربنا.. إجري أحسن الغفر مسكوا الأبواب وحيقفلوها..

وكنت أسمع كثيرًا من الأصوات في طول الشارع وعرضه. أصوات تصبح: إجري.. وكل منهم يشجع الآخرين.

كانوا يجرون حفاة الأقدام. وكانت أقول في نفسي: هل من الممكن أن تبقى هذه الأبواب مفتوحة على أن تدخل كل هذه الجموع؟ وتمنيت هذا، ولكن أملي خاب عندما وصلت إلى الباب، وبدأ الخفر ذوو البدل الصفراء بدءوا يواربون الأبواب رويدًا رويدًا عندما توقفت العقارب على الساعة السابعة. كان الشارع ما يزال مكتظًا على طوله. ومرقت من تحت أرجل الخفراء وهم يغلقون الأبواب. وكان العمال يزعقون في الخارج ويحاولون فتح الأبواب بالقوة، وهم يصيحون: أحنا موتنا نفسنا من الجري، هوّ إيه؟

هي دقيقة أو خمس دقائق زيادة تخليكم تقفلوا الأبواب في وشنا، حرام عليكم... اليوم حيروح، إحنا في عرض اليوم..

وكادت أن تنشب معركة بين العمال والخفراء – العمال يحاولون أن يقفزوا، والخفراء – بقلوبهم الغليظة وعصيهم الكبيرة – يحاولون أن يغلقوا الأبواب. وتجمع العمال وكثر العدد، وبدءوا يصيحون: زق الباب يا وله.. اليوم حيروح علينا.. يا ولة.. وتجمعت الإرادة القوية،

إرادة العمال المصممين على الدخول واحتساب يوم العمل: تمكنت من فتح أحد الأبواب عنوة، وتدفق العمال إلى الداخل وهم يهللون بنشوة الانتصار. ولكن الخفراء، الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة، لم يقبلوا الهزيمة. فسحبوا عصى الخيزران الرفيع التي يستخدمها الفلاحون في سوق الحمير والكرابيج السوداني الملفوف عليها أسلاك من النحاس الأصفر، ونزلوا على العمال ضربًا بعد أن أخذوا الأوامر دون تمييز، فكانت العصيّ والكرابيج تنهال على الوجوه والرءوس دون رحمة إلى أن سالت الدماء من كل مكان في أجساد العمال، وتمكنوا بهذه الوحشية من تفريق العمال وإخراجهم إلى الشارع، وأغلقوا الأبواب. وتحولت البسمات والوجوه الضاحكة بالانتصار إلى بكاء خلف الأبواب المغلقة. ووقف الخفراء في صف منتظم يشمرون عن سواعدهم، وعلى وجه كل منهم ابتسامة صفراء، وأمامهم القائد، وهو أحد الضباط، في زيه الرسمي. وهو أحد المحالين على المعاش في الجيش أتت به الشركة خصيصًا لهذا الغرض. وقف القائد أمام الخفراء يشجعهم ويحثهم على المزيد مما يفعلون. واسترسل في كلامه إلى الخفراء قائلاً: لقد أديتم واجبكم على خير وجه. إن هؤلاء ما هم إلاّ لمامة من كل البلاد يجب إخضاعهم حتى يتعودوا إلاّ يتلفتوا وراءهم. إن هذه الحثالة يجب أن يتعودوا النظام، ولن يتعودوه إلاّ بمجهودكم هذا.

واستطرد بلهجة عسكرية: أدعوكم أن تكونوا في يقظة دائمة لمثل هذه الأعمال. يجب أن تعودوا هؤلاء على أن يسيروا خافضي الرأس... مفهوم أنت وهوّه..

- مفهوم يا افندم..

ولمحنا القائد ونحن واقفون على البعد، فأرسل أحد الخفراء خلفنا، فأسرعنا نجري إلى الداخل، فلم يلحق بنا لأننا كنا قد اختفينا خلف الماكينات في العنابر.

وبعد أن شعرنا بالطمأنينة سرنا على مهل نجفف العرق بأكمامنا. وذهب كل منا في طريقه.. ووصلت إلى المكنة التي تعودت الوقوف بجوارها، وإذا بعبد العظيم، وهو العامل الذي أخذ على عاتقه تعليمي، منهمك في الشغل فلم يرني، فجلست خلف المكنة لأستريح من عناء الجري وألتقط نفسي وأستعيد روحي التي كادت أن تزهق، وإذا بعبد العظيم يراني من خلف المكنة، فبهت لأنه كان قلقًا لتأخري. وحاول أن يكلمني بصوت عال وهو واقف خلف ماكينات النسيج ولكنني لم أسمعه ولم أفهم ما يريد، وبقيت في مكاني لا أتحرك، فقد ضجيج آلاف التروس وزئير السيور وخبط المواكيك في الأدراج يغطي على أصوات العمال. ولم يكن أحد يستطيع أن يسمع إلاّ صيحة "هُوه..." التي فرضها علينا ضجيج الآلات..

وجاءني عبد العظيم يجري لأنه لم يتعود أن يراني هكذا، فمال على أذني لكي أسمع وقال:

- إيه؟ مالك؟

كان وجهي مصفرًا من شدة التعب، ولم أستطع الرد عليه لأن نفسي كان ما زال مكروشًا. واسترسل هو قائلاً:

- إيه؟ مالك؟ أروح أجيب لك شوية مية؟

لم ينتظر الرد، وأسرع إلى دورة المياه، وأحضر مية في طاقيته، وقذف بها على وجهي، فشهقت، وبلعت ريقي، واستردیت روحي التي كادت أن تُزهق. وقال عبد العظيم:

- إسمع.. قوم، قوم اقف على حيلك واستند على المكنة وأعمل نفسك بتشتغل أحسن المدير بيمر.. مدير النسيج. صادق بك راجل ما يحبش يشوف مكن واقف، وما بيضربش إلاّ بالشلوت، ومابيهموش المكن فيه إيه. كل ما يهمه أن يكون المكن داير.. ما يهموش إن كان فيه فتل متقطعة أو مافيش، أو فيها تصليح أو مافيهاش.. كل ما مايهمه أن يكون المكن داير، داير وبس. ساعة ما بيخش العنبر كل الدنيا بتتلجلج، حتى الرؤساء ساعة ما بيشوفوه يجروا زي المجانين، يلطّشوا في العمال يمين وشمال، ويزقوا الفرامل حتى ولو كان المكن عطلان. كل اللي يهمهم إن المدير يمين وشمال، ويزقوا الفرامل حتى ولو كان المكان عطلان، ما بيفرقش بين العامل والمساعد، إذا لقى مكنة واقفة يضرب العامل ويضرب الميكانيكي، وما يحلاللوش الضرب إلاّ بالشلوت..

خلي بالك قوم. وحتى المكن راخر زي ما يكون عارف إن المدير بيمر. المكنة الشغالة ساعة ما تشوفه تقف، ساعة ما تشوفه تتكهرب ويركبها تلاتين عفريت.. ويا ويل لو أشتكى أي عامل له. الرؤساء والمساعدين يروحوا ملطشين العمال على وجوههم، وتكون داهية العمال سودة. وعشان كده الواحد لا قادر يشتكي ولا قادر يعمل حاجة.. هم لوحدهم اللي في إيديهم كل حاجة.. المدير لا بيمر ولا يستنى في العنبر أكثر من ساعة ونص، وهم اللي في وشنا طول النهار. راح نعمل إيه؟ المدير قاسي، والرؤساء هم كمان جبابرة.

وتلفت عبد العظيم حوله، وإذا به يقول في صوت ينم عن الفزع.

- خلي بالك، لف ورا المكنة بسرعة، قرب علينا، أهو جاي أهو، من أول الصف عند آخر العنبر.. هناك أهو..

وشمرت ذراعيّ، وبدأت أتحرك حول المكنة كالنحلة. أنزل الفتل الزايدة، وأقطع الفتل الطويلة والعُقد، وعبد العظيم أمام الماكينات واقف يغير المواكيك كلما انتهت مواسير اللحمة المليئة ويركب غيرها، وكل ما يرجوه أن يمر المدير في هذه اللحظة ويجد المكن شغال وليس بالقماش فتل مقطعة، وكنت أنظر في طول العنبر وعرضه فلا تقع عيناي على ذراع مكنة

متوقفة. كل المكن شغال، والعمال عمالين يرفعوا الشوكة ويردوا المكنة لحد المدير ما يمر. والرؤساء والمساعدون والميكانيكيون يجرون في العنبر، يزقون هذا ويضربون ذاك، والمدير يخرج من طرقة ويدخل أخرى. طويل وأسمر، وعلى رأسه طربوش أحمر غامق، ومنظار أسود، وبدلة رمادية، كان يسير في خطى بطيئة، ويداه مشبكتان خلف ظهره، ورأسه مرفوعة، ويتطلع يمينًا ويسارًا على صفوف المكن المرصوص على الجانبين. وفجأة توقف عن السير، ومن خلف ظهره رئيس الصالة على بُعد خطوات وشاور بيده على أحد العمال، وشاور على آخر. وجاء الاثنان في تباطؤ وفي حالة من الذعر والفزع والشديد. ولما وقفا أمامه لم يمهلهما لكي يعرف السبب، بل بادر كلاً منهما بصفعة على وجهه ورفسة في بطنه، وطردهما بصفعات أخرى على الوجه، دون أن يعرفا سببًا لذلك، وتكهرب الجو في العنبر. وبدأ العمال يقفون كالزنهار، يتطلعون خلسة لما يجرى، وازداد الجو تكهربًا بعد أن ضرب عمالا آخرين بشكل أكثر عنفًا، وسار في العنبر كالمجنون يلطش كل من يقابله.

وقال عبد العظيم.

- شايف، شايف ابن الكلب. بيضرب دون أن يبالي وحاولت أن أتطلع، فجذبني قائلاً:
- ما تبصش ناحيته، كل ما يغيظه هو أن يرى العمال واقفين ورءوسهم مرفوعة يتطلعون نحوه. هذا ما لا يريده.. لف، لف ورا المكنة، وقطع العقد، ما هماش عاوزين العامل يرفع رأسه، عاوزينه دايمًا موطيها.

وكنت ألف وراء المكنة دون توقف، محاولاً بذل كل جهد في تقطيع العقد، وتسليك السماسم لكي تظل المكنة تدور ولا تتوقف وفي هذه اللحظات، كان العنبر كله في حركة. كل العمال يجرون، والمباشرون يتحركون بين الصفوف محاولين مساعدة العمال وزق الفرامل وتتغير المواكيك في الأدراج، والعربات المحملة باللحمة يدفعها العمال في الطرقات، وعمال النسيج ينقلونها بسرعة البرق على الماكينات كل ما في العنبر يتحرك.. لا صوت إلا زئير السيور، وضجيج التروس، وسرعة الماكينات المذهلة. والمدير ما زال ينتقل من طرقة على طرقة، ومن صف إلى صف.

تلفت حولي فوجدته يقترب مني، تمنيت أن أهرب من أمامه خوفًا من أن ينالني منه أذى، وجال بخاطري أن أهرب إلى المراحيض لكي لا يراني، ولكني تنبهت إلى أنها مغلقة في هذه الساعة المشئومة، ومحرم على العمال الاقتراب منها. وأسلمت أمري للظروف مثل غيري، وإذا بالمدير يقترب رويدًا رويدًا. وحاولت جاهدًا انتزاع الرهبة من قلبي، وتذكرت قول أخي عندما كنت أسير خلفه وهو يتحدث مع آخرين: "كن شجاعًا وقت الشدائد".. "قف بثبات، طاردًا الخوف من ذهنك يهابك العدو".. وتمثلت هذا القول، وشمرت عن ساعدي،

ووقفت رافع الرأس في ثبات، وعبد العظيم يقف أمامي ويداه على الفرامل يقف في اعتـــزاز، وعيناه المنتبهتان نحو المكوك تتبعه في سرعته وهو يتجه من درج إلـــى درج، لكـــي يغيـــر المكوك في لحظة انتهاء ماسورة اللحمة، ووضع غيره في خفة نادرة، لكي لا تتوانى المكنـــة عن الدوران في هذا الوقت المشئوم. وتلفت حولي، وإذا بالمدير يسير بخطـــى بطيئـــة جـــدًا، ورأسه في السماء يلتفت ذات اليمين وذات اليسار. ثبتّ عيني على المكنة وأنا أشعر أن كل ما حولي يهتز.. وتوقف بجواري ونظر لي كما نظر إلى عبد العظيم وهو واقف دون خـــوف أو رهبة أمام الماكينات الدائرة ويده مثبتة على الفرامل استعدادًا للعمل، والعمال الآخرين الذي لا يتوقفون عن العمل وعن السرعة في استخدام الفرامل.. وقف المدير بجواري، على جـــانبي.. وتأمل وجوه العمال الذين يقفون في ثبات، ولم يكلمني، ثم توجه نحو عبد العظيم ونظر إلـــى القماش فلم يجد به عيبًا، وظننت أن صفعة سوف تنزل على وجهه وأنا بعـــده.. وانتظـــرت.. ولكنني رأيته يضع يده على القماش المنسوج فلا يجيد ما يدعو إلى الاعتداء، كان كل شـــيء يسير على ما يرام.

كان العمال يقفون على أهبة الاستعداد للعمل بنشاط، فلم يسعه إلا أن يتقدم فـــي خطـــى بطيئة بعد أن ألقى نظراته على الواقفين هنا وهناك. وبدأ يتحرك دون اعتداء، وابتعد رويـــدًا رويدًا متجها نحو الباب الموصل إلى الإدارة، وبدأت الطمأنينة تعود إلى القلوب والبسمة تعلو الشفاه.. شاعت الطمأنينة بين الجميع، وبدأت التهاني لكل من تفادى اعتداءات المدير..

ساد الهدوء في العنبر بعد أن تكهرب الجو وقت مرور المدير واعتداءاتـــه دون ذنـــب للعمال اللهم إلا إشعاعه الفزع في القلوب ولإخضاع العمال للرؤساء. تلك هي كانت القضية.. عادت الطمأنينة وبدأت الحركة.. حركة من التساؤلات في كل مكان من العنبر، وتجمع العمال المتجاورون على المكن وبدءوا يتحدثون والرءوس تتمايل على الأذن لكي تسمع رغم دوشـــة الماكينات والشفاه تتحرك متسائلة، ولا إجابة.

ودخل العنبر أحد السعاة وبيده ورقة مكتوبة وتوجه بخطى سريعة نحو رئيس الـــصالة، وناوله إياها، ووقف الرئيس يقرأ والعمال تترقب، وتوجه الساعي إلى رئيس آخر، ثم آخـــر، إلى أن مر على الجميع. تجمعوا، وساروا خلف بعض متجهين نحو الإدارة والساعي خلفهـــم يلوح بالورقة، والأنظار تتطلع متسائلة. وازدادت التساؤلات والهمسات..

منشور من الإدارة

كلهم خرجوا نحو الإدارة، ففيم يتحدثون؟

أسئلة كثيرة محيرة. فقال البعض: سيتحدثون في العلاوات، سمعت هذا من قبل. وقال آخرون: سيتحدثون في تخفيض ساعات العمل.. وأضاف آخرون: لا هذا ولا ذاك وإنما سيتحدثون في سحب العمال الجدد الذين تعلموا ويسلمونهم المكن الجديد. وردّ آخرون: إنهم لا يتحدثون إلاّ في زيادة الإنتاج، هذا ما تعوّدناه في حالة مرور المدير واعتداءاته على العمال.

أما أنا فقلت: "إنهم لا يبحثون عن إسعادنا، بل يبحثون عن مزيد من الشقاء.. ألم تسمعوا عمّا حدث في هذا الصباح.. أغلقوا الأبواب، أغلقوها في وجه العمال لأنهم لم يأتوا قبل الميعاد، ولم يكتفوا بالغلق بل ضربوا العمال بالعصى والكرابيج إلى أن سالت الدماء من وجوههم وتركوهم يبكون في الشارع، ووقفوا هم خلف الأبواب يبتسمون من نشوة الانتصار. هذا ما حدث في الصباح، ألم تسمعوا عن ذلك. وها نحن قدر رأينا بأعيننا ما تم اليوم في العنبر، إنها خطة موضوعة للإذلال. هذا ما سمعته اليوم من الضابط المختص وقت أن أصدر الأمر إلى الخفراء بالضرب".

وفجأة توقفت المكنة فذهبت لأدورها.. ثم تفرق العمال كل إلى ماكينته، وإذا بالرؤساء يدخلون وفي أيديهم ورق مكتوب. واتجه كل منهم إلى الصالة وبدءوا يعلقون الورق على الجدران، واتجهت الأنظار نحوهم متطلعة متلهفة. وساروا جميعًا نحوهم. وذهبت مع الذاهبين لنرى ماذا في الإعلانات الملصقة على الجدران. وتجمع العمال، واحتشدوا، وبدا كل منهم يدفع الآخر محاولاً أن يقرأ. وإذا بهم يفجعون، ووجوههم تصفر من هول ما قرءوا. لم يكونوا يتوقعون هذا. وبدأت همهمة وأصوات ترتفع من الخلف.

"مش معقول، إقرا يا جدع وسمعنا، إيه ده؟".

"هم حيضربونا برده وحيضربونا جوّه وكمان ما استكفوش..".

"أقرأ يا جدع تاني، أقرا وسمعنا".

"أهُهُ.. بأمر المدير العام، ممنوع منعا باتًا على عمال النسيج أن يذهبوا إلى دورة المياه إلاّ بتصريح خاص من الرؤساء، وكل من يخالف ذلك سيعرض نفسه لأشد أنواع العقاب".

وارتفع صوت من الأمام قائلاً:

"أنا مش قلت أنهم عاوزين يذلّونا..

.. عاوزين يربطونا جنب المكن، جالكم كلامي".

وآخر: "وإحنا حنعمل إيه؟ هو حد قادر يتكلم؟".

ولاحظ الرؤساء كثرة الكلام، ففرقوا العمال، فسار كل واحد إلى ماكينته وهم حيارى. وأخذوا يتحركون حول المكن في تباطؤ ودون حماس. وانتشر الرؤساء في العنبر يترقبون. وأغلقت دورة المياه بعد أن أحضروا لها أحد الخفراء للحراسة. وتعسف الرؤساء، وزاد تعسفهم في عدم إعطاء تصاريح للذهاب للدورة.

بدأ العمال يتألمون وأخذوا يتسربون إلى الدورة دون علم أو تصريح من الرؤساء، والخفير يمنع. وازداد الألم والتأوهات، وبدأت الصرخات: "عايزين نصيرّ، عايزين نعمل زي الناس، الميه حتفرتكنا". ولم يبال أحد من الرؤساء بآلام العمال، وبصرخاتهم وتأوهاتهم، مكتفين بهز الرءوس، غير عابئين بالألم. وإذا بأصوات تعلو من الخلف، وعمال يعدون نحوها تاركين المكن، بينما اكتفى آخرون بالوقوف يشاهدون من بعيد ما يحدث.

كان أحد الرؤساء يمسك بتلابيب عامل محاولاً دفس رأسه بين تروس المكن لأنه تجرأ وطلب تصريحًا للذهاب للدورة. ووقف العمال يتطلعون في هلع صائحين: "سيبوه، سيبوه". وهالهم اشتداد الضرب. واندفع بعض العمال من ذوي السواعد القوية غير عابئين بما قد يحدث، اندفعوا محاولين تخليص العامل من بين يدي الرئيس، وتمكنوا من انتزاعه بعد مقاومة قصيرة، وهال الرؤساء ذلك، وأخافهم، وعدّوه مهانة لأشخاصهم.

تفرق العمال بعد ذلك وعلى الوجوه كآبة، ووقف كل منهم على ماكينته وعيناه لا تفارق الرؤساء الغارقين في التفكير فيما يفعلون وهم ما يزالون في أماكنهم يتطاير الشرر من عيونهم. ولاحظ العمال ذلك، وأيقنوا أن شرًا كبيرًا ينتظرهم بعد أن غادر الرؤساء العنبر متباطئين متأبطى أذرع بعضهم البعض.

لم يمر وقت طويل حتى عاد الرؤساء مشمرين عن سواعدهم، ومن خلفهم أربعة خفراء فارعي الطول، وجوههم كريهة مرعبة، وفي يد كل منهم كرباج سوداني طويل به كثير من العقد المصنوعة من أسلاك النحاس الأصفر. وبدءوا يدخلون من طرقة ويخرجون من أخرى باحثين عن العامل الذي كاد الرئيس أن يدفس رأسه بين التروس والعمال الذين انتزعوه من يديه ساروا في الطرقات ينظرون في الوجوه، والخفراء خلفهم ينتظرون إصدار الأوامر. وكان العمال يتفادون النظر إلى تلك الوجوه الكريهة خوفًا من تلقيح الجتت. واستمر الرؤساء في البحث إلى أن وجدوهم واقفين بجوار المكن في ثبات، وأخذوهم كالمقبوض عليهم، وساروا بهم إلى الخارج متجهين ناحية المكاتب. ومر وقت قليل. وعاد الرؤساء وحدهم، دون أن يكون العمال معهم.

وبدأت التساؤلات: "أين ذهب العمال؟ أين هم؟ ماذا حدث؟ هل ضربوهم مثل ما ضربوا العمال في الصباح... وترددت أسئلة كثيرة.. وقطع التساؤل توقف الماكينات، وذهب الجميع للأكل وقت الظهر. وقال لي عبد العظيم:

إحنا حنروح فين؟ حنطلع بره والاّ حنتغدى جنب العنابر؟

- ياللا نطلع بره.
- طيب، هات عيشك.

أخذت أبحث عن المنديل الذي به الأكل جنب الماكينات فلم أجده، وكذلك لم أجد الحذاء واستمريت أبحث، وطال بحثي. فقال:

- أنت بتدوّر على إيه؟
- على الأكل.. الأكل بتاعي.. على المنديل... أنا مافطرتش.
- أنت متأكد أنك جبت المنديل؟
- أيوه، جبته معايا، وشلته تحت باطي وأنا طالع من الأوضه.
- والجزمة فين؟
- وأنا باجري قلعتها وحطيتها تحت باطي عشان ألحق الباب قبل ما يقفل.
- يعني إيه؟ مش معقول.. حد هايسرق الجزمة؟ أنت أول ما جيت الصبح، حطيت العيش فين؟
- تحت المكن.
- مش معقول، أنت أول ما جيت نمت ورا المكن، وكنت مسورق وقلت "الجزمة.. الجزمة راحت فين، ما عنديش غيرها. أروّح ازاي، أروّح حافي؟" لازم الجزمة وقعت منك وأنت بتجري.

حاولت أن أتذكر، ولكني لم أتذكر في أي مكان وضعتها.. ولم يعد يشغلني العيش قدر ما تشغلني الجزمة.. كيف أمشي حافي القدمين، وماذا تقول أميّ عندما تراني. هل تصدق أنها ضاعت؟ وماذا تقول أختي عندما تراني في البلد حافيا، بينما الولد "الغريب" والولد "السيد الصفطي" يلبسان الجزم، هل تصدق أمي أنها ضاعت في الطريق وأنا أجري.

سوف تقول أمي: أنت خايب، وكذلك ستقول أختي. وسوف يقولون لماذا لم تضع جزم الولد "الغريب" والولد "السيد الصفطي"؟؟

- ياللا بقه، ياللا عشان نلحق نأكل. أحنا حنتأخر.

- أنا ما معاييش عيش.

فقال:

- لقمة هنية تقضي ميّه.

وسرت معه وأنا في غاية الألم بسبب ضياع الجزمة وخوفي من أمي. سرت شارد الذهن، لا أفكر في الجوع ولا في الأكل قدر ما كنت أفكر في الجزمة التي ضاعت ولم أعثر لها على أثر. وخرجت من باب العنبر، وإذا الطرقة مزدحمة بالعمال الخارجين لشراء ما يلزمهم من طعام، وهم يسيرون بخطى سريعة رغم الزحام، كل منهم يحاول أن يسرع قبل انتهاء الساعة المخصصة للغذاء. كانوا يتدافعون مسرعين، وأيديهم ملطخة بالسواد وشعورهم معشش عليها الزغبار ولم تغسل لضيق الوقت.

وعندما وصلنا إلى الحوش المجاور للإدارة، وجدناه مزدحمًا بالعمال، ولم يكن به مكان لقدم، وخيّل إليَّ عندما وقعت عيناي على كل هذا العدد أن الأبواب الخارجية مغلقة، وأن أمرًا ما قد حدث، مما دفع إدارة الشركة إلى حجز العمال. ولكن ما حدث كان غير ما توقعت. كان العمال يقفون لقراءة منشور ملصق على الجدران أنساهم ما فيه شراء ما يلزمهم من غذاء كانوا يتدافعون نحو الجدران للتمكن من قراءة المنشور، كل منهم يحاول أن يقرأ بنفسه ليتأكد مما فيه. كانت الأيدي تلوح، والشفاه تتحرك غاضبة. وأنساني الزحام حزني على الجزمة وضياعها. واندفعت وسط الجموع المحتشدة محاولاً الاقتراب من الحائط الملصق عليه المنشور. وبعد جهد شاق، دفعتني الأيدي القوية للالتصاق بالحائط. ووقفت أقرأ مثلما يقرعون. وإذا بأيدٍ تدق على ظهري بقوة، وأصوات تقول: اقرأ بصوت عال وسمعنا، هوّ أنت واقف تسمّع نفسك، فقرأت:

"بأمر المدير العام للشركة:

أولاً: تغلق كافة دورات المياه في جميع العنابر من الساعة الثامنة صباحًا إلى الساعة الحادية عشر ونصف صباحًا. وتغلق من الساعة الثانية بعد الظهر إلى السادسة مساءً.

ثانيًا: كل من يتأخر عن العمل دقيقة في الصباح أو المساء يحرم من الدخول مع توقيع العقاب يوم أو يومين تعويضًا عما يسببه من خسائر للشركة.

ثالثًا: ممنوع لبس القباقيب في العنابر أو في الطرقات، وكل من يضبط سوف يعاقب.

رابعًا: ممنوع على أي عامل أن يرفع يده في وجه الرئيس أو يلوح بها. كل من يخالف ذلك يفصل من العمل.

خامسًا: فصل كل من الآتي أسماؤهم بسبب كلامهم مع الرؤساء والتلويح بأيديهم.."

وقرأت أسماء المفصولين فعلق بذهني منهم الشحات، وأحمد علي، وإبراهيم العدل – من العمال الذين كانوا معي في الخّبيزة والذين رأيتهم معي في الصباح وهم يمسكون بيدي ويقولون لي: إجري لحسن اليوم حيروح. لم يعلق بذهني سوى هؤلاء من كل الأسماء الكثيرة المكتوبة بالمنشور.

لم أتمالك نفسي من شدة الغضب. وتلفت حولي أبحث عن عبد العظيم لأبلغه ما حدث. ووقفت أتأمل الأسماء متخيلاً الشحات وإبراهيم وأحمد علي وهم واقفون أمام العنبر، ورأيتهم وهم يتمشون في الحجرة، وهم في الطريق وفي الخبّيزة.. وخيل لي أني أعرفهم من سنين. هذه الوجوه المبتسمة الضاحكة لا يمكن أن تكون قد اعتدت أو لوحت حتى بأيديها في وجه أي رئيس. وتأملت صورة العامل النساج الذي رأيته بنفسي والرئيس يمسك بتلابيبه محاولاً دفس رأسه بين التروس دون أن يفعل العامل أي شيء. وقلت: إن ما حدث لهذا العامل قد حدث لهم. وحاولت أن أسأل نفسي: لماذا يضرب الرئيس العامل هكذا؟ فلم أجد إجابة على هذا السؤال ودارت بي الدنيا. وقطع تفكيري أصوات العمال الغاضبة الساخطة على ما جاء بالمنشور. وحاولت أن أفسح لنفسي الطريق للبحث عن عبد العظيم وسط تلك الحشود.

خرجت بعد مشقة، وملابسي مبللة بالعرق. فوجدت العمال بالخارج يتحدثون في غضب. منهم من يقول: "هو العامل عمل حاجة.. العامل بيزق العربية وهي متلتلة قطن، وعمال يتعتع فيها، والرئيس نادى عليه، فمشى دون أن يسمع. شوف الرئيس عمل فيه إيه بعد كده. جرى عليه زي الوحش وراح قالبه على ظهره وماسك رقبته وماسابوش إلاّ لما اتلمت عليه كل العمال في العنبر، وخلصوه بالقوة. وأخيرًا أهله، شفتم حصل إيه؟ أهو اتفصل. تقدروا تقولوا إيه اللي حصل من العامل عشان يفصلوه. أهو انضرب لما مات وما رفعشي إيده والله، واهو انفصل.. دي شغلانه عاملينها مع بعض عشان يذلونا.. دول عايزين الواحد يمشي وعينيه في الأرض".

وآخر يقول: "معلهش يا جماعة، اللي ما شافش لحمة.. مش مسك في أيده مفتاح وداير به طول النهار ع المكن، لازم يعمل كده. ما بيعملش كده إلاّ قليل الأصل".

ورد آخر قائلاً: "طيب الدورة حنعمل فيها إيه؟ هوّ احنا نقدر نقعد طول النهار من غير الواحد مايروح الدورة؟ يا سنة سودة يا ولاد. دا الواحد ما بيقدرش يقعد خمس دقائق محصور.

همّ علشان ما بيروحوا الدورة في أي وقت على كيفهم يعملوا فينا كده؟.

وقال آخر بصوت عالٍ: "ليه يعني الواحد يموت نفسه؟ الواحد لمّا ينحصر يعملها جنب المكنة. همّ حيعملوا فينا إيه؟ ضرب – وبيضربونا، وفصل – وبيفصلونا.. هو فيه حاجة أكثر من كده؟".

وقال آخر: "ليه يعني.. اللي يضربك حط صوابعك في عينيه. ما فيش حد أحسن من حد. ما يبقاش الواحد في البيت راجل على مراته واخواته وفي الشغل يبقى عامل زي النعجة. الراجل لازم يبقى في البيت راجل ويبقى في الشغل راجل".

ولقى هذا الكلام استحسانا من الواقفين. وتكلم آخر:

"لأ يا جماعة. ده مش الحل. حد يعمل كده إلاّ اللي مستغني عن الشغل. اللي عاجبُه على كده عاجبه، واللي مش عاجبه يروح على بلده أحسن، وما يوديش نفسه في داهية. هو الواحد ما جاش هنا إلاّ علشان يوكل أمه واخواته، وعلشانهم لازم الواحد يعمل خده مداس. أكل العيش عايز صبر. لما يشتمك الرئيس أو يشخط فيك، أعمل ودن من طين وودن من عجين. وكلمة حاضر بتريّح ما هو ربنا خلق الناس درجات. وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. هو ربنا قال كده في القرآن".

فردّ آخر قائلاً: "يعني هو أنت عايز تقول إن ربنا راضي ع اللي بيحصل لنا، وهو مش ربنا قال: من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. وهي مش خلقة ربنا اللي بيضربونا عليها دي؟ هو الواحد لما يضربك على وشك يبقى حرام واللا حلال؟.. اتكلم. هو أنت بس عمال تقول ربنا عمل وربنا خلاّ إيه رأيك في ضرب الناس على خلقتها؟ حرام واللا حلال؟ انطق هوّ كلام؟".

فرد الآخر قائلاً: "أنا قلت كده وخلاص. أنا بانصحكم لوجه الله علشان الواحد منكم ما يتهورش ويضرب الرئيس ويرجع تاني يتندم".

فردوا عليه في نفس واحد قائلين: "هو احنا بنضرب والاّ بنهبب" دا احنا بنضرب على دماغتنا وصابرين".

وتنهد آخر قائلاً: "هوّ الكيل لما بيتملي، مش بيطفح؟ دول كمان عايزينا نمشي في العمل حافيين، ما هماش عايزينا نمشي حتى بالقبقاب. هو أحنا معانا فلوس عشان نشتري جزم؟ دا الواحد يا دوب الجزمة اللي حيلته مخليها لما يروح كل خمستاشر يوم.

هو أحنا لو دوّبناها حنعرف نجيب غيرها؟ ما فيش فايدة يا عم. اللي يضربك لازم تضربه. العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم".

وقطع الحديث صوت الصفارة المزعج التي تعلن انتهاء ساعة الغذاء والتوجه للعمل. زعقت الصفارة ولم يكن العمال قد اشتروا شيئًا أو أكلوا. واتجه العمال الذين كانوا يقفون في حلقات إلى الداخل، في خطى بطيئة تشبه السير في جنازة لدفن الموتى وتوصيلهم إلى المقابر. لابتسامة، ولا ضحك، بل صمت كصمت القبور، وهمسات ضعيفة تقول: "قرب عشان نروح الدورة قبل ما تقفل ونتجنب تحكم العويل ابن العويل فينا". وأصوات أخرى خافتة تقول: "قرب قرب شوية عشان الواحد يلحق يأكل اللقمة قبل الرؤساء ما تشوفه، ما هو كل شيء بقى ممنوع".

دخل العمال العنابر، وبدأ كل واحد يقف على مكنته. وتوجه آخرون مسرعين نحو الدورة. وتوجهت بدوري نحو الطرقة التي بها المكن والمكنة التي تعودت الوقوف عليها، فوجدت عبد العظيم واقفًا خلف المكن، فأسرعت نحوه قائلاً:

– أنت كنت فين، أنا دورت عليك علشان أقول لك إن الشحات وإبراهيم اتفصلوا من الشغل، أنا شفت أسماءهم مكتوبة في المنشور اللي معلق على الجدران.

لم يتكلم عبد العظيم وظل صامتًا. وظننت أنه كان يعرف قبل أن أخبره. وتركته في مكانه دون أن يتحرك. وذهبت نحو الفرامل أعبث في المواكيك اللي في الأدراج.

دارت المواتير وتحركت السيور معلنة بدء العمل في الساعة الواحدة بعد الظهر. ورخيت الفرامل، ودار المكن. وتحرك عبد العظيم نحوي وقال:

– اسمع، خللي بالك كويس بعد هذا المنشور.. دول حيتفرعنوا. مسكوا سلاح في أيديهم، سلاح الفصل، فصل أي عامل دون أن يراجعهم أحد. وكمان في أيديهم توقيع الغرامات – سامع؟ أهو أنت شايف الواد الشحات والواد إبراهيم اللي كانوا ماشيين معانا بالليل، أهم انفصلوا وراحوا في شربة ميه...

قالها وسكت. وتلفت حوله محاولاً أخفاء الدموع التي لم يملك أن يمسكها فتساقطت حزنًا على زميليه.

دار المكن. وانتظم العمال، وتحرك الرؤساء في العنبر وفي أيدي كل منهم دفتر غرامات تسلمه من الإدارة، وهم يحاولون إبراز هذه الدفاتر للعمال ليشيعوا الرعب والفزع في نفوسهم. وأخذ العمال يصلون إلى أماكنهم دون أن ينظروا إلى تلك الوجوه المتحفرّة. وجوه الرؤساء المباشرين.. والعنبر يكاد أن يكون صامتًا إلاّ من الضجيج الذي تحدثه آلات النسيج، وزئير السيور..

موت عامل

كان العمال يسيرون ويلفون حول المكن وهم يختلسون النظـــر للرؤســـاء، وينتهـــزون فرصة بعدهم ليتحدثوا. فمنهم من قال:

- المكنة خربانة، والمكوك بينط، وأنا خايف أدورها لحسن ينط ويخرق عين واحد.

فيرد آخر قائلاً:

- طيب روح جيب الميكانيكي يشوف فيها إيه.
- أنا غلبت، كل ما أقول له يقول طيب أمشي وأديني جاي وراك، وأهو أديني ســـايبها واقفة بقالي ساعة ولحد دلوقتي ما جاش عشان يصلحها، وأهوه أنت شايفه ماشي فـــي الطرقة وفي إيديه الدفتر فرحان بيه، وأخرتها مش حتقع في النهاية إلا على دمـــاغي، مين يقرأ ومين يسمع؟! ما هو الرئيس كلامه مسموع، ديك الساعة رايحين يقولوا لي أنت ضعيف في الشغل. أعمل إيه؟ أدورها وزي ما يكون؟

فيقول له آخر:

- حرام عليك، يمكن المكوك ينط في عين واحد ويخرقها، حد يبقى ينفعه؟ سيبها واقفة.
- طيب، ولما أسيبها واقفة ساعة كمان ويجيلي غرامة، مين يبقى ينفعني أنا؟
- ما تروح تجيب الميكانيكي يا أخي، ما تروح تقول له، هو أنت خايف تروح له؟
- أيوه خايف، حيعتبروني غشيم، هو عايز بس يقف مع الرؤساء ويتكلم طول النهـــار، ومش عايز يحط ايده في حاجة، ولما ييجي المدير يجري في العنبر ويـــدوّر المكـــن بالعطل اللي فيه هوّه يهمه حاجة، مش بيقبض ماهيته كاملة وخلاص؟ ماله هو ومـــال العمل؟ واهو، أنا حاوريك عشان تعرف أنه جبان ومش حيسأل فيّه، خلّي بالك شوف حيعمل إيه.

ويتوجه العامل مدفوعًا نحو الميكانيكي، ويقف بجواره خلف إحـــدى الماكينـــات وهـــو يتحدث مع أحد الرؤساء: وقف العامل أمامه وبيده المواكيك. فنظر له الرئيس ولم يكلف نفسه عناء الكلام، وهز رأسه للعامل بما يعني "عايز إيه؟". فتوجه العامل نحوه محاولا شرح ما في المكنة من عيوب، فلم يسمع الرئيس له، ودفعه بيده دفعة قوية أوقعته قائلاً:

- أمشي – أمشي هناك، واستناني جنب المكنة لما أبقى أجيلك.

وعادي العامل ونفسه مكسورة، ووقف على المكنة وهو يتمتم: "شايفين... أديني سمعت كلامكم ورحت له، وهو ما سألش.. مش معقول حاسيب المكنة طوال النهار واقفة، حايقولوا إيه لما القماش يطلع ويروح عند الفحص ويقيسوه ويلاقوا عامل الليل جايب قماش أكتر مني؟ حايقولوا إيه؟ حيقولوا إني ضعيف في الشغل، وآخرتها رايحين يرفدوني. حد حايقدر يقول إن الميكانيكي عطل المكنة وسابها واقفة؟ مين يقرأ ومين يسمع؟ حد يقدر يقول إني رحت له تلات مرات وهو فاضي ما بيعملش حاجة غير كلامه مع الرؤساء لا عايز يصلح المكن ولا حتى يعرف اللي فيه.. أنا حاعمل إيه؟ مش ديك الساعة الميكانيكي حيقول محدش قال لي حاجة، ما حدش نبهني.. مش حاتيجي أخرتها ألاّ على دماغي، مين حيبقى يحوش عني الغرامات؟ أنا لازم أدور المكنة، حادّورها وزيّ ما يكون، ما حدش هنا يسمع كلام العامل، كلام الرئيس هو اللي بينسمع.. ولازم أدوّر المكنة أهو.. يالله...".

كان خوفه من الرفد أكبر من خوفه من خطر دورانها.

دارت المكنة، واستمرت في الدوران. وظن العامل أنها أصلحت بقدرة قادر. واطمأن العمال المجاورون إلى أن المكنة لن يحدث منها أي خطر، وبدءوا ينصرفون إلى عملهم. ولكن حدث ما لم يكونوا يتوقعونه. نط المكوك مثل السهم فالقًا دماغ العامل.. خبطة قاتلة في المخ. وارتمى العامل على الأرض والدماء تنزف من رأسه بغزارة. وسرعان ما لطخ الدم وجهه وملابسه. ونام العامل ممددًا دون أن يرتفع له صوت أو تصدر عنه حركة.

وتجمع العمال المجاورون وهم يصرخون صرخات متوالية: "المكوك قتل واحد"!! وجاء العمال من كل مكان في العنبر، وكل واحد يحاول أن يراه في نومته. ولكن كان هذا مستحيلاً لكثرة عدد العمال الذين يعدون بالآلاف. وبدأت صرخات من كل مكان.

"وسع يا جدي أنت وهوه.. الدنيا حر، هوّى عليه يا جدع.. الواد راح في شربة ميه يا جدعان".

وآخر يقول:

"دا كان واقف معايا دلوقت أهه، كان واقف معايا ورا المكنة بيركب الفتل ما فيش دقيقة. الميكانيكية ما بتصلحش المكن، مالهومش قلب يقفوا ويشوفوا المكن فيه إيه، عمالين يمروا في الطرقات وفي إيديهم الدفاتر. مين حيقدر يتكلم؟ "أهو مات.. أهو مات في شربة مية".

وبقى العامل أكثر من ربع ساعة راقدًا في مكانه.. ربع ساعة تكاد تكون يومًا كاملاً قبل أن يصل الرؤساء. وكنت واقفًا بجانبه، ودقات قلبي سريعة كادت أن تقف، وجسمي ينتفض. تجمدت في مكاني، ولم أشعر بالدم الذي أغرق ملابسي إلاّ بعد أن حضر الرؤساء ووقفوا

بجواره، ولم يكن يبدو على وجوههم شيء من الاهتمام، كأن شيئًا لم يحدث. وخيل إليّ أنهم تعودوا أن يروا مثل تلك الوجوه الميتة الغارقة في الدم من سنوات... وتجمهر كل العمال وعيونهم مبللة بالدموع وكل منهم يحاول أن ينفذ أمر الرؤساء بحمله، ولكن الرؤساء لم يسمحوا إلا لخمسة من العمال فقط.. وانتشر الباقون في الطرقة، واصطفوا على الجانبين، وآخرون خلف المكن في انتظار أن يلقوا عليه نظرة أخيرة، وكانت عيونهم المبللة بالدموع تنتظر في حقد على الرؤساء الذين لم يبد عليهم أي اهتمام أو تأثر.. وحقد على المكن الذي قتل منهم عاملاً كان يعمل بجوارهم منذ دقائق.

ساروا به في الطرقة إلى خارج العنبر، ليذهبوا به إلى العيادة المجاورة للإرادة. وكلما مر على العمال المصطفة هجموا عليه لتقبيله غير مبالين بالدم الذي يلتصق بشفاههم، وساروا خلفه في تباطؤ إلى أن وصلوا إلى باب العنبر، ولم يمنعهم من مواصلة السير خلفه إلا الرؤساء بعد خروجه من العنبر.

عاد العمال ووقف كل منهم على مكنته في رعب وفزع، وهم يتلفتون حولهم في حركات هستيرية خوفًا من أن يصيبهم ما أصاب زميلهم. وذهبت إلى مكنتي التي يقف عليها عبد العظيم. وقفت خلفها خائفًا وكل ما في جسدي يرتعد، وتلفّت حولي، وإذا بي أجد المكنة التي قتلت العامل، المكنة التي قتلت صاحبها... وزاد خوفي من أن يأتي الرئيس ويطلب مني أن أذهب لإدارتها لما يعرفه عنّي من أنّى تعلمت وأصبحت قادرًا على إدارتها.

الإنسان والمكن

كلما رأيت المكنة واقفة إلى جواري تمنيت أن أهرب بعيدًا إلى أن يأتي غيري، وخاصة بعد أن وقعت عيناي على الدم الذي تجمد بجوار المكنة ولم يأت أحد لإزالته، وقلت في نفسي: لماذا لم يأت أحد لإزالة الدم؟ لماذا لم يأمر الرؤساء بذلك؟ هل يتركونه إلى أن يأتي أحد الكبراء لرؤيته؟ أم سيأتي أحد من النيابة ويعاين مكان الحادث ويأمر بدفن الجثة بعد أن يحقق ويحبس القاتل مثلما كان يحدث في قريتي عندما كان يعتدي واحد على آخر ويقتله.. هل ممكن أن يحدث هذا؟ هل ممكن أن يقبضوا على مكنة ويحبسوها؟!!.

أسئلة كثيرة.. ورجعت بتفكيري إلى أيام كنت أشتغل في الغزل ومات الكثير من فعل المكن، ولم يحقق أحد، ولم يأت أحد من الرؤساء الكبار لمعرفة السبب، ولم تأت النيابة لإثبات ما حدث.. وأيقنت أن أحدًا لن يأتي، وسوف يدفن هذا العامل كما دفن الآخرون.. ودون أن يعلم أحد.. عن سبب الموت ولا الكيفية التي مات بها.. ودارت بي الدنيا، وارتعد جسدي. وأنا لم أترك عنبر الغزل إلا هاربًا من الذين يموتون لكي أنجو بنفسي. وهنا أنا اليوم أرى عاملاً يموت في لمح البصر بخبطة من المكوك واستعدت بذاكرتي كل الذين رأيتهم أو سمعت عنهم من عمال الشّلل والبرم والتنظيف ممن قطعت أيديهم وأرجلهم ورأيتهم في المستشفى. كل هؤلاء لم تثبت أسماؤهم في دفاتر، وحتى الأيام التي اشتغلوها قبل أن يصابوا لم يحصل على أجرها أحد من أهلهم. وبهذا يكونون قد ماتوا مثلما يموت القط الذي لا صاحب له.

ورجعت بذاكرتي إلى أيام القرية، عندما اتهم محمد الصعيدي بقتل السيد الصواف، وجاءت النيابة، وهي التي أمرت بدفن الجثة بعد أن حضر حكيم المركز وأمر بتشريحها وبعد ذلك حكمت المحكمة على القاتل بخمسة وعشرين سنة سجن، أي تأبيدة، مع تعويض يدفع للأبناء. فلماذا لا يحدث هنا مثلما كان يحدث في القرية لإثبات المسئولية؟ لماذا لا يحدث تحقيق ويدفع تعويض؟؟ لماذا لا يعاقب المسئول لكي لا تتكرر عمليات الموت؟

تلك هي الأسئلة التي دارت بذهني وكادت أن تفجره دون أن أهتدي إلى حل يريح ضميري.

ثم، لماذا لا تكتب شكاوي ضد الشركة؟ ألم يكن للذين ماتوا أهل يرفعون الشكاوي ويكتبون البلاغات للنيابة، ويطالبون بمحاكمة من قتلوا أبناءهم مع دفع التعويض؟ إن الذي يملك جاموسة وتتسبب في إتلاف زرع الآخرين أو تنطح أحدًا يجازي صاحب الجاموسة

باعتباره مسئولاً عنها. وهنا في المصنع، قد يقال إن المكن هو الذي قتل والمكن ليس إلا حديد. وقلت: لِمَ لا يعاقب صاحب المصنع مثلما يعاقب صاحب الجاموسة باعتباره المسئول عن الإهمال؟ لو كان صاحب الجاموسة أكّلها كويس لما تسبب عنها هرس زرع الآخرين، أو لو كان ربطها بحبل أو سحبها بعناية لما تمكنت من نطح أحد في الطريق، وبذلك يكون صاحب الجاموسة هو المسئول عن الإهمال. وهنا في المصنع، لو صلّحوا المكن وعملوا حواجز حول الأماكن الخطرة لما قتل العمال، فما يقع على صاحب الجاموسة يقع على صاحب المصنع، لأنه هو المسئول. فلماذا لم ترسل هذه الشكاوي، لماذا لا تتقدم الأهالي وترفع الشكاوي للمحاكم ويقف المحامون ليدافعوا عن العمال؟!! ألا يقول المثل: الظرف اللي ما يصيبيش يدوش.

أفكار وأفكار تتوارد على ذهني في ثوان وأنا واقف أمام المكنة، ونظرت في الوجوه المجاورة فوجدتها ساهمة واجمة. أصوات العمال خفتت. لا كلام ولا ابتسامات ولا ضحكات مثل التي كانت تحدث عادة. كل شيء في العنبر ساكت إلا ضجيج المكن، واهتزاز السيور التي لا تعرف الحزن.

وحدث ما كنت أتوقعه وأخشاه.. رأيت الرئيس يسير في الطرقة يتلفت يمينًا ويسارًا متفحصا الوجوه الواقفة بين الماكينات. وشعرت أنه يبحث عن عمال اليومية ليسلم أحدهم المكنة التي كان يقف عليها العامل الذي مات. وتمنيت أن أهرب أو تنخسف بي الأرض لكي لا يراني. وابتعدت عنه. وإذا به يقترب وذهبت نحو عبد العظيم مهرولاً، ومحاولاً إخفاء نفسي بجواره. فقال لي:

- مالك كده لونك مخطوف؟
- الريس جاي.
- طيب وماله، ما ييجي. حيحصل إيه؟
- أنا خايف يحسن يوقفني على المكنة اللي مات عليها العامل. سكتنا لحظة، واسترسل هو قائلاً:
- وهي دي حاجة تخوّف؟ أمال حنعمل إيه لو كان كل واحد حيفاف، أمال المكن ده مين اللي راح يشغله؟
- هو أنا مستغني عن نفسي؟ واللي بيموت هنا ما حدش عارف بيدفنوه فين.
- ما تخافش. ما توهمش نفسك. ما حدش حيموت ناقص عمر. الأعمار بيد الله فقلت متشجعًا.

- وهو ربنا مش قال لا ترموا أنفسكم في التهلكة؟ فقال ساخرًا:
- التهلكة؟ هو فيه حاجة هنا اسمها مش تهلكة؟ كل واحد هنا معرض للتهلكة ما لم تكن أمة داعية له. دا مكن، والمكن من حديد، لا يعرف تهلكة ولا غير تهلكة. ما دام رضينا نشتغل يبقى ما تخافش من التهلكة. أكل العيش عايز كده. إيه رماك على المر؟ اللي أمر منه. هو جابنا هنا إلا الاحتياج. سيبك بقه من التهلكة وغير التهلكة.. اشتغل، وخلّى بالك. انت جدع، وإيدك خفيفة في الشغل، أنت أتعلمت وبقيت كويس وإذا جه الريس وأخدك وداك ع المكن لازم تروح. ما تخافش لازم تبان قدامه إنك جدع. اللي بيخاف م العفريت يطلع له. إوعى تتلجلج. خلي قلبك جامد. أنت عارف المكن دا عامل زي إيه؟ متهيألك أنه حاجة كبيرة، حاجة تخوف. ولكن أبدًا. تعرف لما تخش عليه بقلب جامد وتبان قدامه إنك تخاف. أنا عايز الخوف ما يسيطرش عليك. إوعى تخذلني. أنا عايزك تقف عَ المكنة شجاع، يحسن حيقولوا عليّ إني ما عرفتش أعلم عامل..

لم يكمل عبد العظيم حديثه. وجاء الرئيس. ووقف بجوار المكن يتطلع. فوجدني واقفًا بجوار عبد العظيم الضم المواكيك. واستمر لحظة واقفًا يتأملني ليتأكد من أنني أصلح لإدارة المكنة وكنت خلال هذه اللحظة أقول لنفسي: يا أرض انشقي وابلعيني. وذلك بالرغم من الكلام المشجع الذي قاله عبد العظيم. وأخيرًا، استقر رأي الرئيس على أخذي بعد أن تكلم مع عبد العظيم بصوت خشن آمر:

- إيه رأيك في الولد اللي جنبك؟ ينفع يشتغل على المكن؟ فرد عبد العظيم كالواثق من كلامه:
- أيوه يا أفندم.

وأيقنت أن لا فائدة من الخوف. يجب أن أطرده. يجب أن أكون شجاعًا كما قال عبد العظيم. يجب أن أذهب إلى المكن دون خوف. عليّ أن أسيطر عليه قبل أن يسيطر عليّ الخوف. يجب أن أرفع رأس عبد العظيم أمام الرئيس ليعلم أنه صاحب الفضل في تعليمي يجب ألا أخذله.

وأخذني الرئيس من يدي، وذهبت خلفه. ومال عبد العظيم على أذني قائلاً:

- إوعى تخاف. أنا راح أساعدك.

قالها والبسمة تعلو شفتيه لأني أول عامل علمه وسيقف على المكن. ابتسم رغم الحزن الذي كان يخيم على العنبر.

عندما ذهبت إلى المكن، وقبل أن أديره، قال الرئيس:

- اسمع. استنى... شوف حاجة وامسح الدم ده أولاً. أنا مش عايز نقطة دم واحدة جنب المكن. شيل الدم الملطخ ع الجوانب.

قالها بخشونة. وكان عليّ أن أطيع.

وأيقنت أن الموضوع انتهى، والعامل قد مات وفي طريقه إلى الدفن دون أن يكتب الاسم في دفاتر الشركة، ودون أن تثبت أسباب الوفاة، شأنه شأن غيره ممن سبقوه إلى الموت. وقلت في نفسي: أين النيابة؟ ما فيش حد يكتب شكاوي حتى لو مجهولة مثلما كان يحدث في قريتي عندما يكون الجاني ذا عزوة ومن عائلة كبيرة ذات شأن. إن الذين لم يكن عندهم الجرأة للتبليغ ضدهم والشهادة أمام المحققين كانوا يكتبون الشكاوي محددين القتلة وفي أي مكان تم القتل لكي تقبض النيابة على القاتل. ألم يقتل هذا العامل؟ فلماذا لا تكتب شكاوي حتى ولو من مجهول؟ المهم أن تعرف النيابة المكان الذي قتل فيه العامل. وظننت أنهم يدركون ذلك، ولهذا يرغبون في إزالة آثار الجريمة، وهي الدم. وترددت لحظة في إزالته، لأني كنت أود أن يأتي أحد ليراه. ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه. فقد أرسل الرئيس عمالاً آخرين من الذين يمسحون المكن ويكنسون الطرقات، وفي أيديهم جرادل مليئة بالماء. وفي ثوان أزالوا كل آثار الدماء. وشعرت ألا فائدة من الإبطاء فخلعت جلبابي، وأدرت المكن، متذكرًا كل ما قاله لي عبد العظيم من نصائح. لا فائدة من الخوف ما دمت قد أردت لنفسي أن أكون عاملاً.

وقفت على المكن قابضًا بيدي على الفرامل، متطلعًا إلى وجوه العمال المجاورين. وشعرت لأول مرة بالفرحة تملؤني. لقد أصبحت عاملاً. أصبحت مسئولاً عن مكن. تعلمت كيف أديره. أصبحت زي عبد العظيم، زي كل العمال الذين يديرون المكن. وغدًا سأعلم آخرين كما تعلمت أنا.

وبعد لحظة سوف يأتي الولد الغريب والولد السيد الصفطي ويرونني وأنا واقف وحدي على المكن. وبكره أمي تفرح لما تعرف.

وجه عبد العظيم فرحان لما لقي المكن داير.. وشد على يدي قائلاً:

مبروك. أهو كده. اشتغل.. لا حد يقدر يقول لك حاجة ولا محتاجة. ما حدش يقدر يكلمك. ولا حد يقدر يقول لك دوّر المكنة دي يحسن أنا تعبان أو عبال ما أروح الدورة، أو عاوز أتفسح أروح عنابر الصبغة أو الفحص أو.. أهو دلوقت أصبحت متعلق من عرقوبك، واستريحت من دوشة الطلبات، دايمًا العمال اللي واقفين على المكن يحاولوا يشغلوا عمال اليومية، العمال اللي لسه ما تعلموش، ويتأمرون عليهم. وأهو دلوقت أنت وقفت على المكن وحاتبقى زي أجدع واحد فيهم. ما هي الدنيا كده، ما هياش على حالة واحدة. اللي ما تعلمش

بكرة يتعلم. وأهو أنت أتعلمت وبقيت زي العفريت. ياالله.. شد حيلك يا عم، وارفع راسنا، أنا مبسوط اللي قدرت اعلم واحد زيك وطلع من تحت أيدي ماسك مكن، أنا دلوقتي فرحان بيك. وإذا احتجت حاجة، أنا جنبك، وحاوصي عليك العمال اللي بجوارك.

ومال عبد العظيم على المكنة، ويداه على رأسه وقال:

- أنا تعبت، ووسطي حيقع، ورجلي بتتشر من الوقفة. اتناشر ساعة الواحد واقفهم على رجليه، طول النهار عمال يلفّ بدون راحة، الواحد انهد حيله من الوقفة.

ونظر إلى الساعة المعلقة على الحائط، وقال بصوت ضعيف – لسّه فاضل ساعة.. أنا تعبت، أنا ما عدتش قادر أقف على حيلي، أنا حاقعد جنبك هنا شوية، وخلي بالك من الرئيس لأن وسطي حينحشّ.

ولم ينتظر الإجابة، وجلس القرفصاء واضعًا رأسه بين راحتيه، واستمر هكذا في نومه، ولم يصح إلا على الأصوات والضوضاء التي تعود سماعها عند انتهاء كل وردية، وكلمة "هوه... هوه" التي تعود آلاف العمال ترديدها ابتهاجًا بانتهاء يوم العمل. وقام عبد العظيم منهوك القوى، شاحب الوجه، متجها نحو مكنه لتسليمه لعامل وردية الليل، والرئيس يمر على المكن يكتب الأسماء على الأقمشة ليبين شغل عامل النهار من شغل عامل الليل ولأول مرة كتب الرئيس اسمي على القماش، فشعرت بالطمأنينة.. وأني من الآن صاحب هذا المكن.

وجاء عامل الليل، ولم يكن قد سبق لي معرفته. كان طويل القامة، نحيف الجسم، في أعلى جبهته شعر أسود ناعم، عيناه صغيرتين سوداوان خلقتا لتبعثا الطمأنينة في أشد القلوب قلقا.. وقف بجواري حافي القدمين يتفحص المكن كالماهر. ونظر إليّ بعينيه الصغيرتين في تساؤل.

لبست جلبابي، وتوجهت نحوه فمد يده لي محييًا. وأردت أن أجيبه عن تساؤله، ولكنه كان قد علم بما حدث وهو آت في الطريق. وقال بصوت حزين:

- أنت اللي مسكت المكن؟
- أيوه الريس جابني.
- إذن أنت زميلي من اليوم بعد أن.. لم يكمل.. وتساقطت الدموع من عينيه. واسترسل قائلاً:
- معلهش... الدنيا كده. شد حيلك ما تخافش.

الأعمار كلها بيد الله. كل واحد عمره مكتوب على ورقة من شجر والموتة اللي رايح يموت بيها، والورقة لما تنشف وتقع يموت صاحبها. وهو ربنا عاوز كده. الأمر لله. الله يرحمه.

فقلت:

- أمال لما الواحد بيتقتل، ليه بيحاكموا اللي قتله. لم يجب.

وبدأ العمل. وتحركت الآلات. وبدأ رؤساء الليل ينتشرون في العنبر، ويتسلمون العمل من رؤساء النهار. وجاء الواد الغريب والواد السيد الصفطي. ولما رأوا اسمي مكتوبا على القماش تهلل وجهاهما فرحًا. وهجم عليّ الواد الغريب مادًا يده لي قائلاً:

- إيه ده.. هو أنت اسمك أنكتب على القماش؟ أنت استلمت المكن خلاص؟ خلاص يعني اتربطت وما عدتش تتنطط كل يوم على مكنة؟ ابقى خللي بالك من المدير وهو بيمر، أحسن لو جه ووجد المكن بتاعك واقف مش حيضربك إلا بالشلوت يقلبك على ظهرك. أنت شفته عمل إيه النهارده، خلي بالك وما تهملش في المكن، دا ما بيخليش لا كبير ولا صغير، بيضرب على طول.

وجاء عبد العظيم أيضًا، واتلم الثلاثة جنبي، وقلوبهم مليئة بالفرحة، وقال عبد العظيم.

- آدي احنا بنجيلك ع المكنة أهوه، بقيت صنايعي. الروس حتساوي.

وأخذني من يدي، وسرت بجواره، وانتابتني أفكار وأحاسيس عديدة. شعرت أنني لم أعد طفلاً بعد أن تسلمت المكن. صحيح أن الذين يعملون على المكن يكبرونني بكثير، ولكن لم يكن هناك فرق في الأجور بين الصغير والكبير، ولا بين من تعلم ومن في طريقه إلى التعليم، ولا بين الذين يعولون أمهاتهم وزوجاتهم والذين لا يعولون أحدًا. الكل سواسية في الأجور.

أسئلة كثيرة وعديدة، ولا حل سوى أنني أصبحت أشعر بشيء من الرضى بعد أن تسلمت المكن. ولم يكن ثمة فرق بيني وبين من يكبرونني بكثير. لقد أصبحت مثلهم، أستطيع أن أتحدث معهم. كنت بالأمس أسمع دون أن أشترك في الحديث. أما الآن، فسوف أستطيع الكلام، ولن أسير إلا مع الكبار بعد اليوم، مع من يعملون على المكن.

وعلى الطريق، كانت جماعات العمال منهمكة في أحاديث مختلفة حول ما حدث لهم طوال يوم العمل، حول الذين خطفتهم السيور أو فجّر المكن بطونهم. وحول إغلاق الدورة، وتعسف الرؤساء، والضرب المبرح، والمنشور الذي علق على الجدران... أحاديث كثيرة تفيض بالمرارة والألم.

وفي الطريق، تركنا عبد العظيم قائلاً:

- أنا تعبان، أنا حاروّح، مش قادر أمشي معاكم كتير، رجلىّ تعبانة وحيلي مهدود من الوقفة، مش قادر أقيم وسطي، وخاصة بعد أن رأيت الدم يسيل أمام عيني، دم العامل اللي مات. السلام عليكم يا عم، أنا مروح.

وذهبت أنا والواد الغريب والواد السيد الصفطي إلى حجرتنا. وهناك لم نتحدث في شيء سوى اشتياق كل منا لرؤية أمه وإخوته.. الحنين للأم وللإخوة وللبلد، وللجامع اللي كنا بنتسابق خلفه في الجري إحنا والعيال اللي كنا بنلعب معاهم الكورة الشراب، ولما كنا نملأ أكمامنا بالتراب ونقذف به النسوان حاملات الشموع المضيئة في زفة العروسة وزفة العريس، وكيف كن يجرين خلفنا. وكان لهذا الحديث القصير صداه في نفس كل منا. وزاد الحديث من الحنين إلى من تركناهم في قريتنا.

وحل بنا التعب، فنمنا دون أن نكمل الحديث..

البومة

صحوت من النوم مبكرًا، لا على صوت الديوك التي كنت أسمعها قبل آذان الفجر وتعودت سماعها في قريتي عندما كانت أمي تصحو عليها، لإحضار الفطار لإخوتي وهم ما يزالون نياما، وتصحيهم بعد أن تفرغ من الإعداد له ليذهبوا للعمل في الحقل قبل شروق الشمس. صحوت ذلك اليوم لا على تلك الأصوات المحببة لي، ولكني صحوت على صوت البومة (أم قويق) التي كانت عندما تسمعها والدتي تزعق "حض الله.. حض الله يا رب؟". بل كانت جاراتنا يزعقن مثلما تزعق أمي "حض الله يارب"، وكل منهن يطاردها بالطوب قائلة: "ابعدي عنا.. أنتي حاتخربيلنا البلد غير ما هي خربانة" هذا ما كنت أسمعه في قريتي. فعندما صحوت على هذا الصوت لأول مرة فوق حجرتي، قلت: "ماذا سيحدث؟.. هل سيحدث شيء في الشركة؟" وازددت قلقًا، وملأ الرعب قلبي. وقلت: "إن شرًا لا بد أن يقع". وتذكرت ما حدث بالأمس عندما مات العامل على المكن. وجلست في ركن الحجرة على الحصيرة، واضعًا رأسي بين راحتيّ أفكر فيما قد يحدث، والولد الغريب والولد السيد الصفطي نائمًا وشخيرهما المرتفع ينخفض من أن لآخر كلما بعدت الرءوس عن الصرر العالية غير المريحة. جلست أفكر وحدي في صمت الحجرة المطبق عندما هدأ الشخير. وقلت: "ترى هل يحدث الخراب اليوم أو غدا أو بعد غد؟! هل هذا النعيق إنذار للشركة بأن تصلح معاملتها للعمال؟ هل هو إنذار للمكن أن يعدل عن قتال العمال؟ أم هو إنذار للرؤساء كي لا يتعسفوا مع العمال ويعطوهم التصاريح للدورة ولا يوقعوا عليهم غرامات؟ وهل.. وهل سمع الرؤساء هذا الإنذار من البومة؟" أسئلة عديدة شغلت تفكيري.

وتوقف تفكيري لحظة ثم أتجه ذهني إلى سؤال آخر: "إذا لم يكن زعيق البومة وإنذارها موجهًا للمكن والرؤساء، إذن لمن يكون الإنذار؟ هل هو لي؟ هل هي تنذرني أن أترك المصنع؟ وإذا لم يكن كذلك، فلماذا لم تذهب بعيدًا؟ لِمَ اختارت حجرتي للزعيق فوقها؟ لمّ لم تذهب بعيدًا؟ لِمَ لم تذهب إلى المصنع لتزعق فوقه فيسمع المسئولون عنه؟ أم ترى هي اختارت حجرتي لتسمعني زعيقها كي أهرب قبل أن تحدث الكارثة؟ ولماذا لا أفعل مثلما كانت تفعل أمي وأذهب لأرى أين تقف البومة وأقذفها بالطوب؟".

أسئلة كثيرة محيرة، والخوف والفزع يملآن قلبي. وأخيرًا، وقفت وخرجت من الحجرة، وإذا بي أجد البومة واقفة على شراعة المنزل تزعق من حين لحين زعيقًا يخلع القلوب ويشيع فيها الفزع، فقذفتها بحجر قائلاً: "بتزعقي على إيه؟ هو مش كفاية أحنا غرب وسيبنا بلدنا"

فطارت عن شراعة المنزل، ولكنها لم تذهب بعيدًا، ووقفت على سطح أحد المنازل المجاورة، واستمرت في الزعيق. وحاولت أن أطردها بعيدًا لكي أريح نفسي من سماع صوتها المقبض، ولكن عيني لم ترها. وعدت إلى حجرتي وفرائصي ترتعد مما يخبئه اليوم لي، أو مما يخبئه الغد من أحداث. وزعقت على الولد الغريب والولد السيد الصفطي قائلاً:

- اصحي يا واد أنت وهوه، اصحوا. الشمس قربت تطلع.

وبينما نحن في الطريق إلى المصنع، كان ذهني مشحونًا بكثير من الأفكار منذ سمعت ذلك الصوت. وسرت وسط الحشود الهائلة من العمال. كنت أتطلع إلى وجوههم بين حين وآخر، وكان المسير بطيئًا والازدحام شديدًا والعمال يملئون كل الشوارع الموصلة إلى الشركة. وتمنيت أن التقي بعبد العظيم بسرعة وأحكي له عن البومة عسى أن يطمئني. فقد كان عبد العظيم هو الذي علمني الشجاعة، علمني كيف أقف في مواجهة الرؤساء برأس مرفوعة، وهو الذي شجعني أن أقف على المكن بعد حادث العامل دون خوف...

وبينما نسير في الشوارع المبللة من تساقط الندى إذا بأيدٍ توضع على كتفي من الخلف، كانت هي أيدي عبد العظيم، العامل الشهم. فبادرت على الفور بأن حكيت له ما رأيت، وصارحته بمخاوفي. فابتسم ابتسامة عريضة، وقهقه عاليًا، وقال:

- هو فيه إيه؟ هو فيه حاجة إحنا ما شفناهاش؟ دا احنا شفنا كل حاجة. دا احنا شفنا الموت بعنينا، والواحد شعره شاب وهو لسه في عز الشباب فيه غيه لسه حنخاف عليه؟ لا ورانا ولا قدامنا حاجة نخاف عليها. أهي ماشية.. يا دوب القرين اللي بنقبضهم بنبعتهم لأهالينا. لما الواحد منا يجري له حاجة تبقى أهالينا رزقها على الله. بومة إيه وهباب أيه؟ سيبك من الأوهام دي.

قلت:

- سمعت هذا من أمي، وعلق بذهني منذ كنت طفلاً.
- أنت الآن عامل، تعمل على المكن، فلا مجال إذن لما كنت تسمعه وأنت طفل. هنا كل شيء تغير.
- ولكن أمي لم تكن طفلة عندما كانت تقول ذلك. أنا كنت أسمعها كثيرًا تردد هذا هي وغيرها من النسوان.
- همّ كده النسوان، تتوجس لكل شيء في القرية، وتتوجس حتى من الأحلام، وعندما تنعق الغربان على الشجر. وأنا كنت أسمع من أمي مثلما تقول أمك. هذا الكلام شائع

في قرانا، وكثيرًا ما كانت أمي تقول لي مثل هذا الكلام، وكنت أسخر كثيرًا من أحاديثها ومن الأوهام التي تحاول أن تغرسها في أفكاري.

- هي أمك كمان كانت بتكلمك زي أمي؟
- طبعًا، ما هي كل النسوان دايمًا تتكلم. وعندما يحدث أي شيء في القرية تفسره بما تراه في الأحلام.
- وماذا نفعل، وخاصة بعد ما سمعت صوت البومة؟

بسيطة تروح في شربة ميه. ولا تبقى بومة تنفعك ولا يبقى كلام أمك ينفعك.

كنا نسير، وكان كل شيء في الطريق ساكنا ما عدا الهمسات التي تدور بين العمال وهم يسيرون إلى المصنع. وكان كلام عبد العظيم المشجع يملأ ذهني، ويدفع عنه ما شابه من أوهام كادت أن تجعلني أهرب عائدًا إلى القرية خوفًا من الخراب.

دخلت إلى المكن فوجدت زميلي الذي حيّاني بابتسامة عريضة مشرقة، وقال:

من البيت الصبح وما بيقاش عارف حيرجع والاّ مش حيرجع. داخلها مفقود وخارجها مولود. الواحد بيدخل وحاطط أيده على قلبه.

وحيّاني وخرج.

وكما هي العادة، وقفت على المكن، وخلعت جلبابي، ووضعت العيش المربوط "بخلقه" قطعتها من جلباب أسود قديم بتاع أميّ بدلاً من المنديل الذي ضاع مني تحت المكن. ودار المكن ووقفت بجواره شاعرًا بالاعتزاز، واثقًا من نفسي. وكان العمال المجاورون ينظرون إليَّ معجبين ويتهامسون قائلين: "شوف الولد واقف على المكن إزاي، وشغلة زي الطيارة، عمال يلف زي الجن... شوفوا، أصغر عيّل، ومدوّر المكن زي أي راجل". كانوا ينظرون لي بعيونهم الحادة، وسمعتهم يقولون: "دا مش بالطول، ولا بكبر السن، أهو عيل أهه، ومدوّر المكن أحسن من الكبير".

وجاء الرؤساء أيضًا، ووقفوا يتفرجون وينظرون لي بإعجاب. وكلما سمعت هذا الكلام ازددت ثقة في نفسي، وإن كان ينتابني أحيانًا كثير من الخجل كلما رأيت العمال الكبار يتطلعون إليّ. وقلت في نفسي: "لماذا يتطلعون إلى هكذا؟ هل لأني صغير وأصبحت مثلهم، وهم كبار، أم لماذا؟". وكانت نظراتهم دافعًا لي على العمل".

وتطلعت حولي فوجدت عبد العظيم واقفًا يتأملني من بعيد وينظر لي باعتزاز، فلوحت له بيدي دون أن أذهب إليه، اعتزازًا بنفسي، وإذا بي أشم رائحة كريهة كادت أن تسد أنفاسي وبدأت أبحث عن المصدر في كل مكان خلف المكن، وإذا بي أجد الرائحة الكريهة مغطاة

بالزغبار الناتج من الأقمشة والذي يتخلف من النسيج وكانت هذه الرائحة النتنـــة مـــن تبـــول العمال وتبرزهم بجوار المكن بسبب تعسف الرؤساء بالعمال وعدم إعطائهم التصاريح للذهاب إلى الدورة. وتلفتت الوجوه حائرة: ماذا تفعل؟ هل يبلغون الرؤساء، وما قيمة التبليغ ما داموا هم السبب؟ إنهم لن يفعلوا شيئًا سوى توقيع الغرامات.

وفجأة كان الرؤساء يعدون من طرقة إلى أخرى، وأيديهم على أنـــوفهم يبحثـــون عـــن المصدر. وخفنا، نحن الأولاد، من أن يوقعوا علينا الغرامات، وتركناهم يبحثون، فلم يفعلـــوا شيئًا سوى أنهم أتوا بعمال النظافة لكنس العنبر ومسح الماكينات بميـــاه مخلوطـــة بالفنيـــك، وأمروهم برش جميع الطرقات بهذه المياه. واهتزت رءوس العمـــال ســـاخرة، يتهامـــسون "شايفين، إيه يعني؟ هم عملوا إيه؟ رشوا الطرقة، والبلاوي زي ما هيّ تحـــت المكـــن. هـــم فاكرين إن الرش ده حايقضي على الروايح؟ مفيش فايدة ما دامت البلاوي تحت المكن".

وآخر. يا عم سيبك، هم عملوا كده إلاّ علشان يحموا أنفسهم. أهـــم كمـــان شـــوية راح يشموا الريحة تاني. هو الفنيك ده حايستنى على طول؟ أمّا نشوفهم رايحين يعملوا إيه بعد كده، همّ دول بيشوفوا؟.. لازم يفتحوا الدورة وإلاّ العمال يموتوا". ويرد آخر قائلاً: "أمال همّ حيبقوا رؤساء على إيه؟ دي فرصة للإمارة. همّ دول بيهتموا بحاجة؟ هم يهمهم نعيش والاّ نموت. ما هو كل يوم المكن بيموت واحد، حصل إيه؟ حصل حاجة؟ حد يسال؟ دي الفرخة لهـــا ســـعر عندهم، أما العامل مالوش أي سعر. الفرخة لمّا بتموت الناس بتزعل عليها، أما هنا فالعامـــل لما بيموت ما فيش حد بيسأل فيه، بيلفوه في خيشة ويطلعوه على بره ومش عارفين بيـــدفنوه فين. الفرخة لها ثمن عندهم، وعشان كده بيزعلوا عليها. لكن سيبك، هي الدنيا حتستمر علـــى كده، بكرة الناس اللي ماتوا أهاليهم تتقدم بشكاوي ويطالبوا بالتعويض، بكرة المحامين تقف في المحكمة وتطلب معاقبة المتهمين". ويرد آخر قائلاً: "هاها.. حلّني.. موت يا حمار لحـــد مـــا يجيلك العليق.. تكون الناس دي كلها ماتت". وهزّ رأسه وتركنا. وتفرق الآخـــرون، وبـــدأت حركة في العنبر، حركة لم تكن متوقعة، عمال تجري من هنا، وعمال تجـــري هنـــاك فـــي اتجاهات متعددة متلفتين حولهم. وجائني عبد العظيم قائلاً: "اسمع، أوعى تسيب المكن، يحسن الناس بتوع المحلة بيضربوا، بيجروا ورا العمال بالخشب". قلت:

- ليه؟

- هو أنت مش عارف ليه؟ خليّ بالك. أوعى تسبب المكن دلوقت يحسن تجيلك خبطـــة تموتك.

ووقفت أتطلع للوجوه التي تعدو من أمامي.. وشعرت برغبة شديدة لمعرفة ماذا يحدث. وإذا بالولد الغريب أراه يعدو نحوي مسرعًا، ومن خلفه الولد السيد الصفطي، وقالوا في نفس واحد:

- أنت واقف هنا وما شفتش حصل إيه؟ الدنيا مقلوبة. دول نازلين ضرب بالخشب وبالأقلام، مش مخليين حد إلاّ ما يضربوه، ما بيضربوش العمال إلاّ على قفاهم.
- ليه؟
- هو حد عارف؟!.. إحنا جايين نقول لك. دا أحنا لمّا شفناهم دورنا الجري واستخبينا جنب المكن.
- ما سمعتوش حاجة؟
- سمعنا إيه؟ سمعناهم وهمّ متلميين على واحد ونازلين فيه ضرب وعمالين يقولوا له "قول يا بن الكلب أنك حتروّح.. لازم تسيب البلد دي، غلّيتوا المش.. علمناكم الشحاته حتسبقونا على الأبواب.. قول حتسيب البلد دي واللاّ لأ"- وما سابوهش إلاّ لما قال" خلاص خلاص.. والله، والله العظيم حاروّح، أنا غريب مش من هنا.. حروّح". ولما سمعناه بيقول كده رقدنا جنب المكن وفقًا من أن يأتوا إلينا. ومسكوا واحد تاني وثالث، ولم يتركوا أحدًا إلاّ بعد أن قال كالآخرين.. هذا ما رأيناه..
- طيب، واحنا حنعمل إيه يا ولاد.

فرد الصفطي:

- حنعمل إيه؟ حنروح. لازم نروح. هو أحنا قد دول. هوّ أحنا مستغنيين عن نفسنا وقال الغريب.
- هوّ احنا مالنا. دا احنا صغيرين.

وقال الصفطي:

- هو دول بيهمهم حاجة. همّ دول يهمهم كبير والاّ صغير. أنا حروح يا عم وماليش دعوة.
- واستمرا يتحدثان وأنا صامت لا أتحدث، وقلت في نفسي: "حنروح ونسيب البلد دي؟ وهوّ المرواح حيعمل إيه؟ ما هي كل الناس بتتخانق في البلد. واحنا كمان كنّا بنتخانق مع العيال في البلد، وكانت أهالينا بتتخانق علشاننّا. وتذكرت يوم ما كنت بلعب مع الأولاد عند الجامع، وجه الولد أحمد الشربيني وقال تعالى لما أخش لك، والجدع يوقع التاني، ولما رفضت هللت العيال ورفعوا إيد الولد أحمد الشربيني، رفعوها عاليًا

ووقفوا يهللون. وكانت البنت رقية والبنت هانم والبنت صباح بنت عمي علي عجوه، كانوا كلهم واقفين بجواري يشجعونني قائلين: خش عليه، ما تخافش (لأنهم كانوا أصدقاء أختي) – خش عليه يا ولد ما تخافش إحنا حنشجعك. ومع هذا كنت واقفًا صامتًا، والآخرون يهللون، والبنات تحاول أن تستفزني قائلة: أنت خايف؟ إحنا حنقول لأختك أنك كنت واقف زي الغلبان. وعندما قالوا ذلك خفت، خفت من أختي أحسن ترفض تجيب لي الحاجات الحلوة من طنطا، فرفعت طرف جلبابي، ووضعته في عبّي، وكل ما في جسدي ينتفض، وأسناني تصطك خوفًا أن الولد يوقعني وأختي تعرف وترفض توكلني. ووقفت البنات حولي، وقلت: خلاص، أنا رايح أخش لك، كل العيال تطلع بره. فالتفوا حولنا، وكل فريق وقف يشجع من يرغب في تشجيعه ووقفت البنات بجانبي تقول: خش عليه.. خش عليه جامد، اقصع ظهره، هاته الأرض. فوقفت ورفعت يدي عاليًا وقلت: تعال يا ولد. ورفع هو أيضًا والكل في انتظار إشارة من أحد الواقفين. وعندما بدأت الإشارة، هجم كل منها على الآخر، ووقفت البنات تشجعني في حماس. وكانت أصواتهن أعلى. كن يرددن: هاته الأرض يا واد، كعبله! فرهدته خلاص، أهو اتفرهد أهه. أهو خلاص وقع. واستمرينا فترة، وكل منا يحاول أن يوقع الآخر، والعيال تهلل، والبنات تصرخ. وأخيرًا جبت الولد في الأرض، وركبت فوقه على تهاليل العيال وزغاريد البنات، وكانت لهذه التهاليل والزغاريد أثرها السيئ في نفس أحمد الشربيني، فدوّر الجري بعيدًا وطاطى على حجر في الأرض، واقترب نحوي وخبطني بالحجر في رأسي، فوقعت على الأرض ودمائي تسيل على وجهي.

وارتفع الصوات وصريخ الأطفال، وجروا لإبلاغ أمي، وجاء أخي، وجاءت أختي جاءوا كلهم يجرون. وبدلاً من أن يمسح أخي الدم من على وجهي، جاء وجذبني من بين أحضان البنات وضربني قائلاً: أنا رايح أموّتك، إحنا ما احناش رايحين نأكلك إن ما كنتش تقوم دلوقتي وتسيّح دمه، أنت ما تبقاش ابن محمد الخولي إن ما كنتش تسيح دمه، الدم على وشك ده حيبقى عار في جبينك وفي جبين العيلة طول العمر. لا يزيل الدم إلا الدم. وكانت أمي تمسح الدم من على وجهي وتحتضنني، بينما أخي يقول: قوم.. قوم امسك العصايا دي، امسك العصايا من هنا، أهجم عليه سيّح دمه. وأميّ تصرخ: خبر إيه يا وله، هو فيه حد عندنا بيتخانق؟ دا ما فيش حد سمع لنا حس طول العمر، وأبوك طول حياته ما حدش سمع حسه، أنت بتحرض أخوك؟ همّ يعملوها العيال ويقعوا فيها الكبار؟ ولم يجب أخي على كلام أمي، وشخط فيّ: اسمع كلامي أحسن ما أكلمكش، أنا ما ابقاش محمد الخولي إن ما كانش دا يتعور

دلوقت، وذهبت نحو الولد وهو واقف وسط أبناء حتته، ورحت خابطه بالعصايا، فارتمى على الأرض بين الحياة والموت. فصرخت أمي: إلهي يجيلك ويحط عليك، جايب لنا المصايب. وجاء أبو الولد أحمد الشربيني وإخوته وهم يحملون العصى وكادت أن تنشب معركة لولا تدخل كبراء البلد والمشايخ والخفراء. وأمي تبوس على دماغي أبو الولد وهي تقول: ما عليهش، عشان خاطري، دول عيال زي بعضهم، أحنا لبعض، العيال مش حيستغنوا عن بعض، إحنا اللي رايحين نقع فيها، أبوس جزمتك.. عشان خاطري.. عشان خاطر أبوه. وكان الكلام أمي أثره في نفوس الحاضرين. وعملوا مجلس صلح عند العمدة، وحضر أخي وأبو الولد، وصفّوا الموضوع. وجاء أخي وهو يبتسم وأخذني من يدي وهو يقول: أهو كده، ما يمسح الدم إلاّ الدم، أهو إحنا دلوقتي خلصنا تارنا. وقالت أمي شاتمه: اخرس، أنت حتودينا في داهية، إحنا طول عمرنا ما حدش سمع حسنا، جاي أنت على آخر الزمن تصور لنا قتيل؟ ويقولوا ابن محمد الخولي حيصور قتيل ويسمع بينا الناس؟ فرد أخي: بس أنت يا وليه بلاش كلام فارغ، أنت حتعلمي الولد من صغره الخوف؟ دا لو ما كنش ضربه وسيّح دمه كانت العيال حتركبه ويصبح هفيه قدامهم، أهو دلوقتي ما فيش حد حيقدر يكلمه، العصايا السابقة سابقة، البلد دي ما يعرفش يعيش فيها إلاّ القوي. الضعيف الناس بتركبه ويصبح هفيه الأندال.

ووجه الكلام لي قائلاً: أوعى تسمع كلام الولية دي. حتربي في قلبك الخوف من صغرك. أوعى تسمع كلامها. اللي يضربك اضربه، خلص تارك أول بأول، ما يهمكش. لازم تبان قدام العيال جدع.

تذكرت كلام أخي. ومرّ بخاطري في ثوانٍ كلام أمي. وقلت في نفسي: لو ماكنتش وقعت تحت تأثير كلام البنات وصياح الأطفال، ما كنتش اتعورت وشغلت البلد. وقلت في نفسي أيضًا: ليه ما يكونش الناس دول اتجمعوا تحت تأثير البنات؟ يكونش البنات هم اللي حرضوهم على ضربنا. وقلت: طيب، هم دول عيال صغيرين؟ دول رجالة، ومش معقول تكون البنات هم اللي حرضوهم. أمال مين يا ترى هو اللي حرضهم؟ يكونش بعض العمال غمزوا بعينهم لواحدة أو اتكلموا معاهم كلام مش كويس، ما هي البيوت مليانه نسوان ومليانة عمال. ما يكونش رجالة المحلة غيرانين من العمال على نسوانهم ما يكونش لاحظوا حاجة، وعشان كده بيضربوا العمال وعايزين يطفشوهم من هنا، واللاّ ليه بيضربوهم؟ وهل أسمع كلام الولد السيد الصفطي وأروح؟ وماذا يقول عني أخي؟ ألا يعتبرني أخي جبانًا، وخفت، وتأثرت بكلام أمي؟ ألا يحزن أخي لو رآني هاربًا من المحلة خوفًا من الضرب؟ وما قيمة كلامه لي إذن، وما قيمة تشجيعه لي عندما قال ما يمسح الدم إلاّ الدم. وكيف أواجه أخي؟... لا أستطيع.. لا، لا، لا... لازم أستمر.

وزعقت بصوت عال في وجه الولد السيد الصفطي قائلاً:

- لا، لا.. حنستنى هنا، حنستنى هنا.

قلت هذا بعد أن مرّ بخاطري كل تلك الصور. وتلفتّ حولي فرأيت الولد الغريب يتهامس مع الولد السيد الصفطي في أمر الرجوع إلى البلد. كان الفزع يملأهما، فقلت:

- إحنا لازم نستنى هنا، إحنا مش زي الناس اللي بتجري، اللي يجري على الناس يجرى علينا. أوعى يا واد يا غريب تسمع كلام الواد السيد الصفطي، دا يظهر عليه خواف.

كان العمال يسيرون في العنبر كالنحل في الخلية، يتهامسون هنا وهناك وكل منهم يفكر فيما يفعل. كان العمال يعدون مسرعين وجاءني عبد العظيم وهمس في أذني قائلاً:

- أسمع، المسألة يظهر عليها بقت جد. الدنيا مقلوبة. أهالي المحلة نازلين على العمال ضرب، ما بيخلوش حد إلاّ لما يضربوه.

- ليه؟ ما تعرفش؟

- أنت فاكر لمّا كنا ماشيين نتفرج على الفرح، سمعتهم لمّا كانوا بيقولوا أهالي المحلة بس، الشركاوية لأ، اللي غلوّا علينا المشي لأ، الغربُ لأ؟.. أنت فاكر لما داسوا على رجلك؟ أهو كانوا يومها عايزين يجروا الشكل. ولكن إحنا قلنا أقصري الشر يا عورة. أهم بدعوا أهم يضربوا العمال، عايزين يطفشونا من هنا.

- وحنعمل إيه؟

- نعمل إيه؟... حنستنى. شايف العنبر كله عامل إيه؟ عمال بيشغي. كل العمال تتساءل عمّ يفعلون. كل جماعة من بلد واحدة بيتجمعوا مع بعض خلف المكن، وكل منهم يسأل الآخرين.

- ما سمعتش بيقولوا إيه؟

- سمعت بعضهم بيتكلم وأجسامهم بتنتفض. منهم من يقول لازم نروّح، وآخر يقول: كل واحد يكلم ولاد بلده ونستنى مع بعض ونتماسك: هو كل واحد متعلّق من عرقوبه واللاّ إيه؟ هوّ ما فيش حد قلبه على الثاني؟ ما احنا في مصيبة واحدة، لازم ندافع عن أكل عيشنا.

- همّ أهالي المحلة حيقدروا على كل العمال دول؟

- لا، ما يقدروش.. لو الناس وقفت مع بعضها وتماسكت.

- وازاي التماسك.

- لو كل عمال من بلد واحدة أو وردية واحدة استطاعوا أن يتجمعوا مع بعض يقــدروا في الحالة دي يردوا اللي يعتدي عليهم ويحموا بعض. هي دي الوسيلة الوحيــدة، زي ما كان بيحصل في البلد. لما كانت عائلة تتخانق مع عائلة أخرى، فالعائلة القوية هي اللي كانت بتنتصر ويتعمل لها ألف حساب.
- دا كان في البلد، إنما هنا يبقى ازاي؟
- المصلحة تجمع الناس. كل واحد ما جاش هنا إلاّ عشان أكل العيش. كل واحد يهمــه أنه يستنى هنا ويشتغل عشان يساعد اخواته، دا احنا هنا ما صدقنا لقينا عمــل ثابــت ومستمر. هو الواحد منا حيشتغل فين لما يروّح؟ حنرجع تاني نشتغل تمليّه عند العمدة ويتحكم فينا، يدينا قرش وياخذ عشرة؟ والاّ حنروح نشتغل في التراحيل، نشتغل يــوم ونبطل عشرة؟ الواحد ما صــدق لقــى شــغلانه زي دي، يبقــى ولاد الكلــب دول حيطفشونا، مش معقول، وعشان كده لازم نستنى. وأنا رايح أتكلم مع كل الناس اللــي أنا عارفهم من بلدنا أو من البلاد المجاورة. حاتكلم معاهم عشان ما حدش يفكر فــي المرواح، ونستنى هنا يد واحدة.

قلت:

- وهو انتم حتعملوا إيه باليد الواحدة؟ واليد الواحدة دي إذا كان كل واحد منكم ساكن في حي وبيوت متباعدة، وحتى في العمل متفرقين، كل واحد على مكنــة وفــي عنــابر مختلفة. فكيف يمكن مواجهة أهالي المحلة.
- إذا كان أهالي المحلة تجمعهم الرغبة في تطفيشنا، فاحنا كمان يجمعنا العمل، يجمعنــا أكل العيش، وما أعتقدش إن فيه واحد من بلدنا يرفض الفكرة دي.. وأنت حتعمل.
- أنا مش حروّح، مش حترك العمل، رغم إن الولد الغريب والولد السيد الصفطي قالوا لازم نروح، وأنا قلت لهم لأ، فسمعوا كلامي.

فشد عبد العظيم على يدي قائلاً.

- أهو كده، أهو أنت واحد بلدياتنا ورفضت تروح، فلازم ولاد بلدنا كلهم يكونوا كــده. إحنا مش رايحين نتخانق مع حد. إحنا حندافع عن نفسنا في حالة ما حد يعتدي علينا. أنا حتكلم مع كل واحد حيقابلني.

ولم تمر لحظة بعد أن تركني، وإذا بعامل من عمال النسيج يعدو مسرعًا في الطرقات، وجلبابه قد تمزق ووجهه الأبيض النحيف قد تورم من كثرة اللكمات والدماء تنزف من فمــه. ووقف بجوار أحد العمال وهو غير مطمئن، كثير التلطع خلفه وحواليــه ممــا لفــت أنظــار

الكثيرين. ووقف كثير من العمال ينظرون إليه بوجوه شاحبة ونظرات حـادة غاضـبة. لـم يستمروا في وقفتهم طويلاً، فسرعان ما تسرب واحد وراء الآخر نحوه متطلعين خلفهم خوفًـا من الرؤساء، والتفوا حوله متسائلين. واندفعت نحوه أنا الآخر لأني لم أتمالك نفسي، وإذا بـي أسمعه يقول:

- ضربوني، اتلموا عليّ ناس من أهل المحلة، ناس كتير، اتحاوطوني، وكلما ضـربني واحد منهم بالقلم واتطلعت له ناولني الآخر على خلقتي، ووقفت تايه بينهم من كثـرة الضرب. ولم يكتفوا بضربي، بل جروني من جلابيتي وقطعوها، ولكمني واحد مـنهم في أسناني وعورها.

فسأله أحد العمال:

- وأنت عملت إيه؟.. سكت لهم؟ استهفوك. ليه ما حطتش صباعك في عين واحد منهم؟ لو كنت عملت كده ما كانوش اتجرأوا وعملوا فيك كل ده.

فردّ المضروب قائلاً:

- خذوني على خوانه. هوّ أنا كنت عارف أنهم حيتلموا عليّ ويضربوني؟ دا أنا ماشـي في أمانة الله ورايح أغير لوحة المواسير، ومواسير اللحمة الفارغـة وأجيـب لوحـة غيرها مليانة من عنبر اللحمة، ماشي في أمانة الله اتحـاوطوني زي الغجـر. وقـال أحدهم: "أهه حتة فلاح.. أهه قفاه مترين.. تعالوا لما نصلحه له.." وبعدها مـادريتش أنا فين. وهو عود في حزمة يا جماعة رايح يعمل إيه؟ همّ كتار وأنا وحـداني. مـا بقيتش لاحق ألاقي الضرب منين واللاّ منين.

فقلت:

- يا نهار أسود! فين أخويا محمد وهو كان طحنهم بالعصايا.

فردّ كل الواقفين في نفس واحد قائلين:

- فين أخوك ده؟

قلت:

- في البلد.. كفر الحما.

فهزوا رءوسهم، وقال أحدهم:

- في البلد؟ دا إحنا افتكرنا أنه هنا، معانا في المصنع كان يبقى جنبنـا فـي المـصيبة السودة دي.

قلت:

- ليه، أنتم مش معاكم عُصْى؟ كل واحد يجيب عصاته معاه فقال آخر:
- هوّ الواحد راح يشتغل وإلا يجيب العصايا معاه؟ إحنا حنلاقيها منين واللاّ منين؟ مش كفاية الواحد ماشي وحاطط دماغه في الأرض؟ مش كفاية ضرب الرؤساء فينا؟ قلنا الرؤساء وزي بعضه، والخفر وزي بعضه – عشان خاطر أكل العيش قلنا حنستحمل عشان ما يرفدوناش.. وإيه بقه حكاية أهل المحلة دول؟ بيضربونا ليه؟ عملنا إيه معاهم؟ بيقولوا إن إحنا غلينا عليهم المش، وغلينا عليهم السكن. إحنا بنشتغل عمال.. سكن إيه اللي أحنا غليناه؟ هو إحنا أصحاب بيوت؟ همّ يسيبوا الحمار ويشطروا عَ البردعة؟ ما يروحوش ليه على الناس اللي بيغلوا عليهم السكن؟

فردّ آخر قائلاً:

- دي البلد دي بتكره الغريب، وعشان كده عايزين يطفشونا.. وهُمه يتمتعوا بالخير.

وآخر: "خير إيه، هو فيه خير والدنيا زي ما أنت شايفها أهله. لا خير ولا حاجة".

وآخر: "هو إحنا بنروح على طبلية حد فيهم ونأكل عليها؟ دا كل واحد منا بياكل من قفته وساكن في أوضة وبيدفع لها فلوس، هو وكل العمال اللي ساكنين معاه.. دول ناس يظهر ما عندهومش أصل".

وآخر: "هو إحنا حنروّح ليه ويقولوا علينا عواطليه.. إحنا حنستنى هنا عشان ناكل من عرق جبينا. المسألة مسألة شغل.. دفاع عن لقمة العيش. هي الدنيا سابت؟ سابقاش إلاّ دول حيطفشونا. خلاص – زي ما هم بيعملوا رباطيات نعمل إحنا كمان رُبّاطيات. كل واحد يجيب معاه عصاته تحت باطه".

وآخر: "وإحنا حنجيب العصا أزاي؟ الواحد منا حيمشي بيها في كل حتة؟ دي شغلانه إيه اللي زي الزفت دي؟ الرؤساء لما يشوفونا شايلين العصى حايسيبونا؟ ما هم حيخدوها منا ويضربونا".

وآخر: "أنت عايز إيه؟ هوّ إحنا اللي بنتخانق؟ إحنا بندافع عن نفسنا، ولازم نجيب العصى ونخبيها.. نخبيها في أي حتة. هم عايزينا نروح واحنا عايزين نستنى – هي دي القضية".

واستمر الحديث إلى أن جاء أحد الرؤساء وشخط فينا وتفرق الجميع دون أن يصل العمال إلى رأي.

وينتهي اليوم، وجاءنا عبد العظيم يجري كما جاء الولد الغريب والولد السيد الصفطي.

وقال عبد العظيم.

- أنا جيت علشان نمشي مع بعض. أنا حاوصلكم لحد البيت أحسن حد يستناكم في السكة ويضربكم.

فرد الولد الغريب قائلاً:

- وأنت مين حيبقى يوصلك.

لم يجب عبد العظيم، فقلت:

- تبقى تبات معانا بقه.

فقال:

- هي المسألة مسألة ليلة، دي يظهر حتبقى على طول.

العراك

خرجنا من العنبر. وبينما نحن نسير في الطريق سمعت جموع العمال تتكلم. لا حديث لهم إلاّ ما حدث: ضرب أهالي المحلة للعمال. أحاديث مختلفة وشتى.

"دول ناس قلالات الأصل. هو فيه ناس يتلموا على واحد ويضربوه، هيّ دي شهامه؟ يضربوا الناس على خوانة؟ يتلموا على واحد.. هو عود في حزمة يعمل إيه بس؟".

وآخر يقول: "بقى المصنع ده لو كان في بلدنا كنّا عملنا فيهم كده؟ ده الغريب بيكرم لأجل النبي. دي البلد دي ما فيهاش خير.. دي البلد اللي ما تكرمش الغريب تستاهل الحرق..".

ورنت هذه الكلمة في أذني، وتذكرت ما سمعته في الصباح وما قالته لي أمي. تذكرت زعيق البومة وقلت لعبد العظيم:

- جالك كلامي؟ الكلام اللي قلته لك الصبح؟ مش قلت لك إن الدنيا راح تحصل فيها حاجة.. هي البومة رايحة تزعق على بلد وتفضل عمرانة؟ أهم أهالي المحلة أهم بيضربوا العمال وحيموتوهم. جالك كلامي بقه؟ مين بقى اللي كلامه صح: أنا والا أنت؟ عرفت إن أمي كان كلامها مظبوط؟!

وابتسم قائلاً:

- دي خناقة. وكل الناس بتتخانق، حتى المصارين اللي في البطن بتتخانق، دول بيضربونا عشان نسيب البلد. همّ فاكرين إن إحنا اللي غلينا عليهم كل حاجة. ما هماش عارفين إننا عايشين في نفس البؤس اللي هم عايشين فيه. دايمًا يقولوا إن أحنا بنجيب الوادة من بلدنا. ما هماش عارفين إن الرغيفين اللي بنجيبهم من البلد أهالينا طفحانة الدم فيهم، في الغيط والشمس طول النهار، ولولا أحنا النهاردة بنساعدهم بدفع القرشين اللي أحنا بنقبضهم ما كانش حتى شوية الحب اللي بيطلعوا من الأرض دخلوا البيت، كان انحجز عليهم. هو صاحب الأرض بيرضى يخليهم يدخلوا حبة الدرة إلاّ لو خد كل الفلوس.

الحكاية مش حكاية بومة تزعق ولا حاجة.

كنّا قد وصلنا إلى البوابة الخارجية للمصنع. فوقفت محاولاً أن أمنع عبد العظيم من أن يسير معنا في الطريق قائلاً له:

- أنت تعبان، ولازم تروّح عشان ترتاح. كفاية اتناشر ساعة الواحد واقفهم على رجليه اتناشر ساعة يهدوا الحيل.

ولكن عبد العظيم أصرّ على ألاّ يذهب إلاّ بعد أن يطمئن علينا وأخيرًا تركناه وسرنا، وإذا بنا نجد العمال على طول الطريق تجري نحونا، كل واحد واضعًا طرف جلبابه بين أسنانه. الكل يجري وينكفي على غير هدى. منهم من يقول: "يا خلق هوه، خلاص، خدونا على خوانة!!" وآخرون يقولون: "وقف يا جدع، ما تخافش، يا نهار أسود، حيقولوا علينا إيه؟ حيقولوا علينا دخلونا الشقوق؟ حيقولوا أهل المحلة طفشوا العمال، كل العمال.. يادي الفضيحة. هوّ خلاص ما فيش رجالة؟" أصوات وصيحات.. عمال تجري من هنا وعمال تجري من هنا قائلين: "مافيش عصى" هم مستعدين، أخدونا على خوانة" وأخذني عبد العظيم بجوار أحد المنازل، ووقفنا ملتصقين بالحائط وقال:

- أسمع، خليك هنا أوعى تتنقل هات المقص اللي معاك هات، ما فيش فائدة، لازم أموّت واحد.

- وحتموته أزاي؟

- الواحد قرف. كل يوم نسمع شتايم، كل يوم يضربوا الناس.

هوّ مش كفاية الذل اللي أحنا فيه؟ هوّ احنا حنفضل ساكتين لإمتى؟ هات. الواحد يخبط له واحد بالمقص خبطة واحدة يجيب عمره. دول ناس أصلهم يخافوا ما يختشوش. أنت شايف الناس دول اللي عمالين يجروا، دول لو شافوا واحد هجم على أهالي المحلة هيبطلوا جري. هات أنا حاعمل الحكاية دي.

- ولما يقبضوا عليك ويحبسوك؟

- وإيه اللي حيخليهم يمسكوني، الدنيا ضلمة، الواحد يقدر يضرب ويستخبى. أنت شايف الناس عاملة إزاي؟ الناس هايصة. الشوارع مليانة والكل بيجري.

- وليه بيجروا؟

- بيجروا عشان كل واحد لواحدة. ما هي لا أيد تسقف لوحديها، ولا واحد أني يكيد رجال، كل واحد ما بيفكرش إلاّ في أكل عيشه، وفي غرامات الرؤساء وإهاناتهم، وفي ساعات العمل الطويلة. محدش قَدّر أن أهالي المحلة هم راخرين حيكونوا على العمال. كنا فاكرين أن الخناقات اللي في العنابر حتعدي بين الإخوة، ما كناش نظن إن حقد أهالي المحلة حيوصل لهذا الحد.. يوصل لحد أنهم يعملوا عصابات ضدنا. أنت

شايف، دول شايلين العصي والسكاكين.. دا شغل عصابات. دول بينتظرونا في الظلام زي اللصوص.. دول بالتأكيد على اتفاق سابق.

فردّ الولد السيد الصفطي

- وإحنا مالنا؟ إحنا زينا زي الخلق اللي بتجري دي. أحنا حنجري زيهم.. أحنا ليه نودي

نفسها في داهية؟!

فردّ عبد العظيم قائلاً:

- داهية إيه يا عم؟.. هو احنا حنقعد نتكلم وهمّ نازلين ضرب في العمال؟ لو كان كل واحد حيقول كده يبقى كل الناس حتروّح البلاد تاني.. لازم حد يتقدم..

وأخيرًا، خطف المقص من يدي، ودور الجري وهو يقول:

- أوعوا تتعتعوا من الحتة دي على بال ما آجي، أنا حاجيلكم.. ولكني لم أبال بهذا الكلام، فجريت خلفه مسرعًا أنا والولد الغريب والولد السيد الصفطي لنرى ماذا سيفعل. كان يجري وهو يصيح:

- ما تخافش يا ولد.. ما تجريش يا ولد.. خليك شجاع يا ولد!

كان أهالي المحلة واقفين تحت الكوبري السفلي قاطعين الطريق، ويضربون العمال كالمجانين.. وعبد العظيم يحمس الناس ويدعوهم إلى عدم الجري وألاّ يخافوا، وكان بعضهم يقول: "هوه أحنا معانا إيه نهجم بيه؟ هوه أحنا حنرمي نفسنا في التهلكة؟" وعبد العظيم يجزّ على أسنانه وهو يقول: "تهلكة إيه يا جبنا؟ هوّ فيه ألعن من كده تهلكة؟ جريكم ده مخليهم يطمعوا فينا، حيخليهم يطفشوا الناس من البلد".

ووقف البعض يسمع لما يقول وقال أحدهم: "قرّب أنت قرّب ورينا شطارتك امشي أنت واحنا نمشي وراك. هوّ بس كلام؟ قرّب أنت إذا كانت راجل" فردّ قائلاً: "أهه، قرّب أنت وهوّه، تعالوا ورايا" وتشجع آخرون. وردّ آخر من الخلف قائلاً: "ورينا شهامتك، وارفع راسنا. أهو دا الوقت اللي تبان فيه الرجالة".

وتسلل العمال واحدًا بعد واحد، وتساندوا على حائط وابور الحليج. ووقفنا بالقرب منهم متطلعين. وتقدم من عبد العظيم واحد اسمه علي، وقال لعبد العظيم:

- أنت معاك إيه؟

- أنا معايا مقص.

- طيب ما تجيبه.

- هوّ أنا وأنت إيه؟
- اسمع، ناولني المقص وأنا أهجم بيه عليهم الأول، وأنت تقف ورايا.

فردّ عبد العظيم:

- لا أنا حهجم، وأنت تكون ورايا، وحاول تخطف عصا من اللي معاهم.

وهجم عبد العظيم. ودور الضرب من الخلف وهو يزعق عاليًا: "اضـــرب يـــا ولـــد، اضرب في أي مكان".

لم يكن أهالي المحلة قد أعدوا العدة للمفاجأة، خاصة بعد أن بدءوا بالهجوم على العمال وسيطروا على الموقف وأخذتهم نشوة النصر الأولى، وجرى العمال أمامهم جعلهم لا يبالون، وبصوا لقيوا الهجوم من الخلف. وسقط أحدهم والدماء تنزف منه. وكان اسم علي يتردد أحيانا على ألسنة الواقفين: "آهو كده يا شيخ علي.. آهو كده.." وآخرون: "أهو كده يا عبد العظـــيم.. أهو كده يا ولاد رفعتم راسنا.. اهجم يا واد أنت وهوّه بقله!".

وهجم العمال الواقفون وتوقف الآخرون عن الجري. وعاد العمال الذين كانوا يختبئـــون خلف الجدران. وجرى أهالي المحلة وآلاف العمال خلفهم مهللين فـــرحين. واســـتطاع عبـــد العظيم وغيره ممن هجموا أن ينتزعوا بعض الكرابيج والعصى من أياديهم. واستمر الجـــري خلفهم ولم يتوقف إلاّ عند مبنى البوسطة بالقرب من محطة السكة الحديد، وهو ميدان مـــضاء بعديد من لمبات الكهرباء. ووقف الجميع هناك. وفي الوسط وقف عبد العظيم وبيـــده العـــصا التي انتزعها، وبجواره علي، ومن خلفهما أعداد غفيرة من العمال.

واستطعت في الضوء الساطع أن أرى عبد العظيم وأتبينه على حقيقته. لـــم يكـــن هـــو الإنسان الضحوك المبتسم الذي رأيته في عنبر النسيج، يوم أن وقفت بجواره على المكن فـــي بداية التعيين.. بل هو عبد العظيم الفارع الطول القوي البنية ذو العينين السوداوين الحـــادتين والنظرات الصارمة. كان واقفًا يلعب بالعصا كالمتمرن على استعمالها.. وازداد وجهه شحوبًا وسمارًا.. وجهه الممتلئ بالدم قد انقلب على اصفرار وشحوب.. وعيناه الحادتان يتطاير منهما الشرر، واختفت البسمات من فوق الشفتين الغليظتين. كان واقفًا يشمر عن ســـاعدين قـــويين، وهو يتلفت يمينًا ويسارًا كالمتخوف أن يخونه أحد من الخلف. وبقى صامتًا على غير عادتـــه. أمّا علي الذي تردد اسمه فجأة من عدد من العمال، والذي لازم عبد العظيم في هجومه، فكان شابًا لا يزيد عمره عن الخامسة والعشرين، أبيض البشرة، ذا عينين زرقـــاوين، يميـــل إلـــى السمنة، طويل القامة، يميل إلى الانحناء قليلاً، هادئًا لا يتكلم كثيرًا. وقد التف حوله عدد مـــن العمال ممن يعرفونه. وفي وقفته لم تفارق عيناه عبد العظيم. وأخيرًا تقدم على مهـــل متجهًـــا نحو عبد العظيم، ومدّ يده مصافحًا، وقال:

- أنت منين؟
- أنا من الجعفرية.
- ساكن فين؟
- في عزبة أبو جحشة.

فقال علي:

- أنت شجاع، ولولاك ما كنا تقدمنا خطوة. لم يسبق لي شرف المعرفة بك. محسوبك من المنوفية. وأنت ساكن فيه:
- أنا ساكن في نفس العزبة اللي ساكن فيها، وفي نفس، المصنع اللي بتعمل فيه. انت من مديرية وأنا من مديرية ودا ما منعش إن احنا نلتقي. أنا عايزك تيجي معايا الليلة عشان نقعد ونأكل عيش وملح مع بعض. ما يخونش أكل العيش إلاّ ولاد الحرام.

سكت عبد العظيم ولم يتكلم. ونظر حوله فوجدني واقفًا بالقرب منه. فتقدم نحوي وأعطاني المقص الذي مني. والتفت نحو على قائلاً:

- ما اقدرش آجي معاك الليلة لأني حاوصل الجماعة دول لسكنهم دول من بلدي فتمسك على بأن نذهب جميعًا معه إلى حجرته، قائلاً.
- إذا كانوا من بلدك لازم ييجوا معاك. تعال عشان نتكلم مع بعض، ما حدش عارف إيه اللي حيحصل.

وأخيرًا، قبل عبد العظيم بعد إلحاح طويل، وذهبنا معه.

أحنا مش جايين نعمل عصابات

ونحن في الطريق إلى العزبة قال علي:

- اسمعوا يا جماعة، إحنا نمشي في الحواري والعطف المضلّمة عشان ما حدش يشوفنا من أهالي المحلة ويأخدونا على خوانة.

فردّ عبد العظيم قائلاً:

- ما هي دي المصيبة، ما همّ ما بيستخبوش إلاّ في الظلام ويأخذوا الناس على خوانة. ياللا نمشي في النور أحسن عشان نبقى نشوف اللي قدامنا.

فقال على:

- لأ، إحنا لسه ما استعديناش، وهم مستعدين، يقدروا يغلبونا ويبقى ما عملناش حاجة. ياللا نمشي كل ثلاثة مع بعض، واحد ورا التاني، وبلاش كلام دلوقتي. همّ كل حتة عارفينها. ياللا نمشي في العطف والحواري.

سرنا، وكل منّا ممسك بيد زميله، وشعرت برعشة خفيفة تنبعث من أصابع عبد العظيم بين حين وآخر وسار بجواري الولد الغريب والولد السيد الصفطي. وتقدّمنا على، والتف حولنا آخرون. كنّا نتلفّت بين الحين والآخر خوفًا من أن يعتدي علينا أحد من الخلف. كانت الحواري والعطف معتمة، والمنازل التي نسير بجوارها لا ينبعث منها أي ضوء. وأكوام الزبالة والرائحة النتنة تزكم الأنوف. وكانت المياه تملأ الحواري والعطف.. المياه التي يقذف بها أصحاب المنازل التي لم تصل إليها المجاري.

ووقف على ينظر كالخائف وكأنه يتوقع أن يخرج علينا أحد من هذه المنازل ويعتدي علينا. وتوقف عن المسير عندما أفرغت صفيحة مليئة بالمياه من فوق أحد الأسطح فأغرقت كل ملابسه.. ووقفنا ننظر إلى سطح المنزل الذي أفرغت منه الصفيحة فلم نتبين شيئًا. وبعد قليل رأينا امرأة تنظر من الشباك وتعود مسرعة.

وفي إحدى العطف المظلمة الحالكة السواد، وقف على أمام أحد المنازل، وفي العطفة وقف كل منّا يحاول أن يتلمس زميله بيديه ليطمئن نفسه. وبعد قليل، دخلنا منزلاً به حجرات كثيرة، وكان مدخل المنزل مظلمًا ما عدا ضوء خافت ينبعث من الثقوب. ودخلنا حجرة على جدرانها نشع واضح، وأرضيتها رطبة مع أن الجو كان حارًا. وبجوار الحائط المواجه للباب كانت القفف مرصّصة، قفة بجانب قفة، مكتوب على كل منها اسم صاحبها. وفي الجانب

الآخر من الحجرة حصيرة قش مفروشة وعليها بعض العمال النائمين بشعورهم التي لم تغسل بعد من الزغبار وملابسهم الملطخة ببقع كثيرة من زيوت المكن، ومنهم من كان نائمًا بحذائه لم يخلعه من شدة التعب وقسوة يوم العمل وساعاته الطويلة المرهقة.

جلسنا بجوارهم بهدوء. وكانت الحجرة مضاءة بلمبة صفيح ينبعث مها دخان كاد أن يكتم أنفاسنا.. ولم يكن بالحجرة منافذ سوى الباب. ولم تمر لحظة على جلوسنا بالحجرة إلاّ وقد شعرنا بالغرف المجاورة تفتح أبوابها بهدوء ويخرج منها بعض العمال سائرين على أطراف أصابعهم خوفًا من إحداث ضجيج يصحي النائمين. وفي لمح البصر امتلأت الحجرة بالعمال الذين جاءوا من الحجرات المجاورة ومن البيوت القريبة من المنزل، وصحا بعض النائمين، ودار الحديث.

قال أحد الحاضرين، وهو شاب في نحو الثامنة عشرة من عمره:

- أنتم جيتو أزاي؟ جيتوا أمتى؟ هو احنا امتى دلوقتي؟ هو أحنا قرب الصبح؟ فردّ، أول ما جه راح نايم على طول وما شافش الدنيا حصل فيها إيه".

وآخر: "هو بينجم، هو كل واحد لازم يشوم ولازم يعرف، دا الواحد يا دوب بييجي ويتشندل ينام من القرف اللي هو شايفه طول النهار".

وجاء علي، وجلس في المكان المقابل لعبد العظيم، وقال: بعد أن حيّا كل الحاضرين:

- إحنا دلوقتي اتعرفنا، وطبعًا هم سمعوا أسماءنا وزمانهم بيستحلفوا لنا، ولا يجب أن نتراجع. لو تراجعنا حيستهيفونا..

فقاطعه آخر قائلاً:

- ما يجيبها إلاّ رجالها يا شيخ علي. هو أنت راح تبقى معانا وحننضام؟ إحنا معاك واللي تقول عليه ماشي. إحنا من إيدك دي لإيدك دي. أنت رفعت رأس المنوفية بوقوفك في وش الأندال دول اللي عايزين يطفشونا ويقطعوا عيشنا. هو أنت ما شفتش العمال وهي بتجري؟ كانوا بيجروا قدامهم زي الغنم، ودا اللي طمعهم فينا، ولولا واحد زيك كان موجود والجدع اللي جنبك ده اللي هوّ عبد العظيم، كانوا دخلونا الشقوق، الله يحميكم... رفعتوا رأسنا بهجومكم عليهم اللي خلاهم جريوا قدامنا.. وشجع العمال وخلاهم يجروا وراهم. إحنا حنمشي وراك من دلوقتي، أوعى تمشي لوحدك. إحنا نلم بعض في الشغل ونمشي مع بعض، وكل واحد يلم ولاده بلده، وما ينفعش إلاّ كده. ونبقى نجيب العُصْى ويّانا ونخليها مع العمال اللي جاية الوردية الثانية، ويستنوا بيها ونأخذها منهم وإحنا طالعين. أيه رأيك في الفكرة دي يا سي عبد العظيم؟

فردّ عبد العظيم قائلاً:

- هوّ إحنا حنعمل زيهم؟ مش معقول. حنشيل عُصْى وسكاكين معانا؟ إحنا حنعمل عصابات زي اللي بيطلعوا علينا في الطرق؟ إحنا نمشي زي ما إحنا ماشيين، ولما يحصل ضرب نبقى نضرب. إحنا مش جايين نعمل عصابات. إحنا جايين نأكل عيش ولازم نحافظ عليه. هو بيعمل كده إلاّ الناس قلالات الأصل. لازم نوريهم إن إحنا غيرهم. همّ فاكرين إن إحنا اللي غلبنا عليهم الحاجة. إحنا في الهم زيهم، وكلنا بلد واحدة ومصلحة واحدة ودي مسألة بكرة تبان.

فردّ آخر قائلاً:

- اسمع يا جدع أنت وهوّ، ما حدش يتكلم. يظهر فيه حد واقف على الباب اللي جنب الشباك، استنوا لما أطلع أشوف.

ولما رجع قال.

- اتكلموا بشويش.

وآخر: "اللي بيزمر ما يخبيش دقنه".

وثالث: "إذا بليتم فاستتروا".

وأخيرًا، أحضر على أكلا يتكون من العيش والخيار والمخلل وبعض قطع الجبنة القديمة، وقال وهو يقدم الأكل:

- المجِية دي ما تتحسبش، وإن شاء الله تتعوض. وأكلنا كثيرًا من شدة الجوع الذي كاد أن يفتك بأحشائنا. وبعد أن انتهينا من الأكل، قال عبد العظيم:

- ياللاّ بينا، آهو كل واحد عرف أزاي يقدر يدافع عن نفسه. كل واحد يلم ولاد بلده معاه. هوّ ده اللي حيخلينا نقف قدام أهالي المحلة نحافظ على أكل عيشنا. إحنا ما بنعملش حاجة وحشة وربنا بيبارك لكل واحد يهتم بأكل عيشه. وما دام الواحد مراعي أكل عيشه ربنا حيعينه. وإحنا لا عايزين حد يعتدي علينا ولا نعتدي على حد.

وحاول على أن يأتي باللمبة ليضيء لنا الطريق للخروج من المنزل ولكننا رفضنا، وقال عبد العظيم.

- هو أنت حتعمل زي اللي بيقول، ما شافوهومش بيسرقوا شافوهم بيتحاسبوا. إحنا عايزين نمشي واحد ورا التاني ونطلع زي ما دخلنا من غير ما حد يشوفنا. هو أنتم ما سمعتوش المثل اللي بيقول: الحيطان لها ودان. يمكن يكون حد ما سمعنا أو شافنا

واحنا جايين ويروح يقول لهم يقوموا ييجوا يستنونا. أحسن نطلع في الضلمة عشان ما حدش يعرف إحنا طالعين من أنهو بيت. لازم نكون حذرين.

كان يتكلم بهدوء كعادته. واستمر يتكلم وعلي يرد عليه ولم نحتمل نحن كثـرة الكـلام ونحن وقوف، فجلسنا القرفصاء على الأرض، ووضع كل منّا رأسه بين راحتيه.. ورحنا فـي النعاس...

أرملة من المحلة

أيقظني عبد العظيم بعد جهد شاق. وعندما خرجنا من الحجرة واتجهنا إلى خارج المنزل رأينا امرأة بدينة واقفة بجوار إحدى الغرف وبيدها شعلة مضاءة، وأذرعها نصف عارية، وعلى جسمها فستان أبيض خفيف شفاف واصل يا دوب إلى الركبتين، يكشف عن قميص أخضر مُحلىّ بالدنتلاّ حول الصدر... وصدرها وما حوله شبه عارٍ تمامًا، ونهودها الكبيرة التي تفوق أفحل الرمان مرفوعة بستيان له أشرطة حمراء.. كانت بيضاء، فارعة الطول، ذات عينين زرقاوين وشعر أسمر طويل مضفّر يميل إلى الاصفرار، تحيط به رأسها في شكل مبدع. كانت واقفة وبيدها شعلة مضاءة، وهي تسند نفسها باليد الأخرى إلى الحائط، فبان جسمها وصدرها أكثر جمالاً.

وظننت في الحال أني لست في بيت معمول من الصاج في عزبة أبو جحشة، بل في مكان آخر.. مكان ذهبت إليه منذ أيام أنا وعبد العظيم وشحات. كانت جميلة سبحان من صورّ.. وشعرت بشيء ما في جسدي ينتفض، وتقدمت خطوة لأقترب منها. وكانت هذه أول مرة في حياتي أقترب من امرأة في جرأة لم أعهدها في نفسي من قبل. ووقفت أحدق فيها مرة في حياتي أقترب من امرأة في جرأة لم أعهدها في نفسي من قبل. ووقفت أحدق فيها محاولاً أن أنظر إلى كل ما يجسدها.. وشعرت برغبة ملحة في أن أقف بجوارها لأتبين ما بداخل الجسد. وإذا بالمرأة تتكلم بصوت ناعم قائلة، وذراعها مسنود إلى الحائط:

- إيه يا حضرات؟ إيه يا سي علي؟.. إيه اللي مسهركم لحد دلوقت؟ كنتم قاعدين تتكلموا في إيه؟! هي وكالة من غير بواب؟ خير إيه يا سي علي؟.. هو أنتو عاوزين تهدهولي واللاّ إيه؟ أنا ما بنيتوش إلاّ ما بعت كل اللي كان حيلتي.. حضرتك عايز تهدهولي.. ناس طالعة وناس داخلة، هو أنتم إيه، ما بتتعدوش.. مالهم بأه أهالي المحلة؟ عملوا فيكم إيه؟ قاعدين من أول الليل تتكلموا على أهالي المحلة.. مالهم؟ مش لّموكم.. جايين لمامة من كل بلد ولّميناكم، قاعدين تقطعوا في جدرهم ليه من أول الليل؟ هو إزرع ابن آدم يقلعك؟ عايزين إيه من أهل المحلة؟ عايزين تأخذوا بيوتهم؟ لأ، كله إلاّ كده.. كله كوم وده كوم. اتفضل وشوف لك حتة تانية. أنا مش عايزة البيت بتاعي يبقى زي الوكالة، كل واحد يجرجر له شلة وداخل طالع بيها، أنا عايزة البيت بتاعي ما يخشوهوش إلاّ الناس اللي ساكنين فيه، البيت بتاعي ما يستحملش، أنا باربيّ

وَلاَية.. كوم لحم، أنا عايزة الناس اللي في بيتي يكونوا ناس أمره.. إحنا مالناش غير البيت ده..

وعندما قالت المرأة كلمة "كوم لحم" تحول نظري عن كل ما بالجسد من روعة. تحـول عن هذا الجمال الذي دفعني دفعًا إلى التطلع له والوقوف بجوارها، وأغمضت عينيّ، وأحنيت رأسي إلى الأرض. وتحول ذهني عمّا يدور حولي من حديث. وتمثلت أمـام عينـيّ صـور عديدة، صورة أختي خسكية وأخواتي جالسون على الفرن أمام ركية النار المشتعلة في كوالح الذرة في ليلة من ليالي الشتاء، وهم يقمرون عليها العيش. تصورت أمي وهي جالسة علـى الفرن في جلبابها الأسود الطويل الواصل لكعب رجلها، ذي الأكمام الطويلـة التـي تغطـي أطراف أصابعها، وشعرها الطويل الأسود بضفايره الواصلة إلى فخذيها والذي تخفيه الطرحة السوداء عن العين، ولم تخلع أمي هذه الطرحة عن رأسها منذ مات أبي، لا ليلاً ولا نهارًا، إلاّ في وقت تكون فيه وحدها. تصورت وجهها الأبيض وعينيها الواسعتين برموشـهما الطويلـة والحواجب الثقيلة التي تزيده روعة وجمالاً. تصورتها وهي غارقة في بحـر مـن التفكيـر، واضعة يدها على خدها تارة، وتحت ذقنها أخرى، وشفتاها تتحركـان وهـي تكلـم نفـسها، وأصابع يدها تتحرك واحدًا بعد الآخر وأنا يخيل إليّ أنها تحسب أشـياء تائهـة أو ضـائعة أو ترصد حساب الزمن.. لم ترفع أمي يدها من على خدها إلاّ على طرقات عاليـة متواليـة على الباب الخارجي للدار. وهمّت واقفة لترى من الطارق، وإذا بحبيبي السيد أبو خيره، الأخ الأكبر لجدي أبو والدتي، يدخل ومعه آخرون ليسوا من قريتي، بل من إحدى القرى المجاورة، قرية اسمها "خرسيت" دخلوا الحجرة. وعندما رأيناهم، وقفت أنا وأختي خسكية وأختي حُـسْن نتنطط على كتافه، فاحتضننا وقبّلنا. وجلسنا على الفرن، وأميّ جلست على الأرض في بحراية الحجرة، وهذا من تقاليد الريف [فالمرأة لا تجلس مع الرجل في مكان عال خاصة إذا كـانوا غرباء من القرية أو المنزل]. ظلت أمي جالسة في بحراية الحجـرة واضـعة رأسـها فـي الأرض. وإذا بحبيبي يزعق على والدتي، فتهب واقفة، فيطلب منها أن تجلس علـى الفـرن. وبعد أن تمنعت، عادت وقبلت، وجلست في أحد الأركان. وكنت أنا وأختي خـسكية نتـنطط على أكتاف أمي تارة، وعلى أكتاف حبيبي تارة أخرى، وإذا بحبيبي ينده على أخـي محمـد ويقول له:

- خد هات من الدكان ورقة معسّل. وأنت يا بت يا حُسْن، روحي هاتي الجوزة من عند الحاج محمود.

وبعد أن خرجت أختي وأخي، قال حبيبي السيد موجهًا الكلام إلى أميّ:

- اسمعي يا سيدة، أنت عارفة عيلة أبو شادي كويس، عيلة طيبة من خرسيت. عيلة بيتهم مليان خير، عندهم بدل الجاموسة اتنين، وبدل الحمار اتنين، غير الجمل.. بيتهم مستور، ما يحتاجوش حاجة من برة. والنسوان في البيوت بتاعتهم متهنية، ما يطلعوش برة والرجالة هيّ اللي بتشتغل في الغيط.. ناس مبسوطين، عندهم سبعة تمان فدادين، الخير ياما عندهم.

وسكت لحظة، كما لو كان يستعيد شيئًا قد نساه، وعاود الكلام قائلاً:

- أبوهم راجل طيب يعرف ربنا كويس، عنده أكبر أولاده عمره خمسة وعشرين سنة، جوزوه وهوّ صغير عشان يفرحوا بيه، ولكن مراته ما بتخلفش عيال، ولفوا بيها كل الدنيا عشان تخلف ولكن ما لاقوش فايدة، وهمّ عايزين يجوزوه واحدة بنت ناس طيبين، فالناس دلّوهم علينا، وجُم لأبوكي وكلموه عشان طالبين أنهم يجوزوكي لابنهم... عايزين ولد يقعد على الأرض، وهم عارفين إن جوزك مات، وكمان عارفين إن عندك عيال. وهمّ ما يهمهمش العيال. لكن اللي يهمهم النسب والأصل. وحايجيبولك جاموسة هنا في البيت، تحلب لبن. وحاتستني أنتي زي ما انتي هنا في البيت، وهوّ اللي حايبقى يجيلك. أبوكي وافق، وأمك كمان وافقت. أنت لسة صغيرة ما تبهدلتيش. همّ حياخدوا عيالك في عينيهم، والعريس قاعد قدامك أهه، جدع مليح طيب اسمه محمد على اسم المرحوم أبو الولاد. وآدي أحنا جينا نقولك عشان نشوف نكتب الكتاب إمتى. حنكتب الكتاب في الستر، لا من شاف ولا من دري. يبقى على سنة الله ورسوله. هوّ أنت رايحه تتهجلي عليهم وأنت صغيرة؟ كل الناس بتتجوز، وكلنا حنموت. كل شيء بيد الله.

وعندما سمعت أمي كلمات "أنت رايحة تتهجلي عليهم وأنت صغيرة" أحنت رأسها واستسلمت للبكاء. وعندما رأيت أمي تبكي، بكيت كما بكت أختي. وحاولت أن أضربه على وجهه فابتسم، وحاول أن يقبلني. وازدادت أمي في البكاء، وعلا نحيبها. وقال حبيبي موجّهًا كلامه للرجالة:

- معلهش يا جماعة ما هي حلاوة من غير نار متنفعش، أصلها افتكرت أبو الأولاد. ودخل أخي محمد بعد أن أحضر ورقة الدخان، ونظر لي وأنا جالس على حجر حبيبي، والتفت إلى أمي وهي تبكي، ثم وقف صامتًا مذهولاً، متطلعًا حوله في حيرة، وهمست أختي زينب في أذنه قائلة:

- عايزين يجوزوا أمك.. أنت شايف الراجل اللي قاعد في الوسط ده، هوّ ده اللي عايز يتجوز أمك. وعشان كده هي بتعيط، أبوها عايز يجوزها وياخدوها منّا. فشحب لونه،

وتدلت رأسه في صمت دون أن يتكلم. واتجه نحو أمه وجلس بجوارها واستسلم للبكاء، وكان يردد بين الحين والحين: "آه يابا، تعالى لي يابا.. حياخدوا أمي مننا يابا.. آه يا خويا.. مين حيربي أخويا الصغير، مين حيعمل بوصية أبويا.." وإذا أمي تنتفض، وتهب واقفة وهي تصرخ بأعلى صوتها.. واتجهت نحوي، واختطفتني من أحضانه وعيناها مبللتان بالدموع قائلة:

- تعال.. تعال... أنت حبيبي، أنت جوزي!! آه ياني.. هوّ أنا اشتكيت لحد، هوّ أنا قلت لحد أنا عايزه اتجوز؟ همّ ولادي قعدوا على طبلية حد وخدوا منها رغيف، أنا مش مخلياهم عايزين حاجة. أنا حتهجّل عليهم... مش حيلمسني راجل بعد محمد الخولي. قوم ياللاّ امشي من هنا.. قوم خد الرجالة اللي أنت جايبهم وامشي!! هوّ أنا قليلة الأصل؟ أنا حاعمل بالوصية، وأخليه زي الناس اللي في مصر.. أنا مش عايزة حد يكلمني تاني في الموضوع ده... يحرم عليّ بيتكم ما أنا داخلاه... دا ما قلعتش هدومي السودة من نهار مامات جوزي... أعمل إيه بس؟ أصبغ وشي عشان ما حدش يشوفني؟ آخدهم وأطفش من البلد دي عشان ما حدش يكلمني تاني في الموضوع ده؟!

واحتضنتني وهي تقول:

- أنت اللي ليّ.. حرام يا جواز، حرام يا جواز من بعدك يا محمد يا خولي!!

تصورت كلمات أمي وهي ترفض باكية، وقلت في نفسي: "إن هذه المرأة، صاحبة البيت، مثل أمي. مات زوجها ولم يترك لها شيئًا مثلما لم يترك لنا أبي شيئًا، وعندهم كوم لحم مثل أمي" وسألت نفسي، وألححت في التساؤل: "ليه أميّ لابسة الهدوم السودة لحد دلوقت؟ طب لابساهم عشان أبويا مات، وليه الولية دي لابسة هدوم تانية كاشفة عن كل جسمها رغم إن جوزها هوّ كمان مات وعندها عيال؟.." وإذا عبد العظيم يقطع تفكيري دون أن أهتدي إلى شيء..

شدني عبد العظيم من جلبابي وهو يقول:

- ياللاّ بينا، ما هو دايمًا كده، همّ لهم في كل خطوة سلام، واحنا لنا في كل خطوة عفريت.

ونحن في الطريق، لم أكن أصغى لعبد العظيم.. كان ذهني مشغولاً بأمي والحنين لرؤياها، متمنيًا اليوم الذي ألقاها فيها وأقبّلها. كنّا نسير والخوف والفزع هما المسيطران. نتلفت حولنا في كل خطوة خوفًا من أن يهاجمنا أحد من الخلف. كان الطريق ساكنًا، والمنازل مظلمة خاصة في الحواري والعطف التي تسكنها أعداد غفيرة من العمال. لم نكن نسمع على طول الطريق سوى بعض الأصوات المنبعثة من بعيد، كانت هي أصوات بعض الباعة

المتجولين. كنّا نسير واحدًا وراء الآخر ملتصقين بجدران المنازل، متجنبين السير وسط الطريق. لم نكن نتكلم خوفًا من أن يسمعنا أحد، وهبّت رياح باردة منعشة، وكان الهواء يعبث بالأبواب المفتوحة يحركها جيئة وذهابًا.

كنت أسير وأفكاري مشتتة تتجه نحو أمي وأخواتي، وتساءلت: "هل جاء أحد لأمي مرة أخرى ليطلب زواجها. إن أباها مصمم على أن تتزوج، وكثيرات من نساء بلدنا كلموها في هذا الموضوع.. فهل ستقبل؟.. لا، خاصة بعد أن كبرت وأصبحت عاملاً. لقد رفضت أمي وكانت مخلصة في الرفض يوم أن قالت وهي تبكي. لن أتزوج، لن أكون لرجل آخر، لن يكون أبنائي خدمًا عند الآخرين.." أسئلة كثيرة محيرة راودتني طول الطريق، ورغبة ملحة في أن أرى أمي لتزول عني هذه المخاوف والأحاسيس.

العفاريت والملائكة والجنة والنار

عندما اقتربنا من المنزل قطع تفكيري صوت الولد الغريب وهو يقول للولد السيد الصفطي:

- أحنا حنخش البيت أزاي؟ البيت بتاعنا ضلمة، والأودة بتاعتنا تحت بير السلم، حتة كحل. أنا خايف. خايف أحسن حد يكون مستنينا تحت بير السلم ويخبطنا خبطة نموت فيها.
- طيب حنعمل إيه؟
- نقعد قدام الباب لحد ما ييجي حد من أهل البيت نخش معاه.

قلت:

- وإحنا حنستنى لحد امتى؟ حنستنى خايفين لامتى؟ إحنا لازم نعتمد على نفسنا. كل واحد منا يملاكمه تراب ونخش، إن لقينا حاجة أو حد اعترض سكتنا نروح حادفين التراب في عنيه ونطلع جري.

اقتربنا من المنزل، ودخلنا من الباب الخارجي، كل منا يمسك جلباب الآخر. وكانت الغرف مغلقة لا ينبعث منها أي ضوء. وشعرت برعشة تسري في جسدي، خاصة أني كنت أسمع من أختي عن العفاريت، واهم لا يطلعون على الناس إلاّ في الظلام والحتت المقطوعة. تذكرت في تلك اللحظة ما كنت أسمعه عن "المتوهاتية" أو "النداهة" اللي بيطلعوا في الضلمة، لو مسكوا أي واحد وعصروه بأيديهم يتوه عن الوعي ويعملوا فيه اللي هم عايزينه، حتى لو رموه في البحر. وعندما تصورت هذه الأشباح ازداد خوفي وعندما وصلت إلى مدخل السلم، وكان الظلام شديدًا، شعرت بقشعريرة تجتاح أوصالي، وأن شعر رأسي قد تصلب. وبدأت أتراجع إلى الخلف بعد أن كنت في المقدمة. وشعر الولد الغريب فتزحزح هو الآخر، وتبعه السيد الصفطي. ووجدنا أنفسنا نتراجع. وبدأنا نتهامس من منّا يتقدم.

قلت: ما تقرب يا واد إنت وهوّ، هو إحنا حنقعد نتكلم، ياللا يا واد يا غريب، خش.

فقال الغريب: ما تخش يا واد يا سيد.

والسيد يقول للغريب: ما تخش أنت..

والغريب يقول لي: ما تخش أنت..

وهكذا بدأ كل منا يقول للآخر: ما تخش أنت..

وأخيرًا، استجمعت كل شجاعتي، وتقدمت، واضعًا إحدى يديّ على درابزين السلم، ويدي الأخرى تحسس على الحائط، وبدأت أصعد سلمة سلمة في حذر، وعيناي لا ترى شيئًا في الظلمة الحالكة. وفجأة اصطدمت قدمي على السلم بشيء ذي شعر ناعم، وبسرعة فلت هذا الشيء من تحت قدميّ جريًا. فانطلقت منيّ صرخات عالية متوالية، وتبعني في الصراخ الولد الغريب والولد السيد الصفطي. وعدنا مسرعين إلى الخلف وصرخاتنا تشق سكون الليل، مما أدى إلى يقظة كل سكان المنزل. وتفتحت الأبواب، وخرجت النساء من الحجرات وفي أيديهن المشاعل، كما خرج الرجال يحثون عن مصدر الصوت، فوجدونا واقفين على ناصية العطفة، ونحن لا نتوقف عن الصراخ، وكنا نردد بين الحين والحين: "العفاريت تحت السلم، إحنا شفناها، العفاريت مسكتنا من رجلينا، آه يا ناس.." كنا نصرخ كالصرعى.

وجاءت النسوة محاولات تهدئتنا، قائلات: "اهدى يا وله" وأخرى تقول: "هم منين دول"؟.

وأخرى ترد: "دول غرب، ما هماش من هنا، مش عارفة أهاليهم سايباهم أزاي يتغربوا كده من صغرهم، هي أمهاتهم دول ما عندوهومش قلوب؟ هم حاطين على قلوبهم حجارة.. دي الواحدة ما بتجيبش العيل إلاّ لمّا بتطفح الدم.. يا عيني يا ولاد.. هاتي شوية مّية يا بت اسقيهم خليهم يشربوا، العيال انطربوا...".

وأخرى تقول: "هاتي يا بت المحارة والحجر من تحت النملية وأدعكيهم بشوية مية، وهاتيهم للعيال يشربوها يحسن ينقطع خلفهم.. هاتي يا بت ينوبنا ثواب..".

وآخرون ذهبوا لبحث عن العفاريت. وإذا بصوت امرأة تقول:

- الله يلعنكم عيال ويلعن اللي خلفوكم، حتعملوا سمعة للبيت زي الزفت، حتخلوا السكان يخافوا ويسيبوا لنا البيت.. عفاريت إيه يا ولاد الكلب؟".

وأخرى ترد بصوت عال صارخة في وجه من تكلمت:

- إيه هوّ يا ولية، هوّ ما فيش في قلبك رحمة. العيال بتعيّط، وأنت جاية تشتميهم؟ هوّ كل واحد ما بيدورش إلاّ على حاله. إنت في إيه واللاّ في إيه؟ هوّ أنت ما عندكيش عيال؟.. قوم يا بني قوم. إيه اللي أخركم لغاية دلوقت.

وجاءت النسوة بالمشاعل، هن والرجال، وهم يقولون:

- إحنا دورنا مالقيناش حاجة تحت بير السلم، ما فيش لا عفاريت ولا حاجة. دي كانت قطة نايمة. هي دايمًا القطط كده، تنام على السلم وتتكعبل في الماشيين.

فردت النسوة الجالسات بجوارنا:

- الله يلعن القطط ويلعن أصحابها، طربوا العيال. قوم يا بني قوم، قوم لما نوديكم لحــد جوه.

وفي الحجرة تركونا بعد أن أضاءوها لنا. ومنذ تلك اللحظة ونسوة كثيرات، ممن يسكن منزلنا، أصبحن يترددن علينا كثيرًا، كما كنّ كثيرًا ما يدعوننا إلى حجراتهن فنشأت بينا وبين أطفالهم علاقات صداقة، خاصة الكبار منهم.

بعد أن خرجت النسوة، بقينا وحدنا، وكل منا ينظر الآخر دون أن ينبس أحد منا بكلمة، وجلس كل منا بجانب الآخر، وأنظارنا متجهة نحو الباب. وإذا بخروشة تنبعث من مكان مــا وتلفت كل منًا حوله باحثًا عن المصدر. كانت الخروشة تأتي من خــارج الحجــرة، فقمــت وأغلقت الباب بالترباس، مطمئنين أنفسنا أن العفاريت لن تدخل طالمــا أن الحجــرة مغلقــة. وقلت:

- خلاص.. خلاص يا ولاد.. أدي أحنا تربسنا الأودة ومش ممكن العفاريــت حــتخش.
فقال الولد الغريب:

- عفاريت إيه بقه؟ مش النسوان قالت لا كان فيه عفاريت ولا حاجة.

فرد الولد السيد الصفطي:

- هوّ إيه؟ ماهي العفاريت بتطلع في شكل قطط سمعت كده من أميّ.

- فقلت:

- أدينا قفلنا الأوضة أهه، ولو طلع علينا عفريت واللاّ حاجة نبقى نموّتــه. طــول مــا الأوضة مقفولة مش حيلاقي حتة يطلع منها. قوم يا واد يا سيد هات حتة جلابية قديمة أو حتة خلقة ونحطها قدامنا، ولو خش نحدفها على وشه ونغميّه من غير ما يشوفنا.. هات يا واد يا غريب المقص لما أحطه جنبي على الحصيرة، ولو جِه انتم ترموا عليه الجلابية وأنا أخبطه بالمقص خبطة يموت..

وجلسنا في انتظار العفاريت، دون أن يكلم أحد منا الآخرين. لا صوت، ولا حركــة.. وانتظرنا بعيون نائمة، وطال انتظارنا. وأخيرًا كّوع كل منا بجانب الآخر، وغلبنــا النعــاس، فنمنا دون أن نطفي اللمبة. وإذا بفأر يجري من على وجهي وأنا في أحلى نومة، فأهب واقفًا، فأرى الفأر يدخل أحد الشقوق الكثيرة الموجودة في الحجرة، ولولا أني رأيته لمــلأ الخــوف قلبي.

طار النوم من عيني. وجلست في الحجرة أتأمل أسراب البق وهي تسير واحدة وراء الأخرى على الجدران في طمأنينة دون خوف، والصراصير وهي تنتقل من قفة على قفة ونظرت نحو الولد الغريب والولد السيد الصفطي، وتأملتها وهما نائمان ملتصقي الأجسام وقد وضع كل منهما يده على الآخر كإخوة من عَصَب. ونظرت طويلاً للوجوه والعيون المسبّلة، والبسمات التي ترتسم على الوجوه وهما يحلمان. ونظرت إلى جسديهما العاريين بعد أن تكومت ملابسهما عند رأسيهما من شدة الحر، وبانت الضلوع، وجلست أعد هذه الضلوع. ونظرت إلى بطنيهما الخاويتين وراودتني فكرة أن أصحيها ليأكلا، ولكنني قلت في نفسي: "حاصحيهم يأكلوا إيه؟ ما فيش حاجة.. ما فيش غموس، إحنا آخر المدة والفلوس خلصت، والعيش كمان قرب يخلص، يا دوب يقضينا بالعافية.. أصحيهم يغمسوا بملح؟ النوم أحسن.." ونظرت طويلاً إلى أيديهم المتشابكة على الأعناق، وعاودتني الذكريات.. ذكرى أختي يوم كنا نتخطط على الفرن، عندما كان النعاس يغالبني وتحاول أختي أن تصحيني قائلة: "لأ، ما تنامش، قوم لما نبقى ننام سوا..." وعندما لا تتمكن من منعي من النعاس، تنام هي بجواري وتحتضنني، وتحاول تصحيني من جديد، قائلة: "ولد، ما تصحي يا ولد.. اصحى وقوم نلعب.." وتفتح عيني، وتمسك الرموش، وتقول "فتح.. فتح يا ولد، فتح عينك" وتضع يدها على كتفي، واليد الأخرى تفتح بها عيني، وتقول "اصحى يا ولد" فتح عينك" وتضع يدها الناعمة على عيني.. إلى أن تأتي أمي بالأكل، فنأكل، ثم ننام متحاضنين. وأحسست بالحنين نحو أختي. وتحسست جيبي، فتذكرت أنني لم أشتر شيئًا للغذاء لأنه لم يبق معي نقود منذ أسبوع، وقلت: "أهو بكرة حنقبض، وأروّح، وأقول لأمي على كل اللي شفته".

وتمنيت في هذه اللحظة لو أن معي نقودًا لكي أروح البلد وأرى أختي التي طال شوقي إليها وفكرت: "استلف؟ أروح ماشي؟ مش معقول.. أمال أعمل إيه؟ أستني لما أقبض، خلاص فاضل يوم، واشتري منديل مشغول بالأويه وأعطيه لأختي عشان تفرح"..

ودارت في ذهني صور أخرى عديدة. صورة العامل اللي مات على المكن ووقفت أنا مكانه، والدم المتجمد على جوانب المكن. وتملكني الفزع. وتمثلت أمام عينيّ كثيرًا من الكلمات التي سمعتها من أخواتي ومن العيال عندما كنا نجلس على المصطبة عن التراب والملايكة لما تيجي وتحاسب.. وعن المرزبّة والتعابين اللي بيخوفوا بيها الواحد وهو ميّت، وعن الجنة وعن الشجر الكثير من كافة الأصناف – من عنب وتفاح وخوخ وقشدة – لما يمرّ على الواحد وهو نايم، وتتدلدل الفواكه من الأشجار التي تحملها إلى فمه، ويأكل زي ما هو عاوز دون أن يتعب نفسه.. وعن النار الموهوجة، وعن السراط المستقيم اللي الناس بتمشي عليه، واللي أعماله طيبة يقع من عليه في الجنة، واللي أعماله سيئة يقع من عليه في النار،

واللي سرق البيضة ينشل البحر بالقشرة.. وعن العيال الصغيرين اللي بيموتوا وما عليهمش ذنوب وبيشفعوا لأهاليهم يوم القيامة.. عندما تخيلت هذه الصور، ملأ الخوف قلبي، وقلت: "زمان الملايكة دلوقت بيحاسبوا العامل اللي مات على المكن، ويا ترى بيقولوا له إيه؟ يا ترى حيدخل الجنة وإلا حيدخلوه النار" وحيدخلوه النار ليه" هوّ عمل حاجة؟ دي المكنة هي اللي موتته.. يا ترى قال لهم على كل حاجة بتحصل في المصنع؟!.. قال لهم على اللي حصل له؟ يا ترى قال لهم إن المكنة هي اللي موتتة وإن الرئيس مارضاش يصلحها. زمانة قال لهم عن إهمالهم في تصليح المكن مما أدى إلى موت الكثيرين. يا ترى قال لهم إن الرؤساء بيضربوا العمال وبيمنعوهم من الذهاب إلى الدورة؟... لو قال لهم كده حيدخلوه الجنة. إياك بس ما ينساش، عشان بيقولوا إنهم بيضربوا الناس بالمرزبة ويجيبوالهم التعابين.."..

أفكار سوداء مرت بخاطري، وقلت في نفسي: "يا نهار أسود، ده أنا بقيت عامل، ومسكت المكن، وممكن تجيني خبطة أموت فيها، وحيدفنوني فين؟ هنا في المحلة؟... بعيد عن بلدنا؟... وأمي حتعرف إزاي؟... يا ترى هيقولولها؟.. مش معقول. يمكن يخبوا عليها. هو حد عارف؟ ما هو ناس كتير ماتت في المصنع. هو حد عارف ودوهم فين؟.. ما هو الواد الغريب يقول لها لو حصل حاجة.. وأختي لما تعرف حتعيط.. طيب وعلى إيه استنى هنا وأموت غريب واندفن في ترب ما اعرفهاش، والناس يقولوا لأمي ياللي ابنك مات غريب وما انتش عارفاله حتة اندفن فيها...".

وتجسدت أمامي الترب والمدافن وأشجار التوت اللي بتشرب من دم الميتين، والنعش والرجالة وهم شايلينه، والنسوان وهي بتعيط، وأمي وهي ملطخة بالطين وبتقول: "ياللي مُت وما شفتاكش.. يقطع المصنع وصحابه.." وعندئذ فرت الدمعة من عيني، وهزّيت رأسي، وانتبهت، وقلت: "الله.. الله.. إيه ده؟ ما أنا هنا أهه!! ما أنا صاحي، وإيه اللي حيموتني؟ الواحد ياخد باله يمكن ما يموتش.. ولو مات، ما هو كل شيء بيد الله، وكلها ترب مسلمين، المهم الواحد يأخذ باله. أمي بتقول "إمشي في سكتك عدل يحتار عدوك فيك"، والواحد ما يمشيش قدام المكنة. المكنة هي العدو. هي اللي بتموت، الواحد يدورها ويمشي من قدامها يقف وراها، يبعد عن المكوك وهوّ رايح وهو جاي ما دام المكن خربان. هو أخويا ما كانش دايمًا بيقول: أبعد عن الشر وغنيّ له الواحد يدوّر المكنة ويدوّر الجري وراها. يبعد عن الشر يبعد عن شرّ المكن. وعليّ آخد بالي. حا أعمل إيه في البلد لو روحت؟ أروح الكتاب والفقي يضربني بالفكة؟ حا اشتغل فلاح؟ ما عندناش أرض.. حاشتغل عند العمدة؟ حاشتغل خدام؟.. واللاّ ألم دودة في أرض الوسيّة، أشتغل يوم وأبطل عشرة؟.. لأ، هنا أحسن، بعيد عن الشمس، وشغل دايم. صحيح بيضربونا، لكن الضرب مش حيدوم حستنى هنا، واللي يجرى عليّ

يجري على الآخرين. ما هو ناس كتير ماتت، وما فيش حد من العمال روح، وناس بتيجي كل يوم. العربيات كل يوم بتيجي محملة.

أفكار كثيرة تراودني حتى غلبني النعاس، فنمت دون أن أرى العفاريت.

واحد من فتوات عزبة اللبن

صحوت في الصباح مبكرًا على نفس الصوت الذي سمعته بالأمس، صـــوت البومـــة. وتوقعت أن شرًا سوف يحدث كما حدث بالأمس. وفي الطريق إلى المـــصنع، كـــان العمـــال يسيرون في حذر، كل منهم يلتصق بالآخر إذا رأى ناسًا تقف على الرصيف بملابس حريـــر إفرنجي. كانوا يسيرون جماعات. منهم من كان يتطلع إلى الأمام، ومنهم من يتطلع إلى الخلف بعيون حادة النظرات. كان كل منهم يتوقع أن تهوى على رأســـه شـــومة أو يطعنـــه خنجـــر أو تنغرس فيه سكينة من الخلف.

وعلى الطريق، كان العمال يتجمعون، يشيرون ويلوحون بأيديهم، ويتهامسون ويتحدثون عماّ حدث بالأمس. يقول أحدهم: "خلاص نبهنا على ولاد بلدنا وقلنا لهم".

وآخر: "عملتم إيه في العصى؟".

فيرد آخر: "إحنا حنجيبها من البلد، حنقبض النهاردة ونجيبها معانا وإحنا جايين".

أحاديث وأحاديث حول تجمع البلديات.

"شفت إيه اللي حصل امبارح، الرجالة اتصدرت، لازم إحنا كمان نتصدر، إحنا مش أقل منهم رجولية.. نبهت على ولاد بلدك؟".

دخلنا المصنع دون أن يحدث عراك في الطريق إلى المكن. واستلمت المكن من زميلي كالعادة، وقبل أن يتركني همس في أذني قائلاً:

- خلي بالك، أهل المحلة بيضربوا العمال. العراك داير في كل مكان فـــي المـــصنع.. طول الليل والعراك هنا وهناك.
- وأنت عملت إيه؟
- حعمل إيه؟ أنا مالي يا عم؟ ما دام ما فيش حد جِه ناحيتي يبقى خلاص قال يا جحـــا.. ما دام بعيد عني خلاص.

تركني ومضى، ووقفت على المكن أتأمل ما قاله لي كما تأملت ما سمعت بالأمس فـــي منزل علي. وقلت في نفسي: "لو كان شاف أهالي المحلة وشاف على وعبد العظيم لمّا جريوا وراهم كان اتشجع وما كانش قال كده".. وطال بي التفكير – وقلت: "إيه ده؟ يعني واحد واللا اتنين واللاّتلاته هي كل العمال؟ كل عمال من بلد واحدة بيتجمعوا، سمعتهم بيكلموا على طول

الطريق وحيجيبوا العصى لما يروحوا، وأنا لمّا أروح حاقول لأخويا يجيب لي عــصايا" وإذا بعبد العظيم يأتي من الخلف ويقطع تفكيري بقوله:

- النهاردة القبض، كل الناس حتروّح. كل واحد حيجيب له عصايا معاه.. إحنــا اتفقنــا خلاص. واتفقنا كمان على أن كل عمال من بلد واحدة رايحين يسكنوا مع بعض.
- وهي أوضة راح تساع؟
- لأ، يسكنوا في أوض مختلفة في حي واحد أو في نقطة واحدة عشان يبقوا قريبين من بعض.. بس إحنا مستنيين لما نقبض. كل شيء حيتم بعد القبض عشان كل واحد يدفع اللي عليه.

واسترسل قائلاً:

- وأنت حتعمل إيه؟
- حاروح، وحاقول لأخويا يجيب لي عصايا. فقهقه عاليًا، وقال:
- عصايا؟ عصاية إيه؟
- عصايا من عند السيد البدوي، عصايا على أدي. فطبطب على كتفي وقال:
- خلاص، بكرة تيجي العصايا وحنشوفها..

وتركني وتذكرت أني لم أقل له ما سمعته من عامل الليل، فجريت نحوه مسرعًا، وقلت له ما دار بيني وبين العامل من حديث. فسكت لحظة وقال:

- روح على مكنك واشتغل، وما تفكرش في الكلام ده. بكرة لما تطلع عليه شــلة علــى خوانة ويرنوه علقة يبقى يعرف إن الله حق. فيه ناس بتخاف وتقول الباب اللي ييجــي منه الريح سده واستريح، سمعت الكلام ده أنا امبارح..

وعدت إلى المكن أفكر فيما قاله عبد العظيم وقلت: "دا لو كان كل واحــد حيقــول زي اللي قاله عامل الليل يبقى حننغلب صحيح. وإذا بالولد الغريب يجري نحوى صارخًا:

- هات المقص. وقفوني على مكنة. مكن بايظ وخربان وفيه فتل كتير مقطعة، صاحبها ما جاش، وجابولي واحد من بتوع الفتل من أهل المحلة عشان يصلحها وطلب منــي المقص عشان يقطع بيه الفتل.

فقلت له:

- ومالك جاي كده بترتعش؟
- أنا خايف يحسن يمد إيده عليّ ويضربني.

ما تخافش.. ما تخافش يا واد.. خد المقص، وما تبينلوش إنك خايف.

واخد مني المقص وذهب.

ووقفت على المكن أنظر وأفكر فيما سيحدث للولد الغريب. هل سيضربه بتاع الفتل؟ وإذا ضربه، فهل سنسكت؟ مش معقول حنسيبه، صحيح، إحنا صغيرين، لكن العصايا السابقة سابقة.. هم أكبر منّا، ولو مسكونا حيموتونا من الضرب.. ولكن، هل نسكت؟ لا!! إحنا لازم نضربهم بأي حاجة: تقل حديد.. تقل من بتاع المكن. خبطة واحدة في الدماغ تسيح دمه.. ديك الساعة، الناس دي كلها حيقولوا العيال سيحوا دم واحد من أهل المحلة، وأخويا لما يعرف راح ينبسط.

ووقفت أترقب عودة الولد الغريب، ولكنه لم يأت، فتركت المكن وذهبت إليه، فوجدته واقفًا على المكن، فطلبت منه المقص، فأخذ يتلفت حواليه باحثًا عن عامل الفتلة، وقال:

- أخذه مني ومشى.

ووقفت أتطلع ذات اليمين وذات اليسار، وإذا بي أجده واقفًا بجوار إحدى الماكينات، فأخذت الولد الغريب واتجهنا نحوه، وصفنا بجواره وتقدم منه الولد الغريب وطلب المقص، وكل ما في جسده ينتفض وإذا بعامل الفتلة يقف متأملاً وجوهنا، ثم ابتسم ابتسامة صفراء، وقال:

- روح خُدُه من العامل اللي واقف على المكن اللي هناك ده وشاور بيده. واتجهنا نحو العامل. ووقف من بعيد يبتسم، وشاور على واحد تاني وقال:

- روح خُدُ من ده.

واتجهنا نحو الآخر. فوقف يتطلع للآخرين. ولاحظت أنهم يبتسمون ساخرين. وقلت: "هذه الضحكات علينا". وأيقنت أن المقص قد ضاع. وأنهم لا يريدون أن يردوه إلينا.

انتابني الغضب، وتذكرت ما كنت أسمعه في قريتي عن "غِنَى" اللي أخذت الفراخ وراحت عشان تبيعهم، وقابلوها رجالة في السكة وأخدوا الفراخ منها بعد أن... وأصبحت أضحوكة البلد.. عندما تذكرت هذا غلي الدم في عروقي وقلت في نفسي: "ما لم يأت المقص سوف يقولون عني ذلك" وأخذت الولد الغريب واتجهنا نحو المكن، ووقفت وعيناي تقدحان شررًا لأهل المحلة الذين يحتقروننا ويرغبون في استكرادنا.

وذهبت إلى عبد العظيم وقلت له ما حدث، فقال:

- إيه اللي خلاك تديهم المقص؟ هو أنت مش عارف أنهم بِيْجُرّوا الشكل؟

- فتركته وذهبت إلى المكن، وقلت في نفسي: "أخويا لو دري مش راح يدخلني البيت" وأسرعت نحو الولد الغريب وقلت له:
- اسمع، خلي بالك، لو شفت المقص في إيده تعالى لي وقول لي.

ووقفت أترقب من جانب، والولد الغريب من جانب آخر وتذكرت قول أمي: "ما ياكولش العيش إلاّ خبازينه" وقول أخي: "ما يجيبها إلا رجالها" وإذا بي أجد عامل الفتلة يقف بجوار إحدى الماكينات ويحرك المقص من جيبه ويضعه أمامه. ووقف يشمر عن ساعديه. ويطرح خصلات شعره الناعم الطويل إلى الخلف بعيدًا عن عينيه. ووقف يتطلع حوله للعمال ذوي الجلاليب المهلهلة والوجوه المصفرة تارة، وينظر لملابسه الحرير تارة أخرى، ويرفع رأسه إلى الخلف تباهيا، ويستمر في وقفته لحظة، ثم يعود وينظر للعمال مرة أخرى، وكنت أنظر أنا إليه وكل ما في جسدي ينتفض وقلت في سري: "إنه أكبر مني" إنه يتباهي بنفسه.. مستفحل نفسه على العمال، لو ضربني قلم حيجيبني الأرض، دا مش لوحده، دا معاه آخرين، حيتلموا عليّ ويموتوني" وقلت: "يعني إيه؟ أسيب المقص يروح وأفضل أسمع طول العمر ما كنت أسمعه عن البت "غنَى" مش معقول.. أضرب أنا قبل ما انضرب هوّ أخويا مش قال لي العصايا السابقة سابقة؟" كنت أشجع نفسي وأنا واقف أراقبه عندما يبدأ الشغل. وقلت: "أهو بدأ يشتغل أهه".

وتطلعت حولي فلم أجد أحدًا مشغولاً بما أفكر فيه، كان كل منهم يعمل في صمت، ويجري خلف مكنه في تباطؤ، والسيور يرتفع زئيرها، وعجلات الماكينات تسرع في الدوران، والماكينات تزداد سرعتها كلما زأرت السيور. وانتابتني رعشة، وقلت "إهجم!!" وإذا بي أجد نفسي أعدو مسرعًا كالريح.. ووقفت بجوار الواد الغريب وقلت: الولد بيشتغل بالمقص، تعالى معايا لما نخطفه.. تعالى شوف خشبه واللا دراع مكنة ولو حصل حاجة اضرب.. العصايا السابقة سابقة.. اضرب في أي حتة" وتركته وذهبت نحو المكن. وأنا في طريقي رأيت المقص يلمع أمام عيني، فلم أحتمل. وتوجهت نحو عامل الفتلة منتهزًا فرصة انشغاله، واستجمعت كل ما بي من شجاعة وانقضيت عليه وأخذت منه المقص، وماتت عليه يدي. وإذا بعامل الفتلة يأتي نحوي مسرعًا رافعًا يده إلى أعلى يكاد أن يهوى بها على وجهي. فلم أمهله مستعيدًا كلمات أخي.. وإذا بالمقص يُرشق في جبهته والدماء تنزف منها بغزارة تلطخ كل بياض وجهه!!

عندما رأيت الدم سابت ركبي، ولم أقدر على السير، وإذا بي أجد الولد الغريب والولد السيد الصفطي وعبد العظيم وعمالا كثيرين يعدون من كل مكان، وكلمة هوه.. هوه.. تملأ العنبر... ولم ينتبه أحد لي أو لوجودي قدر ما كان الانتباه للعامل الغارق في دمه، محاولين

تضميد جرحه. وجاء العمال من أهل المحلة، ووقفوا بجواره محاولين الاستفسار عما حدث. وقلت في نفسي: "خلاص.. أنا مت.. رايحين يموتوني!" وهمس عبد العظيم في أذني قائلاً:

- عملتها؟ خلاص، ما تخافش، ولا يهمك.. كسرت نفسه، جبتها الأرض، مهما يحصل أنت عورته.

لم ينتبه كثير من الواقفين، ولم يعرفوا ما دار من حديث. كانت وجوه كثيرة تنظر لي، ولا تستطيع إخفاء البسمات رغم ما انتابهم من خوف. وجاء الرؤساء، ودوروا الضرب في العمال، وتوجه كل منهم إلى مكنه. وشدني عبد العظيم من يدي وقال:

- قرّب.. هوّ أنت واقف لما ياخدوك؟ تعال..

وسرت معه وركبي قد سابت. ووقفت على المكن، وكلما نظرت نحو المجروح زاد الخوف في قلبي. كان الرؤساء يسألونه وهو واقف لا يجيب. وأخذه أحد الرؤساء وتوجه به خارجًا نحو العيادة.

وانتشر الخبر بسرعة البرق في العنبر. وبدأت التساؤلات عمن يكون الضارب، وأيدي تلوح نحوي. ويأتي آخرون ويقفون بجوار المكن ويتهامسون. منهم من يبتسم ومنهم من يقرش على أسنانه، ومنهم من يهز رأسه في استياء، ومنهم من كان مبتهجًا دون أن يكشف عن بهجته.. ناس رايحة، وناس جاية، والكل يتساءل، وأنا واقف أدور المكن في هدوء، بعد أن هدأت أعصابي.

اقترب البعض مني قائلين في ذعر: "يا نهارك أسود! أنت ضربته إزاي؟ دا من أهالي المحلة، وأحد الفتوات.. سنتك سودة!! حتتقطع حتت!!

واحتملت كلامًا كثيرًا وأنا واقف، وقلت: "خلاص.. وماله؟ زي بعضه، أحسن ما كنت أسيب المقص يروح".

كانت الطرقة تعج بالمتفرجين.

وجاء أحد العمال وهمس في أذني في بهجة.

- شد حيلك، حتلاقينا وراك.. أحنا مستنيين لما نشوف حيعملوا معاك إيه؟.. ناس كتير مبسوطة وفرحانة، لكن مش قادرين يعبروا عن الفرحة..

- لم يكمل حديثه، وإذا بعامل الفتلة يدخل من الباب ورأسه مربوطة بالشاش، وبجواره الرئيس المباشر. وتوقعت أنهم حايخدوني ويطلعوني على بره، ويضربوا فيّ لما يموتوني وحاولت أن أبين أنني لست خائفًا، متجولاً بين المكن تارة، واضعًا يدي على الفرامل تارة أخرى.. وجموع العمال تختلس النظرات من بين المكن في انتظار ما

سيحدث. وإذا بعامل الفتلة تتجمع حوله أعداد كبيرة من العمال من العنبر ومن خارجه، عمال كلهم بملابس حرير إفرنجي. التفوا حوله كالسامر، وكل منهم يحاول أن يسأله وهو يجيب على الأسئلة دون أن تشاور يده نحوي، وكلما ازداد العمال عددًا، ازداد خوفي. وقلت في نفسي: "خلاص.. كل دول رايحين يضربوني، وأنا لوحدي ما فيش حد معايا. حتى الولد الغريب والولد السيد الصفطي كل منهما على مكنه، وعبد العظيم هو الآخر لا يأتي ناحيتي.. اشمعنى دول اتلموا على بعض وبيتكلموا؟ يعني إيه؟ راح أموت؟ زي بعضه.. أديني عورته، ودافعت عن نفسي قدام الناس. الناس دول حيقولوا عليّ إيه؟ مش حيقولوا أهل المحلة اتلموا على واحد وموتوه؟ وهي دي تبقى جدعنه؟ زي بعضه.. ما هي البومة كانت بتزعق على بيتنا، كانت بتنذرني، كانت بتنصحني لكن ما انتصحتش.. خلاص اللي يقع لازم يسد"...

وبينما أنا غارق في التفكير إذ بعامل الفتلة يتقدم نحوي في تباطؤ ومعه عدد من العمال ذوي الملابس الإفرنجي وقلت في نفسي: "أجري أسيب المكن" أدوّر الجري على بره؟ مش معقول.. خلاص، وقعت الطوبة في المعطوبة، دول جايين عندي.. دول قربوا ناحيتي.. يا نهار أسود.. هات المقص... أطلعه من جيبي يقوموا يا خدوه مني؟ زي بعضه، حابطحه قبل ما يبطحني، قبل ما أموت أموته.. أخويا كان بيقول لي كده. ومسكت المقص بإيدي، ووقفت كالزنهار على المكن أتطلع ذات اليمين وذات اليسار متفحصًا الوجوه، وجوه العمال المجاورة كالغارق في البحر في انتظار من يأخذ بيده. وإذا بي أطمئن. وتدخل الطمأنينة قلبي عندما وجدت عبد العظيم والولد الغريب وآخرين مختبئين خلف المكن وبيد كل منهم ذراع من الخشب، ورويدًا رويدًا يقتربون. وعندما وجدتهم يقتربون أسرعت بالالتفاف حول المكن، ووقفت أختلس النظرات وقلبي يدق. وخيل لي أن العنبر قد هدأ حتى من زئير المكن رغم سرعة الماكينات.

كانت أنظار العمال تتجه نحوي دون أن يتجمع منهم أحد. وقلت في نفسي: "ليه العمال ما تجيش تحوش عني؟ "هو مش عبد العظيم قال إن كل العمال من بلدة واحدة اتفقوا على أنهم يتجمعوا مع بعض؟ أمال لغاية دلوقت ما حدش اتجمع، وما حدش جه ناحيتي؟ يمكن منتظرين لما هم يبدءوا بالضرب. ما هو عبد العظيم قال كده امبارح واحنا قاعدين في البيت بتاع علي بالليل" وإذا بعامل الفتلة وبعض العمال ذوي الملابس الحريرية يقفون على المكن ويمسكون بالفرامل.. وتسمرت في مكاني وقلت: "خلاص.. أمري لله، ما فيش فايدة.. حيموتوني أجري؟ لأ ما أجريش.. راح أروح فين؟... هيّ موتة واللا أكتر؟" وأخرجت المقص من جيبي

وتوجهت نحوهم ويدي مرفوعة بالمقص، وإذا بعامل الفتلة يقف في مكانه لا يتحرك، وينظر لي طويلاً دون أن تصدر منه أي حركة..

وقفت على بعد خطوة واحدة منهم نتبادل النظرات، والكل متحفز للآخر. ومن خلال النظرات وجدت عبد العظيم واقفًا وبيده خشبة مستندة إلى الأرض. وفجأة وجدت الولد الغريب واقفًا بجواري، والتصق بي وقال:

- أنا جيت..

وإذا عمال المحلة يبتسمون وتزداد ابتسامتهم عندما رأوا الولد الغريب يقف بجواري واطمأن قلبي لتلك الابتسامات وبدأ عامل الفتلة يتقدم نحوي.. فرفعت يدي بالمقص، كما رفع الولد الغريب يده بالعصا وإذا بعمال المحلة تعلو وجوهم الابتسامات دون أن يرفع أحد منهم يده وزاد عامل الفتلة اقترابًا مني وزعق زعقة عالية تعلو على ضجيج المكن:

- ما تخافش.. ما تخافش.. سألوني في المكاتب قلت أنا وقعت. قالوا لي مين عورك، قلت أنا وقعت، ما فيش حد عورني..

التفوا حولي. وقفت بينهم وقد ازدادت دقات قلبي.. ومددت يدي على الفرامل فأوقفت المكن خوفًا من أن يرفعني أحدهم ويضعني تحت التروس وإذا بعامل الفتلة يطمئنني بقوله:

- ما تخافش.. أنت خايف ليه؟ أنت واد جدع! مافيش حد عملها معايا إلا أنت.. أنا باعتبرك زي أخويا الصغير. حد سلطك حد قال لك.

قلت:

- لأ.

قال:

- كتير من ولاد بلدي حبوا يفسحوك ولكن أنا ما ارضيتش. أنت واد جدع صحيح أنت صغير، لكنك جدع وخفت على حاجتك، وعجبتني طريقتك في خطف المقص، وعجبتني المفاجأة.. حد علمك؟ أنت منين؟

قلت:

- من طنطا.

قال:

- عشان السيد البدوي ما حدش حيكلمك.. أنت من طنطا وإحنا من المحلة وإحنا دلوقت نبقى صحاب.. أنت جدع في الشغل وفي الدفاع عن حاجتك.. وإذا احتجت حاجة، إحنا هناك وياك، أنت من طنطا، وطنطا كلها جدعان.

وشد علي يدي، وذهب.

وقفت مذهولاً، وأنا لا أصدق أن هذا قد حدث. ونظرت حولي فإذا العمـال الواقفـون حولي يتطلعون ورءوسهم تهتز متسائلة وجاء عبد العظيم يسأل:

- أنت عملت إيه وياهم؟ إحنا كنا منتظرين إن حد منهم يبتدي يعتدي عليك.. كل واحـد منا كان معاه عصايا ولكنا وجدناهم بيتكلموا معاك.

وبعد أن حكيت له ما حدث، جاء آخر ليقول:

- دول بيمتحنوك.. كانوا عايزينك تقول إن فيه حد معاك، حد محرضـك.. حيـستنوك بره... دول قالوا لك الكلام ده لما شافوا العمال معاهم عُصْى..

وآخر: "أنت عارف ده مين؟.. دا واحد من فتوات المحلة، فتوات سوق اللبن.. وانكسف يقول للي معاه إن عيل خبطني، ماقالش لحد معاه، ماقالش لحد عليك.. ولكن على مين؟ دا كل الناس شافت، ما عادش حيرفع رأسه.. دا كان بيمشي يقول للأرض أنهدي ما عليكي قدي. ما كانش حد عاجبه في العنبر. ياما ضرب عمال.. صدق المثل اللي بيقول زبلة توقع جمل.. دي بداية عال، حتخلي العمال تتحمس".

وقبل أن يذهب شدّ على يدي وقال:

- النهاردة القبض، حنقبض.. ولما نيجي حنتجمع في البيت. وبدأت المـواتير تتوقـف، والسيور تتباطأ، والماكينات تتوقف الواحدة وراء الأخرى، وعقارب الساعة تقتـرب من الثانية عشر ظهرًا. وهي الساعة المقررة للغداء.

لبست الجلباب: وجاء الولد الغريب والولد السيد الصفطي، كمـا جـاء عبـد العظـيم، وتوجهنا للخارج للغداء، وكل منا يحمل منديله.. ونحن نسير وجدت خلفي وبجـواري عـددًا كبيرًا من عمال النسيج وسمعتهم يتهامسون. "إحنا جنبه، هو إحنا حنسيبه؟ نـسيبه يـضربوه؟ لازم نبقى معاه.. هم حيسيبوه؟ دول ما سابوهش هنا إلا لما شافوا كل العمال معـاه، شـافوا العصى تحت المكن. إحنا مش حنسيبه" وآخرون يقولون: "يا عمي ياللا نتغدى، دي الـساعة رايحة تخلص إحنا مالنا" هو حد كلمه؟ هو إحنا زيهم؟ دول بيشاكلوا الدبان اللي على وشـهم. تعال إحنا حنقبض النهاردة، خلينا نروّح لأهالينا بسلام".

أحاديث مختلفة شتى طول الطريق. وأمام باب المصنع الخارجي كان العمال يفترشـون الأرض سريعًا، كانوا يجلسون جماعات ويأكلون في عجلة. وإذا بأيدي تلوح نحونا.. كانـت هي أيدي علي ومن يجلسون معه وقال علي:

- أنا اتكلمت مع عدد كبير من العمال، ووافق الجميع على أن احنا نسكن بالقرب من بعض ونمشي مع بعض وأنت شايف كل واحد بيأكل مع الثاني أهه. وحنمشي آخر النهار مع بعض.

فردّ عليه عبد العظيم قائلاً:

- وأنا كمان عملت كده بس أحنا مستنيين لما العمال تقبض. وسأل على:
- سمعت وأنا طالع من العنبر إن عمال المحلة اتجمعوا في عنبر النسيج وفيه واحد عندكم ضرب واحد منهم بالمقص عوّره.

فابتسم عبد العظيم، ووضع يده على كتفي، وقال:

- أهه.. أهو ده صاحب المشكلة، حبوا ياخدوا منه المقص لكنه قاوم ورفض، وأخذه منه بعد أن عوره.

واسترسل قائلاً:

- إحنا حنروح نتغدى يحسن الوقت يروح.

وبجوار أحد المنازل القريبة من المصنع افترشنا الأرض، وجلس كل منا يأكل بسرعة، كانت أصوات الباعة تخرف آذاننا.. وعمال تجيء وعمال تروح. يشترون ما يلزمهم، ويلتهمون الأكل وأيديهم ملطخة بالسواد. وصفارات المصنع تنبيء بانتهاء الساعة وخفراء المصنع يلتصقون بالأبواب استعدادًا لغلقها، ويد كل منهم على عصاته، ويهب العمال واقفين، واضعين ما تبقى من أكل في أيديهم متجهين للداخل يكلمون الأكل في الطريق وكانت الأحاديث كلها حول القبض. يقول بعضهم:

"حنروح النهاردة ونسد اللي علينا، والباقي نديه لأهالينا، ونجيب معانا عيش بزيادة عشان ما نحتاجش".

وآخر: "حاشوف أميّ، زمانها مستنياني، وحاخد لهم عيش خاص وحلاوة".

وآخر: "أختي حتتجوز الليلة دي، حاخد لها صابونة ممسكة ومنديل حرير استانبولي قلت لي عليه".

وآخر: "حاشتري ريحة وأنا مروح، واتريح بيها وأنا داخل على البلد".

وآخر: "أنتم بتحلموا؟ عاملين زي الفرخة الجعانة اللي بتحلم أنها في سوق الغلة، طيب استنوا لما تشوفوا حنقبض ولا مش حنقبض، دي دفاتر الغرامات أتملت بأسامينا.. حيطلعوا لنا نص الفطرة خروب.

قرش تعريفه واحد

دخل كل منّا عنبره. وقلت في نفسي: "حاقبض النهاردة تلات برايز وقرشين صاغ، أحسن من الأول. حاقطع نص تذكرة بتلاتة تعريفة وتلاتة مليم وأقول للكمساري أنا صغير.. واللا إيه؟ يمكن يطوقني.. ما اقطع تذكرة بتلاتة صاغ ونص واقعد على الكرسي زي أي راجل وابص من الشباك، ولما ييجي الراجل اللي بيكشف على التذاكر أعطيها له وأنا مطمئن. ويبقى معايا بريزتين وخمسة صاغ وتلاتة تعريفة فكة أجيب بيهم هريسة لأختي وأنا مروح، وأول ما أقابلها أروح مديها لها من غير ما حد يشوفني.. ما هي كانت بتجيب لي كل حاجة من الغيط، فليه أنا ماخدلهاش حاجة معايا؟" أفكار كثيرة راودتني وأنا واقف على المكن غارق في التفكير. وإذا بأحد العمال يمر من خلف المكن ويزعق في أذني ويمسك بكتفي ويهزني هزًا ويصرخ في أذني قائلاً:

- المدير حيمر، خليّ بالك.. بيرشوا الطرق..

انقطع تفكيري.. وتلفت حولي، فرأيت كثيرًا من العمال يسيرون حول المكن في تباطؤ شاردي الذهن. وأيقنت أنهم في وقفتهم هذه يفكرون مثلما كنت أفكر.. النهارده القبض.. كل منهم يفكر في الأشياء التي يشتريها وهو مروح البلد، وفي الأحباب، والأصدقاء الذين سيلتقي بهم ممن تركهم في القرية.. إنهم بالتأكيد يفكرون في هذا.. أو ربما هم يفكرون فيما سيحدث اليوم من تنقلات في السكن، ودفع ما عليهم من نقود؟.. أم هم يفكرون فيما يجب أن يفعلوه إذا كان أهل المحلة في انتظارهم بالباب استعدادًا للاعتداء عليهم مثلما حدث بالأمس، وهل سيدخلون معهم في عراك؟.. وهل سيكون هذا العراك تعطيلاً لهم عن السفر وعن رؤية الأهل والإتيان بالزوادة التي هي مصدر حياتهم لمدة خمسة عشرة يومًا؟.. أسئلة كثيرة راودتني عندما أطلت النظر في الوجوه.. وقلت في نفسي: على أية حال، إنهم في وقفتهم هذه لا بد أنهم يفكرون في أشياء كثيرة مثلي..

انتبهت للمكن خوفًا من أن يمر المدير ويجد المكن عطلان ويضربني. وبدأت أتحرك حول المكن بسرعة متفاديًا تقطيع الفتل ومحاولاً المحافظة على نظافة الأقمشة. وشعرت بإرهاق شديد من طول ساعات العمل. ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط وإذا عقاربها على الرابعة والنصف، فاضل لسة ثلاث ساعات ونصف الواحد حيفضل واقفهم على رجليه الواحد راح يقع من طوله.. أقعد شوية؟.. على إيه؟ المكن يقطع فتل واللاحاجة، والمدير يدخل

يدور فيّ الضرب بالشلوت.. الواحد يستحمل شوية وما نعطيش ابن العويل فرصة يتحكم فينا. وتذكرت كلمة أخي عندما كان يقول: "لك يوم يا ظالم" – وهو شايل الغلق مع ناس كتير واخدهم العمدة يسدوا جسور البحر دون أجر. وقلت في نفسي: "هو امتى الظلم ده حيروح؟".

ونظرت للساعة وكأن عقاربها لا تتحرك. وأطلت النظر فإذا بها الخامسة إلاّ ربع، فلم أصدق، وتوجهت نحوها بطيئًا بقواي المتهالكة، وحملقت فيها للتأكد من أنها تدور، فوجدت عقاربها تتزحزح من حين لحين، وكأنهم اتفقوا معها على أن تسير ببطء لتطيل يوم العمل. وعدت إلى المكن أجرجر قدميّ المتعبين. ووقفت أتحرك خلف المكن وعيناي لا تفارق الساعة في حركة عقاربها. حاولت أن أغض النظر عنها بالانهماك في العمل، ولكن الحنين للأهل، وكثرة ما انتابني من تفكير في أمّي وأخواتي جعلني أطيل النظر في الساعة، لا تبارحها عيناي، وتعود إليها كلما تلفت حولي. وسرت خلف المكن متتبعًا عقارب الساعة وهي تنتقل من دقيقة لأخرى. وعندما توقفت عند الخامسة والنصف شعرت بالنشاط يدب في جسمي عندما جاءني أحد العمال المجاورين وقال:

- خلاص، الرئيس طلعوه في الإرادة عشان يجيب لنا فلوس القبض. وتطلعت للوجوه وإذا كلها متجهة نحو الباب والبسمات تعلوها، والكل فرحان بقرب انتهاء يوم العمل، وبقرب موعد القبض. الجميع في حالة استعداد للوقوف في الصف عند دخول الرئيس للعنبر، وعمال النظافة يعملون في نشاط لكنس العنبر ورشه استعدادًا لمرور المدير. وعمال اللحمة يدفعون العربات أمامهم مسرعين. والمباشرون يلفون حول المكن. والعمال ينظرون على الباب بتلهف تارة، وإلى عقارب الساعة تارة أخرى..عقارب الساعة تتحرك في تباطؤ غير مبالية. وإذا الرئيس يدخل من الباب فتلمحه العيون القريبة وتزعق معلنة العمال الآخرين، مرددين بأصواتهم الصيحة المعتادة "هُو.. هُو.. هُو" أصوات جهورية غطت على كل ضجيج.. وخيل لي أن الجدران تتزحزح. عمت الفرحة القلوب، والبسمات تعلو الشفاه. العمال يقذفون طواقيهم في الهواء ويشقطونها.. عمال تعدّي من هنا وعمال تعدّي من هناك في اتجاه الطرقة التي يسير فيها الرئيس ليروا بأعينهم النقود التي يحملها، وليطمئنوا بأنفسهم. وإذا بالرئيس يمر، فنلمح الكيس المكتوب عليه بالخط العريض "بنك مصر" فتزداد القلوب طمأنينة. وعندما اقترب الرئيس مني، حملقت بعينيّ وشعرت بانقباضة تجتاح قلبي، إذ رأيت الكيس ليس مليئًا بالنقود. وقلت في نفسي: "دا الفلوس اللي في قلبه شوية، بقى الفلوس دي بس حتقضي كل العمال دي..؟ مش معقول"..

وجاءني الولد الغريب يجري وشعره ملطخ بالزغبار وملابسه ملطخة بالزيوت. وعندما تقدم مني، أسرعت قائلاً:

- إيه ده؟.. مالك كده؟ عامل في نفسك كده ليه؟ فابتسم ابتسامة عريضة وقال:
- مسحت المكن ونظفته من الزيوت، الرئيس قال لي كده. واسترسل قائلاً:
- شفت؟.. الرئيس جاب الفلوس.. حنقبض النهاردة ونروّح، وأمي تغسل لــي الهــدوم بالليل.
- وأنت حتروح كده بالهدوم المطينة دي؟
- أمال حعمل إيه؟ آدي إحنا حنروح بالليل وما فيش حد حيشوفنا، أمي حتغسلهم وأصبح من الصبح ألبسهم.

وهزّ راسه وابتسم، وقال:

- المهم أن أحنا حنروّح النهاردة.
- أنت شفت الكيس اللي مكتوب عليه "بنك مصر"؟
- شفته، بس الفلوس اللي فيه شوية صغيرين – يمكن الفلوس صحيحة – اســمع أحنــا عايزين نتجدعن ونقف في أول الصف عشان نقبض ونلحق نسافر الليلة.

قالها وجرى، والفرحة تملأ قلبه بقرب انتهاء اليوم والذهاب للأهل.

وقفت أترقب على أين يتجه الرئيس وأين يجلس حتى أبادر باحتلال مكان في الــصف. وجلس الرئيس، وتجمع العمال من هنا وهناك بسرعة مذهلة، وكل منهم يقف وراء الآخر في صفوف منتظمة، فأسرعت أنا الآخر، وأخذت مكاني في الصف. وإذا بالرئيس يقف ويــصدر أوامره لعمال المكن أن يتركوا الصفوف ويذهب كل منهم إلى مكنه فورًا وإلاّ تعرض للعقاب، إلى حين المناداة عليهم بعد أن يقبض العمال الذين لا يقفون على مكن..

تسمرت في مكاني لا أتحرك. وقلت في نفسي: "إن هذه المدة التي تصرف لم أكن واقفًا فيها على مكن.. إن هذا الأمر ليس لي، بل لمن سبقوني في الوقوف على المكن.. هو الريس عارف حاجة؟ حيبقى مطهوم في الشغل ومش حياخد باله، عشان أقبض بدري وأروح بــدري وابات في البلد الليلة.. أختي زمانها مستنياني، وأمي زمانها بتطبخ.. دا أنا ما شميتش ريحــة التقلية.. ما باكلش طبيخ.. زمانها بتطبخ عشاني"..

وكلما فكرت في كل هذا ازدادت رغبتي في أن أترك مكاني وأذهب للصفوف الأولــى وآخذ مكان آخر بالقرب من الرئيس وأقبض بسرعة.. وخيل إليَّ أن القطار واقف في المحطة

بيصفّر، بيصفّر للغريب يركب.. وقلت في نفسي: "علي إيه؟.. كل واحد نفسه يقبض ويروح.. استنى.. كل تأخيرة وفيها خيرة..

وانتظرت في الصفوف فوجدتها تزداد طولاً.. وانتابني القلق.. خشيت أن يزعق الباجور على السفر دون أن أركب أنا فيه، وأمي تقلق. وتطلعت حولي بعينين زائغتين، وقلب متلهف، وإذا بي أجدني أقترب، والصفوف تتزحزج، والرئيس يسرع.. وعمال من بعيد واقفة شاردة الذهن، وآخرون يعدون الفلوس.. وأيدي تلوح بعيون دامعة.. وآخرون يلطمون على الخدود.

"ما فيش قبض! الشركة كلت فلوسنا"!.

وتعالت الهمسات، وقلت في الحال: "أنا قلبي كان حاسس بأن كيس الفلوس ماكنش مليان.. الرؤساء ملئوا الدفاتر بالغرامات من يوم ما علقوا المنشور..." وشعرت بقشعريرة، وقلت: "يا نهار أسود، أمال العمال اللي الشركة كلت عليهم الفلوس حيروحوا أزاي؟ دار ما فيش ولا واحد معاه مليم، حياكلوا منين؟.. دا كل واحد عامل حسابه أن النهارده القبض وحيروح يجيب الزوادة.. حيقولوا لأهاليهم إيه؟.. حيسرقوا؟.. وحيسرقوا إزاي دول في الشغل.." ودعيت: "يا رب ما أكونش منهم..".

وكلما اقتربت زاد الخوف في قلبي. وحاولت أن أطمئن نفسي بقولي: "أنا خايف ليه؟ هو أنا عملت حاجة؟.. أنا اشتغلت كويس، وما فيش حد من الرؤساء أخد اسمي، وما فيش حد جه ناحيتي. يمكن حد من العمال دول عمل حاجة.." وغرقت في التفكير، وإذا بي أجد نفسي واقفًا أمام الرئيس يزعق فيّ قائلاً:

- اسمك.. معاك ختم؟
- أيوه..
- هاته!

وأنا واقف منقبض.. ومددت يدي في انتظار ما يعطيه لي، وعيناي مبحلقتان في الكيس، وإذا الرئيس يمد يده ويعطيني الختم ومعه قرش تعريفه واحد.

ووقفت أنتظر ويداي ممدودتان فإذا بالرئيس يقول لي:

- خلاص، أنت خدت فلوسك!

فقلت له:

- إنا أخدت قرش تعريفة واحد، ولم آخذ الباقي، تلات برايز وقرشين صاغ.. أنا حاسبهم.

قال:

- مالكش غيره كده! امشي.

ودارت بي الدنيا... ووقفت زائغ العينين، وأنا بابص في يديّ في ذهول قائلاً: "أنا لسة ما قبضتش، دا لازم ناسي" وتطلعت يمينًا ويسارًا، وامتلأت عيناي بالدموع ناظرًا للوجوه المرحة التي أسعدها الحظ وقبضت ما تستحقه كاملاً. ونظرت للتعريفة اللي في إيدي مرة تانية – وقلت: "ده مش معقول.. أنا شغال مدة كاملة، ما بطلتش فيها ولا يوم، يبقى ليه أقبض قرش تعريفة..؟ لازم الرئيس غلطان.. حاروح أقول له.. أمال حروح البلد أزاي؟!" وإذا بالولد الغريب يقف في الصف أمام الرئيس وعيناه نحوي، وهو يهز رأسه في شبه تساؤل، ثم أعطى الرئيس الختم، فناوله الرئيس الفلوس كاملة: تلات برايز وخمسة تعريفة.. زي ما حسبنا. ووقف الولد الغريب يتفحص البرايز ويتأملها ويرنها في الأرض خوفًا من أن تكون مغشوشة. وقرب مني ويداه قابضة على الفلوس قائلاً:

- مالك؟.. إيه، ما قبضتش؟
- أبدًا.. إداني قرش تعريفة واحد..
- إزاي؟.. روح له تاني، لازم غلطان، دا أنا قبضت فلوس كاملة. فمن جنوني، اندفعت نحو الرئيس دون وعي زاعقًا.
- أنت نسيت تديني الفلوس..

فلم ينتبه لي، وردّ العمال الواقفون في الصف قائلين:

- ما تعطلناش.. خلينا نقبض، خد دورك في الصف، خلينا نشوف إحنا كمان حنقبض واللا ما نقبضش.

والرئيس في مكانه لا يبدي اهتمامًا لصرخاتي.

وأخذت مكانًا في الصف، والعمال يتقدمون واحدًا وراء الآخر. ووقفت أمام الرئيس مرة أخرى. فنظر في وجهي قائلاً:

- اسمك؟.. معاك ختم؟
- أيوه.
- هات!

أعطيته له وقلبي يدق. وتأمله، ونظر لي قائلاً:

- أنت قبضت. ختمك موجود قدامي أهه، جاي مرة تانية ليه؟

فصرخت عاليًا:

- أنا ماقبضتش.. العيال اللي ويايا قبضوا وخدوا فلوسهم كاملة. أديني فلوسي.. أمي مستنياني، حاقول لها إيه؟ أديني الفلوس ينوبك ثواب. ما عنديش ولا لقمة.. حاروّح أزاي، أميّ حتضربني.

وزعق في وجهي قائلاً:

- أمشي يا كلب!! مالكش عندي فلوس!!

وتشبثت به قائلاً:

- يا فندم أنت نسيتني.

فدفعني بيده قائلاً:

- آهو ما بقاش إلاّ أنت كمان حتتلامض! امشي!.. هات غيره.

وقلت: "أقف تاني في الصف، يمكن يكون من الزحمة غلطان، يمكن قلبه يحن. راح أقول له أبويا ميت، مات وأنا صغير، وأميّ بتربيني، وهي عايزة فلوس عشان تصرف على أخواتي، يمكن قلبه يرق.. حاقول له كل حاجة يمكن يعطيني الفلوس اللي باقية."

ووقفت أمامه مرة أخرى، ونظر لي قائلاً

- اسمك؟

فقلت له، فصمت لحظة وقال:

- أنت مش وقفت قدامي دلوقت؟ الاسم ده مرّ عليّ قبل كده.

- أيوه.

فشحب لونه، ومال وجهه إلى الأصفرار، ورفع يده إلى أعلى، وهب واقفًا، وكاد أن يهوى بها على وجهي.. فملت جانبًا. وصاح قائلاً:

- عايز إيه يا كلب؟!

قلت:

- فلوس.. الفلوس يا فندم!.. فلوسي ما أخدتهاش.. وانفجرت باكيًا واسترسلت:

- أبويا ميت، وأمي عايزة فلوس.. أمي رافضة تتجوز، وفي احتياج للقرش تصرفه على أخواتي.. أعمل معروف أديني فلوسي.. أبوس رجليك.. أحنى الرئيس رأسه، وتراخت يداه.. وصمت لحظة، ثم قال:

- أنا أعمل لك إيه؟

- تعمل لي كل حاجة، اديني فلوسي.

وجلس الرجل يقلب في الورق بعد أن أخذ الختم من يدي.. ووقفت أجفف الدموع بطرف كمي. وانهمك في البحث. وإذا بالمدير يدخل العنبر، ومن خلفه شحاتة أبو دشيش، كبير مهندسي تركيب المكن، ويسود الذعر في العنبر، وعمال تجري من هنا، وعمال تجري هناك لإدارة المكن.. والرئيس منهمك في البحث وأنا واقف أمامه.. وعامل يقول "عطلتنا عن القبض" وآخر يقول: "ما تسيبه يدور على أجرته".. وتزداد الهمسات بين العمال، ويرتفع صوت من الخلف قائلاً: "النار ما تحرقش إلاّ ماسكها" وإذا بالرئيس يقول:

- تعال قرب، تعال هنا... شوف بعينك..

كان يتكلم وهو يتلجلج لأن المدير بيمر.

- تعال شوف، اسمك ده؟ بص كويس.

قلت:

- أيوه.

قال:

- مكتوب إيه قدامه؟

وإذا بي أجد اسمي ومكتوب أمامه "المذكور خصم عليه توب به عيوب، والباقي له قرش تعريفة".

وقال الرئيس:

- شفت؟

قلت:

- توب؟.. توب إيه اللي أنا شايله؟ هو أنا شايل حاجة؟ هو فين ده؟ أنا واقف قدامك فاضي أهه.

فرد قائلاً:

- أنت حتستهبل؟ أنت عليك توب.

قلت:

- أنا ما علياش حاجة، ما خدتش حاجة والله العظيم. فزعق في وجهي:

- أنت بوظت توب، واتخصم من حسابك.

قلت، والدموع تنساب من عيني:

- أنا ما بوظتش حاجة، أنا لسه واقف لمدة دي على مكن، والمدة اللـي فاتـت كانـت باليومية، ما كنتش مسئول عن مكن ولا عن حاجة، فليه يتخصم عليّ التوب؟

فابتسم ابتسامة مريرة، وجذبني من يدي نحوه قائلاً:

- أنت مسروع ليه؟ هدى نفسك وحالاً تفهم.
- أفهم إيه، أنا عايز أروح..

فاسترسل قائلاً:

- التوب أصبح الآن ملكك، هو خلاص انخصم حقه عليك.

قلت:

- طيب اديهولي.
- بعد أسبوع أو اتنين.
- أنا عايز دلوقت.

فدفعني بيده قائلاً:

- أنت حتعطلني، أنا عرفتك إن التوب يصبح ملكك.

وابتعدت عنه، ووقفت أنظر له وهو يعد الفلوس ويقبّض العمال بقلب حزين وعين باكية ونظرت للعمال اللي بيقبضوا، والعمال اللي اتقال لهم، انخصم عليكم تـوب.. رأيـتهم وهـم يلطمون. وأحسست أنني لست وحدي الذي أخذت الشركة نقوده، بل هناك عمال آخرون أكبر مني، وهم الآن يلطمون، وأنا أبكي. واتجهت نحوهم وقلت:

- أنتم حتعملوا إيه؟

فلم يجيبوا. وقال أحدهم "حنعمل إيه؟! انخرب بيتنا.".

وآخر: "من يوم الرؤساء ما خدوا الدفاتر في إيديهم واحنا ما شفناش يوم هنا."

قلت: "حنعمل إيه دلوقت في الأتواب"؟

فردّ آخر وهو يجفف الدمع: "نعمل إيه؟ هو حد يقدر يتكلم؟".

قلت: "وحنروّح إزاي"..

لم نكمل الحديث، وإذا بالمباشر يحضر ويدفع كلاً في اتجاه قائلاً:

- المدير بيمر.. يا كلاب.

فتساندت على جانب إحدى الماكينات، ونبضات قلبي ترتفع، وقلت في نفسي: "المـدير بيمر؟ طيب ليه ما روحلوش؟ حيعمل في إيه؟ حاقول له هو كمان أن أبويا ميت، يمكن قلبـه

يرق.. حيرفدني؟.. يرفدني ليه؟ هو اللي يشتكي يفصلوه؟ أنا حاقف قدامه بأدب، وأحط إيـــديّ جنبي بعد أن أضرب له التعظيم وأحاول أبوس إيده يمكن يأمر ويديني الفلوس عـــشان أروح أجيب الزوادة.. أمال حاكل منين؟ ما هو أنا لازم أعمل كده.. إيش رماك على المر؟ الأمـــر منه.. حيضربني قلم، أو يضربني شلوت حاستحمل وأفضل واقف وأقول له أنا يتـــيم، أبويـــا مات وأنا صغير، مات وما سابش لنا حاجة ناكل منها... يمكن قلبه يحن.." وبقيت واقفًا فـــي مكاني، وعيناي تتبعان المدير وهو يدخل من طرقة ويخرج من أخرى، ويداه متشابكتان خلف ظهره، ورأسه كثيرة الاهتزاز من كثرة التطلع للماكينات، وكلما اقترب مني ابتعدت عنه".

وقد تصلبت عيناي.. ووقف بجانبي أحد العمال فزاد خوف قلبي – وقلت: "دا مكـــشرّ.. دا ما بيبتسمش.. دا بيقرش على نيابه.. يا نهار أسود!! حاروح له أزاي؟.. أموت من الجوع؟ مش معقول.. حاروح له وزي ما يحصل..".

وإذا بالمدير يتجه نحو المكتب المخصص له في عنبر النسيج.. ووقفت أنظر للوجـــوه، وعيناي الدامعتان لا تريان شيئًا.. واقترب مني عدد من العمال قائلين:

- مالك كده بتعيط؟
- بعيط على حالي، الشركة خدت فلوسي.
- هو أنت لوحدك اللي مظلوم؟ فيه ناس كتير زيك كلت الشركة فلوسهم.
- همّ ليه ما يجوش نروح سوا المكتب نشتكي؟
- الشكوى لغير الله مذلة، هو فيه حد ينصف الغلبان؟

قلت:

- نعمل إيه؟ لازم نروح ونقول له.. يمكن قلبه يحن.

فرد أحدهم:

- مين يقرأ ومين يسمع؟!

قلت:

- نعمل اللي علينا، ما يموتش حق وراه مطالب، الرئيس قال حنعطيكم الأتواب.

فرد أحدهم:

- يوم الحكومة بسنة.. هي النار بتحرق إلاّ اللي ماسكها؟ ما دام هـــمّ بيـــاكلوا، يبقـــى خلاص.. دا المدير بيمر وملغمط بدلته ريحة. جاي واكل وشبعان.

قلت:

- أنا حاروح أقول له كل حاجة قبل ما يروح.. فاضل ساعة.. تعالوا معايا.

وإذا بهم يرفضون قائلين:

- كفاية بلوة واحدة، بلاش يبقوا اثنين.

ووجدت نفسي مشتت التفكير أكلم نفسي قائلاً: "أمي وأختي زمانهم مستنين.. مستنيين الهريسة والمنديل أبو قوية." وزاد حنيني إلى قريتي. واندفعت بلا وعي تاركًا العمال.

اندفعت إلى الداخل غير عابئ بما قد يحدث. وإذا برجل ضخم طويل القامة أسود البشرة حاد النظرات له شارب ضخم وجلباب من الدبلان الأبيض، وعلى رأسه طاقية ويلبس حذا غليظًا.. وعندما تقدمت منه صرخ فيّ قائلاً: وقف عندك أوعي تتحرك! إيه حدفك هنا؟

قلت:

- الفلوس.. جاي اشتكي.

قال:

- ممنوع.
- ممنوع ليه؟
- روح لرؤسائك في العنبر.
- رحت ما عملوليش حاجة.. سيبني اشتكي له.. وزعقت عاليًا مستغيثًا.
- ما فيش قدامي غيره، ما فيش حد اشتكى له.. أهو قاعد جوه أهه.. قاعد قدامي، أنا شايفه من البنور.. يا حضرة المدير!!

والرجل الضخم الجثة يكاد يكتم أنفاسي قائلاً:

- أخرس يا بن الجزمة، حتقطع عيشي.
- عيشك إيه؟ يا حضرة المدير!!

كنت أزعق كالمجنون بأصوات عالية متوالية، وكانت أول مرة عامل يدخل فيها مكتب المدير، وهذا ما أذهل الفراش.. وإذا بالباب يفتح بعنف والمدير يخرج ويقف بالباب زاعقًا:

- إيه الدوشة دي؟

قال الفراش، وهو يتجه نحوه مهرولاً، متلعثمًا في كلامه:

عيّل يا سعاده البيه!! جيت أحوشه ما انحاشش. حاولت أكتم نفسه اتفلفص مني وزعق. والله لولا سعادتك جيت ما كان هيفلت من إيديّ..

التوب

زعق المدير فيّ بصوت جهوري:

- خد هنا، إيه جرأك على الدخول؟

اتجهت نحوه في تباطؤ:

- أنا جاي اشتكي لك، ربنا يخليك..

كانت الكلمات تخرج سريعة، كنت خائفًا من أن يدخل دون أن يسمع شكواي. وعندما سمع أن أبويا ميت وأني باجري على أخواتي. نظر لي طويلاً وصمت. وأخذني من يدي ودخل المكتب. ووقفت أنهنه بالبكاء، شارحًا ما حدث. فقال للفراش:

- أنده للرئيس.

وبقيت واقفًا أمامه، واضعًا يديّ بجانبي كما كنت أقف أمام العريف. بقيت واقفًا أمامه أختلس النظرات إلى الحجرات مكتب ضخم، وبجواره عدد من الكراسي الخرزان، وفي صدر الحجرة صورتان كبيرتان مكتوب على أحدهما "أحمد فؤاد – ملك مصر" – وعلى الأخرى – "طلعت حرب". وكانت الحجرة مفروشة ببساط متعدد الألوان ومن خلال النظرات الخاطفة، رأيت العمال من الشباك يرفعون هاماتهم عاليًا يختلسون النظرات نحوي، والبعض يصفق بيديه في استغراب، والبعض يختفي خلف المكن ليطيل النظر لي بعيدًا عن أعين الرؤساء. وامتلأت الطرقة القريبة من المكتب بعالم لا يعد. كان أكثر المتحركين هما الولد الغريب والولد الصفطي. كانا يتحركان في قلق خائفين من أن ينالني أذى.

بعد قليل، جاء الرئيس. رايته من الشباك المطل على العنبر، كما رأيت العمال وهم يخفون أنفسهم عندما رأوه آتيا. ودخل الرئيس وتحت باطه أوراق كثيرة. عندما وقف أمام المدير حياه بالتعظيم. وقف ويداه جانبه، كان وجهه محتقنًا وخاصة عندما رآني واقفًا. وبادره المدير قائلاً:

- إيه شكوى الولد ده؟ يقول إنه خُصم عليه التوب. وتلعثم الرئيس، وهو ينظر لي قائلاً:

- أنا مش قلت لك؟.. أنا مش وريت لك الدفاتر؟...

قلت:

- أنا عاوز فلوس.. ماليش دعوة.. أنا أول مرة أقف فيها على المكن. ولاحظ المدير لعثمة الرئيس. وصاح بصوت جهوري.
- هات الورق.

واتجه الرئيس نحوه مسرعًا ورأسه في الأرض، ووقف بجواره منحنيًا، واشتدت ضربات قلبي، وخشيت أن يقتنع المدير بكلامه، فزعقت كالخائف:

- أنا ماليش دعوة.. أنا عايز الفلوس أروح بيها..

نظر إليّ المدير بعينيه الحادتين، وقال:

- أمسح الدموع وقرب قدامي هنا.

وتقدمت خطوة وأنا أشعر أن مفاصلي سابت. وقال.

- إحنا رايحين نديلك التوب. حنديهولك النهاردة. حتروح تستلمه دلوقت. دي أول مرة وآخر مرة تدخل فيها مكتبي.

ولم تدخل كلماته الأخيرة في ذهني بقدر ما رنت كلماته الأولى. وأحسست بالخوف يفارقني، وحلت الطمأنينة.. وكدت أطير من الفرح.. وانهمرت الدموع من عيني..

وقذف المدير بورقة مكتوبة على الكتب، فالتقطتها بيدي بحركة آلية، واندفعت مسرعًا نحو الباب، وكلمات تخرج من فمي دون أن أعرف لها معنى.

- ربنا يطوّل في عمرك.. ربنا يجعلك عونًا للمظلومين..

ولم تر عيناي الباب واتجهت نحو أحد الشبابيك ظنًا مني أنه الباب، وكدت أقذف نفسي منه، لولا صرخة عالية من الخلف نبهتني.. كانت هي صرخة المدير. وأخذني الرئيس من يدي، وسرت معه كالأعمى قابضًا بيدي على الورقة دون أن أعرف ما كتب.

وفتح الباب.. ولم أتمالك نفسي.. ولم أمر على السلم بطيئًا بل قفزت الدرجات قفزًا.. وأمام الباب وجدت الولد الغريب والولد السيد الصفطي ومن خلفهما عبد العظيم وعمال كثيرون ممن كانوا مختبئين خلف المكن، وقد خرجوا لرؤيتي ومعرفة وسماع ما قد حدث، والتفوا حولي متسائلين.

ولم تمر لحظة إلا وتجمعت أعداد كبيرة من العمال الذين خصمت عليهم الأتواب. وعندما لوحت لهم بالورقة اكتملت فرحة الولد الغريب والولد السيد الصفطي، وهلل عبد العظيم وكاد أن يرفعني من على الأرض. وكبت وجوه أخرى، هي وجوه كل من خصمت عليهم الأتواب. ودارت همسات سريعة عاجلة من الأفواه.

"عيل دخل للمدير وما خافش، وإحنا عاملين زي الشُّحْطة وخفنا نخش".. ولـم أسـتمع لباقي الكلمات: فعدوت نحو المخازن مسرعًا قبل أن تغلق، وخلفي يعدو الولد الغريب. وفـي المخزن ناولت الرئيس الورقة قائلاً له:

- دي من عند المدير.

أضاء الرئيس لمبة كانت على المكتب، وتحت الضوء الساطع فحص الورقـة، وهـبّ واقفًا. وفتح حجرة فسيحة فيها أكوام من الأتـواب، وعلـى الأرض كانـت أتـواب كثيـرة مترصصة مكتوب على كل منها اسم صاحبها والمبلغ المخصوم واستمر يفرز الورق الملصق على الأتواب المرصوصة. وأنا أسير خلفه متطلعا متلهفًا إلى رؤية اسمي. وإذا به يقف عنـد أحد الأتواب قائلاً:

- هذا هو توبك.

فحملته على كتفي وسرت في اتجاه العنبر.

كان التوب ثقيلاً، فتبادلت حمله مع الولد الغريب. وفي العنبر تجمـع العمـال حـولي، وقوبلت بالفرح. ووقف كثير منهم يتفحصون الثوب، وآخرون وقفوا والـدموع تـسيل مـن عيونهم موجهين السباب لبعضهم قائلين: "عيل ومقاوح التيار أهو.. استلم التوب وحيـروح.. وأدي إحنا الواحد منا حيتفلق نصين.. واقفين قدامه نعيط والواحد منا زي الفلق ومـا قـدرش يعمل حاجة...".

وآخر يقول: "ده ما جابتوش ولادة.. دا عمل بالمثل اللي بيقول: اسّحلب لمـا تـتمكن.. آهو اسّحلب لما استلم التوب قبل كل الناس. حد كان يقدر يخش للمدير؟! هو دخل!! دا أحنـا لما بنشوفه بننتفض من الخوف".

وآخر: "روح الله يحميك لأمك.. عيل لكن زي الراجل".

قلت:

- لو كنتم جيتم معايا كنتم خدتم أتوابكم. أنا قلت لكم، لكنكم خفتم.

وإذا بالمواتير تتوقف، والسيور تسير في تباطؤ شديد، وعجلات الماكينـات الـسريعة تتوقف معلنة انتهاء اليوم. والعمال يزداد تجمعهم حولي. الكل يتساءل وأنا أجيـب، والعـرق يتصبب من جبيني.

وفتح الباب. وخرجت دون أن أقابل زميلي عامل وردية الليل. خرجـت مـن العنبـر والفرحة تملأ قلبي بقرب الذهاب إلى البلد، خاصة بعد أن أخذت التوب. وسرت، وخلفي أعداد كبيرة من العمال. والجميع راغبون في معرفة ما سأفعله بالتوب، ليهيئوا أنفسهم هم الآخرون

عندما يتسلمون أتوابهم. ولهذا ساروا ورائي ولم يتركوني. كنت أسير بينهم زي الحاوي اللـي بتتفرج عليه الناس. عمال لا أعرفهم من مختلف العنابر يتساءلون ويتهامسون قائلين: "إن الولد اللي شايل التوب على كتفه في قلب المصنع ده؟ مش خايف؟ أحدهم يقول: "دلوقت الغفر على الباب حيحوشوه" وآخر يقول: "دا مكتوب عليه اسمه" وآخر يرد: "دا مش لوحده، هناك غيره لم يستلموا أتوابهم بعد، بس هو دخل للمدير واشتكى له فأمر بصرفه في الحال".

وازدادت الهمسات:

"الواد ده دخل للمدير ووقف قدامه؟ إزاي؟!..

دا لما المدير بيخش بيهتز العنبر، ويخيل للواحد إن الماكينات تتزحزح من مكانها، دا باين عليه جاسر".

وأمام الباب، اتلم عليّ الخفر قائلين:

- إيه ده؟ تعال يا واد هنا. هي وكالة من غير بواب يا لص؟

أنت طالع كده تتمخطر وشايل التوب؟ هو ما فيش حراس واللا إيه؟

قلت:

- ما تقولش كده، هو اللي بيسرق حاجة بيشيلها على كتفه؟ أوعى تقول كده فردوا قائلين:

- ياللا يا لص على المكتب، على مكتب الضابط.

ومسكني أحدهم من جلبابي، وزرّ على رقبتي وهو يكاد يخنقني. وآخر سحبني من يدي، والباقي يدفعونني من الخلف مرددين،

- ما مسكناش حد من زمان.. دي فرصة.. وحاولت أن أتفلفص من أيديهم، ولكنهم كانوا أقوياء.

كنت أصيح:

- سيبوني وأنا أمشي معاكم..

ولكنهم لم يعيروا كلماتي اهتماما. واستمروا يجرجرونني. وفي المكتب، كان الضابط جالسًا على الكرسي مجعوصًا، ورأسه تستند على الحائط. دخل الخفر بجلبة شديدة، وأحذيتهم الغليظة تدك الأرض دكًا. واصطفوا أمامه رافعين أيديهم بالتعظيم. وقال أحدهم.

- حرامي يا بيه.. مسكناه عند الباب..

فصرخت عاليا والدموع تتساقط من عيني:

- ما تقولش كده.. أنا مش حرامي.. الشركة خصمت عليّ حقه. والله العظيم التوب ده بتاعي. حرام عليك، أنا يتيم وباجري على أخواتي.. سيبوني عشان الحق الباجور أروح واجيب زواده. وذهل الضابط للمنظر. وتأملني طويلاً. وردّ قائلاً:

- ما بناكلش من الكلام ده يا شاطر. قولي لي جبته منين وأنا أسيبك. مين اللي أداه لك؟

قلت:

- المدير مضى عليه.. مدير النسيج. أسأله وهوّه يقول لك.. كنت أتكلم كالواثق، وهذا ما أذهله. ووضع يده على التليفون وسأل. وإذا بالأمر يقول: "اتركوه.. اتركوه.. التوب الآن ملكه.. التوب مكتوب على طرفه ورقة مكتوب عليها عدد الياردات والتمن".

وأخذ الضابط يبحث ويقلب، وأخيرًا قال:

أتركوه.. وصلوه للباب.. التوب الآن ملكه.. هكذا قال الرؤساء وخرجت من المكتب في اعتزاز.. وعند الباب الخارجي كانت جموع العمال تنتظر متلهفة. ولما رأوني عمت الفرحة قلوبهم وهللوا قائلين:

"وجه التوب!!.. جِه التوب!!.."

ورأيت ابتسامة العطف ترتسم على شفاة الواقفين عندما رأوني آتيا نحوهم. ولاحظت الولد الغريب وهو يميل من وراء ظهر عبد العظيم ويهمس بصوت مسموع قائلاً:

- أهه.. أهه.. إحنا حنروح. وكل واحد حيشوف أمه وسال عبد العظيم قائلاً،

- أنت حتعمل إيه؟

قلت:

- ياللا نبيعه.

وفي أحد المحلات، دخلت رافعًا التوب على كتفي. وعندما رآني صاحب المحل اقترب مني، ونظر للعمال الواقفين وقال:

- إيه ده.

قلت:

- توب قماش من الشركة.

- نجايبه ليه؟

- أبيعه.

- سارقه؟

- سارقه إيه!.. ما تقولش كده..
- تبيعه بكام؟
- الشركة خصمت علىّ كل ماهيتي، ما سابتش ليّ ولا مليم هوّ أنا حاكسب منه؟

قال صاحب المحل:

- تبيعه بخمستاشر قرش؟
- توب بحاله بخمستاشر قرش ده شوية.
- تمنتاشر.
- هي نهيبة؟ هو فطيس؟ دا أجر المدة.
- بتمانية وعشرين.

قلت:

- دول شوية.
- بتلاتين.

وعندئذ أدركت أن الثوب غالي، وتمسكت بالزيادة أكثر.

قال البياع:

- بخمسة وتلاتين.

فخطفته من يده، ودخلت عند راجل آخر. ونحن على باب المحل، همس في أذني عبد العظيم قائلاً:

- ما تستعجلش، كلما طالبت بزيادة كل ما كان أحسن وعندما رآني صاحب المحل، قال؟
- حتبيعه؟
- أيوه.
- اتفصل لك بكام؟
- بخمس برايز ونص، ومارضيتش أبيعه. أصل ما جابش ثمنه.

قال:

- أربع برايز.

فابتسمت، وملأ الدم وجهي، وقلت:

- زوّد شوية.

فقال بهدوء ملحوظ:

- كلمة واحدة مش حاغيرها.. خمس برايز إلا قرشين صاغ.

فهمس الغريب والولد السيد الصفطي وهما لا يصدقان:

- أقبل.. أقبل.. يحسن يرجع في كلامه.

فاتجهت نحوه قائلاً بصوت متلهف عالٍ:

- هات!..

فتح الدرج، وبدأ يعد.. بريزة، أتنين، تلاتة.. خمسة إلا قرشين صاغ. ومددت يدي وقلبي ترتفع دقائته. وخرجت من المحل وكأن الضوء أمامي يزدهي ويزهو، وتطلعت في المحلات راغبًا في شراء كل ما فيها بالخمس برايز إلا قرشين صاغ.

الزوادة من البلد

كانت المحطة مزدحمة، والميدان الواصل إليها أكثر ازدحامًا بالعمال، – بملابسهم المهلهلة – والباعة المتجولين من رجال ونساء بالجلاليب الزرقاء والسوداء، يمرون بينهم ويبيعون ما تبقى معهم من أشياء تالفة أو قابلة للتلف.. كانوا ينادون بأصوات عالية جعلتنا نسد آذاننا. وكان بعض العمال الواقفين يقولون لهم: "ابعدوا عنا.. دماغتنا واجعانا من دوشة المكن.. نحن لا نرغب في شراء الفواكه التالفة فهي لن تصل إلى أهالينا سالمة"..

وفي وسط هذا الضجيج وعويل الباعة نسمع صوت جرس رفيع يواصل دقاته، وهذه الدقات هي إعلان فتح شباك قطع التذاكر.. واصطف العمال واحدًا وراء الآخر، وكل منهم يحمل القفة أو الشوال الذي يستحضر فيه الزوادة من البلد وإذا بصوت يرتفع من بعيد: "كل واحد ياخد باله من جيبه.. فيه عمال اتسرقت ماهيتها.." تحسست جيبي، جيب جلبابي لأطمئن نفسي. ولكي ازداد اطمئناناً وضعت النقود في يدي دون أن يشعر بذلك أحد، وقلت في نفسي: "وما اشتريته لأختي موضوع في آخر القفة.. والقفة قدامي، ماسكها في إيدي، وما فيش حد حيقدر ييجي ناحيتها..".

وبينما أنا غارق في التفكير إذ بالولد الغريب يزعق قائلاً:

- أنا قربت على شباك قطع التذاكر.
- أقطع لي معاك تذكرة عشان أقعد بيها على الكرسي وأبص من الشباك. فرد الولد الغريب:
- ليه يعني؟ هو علشان ما انفتحت لك طاقة القدر وقبضت فلوس كتير تقوم تقعد على الكرسي؟!.. إحنا غلابة.. أنا حاقطع انصاص تذاكر ولما الراجل ييجي نبقى نثنى رجلينا ونبان قدامه صغيرين.. ولو كنا ما نقطعش ونستخبى تحت الكراسي يبقى أحسن.. النهاردة زحمة..

قطعت الكلام خوفًا من أن ينتبه لي أحد وخاصة بعد أن قال الولد الغريب "أنت قبضت فلوس كتير". خفت أن يسرقني أحد.. ولم أستمر في الصفوف المتراصة طويلاً، فقد وصل الولد الغريب إلى الشباك وتمكن من قطع التذاكر، فتركت الصفوف مهلاً.. ويدي تقبض على الفلوس بقوة..

وعلى الرصيف، كانت الجموع البشرية متراصة بغير عدد، وأخذت مكـــاني بيـــنهم.. كانوا يتطلعون في قلق منتظرين مجيء القطار.. وإذا برجل له وجه أسمر، ضـــخم الجثـــة، قصير القامة، يلبس بدلة صفراء.. يحمل فانوسًا في يده ويسير على الرصيف معلنًـــا قـــرب مجيء القطار، وذهب ليضئ له الطريق عند دخوله المحطة.. واتجهت الأنظار فـــي الاتجـــاه الذي يسير فيه الرجل ليروا القطار وهو آت من بعيد..

لم تكن كثير من الوجوه مبتسمة، بل كانت مكتئبة.. وجوه حزينة لا تنبس بكلمة.. كانوا واقفين شاردي الذهن، وكأنهم يقولون لأنفسهم:

"كيف نلتقي بأهالينا؟!.. كيف ندخل عليهم وليس معنا نقود.. وماذا نقول لهم.."؟؟

... ودق الجرس دقيقتين متواصلتين ينبئ الواقفين بـــدخول القطـــار.. ودبّ الهـــرب، وعمت الفوضى.. وبدأ كل منهم يقذف الآخرين إلى الخلف.. وتعالت المنـــاداة.. كـــل واحـــد ينادي على كل من يعرفه... وإذا بالقطار يدخل، والدخان يتصاعد من القاطرة السوداء... وبدأ كل منهم يحدف نفسه من الشباك إلى داخل العربات، محدثين ضجيجًا شديدًا يصم الآذان وهم يركبون.. وكدنا نضيع تحت أقدامهم لولا أن أحد الرجال رفعنا وقذف بنا من أحد الـــشبابيك. وازدحم القطار، وامتلأ بالركاب، واشتدت الحرارة، وتصبب العرق.

وزعق القطار معلنًا السفر، وسار بطيئًا بطيئًا. ووقفت أتطلع مـــن الـــشباك، وحققـــت الأمنية... وقفت أتطلع إلى المنازل والأطفال وهم واقفون على قارعة الطريق يلوّحون بأيديهم بالدخان في الهواء. وزاد القطار من سرعته المذهلة وهو يطوي الأرض طيًا. ولـــم يتوقـــف القطار في المحطات إلاّ قليلاً. ومن على بعد، رأيت مئذنة السيد البـــدوي تعلوهـــا الكهربـــاء المضيئة... وهللنا لقرب الوصول. ووقف القطار في المحطة... محطة طنطا.

أسرعنا بالنزول، وكان علينا أن نقطع مسافة ثلاثة كيلو مترات مشيًا على الأقدام. وفي الطريق إلى البلد، كانت الدنيا ليلاً والسماء صافية، والأرض المزروعة عليها عيـــدان الـــذرة وسنابلها وأوراقها الخضراء تتمايل مع الريح. كان كل ما يخيفنا على طـــول الطريـــق هـــو الوصول إلى أشجار الجميز كثيرة الأفراح لأنها تحجب ضوء القمر. ولكننا اجتزناها بـــسلام رغم الرعشة وانقباضة القلب التي انتابتنا في الظلام.

كانت قريتنا، ككل القرى، لا ينبعث منها ضوء بعد صلاة العشاء، في هذا الوقت، تكون القرى ساكنة هادئة والناس فيها نيام من كثرة عناء العمل في الحقل. وقلت في نفسي: "زمـــان أمي نايمة، وكذا أخواتي.. كانوا في انتظاري، ولكنني تأخرت.. زمانهم نائمون على المصطبة اللي في وسط البيت بالقرب من الباب، فارشين الحصيرة. أمي نومها خفيف، مافيش حد مـــن

أخواتي دلوقت بره، عشان كده ساعة ما أخبط خبطة واحدة أمي راح تعــرف وحتــصحى.. أختي لازم تكون صاحية لأنها بالتأكيد في انتظاري"...

ومن على بُعد خطوات من القرية سمعت أصوات عيال صغيرين يلعبون قلت: "يمكــن أختي تكون فيهم..... دول بيلعبوا في أول البلد... كانوا بيلعبوا عند الجــامع... طيــب ليــه بيلعبوا في أول البلد؟!... يمكن تكون أختي في انتظاري زي لما كنت أنا وهي نستنى أمي في أول البلد وهي جاية من طنطا ونخطف من على رأسها اللي هي جايباه. هــي عارفــة إنــي جاي.. يمكن تكون جابت العيال تلعب معاها عشان تستناني من بعيد، وتجري تقول لأمي..." وكلما اقتربت من القرية بانت الأصوات واستطعت أن أميز بعضها. كان صوت البنت رقيــة الذي تعودت سماعة عندما كانت تأتي عندنا كثيرًا وتلعب معي "جمال الملحة" قبل أن أذهــب للعمل في المصنع. رقية صاحبة أختي، وهي التي مسكتني عندما كنت راجع من المحلة بعدما هربت. إنها لم تتعود اللعب هنا. لا بد أنها في انتظاري، وأختي لازم معاها...

واقتربنا من الطريق... وعندما وصلنا إلى مشارف القرية في اتجاه الدخول وكل منــا يحمل قفته، إذا بالعيال تجري نحونا مسرعين، متأملين وجوهنا في الظــلام، قــائلين: "مــين دول؟.. اظهر وبان عليك الأمان!!" وإذا بصوت يصرخ: "أخويا.. أخويا فكري.. هيه.. هيه.. أنا مسنياك.. هيه.. هيه.. حاجري أقول لأمي.." وتوالت الصرخات والمناداة.. ولــم تتمالــك أختي نفسها، فتركتني وجرت على بيتنا، وكنت أسمعها وهي تجري على طول الطريق. كنت أسمع صوتها وهي تعدو مسرعة يشق أُذني من بعيد: "أخويا جه يامّا.." ولم يبق معي إلاّ البت رُقية والبت زينب العرجة والبت هنيّ، وشالوا منا القفة...

وعلى صوت أختي العالي فتحت أبواب، وخرجت نساء كتيرة قائلات: "إيه يــا ولاد؟.. إيه اللي حصل؟.. إيه الصريخ ده..؟"..

فردت البت رقية قائلة:

– ما فيش.. ما فيش حاجة.. دا الواد ابن أمك السيدة البناية جه.. جه من الغربة..

وإذا بالنسوة يهجمن علينا ويأخذننا بالحضن وهن يقلــن: "ليــه يــا ولاد كــده؟.. ليــه تشحططوا قلوب أهاليكم.. دا أهاليكم كانوا هنا دلوقت مستنينكم جنب الحيطة.. يا دوب لــسه دلوقت مروحين.."... ونحن في أحضان النسوة، وإذا بالأصوات تأتي من بعيد. ولم تكن هــذه الأصوات سوى صوت أختي خُسكية.. كانت أمي تسبقها في الجري وهــي تقــول بــصوت مرتفع: "يا بني.. يا حبيبي.. هوّ فين؟.. هوّ فين يا ولاد؟.. أنا مانيش شايفة.." وأختي خسكية تقول: "قدام.. قدام يا ولية"..

لم تتمالك أمي نفسها عندما وجدتني جالسًا والنسوة حولنا، فانكفت عليّ وهي تقـول: "آه يا بني.. آه يا حبيبي.." وضمتني في حضنها، ودموعها الساخنة تنساب وتبلل خـدي وهـي تقبلني من كل مكان في وجهي... وجاءت أيضًا أم الولد الغريب وأم الولد السيد الصفطي وإخوته..

حاولت أمي أن تحملني، ولكني عصلجت.. فأخذتني من يدي وفي الطريق إلى المنـزل مالت أختي على أذني قائلة:

- أمك قطعت لك جلابية حلوة وجابتهالك من عند الخياط.

وعندما دخلنا الحارة، رأيت كثيرًا من النساء واقفات على الأبواب، يحملـن المـشاعل ليضئن الطريق. والتففن حولي.. ودخلت المنزل، وقعدنا على الحصيرة، وإذا بالبنـت رقيـة تلتصق بي، وتجلس بجواري لا تفارق عيناها وجهي. وإذا بأمي تقول:

- قومي يا بت أنت وهي، قومي يا بت يا خسكية.. روحي يا بت أندهي خالتك "عفا الله".. يا ليلة بيضة.. يا ليلة بيضة الليلة دي. البيت بتاعنا نور..

وأخي يقول:

- هاتوا يا ولاد العشا لما نتعشى مع أخونا وإذا بخالتي عفا الله تأتي وعلى رأسـها مترد لبن، وعلى وشه كوم قشدة، وهي تزعق: "بالسلامة.. بالسلامة.. حـضن.. حضن لخالتك يا وله.. حضن بالقوي..".

وأمي تقول:

- إلهي ما يتحرقش لكي قلب على غالي ياختي يا عفا الله.. يا رب.

وناس كتير تأتي.. والمصطبة تترص عليها النسوان، والرجالة فـي الحـوش، وأمـي تهيص وتجري من هنا لهناك وهي تقول:

- ولعي الكانون.. ولعي الكانون يا بت.. حطي عليه ميّة سخنيها عـشان يـستحمى وأختي تقول:

- بالليل يا ولية؟.. يحسن أخويا يستهوى.. يستحمى عند النوم.. وأضيء المنـزل، وكاد يشبه الفرح. والبت رقية تغمزني باستمرار وتشدني للجلوس بجانبها. وبـين الحين والحين تهمس في أذني قائلة:

- اتحجج لهم بأي حاجة عشان نطلع بره سوا..

وبعد إلحاح وتلكؤ.. استجبت. وقبل أن نذهب، همست في أذني:

- حدِي الجامع.. على الكوم العالي حستنى..

وانتهزت فرص انشغال أمي مع النسوة بالحديث، وتسللت خارجًا دون أن تشعر أمـــي. وفي المكان المحدد، التقينا هناك. كان القمر قد ملأ المكان بنوره، وكان السائر فـــي الطريـــق يستطيع أن يرى ما فوق الكوم. وتنبهت رقية لذلك، وعلى جانب الكوم، وفي مكان لا يستطيع السائر أن يراه، جلست، ومدت لي يدها، وتكلمت بصوت يشبه الهمس:

- أقعد.. أقعد قبل ما حد ييجي ويشوفنا..

ونظرت لي بعينيين شبه ناعستين. واستطعت على ضوء القمر أن أتبين وجهها الأبيض كاللبن، وعينيها السوداوين الواسعتين ذات الرموش الطويلة والحواجب الثقيلـــة التـــي بعثـــت الراحة والطمأنينة إلى قلبي عندما تطلعت وأطالت النظر لي وهي تقول:

- أنت جبت لاختك إيه؟
- منديل.
- منديل جنسه إيه؟
- منديل بترتر.
- وإيه كمان؟
- وعيش وحلاوة وفلافل.. وهريسة كمان..

فقالت:

- وأنا جبت لي إيه؟... ما جبتليش منديل زي أختك؟
- نسيت.
- نسيت؟.. هوّ اللي بيروح المحلة الكبرى بالعجل ينسى صحابه؟.. هو أنت نـــسيت لما كنت أجي عندكم في البيت وأشيلك على ظهري والف بيك ع الفرن، وأعمـــل لك جمل؟.. داما حدش ركب عليّ إلاّ أنت.. تقوم بالعجل كده تنساني؟!..

كادت أن تبكي مع أنها أكبر مني.. كانت في حوالي الثالثة عشرة أو الرابعة عـــشرة.. اقتربت منها محاولاً أن أهدئها. وبعد فترة صمت، عادت وتكلمت:

- أنا زعلانة منك.. أنا كنت فاكرة أنك رايح تجيب لي معاج حاجـــة.. واسترســـلت قائلة:
- اسمع... هي المحلة الكبيرة منين؟.. هي قرب النبي؟.. هي بينها وبينه قد إيـــه؟.. مش هي اللي بيشتروا الحجاج منها الدبل والخـــواتم والمناديـــل الحريـــر وهـــم جايين؟..!

فابتسمت وقلت:

- إيه ده؟ إيش جاب النبي هنا؟!.. واللي بيروح يحج بيقعد ست شهور، وأنا رحت المحلة الكبيرة ماشي..

فدقت على صدرها وهي تقول:

- يا خرابي!! رحتها ماشي على رجليك.. ورجليك ما ورميتش.. وهي زي بلدنا كده؟..
- هوّ إيه؟!.. دي زي طنطا.. فيها سرايات، وعدد الجوامع فيها زي عدد أيام السنة، ٣٦٦ جامع.
- وأنت بتعمل إيه هناك؟.. بتلعب استغماية؟!.
- استغماية إيه؟!.. هوّ الواحد بيملك يهرش؟.. وأنا باشتغل.. باشتغل هناك عَ المكن.
- ما بتلعبش هناك؟
- لأ.. أنا واقف عَ المكن، باشتغل قماش زي اللي أنت لا بساه ده.
- يا خبر أبيض؟!.. بتشتغل قماش زي ده؟!.. هات إيدك.. ورفعت يدي على صدرها، وقالت:
- حسس!.. حسس هنا.. ناعم زي ده؟ واستمرت تمرر يدي على صدرها وهي تقول:
- ناعم؟.. ناعم زي ده؟..

إلى أن وصلت يدي عند نهودها – وقالت:

- يا بختك.. اسمع.. أنت فاكر لما الولد أحمد الشربيني وقف على حيله وطلب منك تخش باط وأنت مارضيتش.. وأنا اللي كنت واقفة أشجعك.. فاكر أنا عملت معاك إيه؟.. مش كنت بقولك خش.. خش عليه.. هاته الأرض..
- فاكر.. بس اللي حصل إن أنا اتعورت.
- بس أنت راخر سيحّت دمه.

واسترسلت قائلة:

- إيه رأيك؟.. ما فيش حد هنا أهه.. تيجي تخش لي، والجدع اللي يغلب الثاني!!..
- هو أنت راجل؟..

قالت بدلال:

- ليه؟.. هو أنت فاكر إن أنت حتغلبني؟.. تعال نجرب.. قلت:
- ومين اللي حيشهد؟
- كل واحد يحلف على عينه أنه حيقول الحق.. واهـــه.. ادينـــي حـــاحلف الأول.. ووضعت يدها على عينها، وقالت:
- وحياتك يا عيني، وحياتك يا عيني، إني لو اتغلبت أقول الحق... وعادت تقول:
- احلف أنت كمان، حط إيدك على عينك عشان تقــول الحــق، فوضــعت يــدي وأغمضت عيني، وإذا بها تقول:
- أسمع.. إحنا حنخش لبعض واحنا قاعدين.. ترفع إيديك وأنا أرفع أيدي الاتنـــين، وأول ما نعبط على بعض نبقى نقول أحنا الاتنين في نفس واحد "خلاص".. يبقـــى "خلاص"..
- زي بعضه..

هي:

- خلاص اقعد.. ومد رجليك، وارفع إيديك الاثنتين، وأنا كمان حارفع إيدي، وأمـــد رجليا، ولما أقول خلاص حاتزحزح، وأنت تتزحـــزح.. عليـــك خطـــوة وعلـــيّ خطوة.. ولما تقرب علي بعض تبقى تفوّت رجليك من عليّ وأنا أفوت رجليا من عليك.. لما كل واحد يتملك من التاني نبقى نقول إحنا الاتنين خلاص فـــي نفـــس واحد... يبقى خلاص..

رفعت يدي، كما رفعت يدها. وفتحت قدميّ كما فتحت هي الأخرى، وكلما تزحزحـــت خطوة تزحزحت هي. وخلال الزحف تكوم جلبابي كمـــا تكـــوم جلبابهـــا، وتعـــري فخـــذها الأبيض... وكنا قد اتفقنا على أن تبقى أيدينا مرفوعة إلى أن يعبط كل منا الآخر. وقلت فـــي نفسي: "مستحيل البت تغلبني.. أول ما حعبط بإيدي على وسطها حاجيبها الأرض طـــوالي".. كانت تتزحزح وعيناها شبه ناعستين، وقد شعرت برعشة تنتابها من خلال زحفهـــا الـــسريع نحوي وأنها تتعجل انتهاء هذا الوضع حتى ولو انغلبت لي..

ولما اقتربنا من بعض، فوت قدمي، كما فوتت قدميها هي الأخرى، وألـــصقت جـــسدها بي، وبدأ كل منّا يعبط على الآخر. وقد شعرت بدقات سريعة تخرج من صدرها... ولم تتوان عن اجتذابي نحوها... اجتذبتني نحوها بقوة كادت أن تعتصرني، وقدماها تلتفان حول ظهري وإذا بها تقول بصوت ضعيف "شدني شوية عليك".. عبّط عليّ عشان ما يبقاش لـــك حجـــة.. عبط قوي.." وعندما تملكت منها، إذا بها تقول: "استنى!.. استنى!.." وشعرت برعشة تنتابها..

ومالت برأسها على كتفي وهي تقول: "زقني.. أنا رايحة انغلب لك.." ولم تحتمل زقة صغيرة، فأخذتني معها، ونامت على ظهرها وهي تقول: "خلاص.. خلاص... وحياتك يا عيني أنا اتغلبت.." وإذا بيدها وهي تضمني نحوها تكاد تعتصرني.. وفجأة قبلت وجهي، وعضتني من خدي..

- الله.. هو فينا من عض؟.. هو إيه ده؟!..
- أيوه.. فينا من عض.. بس على خفيف!... ثم تراخت يداها ورجلاها..

وإذا بصوت يزعق من بعيد.. كان هذا هو صوت أختي التي تبحث عني وتناديني.. فقالت رقية:

- قوم.. قوم وقابلها قبل ما تيجي ناحيتنا...

واختي تواصل المناداة. وقبل أن أذهب، مالت على أذني هامسة:

- بكرة الصبح أنا جايالك.

التقيت بأختي في الطريق فأخذتني من يدي قائلة:

- رحت فين يا ولد؟.. سيبتنا قاعدين ومشيت كده لوحدك.. الأكل انحط وأخواتي كلهم قاعدين مستنينك عشان يأكلوا معاك، أمك جايبالك لحمة.. جابتها عشانك.. هي عارفة إنك ما بتاكلش، وأختك زينب طول النهار تقول: ربنا يبعت لنا أخونا ونأكل على حسه.. خالتك عفا الله جابت قشدة.. وحاكل أنا وياك.. مش كده؟
- وعندما دخلت المنزل، وجدت إخوتي حول الأكل، وأسرعت أمي وأخذتني بجوارها وهي تقول:
- إلهي ما ينقطعش لك حس يا بني.

وبعد الأكل حمّتني أمي وألبستني الجلابية الجديدة، وجلست بين أخواتي. وأخرجت أختي خسكية المنديل من القفة وهي تكاد تبكي من الفرح. وأختي زينب تقول: "دا بتاعي" وأختي حُسْن تقول: "دا بتاعي" – وكدن يتشابكن – وقلت: "أنا جايبه لأختي خسكية، والمرة اللي جاية حاجيب لكم أنتم الاتنين، دا في المحلة الكبيرة من ده كتير".

وإذا بأمي تعطيني صرة مربوطة، حسست عليها لقيت فيها ملح. حاولت أرميه، ولكنها قالت "سيبه، دا يمنع عنك الحسد، يمنع عنك عنين الناس".. ومالت على أذني قائلة: "ماتتلامضش كتير أحسن واحدة تخبطك عين.. الناس ما بتخليش حد على حاله.. أنت متغرب وواقف على المكن، ربنا يبعد عنك يا بني عينين الناس.."..

وسألتني النسوان عن المحلة وعن القماش وكيف يُصنع. وعندما أجبت على الأسئلة كي يصفقن على أيديهن متعجبات. وحكيت عمّا رأيت في المصنع، وعن المكن، وعن السيور، وعن الناس اللي بتموت، فقالت خالتي عفا الله: "قادر.. قادر وغيره ما يقدر.. قادر يجيب العالي في الواطي".

وأخرى تقول: "عيشنا وشفنا يا ولاد، صدق المثل اللي بيقول: يخلق من الفسيخ شربات.. مكن من حديد يطلع القماش اللي احنا بنلبسه ده..".

وأخرى: "ما هو راخر اللي بيشتغل ع المكن بيتنقط وما بيجيش عليه يوم لقدام.. هو انتم ما بتشوفوش الرجالة اللي بتشتغل في باجور الطحين؟ ما بتشوفوش عامل فيهم إزاي؟.. الواحد منهم بيطلع لونه زي اللمونة...".

وقالت أميّ: "بس يا ولية أنت وهيّ... اللي بتحبني ما تتكلمش الكلام ده... سيبوه بحاله أحسن يا خد في نفسه.. دا بيوقف على المكن..".

وقال أخي: "تعال هنا.. تعال.. شوف عمك الحاج محمود الصعيدي عايز يسألك بتشتغلوا إزاي..."

اتجهت نحوه وهو ماسك السبحة يسبح، وبجواره آخرون. وبدءوا هم بالكلام مع بعض في مواضيع شتى ومختلفة. كان الكلام عن القطن وانخفاض سعره، وعن اللي فلسوا.. وقال السيد أبو الدهب: "راحت الرحمة وحلت اللعنة يا رجالة.. هو إحنا حنشوف أيام زي أيام سعد.. إن مشيت الملايكة جت الشياطين.. دانا سمعت من طنطا وأنا جاي إن الحكومة حتخلي كل تلاتة يقسموا مليم!!.. أيام طين يا رجالة!!..".

وردّ عمي الحاج محمود الصعيدي: "هوّ ده بس؟ دا بكرة يا خدوا منا الأرض.. دا جابوا الحديد وبيدقوه وبيحوطوا على حتة أرض كبيرة حيدوها للملك...".

وردّ السيد الصواف: "وهو احنا حنسكت؟.. دا احنا نقلعه.. يبقوا ياخدوها على جتتنا..

وقال عمي محمد الصفطي: "إحنا نكتب شكاوي كتير... العيار اللي ما يصيبش يدوش.. نكتب للحكومة..".

فردّ آخر: "حكومة مين يا عم، دي ألغت الدستور وبيعملوا حزب الشعب، وهو الحزب "حيعمل حاجة؟... دا تبع عدلي... هم دول اللي خلوا الإنجليز قاعدين لحد دلوقت..".

وآخر: "انت حتهد من عزيمتنا؟ إحنا قلنا العيار اللي ما يصيبش يدوش.. إحنا نعمل اللي علينا، واللي على الله يكون.."

واستقرت هذه الكلمات الأخيرة في ذهني، وقلت في نفسي: "لازم لما أروح المحلة وأقابل عبد العظيم حاقول له لازم نكتب شكاوي نقول للحكومة الناس بتموت.. لازم نبلغهم.

وطال الحديث، ونادتني أمي: "تعال.. تعال هنا جنبي.. تعال جنب أمك، تعال لما أشبع.. أنت مطيرّ النوم من عيني.." وضمتني لصدرها وهي تقول: "الله يلعن الغربة ويلعن يوم ما شفناها.. أجيب لك إيه؟ نفسك في إيه؟ قول لي يا ولد.. إيه يا بني اللي محببك في المصنع وتعيش غريب عنا؟.. خليك معانا ولقمة هنية تكفي مية.. دي اللقمة اللي بناكلها من غيرك بتنزل في بطوننا زي السم.." ولكن كلماتها لم تدخل ذهني وقلت: "خبر إيه يا ولية؟ دا أنا أتعلمت.. اتعلمت الوقوف عَ المكن والرؤساء مبسوطين مني.. هوّ أنت مش كنتي بتقولي صنعة في اليد تغني عن الفقر، أهي صنعة أنا اتعلمتها، صنعة كويسة.. باطلع القماش اللي أخواتي بيلبسوه." فردت قائلة:

- أنت بقيت مسلوخ كده ليه؟ خفيف زي الريشة.. يا خرابي.. هوّ أنت ما بتاكلش يا ولد؟.
- باكل، بس باكل عيش حاف، وعيش وفلافل ساعات، في الأيام الأولى من المدة.
- ليه يا ولد؟
- لأن الفلوس بتخلص.. لكن الفلوس بكرة تكتر.. كنت أتكلم وعيناي يغالبها النعاس، وأخواتي يحاولون إبعاده، وأمي تمنعهم قائلة:
- سيبوه.. سيبوه بحاله، دا طول النهار شقيان.. وفي ثوانٍ، لم أشعر بكل ما حولي، وغرقت في النوم.

أحسست بأيد ناعمة تمر على وجهي وتفتح عيني وشفتيّ بأطراف الأصابع، وتفك الرموش وتبعدها عن بعض بخفة ريش النعام. ففتحت عينيّ وإذا بالبت رقية جالسة بجواري لابسة جلباب من الشيت الكثير الألوان، وقد ألقت بضفائرها من الخلف على صدرها فبانت أكثر جمالاً.

لم تمهلني حتى أصحو على مهل، بل شدتني من يدي وهي تحاول أن تكتم بقها من الضحك. وقالت بهدوء: "أنت لسه نايم؟.. قوم، دي أول ليلة ما أنا مش فيها.. حاولت، لكن النوم طار من عيني!!.. إزاي تغلبني توقعني إزاي؟!.. طول الليل وأنا أقول: امتى الفجر يطلع عشان أجيلك، وما صدقت النهار شقشق. قوم.. قوم معاي نروح الغيط، مش حنغيب، عبال الشمس ما تطلع نكون رجعنا".. واستمرت قائلة:

- أنت قلت لأختك؟

- لأ.
- النهاردة حاخدك معايا الغيط أشويلك ضرة.. ولم تكمل كلامها، إذا دخلت علينا أمي، وسألت:
- مين اللي قاعدة معاك دي يا ولد وأنت وشك في وشها.. أنت مين؟ فردت:
- أنا ياماّ السيدة.. أنا رقية.

فقلت أمي:

- الله يحوسك، أمال قاعدة ساكتة ليه؟
- أميّ باعتاني.. باعتاني عشان آخذه معايا، أمي عايزة تشوفه.
- إلهى ما حدش يجيلها في وحش.. أهه كده، اللي يحب ابني يبقى بيحبني.. فردت رقية وهي تنظر بوجهها المشرق الباسم:
- ما هو ياماّ السيدة إحنا بنحبه، وأنا حاخده معايا لحد الغيط أملاك حجره ضُره خضرة عشان يشويها وياخدها معاه.
- كترّ خيرك يا بنتي.. سيبيه.. سيبيه يا بنتي نشبع منه دا جاي يوم واحد بس وحيمشي..

وأمام إلحاح البنت رقية قلت:

- أنا رايح معاها ياماّ، وهاجي بسرعة.

أنا ورقية

كان كل شيء في الطريق هادئًا، لا حس ولا حركة. لا مكن سريع داير ولا سيور تهتز ولا ضجيج يضم الآذان لا عمال بتجري ولا غفر على الباب، ولا دم يسدّ الطريق.. عيال صغار سائرون على مهل بجلابيبهم المهلهلة وصدورهم المفتوحة العارية، يسيرون في تباطؤ خطوة خطوة مع خطو الأغنام والماعز البطيئة التي ترعى. وآخرون يسيرون وراء الحمير المحملة بالسبّخ، ترتفع أصواتهم بالغناء، والرجال يعملون بجدّ في عزق الأرض ورش السبّخ. وآخرون يسيرون وراء البهائم وهم يمسكون المحاريث لحرث الأرض، وهم يسلون أنفسهم بكلمة "عَا" و "حِي" يزعقون بها للبهائم ومن وسط الأرض ينبعث غناء:

يا ليل يا عيني والبين عملني جمل

واندار عمل جمّال

لوى خزامي على إيده

وشيلني تقيل الأحمال

أنا قلت تجزى من الله يا بين

هو الحمل التقيل انشال

قلل لي الخطا يا جميل وامشي على مهلك

وكل عقدة لها عند الكريم حلال

كان يغني بصوت حزين عالٍ يُسمع من السائر في الطريق. وقلت في نفسي: "إيه ده يعني؟ إيه البين ده؟ إيه اللي عمله جمل واندار عمل جمّال وشيله تقيل الأحمال.. يعني إيه، ويقصد إيه؟ يقصد العمدة اللي بيشغله ببلاش يوم واتنين؟.. مش معقول.. أمال مين اللي بيشيله تقيل الأحمال؟.." وتذكرت كلمات لعبد العظيم عندما قال لي عن أصحاب الأرض اللي بيدوها للفلاحين غالية وينتهزوا فرصة تأخرهم في دفع الإيجار ويروحوا حاجزين نعلى كل اللي موجود في المنزل، حتى البهايم والحمير اللي همّ عصب الفلاح.. يبقى لازم هو بيقصد صاحب الأرض، يبقى ده هوّ البين اللي بيستغيث منه. طيب، بيستغيث منه لمين؟ لنا؟ واحنا حنعمل له إيه؟.. بيستغيث وهوّ في قلب الأرض عشان يسمّع اللي ماشيين في الطريق.. وإحنا حنعمل إيه؟ هيّ أمي مش كانت بتقول: الشكوى لغير الله مذلة.. يبقى لازم هوّ بيستغيث بالله.. يمكن يكون فاكر إن أبواب السّما مفتوحة.. هوّ إيه ده؟ طيب دانا من يوم ما اتولدت لحد

دلوقت وأنا بشوف أميّ وهيّ بتصلي ورافعة إيديها الاتنين وبتدعي على العمدة اللـــي بياخـــد أخواتي ويشغلهم ببلاش في أرضه، ولحد دلوقتي العمدة قاعـــد زي الفحـــل. والعمـــال اللـــي بيشتغلوا في المصنع بيدعوا كل يوم على الرؤساء والمديرين والمكن اللي بيموت كـــل يـــوم عمال، والرؤساء عايشين همّ والمديرين، وما حصلش لحد دلوقتي لهم أي حاجة. أمال ليه ربنا ما استجابش للدّعًا دا كله؟ يمكن غضبان، وعشان كده سايبهم يتحكم فيهم البـــين.. يـــا تـــرى عملوا حاجة أغضبته؟ وإيه اللي ممكن يعملوه عشان ما يغضبش ويستجيب للـــدعاء وينـــزل نقمته على البين، على الناس اللي بتحجز على البهايم وتموت العمال فـــي المـــصنع، وهـــو حيفضل غضبان كده؟ بكرة يصطلح ويفتح أبوابه.. مش معقول حيستنى كده، يمكن بيحـــوّش. يمكن السنين اللي فاتت ما كفتش. يمكن أبواب السّما ما اتفتحتش، ولما تتفتح يمـــوت الظـــالم ويسعد المظلوم..

أفكار قاتمة سوداء راودتني وأنا سائر في الطريق، وإذا برقّية تضع يدها الناعمة علـــى كتفي وهي تقول:

- أنت ساكت ليه؟ شارد في إيه؟ اللي واخد عقلك يتهنّى به، هو أنـــت رحـــت المحلـــة يومين جاي عامل زي اللي غاب عن البلد سنين؟ شيل ديل الجلابية في إيديك يحـــسن تتوسخ من الوحلة..

ابتعدنا عن القرية.. وعلى البحر نسوة كتير يقفن على الشاطئ يملأن بلالـــيص المـــاء، ومنهن من كانت تستحم بجانب الشاطئ، وأخريات يغسلن الملابس أو يصفين الغلّة المغسولة. وعندما رأوني أقترب منهن وقفن يتطلعن، وإذا بالبنت رقية تهمس في أذني قائلة:

- أمشي على طول.. دول نسوان حيعطلوك، ويمكن واحـــدة تفقعـــك عـــين، دا فـــيهم حسّادين.. امشي على طول خليك ترجع سالم.

وحاولت أن أسير، ولكن لشد ما كانت دهشتي عندما وجدت أن كل النسوة قد تجمعـــن على الطريق يسدونه عليّ قائلات:

- مين اللي ماشي على الطريق ولابس الجلابية الحلوة دي؟

فردّت البنت رقية قائلة:

- دا ابن أمك السيدة البنّاية جاي من الغُربة..

فقالت واحدة منهن:

- يا حلاوة!! هي عندها ولد حلو زي ده؟... هوّ اللي كان هربان؟.. تعال يا ولد، أنـــت جيت إمتى؟ شبشت قلب أمك، تعالى يا حبيبي هات بوسة..

وقالت أخرى:

- عاش في الغربة إزاي ده.. دا خلف الأيام دي شياطين.. "دا بيستحموا ما بيسموش"..

وأخرى:

- صلي عَ النبي يا ولية، دا يتيم وأمه متهجلة عليه.. وأنت يا بت يا رقية واخده على فين كده عَ الصبح؟.. يا حبيبي يا بني حتتربى من صغرك كده على الغُربة..

وشدتني رقية من وسطهن قائلة:

- سيبوه خلّيني أجيب له كوزين ضُرة يشويهم..

وعلى جانب الطريق، كانت فروع شجر الجميز والصفصاف والسنط تلقى بظلها على الأرض والمياه تندفع سريعة وتلاحق الأمواج الصغيرة بعضها بعضًا. ومنذ تركنا النسوة لم يقابلنا أحد في الطريق، ولم نعد نسمع سوى أصوات العصافير وهي تغرد على الأشجار وعيدان الذرة وسنابلها وأوراقها تهتز عندما تلفحها الرياح، ورقية تسير بجواري تواصل الحديث:

- ما فيش حد ماشي في السكة، الناس مشغولين كلهم في ري الأرض.. أنت حتسافر أمتى وحتقعد في المحلة لوحدك؟
- لأ، أنا والولد الغريب.
- أنت بتاكل إيه هناك؟
- باكل عيش وحلاوة وفلافل كمان.
- بتنام إزاي؟ ما بتخافش؟
- حاخاف من إيه؟
- يا قلبك يا خْي! هو أنت قلبك جاسر من صغرك؟!... اسمع، هوّ في المحلة بنات؟
- أيوه، فيه بنات.
- بيلبسوا إيه؟
- بيلبسوا هم
- دم محزقة على وسطهم.
- ما هم بندريين مش زينا، الواحدة منا لابسة جلابية تساع اتنين.. آه، تساع اتنين تلابسني وتلابسك.

وكنّا قد وصلنا إلى الغيط، فقالت:

أهُه.. أهو غيطنا أهُه..

وقبل أن ندخل الغيط تلفت حولها وقالت:

- ما فيش حد، خُش..

وتسللتْ بهدوء وهي تزيح بيديها عيدان الدرة، وقالت:

- أنا حافرق العيدان وأنت امشي ورايا عشان الورق ما يجيش في عينيك.

كان الجو ساكنًا إلاّ من صغير الهواء واهتزاز عيدان الذرة وأوراقه. وفي وسط الغـيط توقفت، وقالت:

- في الحتة دي ننقي الملوخية ونقطع الضّرة. وقبل أن تبدأ، قالت:

- اسمع، ما فيش هنا حد، عاوزين نتجدعن، أوعي جلابيتك تتعاص طين يحـسن أمـك تبهدلنا.

- وأنا حعمل إيه؟

- أقلعها وخليك بالقميص..

ولم تمهلني، بل رفعتها من الديل، وسحبتها من رأسي واسترسلت:

- خلاص، اقعد على كيفك مرتاح.

- اقعد عريان كده؟

- أيوه، يعني هوّ أنت كبير؟ حتختشي من إيه؟ هو فيه حد غريب؟.. أقعد، اقعد قدّامي.. هو أنت كنت بتختشي؟.. أنت نسيت قبل ما تروح البندر كنت بتعمل إيه؟ مش كنـت بتقلع ملط وتمشي في الحارة؟.. خلاص يعني نسيت لما كنت بتعاكس البنات وتطلـع لهم عريان؟.. هوّ دايمًا كده.. تعال يا واد، تعال هنا جنبي، أنت بتعمل إيه؟

- باقطع القلب.

- قلب إيه يا وله؟

- سنابل إيه؟.. تعال.. تعال هنا، تعال هنا خُدْ. ولما لمْ أجبها أسرعت نحـوي محاولـة الإمساك بي.. وأخذت أحاورها إلى أن أمسكت بي قائلة:

- تعال.. تعال، دانا طول الليل وأنا باستحلف لك.. تعال، طيرت النوم من عينـي، أول مرة ما أنا مش فيها، هو أنت عملت لي إيه؟

وجذبتني من طوقي، وجلست في قلب القناة التي دفعتني إليها، وكانت خالية من عيـدان الذرة. قلت:

- القناية طرية، والأرض مبلولة، حاقعد إزاي؟
- قالت هامسة:
- ما تزعقش كده، حد يسمعنا..

وبسرعة، راحت تقطع الأوراق وتفرشها على الأرض كالحصيرة وقالت:

- خد افرش كمان..

واستمرت في التقطيع، وأخذت أنا أفرش حتى امتلأت القناة بأوراق الذرة، وقالت:

- تعال.. تعال هنا نرتاح..

وجلست بجانبها، وإذا بها ترفع جلبابها وهي تقول:

- أحسن الجلابية تتلطع بالورق الأخضر..
- وجذبتني نحوها قائلة:
- بقى أنت تغلبني؟ ما بقاش إلا أنت!.. قرب هنا، أنا لازم أخد تاري، لازم أوقعك.. وشدتني من قدمي وقالت:
- فرشح.. فرشح كده رجليك أنا لازم أقرقشك بأسناني.. وملكتني من وسطي، وألقت بنفسها عليّ، وقالت بصوتها الناعم:
- تبقى تجيب لي معاك منديل..

وزادت من التصاقها بي، واقترب وجهها من وجهي، وقلت بصوت خافت:

- المرة الجاية حاجيب لك منديل...

ومالت عليّ وصدرها ملتصق بعنقي حتى كاد يخنق أنفاسي، وانزاح جلبابها حتى تعري فخذاها، فقلت لها:

- رجليك باينة يا بت..

فالتهب وجهها بحمرة شديدة، ودفنت خدها في عنقي وهي تقول:

- هو انت حاتغلبني.. تعال...

والتف ساقها حول وسطي وهي تعتصرني في رعشة شديدة، فصحت:

- هو إيه؟ هو أنت حتاكليني؟!... ضلوعي حتتكسر.. هو إحنا فينا من خوانة..

فقالت بصوت متهدج:

- أنا عاوزة أخلص تاري، أنت بس شاطر توقعني أمبارح..

فقلت:

- لأ، الواقعة دي ما تحسبش، دانا سبت لك نفسي، أوعـــى تفتكـــري أنـــك غلبتينـــي.. وازدادت عيناها السودوان اتساعًا، وهي راقدة فوقي بكل ثقلها، وهي تهتز قائلة:
- خلاص.. خلصت تاري!...

وامتدت يداها تمسك بشعري، فانتفضت غاضبًا، وأنا أرفعها من فوقي صائحًا:

- لأ.. ما فيناش من خوانة... أنت خدتيني على خوانة... ولكنها جذبتني نحوها في رقة شديدة، وهي تضع فمها على فمي قائلة:
- ما تزعلش.. مرة توقعني ومرة أوقعك... وألبستني جلبابي، وقبل أن نخرج ضـــمتني من جديد إلى صدرها..
- ما تنساش تجيب لي معاك منديل، والمرة الجاية حاخليك توقعني.

واجتاحتني رغبة ملحة في أن أجيبها الأرض، ولاحظت هي ذلك عندما أطالت النظـــر لي ورأت أن عيني يتطاير منها الشرر. فقالت:

- أنت مالك؟
- أخذتيني على خونة دون أن أستعد.

فقالت والبسمة تعلو شفتيها:

- هو أنت خايف أحسن أقول لحد؟

وغطت عينيها بيديها وقالت:

- وحياتك يا عيني ما حقول لحد

قلت:

- لأ، إحنا عاوزين نخش لبعض بصحيح، ارفعي إيديكي وأنا أرفع إيديّ، ولما كل واحد يعبّط عَ التاني ويقول خلاص، يبقى الجدع اللي يغلب.
- وحانخش أزاي والضرة واقف؟
- أمال يعني يبقى اسمك وقعتيني؟
- هي دي يعني اللي مزعلاك؟ تعال نروح القناية تاني...

ولم أعطها فرصة للتفكير، فبمجرد أن رفعت يديها، رحت معبّط عليها بإيديّ الاتنـــين، ولم تمر لحظة إلاّ ويداها تتراخيان وهي تشهق شهقة عالية، وارتمت فـــي الأرض والعـــرق يتصبب من وجنتيها وهي تقول:

- خلاص... أهو دلوقت بس أنت غلبتني.. وراحت في غيبوبة أفقدتها الوعي لحظة. وبعد أن أفاقت، هبت واقفة لتمسح العرق المتصبب على وجنتيها بطرف جلبابها، وقالت وهي تقبض على يدي وتحملق في وجهي:
- يا ريتك تستني هنا على طول.

وبكت دون أن أعرف سبب بكائها. وقلت في نفسي: ليه بتعيط؟ يمكن لأنها اتغلبت، يمكن خايفة أحسن حد يعرف.. يعني إيه؟ يعني خلاص هي مش مصدقاني؟.. أنا حلفت على عينيّ، واللي يحلف على عينيه كذب ربنا يعميه... هي عارفة إني ما كذبتش، تبقى ليه بتعيط؟ يمكن بتعيط عشان حسافر رغم إنها قالت خليك معانا هنا. ولاحظت من ملامح وجهها أنها تريد أن تقول شيئًا:

- ما تسافريش.. اسمع كلام أمك، دي بتعيط، خليك جنبها...

ولكن شيئًا ما منعني من أن أجيبها إلى هذا الرجاء، وقلت في نفسي: أقول لها هناك أحسن.. أنا أصبحت عامل، وأحسن أكون هناك من العمال وأجيب لأخواتي من هناك مناديل، وأجيب لها هيّ كمان، وأجيب فلوس لأمي تساعدها، شغل دايم أحسن من هنا، أحسن من العمل طول النهار في الصيف، أحسن ما نشتغل يوم وأبطل عشرة، أمي تكلمت كتير وما زالت تلح في بقائي، ولكني ألححت عليها أيضًا في ضرورة البقاء في المصنع..

كانت رقية تبكي، وجال بخاطري لحظة أن أقول: حاستنى هنا.. ولكن سرعان ما اختفت الفكرة من ذهني وقلت في نفسي: أنا هناك في المصنع ولكن قلبي هنا مع أمي ومع كل من يحبني.. ولو قلت لرقية ذلك فربما تهدأ. إنها تعرف أن أمي كلمتني ومع هذا صممت على السفر، وهي تعرف أن أختي كلمتني وقلت لها إن صنعة في اليد تغني عن الفقر. وإذا بها تهزني وتشتت أفكاري بقولها:

- خد في حجرك.. خد في حجرك كوزين الضُّرة..

قالتها برقة وعطف شديد. وحبست الكلام لحظة، وإذا بها تعود وتتكلم قائلة:

- أنت فاكر؟
- فاكر.. مش عاوزة أجيب لك معايا المرة الجاية اللي أنت قلت عليه.
- آهو كده، آهو أنت فاكر أهه.

وفي الطريق كانت الريح قد هدأت والعصافير تقف على الأشجار رافعة ذيلها إلى أعلى وتحرك رأسها ذات اليمين وذات اليسار وهي تعلن تغاريدها في طمأنينة لأن أحدًا لن يقذفها بحجر. كان كل شيء في الطريق هادئًا حتى المية في الترعة هادئة أشعر بأنها واقفة.. وكان

الرجال يأتون من داخل المزارع يسيرون على مهل ناحية الأشجار ليجلسوا في ظلها ويأكلوا ما أتت به نساؤهم ويريحوا أنفسهم قليلاً من عناء التعب. وحتى الحمام لم يكن سريعًا في طيرانه، بل كان يطير في تباطؤ.. كان يحط بين الحين والحين على ما تبقى من القمح في الأجران.. وإذا برقية تتوقف فجأة وهي تقول:

- تعال شوف الحمام، شوف بيعمل إيه؟! الحمام بيبوس بعضه.. توقفت، وإذا بي أرى الحمام وهو يضع رأسه في رأسه في رأس بعضه، وإذا برقية تصرخ:
- شوف.. النقرة دي.. دي بوسة.. أنا سمعت من النسوان إن الحب ما تعرفش إلاّ من الحمام. شوف، حتى الطير بيحب بعضه، أمال. يبقى بني آدم يعمل إيه؟! ووقفت أنظر، وإذا بي أصرخ قائلاً:
- هوه.. هوه.. هوه..

خرجت الصرخة دون وعي مني، وهي الصرخة التي كنت أنادي بها العمال في المصنع، وانتابني خجل عندما تنبهت لنفسي، وخاصة لما لاحظت أن رقية بهتت عند سماعها هذا الصوت، وقالت: إيه ده؟.

- هي دي لغة العمال اللي ينادوا بعضهم بيها، هناك دوشة ولا يستطيع حد ينادي حد باسمه، ولهذا تعودت أن أنادي بهذه اللغة.
- وبتنادي بيها هنا ليه؟
- نسيت.. جت على لساني، ما احنا طول النهار ننادي على بعض.
- يا نهار أسود، دا شيء يهبل!..
- لأ، دا شيء يسر. أنا لحد دلوقتي وأنا مسرور من الدوشة.

اقتربنا من القرية، وكانت قريتي كباقي القرى.. بيوت متشابهة، كل بيت من دور واحد، له شبابيك عالية لا يستطيع السائر في الطريق أن يطولها أو ينظر منها ليرى ما بداخل الحجرات. كانت كلها مبنية بالطوب النيء، جدران من الطين ومتليسة بالطين. لم يدخل الجير قريتنا، ولا في القرى التي وقعت عليها عيناي.. حتى الجامع مبني بالطين...

ليلة السفر

عندما اقتربنا من مشارف القرية كانت شمس الصباح الساطعة قد ملأت الأرض. وعندما دخلنا القرية كانت منازلها هادئة ساكنة خالية من الرجال والشبان، كلهم في الحقول يعملون في حرث الأرض ورش السبخ وبذر البذور، حتى الزوجات ذهبت للأزواج بالأكل، ولم يتبق في القرية إلاّ الأطفال يملئون المنازل بالصراخ والعويل... وأمام المنازل يجلس بعض الأطفال الذين لم يبلغ الواحد منهم أكثر من عام بملابس رثة بالية يمرغون أنفسهم في التراب ويمسكون بجواليص الطين ويملئون بها أفواههم. حتى الفراخ تسير هي الأخرى على مهل وتلتف حول الأطفال تلتقط بعض حبات الذرة أو فرافيت العيش الملقاة على الأرض والتي قد تكون وقعت من سيالة الأطفال أو من المقاطف التي نفضتها النسوة.

وفي ميدان القرية الفسيح، أي في الجرن المقابل للجامع، كانت الماعز والأغنام تلتقط بعض الأعشاب الملقاة حول أكوام السبّخ. وفي العطفة التي يقع فيها منزلنا، كان بعض الأطفال يلعبون، ولما رأوني من بعيد نظروا إليّ وعلى وجوههم تساؤل لأنهم لا يعرفونني لقد كبروا وأنا بعيد عن القرية. وكانوا مستغربين ملابسي الجديدة المخططة. وعندما اقتربت منهم وقفوا يتأملون وجهي، ثم ساروا خلفي متسللين، ينظرون إلى بعضهم البعض لأنهم لم يسبق لهم رؤيتي. ومالت رقية على أذني قائلة:

- شايف، بص وراك.. شوف العيال بقوا قد إيه؟ كلما مروا على بيت نادوا على العيال اللي فيه وهم الآن يجرون وراءك وهم الآن يجرون وراءك في انتظار البيت اللي حتدخله.

لم يكن أحد من أخواتي بالمنزل، لم يكن به أحد سوى أمي. ودخلت والأطفال ظلوا واقفين عند الباب. ونادت أمي عليهم قائلة:

- خش يا ولد أنت وهوه، خش.. أنتم خايفين من إيه.. وكانوا يجذبون جلابيب بعضهم البعض، كل منهم يحاول أن يقذف بالآخر إلى الداخل... ورقية واقفة بجواري. ثم جاء أخي وبيده الغلق والفاس، وأمي تناديني، وقالت لرقية:
- هاتي الحصيرة وافرشيها واقعدي جنبه لحد ما أجيب الحطب من فوق.

وجاءت أمي، وجلست بجانبي، وتساقطت دموعها وهي تقول:

- ليه كده يا بني بس تتأخر علينا.. أخواتك من زمان مستنينك، أنت من بـــدري تـــدور الجري على الغيط، الله يلعن اللي منهم السبب.

واسترسلت قائلة:

- جبت إيه معاك؟

فقالت رقية:

- جبت له كوزين ذره.
- كام؟ عشرة؟
- لأ.. خمستاشر.
- أهم كويسين كل كوز والثاني.. جدعة يا بت.

وجاءت أختي وهي تقول:

- الله يقطعك يا رقية، أنت خدت الوادَ الصبح ودتيه فين؟
- رحنا الغيط واتمشينا وجينا.
- أنت كلت؟

قلت:

- حاكل فين؟

فقالت أمي:

- قومي يا بت قومي هاتيلو مترد لبن بحاله، بالقشدة اللي عليه عبال مـــا نولـــع الفـــرن ونعمل له فطير.. اخته زينب اتأخرت.. زمانها جاية جايبة البطاطس واللحمـــة مـــن طنطا نبقى نطبخها على آخر النهار.

فردت أختي:

- للعشاء.. آهو يوم ناكل فيه، ربنا يوعدنا بضيف ونأكل على ريحـــه، الـــصبح لـــبن والظهر فطير والمغرب لحمة.. ابقى تعال يا واد كل يوم عشان نأكل على طول كده. أنت عامل زي اللي جايين من الحج. كل الناس جت الصبح يـــسالوا عليـــك، جـــايين عشان ياخدوك.. البت هنا والبت زينب العرجة، والبت هانم، كلهم جم ســـألوا عليـــك وقالوا لما ييجي ابقى تعالى لنا..

وعندما قالت ذلك شحب لون رقية، ونظرت لي، وكادت أن تقول شيئًا، كادت أن تقول: قول لأختك ما تروحش. لكن أختي لم تترك أية فرصة للتفكير، وهبت واقفة ودورت الجـــري

زي الريح، وبعد قليل عادت ومعها البنات الثلاثة. وعندما جلسن، كانت كل منهن تحاول أن تجلس بجانبي بعد أن وضعن أيديهن في يدي بالسلامات، كانت كل منهن تحاول أن تبدى اهتمامها وتسألني عن المحلة الكبيرة وعن بناتها.

وعندما قلت لهن عمّا رأيته عن ملابس نظرن إلى ملابسهن في أسى وقلن:

- هم بتوع البند كده، بيلبسوا الهدوم المحزّقة، إحنا عاملين زي الرجالة، ما فيش فرق بيناً وبينهم في اللبس. إحنا بنلبس هدوم شيت وهم بيلبسوا هدوم دمور وزفير، والجلابية تكفي نفرين.

فردت رقية قائلة:

- ما هو لازم كده، أصل الواحدة منّا طول النهار بتلف ورا الحمير وتشيل سبخ.. الهدوم الواسعة دي تعيش أكتر، ما تتفرتكش.. أمّا النسوان اللي في البند طول النهار قاعدين على طيازهم بارشين، لا شغلة ولا مشغلة.. أمال زينا؟ طول النهار شقيانين؟

ثم قالت وهي تتوجع:

- ناس لها فت وناس لها قلايط.

كانت تتكلم وعيناها لا تفارقني. وتململت البت زينب في مكانها، ثم جلست في مواجهتي، وخلعت منديلها الأحمر من على رأسها وقالت:

- مافيش حد غريب، تعالي يا بت يا خسكية ضفري لي شعري أحسن أنت جيتي قبل ما أضفره.

كان شعرها أسمر طويلاً تفوح منه رائحة الجاز. وإذا بأختي تقول:

- أف.. أف.. أنت ملغمطاه جاز كده ليه؟

- ما هو الجاز بيموت القمل ويقطع دابر السّبان، أمي قالت كده، هو احنا بنفضى نغسله، أمي قالت اغسليه بالجاز.

فصرخت رقية وهي تقول:

- يعني هو أنت ما تقدريش تيجي نص الليل وتسخني شوية مية وتقيدي اللمبة وتقعدي تغسليه. هيّ الواحدة فينا بيزينها غير شعرها.. النتنة نتنة من يومها..

ووضعت يدها على رأسها وخلعت المنديل، وكشفت عن شعرها الأصفر الناعم المسرح، وقالت في تباهي:

- أهه، شايفة الفرق:

فردت زينب العرجة قائلة:

- هوّ أنا زيك؟ أنا طول النهار شقيانة، شقيانة في الغيط، أمّا أنــت فأخواتــك غنيينــك، يا دوب بتودي لهم الأكل.. زيّنا غلابة؟ من البيت للغيط، للعجين للخبيز، ولم الجلة من تحت البهايم، وشيل السّبخ..

فردت البت هَنَا:

- يعني هو أنت عاوزه تقولي أنك مش فاضية تقعدي شوية وتفلي راسك..

وأخذت كل واحدة تكشف عن شعرها وتنكته لتبين أن شعرها خالٍ حتى من السّبان.

وكان شعر البت رقية أكثر الجميع جمالاً. وقطع الحديث أخي عندما دخل ومعه أحمــد بن عمي؛ فأسرعت البنات بالوقوف وكل منهن تحاول أن تغطي شعرها بالمنديل. وإذا بـــأخي يقول:

- عال، عال، والله اتلميتو على بعض يا ولاد.. ووجه كلامه للبت رقية قائلاً:

- آهو جالك، كنت كل يوم خاوتانا عليه.. جه؟ جه؟.. آهو جه يا أختي، بليه واشـــربي ميته. ونظر لي بابتسامة عريضة قائلاً:

- هيص يا عم، أهم البنات حواليك أهم.. أمال يا أخويا ما فيش حد بيجي ناحيتي ويسأل عليّ..

وعندما قال أخي هذا أخفت البنات وجوههن بأكفهن وصهللن مـــن الـــضحك، وأخـــي يسترسل في كلامه مداعبًا.

- قول لي بقه يا سيدي، مين في دول تعجبك..

وحاول أن يرفع رأس البت رقية، ولكنها عصلجت وهي تواصل الضحك. وأخيرًا، قال أخي:

- أنا حاسبيكم تقولوا لبعضكم الحواديت... خدي يا بت يا خـــسكية، خـــدي المنـــديل ده وهاتي لي الجلابية من جوا، أنا رايح الجامع عبال ما تخلصوا الحواديت.

- ووضع قدمه على العتبة، وطل برأسه للبنات ليراهن وقد رفعن وجـــوههن، وعنـــدما رأينه واقفًا أسرعن في إخفاء وجوههن مرة أخرى، وذهب أخي، وطلت البت رقية فلم تجده، فقالت:

- ارفعوا يا بنات رعوسكم..

فرفعوها متلفتين حولهن، وهن يقلن والبسمة تعلو شفاههن التي كشفت عـــن أســـنانهن البيضاء المنتظمة.

- هوّ راح فين؟

فقالت أختي:

- راح الجامع.. هو أنتم مكسوفين؟.. ما هو بكره حنجوزه، واللي بتحب أخويـــا أكتـــر حنجوزهاله.

وأطلت البت رقية لي، وبان من ملامح وجهها أنها عاوزه تقول:

"أنا أنا اللي بحبه"- لولا الخجل والكسوف. ودخلت أمي من الخارج بجلبابهـــا الأســـود الذي لم تغيره منذ مات أبي وهي تقول لأختي خسكية:

- قومي يا بت قومي ولعي الفرن، العجينة خمرت.. وأنت يا بت أنت وهيّه، خدوا الرز ده نقوه، ما هو اللي حياكله انتم بتحبوه.

وعادت أختي زينب من طنطا، ورمت الغلق في الأرض وهي تقول:

- قطيعة.. أف.. أف.. هاتي شوية مية يا بت، روحي حتطلع، الدنيا حر نار، ولا نـــار جهنم.. قومي يا بت..

وأسرعت رقية تصب الميّه على رأس أختي.. وعندما أفاقت قالت:

- هو أنتو لسه ما خبزتوش؟.. هو أنتم مستنيين لما آجي؟.. الشرد موّتني وأنا جاية في الطريق.

ونظرت لي في حزن قائلة:

- طول السكة ما نشفتش الدمعة من عيني.. يوم؟ يوم واحد وحاتسيبنا وتسافر؟ حتقعـــد هناك في الغربة؟ ومين يجيب لك تأكل؟

وبكت. وإذا بالبت رقية تقول:

- متخليك هنا.. اسمع كلام أختك..

ولم تكمل كلامها. وإذا بأخيها يزعق:

تعالى يا رقية.. تعالي كلمي أمك..

ومن على عتبة الباب طلت لي وهي تقول بعين متوسلة:

- خليك هنا ما تمشيش.

وعن آذان العصر، هدأت الرياح الحارة. وقال آخي:

- أنا عاوز أروح الغيط أفتح الميّه، أقطعها على الدرة واسقيه. وعلى بكرة الصبح تكون الأرض شربت الميّه عشان نضمن عدم وقوع الذرة لو اشتدت الريح.

واسترسل قائلاً:

- بكرة نبقى فاضيين نقعد من أخونا قبل ما يسافر.

وأصرّ على أن يأخذني معه رغم معارضة أمي وهياجها. وفي الطريق، كانت الشمس قد مالت للغروب والرجال عائدون من الحقول ساحبين البهايم، وآخرون يركبون الحمير وأمامهم آلات الحرث. وصبايا كتير شايلين الزلع على رءوسهن وهي مملوءة بالمياه، وكل واحدة عاوجه الزلعة على ناحية وهي تدب في الأرض. كّن يتمخطرن، وكل منهن تحاول التباهي بعوجة الزلعة على ناحية. وإذا بصوت ريان جميل ينطلق من على شجرة الجميز المجاورة للبحر قائلاً:

يا ليل يا عين قلبي عشق بنت بيضا بتملا والغروب نازل.

والشعر المهدل على النهود نازل.

حطيت إيدي على الصرة وأنا نازل.

قالت الجميلة شيل أيدك يا جدع.

لتموت قتيل المحبة.. والغروب نازل.

وعندما انتهى من غنائه انتبهت الصبايا، وبدأن يتلفتن، وكل منهن تنظر ف وجه الأخرى. نظرت البنات، وأطلن النظر، وعاودن النظر لوجوه بعضهن ليرين لمن يكون هذا الغناء. وكانت زينب بنت عم علي الجوهري هي أجمل البنات. وعرفت أنها هي المقصودة لشدة احمرار وجهها. وقلت: "لا بد أن يكون هذا الغناء لها" وعندما اقتربت منهن توقفن جميعًا والتففن حولي محييات بأيديهن بعد أن مسحنها في الجلابيب من البلل. وتحت شجرة الجميز أخذ صوت يناديني قائلاً:

- أنا البهي. البهي الصعيدي.. باختّن الجميز.. استني لما أجمع لك غلق تاخده من هنا ويّاك.

وقال أخي:

- يااللاّ، يااللاّ.. تعال عشان نلحق نقطع القنا بدري.

وبعد أن انتهينا من قطع القنا، توجهنا إلى الغيط، وسقينا الذرة، ثم عدنا، فوجدنا أمي جالسة أمام الفرن تنهي ما تبقى من خبيز. بدت وكأنها لم تنتبه لوجودي، وبقيت ناظرة إلى الأرض، وهي تحاول أن تخفي عينيها عني لكي لا أرى دموعها المنهمرة. كانت تبكي حظها المنكود... "ليلة واحدة وحيسافر".. تبكي في صمت دون أن تبدو منها حركة ظنًا منها أنني لا أراها. ولاحظت ذلك أختي فهمست في أذنها قائلة:

- خبر ايه يا وليّه؟ بتعيطي ليه؟ الولد قاعد يبص لك أنت عاوزة تقهريه؟ ما تسيبيه بحاله. خاليه يسافر بالسلامة.

وحاولت أمي أن تكبح دموعها. ونظرت في الأرض. ومن كثرة إلحاح أختي نظرت إليّ، ولكنها لم تستطع أن تمنع الدموع، فبكت.. وبكت أختي.. وخرج أخي من المندرة وجاء على صوت البكاء وزعق قائلاً:

- خبر إيه؟ أنتو حتقلبوها محزنة؟ ما هو راجل.. هوّ الراجل حينخاف عليه؟ هيّ الرجالة انخلقت إلاّ عشان كده؟ أنت عاوزاه يطلع إيه، عاوزاه يطلع صايع؟.. لازم يطلع من صغره كده، يتودك عَ الدنيا.. هو فيه حاجة نقصت؟ ما هو زي ما راح زي ماجه.. ما تقدري أنه راح الجهادية.. اللي يقدر ما يغلبش. هوّ حد بيموت ناقص عمر؟ أنت عاملة كده ليه يا وليّه؟ عياطلك ده هوّ اللي حيعقده. أمال أخويا إبراهيم لما خدوه السلطة وودوه آخر الدنيا وشغلوه ببلاش ما عيطيش عليه كده ليه؟ عيطتي شوية وسكتي.

فردّت أمي بصوت حزين باكٍ:

- لمّا خدوا أخوك إبراهيم السلطة كان أبوك عايش.. كان أبوه مالي علينا الدنيا، مالي علينا البيت، ولما خدوه، خدوه عصب عنّا. أما ده، إيه اللي غاصبه. لما حاقابل أبوه، لازم حاقابله، ويسألني عملتي إيه بالوصية، علمتيه؟.. أبقي أقول له إيه؟ أقول له هرب وساب البلد وطفش؟ حيقول، لأزم جوعتيه.. حيقول إني لازم جوعته أو ضربته.. كان مُنى أبوه أنه يتعلم ويبقى زي الناس بتوع مصر.. حقول له إني ما عرفتش أعلمه؟ آه ياني!!.. أه ياني ياللي ماليش بخت ياني.. لما أقابله، أقول له إيه بس يا ولاد.. مسير الوجوه تتقابل.. وبكت أمي، وبكى أخي أيضًا، وبكيت أنا.. وأنقلب البيت في لحظة إلى ميتم.. الكل بكى..

ودخلت خالتي عفاالله وخالاتي.. وقالت خالتي:

- إيه؟ حض الله!.. حصل إيه، كفا الله الشر... مالك بتعيط كده؟

فمالت أختي خسكية على أذنها:

- بتعيط.. بتـ.. عيـ.. ط.. عشان أخويا بكرة الصبح حيسافر.. حيسافر ويسيبنا.. فزعقت في وجه أمي قائلة:

- الولد ده جرى له حاجة حتكوني أنت السبب، كل ما حييجي تعيطي في وشّه؟ قومي يا بت أنت وهيةّ.. قومي كده، وضبوا له الشيء اللي حياخده معاه. كل واحد عقله فـي راسه يعرف خلاصه. ما هو اسم النبي حارصه داخل على جواز وعارف مصلحته..

واسترسلت خالتي عفاالله قائلة:

- أنت حتنكّدي على نفسك ليه؟ اللي ما علمتوش الأهل تعلمه الأيام والليالي. خليّه يطلع متودك عَ الحياة من صغره، يمكن ربنا ينصره ويبارك لك فيه.

وقبل أن تنتهي خالتي عفاالله من كلامها، وإذا بشلة كبيرة من البنات على الباب ينـادين على خالتي خسكية. كانوا من أصدقائها. وعندما دخلوا، توقفت أمي عن البكاء، كما توقفـت خالتي عفاالله عن الاستمرار في الحديث. وجلست البنات بجوار أختـي فـي أحـد الأركـان بتهامسن، وهن يعاودن النظر إليّ. وازدادت الهمسات وإذا بأختي تقف قائلة:

- فين الطبلة؟ الطبلة فين؟ البنات جايين عشان نطبّل عاوزين نغني.

نظرت أمي في دهشة قائلة:

- حتغني إيه يا بت أنت وهيّه؟

ثم نظرت إلى النسوة الجالسات:

- طبلة إيه أنت وهيّه؟

ونظر البنات بعضهن لبعض والبسمات تعلو شفاههن: والطبلة فين؟ إحنا عايزين نطبل عشان خاطر أبنك.. إحنا فرحانين لما جه وقعد بينًا.

وإذا بخالتي عفاالله تقول:

- أنتم عاوزين تغلوشوا علينا؟ ما تسيبونا نتكلم.

وإذا بالبت رقية تقول:

- خبر إيه يا خالتي عفاالله؟ ما تخليكم في حالكم وتخلونا في حالنـا. وجـاءت أختـي بالطبلة. وأشعلت ولعة صغيرة، وشدتها وبدأت البنات الغنـاء بأغنيـة. آه يـالموني يالموني يا لموني.. وعندما بدأ الغناء التهبت القلوب المكبوتة وأشـجاها الغنـاء. وإذا بالنسوة الجالسات المهمكات في الحديث ينتبهن. ثم يوقفن فجأة عن الحديث، وترتفـع أكفهن بالتصفيق، وينسين همومهن بالاشتراك في الغناء مع البنات المرحات.. وهمّت أختي واقفة، واتحزمت بالشاش، وبدأت ترقص رقصة مبدعة.. وكان لرقصات أختي صداها بين البنات مما دفعهن إلى الرقص متتابعات، واحـدة بعـد الأخـرى، ودب التنافس بينهن.

وقفت البت رقية، وخلعت الشاش من على راسها، وبقت بمنديلها الأحمر الزاهي وانكشف شعرها الأصفر المجدول الواصل إلى فخذيها. وبدأت تهتز بين الجالسات، فزاد الحماس، حتى الرجال الواقفين دب الحماس فيهم. فأخذوا يصفقون ويحدفون اللبد على بعض بعض، مما جعلها تواصل الرقص ببراعة وخاصة بعد أن نظرت إلى الجالسين. وحدفت شعرها المجدول من الخلف إلى صدرها. كان كل ما بجسدها يتحرك. وعندما وقفت ترقص رقصة الرقبة وتطيل النظر، صاح كل الجالسين، حتى أمي الباكية الحزينة جفت دموعها وعلت البسمة شفتيها وكشفت عن أسنانها البيضاء المنتظمة وابتسمت، واحمرت وجنتاها عندما رأت البت رقية بالقرب من قدمي تواصل رقصاتها. وانطلق لسانها يردد الدعوات:

- إلهي ربنا يجعل لك عيش في بيتنا.. إلهي يعدلهالك.. إلهي ما حدش يجيلكم في ردي.. نورتم بيتنا.. إلهي ما ينقطعلكوش حس..

وامتلأ البيت بأبناء الحارة. وانطلقت القلوب المرحة، وعلت البسمة شفاه كل من اشترك في الغناء، وأخيرًا جلست رقية إلى جانبي بعد أن رقصت رقصات طويلة. جلست على تصفيق حاد متواصل، والجميع يتطلعون وينظرون إليها.. وهي تبتسم. وبدأت الهمسات.. همسات بعض النسوة.. منهن من تقول:

"دي ولا الغازية، دي كانت بتهز وسطها ولا التعبان.. شوفوا يا ولاد!.. هو أنتو شوفتوها وهي راكزة على ركبتها وبتهز..".

وأخرى..

"شفتم بطنها كانت بتعمل إيه، كانت بتهزها زي اللي عندها رعشة"

"يا بخت اللي حيجوزها، حتبقى في أيديه زي الميّه..".

همسات وهمسات.. والتصقت البت رقية بي، وغنت أغنيات أخرى، والجميع يردد: سالمة يا سلامه، تروح وترجع لنا بالسلامة. وكادت الحيطان تتزحزح من كثرة التصفيق والأغاني. وقبل أن تذهب البت رقية إلى بيتها مالت على أذني قائلة:

- أنا ما رقصتش لحد.. دعوني في أفراحهم وكنت مارضاش أنا مارقصتش إلاّ علشانك.. علشانك بس.

واسترسلت:

- حتمشي أمتى؟

- الصبح؟..

- الصبح؟..

وصممت لحظة، وشحب لونها، وهمست:

- الصبح..؟ الصبح أمتى؟..
- بعد الضحى.
- أوعي تمشي إلاّ أما آجي وودعك.

وأقترب وجهها من وجهي وكادت تقبلني لولا وجود النسوة. واقتربت، زادت اقترابًا متى، وكادت أن تقول لي شيئًا.. كادت أن تقول: "أتحجج بأية حاجة.." كأنها تريد أن تقول: "على الكوم حاستنى في نور القمر. نكمل كلام أمبارح" ولكن شيئًا ما منعها. وإن كنت قد أيقنت من نظراتها الزائغة أنها ترغب في الاستمرار في الجلوس بجانبي وعادت وكررت ما قالته منذ ثانية.. وإذا بصوت يناديها من الخارج، فهمست إليّ قائلة:

- أنا ماشية..

واتجهت مسرعة نحو الباب وهي تحاول إخفاء دموعها. وقالت بصوت مبحوح لا يكاد يسمع:

- أتحجج.. وأن ما قدرتش، بكرة الصبح هاتحجج من أمي وأجيلك تاني قبل ما تسافر.

لم يبق في المنزل إلاّ بعض الأقارب.. التفوا حولي. وقالت أمي لخالاتي:"

- شايفين بيتنا عامل أزاي؟.. منوّر عشان فكري موجود.. ليلة حلوة.

فردت خالتي عفا الله:

- ما تقعد يا وله وبلاش تسافر.. هو أنت بتعمل هناك إيه؟
- بشتغل هناك عامل.

فقالت خالاتي وهن ينظرن إلى بعضهن البعض متسائلات:

- عامل؟.. عامل إيه.. إيه الأسامي اللي أنت جايبها لنا دي؟

فقالت واحدة:

- ما هم بيقولوا كده في البندر.. بيقولوا على التملي هناك عامل.

قلت..

- تمليّ إيه؟ التملي ده عند العمدة اللي بيشتغل طول السنة نظير قيراطين بيزرعهم يشتغل هو فيهم وولاده. وآخر السنة ياخد منهم العمدة المحصول ويديهم القليل منه. إنما هناك، كل واحد واقف لوحده على مكن، والقبض كل خمستاشر يوم. مكن داير.

وشغل داير، ما حناش عارفين واحد بنشتغل عنده، عشان كده يقولوا عليهم عمال وما يقولوش تمليّة.

قالت أميّ:

- ما هو أنا مانيش خايفة عليك إلاّ مِ اللماضة بتاعتك ديّه.

فردّ أخي قائلاً:

- جرى إيه يا وليه؟ ما مفيش على لسانك إلاّ كلمة لماضة؟.. قومي شوفي حياخد إيه في السفر وياه.

وبعد أن انتهت أمي من إعداد كل شيء، وجهزت كل ما أحتاجه، ورصصت العيش في القفة، جلست بجواري. وبدأ النوم يغالبني. وتشاجرت أخواتي لأن كل واحدة تريد أن تنام بجواري فقالت أمي:

- لا أنت ولا هيّ.. معاي أنا في حضني حينام.

وبدأ كل من إخوتي يأخذ مكانه للنوم. ووضعت أمي يدها تحت رأسي. وبعد فترة وجيزة، رفعت أمي رأسي، وسحبت يدها بهدوء، ثم نهضت، وتوجهت إلى الغرفة المجاورة، بالقرب من عتبة الباب بدأت تخرج فلوس من التي كنت قد أعطيتها لها، وأخذت ترن البرايز، بريزة وراء الأخرى، وعلى ضوء لمبة الجاز أخذت تنظر في البرايز لتتأكد من أنها ليست مغشوشة وأن الكتابة اللي عليها واضحة. وكلما رنت بريزة أشرق وجهها وابتسمت، وهي تنظر لي تارة، وإلى البرايز أخرى. وبعد أن انتهت من فحص البرايز، اتجهت لي وعلى نور اللمبة، وقفت وهي تتردد في تصحيني. وهي لا تعلم أنني صاحي ألاحظها، لقد تتبعت كل حركاتها وابتساماتها في هدوء دون أن أشعرها. وكلما اقتربت مني كنت أسبل عينيّ لكي ترى أنني صاحي. كانت واقفة وشفتاها تتحركان في صمت حتى لا تقلق أحدًا إلى جواري في هدوء، ورفعت رأسي، ووضعت يدها الناعمة تحتها.

وفي ساعة متأخرة من الليل، صحوت على شيء دافئ يتساقط فوق خدي، فهممت واقفًا.. كانت دموعًا تنساب من عيني أمي.

- إيه ده؟

- ما فيش.. نام يا بني..

- أنت قاعدة كده ليه؟ أنت بتعيطي؟ بتعيطي ليه؟

- لأ، ما فيش.. نام يا حبيبي.

- أمّال الدموع اللي نزلت على وشي دي منين؟

- لأ، مافيش حاجة. وأنا كنت باشرب ونقطت ميه ووقعت غصب عني. تلفتّ حولي، فوجدت إخوتي كلهم نائمين.. وقالت أمي..
- ما تنام.. نام يا وله..
- أمال أنت قاعدة ليه؟
- نام.. نام.. أنا رايحة أنام أهه.

وراحت نايمة، وضماني في حضنها، وأغمضت عينيها متظاهرة بالنوم. وانتابني القلق. وقلت في نفسي: "خلاص، بكره الصبح أنا مسافر. وبكره زي دلوقت أكون عَ المكن واقف.. اتناشر ساعة، من أول الليل لحد الصبح، وأمي حتكون هنا نايمة، أو صاحية بتعيط.. وتعيط ليه؟ هي بتعيط عشان أنا موجود هنا قدامها. بتعيط عشان خايفة من أبويا حيزعل عشان ما حافظتش عَ الوصية وما علمتنيش.. هي قالت كده النهاردة.. وأبويا حيزعل منها ليه: هي عملت حاجة؟ دا أنا اللي هربت ورحت المحلة، أنا من نفسي. هي حاولت معايا، وما زالت تحاول. هي لازم تقول له الحقيقة. يمكن خايفة أحسن يضربني؟.. وحيضربني قلمين والا عصايتين يا دوب؟ ويرجع تاني يصالحني.. زي بعضه، وابقى أنا نفذت اللي ف مخي... خلاص، عرفت آخرتها. حلّني لما أنا أقابله. موت يا حمار عبال ما يجيلك العليق. حاقابله إمتى؟ مش يوم القيامة؟.. حلني لمّا القيامة تقوم. هو مش مكتوب في القرآن: ألف ولا تؤلفان.. دا يوم القيامة ناس كتير حتموت.. هو حد حيعرف حد.. إفرض.. ما هو مات وأنا صغير، وشكل حيكون اتغير، مش حيعرفني. يمكن يحصل حاجة في الغربة ونتدفن هناك في ترابها، ويبقى لا شافني ولا شفته.. خلاص، أقول لأمي الكلام ده عشان اريحها وتبطل بُكا.. خلاص. حاقول لها أهه...؟.

- أمّا.. أمّا.. إصحي يا مّا.. ما تردي، ساكته ليه؟.. عنيكي مفتحة أهه، ما بترديش ليه؟ ما هي الدموع نازله أهه.

فأغمضت عينيها ولم ترد، ومالت بوجهها جانبًا. وحاولت أن أجذب بيديّ وجهها نحوي. ولكنها قالت بصوت مبحوح:

- نام يا وله، والصبح نتكلم.

وحاولت أن أنام، ولكن النوم ضاع من عينيّ. ومرّ بخاطري عديد من الصور. تذكرت عبد العظيم وهو واقف على المكن وأنا بجانبه، تذكرته عندما قال: ما تنساش تجيب معاك عصايا من طنطا، أخوك يجيبها لك عشان أهل المحلة بيستعدوا ولازم نستعد أحنا كمان.. وتذكرت الشيخ علي ونحن في بيته عندما قال: إحنا لازم نبقى نجتمع ونواصل الاجتماعات

عشان ننظم نفسنا، ونواجه أهالي المحلة. وقلت في نفسي: "بكرة الصبح أنا مسافر، وبالليل حاشتغل، والصبح حنواصل الاجتماعات في بيت مين؟.. في أي بيت يقولوا همّ عليه...".

بكره الصبح أول ما أصحى أبقى أقول له."

وتذكرت قول الرجالة اللي كانوا عندنا أمبارح: نكتب شكاوي للحكومة.. الظرف اللي ما يصيبيش يدويش.. قلت: أنا لما أسافر حابقى أقول لهم.. أقول لعبد العظيم نكتب شكاوي وتمضي عليها العمال للحكومة وللنيابة تيجي وتحقق، حانخسر حاجة، ما هو الرجالة اللي كانوا قاعدين هنا قالوا كده، قالوا الظرف اللي ما يصيبيش يدوش.. يمكن ييجي من وراه الشكاوي حاجة فيها فايدة. المهم حابقى أقول له. أمي مش فضلت ورا التوب لحد ما أخدته، مش دخلت للمدير وكلمته.. كنت صاحب حق.. عمل فيّ إيه المدير؟ مش هوّ ده اللي بيخوّف العمال، واللي ساعة ما كان يخش العنبر تتهز حيطانه ويتهيأ للواحد إن المكن اتزحزج من مكانه؟ عمل إيه، مش اداني التوب،. أهو كل مرة يبقى أخش له، وأقول للعمال تبقى تخش له.. ما حدش بياخد الروح إلا اللي خالقها.. أخويا قال كده..

أفكار.. وأفكار.. وأخيرًا قلت: بكرة الصبح أنا مسافر، والبت رقية حاتيجي وحاتقول لي: مع السلامة، ما تنساش تجيب لي معاك منديل..

خليكم معانا شوية

صحوت على أصوات الديوك التي طال شوقي لسماعها، وأخذت أعبث بكل ما في المنزل. كنت أدخل حجرة بعد أخرى أنظر إلى الخشب وإلى العنكبوت المعشش في السقف، وإلى القفف المترصصة هنا وهناك. ودخلت الزريبة والجاموسة نايمة دافنة دماغها عند أرجلها، والحمار واقف ومعزة أختي وولادها بجوارها، والأرانب وهي طالعة من المجاحر.. طالعة في حذر واحدة وراء الأخرى تأكل، والديك وهو ينط على الفرخة ويزعق بعد ما ينزل.

سمعت دقات سريعة متصلة على الباب، فقلت يا ترى مين بيخبط؟ أمي نايمة، وأخواتي نايمين، يبقى يا ترى مين ع الباب؟ تكون خالتي عفا الله؟ مش معقول!.. دا لسه بدري.. لسه ع الشمس بدري.. يكون الولد الغريب جاي يصحيني؟ واللا أمه جايه ناخد من عندنا حاجة؟.. وانتظرت أن تقوم أختي وتفتح، وأخيرًا وجدت نفسي عند الباب.. وإذا رقية تدخل مسرعة، وعلى طرف المصطبة قعدت ساكتة لا تتكلم. وقالت محذرة لكي لا تقلق أمي: "همس"..

فقلت:

- مالك بتنهجي كده ليه؟ نفسك مكروش كده ليه؟

فجذبتني من يدي وهي تضع يدها على فمي قائلة:

- أسكت. ما تتكلمش لما استريح. هات أيدك.. اتكلم بشويش.. شوف صدري بيعمل إيه؟ قلبي بيدق.
- بيدق؟.. وبتجري ليه؟

فسكتت لحظة لتأخذ نفسها، واسترسلت قائلة:

- علشانك.. خفت.. أحسن.. تمشي.. من قبل ما.. أشوفك.. خد.. خد الدرة ده.. دره طازة.. رحت الغيط.. أول ما. الفجر أدّن.. دوّرت الجري، ورحت قطعته علشانك.

كدت أطير فرحًا، وقلت في نفسي: "آخده معايا، آخده المحلة للبت اللي صحتني وأخواتها.. مش همّ اللي سقوني وأنا مطروب، لما العفاريت طلعت لي؟ وهمّ اللي بيصحوني الصبح كل يوم من النوم؟ آخده معايا هدية لهم وأدّيهم فطيرة من عمايل أمي".

وجلست بجانبها نواصل الحديث في هدوء. وتلفت حولها، وفردت ذراعيها على الآخـــر بعد أن تأكدت من أن أمي وإخوتي نايمين، واحتضنتي وهي تقول:

- جريت ورحت الغيط وجمعت الدرة بدري، وأهو أديني لحقتك قبل ما تسافر.

ثم سالت:

- أنت حتسافر أمتى؟
- الصبح
- الصبح أمتى؟
- بعد الضحى
- وحتعمل ايه؟
- حاشتغل.
- وإيه كمان؟
- حاقول للناس نكتب شكاوي
- شكاوي إيه؟
- شكاوي للحكومة وللنيابة
- بس؟
- الله، أمال عايزة إيه؟
- بس؟!
- وحاكل.
- حتاكل إيه؟
- عيش
- وأيه كمان
- وفلافل.
- وإيه كمان؟
- وفول
- وإيه كمان؟
- مفيش.. لما الفلوس تخلص أكل عيش حاف

- يا خرابي!.. ليه كده؟
- يعني الفلوس لما تخلص، أعمل إيه؟ مفيش غير كده، نستحمل أصل مفيش حد هناك بيسلف.
- طيب. وأنت جاي حتجيب إيه؟
- حاجيب إيه؟ حاجيب معايا عيش خاص وفلافل كمان لأخواتي.
- وإيه كمان؟
- وحلاوة كمان
- بس
- الله!... امال حاجيب إيه كمان؟.. آه.. آه. نسيت، حاجيب معايا لك منديل. فاحمرت وجنتاها ودقت على صدرها قائلة:
- نقية كويس، أحسن من اللي أنت جبته.
- عاوزاه لونه إيه؟
- أحمر مشغول.. مش زي بتاع أختك.
- ولم تتمالك نفسها من الفرحة، فمدت يدها نحو شفتيّ وداعبتهما بطرف أصبعها، وكدت أن أصرخ لولا أميّ النايمة.

زعقت الديوك من جديد إيذاناً للنائمين بأن يصحوا.. وبدأت الديوك تتحرك من الداخل إلى الحوش بجوار النائمين لتلتقط ما تبقى من حبوب. والفراخ تكاكي هنا وهناك. والديوك تدن هنا وهناك في البيوت المجاورة، وخرجوا بغاغة، قالت رقية في همس.

- الفراخ عاملة هيصة كده ليه؟ أمك حتصحى..

ولم تكد تتم كلامها حتى صحت أمي ورفعت رأسها متجهة نحو الفراخ، وكادت أن تقول لها "هش"، عندما رأتني جالسًا ورقية بجواري.. فبادرتنا قائلة:

- الله!.. إيه اللي جابك بدري يا بت؟.. إيه اللي جابك بدري كده؟

فأجابت رقية باضطراب:

- جيت أشوف فكري قبل ما يسافر، رحت الغيط أول ما عيني فتحت وقطعت له دره ياخده معاه.

فقالت أمي:

- الله.. الشمس قربت تطلع.. ولمّا جيتي يا بت يا مقصوفة الرقبة ما صحتتيش ليه عشان أقوم أوضب الحاجة؟

وقامت لتزيح الحطب المتنطور في الحوش، وزعقت على أخواتي:

- يا بت أنت وهيه.. قوموا بقه، الشمس قربت تملا الدنيا.. ما هو راحت علينا نومة من السهر.. صحيّ أخوكي يا بت، صحيّ أخوكي محمد يفحت نقلتين من الزريبة ونوديهم بدري. قومي يا بت اكنسي الدار..

وإذا بالبت رقية تقول:

- أقعدي ياما السيدة أنت.. أقعدي أنت وأنا حاكنس بدالك. وأنت روحي شوفي حتعملي أيه لفكري يا خده معاه.

فقالت أمي:

- كل شيء جاهز من إمبارح، وما فيش غير أن أحنا نقعد معاه ونشبع منه عبال أم الولد الغريب وأم الولد السيد الصفطي ما ييجوا ويقولوا إحنا جاهزين.. ونكون شوينا الدرة وأكلنا معاه.. أهي ساعة زمن وما حدش عارف الوجوه حتتقابل واللا ما تتقابلش.. مكتوب علينا البهدلة والغربة.. إيه اللي زانقه عليها؟ لكن، على رأي المثل، اللي مكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين. قومي اكنسي، وافرشي يمكن حد ييجي يسلم عليه.. إلهي يسترها معاكي. أنت بنت الحبايب، والحبايب هم اللي بييجوا ويقعدوا وياه.

وانتهت أميّ من كل شيء، وانتهت أميّ من كنس ورش المنزل، وصحّت أخواتي، وأخذت كل منهن تتثاءب وتمسح عينيها بيديها، وتبربش بالجفون المتشابكة، وسمعت صوتًا ينادي من بعيد، من الخارج: "يا بت يا خسكية.. يا بت يا خسكية.." أصوات وأصوات، وأختي جالسة في مكانها لا ترد، وأمي تقول:

- يا بت شوفي مين اللي بينادي.

وأخذ الصوت يقترب، فعرفنا فيه صوت البت زينب بنت عمي على الجوهرى. واستمرت تنادي، فزعقت أمي في خسكية قائلة:

- قومي يا بت يا مكسورة الرقبة، قومي على حيلك شوفي مين اللي بينادي.

وإذا بالبت زينب تقف على الباب وهي تقول:

- صباح الخير.. فين البت خسكية؟

فترد أمي:

- صباح الرضا، خشيّ..

ولكن زينب قالت:

- خليها تيجي معايا لحد الغيط.

وظلت أختي ساكنة، وزينب تدخل وهي تواصل الكلام، إلى أن وقعت عيناهـا علـيّ، فشهقت، وقد احمرت وجنتاها خجلاً.. وحاولت أن تخفي وجهها بعيدًا وهي تقول:

- يا كسوفي.. ايدي وسخة من مطرح السّبخ، وهدومي مقطعـة.. يـا جرسـتي.. وهرولت عائدة وهي تخفي وجهها براحتيها.

كان كل شيء يعد، والبيت يمتلئ بالناس والجالسين في الحوش. الكـل داخـل يـسلم، والدقائق تمر سريعًا، وأمي تعمل بنشاط في تحضير كل ما احتاجه، وأخواتي يطلن النظر لي كلما دخلن من حجرة أو خرجن من أخرى وشفاههن تتحرك:

- "دقائق وحيمشي، ونرجع نقعد زي الغلابة، لا حد يخش ولا حد يطلع.."

- "دقائق والقفة تنشال..".

ورقية تخرج مسرعة ثم تعود أسرع ما خرجت، وهي تقول:

- يا خالة السيدة، أنا خدت إذن من أمي عشان أروح أوصل فكري وياكم، وأشـيل القفة.

فترفع أمي يديها إلى السماء داعية للبت رقية، وتعود فتعري شعرها وهي تقول:

- إلهي يجعل في وشك القبول يا بني.. إلهي يجعل في وشك جوهرة وفـي حنكـك سكرة.. إلهي يجعل لك في كل خطوة سلامة يا فكري يا بن بطني وحشاي..

دعوات.. ودعوات.. ورقية جالسة بجواري تؤمن على دعواتها قائلة:

- مفيش أحسن من دُعا الوالدين.. أمك بتدعي لك..

وأنا أقول همسًا:

- من يوم ما ولدتني وهي بتدعي، لو دعوة جازت لطلعت السما السابعة، لكن ربنـا لحد دلوقت ما استجابش.. دي لو كانت كل الدعاوي دي من أمي ومـن النـاس استجابت ماكناش بقينا قاعدين كده دلوقت، لكن ربنا ما فتحش باب الـسما، بـاب السما مقفول..

فترد رقية بانزعاج:

- متقولش كده، استغفر أحسن تتسخط.

- انسخط؟!.. انسخط إيه؟.. هو أنا قلت حاجة.. أمال ما بيسخطش الناس اللي بيموتوا العمال ليه؟ هو أنت مش كنت ماشية ويايا إمبارح، ما شفتيش الراجل اللي كان ماشي وسط الغيط وبيغني وبيستغيث بالله، ما سمعتيش كان بيقول إيه؟.. كان بيقول: البين عملني جمل واندر عمل جمّال.. والبين ده مش هوّ صاحب الأرض اللي بياخد الزرع وبيحجز ع البهايم؟ مش هوّ اللي بيشتكي منه؟ حد عمل له حاجة؟ ربنا لحد دلوقتي ما سخطش صاحب الأرض ده ليه؟

وقطع همسي لرقية دخول الولد الغريب، ومعه شلة من الأولاد وطلعت أمي عليه من قاعة الفرن تجري، قالت:

- خلّي بالكم من بعض.. اللي معاه لقمة يديها للتاني، هوّ ما راحش إلاّ عشانكم.

وردّ الولد الغريب:

- إحنا مع بعض هناك.. اللي معاه حاجة ما بيحوشهاش عن التاني.. ياللا نقوم بقة نسافر عشان ناخد وقتنا بدري.

فقالت أمي:

- مستعجلين ليه؟ خليكم معانا شوية.. هوّ حد عارف الدنيا حيحصل فيها إيه.. الدنيا مكركبة.. الدنيا مقلوبة.

وهنا دخلت أم الولد الغريب، بينما أمي كانت تحني رأسها في الأرض وهي تحاول أن تخفي عينيها عني، وأم الولد الغريب تتوجه إليها هامسة:

- منا تعيطيش كده يا وليه، ما تعيطيش كده قدامهم.. العيال رايحين ع السفر، قومي وضبّى لهم الحاجة، حيشتغلوا بالليل، حيقفوا ع المكن، ولا فيش حد منّا وياهم. كل ما خدنا وقتنا بدري، كلما كان أحسن، ويكون عندهم فرصة للراحة.

وتقف أمي ساهمة تجز على أسنانها، وتنظر إليّ خلسة..

ويأتي أخي من برة، فتقول أختي:

- أخويا حيسافر.

وتتقدم رقية وعيناها على القفة. ونسوان تأتي من بره ع الهيصة، وأطفال تنادي على بعض في الحارة: "تعالوا يا ولاد فكري حيسافر، حيمشي دلوقت".

ويتكببوا ع الباب، وأمي تنظر لهم في أسى. وكاد نفسي يختنق من السلامات وعبطهم في، ومن زحمة النسوة الواقفات.. والوقت يمر، والشمس تملأ السما، وأخويا ع المصطبة قاعد بينبش بالعصا في الأرض، ويده الأخرى على خده، وأصابعه تتحرك حركة لا إرادية،

وأمي تزعق: "نادي يا بت لخالاتك، قولي لهم فكري حيسافر، و.." وتدخل خالاتي، كل واحدة شايلة مقطف على رأسها ودخلوا ع القاعة، وأمي من ورائهم تناديني: "تعال اقعد جنب خالاتك، جايبين لك القشدة وياهم.. كُلْ" فقلت:

- أنا شبعان
- يا واد كلْ
- أخدها معايا.. حطيها في القفة.. أكلها هناك.

وأخويا يزعق:

- الساعة بقت عشرة، ياللاّ قبل الدنيا ما تحرر.

وأخواتي البنات تتقدم، ورقية ع القفف واقفة، وأمي تخرج تشيلّ البنات، ورقية تمشي في المقدمة تمسح دموعها بطرف كمها.. وأمي تاخدني في حضنها تبوسني من كل حتة في وشي. وأخويا ياخدني. في ايده.. ونسوان تيجي تبوسني في السكة.. وأمي ورايا ماشية تعيط وأيديها مرفوعة للسما تطلب أن أعود لها سالمًا. ونسوة كثيرات يشاركن أمي في الدعاء.. "إلهي ترجع لها بالسلام.. إلهي ما ينحرقلهاش قلب عليك.. اتجدعن يا ولد.." وأطفال يتعلقون بأذيال أمهاتهم ينظرون لي في تساؤل مستغربين من زحمة أمهاتهم وتبوسه.

وعند مشارف القرية، توقف الموكب، وجاء آخرون.. الكل يسلم، والبعض يبكي، وأختي تزعق لي وعيناها دامعتان، وأخويا ياخدني بجواره، ورقية تهمس في أذني: "أوعى تنساني" وأخي يقول:

- اتجدعن، خليك راجل. أنا سمعت من الولد الغريب أنك ضربت واحد من أهالي المحلة حب يستكردك وياخد منك المقص، وأنت ما حكتليش.
- وإيه يعني؟ نسيت، من الزحمة.

فارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة ودخل بيني وبين البت رقية قائلاً:

- ياللا يا عم جهز المهر، حوّشه، حنجوزك البت رقية، هيّ على قدمك، دي بت شاطرة، كل ساعة عندنا في البيت، ما بتسألش إلاّ عنك.

هذا، ورقية تداري وشها بالشاش، وتقبض على يدي بشدة، وهي تكاد أن تقول: "أنا واقفة.. قول له أنا موافق"... وجذبتني نحوها. ووضعت يديها على كتفي، وإذا بأمي تناديني وتمشي بجواري.

لم تتوقف أمي عن الكلام طول الطريق، وكانت رقية تنصت لكل كلمة تخرج من فمها، وكأنها تنتظر كلمة الزواج، ولكن أمي كانت تزودني بنصائحها، كانت تقول: "امشي مع أكبر منك، أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة.. ما تمشيش إلاّ مع اللي أكبر منك، منه تستفيد..".

لم تكف عن الوعظ طول الطريق، وأردت أن أقول أني عملت بهذا الكلام محاولاً إسكاتها، ولكنها كانت مسترسلة دون توقف:

"خليّ بالك من نفسك، لسانك حصانك إن صنته صانك، وإن هنته هانك. الخلف (العرّة) يجيب لأهلة اللعينة.. ما تشتمش حد عشان ما حدش يشتمك.. امشي في سكتك عدل يحتار عدوك فيك".

مظاهرات طنطا

وفي أوائل الطريق بالقرب من طنطا لم نجد أحد خارجًا من شوارعها.. كان كل شــيء هادئًا بلا حركة.. لا ناس داخلة، ولا ناس خارجة.. لا ناس تبيع، ولا ناس تشتري – وقالــت أمي!!

الله!! هو حصل إيه؟ هي طنطا مالها.. هوا فيه حاجة!! هو السوق اللي عنــد وابــور الجبان ما فيش فيها ناس ليه؟ الناس راحوا فين؟ اللي بيجيبوا ويبيعوا الغلة والسمنة.. راحــوا فين!! الأبواب مقفلة، والشبابيك مقفلة.. همه في المولد؟ المولد لسه ما جــاش.. الله الــشوارع مليانة طوب كده ليه؟ هوه فيه عاركة؟ الطوب مالي الدنيا كده ليه. والشبابيك نص مفتوحة.

وسالت أمي وأجاب أخي.

- أنت مالك؟!! أنت بتسألي على اللي مالكيش فيه ليه.. يمكن يكونوا نايمين.
- نايمين ليه؟ الضهر لسه ما ادنش؟ وعادت أمي إلى الحديث وأخواتي ينظرون في تساؤل.. وإذ بي أسمع أصوات ترن كالرعد.. آتية من بعيد.. أصوات تدوي فــي السماء وملت بأذني لكي أسمع وكلما سرنا خطــوة.. اقتربــت الأصــوات منــا وازدادت قطع الزلط في كل مكان.. في الشوارع والعطف.. وعلى الأرصــفة.. والمحلات مغلقة.. والدكاكين ضلفها مقفولة.. والشوارع خالية حتى مــن الباعــة المتجولين.

كان كل ما بالمدينة مغلق.. لا أصوات ولا نسوة ولا باعة.. ولا أحد سوانا في الطريق وأخواتي تتلفت! ورقية تسأل:

- البلد مالهه كده.. دا مفيش حد.. دي طنطا كل الناس بتيجــي لهــا وتبيــع فيهــا الحاجة.. وأخي يقول ما تمشوا ساكتين يا أولاد.. أنتم مالكم.. مالكم كده؟!.
- والأصوات تقترب وتقترب كالموج.. كالرعد.. وملت بأذني من جديد محــاولاً أن أسمع وكدت أن أقول لأمي: "أسكتي يامه.. أسكتي.. بطلي شوية.. عاوز أسمع." وا.

وإذا بعساكر تملأ الطريق بالقرب من ميدان الساعة.. عساكر كثيــرة واقفــين شــايلين البنادق على الأكتاف وآخرون بأيديهم العصى.. وعلى رءوسهم برانيط مــن حديــد وجنــدي يقترب من حاملي البنادق قائلاً بصوت جمهوري.

- قفي يا وليه أنت وهيه عندك.. قفي باقول لك لأحسن أجي أمرمغك في الأرض وتقف أمي مذهولة..
- إيه ده؟ جرى إيه يا واد أنت وهوه جاك قطع لسانك.

والتف حولنا آخرون رافعين العصى بأيديهم.. ووقفت مدهوشاً.. أنظر في وجوههم وما يحملونه على الأكتاف.. ولم يعطونا فرصة الكلام، بل بادرونا قائلين:

- ياللا يا ولاد الكلب.. ياللا يا مره.

وأمي ترد:

- مره في عينك قليل الأدب.. هو كل واحد لبس حتة بنطلون بيتأمر.. هوا بيروح العسكرية إلا ابن أم.. ابني حايسافر.. رايح يشتغل في المصنع.. هو أنتم واقفين زي زبانية جهنم كده ليه؟
- ويقول أخي:
- إيه يا عسكري أنت وهو؟
- وإذا بالأصوات تقترب، وعساكر تتجمع.. وعربيات مليئة بالعسكر. وناس راكبة قدامهم وعلى كتافهم حاجات بتلمع وأمي تقول:
- جاتكو شوطة.. جاتكو شوطة تلمكم. أنتم واقفين زي قطاعين الأرزاق.. أنتم حاتعطلوا الواد عن شغله..

ورقيه ترد.

- ياللا يامه السيدة نرجع.. دي القيامة رايحة تقوم. وعسكري يقترب وآخر يلعن: يوم مالوش شمس.. يوم أسود.. خدي ابنك يا وليه وامشي..

وأمي تصرخ:

"حاتعطلوا الواد عن شغله".

وتقدم آخر يدفعها جانبًا وهو يقول: "خديه يا وليه من هنا وأمشي، الدنيا كلها واقفة على رجل. وتدخل جندي ثالث موجهًا الحديث إلى زميله قائلاً:

- ما تزقهاش كده يا جدع أنت وهو.. هو أنتم مالكوش أهل؟ دي زي أمكم. وعساكر تتجمع يدخلون وراء بعضهم طوابير.. وأمي تتوسل:

خلي الولد يروح شغله.. خليه يسافر.. دا يتيم.. هيقعد في المحلة لواحده.. وأنا واقف في وسطهم أنظر متلفتاً أتفرس كل من حولي.. متسائلاً.. ورقية تجذبني من جنبهم.. وتقول تعال هنا أبعد.

وإذا بالأصوات البعيدة تقترب وفي وضوح وصخب أكثـر هـذه المـرة.. والعساكر تجري.. ومنهم من أخذ في تصويب البنادق.. وأصبحت الـشوارع كلهـا عـساكر.. وأمـي تتساءل.. وجندي يهمس:

- "خدي ابنك يا وليه من هنا وامشي.. الأزهرية عاملين في البلد دوشة.

وفوجئنا بالطوب ينهال من على أسطح المنازل.. فرفعت رأسي.. ووجدت نساءً تطـل من فتحات الشبابيك.. وسرعان ما جذبتني أمي للوراء وهي تقول:

قطيعة.. قطيعة الشغل وأصحابه.

تعال.. أنا مش مستغنية عنك تيجيلك طوبة، تضيعك، ولا عصاية تاخد أجلك.

توت.. توت.. توت..!! الصفافير تضرب وتضرب، وأتومبيلات تتجمع وعساكر تركب بسرعة وأوتومبيلات تجري.

ووقفنا من بعيد ننظر... وإذا بعالم ترش الملح ما ينزل.. عالم ماشـين ورا بعـض.. وناس محمولة على الأكتاف.. في اتجاه شارع المديرية.. وأعلام مرفوعة.. وعالم لا يعـد.. خيل على أن القيامة قامت والناس كلها ماشيه.. أصوات من الأعماق تجلجل في السماء، وتهز أركان المنازل... تتخللها زغاريد من الشبابيك وهتاف: "يحيا الوفد ولو فيها رفـت" وإذا بـي أجد نفسي مدفوعًا في اتجاه الناس.. ناتشا نفسي من أمي.. وأمي تجري خلفي.. وأخويا يزعق وجاءني صوت أمي "تعال يا ولد تعال يا ولد.. إيه النهار الأسود علينا ده؟ حوش يـا خويـا ياللي واقف.. الواد يتوه مني.. يا خرابي يانا" وأختي خسكية تنادي هي الأخرى، والبت رقية تزعق.. وإذا بصف من العساكر من حاملي العصى.. يقف في الطريق... وأمي تلحق بـي، وتمسكني من يدي.. وعيناها مبللتان بالدموع.. وتخاطبني في صوت متقطع.

- إيه يا وله.. إيه اللي جرالك.. هو أنت شيطان.. الدنيا مقلوبة.. مدوّر الجري على فين؟

هو أنت هناك كده. أنا خايفة عليك.. تعالى قُطُع الشغل وأصحابه.

وأنا في إيدها تسحبني سحبًا، ماشي أبص ورايا وأسمع الهتافات.. وأسمع أخي يقول:

- " تعالوا من هنا.. من الشارع الثاني.. يمكن نلاقي حته ما فـيش فيهـا عـساكر واقفه.. تعالوا من شارع الحلو، يمكن نروح ومانلاقيش حد يحوشنا في السكة".

واتجهنا إلى حيث أشار، وإذا بالشوارع والعطف مليئة بالعسكر حـاملي البنـادق.. ولا أحد من الأهالي.. والعربات تجري.. حاملة ناس متعورة ودمهم سايل.. والـضجة تهـدر... وأمي تصرخ.

- "حصل إيه يا ولاد؟!" وإذا بواحدة تطل من الشباك؟
- "خدي ابنك وامشي يا وليه.. الدنيا مقلوبة.. الناس في الشوارع والأزهر بيهتف والعساكر كلها بتضرب علشان بيهتفوا للوفد وبيقولوا النحاس... يرجع".

وأمام الباب كانت العساكر تملأ الطريق... لولا واحد على كتفه ضبابير عمالة تلمع.. هو اللي أخذنا..

أمي اترجته وقالت له:

الولد حايسافر.. ساعدنا لحسن حايتأخر فنظر لي في عطف ثم أرسل معنا عسكري أمسكني بيده وسار بنا في إحدى الحواري القريبة من المحطة... وبالقرب من المحطة سمعنا الهتافات:

"الشعب.. الشعب.. يحيا الشعب" طبق من فضة ومن نحاس.. إحنا في أيديك يا نحاس..

"حبيب الأمة.. النحاس زعيم الأمة.. النحاس" "إحنا وراك.. يا نحاس"... والأصوات تقترب.. وتصبح أشد صراخًا.. وأمي تنصت تتساءل:

- "إيه ده؟ إيه الغاغة دي كلها؟".

ويجيب أحد الواقفين: "الحكومة لغت الدستور.. وعملت حزب اسمه حزب الشعب زي ما الإنجليز عاوزين".

وآخر يتطوع قائلاً: دول رخصوا علينا القطن.. خربوا بيتنا.. عهدهم أسود وسنينهم سودة"..

وآخر يقول:

- "حايخلوا كل ثلاثة يقسموا المليم.. صدقي قال كده.."

وتعود أمي وتسأل:

- "والناس دول بيصوتوا ليه؟".

فيرد آخر:

- دول ما بيصوتوش.. دول بيهتفوا".
- "بيهتفوا ليه؟"
- "النحاس خليفة سعد".
- "يا حلاوة.. حايرجع تاني.. هما بيطلبوه.. إلهي ينصرهم على صدقي.. إلهي يحمي لهم شبابهم ما دام بيطلبوا الوفد".

ويقول آخر:

- "إحنا طول عمرنا مع الوفد.. ولا ننتخب غير الوفد" وإذا بأصوات ترتفع ودخان يتصاعد.. أوتومبيلات ولعت.. وبنادق تضرب والرصاص يئز في الجو.. والنساء من على أسطح المنازل تصرخ وتستغيث وأمي تلطم:

"آه يا بني حتروح لوحدك فين.. تعال يا واد البلد تاني.. هو أنا مستغنية عنك"

والولد الغريب يقول:

- "لا.. احنا حانسافر، ما فيش حاجة راح تحصل" وأمي تحضنني، وأخي بيبوسني وأخواتي البنات – ينظرن لي من خلال الدموع ورقية تنظر لي هي الأخرى وهي تبكي والباجور يدخل سريعًا ويتوقف في تباطؤ والناس تتزاحم في الركوب والهتافات من بعيد تدوي.. وأخويا ينط من الشباك يحجز لنا مطرح.. وأقعد على الكرسي وأمي تتكلم. وأنا أنصت للهتافات التي تزلزل الأرض: "طبق من فضة ومن نحاس.. إحنا وراك يا نحاس" وقطارات من كل مكان تدخل بسرعة إلى المحطة وتتوقف.. وناس تزاحم في الركوب.. والضجيج يزداد.. ضجيج المسافرين. والهتافات الآتية من الخارج تغطي على هذا الضجيج والقطارات تصفر صفافير متقطعة.. وتزداد الصفافير وتعلو.. وهي تعكس نغمًا حزينًا.. والركاب ينصتون، وإذا بأصوات ترتفع من الشبابيك تهتف على نغم صفافير القطارات:

"تي.. تي.. يحيا النحاس" "تي.. تي.. خليفة سعد" هتافات مطابقة لزميلاتها الآتية من بعيد والنساء يزغردن زغاريد متواصلة.. وانقلبت القطارات كلها إلى هتافات.. وحتى صفير القطارات كان يشارك الهتافات في اللحن في نغم واحد يلهب الحماس. وتلتهب الأيدي بالتصفيق.. وإذا بالجنود يقتحمون المحطة بسرعة حاملين البنادق يتقدمهم رجال على أكتافهم أشياء تلمع.. وأعطوا الأوامر للجنود باحتلال الأرصفة.. وتوجهوا إلى قدام.. وما زالت البواجير تواصل الصفافير.. والهتافات تتزايد من كافة القطارات.. حتى أمي وأخواتي الواقفات على الرصيف أخذن يزغردن.. وأنا واقف أهلل من الشباك كما يهلل الكبار وأهتف مع الهاتفين.

وفجأة، أخذت القطارات ترسل صفافير طويلة حزينة.. معلنة بدء تحركها بأمر من الضباط.. ودقت الأجراس من كافة الأرصفة معلنة بدء سير القطارات التي أخذت تتحرك بطيئة.. بطيئة والهتافات تعلو.. وتسرع وأمي تزعق.

- "انزل يا واد انزل.. الظلم حيروح والنحاس راح ييجي" وأخي يجـــري بمحـــاذاة الشباك وأخواتي يجرين وراءه والقطار يصفر في نغمة رتيبة.
- "تي.. تي.. النحاس" ورءوس تطل من الشبابيك تردد الهتافات.. ورقية تجري في المقدمة يدها في يدي.. والقطار يسرع وأمي تلوح بيدها بعد أن أعياهـــا الجـــري وتركت يد رقية بصعوبة واندفع القطار.. بعيدًا.. ونظرت من الشباك وعلى البُعد. كنت ألمح أمي وأخواتي يلوحن بأيديهن حتى حجبتني عنهن الأشجار والمباني..

في القطار

كان القطار مزدحمًا والركاب معظمهم من العمال، ولا مكان لقدم وطرقات القطار مزدحمة.. كل واحد ممسك بجلباب الآخر.. والعرق يتصبب من الوجوه.. كل واحد منهم يحاول أن يطل من الشباك.. وقفف مترصصة قفة فوق الأخرى.. وكفت الأصوات عن ترديد الهتافات.. وحل التعب بالناس.. وحاول الواقفون أن يريحوا أنفسهم، فلا مكان للراحة.. الدكك مليانة.. يا دوب كل واحد قاعد بجنبه.. والازدحام على أشده... وحاول البعض الجلوس على القفف... فتعالت أصوات الاحتجاج والشخط من كل مكان:

- "قوم يا خويه أنت وهوه حاتقرفتوا لنا العيش".
- "محالب المخلل حاتتكسر".
- "أنتوا بتزعقوا كده ليه.. دي كلها ساعة ورايحين ننزل:
- "كفايا بقى دماغنا وجعنا".
- "خمسة لأجل النبي يا جدعان يا هوه"
- "ابعد يا جدع أنت وهوا.. أبعدوا عن الشباك.. خلوا رحمة ربنا تنزل".
- "رحمتك يا رب اللهم ارفع غضبك عنا وارض عنا يا كريم".
- "وسع يا جدع أنت وهوه شوية" ميل على زميلك كده".

وتحدث ضجة:

- "ما تقعد ساكت.. أنت حاتستولى علينا".
- "ما تعرفوش ربنا إلا وقت الزنقة.. هوا أنت موش شايف"!!
- "شايف إيه؟!".
- "الرحمة هو أنتوا عاوزين تقولوا إيه.. هوا علشان مانتوا قاعدين جنب الهوا يعني.. تعالوا هنا وشوفوا".
- وآخر يقول:
- "سيبك منهم".
- "ماتوسعوا شويه".

- "حانوسع فين ما انتاش شايف الباجور على بعضه".

يرد الولد الغريب:

- "دا فيه عربيات ورا فاضية. ليه الناس ما بتركبش فيها.. ما فيهاش غير شوية أفندية لابسين طرابيش، شفتهم بيركبوا في المحطة ومعاهم نسوان عينيها خضر وجتتهم عريانة".
- "وأنا شفتهم في المحطة ما كانوش بيهتفوا.. كانوا واقفين يبصوا من الشبابيك، ولما الهتافات زادت رزعوا الشبابيك قفلوها".

فرد أحد الواقفين:

- "دول أصلهم من الأغنيا.. من اللي عندهم. أرض، حايهتفوا ليه، هما غلابة زينا؟ دول اللي بيحجزوا على الأرض لما الفلاحين يتأخروا عن دفع الإيجار".
- فقلت:
- "يعني هما دول البين اللي كل الدنيا بتدعي عليهم؟".

فأجابني أحدهم!

- "أيوه يا سيدي هما دول.. ما يرضوش يركبوا ويانا.. دول ما بيعرفوناش.. يخافوا على هدومهم تتوسخ مننا.. وعشان كده ما يهتفوش.. اللي كانوا بيهتفوا هما اللي طول عمرهم بيدعوا في صلاتهم إن ربنا يريحهم منهم.. دي العساكر جت مخصوص على الأرصفة لأجل تحميهم..

وجلست في مكاني، وملت على الشباك وتصورت أمي وهي تلوح لي بيدها وقلت في نفسي زمانها بتعيط علشاني"...

وإذا بالولد الغريب يهزني من ذراعي!

- "جبت العصاية" قعدت تقول حاجيب معايا عصايا.. وأديك لا جبت ولا حاجة.. حاتقول لعبد العظيم إيه"؟
- حاقول له إيه؟ حاقول له طنطا مقلوبة، والدكاكين كلها مقفولة.. والأزهرية عمالة تهتف في البلد.. حاقول إيه.. حاقول له نكتب شكاوي.. نبلغ الحكومة والنيابة.. العيار اللي ما يصيبيشي يدوش.. عندنا في البلد بيعملوا كده.. لازم إحنا كمان نعمل كده.. ولا يهمك الظلم حايروح، والنحاس جاييجي".

كنت أتكلم بينما القطار يطوي الأرض طيًا ويزيد من سرعته.. وسألت نفسي: ليه الباجور بيجري.. بيجري على آخر الشوط كده هوا مستعجل ليه! الواحد مش شايف الأرض

من السرعة.. مش مالك يشوف الأرض مزروعة إيه؟ هوا حد قال للباجور يجري.. يمكن حد قال له.. علشان كل واحد يلحق يشوف شغله.. يا خبر أبيض آمال ليه كل شيء في بلدنا ماشي على مهله.. الحمير ماشيه بالخطوة.. الجمال والجاموس ماشيين بالخطوة.. والرجالة ماشية هي كمان على قدهم.. موش معقول يسيبوهم علشان يفضوا من عليهم الأحمال، في القرية كل شيء يسير على مهله.. أما هنا.. فكل شيء بيجري بسرعة.. الباجور يسرع والعمال تطلع من البيوت تجري.. والباعة المتجولين شايلين الحاجات على رءوسهم وعمالين يمدّوا.. والأوتومبيلات والحناطير شايلين ناس وعمالين يجروا.. وتساءلت: أنا كنت مستعجل ليه؟ ما كنت استنيت كمان يومين في البلد بعيد عن الجري والدوشة.. وأخيرًا قلت: وعلى إيه، مهما قعدت هارجع تاني.

أحسن كده اللي جيت.. مش أمي قالت الخلف "العرّه" يجيب لأهله اللعينة.. أحسن اللي جيت علشان ما حدش من الرؤساء يشتمني ولا يضربني..

ونظرت من القطار ووجدت من بعيد المباني العالية والمداخن المتعددة والدخان يتصاعد منها في الهواء.. والمباني التي تنشئها الشركة.. وعمال المباني واقفين على السقالات يعملون في جد.. رأيتهم من الشباك والقطار يزحف.. وقلت في نفسي كل هذه المباني لا تخلو من العمال.. عمل متواصل.. عمال تعمل بالليل، وآخرون بالنهار لا مكان فيها لأحد يرتاح.. مين عارف حصل إيه دلوقت جوَّا العنابر: حد مات؟ حد متشعلق في السقف والدم بيشرشب على المكن ما هو بيموت كل يوم عمال آدي إحنا رايحين نكتب شكاوى أول ما حاقابل عبد العظيم راح أقول له.. وحاقول للشيخ علي لما أروح له البيت.. حاقول له الواحد هنا بيموت ولا موتة الكلاب، لازم نبلغ النيابة عشان المحامين تيجي وتقف في المحكمة وتدافع عن العمال ونقف إحنا كمان نشهد..

وتوقف القطار ونزل العمال سريع.. كل منهم يحمل قفته وتوجهت نحو البيت لأستريح من عناء السفر استعدادًا للعمل بالليل.

أحلام

كنت أظن عندما دخلت المنزل أن أحدًا لم يشعر بي.. وأن وجودي لا يحس به أحـــد – فسواء غبت أم حضرت.. فلا أحد يشعر بي.. ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه ولم يخطر علـــى بالي طوال الطريق.

كنت أظن أنني سأدخل المنزل وأدخل غرفتي وأغلق بابها خلفي، كما كان يحدث عـــادة وأنام، وأصحوا كلما حان موعد الذهاب إلى العمل.

ولكن عندما دخلت المنزل فوجئت بالأطفال يطلون من شبابيك الدور الثـــاني ويهللـــون عند رؤيتي داخلاً بقفتي.. ومن خلفي الولد الغريب والولد السيد الصفطي يحملان قفتيهما أيضًا وظننت في أول الأمر أنهم يهللون علينا.. لو معي نقود لكنت أحضرت شيالاً يحمـــل قفتـــي ولبدوت في نظرهم شخصًا محترمًا، أنهم بلا شك يحبون المظاهر، أنهم لا يحملون لنـــا مـــن العواطف والاحترام مثل ما يحملون لبعضهم البعض.. أنهم ينظرون لنا باشمئزاز باعتبارنـــا غرباء.. إن الأمهات مسئولات بلا شك عن كراهية الأطفال لنا من كثرة ما يتناولننا بـــه مـــن أحاديث أمامهم.

وفتحت الحجرة وإذا بالأطفال تتقدمهم أمهاتهم يقفون بالباب.. وأمهاتهم يدخلن قائلات:

- "بالسلامة يا ولاد والفرحة تطفح على وجوههن والبسمة تعلو شفاههن.. كنتوا فين يا ولاد.. إحنا قلبنا عليكم البلد، كل ما نخش ونطلع نخبط على الباب ما نلاقـــيش حد.. من يوم ما طلعت لكم العفاريت.. مش كنتم تدونا خبر أنكم مروحين علشان نشيلها؟".

كان الأطفال ينصتون لحديث أمهاتهم وكانت الفتاة التي تعودت أن تأتي لإيقاظنـــا مـــن النوم تقف بعيدًا عند الباب، تلك الفتاة التي بكت يوم أن زرنا المرضى في المستشفى.. كانـــت عيناها لا تفارقنا، ونحن واقفون نجيب على أسئلة الأمهات وكيف سافرنا لـــيلاً دون أن نجـــد أحدًا ساعة السفر.. كانت تنظر في صمت وهي مستندة إلى الحائط وبين الحين والحين ترفـــع خصلات شعرها الناعم المدلي على جبينها.. وتبتسم بين الحين والحين واضعة راحتيها علـــى فمها كلما سمعت شيئًا يضحكها في حديثنا.. ولا تكف عن اللعب في شعرها ورفعه عن جبينها في دلال.

وخطرت لي فكرة كثيرًا ما سمعتها من أمي: "من قدم السبت لقي الحد قدامه".. لقد أنقذنا هؤلاء الناس يومًا، ووقفوا بجانبنا يوم أن طلعت لنا العفاريت.. لقد أضاعوا لنا اللمبة، وكنسوا حجرتنا وسقوني "طاسة الخضة" وحصنوني يومها. هم اليوم يسألون عني ويتوّددون علي.. لم لا أقدم لهم شيئًا مما أحضرته معي؟ لم لا أقدم لهم الأرز المدسوس والذرة المشوي؟.. أو أقدم لهم قشطة من التي وضعتها أمي في القفة. لابد أن يفهموا أننا لسنا "لمامة" كما يقولون عنا.. سوف تتغير نظرتهم لنا، فأطلب منهم أن يأكلوا معي مما أحضرته.. نأكل سوا عيش وملح.. العيش والملح ما يخونه إلا ابن الحرام.. أقول لهم اتفضلوا.. ولكني ترددت، خشيت أن يرفضوا أن يأكلوا من يدنا شيئًا.. أنهم في البندر ربما لا يحبون أن يأكلوا مما صنعته يد الفلاحات في الريف.. الفلاحات اللاتي يعشن طول يومهن في الوحل وأيديهن ملطخة بالسبخ.. لو قالوا هذا فماذا أقول؟ سوف أقول لهم: أن أمي قبل أن تبدأ في العجين تغسل يديها وأخواتي كذلك.. أنهم على أي الحالات سوف يتأففون.. وقلت في نفسي هذا لا يمنعني من أن أقدم ما عندي.. أنهم قد يرفضون الأكل أمامي ليبينوا أنهم ليسوا بحاجة إلى ما يقدمه أمثالي من الغرباء.. وعندئذ سأتحايل عليهم.. وقلت:

وإذا رفضت النسوة سوف أعطي للأطفال فالأطفال لا يرفضون أبدًا.. أنهم يتطلعون دائمًا لكل ما في يد الغير.. هكذا كنت أفعل أنا عندما كانت والدتي ترفض أخذ شيء من أحد، كنت أبادر أنا بأخذه.. وبعدها كانت أمي تقول لي هات.. هات لما أدوق، وكثيرًا ما سمعتها وهي تثنى أمامي على من طهت الطعام الذي كنت آخذه.. فلمّ لا أفعل وأتقدم بالعزومة.. أقوم بالواجب.. سوف تغمز الأمهات لأطفالهن ألا يأخذوا مني شيئًا.. ولكنهم سوف يأكلنه مع الأطفال عندما يخرجن.. وسوف يثنين على أمي في غيبتها.. إن أمي عندما عملت الفطير كانت تعلم أن غيري سيأكل منه.. وهي لذلك تهتم بضاعته، فهي تحب أن يثني الناس على عملها.. وسوف يثني عليها هؤلاء النسوة عندما يأكلن مع أطفالهن الفطير الذي اهتمت أمي بعمله.

وجمعت أطراف شجاعتي وعزمت عليهن.. قائلاً: "اتفضلوا يا جماعة" تمامًا مثلما كانت أمي تفعل عندما كانت تقدم شيئًا لكل من يزورها.. وتلكأت النسوة وأسرع الأطفال بالجلوس.. وألححت عليهن.. وأخيرًا جلسن.. ولكن الفتاة رفضت وظلت واقفة رغم إلحاحي.. وكانت عيناها تتبع يدّي وهي تخرج ما بالقفة من أشياء.. حاولت أن أتباهى بما أقدمه.. وأبين لهن أننا لسنا "لمامة" كما يظنون.. وشعرت بالاعتزاز بما قدمت.. وأخيرًا أكلت النسوة وبان واضحًا على وجوههن استحسان الطعام الذي قدمته.

ومنذ ذلك اليوم صرن يعاملنني وكأنني أحد أبنائهن، وكثيرًا ما كن ينـــادينني للجلـــوس معهن في حجراتهن.. كما بدأت غرفتي لا تخلو من الأطفال وبعد فترة ليست بالقليلة.. وبعـــد أن تناولنا الطعام في ذلك اليوم الذي قضيناه معًا في أحاديث شتى عن القريـــة وعـــن أمـــي وأخواتي وعن طنطا وما فيها وعن السيد البدوي.. هممن واقفات وهن يرددن:

- ياللا يا ولاد.. يالاَّ سيبوه يرتاح.

وقالت إحداهن.

- ريح يبني علشان تروح شغلك، "حتقف طول الليل على المكنة".

وخرجت النسوة والأطفال أمامهن، وبقيت الفتاة واقفة.. وكدت أن أقول لهـــا اتفـــضلي، ولكني خشيت أن ترفض، وكنت أريد أن أعطيها من الفطير والقشطة فهي لم تأكل مثلما أكـــل الآخرون.. ولكني تراجعت، فقد كانت أمها لا تزال واقفة في الحوش.

وأخيرًا أقفلت باب الحجرة واستعد الولد الغريب والولد السيد الصفطي للنـــوم وأخـــذت مكاني بجوارهما قائلاً:

- "لازم تصحوا قبل الميعاد أحسن تروح علينا نومة".

وحاولت أن أنام ولكن صورًا عديدة حالت بين النوم وبين عيني وحاولت التخلص مـــن تلك الصور فوضعت قطعة من القماش على وجهي، وتقلبت على وجهي مرة أخرى.. ولكـــن الصور كانت أقوى من أن تزاح.. كانت صورة أمي في المقدمة.. تصورتها وهـــي تجـــري خلفي بين الجنود بعد أن انتزعت يدي منها وجريت نحو الجموع المحتشدة عنـــد المديريـــة.. لأعرف حقيقة ما يقال.. وكان الدافع لها هو الخوف.. كانت تخاف أن أتوه وسط هذا الملـــك المحتشد.. ثم تصورتها والجنود يدفعون بها جانبًا وهم يوجهون لها السباب وهـــي لا تبـــالي بهم.. وتصورتها وهي تتوسل إلى الرجل الذي كان يضع على أكتافه أشـــياء لامعـــة وهـــي تصيح: "مالكم واقفين زي زبانية جهنم كده ليه، ما تسيبوا الناس تروح شغلها".. وتـــصورتها وهي واقفة على المحطة تقول: "انزل يا واد... انزل الظلم حايروح والنحاس رايح ييجي".

وسألت نفسي عما كانت تقصده أمي بهذه الكلمات.. يعني إيه الظلم حايروح والنحـــاس راح ييجي؟ يمكن تقصد الهتاف ضد صدقي وضد الإنجليز وعلشان كده فرحت.. ما هو الحاج محمود الصعيدي والرجالة اللي معاه كانوا بيتكلموا في الموضوع ده في البلد وأخويـــه كـــان قاعد.. كانوا بيتكلموا عن رخص القطن وعن إلغاء الدستور.. وعن حزب الـــشعب.. وأمـــي كانت قاعدة من بعيد تسمع ولم يكن باديًا عليها أي شيء من فرح.. لماذا زغردت أمي علـــى المحطة.. هل زغردت لما سمعت الهتافات أن صدقي راح ينشال والنحاس راح ييجي؟ وهـــل

فرحت لأن القطن راح يغلا؟ هل فرحت لأن الأرض اللي كان صدقي راح يديها للملك رايحة تبقى لأصحابها؟.. وأمي راح تأخد إيه؟.. حتاخد حتة أرض؟

وأم الولد الغريب والولد السيد الصفطي رايحن ياخدوا إيه هما روخرين.. حتة أرض.. لاحنا ولاهما عندنا أرض.. ما عندناش حاجة، وقلت في نفسي: يمكن حايدونا! وعلشان كده هيًّا فرحانة لما سمعت الهتاف إن صدقي ينشال.. والإنجليز تطلع... وأمتى الحاجات دي راح تحصل؟ النهاردة؟ يعني أمي لما حاتروّح حاتاخد حتة الأرض؟ مش معقول.. وهوّا صدقي راح يرضى..؟ أمال هو جايب العساكر دي ليه وعمال يضرب في الأزهرية.. وهي طنطا وحدها اللي حاشتيل صدقي والإنجليز وياه؟

أمال المحلة الكبيرة ما فيش فيها أي هتافات ليه؟ كل حاجة فيها ماشية لا بيوت ولا مصانع مقفولة، وكل الناس رايحة وجاية في هدوء.. هوّا ما فيش هنا أزهرية؟ لو كان فيه لكانت المحلة كل شيء فيها وقف.. وقلت بقى طنطا لوحدها حاتشيل صدقي والإنجليز..؟ مش معقولة..

والإنجليز حاتطلع كده بالدعاء.. لو كانت المظاهرات دي في كل حتة.. لَوْ في المحلة وفي كل مكان.. كان صدقي حايلاقي عساكر يجبها منين علشان تسد. لو العمال تشترك والمصانع تقف والدكاكين تتقفل والبيوت لا حد يطلع ولا يخش.. حايبقى صدقي يعمل إيه؟ وحاتعمل إيه الإنجليز وياه؟ حايجيبوا عساكر منين تقضيِّ كل البلاد؟... وساعتها لما ما يلاقيش حد معاه– حايتغلب وينكسر.. هيَّا أمي مش كانت بتدعي باستمرار وترفع إيديها للسما وتقول: اللهم ارفع غضبك عنا.. يعني الواحد يقدر يقول إن ربنا رفع الغضب وراح ياخد الببين اللي كان بيحجز كل يوم على الأرض.. يعني راح ياخد أصحاب الأرض.. والأرض حاتتوزع؟ وأمي.. راح تاخد أرض.

لو حصل كده يبقى الواحد راح ينبسط.. يعني حايموت كل الظلمة.. ولو حصل كده يبقى الواحد كده لما يروح الشغل لا حايلاقي مدير يخش المصنع يضرب بالشلّوت.. ولا رئيس يمنع العمال من الذهاب للدورة.. وحاتيجي النيابة وتحقق لما المكن يموّت حد من العمال..

لو حصل كده تبقى أبواب السما انفتحت وكل شيء أصبح عال..

وإذا بالصور تتداخل أمام عيني.. وتبهت الأفكار.. وتنقطع.. وتختلط في رأسي.. ثم غبت تمامًا.. حتى نمت دون أن أشعر.

فكري الخولي

الواحات الخارجة ١٩٦٢


الرحلة
(٢)
فكري الخولي

الإهداء

إلى الكاتب والمناضل صلاح حافظ.. الذي شجعني على كتابتها قبل أن أخطها على الورق ونحن في معتقلنا النائي ثم قدمها للقراء بعد ربع قرن عاشته في الظلام وكنت أود أن يقدم الجزء الثاني أولاً..

وإلى الشاعر المناضل السوداني صلاح أحمد إبراهيم الذي لم ألتق به حتى الآن، تقديرًا لدوره في صدورها ومعتزًا بدوره ودور الشهيد الشفيع وأرملته المناضلة فاطمة أحمد إبراهيم في مسيرة رحلة الشعب السوداني وطبقته العاملة..

وإلى المفكر والمناضل عبد العظيم المغربي الذي تبنى قضية صدور الرحلة لأنه يتبنى كل ما يدعم مسيرة الحركة العمالية.

وإلى الكاتب المناضل سعد زهران وزوجته لدورهما الذي لولاه ما صدرت الرحلة في شكلها الأخير..

وإلى فاروق خلف الإنسان والشاعر والذي ساهم معنا في إخراج الرحلة إلى النور..

وأخيرًا وقبل كل شيء إلى كل المناضلين من أجل قضية الشعب وقضية الطبقة العاملة وقضية الإنسانية..

وإلى اللقاء في الجزء الثالث من الرحلة..

فكري الخولي

(١) نكتب شكاوى

صحوت من النوم متأخرًا على دقات متوالية على الباب وكانت الطارقة الشابة التي تعودت إيقاظي. وعندما فتحت الغرفة تركتني ذاهبة وهي تلوح بيدها قائلة أسرع الوقت متأخر ولم تمر لحظة إلا وعادت قائلة كنتم ستتأخرون عن العمل لولا أن أمي نبهتني.. أسرعوا، الوقت متأخر.. أيلزم لكم شيء؟ لقد وصتني أمي أن أنظف لكم الحجرة قبل أن تخرجوا..

كانت تتكلم وهي مستندة للحائط، وقد أدركت أنها لم تأكل مما أتيت به من بلدتي فأسرعت بإعطائها قطعة من الفطير.. وتمنعت في بادئ الأمر.. ثم عادت فمدت لي يدها.. ووقفت تأكل في نهم.. وبعد أن أحضرت كل ما يلزمني للشغل، كدت أن أسألها عن اسمها ولكن شيئًا ما قد منعني، وقلت في نفسي سوف أعرف طالما بقيت هنا.. سوف ينادي أخوها.. إن لم يكن اليوم فغدًا.. وددت لو أبقى لأستريح من عناء السفر، ولكن تلهفي لرؤية عبد العظيم وإبلاغه عما رأيت في قريتي وما سمعته قد أنساني التعب، كنت متشوقًا لرؤياه مثلما كنت مشتاقًا لرؤية أخي.. وأمي.. وكل من أحببتهم في قريتي، وإذا بالولد الغريب يصيح – لقد تأخرنا.. وتقدمت الفتاة.. تقدمت إلى الداخل وبدأت الكنس وعرضت عليها أن تبقي المفتاح معها ولكنها رفضت وأصرت على الرفض قائلة.. إن أمي لم تأمرني بذلك. دقيقة واحدة وتأخذه معك.

فأسرعت بفتح الباب وحيتني قبل أن أغلقه وبدت لي وهي عارية الرقبة موردة الخدين لامعة الشعر كأنها قمر.. وتردد صوتها في فناء البيت.. مع السلامة..

خرجت من البيت وصوتها يرن في أذني وخرجت من العطفة ذات البيوت الأربعة إلى الشارع وإذا بي أجد العمال تخرج من كل مكان ذاهبين للعمل كل منهم في يده منديل الأكل المربوط، متشابكي الأيدي يتطلعون خلفهم كلما تقدموا خطوة.. العمال تسير على جانبي الطريق بملابسهم المتعددة الألوان في اتجاه المصنع، كانوا يسيرون كأنهم آتون من رحلة شاقة. يسيرون على مهل وعلى الوجوه كآبة، وازدحمت الشوارع بالعمال الآتين من كل مكان، وأسرعت الخطى وإذا بي أجد نفسي وسط تلك الحشود أسير كما يسيرون، متباطئ الخطى، ومرغمًا حاولت أن أدفعهم جانبًا، لأفسح لنفسي الطريق للسير، وكان الدافع هو

الرغبة في الالتقاء سريعًا بعبد العظيم لأتحدث معه عن كتابة الشكاوى.. شكاوى للحكومة.. زي ما بيعملوا الفلاحين في بلدهم.. همه بيكتبوا عن رخص القطن.. وعن الدستور.. واحنا نكتب عن قتل الآلات للعمال.. وعن الرؤساء اللي بيمنعوا العمال يروحوا الدورة وإرغامهم على المشي حافيين.. وددت لو أقول لهم هذا ولكن شيئًا ما قد منعني لعدم معرفتي بهم – كانوا سائرين في صمت كصمت القبور، لا ضحكة، ولا بسمة على شفاههم بل غيظ وألم مكتوم وجز على الأسنان كما لو كانوا يتوعدون الرؤساء، كما يتوعدون أهالي المحلة بالتربص بهم، وقد تأكد لي هذا بعد أن سمعت أحد العمال وهو يهمس في أذن الآخر.. هل أحضرت العصاية؟ هل أحضرتها من البلد؟

– أيوه.. أحضرتها.. ولكن حتى الآن مش عارفين نشيلها إزاي.. ورد الآخر:

– حنجتمع وبعد الاجتماع حنعرف نشيلها إزاي..

– متى..؟

– ما انتش عارف؟

– لا.

– بكره راح تعرف

– هاعرف إزاي؟

– سوف نقول لك.

وعند سماعي هذا عدت بذاكرتي إلى ما قبل هذا اليوم، إلى الكلمات التي قيلت في بيت الشيخ علي عند أول اجتماع بمنزله، يوم هجوم أهالي المحلة على العمال، يوم أن غدروا بهم، وبعد أن تصدى عبد العظيم لهم وساعده الشيخ علي، عدت بذاكرتي إلى هذا اليوم وإلى ما قاله عبد العظيم.

– إحنا مش حانبدأ بالعدوان.. مش حانكون زيهم.. إحنا حاندافع عن أنفسنا لما يبدءوا همه بالعدوان..

وتذكرت قول الشيخ علي:

– لازم نتربص بهم زي ما بيتربصوا.

وقلت في نفسي.. لما نجتمع حاقول لهم نكتب شكاوى، وحاقف جنب عبد العظيم في قوله:

– إحنا مش حانبدأ بالعدوان.. إحنا حاندافع عن أنفسنا.

وعلى بعد خطوات من المصنع كانت الأصوات ترن في أذني، أصوات الباعة المتجولين، أصوات عديدة متتالية.. كانت أصوات النساء هي الغالبة وكل منهم يحاول أن

يغطي بصوته على الآخر، وكلما اقتربت كما زادت الأصوات وضوحًا.. وكنت أسمع بين الحين والحين أصوات أطفال صغيرة، لا يتجاوز عمر الواحد منهم السادسة أو السابعة، وعندما اقتربت إذ بي أجدهم واقفين بجوار أمهاتهم ممسكين بأيديهم حزمًا من الفجل والجرجير يلوحون بها في وجوه العمال الواقفين للشراء وتأملتهم ولم يكن باديًا عليهم أنهم من الغرباء بل من أهالي المحلة، وقلت في نفسي – لن يضربونا وهمه اللي بيستفيدوا.. امال هم ليه راخرين بيشتركوا في عملية الضرب؟

أسئلة كثيرة محيرة.. فلم يقولون عنا إننا غلّينا عليهم السعر وهم اللي بيبيعوا – بيبيعوا لنا.. لم أجد إجابة على ذلك.. وإذا بصوت يدوي.. وكان هذا الصوت هو صوت صفارة المصنع، معلنة فتح الأبواب لدخول الوردية الثانية التي تبدأ من الثامنة مساءً إلى السابعة صباحًا، وأسرعت الخطى وسط تلك الحشود في الاتجاه للداخل.. كان الشوق لعبد العظيم وللعمال المجاورة لي على المكن هو الدافع.. كنت أسير متأملاً الوجوه وكنت أشعر أنني تغيبت عنهم لأكثر من عام.. كان كل شيء يبدو لي غريبًا، ودخلت العنبر ولم تحتمل أذني الضجيج.. ضجيج الماكينات.. واتجهت فور وصولي وإذا بأيدٍ تلوح، وأيدي تمتد بالسلامات، كل منهم يحاول أن يسلم على الآخر.. في شوق كالغائبين عن بعضهم سنوات، وأصوات ترتفع بالتهليل وكلمة "هو" تزلزل الجدران.. عمال النهار تهلل بانتهاء يوم العمل، والبسمة تعلو شفاههم وهم يسلمون على عمال وردية الليل. وبدأ كل يهمس في أذن الآخر يشكو له مما رأه طوال يوم العمل من تعسف الرؤساء وخناقات أهالي المحلة المتوالية مع العمال.. ووقفت على الماكينة وإذ بزميلي العامل يحدثني عن المدير وعن مروره اليوم واعتدائه على العمال وقال لي:

- خد بالك.. خد بالك لأحسن الغرامات كتيرة.. كل ريس ماسك دفتر وطول النهار بيمروا على الماكينات بيكتبوا الأسماء.. اللي بيعطوه لنا باليمين ياخدوه بالشمال.. عايزينا نروح آخر المدة من غير قبض.. قلت وأنت عملت إيه؟
- هاعمل إيه أنا واخد بالي، أمي قايله لي: اللي يضربك على خدك اليمين إعدل له خدك الشمال.. أكل العيش عايز كده.

وكدت أقول له ما تكتب شكوى.. ولكنه لم يمهلني واسترسل قائلاً.. الناس بتوع المحلة اللي متعلمين الشغل إتلموا كلهم مع بعض في العنبر، ولما كانت ماكينة تتعطل ونروح نقول لهم تعالوا صلحوها كانوا يرفضوا.. رفضوا الشغل واستمروا واقفين لما حضر المهندس شحاتة.. ولم يكن حد منا واقف معاهم، وبعد ما تكلموا معاه. جزء منهم خرج والآخر بقي.. كانوا بيتكلموا على زيادة في الأجر، وكانوا عايزين ياخدوا سبعة صاغ في اليوم واحنا بناخد

خمسة تعريفة. ولكن المهندس رفض وقال لهم مرتبكم كويس.. كفاية عليكم الماهية اللي أنتم بتاخدوها.. أنتم بتاخدوا أربعة صاغ وغيركم بياخد خمسة تعريفة.. إحمدو ربنا أنتم أحسن من غيركم.. قال لي هذا ولم يكمل وتركني بعد أن جذبه من جلبابه أحد العمال وخرج ملوحًا لي بيده. وخلعت جلبابي وقبل أن أضع يدي على الفرامل تفحصت الماكينة خوفًا من أن يكون بها مسامير مفكوكة وعدت ونفخت جلد ذراع الماكينة وبعد أن تأكدت من سلامتها من أخطار تؤدي إلى إتلاف الأقمشة أو موت من يعمل عليها. عدت وأدرتها دون خوف وتطلعت خلفي وإذ بي أجد الماكينات المجاورة لي متوقفة والعمال يعملون في جهد في أخذ ولضم الفتل واتجهت إلى هناك أتفحص المكن خوفًا من أن يكون به شيء من التلف يؤدي إلى هلاكهم مثلما مات العامل الذي كان قبلي.. وإذا بالولد الغريب آت من بعيد يجري ووقف بجواري وقال:

- أنا سمعت من العمال أن أهالي المحلة وقفوا يطالبوا بزيادة لنفسهم والشركة رفضت وفيهم عدد كبير روّح ومنهم العامل بتاع الفتلة اللي أنت أصبته.

قال هذا وجرى كان كل شيء يجري، العمال تجري والميكانيكية تجري والماكينات تسرع، وعجلاتها تدور والسيور تهتز سريعًا، وعمال اللحم يجرون في الطرقات، الكل يعمل في جهد آتين من بلادهم في شوق للعمل بعد أن رأوا أهاليهم وجاءوا مطمئنين كل واحد جايب كل شيء وياه لكل المدة "خمسة عشر يومًا" وسوف يرجع يجيب الأكل من جديد وهيقبض ويعطي الفلوس لأهله يدفعوا منها إيجار الأرض.

ووقفت أتأمل كل الوجوه وأنا واقف على الماكينة وإذا بي أجده واقفًا كما جاء من بيته واقفًا بجلبابه الأسمر ذي الخطوط الرقيقة الرفيعة البيضاء، وإذ بي أجد نفسي مدفوعًا نحوه بعد أن تأكدت من أن أحدًا من الرؤساء ليس قريبًا، ومددت يدي فحياني في شوق واسترسل في حديثه مع من كان واقفًا معهم.. كان يتحدث بصوت عال.. وقد سمعت من خلال الضجيج قوله:

- كل واحد جاب عصاية يشيلها معاه.

وآخر يرد:

- انتم ليه قلتو لنا...

وإذ بأحد الرؤساء يأتي من بعيد والعمال تلاحظه فيختفوا وراء الماكينات مطاطئين ظهورهم، وآخرين وقفوا على الماكينات يختلسون النظر للرؤساء.. وبعد فترة ليست قليلة من بدء العمل تجمع العمال، وبدأوا يتحدثون عما حدث في الصباح. قال أحدهم:

- شايفين أهو ربنا ريحنا منهم.. بيطلبوا زيادة لنفسهم، الواحد منهم بياخد أربعة صاغ في اليوم ويطلب كمان، أمال احنا نعمل إيه.. الواحد منا زي الفحل وبياخد خمسة تعريفه.

فرد آخر

- "هو احنا زيهم.. دول يا عم متعلمين طول عمرهم بيشتغلوا في النسيج".

فرد آخر:

- "هو إيه الفرق بينا وبينهم دلوقت"
- "الفرق إنهم هما اللي علمونا.. مش احنا أول ما جينا لقيناهم هم اللي واقفين على الماكينات.. وهم اللي كانوا يمسكوا الواحد فينا يوروه الماكينات تدور إزاي.. وكمان همّه اللي علمونا إزاي نلضم الفتلة في الإبره، فلازم يطالبوا بزيادة.
- واحنا هنعمل إيه أمال.. هانطلب إحنا كمان.. ما احنا اتعلمنا.
- هوه أنتم قاعدين عمالين تتكلموا ليه.. أنتم شايفين إدوهم حاجه.. ما هم طلبوا.. أهم رفضوا يشغلوهم.. دول عاملين زي السمك بياكلوا في بعضهم.. إحمدوا ربنا اللي وجدتوا لكم شغلة.
- نسكت يعني إيه؟ ما نطلبش..! نفضل كده ساكتين..! نشتغل من الصبح لنص الليل بخمسه تعريفة..؟! هم ما دام بيطلبوا إحنا كمان نطلب هيحصل إيه؟.. هيفصلونا.. مش معقول.. أمال هم جايبين المكن ليه..؟ هم جايبينه علشان يوقفوه؟.. لما يروحوا كل العمال هيشتغلوا إزاي..

وقلت في نفسي.. يا سنه بيضه.. الواحد لما يجيله فلوس زيادة حتى ولو أربعة صاغ زي بتوع المحلة.. كده يعني الواحد يقض جنيه إلا أربعة صاغ في الشهر وأمي تزغرد وقلت:

- ليه إحنا كمان ما نطلبش..؟ لازم نطلب.. وبدأت أشاركهم الحديث حول ضرورة المطالبة بالزيادة وانقلب الكلام والحديث خلف الماكينات حول المطالبة بزيادة الأجر لأنه لا يكفي.. وقد لاحظ الرؤساء ذلك وبدأوا يمرون في العنبر.. يمرون والشرر يتطاير من عيونهم ويلوحون بالدفاتر التي بأيديهم كلما توقفوا بجانب أحد العمال..

وقلت في نفسي:

- هم ليه كده النهارده بيجروا ويبصوا للعمال.. هم عايزين منهم إيه.. سمعوهم بيتكلموا عن المطالبة بالزيادة علشان كده بيدوروا جري في الطرقات ماسكين الدفاتر بيحاولوا يخوفوا بيها العمال.. وقلت:
- وإيه يعني غرامة.. هي الغرامة هتعمل إيه.. الواحد منا بيشتغل.. هو الواحد ضامن عمره.. الواحد بييجي من بيته شايل رغيفين تحت باطه ومش عارف هوه هايرجع سليم والا ما يرجعش.. هايروح البلد ولا ميروحش ويموت ولا له ديه.. ناس بتيجي وناس بتروح وعلشان كده يمكن الشركة مش عايزه تدي فلوس أكتر للعمال.. لو كانت كل العمال تطلب.. تروح وتقف كلهم.. حنطلب إحنا.. وهمه رايحين يدونا.. مش معقول هيرفضوا ما دام العمال كلها بتطالب.

وبينما أنا غارق في التفكير سمعت أصواتًا تعلو من بعيد.. من هنا ومن هناك.. ووقفت أتطلع للعمال التي تعدو بسرعة وإذ بي أجد نفسي أعدو مثلهم في نفس الاتجاه ولم أنس قبل أن أعدو أن أوقف الماكينات، وعندما اتجهت نحو الأصوات إذ بي أجد عددًا كبيرًا من العمال متجمعًا وسط العنبر حول أحد الرؤساء والعيون كلها متطلعة إليه وهو بارك على عامل في الأرض ونازل ضرب بالأيدي، والعمال من بعيد تصرخ: وقال أحد العمال:

- مافيش راجل؟

وقال آخر:

- وهنعمل إيه؟
- نموته.. نموته!!
- نموته؟! والعيال.
- عيال إيه..؟ إيه العيال اللي حيذلونا.. مفيش واحد شارب من لبن أمه؟

فرد آخر:

- اصبر ع الجار السو.. يا يرحل يا تيجي له داهية.
- وهنسكت لإمتي.. الكيل طفح.. ده لو حصل حاجه زي دي في البلد لكان مات فيها عشرة.. هيه بتمر ساعة من غير ضرب.

وآخرون واقفون متململين في أماكنهم.. مش واقفين "على بعض" بل كانوا دائمي الحركة في نفس المكان وعيونهم يتطاير منها الشرر. وإذ بأحد العمال قصير القامة ذي رأس كبيرة أسمر البشرة عيناه واسعتان، كان واقفاً وكل جسده ينتفض ومال على أحد العمال وسمعته يهمس في أذنه يقول.. الليلة والليلة بس.. وخلي الشركة تبقى تنفعه. ورنّت هذه الكلمات في أذني وتطلعت بعيني وتأملته كثيرًا وإذا به يختفي خلف المكن بعد ما تطلعت إليه

الأنظار.. أنظار كل العمال الواقفين.. وتطلعت إلى الرئيس الجاثم على العامل، وطال تـأملي وهو نازل عليه ضرب والعامل تحته، والعمال واقفون من بعيد يجزون على الأنياب، وتجمع كل رؤساء العنبر ورفعوا العامل من تحت أقدامه وضربوه هم الآخرون، واتجه العامل نحـو مكنه، والدماء تنزف من فمه ومال برأسه على الماكينة المتعطلة واستمر في البكـاء مخفيًـا وجهه عن العمال.. ووقفت على ماكينتي أتطلع للعامل من بعيد ولم أكن وحدي المتطلـع بـل كان هناك آخرون يتطلعون وشفاههم تتحرك.. واستمر العامل يبكي والعمال المجاورون لـه يجففون الدماء من فمه.. واقترب أحد العمال المجاورين لـي وقـال: شـايف.. شـايف ولاد الكلب.. عملوا إيه في زميلنا.. سيحوا دمه إزاي؟.. قلت:

- مفيش حاجه تنفع غير كتابة الشكاوى.
- شكاوى..؟.. شكاوى لمين..؟
- شكاوى للحكومة وللنيابة؟
- حكومة مين وبتاع مين.. دول في وادي واحنا في وداي.. هوه حد عارف حـد.. هوه كان عمل إيه لما مسكوه وموتوه من الضرب.. قلت:

أمال نعمل إيه.. ولإمتى حنسكت..

قال:

- ليوم القيامة.. لما ربنا يأمر؟
- القيامة..؟ لسه فاضل عليها كتير ومش معقول حنفضل كده ساكتين!.. إحنا نكتب شكاوى والظرف اللي ما يصيبش يدوش.. عم الحاج محمود في البلد راح يعمـل كده..

اسكت متقولش كده.. قدام حد أحسن لو واحد سمعك راح ياخدوك مـن إيـديك ومـن رجليك ويرموك بره.

قال هذا وتركني وذهب. وقد شعرت من ملامح وجهه أنه خائف.. خاف بمجرد أن قلت نكتب شكاوى.. وكان مصدر خوفه، هو أكل العيش.. وخوفه مـن أن أحـدًا يعـرف ويبلـغ الرؤساء؟.. وقلت في نفسي:

- أمال ليه في البلد عم الحاج محمود راح يكتب شكاوى.

أمال ليه هو مش خايف من الكتابة، يمكن لأن مفيش حد هناك من الرؤرساء!! يمكـن لأن مفيش حد واقف وراه بعصاية؟.. يمكن هو ده اللي خلاه يتشجع في الكتابة؟

وقلت في نفسي: هوه عبد العظيم ليه ما حضرش؟.. ما حضرش ليــه يــسألني عــن العصاية؟ يمكن يكون زعلان!!.. يمكن يكون الولد الغريب قال له.. وزعل ليه. ولم يحــضر يسألني ويعرف الحقيقة.. لما أروح أقول له يمكن يكتب شكاوى؟

واتجهت نحوه وإذا به واقف على الماكينة غارقًا في التفكير فجذبته من كتفه منبهًا إياه.. ومد لي يده وقال:

- الواحد جاي من البلد تعبان.. جاي مهدود حيله.. الواحد لو مش خايف مــن ولاد الكلب الرؤساء مكنتش جيت من البلد دلوقت.. الواحد اليومين اللي قعدهم في البلد اشتغلهم في الحرت، والأرض.. ودلوقت الواحد جه وشــايف القــرف قدامــه.. وخايف لاحسن النوم بيجي على عيني.. وخايف لحسن واحد من الأنــدال يجــي يضربني..

قلت مداعبًا له:

- لو جه واحد من الرؤساء وضربك حتعمل إيه؟
- أعمل إيه؟!.. دا أنا أحط صوابعي في عينيه وأخليه أعمى.. أخليــه يمــشي فــي الطريق أعمى.. أخرتها إيه؟! سنة.. سنة وحطلع!! هوه كل الطير اللــي يتاكــل لحمه!!.. الواحد بس ملايمها.. قالها باعتذار.

قلت:

- إيه رأيك نكتب شكاوى للحكومة، مش حنخسر حاجة.. نعمل اللي علينــا واللــي على الله هو اللي يكون.. وإذا به يضحك ضحكات عاليه كعادته، وانتبه من النوم اللي كابس عليه، وإذا بأحد العمال يصيح من الخلف.. خلف المكن هــو.. هــو.. وانتبهنا نحوه وإذ به يقول: بكره.. بكره الصبح.. ما تروّحش.. انتظر على بــاب الشركة.. قالها وذهب..

وعاد عبد العظيم إلى الضحك من جديد.. كان يضحك من كلامي.. من قــولي نكتــب شكاوى.. واسترسل قائلاً:

- إنت جبت الكلام ده منين؟ مين اللي قال لك؟

قلت:

- سمعته في البلد وكل الناس حتعمل كده.
- ومين هنا راح يعمل.. إن لقينا الورق مش حنلاقي الكاتب.. وإن لقينا الكاتب مش حنلاقي الفلوس!

- نجمع الفلوس من بعض.

وإذا به يصمت.. واستمر في صمته، وظننت أنه قد صمت مثل ما صمت الآخرون وخاصة العامل المجاور لي على الماكينة، لكن عاد عبد العظيم وتكلم بعد أن فكر وإذ به يقول:

- معقول نكتب شكاوى!!.. لماذا لا نكتب.. بكره الصبح إحنا راح نجتمع.. إبقى قول الكلام ده هناك.

كنا نتكلم خلف المكن. وإذا به يأخذني من يدي ويتجه نحو الفرامل، ومد يده وفك منديلاً كان مربوطًا وأعطاني قطعة من الفطير.. فرفضت قائلاً:

- أنا جبت من البلد فطير.

فأصر.. وعاد للكلام.. وهو يبتسم:

- عملت إيه في البلد؟.. أنت جبت العصاية؟

- نسيت وفي طنطا لقيت طنطا مقلوبه..

الأزهرية عاملين مظاهرة.. والعساكر قالبه الدنيا.

سكت ثم إذا به يقول:

- شوف العمال واقفه على المكن عامله إزاي..

نظرت فرأيتهم واقفين على المكن وأيديهم على الفرامل وعيونهم مسبلة ورءوسهم تتمايل كما لو كانوا واقفين في حلقة ذكر.. وآخرون يسيرون على مهل يجرون في أجسامهم. وقلت:

- هيه الساعة بقت كام؟

فرد قائلاً:

- الساعة إتنين بعد نص الليل.. العفاريت في البلد نامت واحنا هنا على المكن سهرانين.

واسترسل قائلاً:

- شايف مفيش حد بيتكلم ولا يتحدث.. كل واحد بيصارع النوم واحنا على المكن سهرانين.. أنت اللي سهرتني.. تصور أحسن نومه دلوقتي.. أمهاتنا في البلد نايمين!! إحنا هنا على المكن واقفين نقاوح في النوم.

وسألته مفيش ولا ريس ماشي في الطرقة؟

- يمشوا ليه..؟ إيه اللي يخليهم يمشوا؟.. دلوقتي شغلهم النوم.. ودلوقتي يقوموا زي الغجر يدوروا الضرب في كل اللي يقابلهم ظناً منهم أنهم يعوضون النـــوم.. دول ما بيعملوش أي حاجة بإيديهم.. وياويل اللي يروح يقول لهم صلحوا المكن.

بينما كنا نتكلم كان الآخرون عيونهم مسبلة والهدوء يخيم على العنبر، وخاصة بعـــد أن ضرب الرئيس العامل في بداية العمل بالليل، وقلت لعبد العظيم:

- أنا رايح للمكن والصبح نتقابل.

(٢) موت رئيس

لم تمر لحظة بعد ذهابي وإذا بأصوات عالية جدًا كلمة "هو هو".. تعلو.. وعمال تجري من هنا وعمال تجري من هناك.. وأيدي تلوح.. وبسمات تعلو الشفاة.. وفكرت أن الصبح طلع.. فنظرت إلى السماء وإذا بي أجد أن الصبح ما طلعش.. وازداد الصياح وازداد الجري في الطرقات ووقفت أنظر إلى العمال وهم يجرون.. وإذ بعبد العظيم يجري من أمامي ووجهه قد ازداد شحوبًا وتوقف فجأة وقال:

- إجري فيه واحد مات.. العامل موت الرئيس.

قالها وذهب.. وتسمرت في مكاني وقلت يا نهار أسود.. الرئيس مات.. عامل قتل الرئيس.. ومن يكون هذا الرئيس.. يا ترى..

وعدت بذاكرتي إلى ما حدث في أوائل العمل بالليل. إلى الرئيس الذي كان باركًا على العامل يضربه، والعمال يتكلمون مع بعض في غيظ عندما رأوا زميلهم يضرب، وتجسدت صورة العامل ذي البشرة السوداء عندما قال في أذن أحد العمال:

- الليلة.. الليلة وبس.. وخلي الشركة تنفعه.

وقلت في نفسي هو ده اللي لازم قتل الرئيس.. وفين هوه دلوقتي؟ يا ترى مسكوه.. دول لو مسكوه رايحين يقطعوه.

واقشعر جسدي وكنت أفكر.. والعمال تجري وإذ بي أدوّر الجري إلى هناك.. وأجد عالم ترش الملح ما ينزلش.. عالم متحوطاه.. وآخرون يتزاحمون.. وتدافعت بينهم، وهالني ما رأيت.. رأيت رجلاً ممددًا على الأرض والدماء تنزف منه بغزارة وملابسه قد لطخت بالدم.. كان نائمًا حافيًا.. وحذاؤه بجواره.. فردة هنا، وفردة هناك وحاولت أن أتبين ملامح وجهه فلم أستطع.. كنت أريد أن أعرف من هو هذا الرئيس.. أهو الذي ضرب العامل.. أم غيره من الرؤساء؟.. ولكني لم أتمكن من رؤية وجهه فقد كان كل وجهه مغطى بالدم، فلم تظهر من وجهه قطعة بيضاء.. وتطلعت بين الوجوه الواقفة فلم أجد على وجوههم أي تأثر أو حزن.. ما عد القليل منهم.. كان على وجوههم الحزن باديًا.. كانوا من الرؤساء والرؤساء فقط.. أما العمال فلم يستطيعوا إخفاء بهجتهم من كثرة ما رأوه.. كانوا يتململون بأرجلهم نحوه.. وقيل إنهم يعبرون عن رغبتهم أن يدوسوا عليه بأقدامهم.. ومن خلال وقفتي لم أسمع صوتًا يردد اسم العامل الذي خلص العمال منه.. بل كثيرًا ما سمعت اسم هذا الرئيس المتعسف، ولم يكن يردده سوى الرؤساء كانوا يقولون عنه إنه كان شهمًا في إخضاعه للعمال، وكنت أسمع من حين لآخر صوتًا يقول:

- كنا متوقعين أن يحدث هذا.. كثيرًا ما نبهناه وحاولنا إرشاده ولكنه رفض أن يسمع نصائحنا بحجة أن هذا الصنف لا يجب أن يعامل إلا هكذا.. وكثيرًا ما ردد هذه الكلمات.. كانت هذه طبيعته حتى.. منذ أن كان في المدرسة.. قبل أن يأخذ الدبلوم.. دبلوم المدارس الصناعية.. حتى زملاؤه الطلبة كانوا يكرهونه للتعالي.. كان المتوقع له أن يموت هكذا.. وآخرون كانوا يبكون بحرارة.. وكانوا يرددون اسمه كشهيد، وكانت الدموع تتساقط من أعينهم، وهم يرددون اسمه!! كنت معانا دلوقت يا زعفراني، كنت معانا من دقيقة.

بينما الرؤساء يقولون ذلك كانت العمال واقفه في الجانب الآخر تجز على الأسنان.. وقال أحد الواقفين وهو يلوح بيده نحوهم:

- بكره ترقدوا رقدته.. وأحذيتكم تبقى كل فردة منها في ناحية.

وقال آخر:

- يُمهِل ولا يُهمل

فرد آخر:

- أمهلناهم كثيرًا وآن الأوان لننتقم.

وتطلعت الأنظار نحوهم فزاغوا بين الواقفين.

وسألت أحد الواقفين عن العامل اللي قتله.. وكانت الإجابة.

- ما نعرفش.

وسررت لهذا وتمنيت ألا يعرفوه.

وإذ بأحد الواقفين يزعق:

- الدراع.. الدراع.. اللي انضرب بيه.. أهو ملوث بالدم، كان الدراع من بتوع المكن. دراع من خشب الزان.. وقال أحد العمال الواقفين:

- هاتوه.. هاتوه هنا نخفيه.

ولم تمر لحظة إلا ودخل العنبر عدد من الخفراء بأيديهم العصي.. ودوروا الضرب في العمال ولم يبقى سوى الرؤساء بجواره..

وتجمع العمال على الماكينات وهم يقولون ربنا خلصنا من واحد.. كانوا يرددونها شامتين، ووقفوا على الماكينات يختلسون النظرات من بعيد.. وقال أحدهم: شايفين الرئيس ميت والمكن ما وقفش.. كله عند العرب صابون.. ما فيش فرق بين موت العامل وموت الرئيس.. كنت فاكر إن هناك فرق.

فرد آخر:

- عاوز تقول مفيش فرق.
- أيوه مفيش فرق.. العامل لما تموته المكنة.. ماوقفش المصنع، والرئيس أهوه مات ومتلقح والمكن داير.. يبقى فين الفرق.. حد جه وقال إنه كان بيضرب العمال باللا وقف المكن علشانه.. ولو دقيقة.. ولما وقع ماحدش سأل عنه.. كلوه لحم ورموه عضم.

كانوا يتكلمون وعيونهم في الاتجاه نحوه..

وقال آخر:

- خلصنا من واحد.

وبينما كانت العمال تتحدث كان المكن داير والسيور تهتز اهتزازًا بطيئًا، خيل إليّ أنها سوف تسير دون خوف.. وقلت في نفسي:

حتى المكن، والسيور فرحانه.. وسألت نفسي: هم بيقولوا إن العامل لا يعمل إلا خائف. سمعت هذا من الضابط المتقاعد يوم أن أعطى أمرًا للخفر بالضرب.

سمعته يقول:

- إنهم عبارة عن لمامة. لازم يمشوا خايفين وراسهم مطأطأة.. لازم نخلي العامل من دول يمشي ويبص وراه.. لازم يخضعوا..

وما يخضعوش إلا بالضرب.

وسمعت هذا من الرؤساء.. إذن فهذه سياسة ينفذونها.. ينفذونها جميعًا.. حتى المدير.. إذن نشتكي لمين.. هذه كانت الأسئلة.

وسألت نفسي من جديد: هل صحيح العامل ما يشتغلش إلا بالضرب.. إلا وهو خايف.. مش معقول طيب لما كانت أم الواحد تشتمه كان الواحد بيفضل طول النهار محروق دمه، وما بيعرفش يعمل حاجه.. وقلت في نفسي: وهم دول ماهمشي زينا.. مش أولاد آدم ما يمشوش إلا بالعافية.. ما يمشوش إلا بالضرب.. ما يعرفوش إن الضرب بيغضب.. ما غضبوش من أهاليهم.. ماسمعوش من أهاليهم "إن ضربت القطة تخربشك".. وعدت وقلت:

يمكن ما فيش حد ضربهم ولا حد شتمهم وعلشان كده بيضربونا.. لو حد ضربهم مرة أو شتمهم ما كانوش عملوا كده.. وهم دول حد هيضربهم ليه.. دول طول عمرهم عايشين بعيد عنا.. عايشين في السرايات.. دول ولاد عمد.. لا حد شتمهم، ولا حد ضربهم، دول طول عمرهم عايشين على ضرب الناس.. شافوا آباءهم وهم بياخدوا الفلاحين في الدوار يضربوهم

ويشغلوهم في أرضهم ببلاش.. دول أصلهم راحوا المدارس واتعلموا، فلازم يبانوا قدامنا أنهم أحسن، أصلهم فاكرين إن العمال دول زي الغنم يسوقوهم زي ما بيسوق الراعي الغنم.

وبينما أنا غارق في تساؤلي إذ بعالم يدخل من الباب.. عالم كثيرة.. كلهم أفندية لابسين على روسهم طرابيش.. واتجهوا نحو الجثة.. نحو الرئيس الميت الغارق في دمه، واتجهت الأنظار نحوهم.. والقصير اللي ما يقدرش يشوف شّب على صوابعه وإذ بالولد الغريب يأتي مسرعًا ومال على أذني.

- النيابة.. النيابة جت.. جايه تحقق.. الناس اللي قدام بيقولوا.

وقلت في نفسي:

- طبعًا النيابة لازم تيجي.. تيجي دلوقت.. لما واحد يموّت واحد.. لكن المكن لما يموت واحد النيابة متجيش.. ليه.. ما نعرفش؟

قال الولد الغريب:

- النيابة جت تعالى واتفرج.

وتركته واقفًا على المكن.. ودورت الجري نحو عبد العظيم قائلاً:

- النيابة.. ياللا نقول، نقول لها كل حاجة نقول لها الرؤساء بتضربنا والمكن بيموت كل يوم عمال، نقول لها إن الرؤساء بتمنعنا من الذهاب إلى الدورة.. نقول لها أنهم بيرغمونا على المشي في العمل حافيين.

فرد قائلاً:

- وحتقول لها إزاي.. المدير واقف.

ما يهمش نروح ونوشوشهم في ودانهم.

- يفصلونا.
- وحيفصلونا ليه.. اشمعنا همه اشتكوا.
- همه حاجه واحنا حاجه تانيه.
- أمال حنعمل إيه؟
- نستنى.
- وحانستنى لإمتى.
- لما يطلبونا.
- وهمه حايطلبونا؟

- تعالى نقف جنبهم.. وما نخليش حد يشوفنا.. قلت هذا وتركته، لأن المكن قد وقف.. وقلت للعمال المجاورين لي:
- النيابة جت.. تعالوا نشوفها.

فوقفوا ساهمين دون أن يتكلموا.

وجاءني عبد العظيم يجري لأنه رآني أتكلم مع العمال.. وهمس في أذني.

- هو أنت جايب الكلمتين دول من البلد جاي تقولهم على طول.. اسكت ما تتكلمش لحسن لو حد سمعك حايشيلوك من إيدك ومن رجلك ويرموك على بره.

قلت:

- أمال حنعمل إيه؟
- نستنى لما نكتب زي ما أنت قلت.. نستنى لما نجتمع.. نكتب شكاوى خاصة.
- في بلدنا راح يعملوا.. واحنا كمان نعمل.. وإذا كانت النهاية جت.. ماحنا نقول على كل حاجه.

ولم تعجبه كلماتي، فتركني وذهب.. وإذ بي أجد العمال يتسربون واحد وراء واحد وهم يقولون: ياالله.. ياالله نشوفه.. ياالله نشوفه.. نشوف الظالم وهو ميت.. نشوفه في رقدته الأخيرة.. واتجه الجميع نحوه ووقفوا في أحد الأركان يتأملون في الوجوه التي حضرت ووجوه الأفندية التي قيل إنها النيابة.

وآخرون يسيرون في تباطؤ ناظرين خلفهم خائفين واتجهت أنا الآخر سائرًا على مهل.. وأخذت مكاني بين العمال، ووقفت أنظر إلى الأفندية وهي تذهب وتأتي، يعدون المسافات بالخطوة، وأخيرًا وقفوا يطلون في الورق، وأخيرًا وقفوا ينظرون إلى الوجوه الواقفة بعيون حادة النظرات. وإذ بي أسمع كثيرين يقولون ياالله.. ياالله نقول للنيابة.

وكان عبد العظيم واقفًا بينهم، وهللت عندما رأيته واقفًا، وأيقنت أنه هو الذي تكلم مع الواقفين أخذًا بكلامي.. واتجهت نحوه قائلاً:

- ياللا نقول.. وإذ بي أجد أحد الأفندية يهم واقفًا من على المقعد الجالس عليه وفي يده جانب من الورق يأتي بخطوات مسرعة نحوي، وقلت للواقفين عندما رأيته، دا جاي ناحيتنا.. أهو جاي.

وتطلعت إلى وجهه الأبيض المشبع بالإحمرار.. وعينيه الخضراوين وشعره الأصفر الناعم.. وقلت في نفسي إنه آت مسرعًا ظنًا منه أننا سندلي باعترافات.. ولهذا فهو آت والبسمة تعلو شفتيه.. إنه رآنا نتكلم ونتكلم، وعندما اقترب منا.. هجمنا عليه في نفس واحد

مرددين.. الرؤساء بتضربنا.. والمكن بيموت العمال، وما بيخلوش العمال يروحوا الـــدورة.. والعامل لما بيموت ما بنعرفش بيندفن فين.

كانت الكلمات تخرج سريعة.. كلمات سريعة متعالية تخرج من الأفواه. وتشجع آخرون وهجموا علينا وتكلموا في هذا الاتجاه.. وسمع لكل العمال وأشار بيده قائلاً:

– بس أسكت أنته وهوه.. أنا حسأل وأنتم تجاوبوا.. مين موت الرئيس؟

وأجبنا في نفس واحد.

– مانعرفش.. شوفنا الرئيس ده بيضرب العمال في أول الليل.. كان بـــارك علـــى عامل.

– مين موت الرئيس؟

– قلنا ما نعرفش.

كنا بنتكلم.. هو يكتب. وبعد الانتهاء من الأسئلة والرد عاد إلى مكانه وطلـــب آخـــرين وسأل واحد وراء الآخر. وكانت إجابة من دخلوا.. ما نعرفش.

وأخذت النيابة الورق وخرجت بعد أن رفعت الجثة.

وقالت العمال وهي تنظر له:

– شايفين.. داخل على رجليه.. وطالع النهارده على ضهره.. على أيدي الرؤســـاء من شاكلته.

وقال أحد العمال:

– مش قلنا إصبر على جار السو يا يرحل يا تيجي له داهية.. وأهو راح.. راح في مصيبة.

وقال آخر:

– راح للأبد.

وقال ثالث.

– عقبال الباقي

وسارت العمال خلف المكن وأيديهم تمتد بالسلامات.

.. وانتهى الليل وأشرق الصباح مع تهاليل العمال وفرحتهم.. وخرجنا من العنبـــر فـــي الاتجاه إلى البيت. وانتشر الخبر كالرعد بين العنابر. لا حديث للعمال إلا على هذا الحـــادث.. حديث في الشوارع، في الطرقات وفي العطف.. كل الناس تتكلم.. الظلم قد مات.

وأمام باب المصنع وجدنا عددًا من العمال بملابسهم المخططة واقفين جنب البوابة فـــي انتظار عبد العظيم، وأمام باب المصنع كانت النسوة الأخريات واقفات، والفرحة بادية علـــيهن لأنـهن سمعن خبر الرئيس اللي مات.. الرئيس الظالم!

(٣) الكلام في زيادة الأجر

وفي أحد البيوت بعزبة أبو جحشة اجتمع عدد كبير من العمال.. كان الاجتماع خاصًا بما حدث اليوم في المصنع، ولكني فكرت أن أتحدث فيما هو غير ذلك، فكرت في الكلام عن زيادة الأجر.

وبدأت الكلام، وأنصت الجميع. قلت:

– زميلي عامل النهار قال لي إن أهالي المحلة الشغيلة بالمصنع طلبوا النهاردة زيادة في أجرهم فاحنا كمان لازم نطلب.

فرد أحد المجتمعين:

– احنا في إيه وانتم في إيه.. إحنا نشوف الأول هنعمل إيه، وهنعيش إزاي في البلد دي، إحنا مش قلنا كل واحد يجيب عصايه معاه.. يجيبها من بلده.. حصل ولا ما حصلش.

فرد عبد العظيم بصوت هادئ:

– عصاية إيه يا جماعة.. هوا أحنا قادرين نشيل نفسنا..؟ كل واحد جاب عصاية يشيلها معاه، أما من ناحية أهالي المحلة فبكره يتهدوا.. إحنا دي الوقت نشوف إيه اللي راح يجرى لنا بعد ما واحد موت الرئيس.

فرد آخر:

– وهو إحنا نخاف منهم ليه.. عرفنا آخرتها.

فرد الشيخ علي دويدار:

الولد اللي ضرب الرئيس، ولد جدع، ومافيش فايدة غير إن اللي يكلمنا نضربه نضرب الرؤساء، أما من جهة أهالي المحلة فلازم نضربهم.. لازم نجيب عصا – نحضرها معانا، وعمال النهار يستنوا بها عمال الليل، وعمال الليل تبقى تجيبها لعمال النهار، ويبقى كل واحد منكم عارف من دي الوقت إيه اللي رايح يعمله.

فرد آخر:

– ما تسيبوكم من الكلام ده.. هوا مش فيه واحد دي الوقت أتكلم وشاور بإيده نحوي وقال إحنا لازم نطلب زيادة.. أنتم ليه سكتم عن الموضوع ده..

إيه يا شيخ علي..؟ إنت إيه رأيك في المطالبة بزيادة؟

..مش عمال المحلة طلبوا.. إحنا ليه كمان ما نطلبش؟

فرد عبد العظيم:

- أنا موافق على الكلام ده.

ورد الشيخ علي وقال:

- يا جماعة إحنا الأول نقول للناس اللي ما تنقلتش من أودها تتنقل ده اللي أنا عاوز أقوله لكم دي الوقت. وإذ بكل الحاضرين يقول في نفس واحد:
- هو إحنا هنخسر إيه.. هنخسر حاجه؟
- كل واحد يتكلم مع زميله، مع كل واحد من بلده ولما يوافقوا نبقى نطالب.

وقال الشيخ علي:

- ياالله يا جدع أنت وهو نروح البوظة.. يشرب كل واحد منا قرعتين، ييجي مهدود حيلة وينام من القرف.

فقال عبد العظيم:

- بوظة إيه.. هو إحنا هنسكر!.. حرام.

فرد الشيخ علي:

- حرام إيه يا راجل.. دي البوظة معمولة من العيش.. دي مفيدة.. الميه لما تكون حاصره الواحد.. البوظة تفرتكها.. دي زي الشعير.

وقال آخر:

- إحنا نبعد عن الحرام وبس.. وما دام البوظة ما تسكرش.. يبقى نشربها.

وبينما نحن منهمكون في الكلام، إذ بأحد العمال يدخل وهو يقول:

- قبضوا على العامل اللي موت الرئيس.. كل الدنيا بتتكلم.

وساد الصمت وبكى الجميع.. بكوا كثيرًا عندما سمعوا الخبر. وقال عبد العظيم بعد فترة صمت.

- مين قال كده؟
- سمعت في السكة من واحد كان بيقرا في الجرنال.. والناس واقفه متجمعين عليه.. وصورته منشوره، وسكت الجميع وقلت:
- ياللا نروح نشوفه.
- نشوفه فين.

فرد آخر:

– نشوفه في المركز.

وقام الجميع دون أن يتم الحديث.. حديث المطالبة بالزيادة.. وأمام باب المركز كانت الخفر واقفه حاملة العصي.. وآخرون بالبنادق.. ومن على بعد كانت ناس كثيرة واقفة بأعصاب متوترة، تنظر نحو الباب.. واقتربنا من أحد العساكر.. سألناه عن سر وجود الناس، فتطلع خلفه قبل أن يتكلم.. وأخيرًا على همس:

– الدنيا مقلوبه.. قبضوا على عامل.. بيقولوا إنه قتل رئيس في المصنع.

فبادره عبد العظيم:

– هوا فين؟.. فين دلوقت..؟
– جوه.. واقف هناك قدامهم.
– عملوا معاه إيه..؟
– موتوه من الضرب.. ربطوه بالحبل وعلقوه في الباب.. علقوه من رجليه.. ودلدلوا دماغه في الأرض وطلبوا منه أن يعترف.. ولكنه رفض.. كانت الدموع تنزل من عينه.. حاول أن يخفي وجهه.. ولكن إديه المربوطة بالحديد حالت دون ذلك.. ما كانش عايزهم يشوفوا الدموع.. ولكنهم شافوها لما أغمى عليه.. كانوا بيقولوا. اعترف واحنا نسيبك.. وفضل صامت.. وكانوا بيجزوا على أسنانهم..

وعندما كان العسكري يقول ذلك. كانت وجوه الواقفين مملوءة بالخوف.. انتابهم الخوف عندما قال:

"ربطوه وعلقوه من رجليه"

وقال أحد الواقفين:

– ياللا يا جماعة، إحنا واقفين كده ليه..

.. إحنا مالنا وماله.. يالله نروح.. كل واحد يبقى في نفسه.

فرد آخر:

– ما تبعد عنا، إيه اللي جابك.. هو إحنا جبناك؟

وقال عبد العظيم:

– اللي عاوز يستنى لما نشوف هو عمل إيه يستنى..

واللي مش عاوز يتفضل يمشي ويروح.

وفضلنا عند المركز حتى بعد العصر، وبجوار أحد الشبابيك توقفنا بعد أن خرجت الأفندية، وركبت العربات الحنطور وصرخ عبد العظيم صرختين متواليتين، وإذ بصوت

خافت يرد من الداخل.. صوت هزيل مجهد.. وكان هذا الصوت هو صوت العامل.. وسأل عبد العظيم:

- إزيك؟.. عملت إيه؟
- ما عملتش حاجه؟.. وانتم؟
- ماحدش اعترف.. ما انتش عاوز حاجه.
- لا.
- شد حيلك.. ما يهمكش.. راح في داهية.. عقبال الباقي، إحنا هنجيلك وهنجيلك باستمرار.. وعادت العمال كل إلى منزله.. في انتظار ما قد يحدث لهم عندما يذهبون إلى العمل، وظن البعض منهم أن الظلم قد مات.. ولم يعرفوا أنه واحد من مئات الرؤساء.. وسوف تعين الشركة غيره.. وسوف يقوم بما قام به.. ودي خطة الجميع ينفذها.. مهما مات واحد، فلن يموت الظلم ما دام كلهم ظالمين.

وعدت إلى المنزل بعد يوم معبأ بالمتاعب، وقد شعرت أن الدنيا مظلمة، وأن عيني لا ترى شيئًا، مع أن السماء كانت صافية.. ودخلت حجرتي وحاولت أن أنام. وإذا بعيني تحدق في السقف، وتحصي أخشابه، وأسندت رأسي إلى الحائط، وإذ بي أجد نفسي غارقًا في التفكير مستعيدًا كل ما حدث، وتجسد أمام عيني صورة جثة الرئيس الميت.. وهي ممددة الساقين، ويداه مطروحتان بجواره، والدماء تنزف من كل مكان.. وأقشعر جسدي وارتعدت فرائصي.. الشيء الذي لم أشعر به وقت الحادث، وقلت في نفسي.. إن سوء المعاملة التي لقيتها ولقيها العمال كانت هي سبب عدم الإحساس – طغت علي الحب والعاطفة.. لم أشعر بعطف نحو الجثة مثلما أشعر الآن لقد تحدثت أمي كثيرًا أمامي عن أن الإنسان لا يجب أن يفرح في إنسان مات، مهما كان أساء إليه أو إلى أحد.. لأن الموت لا يفرح فيه أحد.. وعدت وسألت نفسي:

- وهوا ده أمه ما كانتش بتكلمه على إنه ما يضربش حد؟

.. بالتأكيد لم تكلمه.. لأنه لو كلمته لما فعل ذلك، لقد أخذ الأوامر.. كان عليه أن ينفذ زي غيره من الرؤساء.. لكن مين عارف، العمال لا تعرف ذلك.. بتشوف مين بس اللي بيضربها.. ولا يحترم خلقة ربنا.. هوا كان بينفذ أوامر المدير زي ما كان بينفذها غيره.. وعدت وقلت: أمه الآن لما تعرف إنه مات وواحد من العمال هو اللي موته.. ماذا تفعل؟

هتحقد على العمال، وإخواته كذلك.

إنه كان بالتأكيد في البلد وقاعد معاها إمبارح.

وكانت بتوصله على المحطة، وتقبله وتدعو له زي ما كانت بتدعي لي أمـــي.. كـــانوا يودعونه بالسلامات.. ماذا يكون وقع الخبر عليهم اليوم.. إنه قد مات وهو لسه مسافر.. هـــل هيعرفوا الحقيقة.. هيعرفوا موته السريع.. سوف لا يعرفون..

مين اللي رايح يقول لأمه.. إنه كان قاسيًا في معاملاته..

.. سوف يعرفون يومًا ما.. سوف يعرفون أنه كان سبب شقاء الكثيرين.. وحينئذ سوف يزول حقدهم على العمال.

كما تجسدت صورة العامل ذي الوجه الأسمر واقفًا وسط العمال وهو يقول الليلة الليلـــة وبس وخلي الشركة تنفعه.. أكان يعرف أنه راح يقبض عليه.. أكيد لأ.. لو كان عارف يمكن ما كانش عمل كده.. كان فاكر إنه يمكن يزوغ.. وياترى هو دي الوقت هيعمل إيه وهوا نايم لوحده في الأوده.. والأوده زمانها ضلمه.. حايقول إيه..؟ حايقول ياريت ما عملت كده.. يـــا ريتني ما ضربت..؟ ولاّ زمانه بيفكر في أمه..؟ اللي هي دي الوقت لسه ما تعـــرفش.. هـــي كانت في انتظاره، لما يقبض ويديها فلوس.. هو دي الوقت بيقول ما كانش ممكن إني أســـيب الرؤساء تضربنا.. لازم يبقى فيه واحد يحوش الضرب عن العمال.. هو دي الوقت فـــاكر إن الضرب كله أتمنع عن العمال.. وهو دي الوقت اللي يمكن الضرب نازل عليه.. ولما راحـــوا النيابة وطلبوا منه إنه يعترف علشان يسيبوه.. هل هوا رضي.. بالتأكيد ما رضيش، لأنه هوا اللي أتقدم.. إتقدم لوحده.. لأنه سمع العامل لما كان بيقول هو مفيش راجل يتقدم.. أكيد هـــوا بيفكر في الكلام ده.. هوا ده اللي خلاه ما يعترفش.. لأنه عارف إن أمه راح تزعـــل.. وراح تتحرم من ماهيته اللي كان بياخدها ويعطيها لها علشان تساعد بها إخواته.. هوا عـــارف دي الوقت إن اخواته مش حيشوفوه ولكن هوا راضي.. راضي عن نفسه، وخاصة بعد العمال ما راحت وراه، وعارف إن العمال مش حتسيبه، ودايمًا فاكراه.. هوا عارف إن اللي يعمل عمل طيب للناس بينتصر.. علشان كده حب يعمل هذا العمل.. هوا نايم دي الوقت فـــي الحجـــرة وبيفكر في كل الكلام ده.. هوا عارف أن العمال هتروح له المحكمة وهاتشوف له محـــامي، لأنه ما يقدرش يجيب محامي. هوا هيفرح يوم أن يرى العمال في المحكمة.. بتقدم لـــه كـــل شيء.. هوا كان عارف إن الراجل اللي بيعترف على العمال الآخرين كل الناس بتحتقره، وما فيش حد بيكلمه ودا اللي خلاه ما يعترفش على الرغم من كل اللي شافه من تعذيب.. علـــشان مافيش حد من بلده يقول له إنك اعترفت.

وبينما أنا غارق في التفكير، وإذ بالولد الغريب يقول ياللا أحسن إحنا اتأخرنا.

واتجهنا للعمل، وقد ظن البعض أن الظلم قد مات.. ولكن شيئاً ما من هذا لـــم يحـــدث فاشتد الإرهاب بعد الحادث، ومع هذا فالعمـــال تواصـــل الاجتماعـــات.. اجتماعـــات هنـــا

واجتماعات هناك.. ومرت الأيام والشهور، وكلما سمعوا أن العامل بيستكملوا معاه التحقيق ذهبوا لرؤيته.. والحالة بقت زي ما هيه.. ونحن في إحدى الاجتماعات وإذ بنا نسمع أن القضية قدمت وسوف يحاكم غدًا..

وقال البعض:

- وليه همه مستعجلين كده..
- مستعجلين على موته.. هوا إنتم ما شفتوش لما كنا بنروح النيابة كان بيحصل إيه؟.. مش كانت النيابة بتكرش أم الولد بره.. وكانت تفضل واقفه لما الميه تنقع من تحت رجليها.. زي الغلبانة.. الناس درجات.. صوابعك مش زي بعضها.. الغلبان غلبان طول عمره..

وقال آخر:

- إحنا ماشفناش قضية اتقدمت.. بسرعة زي القضية دي.

فرد آخر:

- اللي تخاف منه ما يجيش أحسن منه.
- إحنا لازم نروح بكره نشوفه.

وقال عبد العظيم:

- إياك بس يحكموا بالقرآن.. مش مكتوب فيه وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.

وقال آخر:

- وهو فيه عدل.. هوا فيه حد بيعمل بكلام ربنا المكتوب.. المكتوب شيء واللي حاصل شيء آخر.. هوا لو كان فيه عدل كنا نعيش كده.

فتمتم الواقفون، وهزوا رءوسهم حزنًا.. وبدأ كل منهم ينظر للآخر، وصمتوا لحظة كأن الدنيا قد دارت بينهم.. فقال أحدهم:

- بقى أنتم عاوزين تقولوا مفيش عدل.. أمال القرآن ده مكتوب ليه.. هو مش مكتوب علشانا فرد أحد الواقفين:
- إحنا حنزعل نفسنا ليه.. أهو إحنا رايحين المحكمة بكره ونشوف بعينينا.

واتجه كل منا إلى منزله.. ونحن في الطريق قال عبد العظيم.. قال لي في همس:

- بكره الصبح تصبح تيجي لي..

ودخلت حجرتي، ولم أنم إلا بعد فترة وكان كل ما يشغلني أن أرى العامل في المحكمة:
وهوا جاي.. ثم نمت ولم أشعر بمن حولي..

(٤) محكمـة

صحوت مبكرًا، ولبست جلبابي، وتمشيت في الحجرة.. تمشيت طويلاً، وأيقظت الولد الغريب والولد السيد الصفطي وكان الصباح هادئًا.. لم يكتمل إشراقه والجو مغير ينذر بالمطر، ولم تكن أبواب المنازل قد فتحت والمحلات كانت مغلقة. ولكن طلائع العمال قد ظهرت في الطريق.

.. وفي عجلة أخرج كل منا رغيفًا من قفته، وبدأنا نأكل في نهم وخرجنا من المنزل مسرعين.. وفي ميدان المحطة، وجدنا عبد العظيم واقفًا ومعه آخرون، وأمام باب المحكمة وجدنا نسوة كثيرات، وأطفالاً صغارًا يمسكون بجلابيبهم وأخريات يقبضن بأطراف ملايات اللف بأسنانهن، ويتطلعن ذات اليمين وذات اليسار متأملات كل من يسير في الطريق. وخيل إلي أنهن يبحثن عمن يعرفوهن، ووقفت أتطلع في كل تلك الوجوه، وقلت في نفسي: أين أم العامل.. أين هي.

وإذ بعبد العظيم يقول تعالى لما نخش علشان نلحق لنا مكان، قلت:

- أمال فين أم العامل.
- دلوقت تشوفها.. تشوفها لما تيجي..

ونحن نسير وسط ضجيج الباعة. وإذ بثلاث نسوة بملابس ريفية سوداء يجلسن القرفصاء بجوار سور المحكمة وبجانبهن طفل في التاسعة من العمر، بجلباب من الزفير المخطط، يحمل عصا في يده، وعلى رأسه طاقية من الصوف الأحمر، وعلى القرب منهم ثلاثة رجال بملابس جبردين، بها خطوط بيضاء.. ووقفت عندهم متأملاً وهم يتحدثون مع أحد الأفندية، وكان يحمل تحت إبطه ظرفًا مليئًا بالورق وجذبني عبد العظيم من يدي، واتجهنا للداخل، ولم تمر لحظة، وإذ بالنسوة يدخلن خلفنا. وفي إحدى الأركان جلست النسوة، ويدا كل منهن على خديها.. وأخذت مكاني في الصف الأخير من القاعة وبين الحين والحين كنت أنظر للنسوة محاولاً معرفة أم العامل.

وهمست في أذن عبد العظيم أسأله:

- كل النسوان دول جايين علشانه؟

وإذا به يقول: لا.. هيه حتكون فيهم.. دول جايين علشان ناس تانيه.

قلت:

- أمال فين العامل.
- دلوقتي ييجي.. هييجي من السجن.

وبعد فترة كانت القاعة قد امتلأت بالناس.. وإذا بصراخ وضجة تعلو من الخارج، وكان صراخ النسوة هو الغالب.. إزيك يا محمد.. إزيك يا محمود.. إزيك يا علي.. أسماء وأسماء!! وصراخ وعويل وناس تجري من هنا وناس تجري من هناك. وإذ بعبد العظيم يقول:

– أهم جم.. جم من السجن دلوقت.

وتطلعت الأنظار وشحبت الوجوه، وازداد البكاء.. بكاء النسوة الواقفات، ودخل المساجين.. دخلوا القاعة مقيدين بسلاسل من حديد. وعلى أجسادهم ملابس بيضاء، غطتها الوساخة.. رءوسهم لم يكن بها شعرة واحدة، حلقت بالموس، وحفاة الأقدام، وبجانبهم كثير من العساكر حاملين البنادق.. وقلت وسط الضجة:

– دول حالقين جلط! حالقين لهم روسهم ليه؟ وتأملت الوجوه المشوهة باحثًا عن العامل بين الجنود ولم أستطع معرفته إلا بعد أن أمعنت النظر، ولم أعرفه إلا وهو يلوح للعمال بيديه المكبلتين، وإذ بامرأة طويلة تميل إلى السمرة مشدودة الرأس بطرحة سوداء بجانبها طفل يمسك بجلبابها، تقف بالقرب منا هي وآخريات، يصرخن صرخات عالية، متوالية بعد أن دفع الجند المساجين في القفص، واستمرن في الصراخ: إبني.. ضناي.. ثم بدأن يجففن دموعهن بملابسهن.. وارتجفت رجفة خفيفة عندما سمعت منهن تلك الكلمات المحزنة.. والتفت النسوة حول تلك المرأة الطويلة يهدئن من روعها، وأخرجت منديلها وكورته في يدها بانفعال.. خيل إلي أنها تضغطه وخيم السكون على القاعة، وأطبقت كالقبر.

وقالت في صوت يشبه الصمت همه عاملين فيهم كده ليه؟

ورد أحد الجالسين:

– السجن كده.. مكتوب على بابه تأديب وتهذيب وإصلاح.. بياكلوا عيش اسود تقرف الكلاب من أكله.

وسكتت القاعة، ووضع كل منا يديه على قلبه في انتظار ما نسمعه. وخرج صوت الأم من جديد من وراء المنديل المبلل بدموعها، كأنه الأنين، وآخرون يسكتونها: اسكتي يا وليه، وهي تردد: إبني.. إبني، وارتفع صوت من الأمام هز المحكمة.. ودخل ثلاثة معلقين أشرطة خضراء على أكتافهم، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم، وشخصت الأنظار وشعرت بالرهبة والرعشة ملكت كل جسدي، وخيم الصمت على القاعة. وشعرت بنبضات قلبي ترتفع، ولم أستقر في مكاني، فكثيرًا ما تململت عند نداء الحاجب على الأسماء.. وكانت قضية العامل.

وعلى يمين القضاة وقف أحد الأفندية، علق على كتفه شريطًا أحمــر، زيّــن بــالهلال ممسكًا في يديه ورقة، وبدأ القول:

- حضرات المستشارين، قضية اليوم هي من القضايا الهامة المتصلة بأمن النــاس وأرواحهم.

وقلت في نفسي هيه.. حلوه.. أمن الناس وأرواحهم.. وهمست في أذن عبد العظيم

- ده معانا.. بيتكلم عن أمن الناس وأرواحهم وإذ بعبد العظيم يقول:
- دي نيابة.
- ما هي معانا.. مش قلت لك إحنا كنا عايزين نكتب لها. واسترسل وكيل النيابة في القول:

.. قدمت على عجل لأهميتها.. ولوح بيده نحو القفص.. هذا القاتل الخــالي مــن كــل إحساس ملأت قلبه الأحقاد والغيرة.. قتل رئيسه.. قتله أثناء العمل على مسمع من الجميع قتل رئيسه المتفاني في خدمة المجتمع.

- جميع إيه.. هوا إيه ده.. أنت معانا ولا معاهم ما تقول الحق.. مش إحنا قلنا لــك إنه كان بيضرب العمال.. قول إنه كان لا يحترم خلقة ربنا وبيضرب الناس على وجوههم ويمنعهم من الذهاب للدورة.. قول.. قول الحــق.. مــش مكتــوب فــي الورق.. خايف ليه.. إيه العدل؟ أمال نيابة إيه.؟ أنا طول عمــري أقــول نكتــب للنيابة.. هيه النيابة تبقى كده؟ هوا أنت كمان حتبقى على العامل.. واسترسل وكيل النيابة في القول:
- ولأهمية القضية قدمت على عجل، مصنع لأول مرة في مصر.. مصر المستقلة.

فهمس أحد الحاضرين.. مستقلة إيه.. أمال الإنجليز اللي ماليه البلد دي..

واسترسل وكيل النيابة في القول:

.. مصنع يضم بين جدرانه الآلاف من العمال بينهم صفوة ضئيلة من خبــرة المثقفــين بذلت أمهاتهم العرق في سبيل العلم ونهضة الصناعة، فقام أحد الجهلاء مــن الــذين أعمــت قلوبهم الأحقاد وقتل رئيسه، ولوح بيده من جديد نحوه.. واسترسل قائلاً:

.. وهنا تبرز أهمية القضية.. وسبب التعجل في تقديمها.. قدمت علــى عجــل لأخــذ القصاص منه ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه بالاعتداء ولحماية الصفوة المتعلمة.

وقال عبد العظيم في همس:

- بس الصفوة.. أمال العمال اللي كل يوم بتموت ماالهمش حد علشان كده مستعجلين.. له رب..

وقالت واحدة من النسوة:

- حرام عليك.. ده بيربي يتامى.

وختم وكيل النيابة كلامه قائلاً:

- إنني أطلب الإعدام لهذا العامل ليكون عبرة لاستقرار النظام، ولتعود الطمأنينة للقلوب.

وهدأت القاعة وتململ الجميع والتقت الأنظار متسائلة.. أين العدل.. وقال آخر:

- عدل إيه؟

وإذا بصوت يجلجل من بعيد.. وكان صوت المحامي الذي وقف أمام القضاء.. يقول.. موكلي ليس هو القاتل.. ولكن القتلة هم الذين يختفون من وراء المكاتب، ويصدرون الأوامر.. ثم يسمونهم الصفوة المختارة.. صفوة المثقفين الذين رباهم الأهل بالعرق.. إن المظالم بلغت حد الإهانة بالقيم إن المظالم التي يعانيها العمال بالشركة، دفعت غير موكلي إلى الإقدام على هذا العمل.. فإذا أردتم الاستقرار ابحثوا عن السبب.. سبب المتاعب التي يعانيها آلاف الفلاحين الذين نزحوا للعمل في سبيل لقمة العيش. إن على أكتافهم هم تقام الصناعة.. هيئوا لهم حياة أفضل من تلك الحياة التعسة التي يحيونها.. إن هذا العامل ضحية من يختفون وراء الستار، وإذا أردتم معرفة الحقيقة. تفضلوا واذهبوا معي إلى المستشفى الأميري لتروا بأعينكم ما تفعله الشركة بالعمال، أما ما يقال إنه القاتل، فهذا غير صحيح لأنه لم يثبت عليه، ولم يعترف به أحد من العمال. لم يعترف رغم ما قاساه من تعذيب أثناء التحقيق.. كان يتكلم والقضاة تنصت، وقاضي اليسار يهتم كلما سمع كلمة مظالم، وكان يتململ في مكانه دائمًا، وكثيرًا ما كان يسند بيديه رأسه، وتارة أخرى يعبث بالورق، ويميل بأذنه على قاضي الوسط، والآخر يتململ كلما سمع.. فكان لا يتحرك. والعامل واقف في القفص يهز رأسه إعجابًا بالدفاع، وأم العامل ترفع يديها إلى السماء وتدعو في صمت علشان اليتامى.. وهمس عبد العظيم:

- قول.. اتكلم عن الدورة.. النيابة.. النيابة ما قلتش.. قول عن المكن اللي بيقتل كل يوم عامل.. قول الله يحميك.

وختم المحامي دفاعه قائلاً:

- إن هذا العامل يجب أن يخرج من القفص، ويوضع مكانـه مـن يختفـون وراء الكواليس، ووراء الماكينات.. إن موكلي بريء من واقع الأوراق، وأطلب البراءة.

وكادت القاعة تضج بالتصفيق لولا أن القضاة دقوا بأقلامهم على المنضدة.

ثم نهضوا ودخلوا إلى غرفة جانبية..

وعاد القضاة وأعلن قاضي الوسط الحكم، ثمانية سنوات مع دفع دية تقـدرها المحكمـة فيما بعد. ورنت القاعة بالتصفيق.

وقالت النسوة "إش تاخد الريح من البلاط؟ قالوها والدموع تتساقط.. وهلل العامل فـي القفص بعد أن قيدت يداه بالحديد، وهتف قائلاً "راح الظلم إلى الأبد". وخـرج مـن القفـص وأركبوه عربة سوداء وسارت بطيئة وسط شارع مزدحم بالعمال، والنـسوة يقفـن والعمـال يلوحون بأيديهم، والعامل يخرج يده المكبلة ويلوح بها طويلاً إلى أن اختفى عن الأنظار.

ونحن نسير في الطريق كانت دقات قلبي ترتفع وسألت من كانوا يسيرون بجانبي "انـتم ليه صفقتم عندما سمعتم الحكم؟ فقال أحدهم: "كنا نتوقـع الحكـم بإعدامـه.. كـان الجميـع يتوقعونه.. ولهذا كان هو أول المصفقين".. "ليه يحكموا بثمانية سنوات مش بيقولوا إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" فيه عادل يحكم على المظلوم ويترك الظالم.. أنا كنت فاكر أنهم هيروحوا يشوفوا بعينيهم.. المحامي مش طلب.. ليه همه لم يستجيبوا لطلبـه ويـذهبوا إلـى المستشفى.. لو راحوا يمكن ما كانوش حكموا بهذا الحكم.. لو شـافوا العمـال المتكـسرين.. والعمال اللي بتموت بالسل.. يمكن كان قلبهم رق.. ليه ما راحوش.. خايفين من إيه.. خايفين من اللي قال عليهم المحامي أنهم وراء الكواليس.. اللي بيصدروا الأوامر.. ومن هم؟.. من هم الذين يقصد المحامي؟ وأنا لما كنت عند المدير علشان أستلم الثوب وجدت فوق رأسه صورة مكتوب عليها "الملك أحمد فؤاد" وأخرى مكتوب عليها "طلعت حرب" متعلقين فوق رأسه يبقى دول اللي وراء الكواليس.. يمكن!! بس هو ما قالش.. ومقالش ليه، والمدير ليه معلق الصور فوق راسه.. وأفكار كتيره راودتني وقلت:

- يبقى همه دول اللي يقصدهم المحامي.. المره دي ما قالش.. يمكن.. يمكن مـره تانيه يبقى يقول..؟

(٥) الإضراب الأول

وذات يوم كنت جالسًا في الحجرة والريح تقذف بالشبابيك وإذ بالولد الغريب يزعق زعقة عالية.

- إحنا اتأخرنا، مش هانلحق نروح الشغل، ياللا يا واد أنت وهو كل واحد يوضب رغيفين بسرعة لحسن حايقفلوا الباب في وشنا واحنا لسه جايين، مش عاوزين المدة يتخصم لنا منها ولا يوم.

كان يتكلم بسرعة ولهوجة، وهو واضع يده في القفه والمنديل في إيده يربط فيه العيش وكانت الريح تشتد والمطر يتساقط وفي الطريق كانت العمال تغوص في الوحل وهم حفاة الأقدام متجهين إلى العمل، وإذا بصوت يزعق من الخلف قائلاً:

- هنفضل كده لإمتى؟ الواحد جسمه إتخشب، طول الليل ما بينامش، بيدفي نفسه في الشوال والبرد يخترقه كالرصاص، وينفذ إلى الجسم.

فرد عليه آخر:

- ما أنتم عاوزين كده، حسّنا إتنبح، كل يوم بنكلم، ياللا نطالب بالزيادة علشان نجيب غطا نتغطى بيه وانتم عاملين ودْن من طين وودن من عجين.

فرد آخر:

- هوه فيه رجاله؟.. الرجاله ماتت.

فزعق آخر:

- إيه يعني.. ما فيش ليه، عايزين من الرجاله إيه؟
- عايزين نطلب زيادة نجيب غطا، غطا نتغطى به.
- طيب ما تقولوا لنا نعمل إيه واحنا نعمل.
- مش عارفين تعملوا إيه؟ نعمل زي أهالي المحلة، نروح المصنع ونشتغل، ولما ييجي المهندس نروح موقفين المكن ونتلم عليه ونقول له خمسة تعريفه ما تنفعش.

فرد آخر:

- يمكن ما يرضاش.
- زي بعضه.
- إنت هاتقاطع، ديك الساعة يبقى اللي يعمله ربنا هو اللي يكون.
- ولما يكرشونا نبقى نعمل إيه؟
- الأرزاق على الله، هو خلقنا وحاينسانا، ده بيرزق الدودة في الحجر.

وبينما هذا الجدل يدور، كانت الآذان مصغية، آذان من كانوا يسيرون في الطريق يرفعون قدمًا ويضعون أخرى، ورءوسهم تهتز، وخيل إلي أنهم يفكرون فيما سمعوه وخاصة عندما سمعوا توقف المكن والخروج للمهندس عندما يأتي إلى العنبر، وقلت في نفسي وأنا أسمع هذه الكلمات:

– خلاص أهو بقى كل الناس بتتكلم، لما أروح لعبد العظيم، حاقول له نطالب بالزيادة أخرتها إيه؟ حيفصلونا؟ الأرزاق على الله.

وبينما كنا نسير إذا بأحد العمال يقع في الطين وآخرون يرفعونه وآخرون يقولون حوش يا جدع.. حوش اللي وقع منك.. وصهلل آخرون من الضحك بينما امتعضت وجوه أخرى وكشرت عن الأنياب دون أن ينبس أحد بكلمة، كنا نسير والمطر يتزايد والملابس تبتل والشوارع أصبحت كالأنهار، والجدع اللي كان يجري، ويحاول، أن يخفي نفسه بين جدران المنازل، ويعاود الجري من جديد، خائفًا من أن تغلق الأبواب. ودخلت العمال العنابر بملابسهم المبتلة ووقفوا بين المكن ينتفضون.. وخشيت أن تنسى العمال ما قالوه في الطريق، ووقفت على المكن بعد أن خلعت جلبابي ونشرته على جوانب المكنة لكي يجف. لقد شعرت أن أطراف أصابعي قد تصلبت من البرد، وكنت بين الحين والحين أعضها بجانب فمي وأنفخها. ومع هذا كان العنبر أكثر برودة. ومن شدة البرد أخذت نفسي واتجهت نحو عنبر البورش لأضع يدي بجوار البخار الذي يجفف الفتل، ولكن رئيس العنبر لمحني، فعدت من جديد، ومفاصلي تكاد تقع، ولكن سرعة المكن واللف حوله، ولضم المكوك، وأخذ الفتلة في النيرة، قد أنساني البرد وبدأ جسمي يستعيد نشاطه من جديد، وعدت أنظر للوجوه الواقفة، فوجدتها تعمل بنشاط وكل منهم ينظر للآخر.. كان كل منهم يريد أن يقول للآخر شيئًا.

– يقول للآخر من ذا الذي سوف يبدأ بتوقيف ماكيناته، ويتجه نحو المهندس عند حضوره.

ولم يتكلم أحد مع الآخر.. كان كل منهم يكلم نفسه دون أن يجرؤ على الكلام مع الآخرين. وقلت في نفسي:

.. من هذا العامل الذي سوف يبدأ، الكل ساهم، الكل يفكر فيما يحدث لو لم يتوقف المكن، الكل يفكر فيما يخبئه اليوم، هل سيبقى في العمل أم سيفصل وخاصة أن الشركة قد فصلت من كانوا يخدمونها في بداية العمل فيها، وقاموا بتعليم الآخرين وهم الذين علمونا، هل سيعطونا زيادة، أم يفصلوننا؟ وماذا سنفعل إذا رفضت الشركة، هل سنتوقف على طول أم سنعمل حتى لو فُصل الآخرون، وماذا يكون الحال لو وقع الاختيار علي في الفصل.. ماذا نقول لأمهاتنا، هل سنقول إننا كنا نطالب بزيادة في أجورنا – هل نقول الأجر ما بيكفناش،

سوف تقابلنا أمهاتنا بالصراخ، وهن يرددن: من رضي بقليله عاش – اعمل بخمسة وحاسب البطال، كل واحد يفكر في صمت وكنت أنا الآخر أفكر، وكلما مر على مكني أحد العمال كنت أعتقد أنه هو الذي سوف يبدأ بتوقيف المكن، عندما يلمح المهندس آتيًا من الخارج، وأنه هو الذي سيقوم بعملية التنبيه على العمال، ولكن يمر ويمر مخترقًا الصفوف.. صفوف المكن، دون أن يتكلم مع أحد، وكأن العمال هم الآخرون عندما يرون أحدًا يقف بجوارهم يظنون أنه هو الذي سيتحدث معهم فيما يجب أن يفعلوه، فيما إذا فصل المهندس أحدًا من العمال، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، واتجهت نحو عبد العظيم أسأله وإذ به يقول:

– أقف على مكنك.. إوعى تتكلم مع حد، إذا عملت العمال حاجه إعمل زّيهـا، مـا عملوش اللي يجرى عليهم يجرى علينا.. قلت:

– كل العمال بتتكلم ومنتظرين حد يتقدم.

فعاد يصرخ:

– قلت لك روح على مكنك وما تسيبهوش.

كان يتكلم ووجهه يميل إلى الاصفرار، كمن يشعر بأن شيئًا سوف يحدث، وتركته والدماء تجري في عروقي، ولم أعرف سببًا لخوفه، وقلت في نفسي:

– هو بيزعق ليه.. إيه اللي مزعله.. يمكن يكون خايف لحسن يكون أول واحد ينفصل، وخايف على إيه.. علشان إيه؟.. أمال مين اللي حيتقدم لو كل واحد عمل كده.. لو كان كل واحد منا حايخاف.. يبقى حننفصل كلنا، مش معقول!! وحنتوقف كلنا بقدرة قادر.. مش معقول –لازم حد يتكلم مع العمال.

بينما كنت أفكر وإذ بالمهندس يدخل، وتطلعت نحوه الوجوه، وراحت يتطلع بعضها لبعض.

ودخل المهندس ببدلة زرقاء، ذات جيوب عديدة مليئة بالمفاتيح، وقميص أبيض ناصع البياض، كان منظره يسر العين، كان وجهه ممتلئًا صحة وعافية.. وجه أبيض يشع بالاحمرار ولم تفارق وجهه الابتسامة، كلما رأى أحد الرؤساء يقف أمامه ويمد يده محييًا وكانت رائحة العنبر المنبعثة من ملابسه تضفي على من يمر بجواره البهجة والاطمئنان.. كان المهندس يستطيع أن يعرف ما بالماكينة من عيوب إذا وضع أذنه بجوارها برغم شدة الضجيج الذي تحدثه آلاف الماكينات.. كان كثيرًا ما يأمر العامل بإيقاف الماكينة، ويبدأ هو بعملية التصليح كالخبير في فن المكن، وكلما دخل من طرقة وخرج من أخرى كان كثيرًا ما يتطلع إلى الوجوه، وينظر متأملاً نظرات ذات معنى، وكثيرًا ما كان يتوقف بين المكن ويطيل الحديث

مع الرؤساء عن ضرورة الاهتمام بعملية التصليح.. وبينما كان يمر في العنبر، كانت العمال تنظر في قلق، وقال أحد العمال:

- أمال فين الرجالة اللي كل يوم بتتكلم!

المهندس جه وأهو واقف يلوح بإيديه مع الرؤساء.

وبدأ يمر خلف المكن، والعمال تنظر له ويعودون مسرعين بالوقوف على الفرامل، استعدادًا لوضع المكوك في الدرج.

ووقفت أتطلع إلى كل ما في الوجوه، وأيقنت أن الجميع قد أدرك ألا مفر من توقف المكن ولكن المشكلة هي من ذا الذي يبدأ بالكلام، ومن ذا الذي يتقدم بشرح المطالب!

وقلت:

- مافيش حل غير إننا نروح.. نروح كلنا ونقف قدامه ونتكلم في نفس واحد، وبالطريقة دي ما يعرفش حد.. وملت على أذن أحد العمال المجاورين لي وقلت له هذا، وقال هو الآخر للعامل اللي بجواره، والآخر مال على الآخر. ولم تمر لحظة إلا وقد انتشر الخبر في العنبر، ووقف الجميع بعيون قلقة ينتظرون.. يتطلعون في انتظار من الذي يبدأ.. من الذي يلوح بيديه مشيرًا لهم بالتوقف عن العمل، وبينما كانوا ينظرون لبعضهم البعض، كان هناك آخرون يخفون رؤوسهم بين المكن، كأن شيئًا لا يعنيهم، خوفًا مما قد يحدث.. خوفًا من أن تقع عليهم العين ويكونوا أول من يفصلون. إن الذي يخيفهم هو الفصل.. والفصل فحسب ولهذا فهم يخفون رءوسهم.

وقلت في نفسي: هؤلاء قلة ومن الممكن أن يتشجعوا لوقوف المكن، ونظرت إلى عبد العظيم، وإذ بي أجده واقفًا على المكن يتطلع ذات اليمين وذات اليسار. لم أكن مطمئنًا في وقفته، وأيقنت أنه هو الآخر واقف في قلق، ونظرت له طويلاً، وانتظرت منه أن يلوح لي بيده، ولكن يديه لم ترتفعا، فعدت وقلت في نفسي: نحن عندما كنا في الاجتماع.. كنا نتكلم عن الزيادة في الأجر.. والزيادة فقط، ولم نتفق على من منا يبدأ في توقيف المكن ويتجه أمام الجميع. وها نحن اليوم في حيرة، من ذا الذي سوف يبدأ، الجميع اليوم منتظرون.. منتظرون من يلوح بيده لعلنا نبدأ بالتوقف عن العمل، وعدت ونظرت إلى العمال، فوجدتهم كلهم يقفون على المكن ويلف كل منهم حوله بحركة لا إرادية، ويعود مسرعًا ليضع يده على الفرامل في انتظار أي إشارة من أحد، ومرت لحظات ليست بقصيرة والمكن لم يتوقف.

وقلت في نفسي: هو إيه ده.. كل واحد وقف وبيفكر.. كل واحد منتظر أن يبدأ الآخر، وبالطريقة دي مافيش حاجه هتحصل، وقلت: أنا ليه ما وقفش.. ولو وقفت هيحصل إيه..

يمكن لما أوقف المكن، مافيش حد يرضى يوقف باعتباري صغير، وهو معقول إن العمال الكبار حيوقفوا مكنهم بمجرد ما أنا أوقف مكني..؟ وإيه يعني.. ما أجرب، ولو ما وقفوش هيحصل إيه، ولو حصل الشركة هتعمل معايا إيه؟ حتفصلني.. ما يهمش.. أنا أوقف المكن.. هوقف وزي ما يكون.

وعدت وقلت في نفسي: يمكن عبد العظيم يزعل.. وهيزعل ليه؟ ما أنا بصيت له وعيني كانت في عينيه ومع ذلك ما بانش منه حاجه.. وإن زعل.. هو قال لي كتير: "إنك مالكش دعوه.. أقف على مكنك.. ما تتنقلش.. ما تتنقلش من مكانك، وأنا حفضل أسمع الكلام لإمتى.. دا لو الواحد حيسمع الكلام ده مش هيعمل حاجه.

وعدت ونظرت إلى الوجوه فوجدتها كما كانت جامدة وازدادت شحوبًا – وعدت ونظرت مرة أخرى إلى عبد العظيم فوجدته واقفًا هو الآخر.

وخيل إلي أنه هو الآخر في انتظار إشارة من أحد وقلت: من هو هذا الواحد الذي ينتظره الجميع.. من هو يا ترى، وأيقنت أنه لا فائدة من الانتظار.. المهندس هيمشي ولازم توقف المكن، وقلت لنفسي:

- خلاص.. ورحت موقف المكن.. ووقفت في الطرقة وكل ما في جسدي ينتفض، وتطلع العمال المجاورة إلي، ووقفوا مذهولين لأنني توقفت دون أن يكون في مكني تصليح، ونظروا إلي في ذهول، وقال البعض: – مش معقول ده يكون أول من يوقف المكن..

وقال الآخر.

- ليه ما يكونش.. متوقف إنت كمان.

وأوقف الفرامل هو الآخر، وتوقفت مكنه، وبدأ كل من العمال المجاورين يوقف مكنه وكلما نظر آخر ورأي المكن توقف.. وقف هو الآخر، وفي لحظات كان العنبر كله قد توقف.

وتطلعت للرؤساء في العنبر، وكل منهم ينظر إلى ساعته.. ظنًا منهم أن ساعة الغذاء قد حانت، ولكنهم فوجئوا عندما رأوا أن الساعة العاشرة واتجهوا على الفور نحو المكن، ولم يسألوا أحدًا من العمال ورفعوا الفرامل، وعادت العمال وأوقفت الفرامل، وعادت الرؤساء تسأل العمال.. والعمال لا تجيب وفجأة تجمعت العمال خلف المكن، جماعات.. جماعات.. وإذ بصوت بعيد يزعق.. هوه.. هوه.. وردد العمال كلمة هوه.. ووقف المهندس مذهولاً.. لم يكن يتوقع أن شيئًا من هذا يحدث، واتجه نحو المكتب.. المخصص لمدير النسيج والرؤساء خلفه، ووقفوا يتحدثون، ويلوحون بأيديهم غاضبين، والعمال تغني على المكن.

وإذ بالمهندس يزعق:

- وقفوا المواتير.

والعمال من بعيد تنظر، وتشجع أحد العمال قائلاً:

- مستنين إيه، ما تياللا، المهندس واقف أهه.. واقف وبيزعق.. ياللا نروح له، هو حاياخد روحنا.. ما يخدهاش إلا اللي خالقها.

وتردد البعض: من يسير في المقدمة، وكلما ساروا خطوة عاد السائرون في المقدمة إلى الخلف كلما قاربوا المهندس.. وبدعوا يتطلعون في وجوه البعض، وزعق البعض منهم:

- ما تقرب يا جدع أنت وهوه.. قربوا.. رجالة إيه أمال.. الرجالة ما تعملش كده.. الراجل يبقى في البيت والشغل كمان.. هو أحنا رايحين نسرق.. إحنا حنطالب بزيادة.. طول الليل ما بنامش.. من السقعة بندفن نفسنا في الأشولة، ومع كده البرد بيقطع في جسمنا.

وتشجع البعض للسير في المقدمة، وبدأت العمال تزحف وشحاتة أبو دشيش المهندس واقف في مكانه ويداه متشابكتان حول ظهره، والتف العمال حوله. وإذا به يقول في صوت رزين هادئ:

- إنتوا عايزين إيه؟

ورد الجميع في صوت عال:

- عاوزين زيادة.. زيادة في أجورنا.. خمسة تعريفه ما تنفعش.. إحنا اتعلمنا وأصبحنا بندور المكن ومسئولين عنه.

وإذا به يزعق كالوحش المفترس:

- كل واحد يروح على مكنه فورًا.. وإلا حتتفصلوا كلكم:

قالها وانتظر، ولكن العمال لم يغادروا أماكنهم، فأعاد كلماته والأوامر من جديد واستمر العمال في وقفتهم وهم يرددون:

- عاوزين زيادة في أجورنا.

وعاد من جديد يأمر العمال بالعودة إلى المكن، ولكنهم استمروا في وقفتهم، وإذ به يقول: اللي مش هيدور المكن يتفصل يخرج من الباب.. الباب يساع جمل.

واتجهنا جميعًا نحو المكن، وفك كل منا منديله..

وفي الطرقة سار الجميع، وكان البعض يحاول أن يعود إلى عمله.. وآخرون يدفعونهم للخروج..

وإذ بالمهندس يأتي مسرعًا ويقف في المقدمة ووقفت العمال. وإذ به يقول:

- عودوا إلى المكن.. وأنا رايح أتكلم.. أتكلم مع المدير العام علشان أطلب لكم زيادة.

وعندما سمعت العمال.. "حاتكلم مع المدير العام"

تعالت الأصوات: يحيا العدل، فأعاد المهندس القول:

وحاجي بعد الظهر وأقول لكم ما تم.

واتجهت العمال نحو المكن وهم مهللون فرحون، وبدأ كل منهم ينظر للآخر بوجه مشرق، وبدأت الماكينات تدور، وتعالى الضجيج، واهتزت السيور وانتشر الرؤساء في العنبر، يتفرسون في الوجوه باحثين عن من يسمونهم بالمشاغبين، ولم تبال العمال بالأحقاد التي تطل من عيونهم، وساروا في تحد يلفون حول المكن وابتعد الرؤساء.

(٦) جت العواقب سليمة

وجاءني أحد العمال المجاورين وهمس في أذني قائلاً:

- ياللا يا عم.. جت العواقب سليمة.

قالها وتركني، واتجهت بنظري نحو عبد العظيم، وإذ به واقف في مكانه لا يتحرك، وعيناه في الأرض، وقلت في نفسي.. ليه هو ساكت كده؟.. بيفكر؟ وبيفكر في إيه؟ بيفكر في أمه؟ وفي إخواته. هو لما روح لقاهم تعبانين في حرث الأرض ورش السبخ، وغرس البذور في الأرض، واشتغل وياهم، يمكن يكون بيفكر فيهم.. يمكن يقول في نفسه.. يا ترى هم عملوا إيه دي الوقت؟ واللا بيفكر في إيه؟ كثيرًا ما تحدث معي، وخصوصًا أنه أكبر إخواته.. وهو اللي بيساعدهم وكثيرًا ما تغرب بعيدًا عن البلد مع الأنفار في لم الدودة في أبعديات الملك، اللي واخدينهم من الوسية، ولما كانوا يتأخروا شويه كان يتحجز على شوية الحب اللي طول السنة تعبانين فيهم، وكثيرًا ما قال إنه ما صدق إنه لقى شغلة دايمة اللي بيشتغل فيها دلوقت، وعلشان كده لما عمال المحلة دوروا الضرب في العمال.. تصدى لهم.. كان أول من تصدى لهم علشان يستنى في الشغل ده.. يمكن لما سمع إن الشركة فصلت الناس اللي علموا العمال لأنهم بيطالبوا بزيادة، وما كانش لها خير فيهم، يمكن دا اللي خوفه، لأن أمه وإخواته معتمدين عليه، ودا اللي خلاه ما يوقفش المكن ويفضل على المكن شغال.

وعدت بتفكيري إلى ما قبل اليوم.. يوم أن جاءت النيابة.. ورحت له على المكن وطلبت أن يروح معايا ونقول لها كل حاجه، وهو قال لي: "روح على مكنك.. واوع تتنقل"، كان خايف على نفسه، وخايف على العمال، ولكن لما لقى العمال كلها راحت.. وقفت قدام النيابة، راح هو كمان، واتكلم بلا خوف. لأن الكل كان بيتكلم، والنهارده ما رضيش يوقف المكن، ولما العمال كلها وقفت. وقف وياهم.. يبقى هو عايز إيه.. عايز ما يتعرفش؟!

وأنا غارق في التفكير حول ما شهدت من مواقف عديدة، لا من عبد العظيم وحده بل من عديد من العمال، ولكن ما لفت نظري إلا موقف عبد العظيم، وإذا بالمهندس يدخل على مهل، ويداه خلف ظهره، واتجهت الأنظار نحوه، وإذا به يقف ويبتسم كالآتي بجديد، والتف الرؤساء حوله، واستمروا في الحوش، وتطلعت العمال، وزادوا من تطلعهم وشفاههم تتحرك كان كل منهم يقول لنفسه:

- هايحصل إيه؟.. دول واقفين بيشاوروا!!.. بيشاوروا على إيه؟! مش عارفين؟.. جاب لنا زيادة.. كم يا ترى؟ قرش تعريفة؟ مش معقول.. قرش صاغ؟! يبقى كويس، وأحسن لو ثلاثة تعريفه؟! يعني يبقى الواحد ياخد أربعة صاغ في اليوم زي عمال المحلة.. اللي علموا العمال، ما أحنا أتعلمنا، فلازم ناخد أجر زيهم،

ولكن الشركة ما هي فصلتهم، لو كانت عايزه تديهم.. بقى اللي ما فيهاش خير فيهم.. هتبقى لها خير فينا؟! مش معقول.. مش راح تدينا.

وسألت نفسي: دا الواحد لو خد ثلاثة تعريفه زيادة.. دا الواحد يتبسط، وآخد ويايه عيش وحلاوة.

ونظرت حولي، وإذا بالمهندس واقف في مكانه يلوح بيده للرؤساء، والرؤساء تلوح بأيديها نحو العمال، يتهامسون، ولم نسمع منهم شيئًا سوى رؤيتنا لشفاههم وهي تتحرك وجاءني أحد العمال ووقف بجانبي.. هم ليه ما بيجلناش؟!

.. مستنيين إيه؟!! هو مش قال حاجي لكم؟

وجاء آخر وقال:

- ضحكوا علينا.

فقلت:

- مستعجل على إيه؟ مستعجل على رزقك؟! طول بالك.

وقال آخر:

- دول متجمعين علشان يقولوا لبعض اللي عرفوه.. إياك ما يكونش الواحد فيهم.. أنا ما وقفتش إلا آخر واحد وكنت أول من دور المكن بعد ما دخلنا.

فقال رابع:

حاتدنكم كدا لامتى؟؟! حاتفضلوا كده خايفين؟

فرد واحد منهم:

- على طول.

وقد أيقنت أن هؤلاء المتكلمين هم من القلة التي كانت قد أخفت رءوسها خلف المكن، وقلت في نفسي: هم يمكن خايفين.. ما هو معقول.. هو كل الناس هتبقى زي بعضها.. فيه اللي بيخاف وفيه اللي ما بيخافش.. المهم إن كلهم وقفوا وفيه شويه ما وقفوش.. زي بعضه، يمكن المره الجاية يتشجعوا لما يلاقوا العمال كلها طلعت زي النهارده.. مش طلعوا ورانا؟! ما هو عبد العظيم راخر وقف مكنه على طول لما لقى الناس وقفت وقف.

وأنا غارق في التفكير حول ما حدث وحول ما سمعت، كلمات كثيرة متعددة، إذ بالمهندس يأمر بتوقف المكن وجمع كل من كانوا موجودين في العنبر، واجتمع الآلاف ووقف على كرسي من خشب واضعًا يده خلف ظهره، والتف للرؤساء بجواره، والعمال تترقب. وقال أحد الواقفين:

- اتكلم!! قول!! واقف ليه؟!! طمنّا يا شيخ.

وقال آخر:

- دي الوقت يقول المدير ما رضيش.

وقال آخر:

دا بيضحك.

وإذ بأحد الرؤساء يزعق:

- أقعد يا جدع أنت وهوه.. اقعد على الأرض

وقعدت العمال القرفصاء.. وأعينهم مثبتة في الاتجاه نحوه، وهمس أحد العمال:

- الواحد رجليه بتتململ.. ما تتكلم.. اتكلم وخلصنا.. الميه نقعت من رجلينا.

وحدث صمت وإذ بالمهندس يفتح فمه ويصمت الجميع، وإذ به يقول في صوت عالي النبرات، وقد ارتسمت على وجهه كل معالم الغضب:

- اسمع يا بني آدم أنت وهوه..

وقال أحد العمال في همس:

- هه.. قول هتشتم؟!! عارفين اللي حتقوله.. قول وخلصنا.

وقال آخر:

- سيبوه يشتم شتمتين من نفسه.. ما أحنا ملطمة في إيديهم.

تململ المهندس في مكانه، وعلا صوته:

- إحنا جيبناكم من كل البلاد.. كل واحد منكم من بلد.. جبناكم نعلمكم..

وقلت في نفسي.. هيه عارفين.. قول يا عم وخلصنا.. هيه دي زيادة.. ما تقول يا عم. واسترسل في الكلام.

- المدير العام كان حايفصلكم.. حايفصلكم جميعًا ولكن ولاد الخير أتوسطوا..

فهمس البعض:

- حاتقول علشان خاطري.. قول يا عم وطمنا.. هوه أنت جامعنا علشان تهددنا.. ما تقول عملت لنا إيه وخلاص.. واسترسل المهندس قائلاً:
- دلوقت نظام الأجر حايتغير.. كنتم بتشتغلوا باليومية ودلوقت غيرنا لكم هذا النظام.. حاتشتغلوا بالإنتاج.. كل واحد واقف على مكن، إسمه راح ينكتب عليه على طول.. اللي راح يشتغل أكتر.. يقبض أحسن.. كل واحد بشطارته.. كل

واحد راح يشتغل بالإنتاج.. حايشتغل بالقطعة وحانركب عداد لكل مكنة يحسب له شغله.. أما العمل اللي باليومية.. اللي تحت التمرين.. حايستنوا كما هم لا تغيير في أجورهم.. ولما العنابر الجديدة راح تفتح.. هايروحوا ويشتغلوا هناك..

وختم كلامه قائلاً:

- يوم القبض حاتشوفوا.. كل واحد منكم يقف على مكنه وما يسيبوش

وتوجهت العمال كل منهم إلى مكنه وهم يتهامسون:

- إنتاج إيه؟ هو إيه الكلام ده؟! دي حاجه جديدة.. بنطلب زيادة يقولوا لنا بالإنتاج.

وقال آخر:

- إه هانشوف.. دنك ورا الكداب لحد باب الدار.. وحانشوف يومها.
- دول ولاد كلب عاوزين يقرفونا من بعض.. إشي باليومية وإشي بالإنتاج.. علشان بعد كده العمال تتشتت.. وما تتلمش على بعض.
- إحنا خسرنا كل حاجه؟! إن ما جابوش زيادة أدي إحنا عرفنا آخرتها.. يوم القبض نبقى نشوف.

ومع هذه الأفكار والأحاديث توجه كل منهم إلى مكنه وبدءوا يتسابقون. ويتسابقون في العمل.. لم تسعفهم سرعة الماكينات.. فبدءوا يضعون أيديهم على الدف.. دف المكن المركب على المشط ويزقوه بأيديهم ظناً منهم أن ذلك يساعد على سرعة الماكينات.. والبعض الآخر يقطعون السيور ليزيدوا من سرعة الماكينات.. حركة من نشاط انتابت الجميع لا يتحدث الواحد مع الآخر إلا قليلاً.. وعلى عجل يقولون: هانشتغل لحد آخر جهد علشان نفوت عليهم الحجة.

وجاءني الولد الغريب وهمس في أذني:

- ياللا يا عم جاتلك على الجاهز.. أمك أصلها داعيالك.

كان يتكلم وعيناه تكاد تتساقط منها الدموع، وحاولت أن أطمئنه قائلاً:

- بكره حايوقفوك على المكن.

وإذا بعامل من الوافدين بجواري يأتي هو الآخر.. وبدأ يقول:

- ضحكوا علينا.. حايطفحونا الدم.. وآخر المدة ما نشوفش منهم حاجة.. بيقولوا حانشتغل بالإنتاج إنتاج إيه؟! هو فيه أحسن من اليومية؟! الواحد كان عارف إيه اللي رايح يقبضه.. ويبقى عامل حسابه.. لخبطوا لنا الدنيا ولا منهم جابو لنا زيادة ولا منهم سكتوا عنا.. وسابونا في الغلب اللي احنا عايشين فيه.

ولم أبادر بالكلام مع العامل خوفًا من أن يزعل الولد الغريب:

واستمر هو في الكلام إلى أن أشرق وجه الولد الغريب وعادت البسمة إلى شفتيه وهز رأسه قبل أن يغادر مكني:

- اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش.. أنا عارف كام في المدة حاقبضه!! حاسبهم باليوم.. أما إنت دلوقت موش حاتبقى عارف إيه اللي أنت رايح تقبضه. وقلت في نفسي أحسن اللي هو عرف كده، لكن يوم القبض لما حيبقى يشوف إني قبضت أحسن منه راح يبقى يعمل إيه؟ راح يزعل.. وهايزعل ليه؟ يمكن على بال ما ييجي القبض تكون العنابر الجديدة اشتغلت.. ويإخدوه ويقف على مكن.. ماهو المهندس قال.. يمكن يكون العامل اللي اتكلم ده عارف أن الشركة ضحكت علينا وما جابتش لنا حاجة.. إيه يعني اللي احنا خسرناه؟ ما خسرناش حاجة.. ومش كل واحد راح يقبض ماهيته كاملة؟! المره دي حصل كده والمره اللي جايه ما يحصلش.. نبقى ناخد بالنا.. وما نبقاش ينضحك علينا.. المهم ما فيش حد اتفصل ولا حاجه.. وده يمكن يشجع آخرين من اللي كانوا خايفين يوقفوا المكن.. وعدت وقلت:
- دإيه اللي حايخلي المهندس يعمل كده؟ إيه اللي خلاه يقول حاأجيب لكم زيادة وما يجيبش؟ هو حد غصبه؟ مش معقول ييجي ويتكلم قدامنا كلنا.. وبعدين ما يجيبش.. لازم حايجيبلنا زيادة.. أمال مهندس إيه؟ هو صغير؟! دا راجل.. والراجل يتربط من لسانه.. دا لو ما جابش كل الناس ما تحترموش..

كنت أحدث نفسي والمكن داير ويسرع من الدوران، وحركة العمل تزداد مع أن الكثيرين لم يصدقوا إن فيه شيء رايح ييجي.. الكل بيقول إنها حركة لا أكثر ولا أقل.. وبدأت حركة النشاط تزداد.. عمال تجري من هنا وعمال تجري من هناك.. الكل بيجري نحو عنبر اللحمة مستعجلين لوحة المواسيل المليئة بالغزل.. ما عندهمش صبر.. لما عمال اللحمة توصل لهم على المكن.. كانوا يعدون وهم يقولوا لأنفسهم: إحنا حانعمل على آخر جهد.. نعمل بالقرش اللي حانقبضه علشان ربنا يبارك لنا في الماهية.. وإن ماخدناش زيادة يبقى رزق العيال على الله.. يبقى ربنا ما أمرش.. وإن جالنا يبقى كويس.

كان كل منهم يحمل لوحة اللحمة على كتفة ويعدو بها كالريح، وآخرون يسيرون متباطئي الخطى.. غارقين في بحر من التفكير.. كل منهم يفكر في أمه وأخيه وفي ديونه.. والبهايم التي ستباع لصاحب الأرض حتى يأخذ ما تبقى من إيجار.. كانوا يفكرون في الحياة

التي يحيونها وتحياها أمهاتهم متمنين الزيادة.. واضعين كل الأمل فيها وآخرون واقفون على المكن وأيديهم على الفرامل ساندين رؤوسهم بأيديهم.

وجاءني عبد العظيم على المكن هو الآخر وقال:

- إنت ليه وقفت المكن؟ ما استنيتش غيرك ليه يوقفوا؟!

- انتظرت أن يوقف المكن أحد غيري لكن مفيش حد وقف..

انتظرت كثيرًا، وتوقعت إنك تبدأ ولكن ما حصلش، كان علي أن أوقفه، علشان الكل يوقف. ولما وقفته ما كنتش أظن إن العمال حاتبادر بالتوقيف.. كنت خايف لحسن يقولوا عليّ إنني صغير.. ولكنهم وقفوا المكن لأنهم شافوا إن الكبار عني ما وقفوش.. كانوا عايزين يطالبوا بالزيادة.. كانوا عايزين أي حد يبدأ.. وما كانش يهمهم مين اللي يبدأ.. كنت بصيت لك كتير، وانتظرت منك أنك تلوح لي بإيدك ولكنك وقفت على المكن وعينيك لي ومع كده ما صدرش منك أي إشارة. وإذ به يقول بصوته الهادئ الذي تعودت أن أسمعه دائمًا:

- كنت أفكر في البلد وأمي وإخواتي.. سبتهم مش قادرين على الشغل ومافيش حد وياهم، والأرض لازم تتزرع قبل الميه ما تروح.. مانيش عارف حصل إيه دلوقت.. إتحايلت علي أسيبهم وآجي، وقالت لي روح لشغلك علشان القرشين اللي أنت بتجيبهم هم اللي إحنا بنعتمد عليهم.. لولا دا ما كنتش جيت إلا بعد ما خلصت زراعة الأرض.. وده هو اللي خلاني واقف على المكن أفكر.. أفكر فيهم.. ولم يكن ببالي أي حاجه غير كده.. ما كنتش بفكر في الزيادة، ولا حتى في توقيف المكن، ولا في أحد سوى من تركتهم غرقانين في شبر ميه.. الزرع لما بينزرع بدري بيطلع كويس، ولما بيتأخر بيطلع عدمان وما يجيبش حاجه.

واسترسل في كلامه قائلاً:

- وأنت ليه وقفت المكن؟! ليه ما استنتش؟! ما كنتش خايف؟!

- حاخاف من إيه.. ما العمال كلها كانت بتتكلم، ما فيش رجالة؟ سمعتهم بيقولوا كده على طول الطريق، فكان لازم حد يوقف.

وإذ به يبادر بالقول:

- أهي كل الناس يا عم.. كل العمال.. بيقولوا الولد داهو اللي وقف المكن.

- وحصل إيه؟!!

- ولا حاجه.. كل الناس مبسوطة.. وأهي جات العواقب سليمة.. ربنا يعميهم عنك.. وإياك ما يجيش ولد ابن حرام ويبلغ الرؤساء عنك.

وقبل أن يذهب إلى مكنه قال:

- إياك ربنا يجعل تعبنا بفايدة.

وتركني وذهب إلى مكنه وبدأ يعمل بنشاط.. وكلما رأيته يعمل ازددت حماسًا للعمــل.. وكلما وجدت العمال المجاورين لي يعملون هم الآخرون بحماس ازددت أنا الآخر حماسًــا.. كان كل منا يحاول أن يثبت أنه أحسن من الآخر.

(٧) وجاءت الزيارة

انتهى اليوم، وجاءت الوردية الثانية، وبدأ كل عامل يتحدث مع زميله. ولم يقابل عمال وردية الليل خبر الشغل بالإنتاج بالارتياح.. وبانت على الوجوه كأبة. وقال بعضهم:

-جيتوا تكحلوها عميتوها.. إيه اللي خلاكم عملتم كده، ما كنا شغالين في أمانة الله وراضيين بقليلنا.

وقال البعض الآخر:

– السنة السودة بتبان من أولها.. تطلع من مصيبة تلاقي مصيبتين.

لم أحتمل الكلمات، وخشيت أن يعرفوا أنني الذي تسببت في توقف المكن.. خرجت من العنبر.. وإذا بعمال السحب والبرم يخرجون طوابير بوجوههم المعفرة ورءوسهم المليئة بالغبار، ويقولون لبعضهم البعض وهم يلوحون بأيديهم غاضبين:

– همه عمال النسيج اللي اتسببوا لنا في الشغلانة المهببة دي.. كل واحد منا كان عارف ماهيته.. قلبنا الدنيا.. أهو كل واحد حايجي من بيته يشتغل على فيض الكريم.. يجيي من طلعة الشمس لحد بعد العشا ونروح.. ومش حانبقى عارفين جبنا بكام.. واحنا كان مالنا.. هو أحنا كنا اللي وقفنا المكن؟! هو أحنا عملنا إيه؟! بيجازونا على إيه؟! ما يجازوا اللي وقفوا المكن.. إحنا في الغزل.. إحنا في البرم.. شغالين بأمانة الله.. ما حصلش مننا حاجة، يا سنة سوده، هوه اللي بيعمل زي اللي ما بيعملش؟!

وزعق آخر:

– هوه إيه ده؟! مالكم كده.. حزنانين ليه؟! اللي تخافوا منه ما يجيش أحسن منه.. هوه لامنكم ولا يكفينا شركم.. أنتم عاملين زي المثل اللي بيقول:

"تعمل طيب تلاقيه ردي.." استنوا لما تشوفوا.. بتزعقوا زي الغربان كده ليه؟!

فرد آخر:

– نستنى إيه؟! ماهي باينه من دلوقت.. بكره يغالطونا، وإذا حد أتكلم هايقولوا له إنك اشتغلت بالإنتاج.. إنتاج إيه؟ هوه احنا بنعرف نحسب؟! كان كل واحد عارف اللي بياخده في اليوم. قرشين صاغ في المدة يبقى بكذا.. دلوقتي هانعرف إزاي؟!

وأحاديث وأحاديث على طول الطريق، والقلوب تغلي والوجوه شاحبة، وجوه يغلب عليها الاصفرار وأخرى محمرة، وقلت في نفسي: همه زعلانين كده ليه قوي.. مش عاجبهم اللي إحنا عملناه.. أمال كنا نعمل إيه.. كنا نستنى كده لإمتى.. لا عمال وردية الليل عاجبهم

ولا عمال الغزل والسحب والبرم عاجبهم.. وهو احنا كنا بنطالب إننا نشتغل بالإنتـاج، إحنـا طلبنا زيادة، وهنعمل إيه إذا كان المهندس هو اللي جه وقال انتوا حتشتغلوا بالإنتاج.. صحيح هم مالهم ومال الغزل.. لا طلبوا ولا حاجة.. هم صحيح مش راضيين على أجورهم ولكنهم لم يطلبوا، وبيشغلوهم بالإنتاج ليه؟! وعدت وقلت في نفسي:

ما هو الخير لما ييجي بيعم والشر لما بييجي بيعم، وإذا كانوا مش راضيين على اللـي حصل يمكن بكره يرضوا.. همه بيشتموا عمال النسيج ليه؟ بيشتموهم علشان وقفوا المكن؟! ما هو مفيش حد منهم وقف.. أنا اللي وقفت الأول، ويمكن لو مكنتش وقفت، ما كنتش حاجه زي دي حصلت.. وليه.. ليه؟ يمكن حد غيري كان حايوقف.. يعني همه دلوقـت يـشتموني لـو عرفوا إني وقفت المكن.. هيعملوا إيه فيه.. دول لو عرفوا حايفسخوني.. جبت لهـم الأذى.. وهو أنا كنت عارف إنهم راح يشغلونا بالإنتاج.. أمال عمال النسيج مفيش حـد مـنهم جـه وشتمني؟! يمكن علشان همه عارفين بينهم وبين نفسهم إن حاتجلنا زيادة!! ما هو أنـا شـفت البعض منهم كان فرحان والبعض الآخر كان غضبان، وهاعمل إيه يعني؟ بكره الميه تكـدب الغطاس.. همه ما قالولناش كلمة عن الزيادة اللي حتجيلنا، وعلـشان كـده النـاس زعلانـه ويزعلوا ليه.. هم مش بيشتغلوا وخلاص، حايزعلوا ليه من دي الوقت.. هي أمي مش كانـت بتقول اللي تخاف منه مافيش أحسن منه، هي أمهاتهم ما قالتش قدامهم كده. خـلاص.. اللـي فات مات مش حايبان إلا يوم القبض، يوم القبض بس يبقوا يشوفوا.

ولم أشعر بطول الطريق من كثرة التفكير، ودخلت حجرتي منهك القوى من كثرة مـا قمت به من عمل منذ أن قال المهندس: كل واحد يشتغل بالإنتاج، ونمت دون أن أشعر.

ومرت الأيام.. والرؤساء تسير بين المكن وقد ازدادت شراستهم في معاملة العمال منذ أن مات واحد منهم، وازدادوا شراسة، أكثر عندما رأوا العمال تتجرأ في القيام بتوقيف المكن والمطالبة بزيادة، ومع هذه الوحشية كانت العمال تعد في الأيام.. والأيام تمر بطيئـة.. فـي انتظار ما يقبضون بعد ما أعلن المهندس أن الشغل أصبح بالإنتاج.

كم من الأيام مرت، وكم من الليالي ضاع فيها النوم، وفي يوم القبض اتجهـت العمـال نحو العمل، وكل منهم واضع يده على قلبه.. الخوف من المهول يزداد.. الخوف بـادٍ علـى الوجه.. أحاديث شتى مختلفة رغم برودة الجو وتساقط المطر، أحاديث حول ما سيقبض كـل منهم.. اشتغلنا على آخر الجهد، ولما نشوف.. وقال آخرون: اللي حايدوه لنا باليمين حاياخدوه بالشمال، وصمتوا لحظة ثم عادوا يقولون:

- ده لو فرض وأدونا.

ورد آخرون:

- ما كناش عايزين منهم حاجة.. يسيبونا همه في حالنا.
- مش عايزين؟ مش عايزين إزاي اللي بيجي منهم أحسن من عينهم.
- ابقى قابلنا.. دا المهندس ابن حرام دا ما جابيتوش ولادة.. ميه من تحت تبن.. ده لما بيخش العنبر يبقى داخل يضحك.. يضحك هنا ويضحك هناك.. يبقى بيتهيألك أنه بيضحك للعمال.. ولكنه بيضحك للرؤساء.. الرؤساء اللي بيتصفوا له زي العساكر ويحنوا له الرعوس.

واسترسل قائلاً:

- هو أنتوا ما بتشوفوش السيد أفندي بيبقى يعمل إيه.. بيحني راسه.. ويطاطي لحد الأرض من أول ما بيشوفه.. حايبقى ده قلبه علينا، وحايجيب لنا زيادة زي ما قال!!

دول لو طالوا يعصروا دمنا يعصروه.

وقهقهة عاليًا.. قال زيادة قال.. أنتوا عاملين زي الفرخة اللي بتحلم إنها في سوق الغلة.. ماشيين ومطمئنين أوي.

فرد آخر:

- مطمئنين إيه؟! هو أنت يعني شايفنا ماسكين مزيكه.. ماحنا عارفين كويس هو اللي بيضربنا حايجيب لنا زيادة.. بس ربنا يعميهم عنا.. الحمد لله اللي فاتت على خير.

وقال الولد الغريب:

- شايف يا عم.. الناس بتقول إيه.. أنت فاكر أنك حاتجيلك زيادة.. أهي كل الناس بتتكلم أهه.. وقلت في نفسي:
- يعني إيه؟ هو الواحد تعبه هايروح على الأرض والواحد اشتغل لما طفح الدم.. وهزيت رأسي وقلت:
- زي بعضه، هي الناس مش بتقول إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، أهو أنا عملت كده، واللي عند الله ما يضيعش.

ودخلت العنبر، ووقفت على مكني مترقبًا انتهاء اليوم، كما ترقب غيري من العمال خروج الرؤساء من العنبر إلى الإدارة لإحضار النقود، وقلت في نفسي:

- يا ترى الأكياس حاتيجي مليانه ولا حاتيجي ناقصة، لو سمحوا لنا بزيادة زي المهندس ما قال هاتيجي الأكياس مكعبرة.. مكعبرة فلوس.

ونظرت إلى الساعة وإذا بالثواني واقفة لا تتحرك كما خيل إلي، وبدأت في الدوران حول المكن، وعيناي متجهة نحو الباب، والعمال المجاورون لي يعملون في جهد، وعبد العظيم واقف في مكانه ويداه على الفرامل، وشفتاه تتحركان، وكلما توقف المكن أسرع لإدارته، وعاد إلى وقفته يحرك أطراف أصابعه، واحدًا بعد الآخر، وقلت في نفسي: إنه بيحسب كم من الفلوس حايقبضها، أهلك نفسه.. مسكين.. في الشغل، منذ أن أصبح الأجر بالإنتاج، من ساعتها لم يتحرك من مكانه، اشتغل على آخر جهده.. دي الوقت حاياخد كام؟ وكلما رأيته يعمل ازددت حماسًا إلى العمل، وبين الحين والحين أنظر للساعة والساعة كما هي عقاربها بطيئة. وقلت في نفسي:

– أنا ليه ببص للساعة، وكل ما أبص لها يتهيأ لي أنها واقفه، أحسن ما أبصلهاش أبص للمكن وأتجاهل الساعة، ولما العمال اللي جنب الباب يشوفوا الأفندية جابوا الفلوس هايهللوا.

وأنا غارق في التفكير حول القبض، وحول ما آخذه معي.. وحول المقطع الحرير والجزمة الجديدة، إذ بي أجد الرئيس واقفاً بالقرب مني، لم أره عند وقوفه، وتلفت حولي متجاهلاً وجوده، وحاولت أن ألمحه خلف المكن، وإذا بي أجده واقفًا وبيده ورقة، يتطلع لي تارة وينظر إلى الورقة تارة أخرى. وسألت نفسي:

– هو ليه واقف بيبص.. وعلى إيه بيبص!! بيتفرج على حد؟ أو بيراقب حد؟ ما هو من يوم ما العمال ما وقفوا المكن، وهم عمالين يتلطعوا بين كل مكنة وأخرى.. يمكن بيحثوا عن اللي كان السبب؟! ولا ليه واقف؟

وإذا به يتحرك نحوي، وفجأة وقف بجواري ينظر في الورقة ويعيد النظر لي من جديد ووقف بجانبي، وحاولت جاهدًا ألا يتوقف المكن في وجوده، وأسرعت ألف حول المكن، ومن خلال اللف استطعت أن ألمح ما في الورقة، فوجدت ٣٨٥، ٣٨٦ وهي نمرة الماكينات اللي أنا واقف عليها، وعندما رأيت ذلك قلت في نفسي:

يا نهار أسود.. دي نمرة ماكيناتي.. ومعاه النمر ليه؟!

حاينقلني؟ وحاينقلني ليه؟!! ما أنا شغلته.. وشغلته كويس.. وانقبض قلبي، وساورني الذعر، وعادت الطمأنينة عندما تركني واقفًا دون أن يتحدث معي، أو دون أن يطلب مني ترك المكن، ولم تمر لحظة.. لحظة بسيطة جدًا.. إلا وعاد من جديد، ولم يكن وحده.. بل كان معه رئيس آخر من رؤساء العنبر، ووقفا على بعد خطوات وأعينهما في الاتجاه نحوي وعاودني الخوف من جديد وقلت:

- يبقى هو جايب الرئيس ده علشان يقول له حاجة.. حايقول له إيه؟ حايقول له نشيله من على المكن؟ ده هوه اللي شغلني عليه.. ده هو اللي عيني في النسيج يوم ما قلت له إن أبويا ميت وبساعد إخواتي.. يبقى حاينقلني ليه! يمكن معاه أمر.. أمر من اللي قال عليه المحامي إنه ورا الكواليس وهو صعبان عليه تنفيذه.. يمكن عاوز يقول إني شغال كويس وجايب الرؤساء معاه علشان يوريني لهم.. وهو يقدر؟ يقدر يعصى الأوامر؟ مش معقول.. أمال واقفين ليه!! يمكن بيتشاوروا؟ واختلست النظر، وإذا بي أجدهما ينظران إلي.. وانتابني الغضب وساورني الرعب، وخفت عندما رأيتهما يتجهان نحوي.. وأتى لهما رئيس ثالث، وقلت: إيه الحكاية؟ لازم حصل حاجة.. يمكن حد قال لهم إن أنا اللي وقفت المكن.. وهمه جايين يشوفوني.. جايين يتأكدوا.. الرئيس بتاعي جايبهم علشان يقول لهم إنه صغير ومش معقول إن ولد زي ده يوقف المكن، والرجاله دول اللي زي الفحلة يمشوا وراه ويطاوعوه.. يمكن بيدافع عني.. يمكن بيقول لهم إنه ولد غلبان وأبوه ميت وأنا اللي شغلته.. وهمه رايحين يصدقوه؟! مش معقول مفيش حد بيصدق.. دي الوقت راح ييجوا ويقولوا أنت مشاغب.. وتسببت في تعطيل المكن.. الناس قالوا لنا عليك.. دي الوقت يقول إنك مفصول.. الشركة فصلتك.. مفيش فايدة.. خلاص.. مفصول.. مفصول.. وحاعمل إيه لو جم وقالوا لي! حاتمسكن قدامهم وأقول لهم لأ.. ما حصلش.. مش معقول.. حاكذب؟ الكذب حرام.. أنا اللي وقفت المكن والعمال اللي جنبي شافوني، وأنا اللي قلت لهم ولو قلت: لأ واتمسكت العمال دي كلها حاتقول لي كداب.. ويستنقصوني في نظرهم.. وحايقول لي ليه إنت كنت بتتلامض؟! يا خبر أسود حاكدب؟! حاعيط!! لا حاقول لهم أيوه.. أيوه وقفته.. هو بياخد الروح إلا اللي خالقها!!.. فصل؟! زي بعضه.

وعندما قلت ذلك امتعض قلبي.. وشعرت بقشعريرة تملك كل ما بجسدي عندما تصورت الفصل، وخروجي من المصنع حاملاً المنديل والولد الغريب، والولد السيد الصفتي يفضلوا في الشغل.. ولم أستطع السير، وجلست بجوار المكن ووضعت يدي على خدي، وسرحت لحظة في المصير.. وقلت في نفسي حاتفصل!! وحاروح البلد.. وحاشتغل في إيه؟! حاقعد جنب الحيطة؟! وكل واحد يقول لي تعالى.. إفحت معانا في الزريبة! شيل معانا سبخ على الحمار.. إسرح بالبهايم.. إزرع الخص.. وحارجع البلد وأمشي حافي، ورجليا تتشقق من الندى. ويبقى فيها كل شق وأخوه يساعي الفار يدخل فيه؟! وأمشي بجلابية مقطعة، وصدري يبقى مفتوح! يا خرابي.. يا خرابي.. وأمي حاتعمل إيه؟ حاتلطم.. حاتلطم على صدغيها..

حاتقول لي: خيبت نفسك.. لا نفعت في الكتاب ولا نفعت في المصنع.. حاتقولي: جاءت الحزينة تفرح ما لقلتلهاش مطرح، وحاتقول أبوك كان عايزك تبقى زى الناس اللي في مصر.. كان عايزك تبقى متعلم، اللي يخالف كلام الوالدين، ما يرضاش عليه ربنا.. أهو أنت خبت وبقيت.. تقعد جنب الحيط.. تسمع كلام الناس اللي تسوى واللي ما تسواش.

أفكار قاتمة سوداء، وعدت أقول في نفسي:

- وكنت أنا ليه مستعجل!! ما خلتنيش في حالي ليه، يعني لازم كنت أعمل فلحوص؟ ليه ما خلتنيش زي كل الناس، واللي كان يجرى عليه يجرى عليهم.. ما سمعتش كلام عبد العظيم ليه؟ لو كنت سمعت كلامه، ما كنش ده كله حصل.. هو دي الوقت واقف على المكن مرتاح.. ناصح. عمل حساب نفسه وحساب أمه وإخواته.. وده هو اللي خلاه ما وقفش المكن. خواطر سريعة متلاحقة.. وعدت وقلت:
- هوه إيه ده.. هو اللي بيعمل طيب يرجع ويتندم عليه؟؟ من عمل صالحًا فلنفسه.. ومن أساء فعليها.

هو الولد اللي بلغ عني ده ربنا حايسيبه؟! حاينتقم منه.. أنا ما عملتش حاجه وحشة، فليه يبلغ عني؟ هوه أنا عملت معاه حاجة؟ ليه بيأذيني؟ هو متلطمش.. هو مالوش أم؟ هو قلبه من حجر؟ بيخبص على الناس ليه؟! دا اللي يخبص كل الناس بتحتقره.. أنا عملت كده.. واللي عمل حاجه يستحمل اللي يجرى له.. ما هو كان لازم حد يتقدم.. أخرتها إيه؟ حايفصلوني؟! عملت اللي عليه.. ومش هاتندم – أمال العامل اللي أتقدم وموت الرئيس الظالم؟ مش خلص العمال منه؟ وعمله ده مش هيضيع في الأرض.. هايجي يوم والناس تعرف.. كل الناس راحت وشافته.. شافته في المحكمة.. أهو دلوقت في السجن.. بياكل عيش أسود يقرف الكلاب.. هو كان عارف أن ده راح يحصل له؟ اللي حصل له حصل له.. وأهي العمال دلوقت مبسوطين منه، من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته.. يمكن لو كنت استنيت أكتر من كده كانت تجيلي خبطة مكوك تموتني.. أحسن اللي جت علي قد كده.. حايقولوا ليه؟ مش حايقولوا أتفصلت علشانا؟! أحسن ما يقولوا إني كنت خواف.. لما يقولوا كده أحسن.. هو الواحد لو كان فضل راضي بالظلم كانت الناس حاتقول عليه إيه.. تقول عليه جبان؟ الواحد يشتغل راجل وينفصل راجل، أحسن ما يقف ويعيط قدام الرئيس.. أحسن ما يقولوا إني اتسببت في قطع عيش واحد.. أو خبصت في حق واحد.. والعامل اللي موت الرئيس سيرته على لسان كل الناس.. كل الناس بتدعيله.. ليه؟! لأنه ضحى علشانهم.. اللي عند العمال ما يضيعش.. أخويا قال لي: الراجل يعيش ويموت راجل.. وحاعمل زي ما أخويا قال لي.

أفكار وأفكار وخواطر سريعة ومتلاحقة، وأنا غارق في التفكير، وأحاول أن أشجع نفسي وأزيح شبح الخوف.. شبح الفصل وقطع العيش، وإذا بالرؤساء تتحرك نحوي.. وشعرت بالخوف من جديد وإذا بأحد الرؤساء ينظر إلى الأقمشة ويضع يده يتحسسها، والرؤساء الآخرون واقفون بجوار المكن يهزون رؤوسهم.. والعمال تتطلع في قلق وينظرون خلسة من خلف الماكينات ويقولون:

– إيه اللي حصل؟ عمل إيه ده؟ رايحين جايين كده ليه.. حايعملوا معاه إيه؟

كانوا خايفين وأنا واقف وركبي سايبه، والمكن يسرع في الدوران والسيور تهتز وتسرع في اهتزازها كالخائفة.

قلت في نفسي: ما تقولوا عايزين إيه؟ أول ما تقولوا حاقول لكم على طول.. مش حاخاف.. قولوا وخلصونا.. وإذا برئيس القسم.. الرئيس اللي عيني يضع يده على كتفي ويهز رأسه مبتسمًا، والمكن يسرع في الدوران، وإذا بالرئيس الآخر يهمس في أذني قائلاً:

– إسمك في المكاتب والمهندس جاي حايشوفك.. قالها هو الآخر وزاد الخوف في قلبي وساروا دون أن يقولوا شيئًا يطمئنني.. ساروا ينظرون في الطرقات ويتطلعون في وجوه الواقفين كالباحثين عن شيء.. وإذا بهم يقفون عند أحد العمال.. واتجهت أنظار العمال نحوهم، ثم عادوا يتطلعون لي من جديد.

وقلت في نفسي: همه راحوا يبصوا هناك ليه؟ يبحثوا عن حد تاني، يبحثوا عن غيري.. اللي بلغ عني بلغ عن آخرين. دا كلب.. قليل الأصل.. حايجيله إيه بس من قطع أرزاق الناس؟ إيه اللي راح يقبضه؟ إحنا كلنا في الغلب سوا.. حايدوله حاجة؟ إذا إدوله مره مش حايدوله التانيه.. إزاي عامل يخبص على العمال.. هي دي تبقى رجولية.. هوه فاكر إنه مش راح يتعرف؟ وقطع العيش زي قطع السيف.. دا لو اتعرف.. دا الواحد يفخت عينيه.. هو قطع العيش سهل؟ يقطع عيشنا وحانسكت له؟ مش معقول.

أفكار سريعة تتوارد دون وعي، وإذا بعبد العظيم يأتي مسرعًا، متخفيًا خلف المكن، خوفًا من أن يراه أحد الرؤساء.. وهمس في أذني:

– هم وقفوا جنبك ليه؟! قالوا لك حاجة!

فلم أجب.

وأعاد السؤال ثانيًا.. وأخيرًا قلت:

– مش عارف.. قالوا لي المهندس جاي واسمك في المكاتب.

– وفي المكاتب ليه؟

- مش عارف.
- أنا مش قلت لك ملكش دعوه؟ ما تتكلمش.. اللي يجرى علينا يجرى على الكل.. ماسمعتش الكلام.. جالك كلامي؟!

فلم أحتمل الكلام.. ولم أستطع الوقوف، فجلست بجوار المكن، فجلس هو الآخر بجواري واستمر في الكلام..

- مالك؟! قعدت ليه.
- مش قادر.
- قوم.. قوم لا تشوفك الرؤساء إن جم وسألوك قول لهم ماعرفش.
- مش معقول؟! حا اكدب؟!
- وإيه يعني؟
- وإيه يعني إيه؟ هو اللي عمل شيء مش يستحمله؟! إشمعنه إنت لما أهالي المحلة طلعوا على العمال وضربوهم.. اتصديت لهم إنت ليه؟! مش كنت حاتموت واحد؟! قلنا لك مالكش دعوة.. مش زعقت معانا وقلت لنا حانسكت لحد إمتى، نستنى لما يركبونا؟! مش معنى دلوقت بتقول لي مالكش دعوة.. لا يا عم ما أقدرش.. أنا حا اقول الحق.. أنا اللي وقفت المكن أيوه وقفته.

قلت ذلك في غضب وجسدي ينتفض، وعندما سمع مني هذه الكلمات جز على شفتيه ولم ينبس بكلمة ولم يحتمل الوقوف، وتركني وذهب، وبقيت في مكاني جالسًا بعد أن غيرت المواكيك في الدرج بلحمة أخرى، وإذا بأحد العمال المجاورين لي يقذفني بماسورة لينبهني بمرور الرئيس، فهممت واقفًا ساندًا نفسي على جوانب المكن، وإذا بالرئيس يمر دون أن يلتفت لي، وتتبعته بعينين لا تريان شيئًا، وإذا به يخرج من الباب مسرعًا في الاتجاه للخارج وتبعه رئيس آخر وآخر، وقلت في نفسي: خلاص.. همه دلوقت طلعوا على بره.. طلعوا على الإدارة علشان يجيبوا أكياس القبض للعمال، وعادت الطمأنينة من جديد، ووقفت رافع الرأس ناظرًا للوجوه وإذا بي أجد كل الناس واقفة على المكن، وتحرك بعضهم بطيئًا ومنهم من كان يسرع الخطوات، وبدأت موجة من الاجتماعات هنا وهناك منتهزين فرصة خروج الرؤساء كانت الأحاديث كلها تقول:

- الزيادة.. وهل معقول حاتجيلنا زيادة.. النهارده حاتبان.. النهارده ولا كل الأيام.. النهارده الفاصل.. أحاديث وأحاديث، وعاد الرؤساء من خارج العنبر حاملين الأكياس، وكلمة "هو".. تزداد ورءوس ترتفع وهامات تشب.. وعمال تعدو من هنا وعمال تعدو من هناك كلهم راغب في أن يلمح ما في الكيس، وجاءني الولد

الغريب.. حافيًا.. يجري ومن خلفه السيد الصفطي واضعين أطراف الجلباب في أسنانهما، ووقفا بجواري يهللان، ووجهاهما محمران وقال الولد الغريب والولد السيد الصفطي:

- شفناها مكعبرة.. ومليانه للآخر.. فلوس تملا حجر.

كما جاء عبد العظيم يجري، والبسمة تعلو الشفاه قائلاً:

إبسط يا عم.. جت العواقب سليمة.. الفلوس زي الرتش.

قالها أكثر من مرة وهو يلتفت ذات اليمين وذات اليسار وهو يردد: الفلوس جت الفلوس جت ولم يتمالك نفسه فوضع أصابعه بين أسنانه وبدأ يصفر ويصفر على أنغام السيور والعمال تهلل، وكلمة هو.. هو.. تزداد، وجذبني من يدي وهو يردد:

- تعالى لما نشوف.

وإذا بي أجد الكيس ممتلئًا بالفلوس، والرئيس جالس على المنضدة يعد، فلمحته من بعيد، وعدت إلى مكني، وقد زال الخوف، والعمال يحضن بعضهم بعضًا مرددين:

- الفلوس جت.. الفلوس جت.. مالية الكيس.. عملناها ونفعت.. رزق العيال..

كلمات وكلمات.. وجاءني أحد العمال، وقال:

- الليلة نتقابل على الباب.

وجاءني آخر:

- كنت خايف لما الرؤساء جت ووقفوا جنبك كنا حاطين إيدينا على قلوبنا.. الحمد لله عماهم ربنا عنك.

وقلت في نفسي: وعلى إيه.. واسترسل في كلامه قائلاً:

- يظهر المسألة نفعت بس أنا ما اشتغلتش كويس المره اللي فاتت.. كان الواحد بيشتغل وقلبه مكسور.

وجاء آخر قائلاً:

- أنا اشتغلت على آخر الجهد ولما أشوف حاقبض كام.

فرد عليه آخر:

- أهو أنت اللي طلعت كسبان.

وبينما نحن نتحدث، نادى الرئيس على العمال اليومية وبدءوا يصطفون واحدًا بعد الآخر، وانتظموا صفوفًا متراصة، وبدأت الأنظار تتجه إلى هناك، ووقفت في مكاني غارقًا

في التفكير، وقلت لنفسي: على الله بس المهندس ييجي واطمئن.. هم ليه بس قالوا لي اسـمك في المكاتب، واسمي في المكاتب ليه؟ لا منهم قالوا لي سيب المكن وامشي ولا منهم قالوا لي إنك عامل كويس، الناس كلها فرحانة، وأهو الولد الغريب والولد السيد الصفطي واقفين فـي الصف بيقبضوا.. حايقبضوا ماهيتهم كاملة، مفيش حاجه شغلاهم، وأهو أنا واقـف دلوقـت.. واقف تعبان، ولا مني حصلت باليومية، ولا مني حصلت بالإنتاج.. ليه المهندس مـا جـاش، يمكن يكون نسي ييجي، وهو معقول حايفضالي وحاييجي علشاني يمكن يكون قال للـرئيس.. قبّضه وقول له ما تجيش بكره.. إنت مفصول علشان عطلت لنا المصنع، طيب.. والرئيس ليه ماناداش.

وأنا غارق في التفكير والعمال فرحانة تهلل وإذا بالمهندس يدخل من الباب. ومن خلفـه حسن السمرة أحد رؤساء النسيج.. دخلا يلبسان البدل، وملغمطين ريحة.. غطت على كل مـا هو كريه في العنبر.. غطت على الشحم وعلى الزيت وعلى ريحة "الشخاخ" النتنة المجـاورة للمكن نتيجة غلق الدورة، يسيران وتسير معهم الريحة في الطرقات كأنهما يقولان لأنفـسهما لما نشمم العمال، لما نوريهم إننا أحسن منهم، وقلت خلاص.. أهم جم.. جـايين علـشاني.. جايين يقولوا لي وقف المكن.. وقلت الساعة قد حانت.. ساعة الفصل تقترب، ووقفت أنظـر كل ما حولي، وللعمال المجاورين لي، وتأملات عبد العظيم.. وتأملت السيور فـي اهتزازهـا والمكن وهو يسرع في الدوران، ووضعت يدي على دف المكنة وهي دائرة، وتأملتها وهـي تهز ذراعها هزًا عنيفًا، وقلت في نفسي: آخر يوم.. آخر ساعة حابقى فيها في المصنع.. حـا ارجع للبلد تاني وامشي على مهلي ورا الجاموسة وهي تمشي ببطء بعد ما كنت باجري هنـا، ومين عارف يمكن أشتغل خدام عند مشايخ القرية واسمع منهم كل ما يسيء لنفسي، ويكرهني في الحياة.

وإذا بأحد العمال يزعق ولم أنتبه وظننت في بادئ الأمر أنه يهلل بقرب انتهـاء يـوم العمل، وإذا به يزعق وترتفع كلمة: هو.. هو.. رنت في أذني، وتلفت حولي، وإذا بـي أجـد المهندس واقفًا في آخر الصف وحسن السمرة بجواري وأيديهما تلوح، ولم أظن أنهما يلوحان لي، وبقيت في مكاني لا أتحرك، وإذا بأحد المباشرين يأتي مسرعًا يهرول في مشيته نحـوي، وارتفعت نبضات قلبي، وراح الدم وقلت خلاص ساعة الفصل قد حانت، وشـعرت برعـشة عنيفة سيطرت على جسدي، وأسناني تصطك، وأسرعت خلف المباشر، وأنا أشعر أن ركبتي قد سابت وشعر رأسي قد وقف، وحاولت أن أتذكر كلمات لأمي أو لعبد العظيم أو أي كلمات أخرى سمعتها لأشجع نفسي بها، وأزيل الخوف من قلبي، وكنت أستند بذراعي على جوانـب المكن، وكلما تقدمت خطوة واقتربت منه زاد الخوف وحاولت أن أخفي عيني فـلا تتطلعـان

لهم، وقد لاحظ المهندس ذلك عندما اقتربت منهم وبانت على وجهه الدهشة عندما رآني، ونظر لي طويلاً مسائلاً نفسه.. إيه ده!! وظن في بادئ الأمر أنني لست من عمال النسيج، بل من عمال الغزل الهاربين من عنابرهم، وهمس في أذن حسن أفندي السمرة، وحسن السمرة همس في أذن المباشر.. كانوا يتهامسون وأعينهم نحوي، وقلت في نفسي: هه ما تقولوا.. قولوا وخلصوني وجاءت على لساني كلمة كثيرًا ما سمعتها من أمي وهي تقول لأخي: "إذا وقعت في شر.. قول يا بركة دعاء الوالدين" ووقفت أرددها في سري: يا بركة دعاء الوالدين.. إعميهم.. إعميهم عني.. كنت أدعي وركبتاي تنتفضان وإذا بالمهندس يشاور لي بأطراف أصابعه، واتجهت نحوه متباطئًا، وكدت أن أقع، ووقفت على بعد خطوة منه، والعمال تتطلع من وراء المكن بعيون حادة النظرات، منتظرين ما قد يحدث، وإذا بالمهندس يقول:

- إنت اللي شغال على المكن؟ أنت صغير قوي؟

مين اللي عينك؟

وحاولت أن أشب على أظافري، وقلت له:

- الرئيس هو اللي عيني.

وابتسم عندما رآني هكذا، وانحنى نحوي وهو يغمض إحدى عينيه ويغمز بالأخرى

- أنت نساج؟

- أيوه.. الرئيس هو اللي عيني في النسيج.

وابتسم لكلماتي ثم قال:

- مش معقول ولد زي ده يجيب الإنتاج ده.

إنت اللي واقف على المكن طول المدة

- أيوه.. أيوه والله.

كنت أتكلم والكلمات تخرج سريعًا.. وعاد وسأل المباشر.. والمباشر يجيب: أيوه.. أيوه يا أفندم هو اللي واقف على المكن، وعاد وسأل حسن أفندي السمرة ووقفوا يتشاورون، ولوح لي المهندس بيده إيذانًا بالانصراف وهو يقول لنفسه: مش معقول.. مش معقول.

وعدت كالريح إلى المكن ولم أصدق نفسي خوفًا من أن يعود فيناديني من جديد، وعادت الطمأنينة إلى قلبي، بعد أن رأيته يبتعد، ووقفت في ثبات دون رعشة في مفاصلي، وشعرت بالدم وهو يسري في مفاصلي، ووضعت يدي على خدي، فإذا بي ساخن كالمريض بالحمى، واستطعت أن ألمح عبد العظيم وعيناه تتجهان نحوي وآخرون يتحركون متباطئين.

وإذا بالمكن يتوقف، وتوقفت المواسير، وهلل العمال والتفوا حول بعضهم البعض قائلين لأنفسهم: اليوم انتهى وحانشوف حانقبض إيه، واصطفوا خلف بعض وتقدموا نحو الرئيس الجالس على المائدة والنقود أمامه مرصوصة والعيون كلها تتطلع. وتقدم عبد العظيم واتجهت الأنظار نحوه وارتفعت الهامات لكي تراه فالكل كان يعرف أنه كان واقفًا على المكن لم يتركه وأعطى الرئيس الختم وزحفت العمال بالقرب منه، ومد يده، وإذا بالرئيس يعد للعمال، والعمال تعد من بعده وكل منهم يقول: كام، وآخر يقول:

- استنوا.. بريزة.. وآدي كمان واحده.. وبريزة ثالثة.. وأدي كمان رابعة.. هيه.. هيه.. جت الزيادة.. خمس برايز وقرش تعريفه كمان.. الزيادة جت يا أولاد.. الزيادة جت.

ولم يتمالك عبد العظيم نفسه، ولم يرن الفلوس كالعادة ودور الجري دون أن يعدها، وقال أحد العمال:

- الله يحميه.. أحسن واحد قبض.

فرد آخر:

- ده مموت نفسه من الشغل.
- صلوا على النبي.. أنتوا رايحين تحسدوه.
- حانحسده على إيه.. الواحد لو ماكانش المكن بتاعه وحش وبيقطع فتل.. كان جاب أحسن منه.
- ماهيه الرؤساء ما بتصلحش.. هو المكن حايشتغل لوحده.. عايزينا نشتغل ونطفح الدم وهمه قاعدين على طياظهم.. كل واحد يقول لهم تعالوا صلحوا المكن، يقولوا بيشتغلوا بالإنتاج..
- ما هو واحد قبض كويس.

واتجهت الأنظار إلى عبد العظيم، وكان جالسًا خلف المكن يعد البرايز، وعندما رآني هلل في وجهي قائلاً:

- شايف.. كنا متخوفين.. خمس برايز أهم وقرش تعريفه.. الواحد يقدر يجيب جزمة.. إنت عملت إيه؟
- ماندهوليش..
- إنت رايح تقبض أحسن.. المكن بتاعك شغال زي الساعة.

- مش قالك الرئيس أنك الأول.. اسمك في المكاتب. ولم يكمل حديثـه. وإذا بأحـد العمال يزعق زعقات عالية متوالية، قرب.. قرب شويه.. الرئيس بينده لك.. بينده على إسمك.

وعدت كالريح نحوه. وقال الرئيس:

- ختمك..
- أهو..

وحملق في الورق.. وحملق في وجهي قبل أن يعد النقود، وجذبني من يدي، وتطلعـت العمال من هنا ومن هناك لرؤية ما أقبضه.. وقال الرئيس:

- المهندس جالك.
- أيوه.. أيوه جه، وشافني وماقاليش حاجه.. قال لي بس أنت الأول.. قالها ومـشي من غير ما يقول حاجه.

فقال الرئيس لنفسه:

- لا هو بالطول ولا بالعرض.. أصغر واحد قبض أحسن من أكبر واحد.. إمـسك أدي بريزة..

وبدأ يعد والعمال تعد وراءه وأخذوا يعدون وأنا واقف مش مصدق.

- خمس برايز ونص.. أحسن قبض في العمال..

إتجدعن.. إتجدعن على طول.

ولم أسمع كلماته هذه وأخذت نقودي في يدي ولم أنتظر، وفعلت مثلما فعل عبد العظيم.. وجاء العمال يسألوني، ووقفت بينهم كالتائة قابضًا على النقود في يدي، وإذا بعبد العظيم يقول:

- ماتسيبوه.. سيبوه يدور المكن.

وقال أحد الواقفين وهو يصفق بيده..

- أمك داعيالك.

وقال آخر:

- جاي إمبارح.. جاي جديد وشرب الصنعة.. علمناه وقبض أحسن منـا.. قـبضْ قَبْض إتنين.. العيال كده ما بيحملوش هم.. هم بيفكروا في حاجة.. بيفكروا بـس في الشغل.

مش زينا حاملين الهم على دماغنا.. الواحد واقف على المكن ومخه مش معاه.. مخـه في البلد.. أم الواحد يا ترى عامله إيه.. يا ترى الأرض طلعت الزرع ولا مـا طلعتهـوش..

هاتجيب كيماوي بكام ولا حناكل بكام.. والبرسيم حتاكله الدودة ولا مش حاتكله والجاموسة حاتعشر ولا مش حاتعشر.. ولد زي ده إيه اللي يخليه يفكر.. مش زينا.. شغال زي النحلة طول النهار على المكنة.

كان يتكلم والكلمات تخرج سريعة، ولم أبال بتلك الكلمات بقدر ما كان تفكيري في كيفية حمل النقود، حاشيلها إزاي.. جيبي مخروق.. أحطها فين.. أحطها على الدرج تتسرق.. أربطها في كمي مثلما كانت تفعل أمي في قَدْ الفلوس في خلقة قديمة.. وفعلت ذلك ووقفت على المكن أدوره، وجلست أمسح الماكينات ويدي قد لطخت بالزيوت وجاءت الوردية، وسألني العامل.. كم قبضت، ولم يصدق زميلي، وهلل، وخرجت من العنبر وإذا بعمال الغزل والسحب هم الآخرون يهللون قائلين: تحيا عمال النسيج.. همه السبب في الزيادة قالوها وهم يتطلعون لنا واحنا خارجين من العنبر فقلت في نفسي: كنتم زعلانين ليه؟

(٨) امتثال

وعلى الباب وجدت الشيخ علي وبجواره عدد من العمال، ورحنا منزله، وقال:

– بكره الصبح نروح البوظة.. نروح نتفسح.

وقال آخر وهو من مكانه:

– ياالله دلوقت.. ياالله نشرب كل واحد قرعتين.

فرد آخر:

– وعلى إيه خلينا للصبح.

وفتح أحد العمال كنت لم أره من قبل الباب ودخل وجلس بجوار الشيخ علي، ووضع بجواره عصا من المحلب المعرج وعلى رأسه طاقية من صوف الغنم الأحمر، كان قصير القامة ذا بشرة بيضاء يغلب عليها الاصفرار، وسأل:

– أنتوا جيتوا إمتى؟
– جينا دلوقت.
– قبضت كام يا شيخ علي؟
– ثلاثين قرش.
– ثلاثين قرش.. يعني جالك أتناشر قرش تعريفه.. يعني جالك قرش تعريفه زيادة.

وعاد وسأل عبد العظيم عما قبضه فلما أجاب قال:

خمس برايز وقرش تعريفه.. يعني جالك ٣٤ قرش تعريفة.. يعني جالك قرش تعريفه وشويه.. وهيه دي تبقى زيادة؟

فرد آخر.

– حاجة أحسن من مفيش.. كل واحد جاله تمن جلابيه.. أحسن من عينهم.. هو حد كان طايل.. مره أجيب جلابيه لأمي، ومرة أجيب جلابيه لأختي.. مدة في مدة أكسي إخواتي، وقلت في نفسي: "أهو دلوقت أقدر أجيب للبت رقية منديل".

وقال الشيخ علي:

– ماتياالله يا جماعة نتعشى.. نتعشى إيه يا رجاله؟
– هات عيش وفلافل سخنة من بره وحلاوة طحينية.. الليلة ولا كل الليالي.. نقدر إن الزيادة ما جتش.

فرد عبد العظيم:

– ماتياله نروح نتعشى في الدكان.

فقال الشيخ علي:

– هناكل فيه إيه؟

فرد آخر: ناكل شوية طبيخ نعمر مخنا.. الواحد هفتان.. ما بيشوفش التقلية.. الواحد مخه حايروح.. ياالله يا جماعة.

وأخيرًا وافق الجميع.. ونحن في الطريق كان الجو شديد البرودة، والشوارع موحلة من أثر المطر الذي تساقط في الصباح، والسماء صافية.. خالية من السحب، والقمر في ليلة الأربعتاشر.. شديد الضوء ورغم شدة البرد كانت الشوارع مزدحمة، الشيء الذي لم يسبق له مثيل منذ شهور وشهور مضت.. كل شيء في الشارع يضحك.. العمال تسير جماعات واضعين أيديهم في أيدي بعض، الضوء يخرج من الدكاكين، يجذب السائرين في الطريق، لم يفعل البرد في العمال هذا اليوم مثلما كان بالأمس وما قبله، كان الدم يجري في العروق من نشوة النصر والزيادة، وكان القليل يضحك ضحكات غير سعيدة، إنها ضحكات من يريد أن ينسى الهموم، وكان هؤلاء ممن لم يسعدهم الحظ في أخذ الزيادة، ومع هذا ساروا في الشوارع يشاركون الباقين فرحتهم بحكم السكن المشترك، واقتراب قراهم من بعضهم البعض.. وعلى طول الطريق عربات شتى، عربات الكشري، وأطفال من عمال الغزل بملابسهم الملطخة بالزيوت، وشعورهم المليئة بالغبار ملتفين حولها يأكلون في نهم، ويقهقهون كلما انتهى أحدهم من طبق، كان التسابق فيما بينهم، من منهم ينتهي من طبقه أولاً، وكان لهذا التسابق ضجيجه وعلى عربات الهريسة، التف آخرون يأكلون وهم يتطلعون في وجوه بعضهم البعض متذكرين الأمس واليوم، ولم يكن باديًا على الوجوه أي بوادر للنعاس مثلما كان يحدث عادة كلما خرجوا من العنبر، وآخرون يتطلعون إلى المحلات شديدة الأضواء ويلوحون بأيديهم مشيرين إلى ما تقع أعينهم عليه ويتمتمون بكلمات ليست مسموعة، وعلى محلات الأقمشة ازدحمت العمال كل منهم يقول للآخر:

– تعالى نقيلي جلابية سوده من صوف العسكري لأمي.

وآخرين يقولون:

– تعالوا نشتري حتة باطسته لإخواتي.

وأصوات أخرى تنادي لبعضها البعض. "يا علي!! يا سيد.. يا أحمد.. يا إبراهيم..

أصوات وأصوات، وابتسامات هنا وهناك.. وعمليات الشراء في كل مكان، وأمام أحد المحلات المجاورة للبوستة في الميدان الفسيح المليء بالأضواء وقف عبد العظيم:

– إيه رأيكم؟ ندخل المحل ده؟

وقال الشيخ علي:

– حاناكل إيه؟

– إحنا نخش واللي نلاقيه ناكله.

وتقدم عبد العظيم في الدخول، واستقبلنا على الباب رجل بجلباب مخطط ذو شارب ضخم أبيض البشرة، له عينان خضراوان، يميل إلى السمنة، وعلى رأسه طربوش أحمر غامق، وقبل أن نقول شيئًا، وضع أمام كل منا طبقًا صغيرًا جدًا به ماء قوطة، وقطع صغيرة منها، وجلس كل منا على كرسي من الخيزران، واصطففنا بجوار بعضنا البعض على ترابيزة من الخشب المدهون بالبوهية الحمراء، وكانت هذه أول مره أجلس فيها على كرسي من هذا النوع في محل كهذا. وجلست أهز قدمي، وبجواري الولد الغريب يهز قدميه هو الآخر، وزعق الرجل مناديًا على الأصناف:

– عندنا كرب!! وعندنا حبشية!! وعندنا كهرمان!! وعندنا مبرومة!!

وبهرتنا تلك الأسماء ولم يكن أحد منا يعرف أصنافها. ونظر الولد الغريب وقال أنا عاوز كهرمان، وقلت أنا عاوز واحد حبشية، وقال عبد العظيم أنا عاوز واحد مبرومة، وقال آخرون هات لنا كرب.. وجلسنا في الانتظار مطمئنين إلى أننا سنأكل ما كنا نأكله من زمن، وإذا بالأطباق توضع أمامنا، وإذا بالكهرمان: عدس، والحبشية: ملوخية، والمبرومة: بامية، والكرب: كرشة، ونظر كل منا للآخر، وصمتنا لحظة. وقال الولد الغريب.

– هو إيه ده؟! الكهرمان.. عدس!! والمبرومة تطلع بامية؟! وصمتنا لحظة أخرى وقال عبد العظيم:

– يمكن يكون غلطان.. دي لازم مش بتاعتنا.. إنده له يا علي.

– ما تنده له أنت.

وأخيرًا ناديناه: تعال يا عم.. إيه ده؟ فين اللي إحنا طلبناه؟ الحاجات دي ما طلبناهاش إحنا طلبنا كهرمان وحبشية. فنظر إلينا نظرة كلها تساؤل، هيه دي الحاجات اللي أنتوا طلبتوها.. هوه انتوا عمركم ما دخلتوا دكاكين ولا إيه؟

وزعق عبد العظيم في وجهه: خد يا عم حاجتك دي.. خدها تاني!

وجاء الرجل ذو الطربوش الأحمر وسأل:

– إيه يا رجاله.. بتزعقوا كده ليه؟!

- إحنا ما طلبناش الحاجات دي.. هيه الحبشية تطلع عندكم ملوخية؟ الحاجات دي إحنا قرفانين منها.. حاجات بناكلها في البلد وبننقيها من الغيط.. حاناكلها عندكم بفلوس.

وابتسم الرجل، وقد لاحظ أننا غرباء ولم يسبق لنا الجلوس في مثل تلك المحلات، ولا نعرف هذه الأسماء، فأعاد لنا الحديث بأسماء أخرى واضحة وقال:

- طيب تاكلوا إيه؟ تحبوا طواجن يخني تبقى لحمة في الفرن وبالبصل.. الواحد بتلاته تعريفه.. وعندنا دمعة.. ورددنا جميعًا في نفس واحد.. هات!! هات لنا دمعة.. حاجات عارفينها، وهات عيش خاص!! وعندما خرجنا قال الولد الغريب.
- إدفع له من معاك.

وخرجنا واحد وراء الآخر، والجالسون في المحل يتطلعون لنا ويحملقون في الوجوه وقال أحدهم وهو يتطلع إلينا بنظراته الحادة.

- الفلاح لما يتمدن يجيب لأهله داهية.. داخلين مش عارفين إيه اللي حاياكلوه؟!

وخرجنا دون أن نلتفت له.. والتففنا حول عربة الهريسة، وبعد أن انتهينا من الأكل قال عبد العظيم:

- الواحد بطنه أتملت.. شايفين العرق!! الدم جري في عروقي.. يا سلام!! الأكل الحلو حلو.

فرد آخر قائلاً:

- كل مده ناكل الأكلة دي.. علشان الواحد يقدر يشتغل.

وقال آخر:

- شايفين!! أكلنا أكلة واحدة.. العرق غرق هدومنا.. أمال المهندس ده والرؤسا دول بيعملوا إيه؟! بياكلوا أكل زي ده على طول.
- ماهو الواحد منهم ما يهموش البرد.. وشهم أحمر.
- وقال الولد الغريب.
- يالله بنا نروح.. الواحد واقف ووسطه حاينحش.

وقاطعه الشيخ علي قائلاً:

- بكره ما تنسوش نروح البوظة.. نشرب كل واحد قرعتين نبعد الهم عن نفسنا شويه.

وبدأ كل منا يسلم على الآخر. ونحن في الطريق للمنزل. كنت أسير وبجـواري الولـد الغريب، والولد السيد الصفتي، وكنت أسبقهما في المسير دون أن أشعر.. كانت قدماي تـدفع بي بعيدًا عنهما وهما يسرعان خلفي.. كانت فرحتي بما في يدي من نقود أكثـر هـي التـي ترفعني من الأرض رفعًا، كنت في شوق لأن أقول لصاحبة المنزل عن الزيادة، وأطلب منها أن تشتري لي مقطعًا من الحرير الذي طالما تشوقت لشرائه وقلت في نفس أمي مش حاتزعل لما تعرف إني حا اشتري القطعة من الزيادة وأديها الباقي.. هيه عـايزاني ألـبس كـويس. وهزني الولد الغريب قائلاً:

- إنت فرحان طالع تجري.. قبضت أحسن مننا يا عـم.. مـوت الولـد ده جالـك بالطبطاب.. أمك داعيالك.. جينا قبلك وأنت سبقتنا.. مش لكل من جري.. رزقك تحت رجليك زي القطط.

وكنا قد دخلنا المنزل.. كانت اللمبة محطوطة على السلم كالعادة، مضيئة الطريق لنـا، ولم تكن الغرفة مظلمة بل كانت مضاءة على غير العادة، وفتح الولد الغريب الغرفة، ولم تمر لحظة بسيطة جدًا، حتى دخلت إحدى ساكنات المنزل، ومن خلفها عدد من الأطفال قائلة:

- كنتم فين لحد دلوقت؟!!

ورد الولد الغريب:

- كنا في الشركة.. النهارده القبض.

ودخلت امرأة أخرى وتبعتها أخرى وأخرى، وكلهن يسألن عنا.. وفرشـنا حـصيرتنا، فأسرع الأطفال بالجلوس، وقالت إحداهن:

- أنتم أتعشيتوا؟!

فبادر الولد السيد الصفتي:

- أيوه إتعشينا في الدكان.. كلنا دمعه باللحمة.. وإذا بصوت يزعـق فـي الحـوش ينادي.. يا بت يا امتثال، وكنت عرفت أن هذا الاسم هو اسم البنت اللي تعـودت أن توقظني، ثم دخلت صاحبة البيت وهي تقول!! صلاة النبي.. موجهة كلامهـا للنسوة الجالسات وبجوارهن الأطفال، أنتم قاعدين كده ليه مترصصين.

ثم وجهت الكلام لنا: "أنتم أتأخرتم كده ليه؟!"

ولم تكمل كلامها حتى كانت امتثال واقفة بجانبها تتطلع لكل من يجلسون في الحجـرة. فقالت لها أمها:

-خدي يا بت هاتي لأبوك بالقرشين دول سمك مقلي لحسن ييجي يفضحنا.

واسترسلت قائلة:

- العيال مقصوفين الرقبة ما خلوش حاجة.. أكلوا الطبيخ كله.

وسكتت امتثال لحظة، ولم تجب، ثم أجابت بصوت يشبه الصمت: حا اروح لوحـدي؟ قالتها وعيناها إلي وكأنها تقول قوم وتعالى ويايا.. تعالى ونسني.. فقالت أمها:

- هوه أنتي حاتخافي؟ الدنيا كلها صاحية.. الشركاوية قبضوا والشوارع مليانة بـيهم وإمشي هاتي الملاية وأنا أروح..

وعادت امتثال وحملقت في وجهي من جديد، وقد فهمت من ملامح وجهها مـا تريـد، وأسرعت أقول:

- خليكي وأنا أروح وياها.

قالت الأم:

- خليك.. خليك يا ابني أنت تعبان.

لكني اندفعت من بين من كنت جالسًا بجانبهم واتجهت نحوها فرفعـت يـدها البيـضاء وملست بأصابعها على خديها الأحمرين ماسحة آثار عرق تصبب على وجهها فجأة.. وسرت بجانبها وقبل أن نخرج نادتها أمها قائلة:

- ما تغيبيش يا امتثال بره لأحسن أبوك توه جاي.

وعلى عتبة الباب وقفت امتثال تعدل من ملاءتها وهي تنظر للطريق، وعادت وفكـت الملاية لتلف نفسها من جديد، واستطعت أن ألمح قميصها الأحمر الغامق وذراعيها العـاريين ونهديها البارزين، وشعرت برعشة تنتابني وبشيء ما في جسدي يتحرك، وعـادت ونظـرت للطريق مرة أخرى وهمست قائلة وهي تلف نفسها:

- يا خرابي.. الشوارع كلها وحل. حاأمشي إزاي؟ حاأقلع الشبشب ورجليا تتبل؟ أنا لسه غاسلاها.. السمك واللي هاياكلوه.

وفي إحدى الحواري الموحلة وقفت حائرة من البركة المليئة وسـط الـشارع المظلـم فاجتذبتني من يدي قائلة:

- تعال استند عليك.. لما أقلع الشبشب.

ومالت علي بكفيها في هذا المكان المظلم، وانحنت على الأرض لرفع الشبشبت فكـادت أن تقع، وفجأة ودون وعي مني، وجدت نفسي أطوقها بذراعي من وسـطها، فهمـست فـي ضعف: "يا خرابي!! إوعى!! إوعى حد يشوفنا!!

وارتعشت واحمرت وجنتاها وهي تردد:

– السمك واللي حاياكله.

وخجلت من نفسي ووقفت بجوارها وأسناني تصطك، وجسدي ينتفض، قائلاً:

– كنتي حاتقعي وتتمرغي في الوحل.. أنا حوشتك!!

كانت الكلمات تخرج سريعًا وهي تقول:

– ما تزعقش.. ما شافهوهمش بيسرقوا.. شافوهم بيتحاسبوا.. وحملقت في وجهي بعد أن رفعت الشبشب من الأرض وأمسكته بيدها اليمنى، وقالت بعد أن تطلعت حولها واطمأنت إلى أن أحدًا لم يرها، فابتسمت ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها البيضاء المنتظمة:

– هات إيدك، لما نتساند على بعض.. لما نسيب الحتة المطينة دي.

وقبضت على يدها قبضة قوية، وشعرت برعشة بين أصابعها وسرت بجانبها محاولاً إخفاء عيني عن وجهها، وسرنا في الطريق خطوة بخطوة تميل علي تارة وأميل عليها أخرى كلما شعر أحد منا أن قدميه ستنزلقان، وأمام محل السمك، وقفت تصلح ملاءتها وقدماها البيضاوان تلطخا بالطين، ولم تنظر لصاحب الدكان وهو يضع السمك في القرطاس، بقدر ما كانت عيناها لي.. وصاحب الدكان يحملق في وجهها وفي عينيها الزرقاوين ويهز رأسه قائلاً:

– الحلو يتحب لأجل النبي.

وشعرت بأنه يناغيها، فرفعت رأسها إلى أعلى كأنما تنظر للسماء، وقالت في دلال وهي تحاول أن تخفي ابتسامتها بيدها:

– ما تجيب يا عم.. واتوصى.

فعاد قائلاً:

– غالي والطلب رخيص.. سمكة من العين دي، وسمكة من العين دي.

وعادت وأخفت وجهها عنه، ومدت يدها النحيفة وأخذت القرطاس، وأطل برأسه وهي تسير متباطئة قائلاً:

– يصعب عليَّ مشية الجميل حافي.

واحمرت وجنتاها خجلاً، وهمست في صمت.. يا سم.. وسارت مهرولة، محاولة إخفاء نفسها عنه، وفي الطريق حاولت الابتعاد عنها ولكنها عادت وأبطأت واقتربت مني قائلة:

– إنت ليه إتأخرت؟! أنا كل يوم باشوفك وأنت جاي.. باشوفك من الشباك.

قالتها وهي تلوح برأسها إلى الخلف لترفع خصلات شعرها المتدلي على الجفون وانقبض قلبي، وحملقت في وجهها رغم الظلام الذي خيم على الحارة، وقلت:

- أنا باتأخر في الشغل.
- بتشتغل في إيه؟
- في النسيج اللي أنت بتشوفيه في الدكاكين.

قلتها باعتزاز، واسترسلت قائلاً:

- وقبضنا النهارده زيادة.. شغلونا بالإنتاج.. قبضت خمس برايز وخمسة صاغ.

وعندما اقتربنا من الحارة المظلمة الموحلة، وقفت ساهمة وقالت:

- حصلنا الحتة المنيلة.

وعادت والتصقت بي قائلة:

- إمسك القرطاس ده بإيدك.. أحسن أقع في الوحلة.. واسترسلت قائلة:
- وانت حاتروح؟
- لا.
- أمال مين اللي حايجيب لك الزوادة؟
- الولد الغريب والولد السيد الصفتي.. وحاأديهم الفلوس لأمي.. وحا اشتري بالباقي قطعة من الحرير وأفصلها أفرنجي.

فقالت وهي تضع يدها في يدي:

- قول لأمي تشتريهولك.

ضغطت على يدي، وشعرت بحرارة تخرج منها وتسري في جسدي، وإذا بها تقف فجأة عند البقعة الممتلئة بالوحل وقالت:

- إوعى تبقى تسيبني لأحسن أقع.

وبدأنا نخطو خطوة بخطوة، ونرفع قدمًا وراء قدم وكل منا ملتصق بالآخر، وصاحت قائلة:

- إوعى السمك يقع من إيدك.

وجذبتني فجأة من جلبابي وهي تقول:

- يا أمه.. يا أمه.. كنت حا اقع.

وشعرت بدفء لم أشعر به من قبل، وعندها التصق كتفي بنهديها كدت أن أفعل مثلما فعلت في المرة الأولى.. وأطوقها بذراعي ولكن خجلي وخوفي منعاني من مد يدي واستمرت ملتصقة بكتفي، وهي تردد:

- ياخرابي!! يا خرابي حا اقع.

إلى أن اجتزنا الوحل بسلام وعندما اقتربنا من المنزل قالت:

- ما تبقاش تتأخر كده في الشغل.. أول ما تطلع تبقى تيجي على طول.
- وتلفتت حولها وعادت ونظرت لي وقالت في همس:
- قد إيه أنا بحبك!! وباخاف عليك.. زي ما بخاف على إخواتي

فقلت:

- حبتك العافية.

وشرد ذهني عندما سمعت كلمة "بحبك" وقبل أن تدخل المنزل وقفت على العتبة لتصلح ملاءتها من جديد، وتركت الملاءة على الأرض وظهر كل ما تحتها.. ظهرت كالعروسة الحلاوة التي يخشى صاحبها من أن تمس، وقالت:

- ماتنساش تقول لأمي تشتري لك مقطع القماش.

وعلى بسطة السلم وعلى ضوء لمبة الجاز الخافت وقفت وجذبتني من جلبابي نحوها وحملقت في وجهي وإذا بيدها تمتد إلى خدي، وقرصتني منه قرصة، وكادت أن تميل عليه بفمها لولا سماع صوت رجل آت بالقرب من الباب، وقد انزلقت قدماه وارتمى على الأرض، فخافت وتركتني على البسطة وهي تسرع إلى أعلى مرددة:

- ما تنساش تقول لأمي تشترى لك المقطع.

ودخلت الحجرة وقدماي مبللة بالطين، وعندما رآني الولد الغريب والولد السيد الصفتي، صاحا في وجهي قائلين:

- إبعد!! إبعد عن الحصيرة.. إنت حاتطينها لنا؟ روح أغسل رجلك.

ودخلت بعد أن غسلتها بماء بارد كالرصاص، وجلست بينهما مغطيًا قدمي، وإذا بامرأة تدخل من جديد وتجلس بيننا، وخرج الولد الغريب، واشترى فول سوداني وعزمنا به عليها.

وقال الولد الغريب:

- إحنا حانروح بكره.

قلت:

- لا.. مش أنت قلت مش هانروح، والولد السيد هو اللي حايجيب لنا الزوادة؟
- أه صحيح أنا قلت.. أنا كنت ناسي.. روح أنت يا سيد هات لنا الزوادة. فرد الولد السيد قائلاً:
- طيب ومين حايشتري لي المقطع؟
- إحنا.. إحنا حانشتريه لك.. نشتري تلات مقاطع زي بعض.

- وحاقول لأمك إيه.. أمك حاتزعل..
- حا تزعل ليه؟! ما أنا حا اديها الفلوس.. حا اقدر إن ما جتش الزيادة.. هي عايزاني ألبس كويس، فمش حاتزعل، وامتعض وجه الولد الغريب وشحب لونه، وقال:
- إنت حاتدي أمك الفلوس، وحاتجيب مقطع، وأمنا رايحة تزعل.

ودخلت صاحبة المنزل وقالت:

- يا ولاد.. أنتوا عاوزين تشتروا مقاطع؟

قلنا في نفس واحد:

- أيوه عاوزين.
- مش حاتدوا لأمكم حاجه.
- لا.

وعادت للسؤال من جديد، موجهة كلامها لي.

- إنت مش جاتلك زيادة.
- أيوه.. وحا أدي لأمي منها.

فابتسمت قائلة:

- وأنتوا يا أولاد ما جاتش لكم زيادة؟

فقال الولد السيد الصفتي:

- لسه ما وقفناش على مكن.

ورد الولد الغريب:

- بكره نقف.. فكري أصله وقف على مكن صاحبه موته المكوك.. واحنا بكره نقف على مكن من اللي بيركبوه.. بيركبوا مكن كتير في العنابر.
- وعندما سمعت كلماته هذه. أحنيت رأسي إلى الأرض ومرت أمام عيني صور عديدة مؤلمة، صورة العامل الذي وقفت مكانه، تصورته وهو واقف على المكن قبل أن يموت، تصورته وهو واقف يقنع العامل ويلوح بيديه ألا يديره، وتصورت وجهه الأسمر الشاحب وعينيه الواسعتين ورموشهما المدببة، وتصورته وهو مقوس ظهره بين "الدرق" يأخذ الفتل قبل أن يموت بدقائق، ثم وهو واقف منصوب القامة يشمر بأذرعته استعدادًا لإدارة المكن بعد أن اطمأن، وجاءه المكوك فجأة.. وارتمى على الأرض ممدد الساقين ولم ينبس بكلمة، وقلت في نفسي:

كانت الزيادة له لو عاش، ولو لم تكن لي، ومين عارف يمكن تجيلـــي خبطـــة ويقــف غيري.. داخلها مفقود وخارجها مولود.

وهزني الولد الغريب قبل أن أكمل الصورة..

- مالك؟ أنت زعلان ليه؟!
- مفيش حاجة.. بكره تقفوا على المكن وتجيلكم الزيادة زينا.

وخرجت صاحبة المنزل بعد ما أعطيناها ما تبقى علينا من إيجار، وســرحت بخيـــالي طويلاً بعد أن أخذ كل منا مكانه للنوم، سرحت حول كلمة "بحبك".

(٩) مقطع السكروته

صحوت مبكرًا على صوت الولد السيد الصفتي:

– قوموا وصلوني للمحطة.

كان الجو صحوًا والسماء خالية من الغيوم، وشمس الصباح تلقي أشعتها البنفسجية على أسطح المنازل العالية، والحواري والعطف مليئة بالمياه كالأنهار من أثر مطر أمس، ومياه الغسيل والاستحمام التي قذفت من على أسطح المنازل، وأطفال صغار يغوصون في تلك المياه وهم يهللون كلما وقع أحدهم وابتلت ملابسه بالطين. كانوا يتسابقون في اللعب وهم يغوصون في المياه، وأمهاتهم تناديهم بأصوات عالية والأطفال لا يستجيبون للنداء، وكلما وقع طفل هلل الباقون، وأطفال واقفة بجوار جدران المنازل وأطراف أصابعهم تنتفض من البرد، وهم مع هذا لا يبالون، وأمهاتهم تصيح من الشبابيك وأخريات تصيح من على عتبات الأبواب والأطفال لا يبالون بالنداء.

وابتسم الولد السيد الصفتي وهو يحمل قفه قائلاً:

كنا في البلد زيهم كنا نقلع ملط ونتلقى المطر، والدنيا بترخ، ونلعب لعبة "البك".

وعلى المحطة قلت للولد السيد الصفتي:

– قول لأمي إينك حايجيب له مقطع وباعت لك الريال ده.

وقال الولد الغريب:

– قول لأمي إينك هايكسي نفسه مش باعتلك حاجه.

وقال هو الآخر، أنا كمان حا اقول لأمي أنا سبت الفلوس هناك.

قالها وركب ونظر من الشباك ولوح لنا بيده والقطار يسير، وفي المنزل كانت صاحبته في انتظارنا وعندما رأتنا قالت:

– تعالو أما نشتري لكم كستور.

– كستور إيه؟

– علشان تدفوا.. الدنيا برد.

– إحنا عايزين مقاطع من الحرير السكروته.. من اللي بيهفهف من الهوا.

فابتسمت صاحبة المنزل ابتسامة عريضة من كلامنا وقالت:

– هو الحرير بيتلبس إلا في الصيف.

– إحنا عايزين حرير وبس.. برد مش برد.. إحنا عايزين حرير.

فهزت رأسها وهي تغمض إحدى عينيها، قائلة لنفسها:

دول عيال.. أقل شيء يفرحهم.. والعيال ما تعرفش البرد.

وفي حوش المنزل وقفت تعدل من ملاءتها، ووقفنا بجوارها نحملق في وجوه بعضنا، وأمسك الولد الغريب يدي، وإذا بنواة بلح تنزل فوق رأسي، وصحت دون إرادة مني ووضعت يدي مكان الخبطة ونظرت عاليًا، فوجدت امتثال تطل من فتحة الشباك، بقميصها الأحمر الغامق، تخفي ابتسامتها بيدها، وعندما رأتني انتصبت واقفة، وحملقت بعينيها الواسعتين، وضربت بيدها على صدرها علامة الاعتذار، وأومأت برأسها وعادت إلى الخلف خطوة، ووقفت تصلح من شعرها المتهدل والبسمة تعلو شفتيها، ووجهها الأبيض يتشرب بالاحمرار، وسارت الأم بعد أن أصلحت ملاءتها، وسرت بجوارها، وكلما تطلعت خلفي وجدت امتثال واقفة في الشباك تتبعنا بنظراتها في الطريق، وقالت الأم ونحن نسير بجوارها، نجيب لكم هدوم كستور يا ولاد.. كستور يدفيكم، قلنا:

- لا.. عايزين حرير سكروته.

فعادت تقول وهي ترفع قدميها المغروزتين في الطين:

- إيه عاجبكم في الحرير؟

قال الولد الغريب:

- علشان نروح بيه البلد.

فأومأت برأسها وهي تقول:

- شبان وعايزين يفرحوا بشبابهم.

وكانت الشوارع مزدحمة، ناس تدخل المحلات وناس تخرج حاملين في أيديهم الأقمشة، وعلى طول شارع السكة الجديدة عربات يد محملة كرنب، ونسوة واقفات يشترين، ونسوة على الصفين، من القرى المجاورة للمدينة، وأمامهن السمن والبيض والجبن والباذنجان والبطاطا وأطفالهن الصغار بجوارهن يلعبون. وفي سوق "الجراية"، فلاحات يضعن أمامهن صفوف العيش المخبوز في الريف، وبجوارهن أطفالهن يتطلعون في ذهول لكل من يسيرون في الطريق، وفي حلقة السمك نسوة كثيرات يحملن أغطية الحلل ويتزاحمن في الشراء ورجال يحملون الفسيخ والبصل الأخضر، ويتجهون إلى البوظة.. وعلى المقهى ناس تجلس على الصفين، وبعضهم في يده الجوزة، والبعض فناجين القهوة، ووسط هذا الزحام، كانت تسير ونحن من خلفها وإذا بصوت امرأة يرتفع من الخلف: خبر إيه.. زاحمين الدنيا.. جاتكو

شوطه.. الشركة من يوم ما جت لا أحنا عارفين ناكل ولا أحنا عارفين نشتري، والتفتت الأم للخلف وقالت:

- ما لهم الشركاوية.. من يوم ما جم عمروا البلد ومشوا حالها، كل حاجة ماشيه.. الواحدة كانت بتمشي طول النهار ما تلاقيش حد.. البيوت عمرت بالناس.. كانت حاتسكنها العفاريت.

وردت أخرى:

- همه عملوا فيكم إيه الشركاوية.. ما هم ناس زينا.. هي كل حاجه على دماغهم.. ما احنا بنشتري.
- بنشتري إيه.. اللي كنا بنشتريه بقرش بنشتريه باتنين.

كلمات وكلمات، وآخرون يسيرون في صمت دون أن يكون في أيديهم شيء، وإذا بصوت يصيح مناديًا، كان هو عبد العظيم يقف وبجواره عدد من العمال وفي يد كل منهم عصا معوجة، يحملها على ذراعه، وأيقنت أن في الأمر شيئًا، فأسرعت نحوه متلهفًا.. إيه؟ حصل إيه؟ شايلين العصى؟ ما روحتش؟

- لا بعت الفلوس.
- إنت رايح فين؟ أنا كنت حاجيلك.
- أنا استنيتك لحد دلوقت، ولما استغيبتك جينا هنا علشان ناخد فسيخ ونروح نتغدى في البوظة.
- فيني حته؟
- على الشون في بوظة العرسة.
- طيب أنا حاجيلك بعد شويه.. حا اشترى مقطع من الحرير وجايلك على طول.

قلت ذلك وعدت مسرعًا، وقالت الأم:

- قال لك إيه الراجل ده؟
- دا زميلي في العمل.
- همه رايحين فين؟!

وأخفيت عنها الحقيقة، وعادت تقول:

- تعالوا أما أوريكم الأنوال الكويسة.. بتطلع حرير كويس في قاعة "المعلم عبده" نقدر نجيب منه حرير أرخص من الدكاكين، وفي القاعة كان كثير من العمال

يجلسون إلى أنوالهم، ونسوة يجلسن في الحوش، يلفون المواسير على الدواليب وقالت الأم:

- فين يا جدع إنت وهوه المعلم.

وظل العمال الجالسون على الأنوال برءوسهم، وقال أحدهم وهو يحملق في وجهها:

- المعلم جوه في المخزن.

وترك نوله وتقدمنا قائلاً:

- اتفضلوا في المخزن.

كان المعالم جالسًا وعلى الأرفف مئات من المقاطع من كافة الأنواع، وتشتت فكري في المقطع الذي سأشتريه.. كلها أصناف حلوة، وقلت في نفسي:

- ما اشتري سكروته من اللي بيهفهف من اللي شفته على أهالي المحلة.. لابسينه وبيمشوا يتقمعوا.

كان المعلم جالسًا، يسجل المقاطع في الورق، وبعد أن انتهى من التسجيل وقف قائلاً:

- أهلاً وسهلاً.. حصلت البركة.

كان شابًا في الخامسة والعشرين من عمره، أبيض البشرة ذا عينين سوداوين، طويل القامة يرتدي جلبابًا من الصوف، وعلى رأسه طربوش أحمر غامق وبعد أن حيّا الأم نظر لنا بوجه باسم وقال:

- أي خدمة.

قالت الأم:

- أنا جايالك مخصوص.. وسيبنا قاعات كتير، فرد قائلاً:
- حصلت لنا البركة.
- الأولاد دول ساكنين عندي.. أمهاتهم مش هنا، طلع لهم أحسن حاجة عندك.. عيال عايزه تفرح.

فأسرعت قائلاً وأنا زايغ العينين بين الأرفف المحملة بالأقمشة:

- نقي لي مقطع حرير سكروته.. مقطع سمني، وأخذت ما وقعت عليه عيناي على أحد الأرفف، واختار الولد الغريب مثلها، وهللت فرحًا عندما دفعت ثمنه البالغ عشرين قرشًا. وقال المعلم:
- المحل ده بتاعكم.. كل شيء تيجوا هنا تاخدوه، وقلت للأم ونحن في الطريق:
- عايزين نفصلهم أفرنجي.

فرد الولد الغريب.

- أنا عايز أفصله بإيدي.. زي اللي أهل بلدنا بيلبسوه.. أخويا بيلبس كده.

فعدت أقول:

- لا.. أنا عاوز أفصله أفرنجي زي الناس اللي في المحلة الكبيرة.

وقلت للأم:

- روحي إنت واحنا حانحصلك.

وهمست في أذن الولد الغريب

- تعالى عبد العظيم في البوظه.. تعالى نحصله.

واجتزنا الطريق وسط الزحام، وضجيج الباعة.

(١٠) في البوظة

وأمام البوظة، وقفت أنظر في الوجوه، وكان الازدحام شديدًا، ولم يكن في البوظة مقعد واحد من الخيزران، كلها كراسي خشبية مصنوعة من القش، ودكك كثيرة متزاحمة وأمام كل دكة منضدتان عليها مواجير مغطاة بأغطية من الخشب وعلى الدكك المتقابلة رجال سمر الوجوه ذوو ملابس زرقاء وشوارب مفتولة وآخرون قد ملأ الشيب رءوسهم، يتهامسون في هدوء، وعمائمهم بجوارهم، وظهر من ملامحهم أنهم من البنائين الذين يعملون في الشركة. وفي الداخل كان الشبان يجلسون جماعات، والعصي بجوارهم، ووقفت أبحث وسط الزحام وأتطلع في الوجوه المنهمكة في تبادل الكئوس، غير عابئين بمن يسيرون في الطريق، ولمحت عبد العظيم فوقفت أصيح مناديًا له، ولكنه لم يرد، فقد كان منهمكًا في الكلام مع من يجلسون بجواره، ودخلت أشق طريقي وسط الزحام والأرجل الممتدة بين الدكك، ووقفت بجواره وأمسكته من جلبابه، فهم واقفًا وأفسح لي وللولد الغريب مكانًا بينهم، وهز رأسه مشاورًا للجالس في الوسط وهو عامل لا أعرفه يميل إلى السمنة، قصير القامة، أسمر الوجه ضيق العينين، ذو شارب كثيف، وعلى رأسه لبدة بيضاء، يرتدي جلبابًا من الجبردين بخطوط حمراء، لم يتفوه بكلمة بل ملأ كأسًا وأعطاه لي وهو يبتسم قائلاً "كأس للسلطان" فامتعضت إذ نظرت إلى ما بداخله وترددت لحظة، فابتسم الجالسون، وحاولت أن أشجع نفسي، فكنت كلما قربته إلى فمي نحيته جانبًا في ضيق، وصاح عبد العظيم:

- غمض عينيك واشرب، إنت حاتخاف، فقلت في همس:
- دا اسود وريحته تطرش.
- عيب ما تقولش كده، أمال راجل إيه!

وعندما سمعت "راجل إيه" أغمضت عيني وتجرعته وكدت أن أتقيأ لولا خوفي من الجالسين، وأسرع عبد العظيم فأعطاني ملعقة من السلطة المليئة بالشطة، وقلت للجالسين:

- دي بتلسع.

قلتها وأنا ألحس شفتي بلساني. فرد أحدهم:

- دي بوظة بايته، اطلبوا له بوظة من الصابحة.

وقال آخر:

- هاتوا له من فوق الوش.. هوا ده يستحمل.. هاتوا له من الرغوة.

وقال آخر:

- هو احنا حانفضل نشرب كده لإمتى.

فرد أحدهم:

- لما ننبسط، الواحد عايش لحظة بلحظة، هو حد عارف بكره حايحصل إيه.. إمـــلا يا جدع.. فين المزة.. سقف على إيدك يا جدع وهات بوظة وهات مزة.

ورفع الماجور وملأ، والضجيج في كل مكان، وناس تصيح ونـــاس تهـيص، وعيـــال صغيرة تعلق في أكتافها مقاطف ترمس وسوداني وتتحرك بين الدكك، وبنات في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة ينادين:

- الباذنجان أبو توم.. القوطة المخللة.

وآخريات يزعقن بأصوات منغمة:

"السمك المشوي" وآخريات: "السوداني الحمش".

ويتوقفن بين كل دكة وأخرى ساندات أكتافهن على الجالـــسين، موزعـــات البـــسمات، قائلات:

- خد مننا ربنا يكسبك، سفتحني ربنا يفتحها في وشك ويوعدك ببنت الحـــلال اللـــي تهنيك.

فيبتسم الرجال ضاحكين، وينظرون لهن نظرات شبه مغلقة، وضـــجيج يـــصم الآذان، وشبان في الأركان يهزون رءوسهم طربًا على أنغام النسوة البائعات، وكئوس البوظة ترفـــع وأفواه تشرب وأصوات ضجيج تصيح:

- إشرب يا جدع ما حدش عاش.. وفي وسط كل هذا الضجيج ارتفع صوت جميـــل قائلاً: "يا ليل يا عين" صوت كصوت البلابل، وتنخفض الأصوات وتتوارى شـــيئًا فشيئًا، ويصمت الجالسون، وتتجه الأنظار لصاحب الصوت، وترتفع الأيدي لتسند الرءوس التي أثقلها الشرب، ويستمر صاحب الصوت في الغناء فيقول: "يا ليل يا عين" وترتفع أصوات تقول "قول من تاني" وأصوات تقول اسمع يا جـــدع أنـــت وهوه، ويصمت الجميع ويعود صاحب الصوت ليقول بصوت منغم:

من فعل الأيام هجت السباع م الغاب

وحطوا واطي لقليل المعرفة والغاب

والكلب لما حكم هدم السكن والغاب

وارتفعت الأصوات من كل مكان.. آهات من كل جانب وطواقي تقذف في الهواء. ولبد تقترب من السقف، وأيدي تصفق، وأخرى تلوح، وآخرون يقولون: "الله.. الله.. قول يا جـــدع

من تاني.. الكلب لما حكم هدم السكن والغاب قول.. قول يا عم" واستمر المغني يقول استجابة لرغبة الطالبين:

واتقدم الفار على القط وكل زاده

والنسر راح لليمامة واحتمى بيها

صعب عليها جاله الفكر المشوم زاده

قصقص له ريشه على الجناحين وما فيها

والنملة قرصت حنش بحصى نسي زاده

والفيل صبح أسير في الدنيا وما فيها

وأبو فصادة حكم كل الطيور وظلم

واتأخر الجيد من الحكم الشديد وظلم

وارتفعت الأصوات من الأمام ومن الخلف "تاني يا جدع.. تاني والنبي.. واتأخر الجيد من الحكم الشديد وظلم"، فأعادها مرات ومرات بنغمات حزينة مؤلمة أشجت القلوب وألهبت العواطف ثم عاد يقول:

والجوز نزل فرد كدب في الحصى والظلم

والوقت لما ظلم خف القمر وآهو غاب

وصمت الجميع عندما انتهى الموال، ومالت الرءوس وتساندت بالأيدي، وغرق كل منهم في بحر من التفكير، وبعد فترة صمت قال عبد العظيم وهو يطرقع أطراف أصابعه ويهز رأسه:

– يا سلام.. الدنيا وحشة.. الموال دا علينا، حتة رئيس ما يسواش تلات طور فول.. الواحد لو خبطه قلم حايوقعه الأرض يقفل علينا الدورة.. يا سلام ع الكلب لما يحكم، صحيح لو حكم الكلب يهد السكن والغاب وأبو فصاده آهو أد العصفور وحكم كل الطيور وظلم، أهو عامل زي الرئيس.. اللي الواحد لو نفخه حايطير، وشوفوا الفيل قد إيه.. فحل.. صبح أسير الدنيا وما فيها.. والفيل دا يبقى مين.. يبقى أحنا.. أصبحنا أسرى، حتة غفير يضرب فينا، ورئيس يحكم فينا، وأهو صاحب المصنع سايب مكنه يموتنا، ولا فيش حد ييجي يحاسبه.

فرد آخر:

- ماتسيبك من الشغل دلوقت، هو احنا في الشغل، احنا في البوظة، وزع يا سلطان، وزع لنا نشرب، هي حاتدنها كده، يوم لنا ويوم علينا، هو أنتوا ما سمعتوش الموال اللي بيقول وأيام بتيجي على ولاد الملوك تنذل. بكره يقولوا..

وقال آخر:

- بكره يجيلنا اليوم، سقف يا شيخ علي، وهات لنا كرسيين دخان وقول له يغير الميه.

وآخر يقول:

- جرى إيه يا سلطان ما تجيب لنا مزة، هات لنا شطيطة.. منها مزة ومنها أكل.. هي من كرشة البهايم.. يبقى اسمنا كلنا لحمة.

وآخر يقول:

- هات لنا جمبري.. يقوي الباه.

وانهمكنا في الشرب، وأطفال مهلهلو الثياب تقذف بأنفها تحت الدكك للبحث عن الأعقاب، وآخرون مالت رءوسهم من فعل البوظة، وضجيج الباعة وصراخ السكارى، وتقيأ البعض، ووقف أحد العمال بجوار الباب، كان طويل القامة ذا شارب ضخم، وخبط على المنضدة بالعصا ولوح بها في الهواء وهو يقول:

- أنا جدع.. الكلب لما حكم هدم السكن والغاب.. يا سلام لما الكلاب تحكم! يحكمونا؟ لا.. أنا عشوش.. أنا عشوش.. غربيه.

والتفتت الأنظار إليه وهو يلوح بعصاه حتى جلس.

وقال عبد العظيم:

- الواحد دماغه لف.
- من إيه؟
- من البوظة المهيبة.
- أصل حضرتك داخل في المقدر جديد.. بكره تاخد..

وقال آخر:

- هات يا عم نشرب.. كنا زماننا في البلد.. أخرتونا.
- يعني كنت حاتروح تعمل إيه، ما أنت قاعد تهيص، مش أحسن ما كنت زمانك مطاطي راسك قدام العمدة.. دا لما الواحد كان يشوفه من على بعد عشرين قصبة،

كان لازم ينزل من على الحمار ويسحبه في إيده ولما يحصله يطاطي دماغه في الأرض، وإن ما عملش كده تبقى سنته سودة.

- يعني هنا ما شاء الله.. ما أظرط من ستي إلا سيدي، طلعنا من نقرة وقعنا في دحديرة.
- مهما كان هنا أحسن.. ما عدناش بنشتغل بلوش، النهارده أحسن من إمبارح، كنا بنشتغل بخمسة تعريفه والنهارده جت لنا زيادة.

وبينما نحن منهمكون في الحديث، إذا برجل ذي جلباب أزرق وبشرة سمراء، ملأ الشيب رأسه وملأت التجاعيد وجهه، يسير حافي القدمين، وصدره مفتوح، يقف على الباب كالمعتوه، يتطلع في الوجوه ويردد:

- فين.. فين همه.. همه فين.. دلوقت حادور عليهم فين.. دورت في كل حته..

فقال الجالسون:

- مالك.. مالك يا عم.. بتدور على مين.

واستمر يردد: همه فين.. همه فين دلوقت.. اللفت موتهم.. موت تسعة.. تسعة ماتوا في المصنع.

وهم البعض واقفين، والتفوا حوله يسألونه وهو يقول:

- سيبوني.. سيبوني أشوفهم قلت لهم ما تروحوش النهارده.. النهارده الحد والعفاريت بتطلع في المحروق دا ما سمعوش كلامي.

كانت الكلمات تخرج سريعة وهو يردد:

- اللفت.. اللفت موتهم.. الجنزير انقطع.. جنزير اللفت اللي في المصبغة.. اللي بيشيل مية النار.. وقع عليهم وقطعهم وهمه هناك جوه.. جوه مترصصين جنب بعضهم.. غرقانين في الدم.

وعندما سمع الجالسون الخبر، اختفت البسمات وشحبت الوجوه، وحنى البعض الرؤوس إلى الأرض، وأخفى البعض رأسه بين راحتيه، واختفى الرجل عن الأنظار يبحث. وساد الصمت لحظة حتى الباعة المتجولين، وقفوا مشتتي الفكر، وقفوا يتفرسون في الوجوه وهم يحملون أوعيتهم بما تبقى مما يبيعون، وقطع الصمت صوت من الخلف يقول:

- إحنا وقفنا تايهين كده ليه.. ماتيالله نروح نشوفهم.

فرد آخر:

- وحانشوفهم إزاي.. الأبواب متسككه.. وهم حايخلوهم لحد دلوقت.. زمانهم لفوهم في الخيش وتاووهم.. وقال آخر:
- واحنا حانعمل إيه.. هو حد منهم كان عارف إيه اللي هايجرى له.. لو كان حد منهم عارف اللي حايحصل، ما كانش حد منهم عتب في اليوم الأسود ده.

وزعق أحد الواقفين:

- إنتوا حاتقعدوا تتكلموا لإمتى.. ما تفضونا من الكلام ده.. اللي راح راح.. هو احنا لو رحنا حنوصل عمرهم.. هم زمانهم اندفنوا.. هو اللي بيموت في المدعوقة بيقعد ساعة، ما خلاص زمان كل شيء انتهى.. إقعد يا جدع أنت وهوه.. خللي كل واحد منا يشرب له كاسين، داخلها مفقود وخارجها مولود.. مافيش حد منا ضامن عمره.. هو حد عارف بكره هايحصل لنا إيه؟

وصمت الجميع واهتزت الرءوس، وبدأ الباعة المتجولون يصرخون، وقلت لعبد العظيم هامسًا:

- ماتيالله نكتب شكاوى، وتختم عليها الناس فرد قائلاً:
- حانكتب شكاوى لمين.. ما قلنا للنيابة والنيابة ما سألتش، هو فيه حد بيسأل عنا، ما قلنا لها على كل حاجه عملت لنا إيه، فرد الشيخ علي:
- هو أنت لسه حاتتكلم على النيابة.. ما فيش فايدة.. الشكوى لغير الله مذلة.

قالها وسكت. قلت:

- نكتب شكاوى للحكومة نختم عليها الناس.. عندنا في البلد حايعملوا كده فعاود الشيخ علي حديثه وهو يومئ برأسه:
- حكومة مين وبتاع مين، هو أنت ما سمعتش الموال، بيقول:

"الكلب لما حكم هدم السكن والغاب"

وأبو فصادة حكم الطيور وظلم.. دول عاملين زي أبو فصادة.. حايعملوا لنا إيه.

قلت- هو عندنا في البلد عارفين وبيقولوا نكتب والظرف اللي ما يصيبيش يدوش.

وزاد الجدل، وتعالت الأصوات، وقال واحد منهم يرتدي جلبابًا أبيض وطاقية بيضاء:

- هو إحنا حانخسر حاجة.. إنتوا خايفين ليه.. ما تسمعوا الكلام.. هاتوها وأنا أكتبهالكم.. أنا كنت بكتب شكاوى لما كنت باشتغل عامل تليفون عند العمدة فرد عبد العظيم:
- حانكتب نقول إيه؟

قلت: نكتب نقول كل حاجه.. كل اللي بنشوفه.. نقول احنا بنشتغل من الصبح لحد نص الليل، والرؤساء بتضربنا والمكن بيموت كل يوم عمال، ومافيش حد بيجي يسأل وقلنا للنيابة وما عملتلناش حاجة.

فرد الشيخ علي قائلاً:

- القرش اللي تصرفه على الورق نجيب بيه لنا حاجة.. مافيش فايدة.. والله الفلوس دي حاتروح ع الأرض.. كان غيركم أشطر.

فرد أحد الواقفين ملوحًا بيديه في وجهه:

- ما تسكت يا شيخ.. هو انت دايمًا كده تكسر قلبنا.. الراجل بيقول هاتوا الورق وأنا أكتبه.. هو بيعرف يكتب.. أنا حا ادفع ٢ مليم من معايا تمن فرخ ورق.

ورد آخر.. وأنا كمان، وثالث: وأنا كمان، ورابع قال: أنا حا ادفع تمن ورقة البوسته.. حا اقدر إن الزيادة ما جتش وقلت:

- أنا كمان حا ادفع.

فرد عامل التليفون:

- خلاص هاتوا الورق.

وأسرعت وأحضرته من الدكان، وقال الشيخ علي هيه.. قول لنا يا سيدي بقى حانكتب إيه.. قول لنا:

قالها وهو ممتعض الوجه كأنه واثق ألا فائدة من الكتابة وبدأ عامل التليفون يكتب:

"حضرة رئيس الحكومة.. نحن الموقعين أدناه عمال الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى.. بنك مصر نتشرف بتقديم شكوانا هذه لتكون على علم بما يحدث لنا.

أولاً: من يوم أن حضرنا من قرانا واشتغلنا والمكن يقتل منا كل يوم عامًلا، وآخرون كسرت أرجلهم أو قطعت أيديهم أو فقئت عيونهم، والمستشفى مليئة بكل هؤلاء، ولم يحقق أحد في تلك الحوادث وهم يدفنون دون أن يعرف أحد مكانهم.

ثانياً: المرض ينتشر كالوباء في كل البيوت وخاصة مرض السل من ازدحام السكن وسوء التغذية، وقد مات الكثيرون دون أن تدفع لهم دية.

ثالثاً: نعمل ١٢ ساعة دون راحة ونقف على المكن مبدلين أرجلنا كالحمير دون رحمة وللعلم قلنا للنيابة ومع هذا لم تحقق.. نرجو النظر في شكوانا هذه جعلكم الله عوناً للمساكين".

وقال: إيه رأيكم؟

فرد الحاضرون: كويسه.. هات.. هات نختم..

فقال: كل واحد يجيب ختمه.. ياالله.. ياالله يا جدعان.. ياالله علشان نخلص ونروح البوظة الثانية ونمضي الناس اللي فيها.. الظرف اللي ما يصيبيش يدوش يمكن تيجي الطوبة في المعطوبة، ولم نتوان في وضع أختامنا ثم عدنا للشراب من جديد. وقال أحد الواقفين وهو يتطلع للسماء:

– هو يا رب اللي نبات فيه نصبح فيه.

وقال أحد الجالسين:

– خد يا جدع اشرب.. الدنيا على كف عفريت.

وقال عبد العظيم:

– مين حايجي معايا، نمضي اللي في البوظة التانية.

وردت أصوات من أماكن متفرقة:

– ياالله واحنا نروح معاكم.

وخرج عبد العظيم ونحن خلفه حاملاً الورقة في يديه وفي الطريق كانت العمال تسير جماعات جماعات، بعضهم ينظرون إلى النسوة الواقفات في الشبابيك، وبعضهم يقضمون بعض المأكولات، وكلما طلبنا من أحد ختمه، كان يبادر إلى القول، حاتعملوا بيه إيه، حاتمضونا على ورق، فيرد عبد العظيم شارحًا: علشان الناس اللي بتموت وما يندفعلهمش دية.. أنتوا ما سمعتوش.. تسعه النهارده ماتوا.. موتهم اللفت.. وانحرقوا بمية النار ووقف بعضهم ينظر إلينا وشفاههم بين أسنانهم وقال بعضهم:

– خد يا خويه.. خد إختم.

وقال آخر:

– خد الطعه في الورقة.

وقال آخر:

– يا عم إحنا طول عمرنا مفيش حد مضانا.. طول عمرنا مفيش حد ختمنا.. حانيجي هنا نختم.. سيبونا في حالنا.

ورد آخر: نسيبكم.. نسيبكم إزاي.. ده علشان مصلحتكم.. هو تعمل طيب تلاقيه ردي.

فسار دون أن يلتفت إلينا وهو يردد:

هو احنا حانحاكم ربنا.. عمرهم جه لحد كده وخلاص.. هو انتوا حاتشاركوه.. خلوا الواحد منا في حاله، وهمس عبد العظيم في أذني وهو يضغط على شفتيه بأسنانه:

- إمسك الورقة دي.. دول ولاد كلب.. كل واحد منهم عاوز له قلمين.. دول زي الحمير.. الواد بيعمل لنا كده ليه.. إمسك.. إمسك الورقة دي.. وأمسكته من يده قائلاً:

- هو مفيش حد غير دول، تعالى.. أنت حاتعطلنا.

فوقف ينظر إليهم نظرات حادة، واستمر يحملق في وجوههم، وهم يبتعدون حتى اختفوا عن الأنظار.

وفي البوظة الأخرى، لم نلق أي عناء في إخراج الأختام من جيوب الجالسين كلما شرحنا لهم سبب شكوانا هذه، وكلما دخلنا مجلسًا بادر السلطان بإعطائنا كئوسًا من البوظة وهو يقول:

- إشرب.. إشرب أنت وهوه الأول.. إنتو حاتمضونا على إيه؟ مش على شكوى.. علشان إيه.. مش علشانا.. خد يا عم الختم بتاعي أهه.. طلع يا خويا أنت وهوه ختمك واديهم يختموا يمكن يكون باب السما مفتوح.

ويرد أحد الجالسين.

- هاتوا إما نقراها.

ويقول آخر: إقرا وسمعنا.

وكلما سمعوا الشكوى قالوا الله يحميكم يا ولاد.. أولاد الخير كتير، فيقول آخر: "هو فيه خير".. وانتوا إيه اللي خلاكم تاعبين نفسكم كده.. ما اللى يجرى على الناس يجرى عليكم.. حد يقول للرؤساء عليكم وتروحوا في شربة ميه ولا تلاقوش حد ينفعكم..

ورنت هذه الكلمة في أذن عبد العظيم، كما رنت في أذني وتوقف عبد العظيم لحظة شارد الذهن. كمن يقول في نفسه.. صحيح.. وأنا مالي.. حد يقول علي واتفصل من الشغل وأمي في البلد في انتظار القرشين لتسديد الإيجار، وفجأة أعطى الورقة لأحد الذين يسيرون معنا، وسار صامتًا متباطئًا ونحن نتقدم وهو يتأخر، وابتعد عنا خطوات وهو يمسك جبهته ويعتصرها وكلما وقفنا أمام مجلس آخر شارحين ما في الورقة كانوا يبادرون إلى إخراج أختامهم، كان عبد العظيم يبتعد ويبتعد، وكلما دخلنا بوظة وخرجنا منها تطلع إلينا وتتبعنا من بعيد.

وامتلأت الورقة بالأختام واتجهنا إلى صندوق البريد وعندما رمينا الخطاب. أسرع عبد العظيم في اللحاق بنا وأمسك بيدي دون أن ينبس بكلمة، وهمس الولد الغريب في أذني قائلاً:

– هو عبد العظيم إتأخر ليه؟ ده واحنا بنمضي في الأول كان ماشي معانا خطوة بخطوة، ولما الراجل قال انتوا مالكم ما تخليكو في حالكم بدأ يبتعد.. هو خاف؟ هو احنا دلوقت في الشغل.. احنا في الشارع ولا فيه ريس ولا حد حايشوفنا.. هو خاف من إيه؟

وقطع عبد العظيم همسه قائلاً:

– قلنا نستنى علشان نوفر وآدي إحنا صرفنا اللي كنا حانروح بيه، وياريتنا صرفناه في حاجة مفيدة. صرفناه في شوية أكلة وشوية بوظه.. دا لو كان الواحد جاب له جلابية كويسه.. جلابية الواحد يلبسها وهوه مروح.. هوه اللي في الكرش بيبان؟.. الواحد ما خدش بالمثل اللي بيقول: فوت على حبيبك معرش ولا تفوتش عليه مكرش.

فرد آخر: هو أنت حاتقعد تقول لنا حكم.. هو احنا نحوش من رزق يوم بيوم والنصيب على الله حانحوش من إيه.. هو حد عارف إيه اللي حايجرى لنا.

وكانت الشوارع مكتظة بالعمال والنسوة يتطلعن من الشبابيك كاشفات عن أذرعتهن العارية، والعمال ينظرون إليهن، وبعضهم يعوج لبدته للأمام وآخرون يدفعونها للخلف كلما وقعت عيونهم على امرأة تسير في الطريق، والجميع يتجهون نحو مولد الششتاوي الذي ينصب فيه السامر كل يوم أحد. وهناك يتجمع العمال يتسلون. ولم يكن المولد خاصًا بالعمال وحدهم، فأهالي المحلة أيضًا كانوا يتبركون بسيدي الششتاوي، وكانت هناك عربات كثيرة محملة بكيزان الحلبة والترمس والكل ينادي على بضاعته، والكل يشتري بركة من الشيخ والحواة تلعب في أماكن أخرى، فتخرج الكتكوت من البيضة والفطير من العلبة، وتفتح بطن الولد، والعمال تنظر للحاوي وهو يقول: اللي يحب النبي يوسع.. إلاهي يخرب بيتك ياللي ما تقول الصلا على النبي والجموع تردد بأصوات عالية، ويعود الحاوي فيمر بين الواقفين والجالسين جامعًا منهم النقود، وهناك نسوة واقفات أمام باب الشيخ يرددن الدعوات وأيديهن مرفوعة إلى السماء. إلهي يعدلها لك يا بنتي.. إلهي يبعت لك ابن الحلال اللي يهنيك، وآخريات يسرن وسط الزحام محزقات الملايات على خصورهن متباهيات بأذرعتهن العارية، ويبتسمن وهن يفسحن لأنفسهن الطريق، ويكشفن عن أسنانهن البيضاء غامزات بإحدى عيونهن وكانت الضحكات والبسمات والتهاليل تنبعث من كل مكان على طول الطريق، ورجال يتقيئون بجوار الجدران من كثرة ما شربوا من البوظة، وآخرون يتمايلون على جانبي

الطريق، وبعضهم يردد "أنا جدع" كانت الفرحة بزيادة الأجرة تعم القلوب والهواء يشتد، وتقترب بعض السحب، وأحسست أن رأسي تدور، وتوازني يختل، وقدمي تلتفان على بعضهما، وبدأت أترنح والعرق يتصبب من جبيني رغم برودة الجو.. ولاحظ الولد الغريب ذلك.. فصاح على عبد العظيم وبدأت أسير بينهما وجسدي يتمايل وقال أحد السائرين في الطريق "ماتمسك يا جدع أنت الولد ده كويس"، وقال آخر: "روحوه.. ده وشه مافيش فيه نقطة دم" وقال ثالث: "ودوه جنب الحيطة يستنطق"، وقال آخر: "تعالى هنا أقعد.. حط صبعك في حلقك، هات كل اللي في بطنك.."

وهمس عبد العظيم في أذني. مالك؟

وقال الولد الغريب وهو يبتسم:

- إنت سكران؟

وبدأت أتقيأ، وكادت أمعائي تخرج.

وقال أحد الواقفين، أحسن اللي نزله، كان حايكتم عليه يموته.

وقال آخر موجهًا كلامه لمن معي: حرام عليكم يا جدعان.. عيل زي ده، تسقوه بوظه، هوه ده يستحمل، ده الكبير ما يستحملهاش، والتف حولي عدد ممن يسيرون في الطريق، وعلى الضجة أطلت امرأة بدينة من أحد المنازل وصاحت قائلة: يا ضناي.. ماله يا جدعان، مال الولد ده؟ وصاحت منادية على إحدى بناتها.. يا بت يا خديجة إنزلي أدلقي على دماغه كوزين ميه وأغسلي له وشه يا بت.. يا ضنايا يا ابني على الغربة وأصحابها.. إجري يا بت.. إجري شويه.. الواد حيسورق.. والولد الغريب يمسكني من إيدي وأنا لا أستطيع أن أتبينه هو من غيره من الواقفين لأن عيني قد امتلأتا بالدموع التي تساقطت دون أن أبكي، وكانت الأصوات ترن في أذني ولا أعرف أحدًا، إلا من خلال صوته، وإذا بالماء ينزل على رأسي كالثلج، وشهقت شهقة عالية، وانتفض جسدي، ويد ناعمة تلامس وجهي، ماسحة الدموع من عيني، والأم تزعق حطى يا بت ميه على راسه خلي روحه ترد. فتحت عيني بعد أن مسحتها البنت بفوطة حمراء، وهمس عبد العظيم في أذني باسمًا: مالك؟ قلت: مفيش.. قلبي غم علي.

- من امتى؟
- من ساعة.
- ماقلتش ليه؟
- أنا كنت فاكر أنها حاتخف.

وقالت الأم وهي تصيح من الشباك:

– خدوه وروحوه.. روحوه يا جدع أنت وهوه وغطوه بحاجة تقيله.

وقلت في نفسي: تقيله إيه.. هوه أحنا عندنا حاجة.. اللي ما يعرفكش يجهلك..

وأخذني عبد العظيم من يدي، وسرت أتمايل.. وفي القهوة قال أحد الواقفين "هات له كباية قهوة يشربها".

وقال آخر: "هات له شاي يدفي بطنه".

وبعد أن شربت شعرت بالدم يجري من جديد في جسدي وقال عبد العظيم "هربت دمنا.. كشينا في بعض زي القنافد".

فخجلت من نفسي بعد أن رأيت عددًا من الناس ينظرون إلي، وقال أحد الجالسين موجهًا كلامه لعبد العظيم.

– مش انت معاه يا جدع.. ليه تسيبه يشرب.. دا ما يستحملش.. وكنت كلما سمعت هذه الكلمات ازددت خجلاً، وحاولت إخفاء وجهي وحاولت أن أبين للجالسين أن كل شيء قد زال فصحت طالبًا شايًا وبعد أن شربته قال الولد الغريب:

– يالله نروح.

وكانت القهوة مزدحمة بالعمال والضجيج يزداد..

وخرجت من القهوة تاركًا هذا الضجيج، واتجهت للمولد، وكانت جموع كثيرة تتدفق، وأعداد غفيرة تقف جماعات على جانبي الطريق يتهامسون فيما بينهم، وآخرون يشمرون أكمامهم المخططة، كاشفين عن قمصان بيضاء مزهرة، وكانت تدور بينهم أحاديث مختلفة حول ما سمعوه اليوم عن التسعة الذين قتلهم اللفت، ووقف أحدهم يقول:

– القبض النهارده كان كويس.. الفلوس النهارده في جيبنا..

وآخر يقول: كتبنا النهارده عريضة للحكومة وناس جت البوظة، وختمنا عليها.

وآخر يقول: "موت يا حمار على ما يجليك العليق.. يوم الحكومة بسنة".

وصاح آخر: "هوه مفيش حاجة عجباكم.. ما تقولوا عايزين إيه.. إيه اللي انتوا عملتوه، لما عمال النسيج وقفت المكن والمهندس قال حاتشتغلوا بالإنتاج، قعدتم تشتموا فيهم شتايم مالهاش حد وأهو دلوقت أخدتم زيادة.. أخدتوها على حسابهم.. حد منكم عمل حاجه.

كان يتكلم والآخرون ينصتون وبعضهم ينظر شذرًا، وآخرون يمرون أمامهم دون أن يلتفت لما يقال، واسترسل قائلاً:

– إنتوا عاملين زي العجايز اللي قاعدين على المصطبة، فلان عمل، وفلان خلى، وفلان مات، وما فيش حد مشي في الجنازة بتاعته غير عشرة.. وفلان ماشي من

غير لباس.. وبنت فلان حبلت.. وفلانة عاشقة فلان.. انتوا عاملين زيهم!! عملتم إيه؟ مفيش حاجة.. فيه ناس بتعمل – علشانكم، وأهو النهارده شوفتوهم بيمضوا الناس على العرايض.

- وعاوزنا نعمل إيه؟
- مش عاوز حاجه.. عاوزكم بس ما تشتموش، مش عاوزكم تقطعوا في جدر حد.. أنا كنت زيكم كده الأول، كنت زعلان لما جه الرئيس وقال حانشتغل بالإنتاج، ما كنتش عارف يعني إيه إنتاج، لكن النهارده أصبحت عارف، وبعد ما كنت بادعي على عمال النسيج أصبحت بادعي لهم، همه دلوقت اللي بيدوروا على حقنا.. بيطالبوا بدية لكل اللي يموت.. تبقى انتوا عايزين إيه؟ مش كتر خيرهم.. اللي ما يقدرش يعمل حاجه يقدر على كلمة كويسه يقولها..

وجاء عسكري من راكبي الخيل ففرق الواقفين.. كانت الشمس تميل إلى الغروب، مطلقة ضوءًا أحمر، وثمة سحب آتية من بعيد تغطي على زرقة السماء وعمال يغدون هنا وهناك متشابكي الأيدي، متجهين إلى المنازل في انتظار ما يخبئه لهم الغد.

(١١) أفندية في العنبر

وفي يوم ممطر والسماء ملبدة بالغيوم، والزوابع تشتد، والهواء يقصف بالشبابيك، وأبواب المنازل تصر كلما لفحها الريح وإذ بالغرفة تفتح علينا وكنا مغطين أنفسنا ببعض الخرق القديمة من شدة البرد، في أحد أركان الحجرة، وإذا بالولد السيد الصفتي يدخل علينا وهو يزعق في وجوهنا:

- قوموا.. أنتم قاعدين.. أنتم قاعدين ليه، أنا فضلت مستنيكم على المحطة مالقيتش حد منكم جه، فجبت شيال معايا واقف بره.

فاتجهنا إلى الخارج مهللين، وعندما أدخلنا القفف قال:

- أمك لما شافتني داخل البلد لوحدي صرخت في وجهي: فين الولد؟ فين فكري؟ هو ما جاش ليه، واستمرت تبكي وأختك تبكي بجوارها وهي تقول:

"فين أخويا.. ما جاش ليه؟ وأنا أحلف.. وهمّ ما يصدقوش.. ما صدقوش إلا بعد ما حلفت على المصحف إنك كويس، وما صدقوش أكتر إلا بعد أن أخرجت الريال من جيبي وقلت: "هو بعتلك ده والباقي راح يكسي نفسه.. هايجيبله مقطع حرير" وعندما أخذت الريال طبقت عليه بأيديها.. وابتسمت لما عرفت أنك قبضت زيادة.. وتمتمت بكلام ما سمعتوش والبت رقية سألتني عليك.. سألتني على المنديل وقالت لي قوله ما تنساش.

وعاد ووجه كلامه للولد الغريب:

- أمك زعلانة منك.. زعلانه لأنك ما بعتلهمش فلوس، وأخوك السعيد انفصل من الشغل.. فصلته البلدية، ومعهمش فلوس.. استلفت تمن الدقيق وخبزتلك العيش ده.. كانت منتظره منك فلوس، وبتقول لك شوف لأخوك شغله وياكم.. هو جاي يوم الحد.. الحد الجاي.

وعندما سمع الولد الغريب الخبر شحب وجهه ورغرغت عيناه بالدموع، ومال برأسه على القفه ليخفي دموعه عنا.. وتمتم: أمي زمانها بتعيط.. لو كنت عارف كنت بعت فلوس.. بعتها لها وقدرت على نفسي، واسترسل قائلاً.. أخويا جاي وأمي حاتفضل مع مين؟ مافيش حد وياها دا هوه اللي كان بيونسها ويطلع عليها ويخش، حاتبقى مقطوعة.. حاتنام لوحدها ع الفرن، وأخفى عينيه وبكي.. واستمر يبكي طويلاً.

وقال الولد السيد الصفتي:

- هو أنا قلت لك علشان تقعد تعيط لنا.. أمك قايله لي ماتقولهوش.. كانت عارفه أنك حاتزعل ولكن أخوك هو اللي قال لي.. قول له علشان ياخد باله إني جاي.

وعاد قائلاً: إنتوا جبتوا لي المقطع.

قلنا: أيوه.. جبناها زي بعض..

فأحمر وجهه وقال بتلهف..هيه فين؟

وعندما رأها اقترب وكاد أن يقبلها، وأخذها بين ذراعيه وحملق فيها وهو يردد كلمات تعبر عن فرحته.. وكانت عيناه تضحكان من الفرحة، وبينما هو غارق في فرحته، كنت أعبث في القفه لأرى ما بعثت به أمي.. وإذا بي أجد علبة أسرعت بفتحها وإذا بها مليئة بالبيض، وقلت في نفسي.. البيض ده أختي محوشاه علشاني.. أمي كانت بتبيعه علشان تجيب بيه برسيم للبهايم.. محوشاه لي لما أروح.. ووجدت في القفه صرة مليانة فطير، وفرخة مطبوخة، وتهلل وجهي فرحًا عندما وجدت كل هذا بالقفه، وتطلعت حولي وإذا بالولد الغريب قابع في مكانه ويداه على خديه والولد السيد يعبث بالثوب، وحاولت أن أهدئ الولد الغريب.. فقلت إنت قاعد حزين ليه وإيدك على خدك.. هو انفصل من إيه.. انفصل من الوظيفة.. مش كان طول النهار ماسك المقشة ويكنس في الشارع.. هيه البلدية دي شغلة ولما ييجي هنا حايحصل إيه.. مش كله شغل، إنت خايف عليه من إيه؟ هو كان طول النهار واقف في الشارع وكان معرض للخطر.. عربيات جايه وعربيات رايحه عليه، مش كانت عربية ممكن تقطعه.. كله شغل هنا زي هناك.. قوم هات ناكل.. خليه ييجي يونسنا بدل ما احنا قاعدين زي الغلابة.

ونحن نتحدث وإذا بصوت جرس يرن رنات متواصلة في غرفة مجاورة، وقال الولد السيد:

- يالله الميعاد قرب.

وخرجنا من المنزل والرياح تقذف بالأتربة، وكل من كانوا يسيرون في الطريق يضعون أيديهم على أعينهم، وكان العمال القادمون من بلادهم، يسيرون بملابسهم المزهرة وذقونهم المحلوقة، وعربات تعدو مسرعة بصناديق من خشب في الاتجاه للمصنع، وعربات أخرى محملة ببالات القطن تخرج من بوابير الحلاجة، تغوص في الوحل، وأطفال ترفع أطراف ملابسهم، ويجرون خلفها مهللين، وصفارات المصانع تدوي في كل مكان معلنة نوبة العمال.. وحمامات بيضاء ترفع أجنحتها.. وتهدل هديلاً متواصلاً وهي تعدو مسرعة من أعلى الأبراج العالية، ويقابلها حمامات أخرى متعددة الألوان، وعمال تخرج من كل مكان، ومن شوارع متعددة يتهامسون، والبعض الآخر يسب ويلعن أصحاب البيوت الذين يطلبون منهم زيادة الإيجار، وبجوار عربة نقل محملة ببراميل سوداء مليئة بالزيوت عطلت في الطريق، رجل ضخم لطخ الطين ملابسه، وخذه يسيل منه الدم، يسب هو الآخر ويلعن، وأمام باب المصنع كان الدخان يتصاعد من المداخن العالية.. دخان أسود حجب رؤية المنازل المجاورة

وتجمع الآلاف على طول الشارع في انتظار فتح الأبواب، وزعقت الصفارة الأخيرة، وتـدفق العمال إلى الداخل، وبدأت الموتورات تعمل، وتحركت السيور وتطاير الغبار المتراكم وحجب العمال فلا يرى بعضهم البعض.

وأدرت ماكينتي وإذا بي أجدها تسير بطيئة غير ما كان بالأمس، ووضعت أذني بجوار الترنك تارة وبجوار التروس تارة أخرى باحثًا عن السبب مثلما يفعل الزملاء، وإذ بي أسـمع صفيرًا ينبعث، أيقنت أن بالماكينات خللاً جعلها تبطئ في الدوران، وإذ بي أجد قطعـة مـن الخيوط ملفوفة بين الترنك والطارة، وجلست بجواره أسلكها بسلك أحضرته، وبعد الانتهاء من التسليك أحضرت جانبًا من الأسطبة ومسحته، وقلت في نفسي:

- أي شيء يدخل بين التروس من الممكن أن يعوق المكن عن الدوران، ويتسبب في عديد من التصليحات تقلل إنتاجي، والرؤساء لا تقترب ولا تهتم بعملية التـصليح وأنا وحدي أقوم بتصليح الماكينات، وعدت وقلت:

كلما كان المكن نظيفاً، كلما كان أسرع في الدوران وأضمن في آخر المدة أن أحـصل على أجر أكبر، كل واحد لازم يجدعن، ومش هايقبض إلا على قدر إنتاجه وبهذه الطريقة أبعد شبح الرؤساء، وأتفادى كلامهم.. أنت ضعيف.. أنت مهمل.. أنت ما تنفعش.. أحنا هانفصلك، سيل من التهديدات لا لشيء إلا لأننا نطلب منهم تصليح الماكينات.. إنهم لا يرغبون في العمل ولا يوسخون أيديهم.. إنهم يرغبون أن يأتوا من بيوتهم ويعودوا مثلما أتوا فـلا فائـدة مـن الذهاب إليهم، فعلينا نحن أن ننتبه إلى ما في الماكينات ونتتبع العيوب، سببها وعلاجهـا، وإلا فإن علينا أن نتحمل إمارة الرؤساء واضطهادهم لنا. إن العيوب الكثيـرة التـي تحـدث فـي الأقمشة، ناتجة عن الإهمال في التصليح والعامل وحده هو الذي يتحمـل عـبء الغرامـات، والرئيس لا يتحمل شيئًا من ذلك مع أنه هو المسئول. إن العامل بكثرة وقوفـه علـى المكـن يستطيع أن يعرف بسرعة العيوب ويحدد مكانها، هو الذي يستطيع أن يبلغ الرئيس عنهـا وإذا أبطأ الرئيس فعليه أن يسرق المفاتيح ويربط الصواميل لأنه صاحب المـصلحة فـي زيـادة إنتاجه، ليتفادى كل ما هو مهين لكرامته.

وأنا غارق في التفكير، إذا بعبد العظيم يأتي مسرعًا وهو يقول:

بص.. وإذ بي أجد ناسًا كثيرة داخلة من الأبواب.. ناس لم تلفح الـشمس وجـوههم.. أفندية عاوجين الطرابيش على ناحية، وآخرين فارقين شعورهم، والتفـوا حـول الماكينـات، جماعات واضعين أيديهم خلف ظهورهم، ويحملقون في الوجوه الواقفة، وجوه العمـال وهـي تعدو من هنا ومن هناك، ويعودون ويتطلعون إلى أعلى.. إلى السيور التي تعلـن هـديرها.. وبعضهم لم يحتمل الضجيج.. فسدوا آذانهم.

ووقفت العمال تنظر، وآخرون منهم يرفعون هاماتهم ويتساءلون:

– مين دول؟ دي لازم الحكومة.. الحكومة جت.. وإيه اللي راح يجيبها.. مفيش حد مات من الرؤساء.. يمكن الشكاوى بتاعتنا راحت.. ياالله نقول لهم.. نقول لهم على كل حاجه.. همه لازم جايين يحققوا.. الرؤساء واقفين وياهم، وإيه يعني.. كل ما جماعة يقفوا جنب عامل لازم يحكي لهم.. يحكي لهم بسرعة دون أن يشعر الرئيس.. أمال هم جايين ليه.. مش جايين يسمعوا شكوانا.. لازم نشتكي لهم.. لو ما أشتكاناش راحين يكتبوا عليها من مجهول، ويحفظوها، ويبقى تعبنا راح على الأرض.. كل واحد منا يتكلم.. علشان يعرفوا أن الشكاوى للجميع.

وانتشرت العمال وانتشر الأفندية في العنبر يتطلعون والرؤساء تسرع في اللف حول الماكينات، وآخرون يشرحون لهم، كيف تدار المكنة، وكيف تخرج الأقمشة والعمال تنتهز انشغال الرؤساء ويتحدثون مع الواقفين، شارحين كل ما هو موجود بالمصنع من متاعب، عن غلق دورة المياه وعن سيرهم حفاة، وعن عدم دفع تعويض لمن يموت، وكان الأفندية يسمعون باهتمام ويتحدثون مع بعضهم، ووقف بجانبي شلة أفندية يتطلعون إليّ قائلين لبعضهم:

– دا صغير في السن.

وتحدثوا مع الرئيس، واقترب مني سائلاً، وعندما شرحت لهم بشكل خاطف كل ما يحدث من الرؤساء إذا بالرئيس ينظر لي في غضب، ولم أخش غضبه وواصلت الحديث معهم، وكانت الأفندية تسمع وبعضهم يكتب ما سمعه، وملت برأسي نحو التروس، وإذا بواحد يهمس في أذني: "بتشتغل كام ساعة؟"

– اتناشر ساعة بدون راحة.

كنت أتكلم وهو يكتب. وإذ به يقول:

– ساكنين بكام؟

– عشرين وخمس وعشرين.

وعدت وقلت إنتم إيه.. مش انتم الحكومة.

قال: "إحنا طلبة جايين من مصر نتفرج.. ومعانا هنا صحفيين هانقول لهم.."

فانقبض قلبي وقلت بصوت حزين خافت..

– إحنا كنا بنحسبكم الحكومة، فأسرعنا وأشتكينا لكم.

وبعد أن خرجوا من العنبر، التف العمال جماعات وأخذوا يتحدثون، فمنهم من يقول:

- أنا كنت بقول يا سعادة البيه بتموت هنا ناس بالسل، والمستشفى مليانه، وهو كان بيضحك كلما قلت "يا سعادة البيه" وعاد يقول أنا طالب اجتماع وحاعمل دراسة، ومنهم من كان يهز رأسه أسفًا، ومنهم من كان لا يسمع، ومنهم من كان يحاول الابتعاد عنا.

وقال أحد الواقفين من العمال:

- تعبكم راح على الفاضي.. طلعوا طلبة.

فرد آخر:

- إحنا خسرنا حاجة.. كل ما حد يخش من اللفندية نشتكي لهم المرة دي.. مش من الحكومة المره الجايه تبقى هيه.. هو حد عارف شكل الحكومة، ما هم زي بعض كل واحد لما يخش نقول له، يمكن تيجي الطوبة في المعطوبة، هي الشكاوى بتاعتنا حاتروح على الفاضي بكره ييجيوا.

والحديث مستمر، وإذا بعامل من عمال الغزل يحمل اسطوانة في يده ويجمع المواسير، وإذا به يتبرع بالقول: "فيه أفندية دخلت العنبر ولما الرؤساء شافوهم، لموا العيال الصغيرة وخبوهم في الصناديق.. لموهم كلهم وحشروهم جنب بعض، ولم يتركوهم إلا لما الأفندية خرجت.

وهز أحد العمال رأسه وقال:

- يخبوهم ليه.. لازم فيه حاجه.. بكره تبان.

وإذا بالرئيس يمر، وقد لمحه أحدهم، وتفرق كل منهم على مكنته، وبدأ كل يعمل أكثر من ذي قبل، وخاصة الذين لم يحصلوا إلا على زيادة ضئيلة في المدة السابقة.

(١٢) وأفندية يحنون الرءوس

وبينما نحن نعمل، والمكن يسرع، والرؤساء يتحركون والوجوه تبتسم، وإذا بلائحة جديدة تعلق على الجدران، واتجه العمال نحوها، يقرءون البنود الآتية:

- كل عامل يترك فتلة مقطوعة خمسة سم بالأقمشة تخصم عليه خمس قروش صاغ. وكلما زادت تضاعف الخصم.
- كل عامل يتسبب في إتلاف ماكينة أو كسر قطعة فيها مثل المكوك أو التروس أو الذراع أو ما شابه ذلك تخصم بكاملها من الأجر.
- كل عامل يترك مكنه ويتحدث مع آخر يخصم له يوم، وكلما تكرر ذلك تكررت الغرامة.

وقوبلت اللائحة بوجوم شديد من العمال، وقال أحد الواقفين وهو يسب ويلعن:

- فتلة خمسة سنتي يتخصم عليها خمسة صاغ.. هو الواحد بياخد كام.. يعني حانشتغل ببلاش، وقال آخر:

الفتل ونقدر عليها، طيب والذراع والتروس إحنا حانكسرها.. دول عاوزين يشتروا المكن على حسابنا، إحنا نشتغل ونطفح الدم وهمه يقبضوا.. إن أعطونا قرش ياخدوا عشرة.. دول ما كفاهمش موت الناس بدون تعويض.

وقال آخر وهو يبلع ريقه:

- هم دول فيه حد يغلبهم.. وقال آخر:
- كل واحد ياخد باله.. ياخد باله من شغله.. مافيش حد يدي للرئيس فرصة، دول متغاظين منا.

وقال عبد العظيم وهو منكس الرأس.

- همه ما استكفوش، وعاد يقول وهو يتلفت حوله.. لهم حق يعملوا كده، ما هم كل يوم بيشوفوا الداخل أكتر من الطالع.. أمال يبنوا العنابر دي منين.

وقال آخر: على حسابنا، وعاد وقال:

متكسرين متكسرين.. ما فيش فايدة.. نكسر لهم المكن ونمشي هو حد بيموت العمال غيره.

وقال آخر: هو المكن ده مالوش صاحب؟

فرد آخر: هو فين صاحبه.. دي وسيه مالهاش صاحب.

فرد آخر: أمال مين اللي بيعمل الجزاءات دي؟

فرد آخر: الرؤساء هم وحدهم اللي بيعملوا فينا كده.

فرد آخر: نموتهم.. نيتم عيالهم.

وقال آخر: والعيال ذنبهم إيه.. ما هو مات منهم واحد حصل إيه.. ولا حاجه.. زاد التعسف وعينوا في الحال غيره.

أحاديث وأحاديث واتجه كل منهم إلى مكنه بنفسٍ مكسورة، وقلت في نفسي: اللي على الواحد يعمله.. واللي على الله يكون، الواحد يشتغل على قد ما يقدر.. المهم يحاسب.. يعني المكنة حتة حلاوة، فين وفين عبال ما تتكسر.. هو فيه حد ضمن عمره حنزعل نفسنا ليه.. الفتل لازم ناخد بالنا منها ما هو صحيح أسيبها ليه، دا أمي لما بتروح تشتري قماش من الدكان بتقعد تبص في كل متر، وإن لقت فتلة مقطوعة، ما ترضاش تاخده، وترجعه للراجل، فيبقى ليه نسيب الفتل، هو فيه حد بيشتريه غيرنا، إن ما اشتريناهوش إحنا بيشتريه غيرنا، لازم نطلعه كويس، والفتلة لو قضينا عليها ما تقعدش ثانية، ثانية واحدة وتطلع قماش أحسن، هو الواحد حايشتغل الثانية بخمسة صاغ أو بريزة.. دا شغل يومين وزيادة.. فليه الواحد يعطيهم الفرصة ياخدوا عرقه، الواحد ياخد باله علشان بتاع الفحص ما يجيش ويقول له تعالى وشوف العيوب اللي في شغلك.. دا يبقى جاي زي عزرائيل الموت، فليه نستعجل.. العجلة من الشيطان.. هي المكنة بتشتغل أد إيه في الساعة.. متر.. اتنين.. تلاته على الأكثر، ثمنهم كام للعامل.. مليم.. بنقبضه كام.. دا نهار العامل ما يتعاظم يقبض أربع برايز أو خمسه، فليه نديلهم الفرصة ياخدوهم علشان دقيقة، بناقص خمسة متر ونطلع الباقي نضيف.. همه بيسرقونا ولازم إحنا نحاول منع السرقة بإننا نطلع قماش أحسن.

وبينما أنا غارق في التفكير إذا بالواد الغريب يزعق، فاتجهت نحوه مسرعًا وقال وهو يلقي بالنظرات هنا وهناك.. العمال اللي أنا واقف وياهم بيتكلموا على الغرامات، وقال أحدهم "مافيش فايدة.. نكسر المكن ونخلص، ونستنى الرؤساء بالليل وهم طالعين ونخبطهم خبطة ما يقوموش منها".

وقال آخر: "مافيش فايدة نوقف المكن زي ما وقفنا لما طالبنا بالزيادة.. لو ما كناش عملنا كده كنا فضلنا زي ما احنا".

ورد آخر: "هو أنتم حاتودونا في داهية.. هو أنتم ما عندكوش غير الثورة.. الواحد إخواته بتستناه كل مدة.. هو أنتم ما عندكوش غير قطع أرزاق الناس.. شوفوا لكم حاجة غير كده.. اللي يقول نموت.. واللي يقول نكسر.. واللي يقول نوقف المكن.. هو إيه، وكان يتكلم

بحماس وعروق رقبته نافرة وعيناه حمر زي حتة اللحمة.. وشوح بيده وهو يقول: اللي يمشي وراكم ما يكسبش.

ثم أضاف ويد على الفرامل وأخرى على الدف، والمكنة تسرع في الدوران تهزه بعنف.. مفيش أحسن من اللي باليومية.. الواحد ماشي على حل شعره.. لا واحد يقول له فتلة مقطوعة ولا مكنة مكسورة، ولا دراع مقطوع ولا صامولة راحت ولا حاجة.. آخر المدة نقبض ماهيتنا كاملة، إشتغلنا ما اشتغلناش عارفين ماهيتنا بالمليم. وقالها وهو منفرج الأسارير، وابتسم ابتسامة كشفت عن بياض أسنانه الصغيرة التي تشبه أسنان "الفأر"، وقبل أن يعود همس في أذني، استعجلت ووقفت على المكنة خلاص.. حاينخرب بيتك.. كل المدة حاتبقى غرامات.

وجاءني عبد العظيم، ولم يقدر على الكلام، كان يشكو من مغص جاءه توًا، كان يضع يده مكان الألم وهو يتلوى ويخرج من بين شفتيه آهات مكتومة، وزاد الألم فلم يقدر على الوقوف، ثم سقط على الأرض، يقبض بكلتا يديه اللتين لم تقويا على الاستمرار لأن الأرض كانت أقوى، واستمر يكبش ويتمرغ بين المكن، والعمال تختلس النظرات من بعيد دون أن يقوى واحد منهم على المجيء إلى جواره، فقلت في نفسي: فين الرؤساء هو أحنا حانسيبه كده.. حانسيبه يموت همه راحوا فين.

واتجهت أبحث بين المكن وأنا أردد: "همه حايعملوا إيه فينا".

وإذا بالرئيس واقف بجانب دولاب الملابس المرخص للرؤساء، ومعه عدد آخر يتحدثون متساندين على الحائط بأذرعتهم.. وترددت لحظة في الاتجاه نحوهم وأخيرًا تقدمت ووقفت على بعد خطوات منهم وقد لمحني أحدهم فحملق في وجهي بعينيه الضيقتين التي تشبه عيون الصقر، وأسرعت في التقدم قائلاً:

- العامل عبد العظيم هايموت، نايم جنب المكن يتمرغ في الأرض، وحملق في وجهي الجميع وهزوا رؤوسهم وقال أحدهم وهو ينظر إلى الآخرين:
- مايموت.. هايحصل إيه؟
- قال آخر: ياللـه يا واد امشي على مكنك.

فرد آخر: ما تروح يا أخي وتشوفه.. هو كل يوم لازم يطلع واحد ميت من العنبر.

ورد آخر: دلوقت يصحى ما دام ما متش خلاص.

وتركتهم يتحدثون واتجهت نحو عبد العظيم فوجدته نائمًا يكبش في الأرض، وتقدم منه أحد العمال، ورفعه نحو صدره قائلاً:

– حط صابعك في فمك.. تقيأ.. حط صباعك..

وعندما فعل عبد العظيم ذلك تقيأ كثيرًا، وأخذه أحد العمال ووضعه بجوار الحائط، وبعد فترة ليست قصيرة، حضر أحد الرؤساء ووقف على بعد خطوات منه، وسأل أحد العمال.. وبعد أن أفهمه العامل أخرج ورقة وكتب كلامًا وأخذها العامل واتجه للخارج، وبعد فترة جاء يحمل في يده كوبًا وأعطاه لعبد العظيم، وبعد قليل قام عبد العظيم أصفر الوجه، وسار على مهل في اتجاه المكن، ولم يقو على الوقوف، فجلس بجوار المكن واضعًا رأسه بين راحتيه ولم يخرج للغذاء وقت الظهر، والعمال المجاورين له لم تترك مكانها طوال الوقت وكلما مر أحد الرؤساء كان يتساند بكلتا يديه واقفًا، ويعود من جديد للجلوس بعد أن يبتعد الرئيس، رويدًا رويدًا والساعة تقترب من الثامنة ميعاد انتهاء نوبة العمل..

وانتهى اليوم، ولم يكن العمال منشرحي الصدور مثلما كانوا بالأمس بسبب اللائحة الجديدة التي صدت نفوسهم.. كانت المنازل والشوارع تبدو قاتمة رغم الضوء الخافت الذي ينبعث من أماكن متفرقة، وكان الحديث حول اللائحة الجديدة وحول ما بها من غرامات، وحول العمال التسعة الذين قتلهم اللفت بالأمس، وحول الأفندية الذين دخلوا المصنع، وحول الأطفال الذين أخفاهم الرؤساء داخل الصناديق.. ومرت الأيام وتتابعت الأحداث وشفي عبد العظيم من مرضه ولم يعد الدم إلى وجهه الأسمر، بل استمر شاحبًا!! وذات يوم ونحن متجهون إلى المصنع، إذا بجماعات من الأفندية.. جماعات كثيرة بالقرب من الباب، وكانوا يتطلعون كلما سار العمال أمامهم بعيون مغمضة، وتساءل العمال.. الحكومة جت، لازم نقول لهم وقال آخر:

– لما نخش جوه همه حاييجوا، ولم تمض لحظة من بدء العمل إلا ودخل المهندس، ومن خلفه عدد من هؤلاء، وعندما وقعت عيونهم على العمال وهم يلفون حول المكن غمض بعضهم عينه نصف غمضة وبدءوا يلفون حول المكن، وفي الطرقات في طابور لا ينقطع، والعمال تنظر إليهم بعيون متسائلة، والماكينات تسرع في الدوران كالخائفة والسيور تزيد من سرعتها، ودخل المهندس ومن خلفه كل من كان في العنبر، وكان العمال كلما رأوا المهندس يسرعون في اللف حول المكن وهم يحملقون بالعيون في الأفندية قائلين لأنفسهم..

من يكون هؤلاء.. هل جاءوا ليرونا؟ وماذا يقولون عنا؟ هل نشكو مما نعانيه؟ وما قيمة الشكوى! إنهم يسيرون خلف المهندس بانتظام ولا يتركونه لحظة، لم يقترب منهم أحد من العمال يسأله، لم يكن في يد أحد منهم ورقة.. إنهم يسيرون خلف المهندس رافعين القامة، وعندما يتحدث معهم يحنون رءوسهم، فيم يتحدثون؟.. إنهم يختلفون عمن رأيناهم بالأمس،

إنهم يسيرون في أدب، وينظرون للمهندس بعيون شبه ناعسة لم يرفع أحد منهم عينيه في وجه المهندس، كأنهم يخشونه خشية الموت، إنهم مختلفون عمن جاءوا بالأمس، إنهم لا يتحركون.. إن الذين جاءوا بالأمس انتشروا بين العمال وتحدثوا معهم دون أن يعيروا المهندس أو الرؤساء أي التفاتة.. وكانوا يكتبون في الورق كل ما سمعوه من العمال، فلم لا يفعل هؤلاء مثلهم؟ وفجأة التفوا حول الساعة الملتصقة في الحائط والمهندس واقف بجوارهم يلوح بيديه وهم واقفون في خشوع، وكل منهم يشبك يديه خلف ظهره ويؤمنون برءوسهم كالخائفين، وبعد أن أنهى المهندس حديثه خرجوا من العنبر دون أن يلتفتوا، وبقى المهندس مع الرؤساء، يلوح بيديه في اتجاهات مختلفة، من العنبر، وبعد أن اتجه الرؤساء في الاتجاهات التي لوح إليها وقفوا يتحدثون، واستمر العمال في تساؤلهم.. وتبين فيما بعد أن العنابر الجديدة سيبدأ العمل فيها، وأن من جاء العنبر اليوم، ما هم إلا أفندية تخرجوا من المدارس وجاءوا هنا ليعملوا، وقد سمع أحد العمال المهندس وهو يقول لهم إنكم ستعملون هنا وأمامكم فترة من التدريب.. التدريب العملي مع من سبقوكم، إن الماكينات هنا تحتاج إلى تمرين خاص، إنه يختلف عما تعلمتموه في المدارس ولهذا فأنتم في حاجة إلى تدريب وتمرين، وسيقف كل منكم مع من تدرب على العمل، وسأله أحدهم:

- كم من أجر ستعطونا؟

فرد المهندس:

كل منكم حسب شهادته، وسوف تراعي الإدارة ذلك..

وأدركت سبب انحناء رءوسهم، وقلت في نفسي إن العمال ليسوا وحدهم الذي يحنون الرءوس فها هم أفندية تخرجوا من المدارس وعلى أجسامهم أزهى الملابس ومع هذا يحنون الرءوس ويقفون أمام المهندس، صاغرين.. أكل العيش هو الذي جعل الإنسان يقبل مثل هذا الموقف، وسوف يخضعون لما يصدر إليهم من أوامر.

وعدت وتذكرت ما قاله المحامي في المحكمة:

"إن الذين يصدرون الأوامر هم الذين يجب أن يوضعوا في القفص.. إنهم يختفون وراء الكواليس، وها هو المهندس يقول: "سوف تراعي الإدارة ذلك" وما هي الإدارة؟

إنها هي التي تصدر الأوامر.. وكل ما نعانيه هو بسبب الإدارة.. ضرب العمال صادر من الإدارة.. موت العمال أيضًا صادر من الإدارة.. وعدم دفع التعويض صادر من الإدارة.. كل هذه الغرامات صادرة من الإدارة، وتلطيخ وجوه العمال بالزهرة صادر من الإدارة.. وعلى هؤلاء الرؤساء تنفيذ ذلك.. إنهم ينفذون الأوامر للمحافظة على أكل العيش إنهم إذن يخشون الفصل كما نخشاه نحن، ولهذا ينفذون الأوامر. كل منهم يحاول أن يثبت ولاءه منهم

من يحاول أن يخضع العمال، ويجعلهم لا يتحركون، ومنهم من يقدم غرامات للإدارة غرامات على العمال أكثر من غيره لكي يثبت كفاءته. إنهم يثبتون كفاءتهم في ضرب العمال، وفي ملء الدفاتر بالغرامات ولا يثبتون أي كفاءة في تصليح الآلات ومنع الحوادث، والإدارة تسمع منهم في كبرياء وهي لا تعرف ما يدور داخل العنابر، وما تعانيه نفوس العمال من مرارة.. إنها تعرف فقط الغرامات.. لو دفعت الإدارة تعويضًا لعامل مات؟ أو سجن واحد من الإدارة التي قال عنها المهندس لتغير الحال! إنهم لا يحاسبون.. إن الذين سيأتون في الغد سيقفون بالباب قبل أن يدخلوا العنابر سيستمعون إلى التعليمات.

وصحوت من تفكيري على صوت أحد العمال يقول:

– بكره العنابر الجديدة سوف تفتح، وستأخذ كل عمال اليومية.

وانتهى اليوم وقد صح كل ما توقعناه.. فقد وقفوا في طابور طويل أمام مكتب الضابط المجاور للإدارة يحمل كل منهم على ذراعه بالطو أبيض في انتظار أخذ الأوامر وعندما دخلوا العنابر لم يكونوا مثل من سبقوهم في التخرج، وأطلق عليهم لقب المساعدين.. كانوا يسيرون بين الآلات شاردي الذهن، ينظرون إلى وجوه العمال متأملين، كان بعضهم أسمر البشرة، وآخرون ذوي وجوه بيضاء، كان كل منهم يفكر في تنفيذ الأوامر التي صدرت إليهم.. خاضعين لمن سبقوهم في العمل من الرؤساء الذين يتلقون منهم أوامرهم.. وقال العمال في نفوسهم، إن هؤلاء المساعدين سوف يساعدوننا على تصليح الماكينات، والمكن سوف لا يتعطل كثيرًا.. إن كثرتهم هذه ستساعدنا على أن ننجح أكثر، ولكن حدث ما لم نكن نتوقعه! فالمساعدون لم يقبلوا على العمل بحماس، فقد حددت لهم الإدارة الأجر، لبعضهم ستة قروش وللبعض الآخر سبعة، والتفوا في حلقات صغيرة يتحدثون.. فمن قائل: "هل نحن قادمون من وراء البهايم.. هل هذا أجر.. ستة قروش إيه.. نطفح الدم في المدارس وناخد الشهادات.. شهادات قد الدنيا وآخرتها ناخد هذا الأجر؟

وآخر يقول: "هل أهلنا كانت بتعلمنا وتدفع لنا مصاريف من اللحم الحي وآخر الأمر نشتغل بهذا الأجر، هل أحد يصدق إن واحد متعلم ومعاه شهادة يشتغل بستة قروش".

وقال آخر: "آدي أخرة المدارس.. هل الست قروش سوف تأكلنا.. كانت أهالينا بتأكلنا، دلوقت نقول أكلونا.. دول الست الصاغ دول ما يجيبوش هدوم.. مش معقول.. أنا سوف أسحب أوراقي وأقدمها للحكومة".

فرد آخر:

- هيه الحكومة فيها شغل.. دي بيشتغل فيها الواسطة.. إحنا نشتغل على أد ما يدونا مش حانوسخ إيدينا، وكل منا يحافظ على ملابسه، هل الفلوس دي تقدر تجيب منها حاجه؟ وعندما سمعت ذلك، قلت في نفسي:

مافيش فايدة يكونون كمن سبقوهم.. لا هم رايحين يشتغلوا ولا حاجه، فلازم الواحد ياخد باله كويس ويعتمد على نفسه كويس ولا يروح للمساعد ولا غيره، إلا بعد ما يغلب.. همه حايعملوا إيه.. مش هاييجوا يشوفوا ويسيبونا ويمشوا.. الواحد يسرق المفتاح ويصلح المكن، والواحد منا عارف كل حاجه دلوقت.. مش لما تنفك صامولة الواحد يربطها.. وارتفع صوت أحد العمال يقول:

- خلاص حايفتحوا العنابر الجديدة.. حايفتحوا عنبر النسيج نمرة ٢ والمساعدين دول كلهم حاتروح هناك تشتغل.

قلت: حايشتغلوا إيه، دول بيقولوا مش هانعمل إلا على أد ما ناخد.

دول عملولهم ستة صاغ في اليوم..

فرد آخر قائلاً:

- الواحد أمه تربيه وياخد شهادة وآخرتها ياخد سته قروش صاغ.. دول أفندية على الفاضي.. الحمد لله إن أم الواحد ما تعبتش فيه وبعتوه أهله للمدارس كان الواحد يمشي على الفاضي، أحسن كده الواحد لو مشي عريان ماحدش يقول له إنت عريان ليه؟

دا احنا لو اتجدعنا حناخد أحسن منهم.

وبينما نحن نتحدث إذ بعبد العظيم هو الآخر يأتي ويشترك في الحديث، وسارت الأمور إلى النصف الثاني من النهار، وكانت الماكينات تدور وبعضها يتوقف، والرؤساء في غفلة عن كل ما يحدث في العنابر.

(١٣) تأملات وجراح

ووقف أحد العمال من الذين تبقوا من أهالي المحلة بجوار مكنه المتوقف، يلف حوله ويتطلع بعيون زائغة ويرفع هامته، ويعود وينظر بعيدًا عسى أن يجد أحدًا من الرؤساء، وسار يبحث فلم يعثر على أحد، فعاد في هذه المرة وتوقف بجوار العداد الملتصق بالمكنة وكانت عيناه تضيق وتتسع وهو ينظر فيما حوله، ويعود ويضع طرف أصابعه في فمه. كان يفكر في شيء ما يصنعه، لا يعلمه أحد سواه، ولكن حركاته كانت توحي بأنه سيفعل شيئًا ما بالعداد، وكان يعود وينظر في العداد ويعود ويتطلع للعمال بحركات مضطربة.. كان يرقب العمال منبهرًا بانشغالهم ويبدأ في ما في ذهنه من عمل وقد لاحظت أنا ذلك.. وكلما رأيته يتطلع ذات الشمال وذات اليمين، كنت أحاول أن أخفي وجهي لأطمئنه أن أحدًا لا يراه، وكنت أعود وأتطلع خلسة لأرى ماذا يفعل، وفجأة أخرج من جيب جلبابه مفكًا صغيرًا وقبض عليه بيديه وانتابته انتفاضة شديدة ملكت كل جسمه، وكان صدره يعلو ويهبط ووجهه الأبيض المشرب بالاحمرار قد انقلب إلى اصفرار شديد، وفي سرعة البرق حطم جانبًا من الباغة.. جانب صغير جدًا على خانة العشرات وبلع ريقه بعد أن اطمأن إلى أنها تحطمت، وتطلع من جديد وهو زائغ العينين، وقلت في نفسي: "ماذا أفعل؟" لماذا يحطمها؟ هل حطمها عن غيظ؟ هل يريد أن يحطم المكنة لأنها لم تسرع في العمل. أم ماذا؟ ولماذا ترك المكنة وكسر الباغة وحدها؟ هل لأنه لم يستطع كسر المكنة فكسر الباغة.. وكسرها يعمل إيه؟.. هل ينفس عن نفسه.. عما بصدره؟

وفوجئت به يعود وهو ينتفض بشده ووضع المفك على خانة العشرات وخبطه خبطة بكلتا يديه على العداد.. خبطة قوية، وعاد وكررها عدة مرات، وقد أيقنت سبب هذا الفعلة، أيقنت أنه يسرق في العداد.. فسألت نفسي لماذا يفعل هذا؟ لماذا يسرق؟ هل الدافع هو توقف المكن؟ هل الدافع عدم اهتمام الرؤساء بتصليحه.. صحيح أن المكن يعطل من الصبح وهذا العطل على حسابه.. ولو استمر على هذا سوف يأتي آخر المدة ولا يجد في جيبه "ولا مليم"، وسوف يقبض ما أنتجه.. وإذا كان المكن متعطلاً راح يقبض إيه؟ لو وجد حد يشتكي له.. لو الرؤساء حد بيحاسبها لما فعل العامل هذا، وهل هذا هو الحل؟

ونظرت له نظرة لاحظ فيها إنني قد رأيته، وإذا به يقول: حاعمل إيه؟ شغلونا بالإنتاج.. ومش راح أقبض إلا ما أنتجه.. وأهه أدي أنت شايف المكن عطلان.. عطلان من الصبح.. ورحت للرئيس أكتر من مرة، ولكن الرئيس في وادي واحنا في وادي آخر.." وسكت لحظة وتنهد بغيظ وهو يحاول أن يبلع ريقه واسترسل قائلاً:

– حاأروح لأهلي إزاي: حاروح آخر المدة من غير ولا مليم.. وهيه أمي حاتصدق؟ حاتصدق إن المكن عطلان! وتطلع إلي وهو يحدق فيّ النظر.. وإخواني منتظرين.. منتظرين أعمل كده.

وكز على شفتيه، وخبط بقدمه في الأرض.. قلت:

– افرض حد شافك.. حاتعمل إيه لو أمك سمعت أنك حرامي.. وانفصلت لهذا السبب، حاتعمل إيه؟ فعاد وخبط بقدمه اليمنى وقال: "مين المسئول؟" قلت: ساعتها مافيش حد راح يسأل.. الجاموسة لما بتقع بتكتر سكاكينها.. كل واحد عايز يدبح.. ويبقى الكلام كله حول الجاموسة، ومفيش حد بعدها راح يسأل عن السبب..

– يعني لما أعمل كده.. كل الأنظار تتجه ليا؟ كل الناس حاتكرهني.. أمال الشركة اللي بتسرق آلاف العمال كل يوم.. مفيش حد ليه بيحاسبها.. بس احنا لو عملنا حاجة كل الناس تكرهنا؟!

– أنا اللي شفتك.. وأحسن ما تعملهاش.. الصحن لما بيتكسر ما بيتصلحش.. ولو اتصلح يفضل مشوه ومفيش حد بياكل فيه.

قلت هذا وتركته واضعًا يديه فوق جبهته.. وإذ بأحد العمال يأتيني على المكن، وتبينت أني لست وحدي الذي رآه.. فقد رآه آخرون، وبقى العامل على مكنه واقفًا دونما حركة إلا وقت أن يأتي الرئيس، فيحدف بيده الفرامل، وبعد أن يمر يعود ويوقفها..

وفي اليوم التالي، عاد وفعلها.. واستمر يسرق في العداد طوال أيام.. وفي يوم القبض كانت الأنظار كلها متجهة له ليعرفوا ما سيقبضه.. أنظار كل من رأوه.. وإذا به يقبض أكثر ممن كانوا يجهدون أنفسهم.. فقد قبض أكثر من ستين قرشًا، مع أنه لم يكن يعمل في اليوم أكثر من ساعة.. ساعة فقط، وما يتبقى من ساعات اليوم كان يقضيه خلف المكن أو يلف حوله.. أو يقف بين العمال.. وكلما رأى أحد الرؤساء آتيًا أسرع وأدار المكن.. واستمر هكذا..

وفي يوم وقف وكأنما يحدث نفسه.. زي الرؤساء ما بتسرقنا، نسرقهم، مفيش حد أحسن من حد.. اجتمع بعض العمال وقال أحدهم.

– يا سنة سوده، هو احنا حانفضل ساكتين كده لإمتى.. الواحد طافح الدم وعينيه اتمققت من أخد الفتل.. هوه فيه أكتر من دي فوضى! نقبض أقل منه والواحد انحش وسطه. وشوح في وجوه الواقفين بيده – اتناشر ساعة واقفهم على المكن، وييجي واحد ما بيقفش أكتر من ساعة، ويقبض الفلوس دي كلها! الطيب ما ينفعش في البلد دي.. فرد آخر:

- نعمل زيه.. حانخاف من إيه..

قلت:

- من ربنا!! الحرام بياخد الحلال في رجليه.. الحرام ما ينفعش.

فرد آخر:

- خليك مع الحلال بتاعك، هوه الي بيتعمل فينا ده كله مش حرام؟ هيه الغرامات اللي بناخدها والناس اللي بتموت وأطفالهم تتيتم مش حرام! همه مش كفاهم الظلم! كل يوم بيعتدوا علينا، خلاص، كل واحد يقدر على حاجه يعملها، مافيش في قلوبهم رحمة، حناكل طوب!! بنشتغل ليه، هو فيه حد بيسأل واللا بيقدر، اللي حارق دمه في الشغل زي اللي قاعد طول النهار ما بيعملشي حاجه.. نعمل زيهم.. المهم ما نخليش حد يشوفنا.

وتركتهم واتجهت نحو عبد العظيم أسأله.. وإذا به يقول: "من بص لعيشة غيره حرمت عليه عيشته".. غمض عينيك عن كل ما تراه.. كل واحد يعمل ما بداله.. ما دام ربنا مديله شوية عافية ما يستخسرهمش.. وأدار المكن وتطلع نحوي.. "هو فيه حد بيشيل ذنب التاني.. كل واحد معلق من عرقوبه".

كان يتكلم وعينه مصوبة نحو العامل الذي يسرق في العداد.. سيبهم "من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها".. مافيش حد راح يتحاسب إلا بعمله.. اللي بيعمل طيب ينكتب له.. فيه ملايكه بتسجل عمل كل واحد.. واسترسل قائلاً:

- إنت بتصلي.
- لا.
- ليه؟
- مافيش.. مافيش وقت.. يادوب الواحد بيصحى الصبح ويروح آخر النهار هلكان.. يادوب بياكل ويروح متلقح نايم..
- ده دين.. الصلا دين على الواحد.. لازم يقضيه.. صلي علشان ربنا يكسبك..
- أمي طول عمرها بتصلي.. وياما رفعت إيديها للسما وطلبت منه إنه يغنيها.. لحد دلوقت لا اتغنينا ولا حاجة.. زاد علينا حاجة.. سيبنا في غلبنا.. فشحب وجهه وامتعض امتعاضة أبرزت وجهه الصارم.. وعاد وتكلم في حزن.. ما تقولش كده!

عاوز تقول إن ربنا ما بيعملش حاجه!!

- لحد دلوقتي أمي بتدعي، وكل يوم بتدعي وياما وقفت ناس في بلدنا على أسطح البيوت ينكشوا شعورهم داعيين على الظلم وخاصة على العمدة، ومع ذلك فالعمدة حي، وأولاده في المدارس، ووجوههم منورة، وخدودهم موردة، وعندهم بهايم كتير، بهايم بتحلب، وأولاده يشربون من هذا اللبن، وكتير من أبناء القرية وجوههم مصفرة، ومليانة بقع بيضاء، ويسيرون خلف الحمير المحملة بالسبخ يلهثون.. والعمدة ياخد الرجالة بالعافية للعمل في أرضه، ويأخذ النسوان لتلزيق الجلة فوق بيته، وده الي يخلي الناس بترفع إيديها للدعاء عليه.. فشخط في وجهي.. إنت يظهر عليك كافر! إوعى تقول الكلام ده قدام حد.

قلت:

- مافيه ناس كتير عندنا بتصلي، وبيطلعوا الفلوس للغلابة بالربا، الجنية ياخدوا عليه ريال وأمي قالت لإخواتي روحوا صلوا، وأخواتي يرفضون، وكثيرًا ما رفضت أمي الأكل معهم على الطبلية، وفضلت تحلف، وكل يوم تحلف على إخواتي، لما أخويا إبراهيم زهق وراح صلى، وأول يوم صلى الجزمة راحت.. طلع من غيرها، أتسرقت من قدامه وهوه راكع، الجزمة ما كانش حيلته غيرها.. وقعد يسب ويلعن وروح حافي.. وأمي تقول له "معلهش.. بكره ربنا يعوضها لك".
- انتي اللي شورتي عليه الشورة دي.. ويقول ربنا رب قلوب هو احنا حنتحاسب على إيه.. أحنا شقيانين كل واحد لابس عمة في الدنيا وماسك سبحة نازلة الأرض ومافيش في قلوبهم رحمة.. بيشغلونا وياكلوا عرقنا..

وكادت أمي أن تكرشه، لولا تدخل من يحبوننا، وردوا اليمين إلى أخي، وعاد إلى الجامع ليصلي في السيد البدوي، ولما انتهى من صلاته، خرج ليجد ملاحظ البلدية قد مر فلم يجده فخصم له ثلاثة أيام.. وفضل يسب ويلعن.. ولم تعد أمي بعد ذلك تقول لأحد من إخواتي "روح صلي" بل كثيرًا ما رددت "المؤمن دايمًا مصاب".. فأنت عايزني أروح أصلي.. أصلي فين؟! هوه الواحد قادر يتحرك من على المكن.. داحنا هنا ألعن من البلدية.. هي الرؤساء هنا بيعرفوا ربنا؟! الرؤساء لو شافوا الواحد منا واقف.. بيصلي، مش هايخصموله بس، يمكن كمان يفصلوه، وساعتها مفيش حاجة هتنفع الواحد ولا صلا ولا غيره.

وبينما نتحدث انقطع أحد سيور المكن ولف على الطنبور، وفضل يلف، يلف ويخبط في السقف، وإذ بأحد ألواح الزجاج يقع فوق رأسي، فوقعت على الأرض ولم أسمع سوى أصوات آتية من بعيد، كنت أسمعها كالحالم.. أصوات تقول:

"إلحق يا جدع" "الواد حايموت"، واحد يقلع جلابيته ويلفها على دماغه.. الدم بيشرشب واحد يكتمه.. الواد دمه هيتصفى.. والأصوات تبتعد وتبتعد، ولم أعد أشعر بشيء.

وفي النصف الثاني من الليل بربشت عيني على أنين متواصل من أماكن متعددة.. أنين يقطع الأكباد. وإذا بي أجد نفسي على أحد الأسرة في عنبر واسع، كل مرضاه من العمال، وحاولت أن أتبينهم فلم أقدر لما في رأسي من ألم. كانت ملفوفة بالقطن، ولم يكن بها مكان لا يخلو من القطن والشاش.. وشعرت بألم متزايد.. وبقيت في مكاني نائمًا، دافنًا رأسي في الوسادة، وعجزت عن تحريكها، وازداد أنين المرضى النائمين، وإذا بصوت خافت ينادي ويئن عند كل كلمة.. يا تمرجي.. يا تمرجي.. جنبي سخن يا تمرجي.. غطيني يا تمرجي.. وصوت آخر يقول: أعدلني يا تمرجي على جنبي الثاني، وثالث يقول: الحقني.. أصوات وأصوات وأنين لا ينقطع.. وقلت في نفسي: يا نهار أسود!! الواحد حيموت، ده أمي لو عرفت هتلطم.. فين الواد الغريب؟ وفين عبد العظيم؟ ما حدش سأل ليه؟ وإيه اللي كان وقفني تحت السير.. ليه ما بعدتش؟ فين المكن بتاعي؟ زمان حد وقف عليه.. مين يا ترى اللي استلم مكاني؟ كانت إيديه خدت عليه.. وعرفت كل ما فيه من عيوب.. بل وعالجت الكثير منها وكدت أن أكون الأول في الإنتاج على أني أصغر العمال سنًا.. هل الرؤساء هترجعني لما أرجع يا رب الواد الغريب ييجي علشان يجيب لي أمي.. تيجي هيه واختي حاموت من غير ما يشوفوني؟ يا خرابي!

وصحوت من تفكيري على صوت طفل يزعق مناديًا:

يا تمرجي، يا تمرجي فيه واحد مات.. مات يا تمرجي!

وتوالت المناداة، وأحسست بكركبة من على الأسرة، وإذا بصوت يقول: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسول الله.. وآخر يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون وثالث يضيف في مرارة ساخرة:

والله ده حظه كويس.. لقى حد يتشاهد عليه، غيره مات ما حدش شافه.

وعندما سمعت كل هذا كانت دموعي تتساقط وقلت.. أين أمي.. مين يجيبها لي دي الوقت؟ آه ياني، حاموت هنا يا غريب.. حاموت غريب من غير أمي ما تشوفني..

ودخل رجلان يلبسان جلاليب بيضاء العنبر مسرعين واتجها إلى الداخل – وبعد قليل عادا يحملان الجثة، ومن ورائهما الطفل وهو يقول: رجليه، رجليه عريانة غطوها، غطوا رجليه ولكن أحدًا لم يلتفت لكلامه، واستمروا مسرعين، وواصلت بكائي المكتوم، ومرت أمام عيني صور عديدة.. تصورت أختي يوم أن هربت، وكانت تسير خلف الحمار بجلبابها الأسود، وعندما رأتني جرت خلفي في الشراقي، وهي تزعق تعالى يا خويا، تعالى ما

تخافش.. تصورتها يوم أن ضربتني أمي وهي تزعق في وجهها، بتضربيه ليه يا بت الكلب.. يا بت الكلب يامه..

وإذا بصوت أحد المرضى يقطع تتابع الصور قائلاً: الولد ده من ساعة ما جه وهوه نايم على السرير ما بيتقلبش.. وزعق آخر: سيبه.. سيبه في حاله دلوقت بنسمع أنينه ولكنه اقترب مني ولم أستطع احتمال رائحته النتنه المنبعثة من ساقه المقطوع، وحملق في وجهي وإذا بـه يرى دموعي المتساقطة على خدي، وهمس في صوت يشبه الصمت: أنت بتعيط.. بتعيط ليه؟ وأمسك طرف الملاية ومسح لي الدموع.. واسترسل قائلاً: خد البرتقان ده.. خد بل ريقـك.. إحنا زي بعض.. إنت منين؟ ولكني لم أستطع الإجابة وأشرت له بيدي طالبًا منه السكوت لأن الكلمات كادت أن تشق رأسي. واقترب منا مريض آخر وقال: ماتسيبه يا أخي.. وتنهد وهـو يقول: الله يكون في عونه.. وترك البرتقال بجواري، وتركاني شارد الذهن، أفكر فـي أختـي التي تنتظر عودتي.. وعدت إلى تصوراتي متطلعاً إلى السقف.. أتساءل كيف ستتقبل أمي هذا الخبر.. سوف تشنق نفسها بالطرحة، وسوف تلطخ وجهها بالطين، ومع تدفق هذه الخـواطر والصور ازدادت ضربات قلبي واشتد خفقه، وقلت لنفسي إمتى الصبح يطلـع، ودخـل أحـد التمورجية يدق الأرض بحذائه الغليظ، وتوجه نحوي، وأمسك بيدي وقال لـيس هنـاك مـا يستدعي الطبيب، وأعاد الغطاء وتركني. كانت آهات المرضى المتصلة والمتقطعة تملأ العنبر بجو من الحزن الشديد. وعاد التمرجي مرة أخرى، وكشف الغطاء عني، وأمـسك بـذراعي وغرس فيه إبره صرخت حين غرسها، ولم أشعر بشيء بعد ذلك.

وفي الصباح التف حولي المرضى وكانوا حليقي الرءوس، وحاولوا بث الطمأنينة فـي نفسي.. "أنت كويس.. بلوتك خفيفة" وكشف لي كل منهم عن بلواه.. منهم من تقطعت أصـابع يديه، ومنهم من تقطعت رجلاه، أو شوهت مية النار" وجهه.. ورائحـة اليـود تنبعـث مـن جروحهم التي طال علاجها، وقال أحدهم: احنا خلاص ماعدش لنا شغل في المدعوقة دي ولا في أي مكان آخر.. أما انت فمصيبتك أخف.. أخف بكتير.. هتقعد يومين، وهتخـرج تـاني للشغل، وقال آخر: إزي الأجور دلوقت؟

وحكيت لهم عن توقف المكن، وتشغيل العمال بالإنتـاج، وتبـادلوا النظـرات، وهـم يرددون:

- الأجور زادت، يا سلام.. بس احنا اللي حظنا زي الزفت – مالناش بخـت.. ورد آخر:
- أنت حاتحاكم ربنا.. كل واحد بياخد نصيبه!! كل ده ما يـساويش حاجـه قـدام البلاوي اللي أحنا فيها دي.. فرد آخر:

- قضا أخف من قضا وانطلقت من أحد الأسرة تأوهات فقال أحد المرضى.
- ده واحد جه في نص الليل.. الحكيم قطع رجليه، درفيل المكنة هوه اللي قطعها له.. وأدركت بنفسي بعد ما رأيته من البشاعة والبؤس والظلم لماذا رفضت المحكمة أن تلبي دعوة المحامي الذي قال في المرافعة:
- "تعالوا إلى المستشفى الميري لتروا بأعينكم ضحايا جرائم من يختفون وراء الكواليس ويصدرون الأوامر". وقلت في نفسي.. لا شك أنهم يعرفون ما سيرونه.. فهم قرعوا بلا شك أقوالنا أمام النيابة، ومع ذلك فقد حكموا على العامل.. اليوم فقط تأكدت أن المحكمة عندما رفضت الحضور إلى المستشفى كانت تعلم ما حدث، وأن النيابة عندما تسترت على ما يحدث وأهملت أقوالنا تعلم هي أيضًا حقيقة ما يحدث.

وارتفع من بعيد صوت أحد المرضى.. "الزيارة.. الزيارة جت بره.. حاتخش دلوقت".

كان يتكلم والدماء تعود تجري في أوصاله ويسألني.

- مش عاوز حاجه.. مش عاوز تقول حاجه لأهلك.. وأجبت باقتضاب "أهلي مش هنا".

واندفع الزوار داخلين، عدد كبير يتدافع فيه خليط من الرجال والنسوان والأطفال.. بينهم فلاحات تمتد ملابسهن السوداء إلى كعوبهن، وأطفال صغار يتعلقون بأمهاتهم والكل يبحثون في الأسرة عن مرضاهم، وبعض المرضى يرشدون من يعرفون من الزوار إلى من يعرفون من المرضى، وكان أشد ما يؤلمني ويحرك كوامني بكاء الأمهات عند تقبيل أبنائهن وهن ينظرن إلى ما تشوه من أجسادهم.. والتف الجميع حول الأسرة وهم يضعون ما أحضروه معهم من طعام أو فاكهة، والأطفال يصرخون ويضحكون وهم يجري بعضهم وراء البعض وراء الأسرة غير مبالين بما حولهم. فهم في وادٍ، والآباء والأمهات والمرضى في واد آخر. وارتفع صوت امرأة ممتلئة الجسم كانت تجلس على السرير المقابل لي، وقد وضعت يدها على خدها.. "ياعيني.. كل الناس بتزور.. مش معنى اللي جنبك ده ما عندوش حد؟ واتجهت نحوي بعينيها، ثم قامت فجأة وأخذت بعض المأكولات والفاكهة من صرة بجانبها واقتربت مني.. "خد ياخويا.. أهلك لسه ما عرفوش.. خد يا حبيبي بكره يجولك".

وانتابتني قشعريرة وارتجف جسمي، وتدفقت الدموع في عيني، وهي تطبطب عليّ قائلة: "خد أنا زي أمك.. ربنا يكتب لكم السلامة.. ما تنقهرش.. أنت منين؟ قول لي وأنا أروح لأمك أو أبعت لهم..

وانضم إلينا بعض النسوة الأخيرات يحملن لي مما أحضرنه وهن يمصمصن شفاههن متحسرات!!

- "يا واد يا فكري".. ارتفع صوت يأتي نحوي من باب العنبر "يا فكري يا خولي" ورن الصوت في أذني.. صوت الولد السيد الصفتي.. وانتفضت من سريري كمن أتته نجدة من السماء، ولم أستطع أن أزعق كما يفعل فوقفت ألوح بيدي، وصاح عندما رآني.. أهه.. تعالوا.. تعالي من هنا يا امه السيدة..

وعندما سمعت اسم أمي، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فارتميت على السرير وجسمي ينتفض، ودخلت أمي مهرولة وهي تصيح.. فين يا ولاد!! ومن خلها أختي، وانكفت علي وكادت أن يغمى عليها.. ولم تكن أمي وحدها، فقد صحبها كثير من الجيران ومعهم صاحبة المنزل ومعهم امتثال تقف بجوار أمها وتنظر لي، وقد امتلأت عيناها بالدموع، دموع بيضاء تلمع حبيسة بين الجفون.. والنسوه يحاولن منع أمي من البكاء ويقلن لها:

- ما تشجعيه يا ولية.. هوه انتي هاتقعدي معاه؟ كلها ساعة زمن وتروحي..

وزعقت امرأة من الخلف تقول:

- قلب الأم.. قلب الأم يا ولاد.. سيبوها.. إلهي ما ينحرقش قلبها عليه ويطلع لها بالسلامة..

واختي تمسح الدموع في عينيها وهي تقول:

- مالك يا واد.. بعد الشر عنك.. سلامتك يا خويا.. وارتمت عليَّ من جديد.. وترصص آخرون على أطراف السرير.. وتبدلت الدنيا من حولي وامتلأ السرير بأكياس الفاكهة..

وقالت صاحبة المنزل لأمي:

- إنتي في البلد.. وإحنا وياه هنا.. ده زي ولادنا..

وحاولت أختي فك الأربطة من على رأسي، ولكن النسوة منعنها "سيبيه مربوط أحسن الحكيم يزعل..

وجاء أحد التمرجية وقال لأمي..

- بتعيطي ليه يا ولية كده.. ده بعد يومين واللا تلاته حايطلع لك..

واقتربت امتثال مني وابتسمت وهي تقول:

- متسلبط كده ليه؟ هوه مفيش على الحجر غيرك. وهمست في أذني:

- خد ما توريهاش لحد.. ودست في يدي قطعة نقود فضية.

بينما انهمكت أمها في الحديث.. ولكن عينيها لا تفارق عيني.. وكانت أمي كلما رأت المرضى راقدين حولي بوجوههم الشاحبة وأذرعهم المقطوعة كلما اشتدت في البكاء، وهي تردد بين الحين والحين:

- مالنا ومال المكن اللي بيموت الناس.. وهوه فيه حد بيجي لقضاه برجليه..

وقال لي الولد الغريب:

- المكن بتاعك الريس سايبه لك.. وهوه اللي قال لي روح شوفه، وعبد العظيم عيط.. عيط علشانك كتير، وكان عايز بيجي لكن الرئيس ما رضاش، وقال له لو رحت هاخصم لك ثلاث أيام.. وأنا رحت جبت أمك.. وامتثال هيه اللي ادتني أجرة القطر.

ولما قال ذلك قرصته امتثال في فخذه وهي تقول:

- ماتزعقش.. ما تقولش..

وظلت امتثال طول الوقت جالسة القرفصاء على الأرض بجوار السرير، وأختي بجوارها..

وزعق التمرجي "خلاص.. الزيارة خلصت" وقالت لي صاحبة البيت وهي تعطيني قطعة من ذات القرشين.. "ابقى إديهم للتمرجي.. وأوعى ياخد منك الحاجة اللي احنا جايبينها.. وقبلتني من فمي، كما قبلتني أمي من كل مكان في وجهي مرددة: شد حيلك.. وأضافت أمي.. "حاجوزك وأفرح بيك قبل ما يحصل حاجه.. ما حدش ضامن عمره!! والتفتت تكلم من حولها "هوه اللي فاضل.. آخر العنقود.. هوه اللي حيلتي.."

وخرجوا وقد أخذوا قلبي معهم.. وعاد وساد السكون في العنبر، ولم يعد يقطعه إلا التأوهات والآنين.. واتجهت إلى النافذة لأرى أهلي وهم يسيرون.. وخيم الحزن على العنبر، وساد المستشفى سكون، وكأن السعادة قد رحلت مع خروج الزوار والأطفال الذين كانوا يشيعون البهجة في النفوس..

ولوحت لي أمي في الحوش بيديها، وكانت امتثال تسير خلفها وهي تومئ برأسها نحوي.

ومن بعيد كانت مداخن المصانع العالية تقذف بدخانها الأسمر الكثيف يغطي السماء وما زال المصنع يدور، وضحايا الماكينات باقون يتعذبون..

وصاح التمرجي من وسط العنبر.. "كل واحد ينزل الحاجات اللي فوق سريره.. وتذكرت ما قالته لي أم أمتثال.. وتحركت في بطء إلى السرير..

"مش معقول ياخدوا الحاجات.. أنا لسه ما دقتهاش.. حاديهم القرشين الصاغ.."

والتفت حولي فإذا بالمرضى يحاولون إخفاء حاجاتهم بينما التمرجي ينظر إليهم.. ودخل التمرجية يفتشون الأسرة، ويأخذون ما أخفاه المرضى..

وفكرت.. أن أصيح لو أخذوا حاجاتي.. وأنده على الحكيم.. لن أعطيهم أي شيء.. أديهم وأحرم نفسي؟!

وكان التفتيش يدور بهمة، والأشياء تتراكم في ملاءة فرشوها وسط العنبر.. والمرضى ينظرون إليهم وقد امتلأت عيونهم حزناً.. وعندما جاءوا عندي.. قلت لهم خدوا الفلوس، فأخذوها واستمروا في جمع الحاجات من فوق السرير.. فزعقت زعقة مدوية شقت سكون العنبر.. أنا ما كلتش.. وأمي جايباه معاها.. جايباه علشاني.. مش أخدتم الفلوس.. حرام عليكم.. كفايه كده.."

وحاول أحدهم أن يكتم فمي لولا دخول أحد الحكماء فوجد كل ما أخذوه التمرجية مكوماً على الملاية، وهم واقفون متلجلجين، ونظر الحكيم للملاية، وقال لي بصوت هادئ:

- مالكم.. مالك بتعيط ليه يا شاطر؟
- خدوا الحاجات مني.. الحاجات اللي أمي جايباها..

والله لسه ما دقتها..

ووقف ساهمًا ينظر للملأة، ثم عاد والتفت إلى المرضى وقال:

- كل واحد ييجي هنا..

فاجتمعنا حوله.. فقال:

- كل واحد ياخد حاجته.

وتدخل أحد التمرجية قائلاً:

- حايوسخوا العنبر.. أحنا لمينا الحاجات دي علشان ننضف..

ولم يبال الحكيم بكلامه. واستمر يتابع رجوع الأشياء لأصحابها.. وابتسم المرضى وهم يسترجعون حاجاتهم واقترب مني أحدهم قائلاً:

- إيه اللي خلاك قلت كده.. دلوقت لما الدكتور يمشي حايموتونا.. دي أرواحنا في إيديهم.. هيه "الحكما" تعرف حاجه.. ده يمكن يدوا حقنة للواحد يموت فيها.. هو فيه حد بيحاسبهم.. جبت لنا الأذية يا شيخ. استلقى وعدك.. التمرجية كلهم كده.. ولازم نعمل معاهم كده.. هيه دي أول مره.. طول عمرهم كده..

- أذية إيه اللي أنا جبتها.. لو عملوا لنا حاجة نشكي للحكيم.. صاحبة البيت قالت لي كده.. وتركني واتجه لسريره وهو يقول:
- استلقى وعدك بقى.. أبقى خلي حد ينفعك! كان المرضى على الأسرة يأكلون في سرعة ونهم شديد.. كما لو كانوا خائفين من عودة التمرجية مرة أخرى.. وجلست على سريري أحاول تناول الطعام الذي أحضرته أمي، ولكني ما إن بدأت حتى شعرت بألم يدق في رأسي، وانتابتني رعشة شديدة، واتجهت بعيني إلى النافذة. فرأيت سربًا من الغربان الجائعة تقف على أشجار الصفصاف، في انتظار ما يقذف به المرضى من فضلات.. وكانت رأسي تدور.. وقلبي خائف مما سيفعله التمرجية معي.. وجال بخاطري أن أحل الرباط، وأبلل الجرح بالماء حتى لا يؤلمني الرباط عند الغيار.. واستقر رأيي على ذلك.. وفجأة دخل ثلاثة "حكما" العنبر مارين على الأسرة وبدأوا يكتبون في الورق.. واقتربوا من سريري، وتناول أحدهم تذكرتي وكتب عليها شيئًا.. وقال أحدهم للآخر.
- أنت كتبت له خروج وشفاؤه لم يتم بعد.. فرد عليه:
- أعمل إيه المستشفى مليانه والداخل أكتر من الخارج، واحنا مضطرين أن نفسح أماكن.. والمصانع زي ما أنت شايف حوادثها كتيرة.. والوارد منها أكتر من طاقة المستشفى.

فعاد الحكيم الأول يقول له:

- لكن فيه حالتهم سيئة قوي.. ومش ممكن يطلعوا.

فرد قائلاً:

- على أي حال، أنا ماكتبتش خروج إلا للميئوس من شفائه.. أو اللي ممكن يكمل علاجه وييجي العيادة الخارجية للغيار..

واستمروا في حديثهم بجوار سريري وأنا أتابعهم وسأل واحد منهم:

- ماجاش رد من الوزارة على تقاريرنا بخصوص عنبر السل.. دلوقت حالات السل منتشرة بشكل خطير.. والعنبر مليان على الآخر..

فهز الآخر رأسه ولم يجب.

وانصرفوا من العنبر.. ولما قرأت ما كتبوه على تذكرتي.. فرحت فرحًا شديدًا فقد كان أمرًا بخروجي.. وقلت في نفسي "أحسن ما يموتني التمرجية" وصاح أحد المرضى:

- هاخرج أروح فين.. وأنا مش قادر أمشي.. والتف حوله المرضى قائلين:

- أحسن اللي كتبوا لك خروج.. هاتستنى هنا لغاية ما تمـوت.. روح أتعـالج فـي بيتكم.

وكشف الرجل عن رجله المقطوعة وهو ينفطر من البكاء بينما فاحت رائحـة رجلـه النتنه فغطاه أحد المرضى وهو يقول:

- ما أنا رجلي زيك أهوه.. لكن فرحان اللي خارج لأهلي..

وقال آخر ممن لم يكتب لهم بالخروج:

- ياريت أخرج أنا كمان.. وأقعد وسط أهلي.. ودخل أحد التمرجية ومعه عدد مـن التذاكر أخذ ينادي على من كتب لهم بالخروج..

وجال بخاطري أن أترك ما جاءت به أمي للمريض الذي عطفت زوجتـه علـيَّ قبـل دخول أمي..

وفعلاً جمعتها وتركتها له على السرير.. وسلمني التمرجي ملابسي وخلعـت ملابـس المستشفى وارتديت ملابسي وخرجت مسرعًا من العنبر..

(١٤) الحنين إلى المكن

أسرعت الخطى في طريقي إلى البيت.. وقد ثار في نفسي الحنين إلـــى العمــل وإلـــى المصنع. الحنين إلى المكن وإلى وضع أذني عليه لكي أعرف موضع الخلل فيه. ولكــن مــا العمل وأمي سوف تصر على أخذي معها إلى القرية نهائيًا.. هل أترك المحلة وأعود ثانيًا إلى القرية؟

ستقول إخواتك البنات أولى بيك عاوزين يفرحوا بيك.. حاتموت هنا غريب.. ولكن لا.. لا أستطيع العودة إلى القرية.. سأقول لها أن الجرح ليس من المكن.. ده لوح قزاز وقع عليه.. والرئيس ما زال محتفظًا بالمكن لي، لأنه يعلم أنني من العمال الأكثر مرانًا على العمل.. أحب مني المحافظة على المواعيد، وعدم اللعب والرؤساء يحبون المجدين من العمال، لأنهــم هــم أيضًا يحبون أن يبرزوا أمام رؤسائهم..

لو ذهبت اليوم سأفقد كل ما بنيته وكل العطف، وسأفقد المكن الذي تعودت عليه يــداي أليست هي التي طلبت مني أن أكون زي الناس اللي في مصر.. كيف إذن أعود إلى القريـــة؟ واستغرقتني مخاوف التفكير، وانتبهت فجأة فوجدتني في مكان لا أعرفه. لقد ضللت الطريق. والظلام من حولي، وضوء ضعيف ينبعث من بعض النوافذ لا يكاد يضيء الطريق.. وهبــت رياح باردة جعلتني أسرع الخطى في الشارع الخاوي.. وأنا أحــاول تــذكر الطريــق.. وإذا بصوت دبيب هائل يرج زجاج النوافذ.

واندفعت نحوه على ضوء السجائر المتوهجة.. فرأيت جيوشًا من العمال تسير مسرعة، تدك أرض الشارع في طريقها إلى المصنع.. أه.. عمال الوردية الثانية في طريقهم للعمــل.. وودت أن أرى عبد العظيم بينهم.. وشققت طريقي وسطهم.. كنت قد عرفت طريقي فــسرت في بطء وعدت أفكر في ما ستقوله أمي.. "لقد تبهدلت من أجلك، ولست مستغنية عنك" ولكني أصبحت الآن عاملاً.. تعلمت أن أدير المكن وأخضعه لي بعد أن كنت أخافه.. ومن واجب كل إنسان أن يعمل ويعتمد على نفسه.. وهل من الممكن أن أكون عالة على أخي.. وإلى متـــى؟ الأفضل أن يكون لي عمل يتفق مع هوايتي.. وأخي لو تحملني اليوم فلــن يتحملنـــي اليــوم الآخر.. أنت اليوم عندما تنظرين إلى الأقمشة في المحلات تقولين، هذا ما صنعه ابني، وكلما اشترينا ثوبًا ستتذكرين إنه من صنعي.. أليس هذا ما كان يتمناه أبي؟! ويمكنك الآن أن تقولي إنك عملت بوصيته.. وأن ما تنتجه أرضنا من أقطان نغزلـــه وننــسجه بأيــدينا.. وإذا كــان المرضى المشوهون الذين رأيتهم اليوم في المستشفى لا يعرفون للمصنع صــاحبًا يطالبونـــه بالتعويض. فهذا لن يستمر طويلاً وسيعرفون لهذا المصنع "صاحب".. لقــد شــكونا وكتبنـــا وسنأخذ حقوقنا، وزي ما قال عمي الحاج محمود الصعيدي: "العيار اللي ما يصيبش يدوش"..

أتركيني أعمل هنا لأساعدك، فواجبي أن أعوضك وأسعى لراحتك.. فأنا مهما فعلت لن أوفيك جميلك إذ رفضت أن تتزوجي بعد موت أبي..

وعلى باب المنزل وجدت امتثال واقفه وبادرتني عندما رأتني.

- إيه اللي جابك؟ إنت هربان؟! وطوقتني بذراعيها وقبلتني من فمي.. وشدتني إلى الداخل وهي تصيح.. يا ست أم فكري.. فكري جه..

ولم تكن أمي وحدها في الحجرة.. بل كان معها كثير من السكان، وأسرعوا لاستقبالي وقد ملأت الفرحة وجوههم، وكل واحد يريد أن يجذبني إليه في حنان. وأخذتني أمي في حجرها كالطفل ووضعت رأسي أمامها وأخذت تتأملني.. وساد الحجرة المرح.. ودخل الولد الغريب عائدًا من الخارج وبيده طبق به عسل وطحينة وهو يهلل من شدة الفرح.. ولشدة اضطرابه أوقع الطبق وهو يحاول وضعه في أحد الأركان، واتجه نحوي وأخذني في حضنه. ودخلت امتثال وهي تفسح لنفسها طريقًا وسط الزحام وناولتني كوبًا من الشربات الأحمر، وقالت أختي بانفعال: "عقبال ما نقدم لك يا اختي في كتب كتابك.. ويكون قريب يارب" وردت إحدى الساكنات.. وتكون عليه. وانشرحت أسارير امتثال واحمرت وجنتاها.. وانفجرت في الضحك وعندما انتهت من ضحكاتها، غطت وجهها بيدها، وتنهدت وعضت على شفتيها.. وسارت إلى الباب.. وهزت أمي رأسها وعادت تتأملني.. وعادت امتثال مرة أخرى وهي تحمل في يدها مقطع الحرير السكروته قائلة:

- خد، أمي جابته لك من عند الخياطة..

فردت أمها قائلة:

- عقبال بتاع العروسة..

وهزت أمي رأسها.. ولم يعرف أحد لماذا هزت أمي رأسها.. أما أنا فعرفت.. إنها تقول في نفسها.. "متى يطلع نور الصباح لآخذه من هنا. ولن يعود أبدًا.. إنتوا حاطين عينيكم عليه واللا إيه؟ اللي تقول "ويكون عليها" واللي تقول عقبال بتاع العروسة.. همه بيغنوا ويردوا على بعض.. يعني يا ابني اللي جرى لك مش من شوية.. دي عين وصابتك.. اللماضة بتاعته دي هتجيب أجله".. وحاولت أن تخفي غيظها فأحنت رأسها إلى الأرض.

وفي الصباح أيقظتني أمي، وقبل أن نخرج أسرعت امتثال ورشت العطر على جلبابي، كما ملأت كف أختي هي الأخرى، وهمست في أذني "ماتتأخرش" قالتها وهي تكاد تبكي.

كانت أمي تسير بخطى سريعة وهي تردد:

"قرب.. خف شويه.. إخواتك زمانهم قاعدين على نار.. أنا سايباهم وعنيهم مهرية من العياط.. كانوا عاوزين كلهم ييجوا.. ربيت في قلوبنا الرعب".

ودخلنا القرية وكانت الشمس تميل نحو الغروب.. يشع منها ضوء أحمر غامق.. والطريق الموصل إلى القرية مزدحم بالأطفال والرجال العائدين من الحقل سايبين البهائم والماعز تجري أمامهم.. وكنا كلما مررنا على بعضهم كانوا يلوحون بأيديهم القابضة على الشراشر "حمد الله على سلامتك.. مبروك يامه السيدة.. الحمد لله اللي جت العواقب سليمة".. وعندما يلمحون ما على رأسي من قطن وأربطة مشدودة كانوا يطاطئون الرءوس متألمين.

كان أول من قابلني بالمنزل هو أخي محمد وزعق وهو يأخذني في حضنه "بت يا زينب.. أخوكي جه" وكانت الدموع تتساقط من عينيه وهو يزعق.. دموع ساخنة أحسها بوجهي وهو يقبلني. وكادت أختي تقع من فوق السطح عندما سمعت زعيق أخي، لولا أن جلبابها تعلق بجذع شجرة.. والتفت النسوة وكادت أن تقع كارثة.. وعندما نزلت كان وجهها قد شحب ومال إلى الاصفرار.. وراحت تقبلني وهي غير عابئة بما حدث لها.. وامتلأ البيت، وكانوا يمسحون دموعهم قائلين.. "إيه اللي زنقك على الغربة" فردت إحداهن "وعد ومكتوب!"

ودخلت البت "رقية" وهي تلهث من الجري، ما إن سمعت الخبر حتى أسرعت، وأفسحت لنفسها وجلست بجواري وبجوار زينب، والتف حولي كثير من البنات والصبيان والأنظار كلها متعلقة بجلبابي الحرير..

– إيه ده.. إيه الحاجات اللي تزغلل العينين دي؟.. يقولونها وهم يتحسسونه بأيديهم..

وهمست "رقية" في أذني وكأن قلبها ما يزال يدق، ولمحت في وجهها ما تريد أن تقوله.. "هات إيدك.. حطها على صدري شوف قلبي بيدق إزاي.." وبعد أن هدأت أنفاسها سألت "جبت لي المنديل".

خجلت من نفسي وكدت أقول لها "إحنا في إيه واللا إيه" واكتفيت بهز رأسي فعادت تقول وهي تضع أنفها على كتفي!

– مين اللي حط لك الريحة دي؟

فابتسمت وكدت أقول لها "امتثال" ولكن شيئًا ما عقد لساني فاكتفيت بهز رأسي من جديد.. وشعرت من ملامح وجهها الشاحب أنها عرفت.. عرفت أن إحدى البنات هي التي وضعت العطر على جلبابي.. وبالتأكيد أختي هي التي قالت لها.. وربما قالتها بفخر شديد.. انزعجت واصفر وجهها وأخفت وجهها في الأرض وخرجت مسرعة.

وأحضرت أمي المبخرة لتبخرني، وكانت رائحة البخور الزاعقة تملأ أنفي، واقتربت مني أمي وهي تتمتم بصوت منخفض.. "رقيتك من عيون صاحبة البيت.. ومن كل العيون الحسادة.. رقيتك.. رقيتك.. والنسوة يقلن ارقيه.. ارقيه حطيها تحت جلابيته.. وصاحت أخرى.

- وقفيه على رجليه خلي البخور يطلع من صدره.. حطي شبه وفسوخ.

وقالت أمي وهي تهمس في أذني.

- رقيتك من عيون الحاضرين.

وبعد أن أنهت أمي عمليتها، جلست وأمامها المبخرة، وأخرجت الشبه والفسوخة من النار وتأملتها، وشهقت شهقة عالية وهي تقول:

- هيه.. والله بعينها.. شكلها.. تعالي يا بت.. يا خسكيه تعالي شوفي مين دي.. دي صاحبة البيت اللي حسدته.. "وقالت أخرى "تفي في وشها.. وفوتيها علينا" وأخذت كل امرأة تبصق عليها كلما تناولتها.. وقالت أخرى "حطيها تحت كعبه وخليه يهرسها برجليه".

وتذكرت كلمات عبد العظيم عندما حدثته على البومة فقال لي إن النساء يتوهمن أشياء لم تحدث.. ثم قلت في نفسي لأمي.. "خبر إيه يا ولية.. صاحبة البيت تحسدني على إيه ده هيه اللي نفعاني في الغربة، وهي اللي راحت معايا واشترت لي المقطع.. يعني همه قالوا للوح القزاز يقع فوق راسي.. سيبك من الكلام ده.."

وبعد أن خرجت النسوه في منتصف الليل اقتربت أمي مني وقالت في صوت آمر خافت: "إمشي ورايا ولا تكلمش حد حتى لو رمى عليك السلام ما تردش". وسارت أمي في حذر والليل حالك السواد والقمر قد اختفى، وليس في السماء إلا النجوم التي تلمع، وبالقرب من الجامع الذي يتوسط قريتي، وقفت أمي وكان الهواء يلفح وجهي، وهمست:

- امسك.. امسك بإيدك الشمال.. امسك الصره دي وأرميها ورا ضهرك.."

وسألت عما بها فهمست قائلة.. "الشبه والفسوخة.. العين.. عين الحاسدين، أي حد حيفكها الصبح حياخد العين دي منك".

وقذفت بها بعيدًا.. وتطلعت أمي إلى السماء وهي تردد بصوت مسموع "يارب.. اهدي لي ابني وخليه معايا"..

ومر بنا كلب بلون الظلام، ووقف على بعد ينبح، وانزعجت لنباحه، وأمسكت بأمي، وأمسكتني من ذراعي عائدين إلى البيت وهي تتمتم بكلام غير مسموع، والكلب يواصل نباحه

من بعيد.. "حد الله يا رب.. عزرائيل جاي لمين.. جاي لمين ياخد روحه.. الكلاب بتنبح والبهايم تطاطي ودانها، همه اللي بيشوفوه" ودخلت فوجدت أخي الذي أخذني إلى جواره وسألني:

- احكي لنا.. احكي لنا عن اللي شفته في المحلة فحكيت عن البوظة وكيف وقعت في الطريق فهز رأسه وابتسم وقال: "إنت وقعت.. وقعت في الشارع ورحت البوظة مع مين؟".
- مع الرجالة.. أمي مش قالت امشي مع أكبر منك.. أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة.

وطال الليل واستمر الحديث – عن الناس وعن الخبيزة وعن المكن.. ومن شدة البرد، قذفت برأسي في حضن أمي الدافئ، ونمت.

وفي الصباح جاء أحد أصدقائي الذين يعيشون في القرية وقال: "تعال معايا".. قالها وهو منشرح الصدر.. وسرت بجواره دون أن أسأله إلى أين.. وإذا به يتوقف عند "تربة مهجورة" عبث العابثون بأبوابها حتى فتحت، وهمس لي..

"عايز تشوف الميتين.. تشوفهم وهمه نايمين.. أنا شفتهم.. ناس ماتوا من زمان.. أجيب لك راس راجل عينيه فارغة؟

قلت في انزعاج وقد ملكني الخوف.. "فتحت تربة.. إزاي.. مش حرام تعملوا كده".

فقال في همس.. "العيال.. العيال همه اللي جابوني ولم يمهلني ومضى إلى الداخل ووقفت أترقب، وهو يدخل كالثعبان، وغاب قليلاً ثم خرج يحمل رأس رجل، فاقتربت منه والخوف يتملكني، وعندما رأيتها فزعت، وكدت أجري لولا أن جال بخاطري أن أرى إن كان عليها كلمات مكتوبة على الجبين، كما قال لي عبد العظيم، فلم أجد كتابة على الجبين، وعدت إلى المنزل وأنا أرتعد من الخوف.. وجلست وحدي على المصطبة ورأسي على راحتي أفكر.. لم يكن هناك أحد من إخوتي.. فقط كانت الفراخ تروح وتجيء.. والديوك تؤذن محدثة ضجة، وحاولت أن أدخل الفراخ الخزانة لأريح نفسي من حركتها، ولكني عجزت لكثرتها، فعدت وجلست وحاولت فك الأربطة من على رأسي، وإذا بـ "رقية" تدخل مسرعة، وقالت وهي متماسكة متزنة.. "أمك فين.. أمك فين.. أختك فين" قلت.. "خرجوا وسابوا الفراخ رايحه جايه..".

لم تنتظر وبدأت تكنس الأرض.. وقد شمرت ثوبها إلى أعلى ركبتيها كما يفعل عمال النظافة وهم يمسحون المكن، وأزالت كل آثار القذارة من الحوش.. ونظرت إلى ساقيها العاريتين، في بياض مثل يديها.. وشعرت برعشة تجتاحني، أما هي فأقبلت في تباطئ

وجلست بجواري، وسترت نفسها بطرحة سوداء، كانت كورتها في حجرتها وقت أن كانت تكنس، واجتاحتني رغبة في أن ألمس جلبابها وصدرها.. واقتربت منها وألصقت جسمي بها، فتزحزحت بعيدًا وقالت بانزعاج "أنت اتجننت" ولكن رغبتي كانت تشتد وارتعشت وعدت ألتصقت بها، لكنها أشاحت بوجهها نحو الباب، وترددت وطال ترددي، وأنا لا أتبين بوضوح ما يثور بداخلي، وإذا بها تطقطق أصابع يدها، ووجهها محتقن محمر، وصدرها يعلو ويهبط، ومالت بوجهها نحوي وإصبعها على خدها، واستمرت تنظر لي من وراء عينين شبه مغمضتين.

وشعرت بشيء من العتاب في عينيها، فاقتربت منها، وتزحزحت ولكن ليس بعيدًا كالمرة السابقة وبقيت على المصطبة، ووجهها يزداد احمرارًا، ولمست بيدي جلبابها فازداد جسدي ارتعاشًا.. وعضت هي على شفتيها وانفجرت باكية، وازددت اقترابًا وأمسكت يدها فلم تقاوم وازددت جرأة وطبطبت على كتفيها محاولاً تهدئتها، وإذا بعينيها تزدادان اتساعًا ومررت بيدي على جسمها متذكرًا ما قالته لي يوم زيارتي السابقة للقرية.. "تعالى خش ليا.. واحلف على عينك ما تقول لحد.." واستجمعت شجاعتي وقلت أقول لها مثل ما قالت لي.. ولكن حدث ما لم أتوقعه.. وارتعشت.. وكل جسدي يرتعش.. فنظرت إليَّ بعينيها الميتتين وقالت "إنت خايف.. خايف من إيه؟"

فاندفعت وطوقتها بذراعي وضممتها نحوي فشهقت شهقة عالية، وقذفت بي إلى الخلف بعيدًا، وهي تردد.. "يا خرابي.. يا خرابي.. يا فضيحتي، الباب.. الباب مفتوح.. هوه انت اتجننت.."

وهبت واقفه واندفعت في سرعة نحو الباب وأغلقته وهي تردد.. "يا نهار أسود.. يا نهار أسود.. حد يشوفنا".. وتوهج وجهها.. واندفعت نحوها غير عابئ بما سيحدث فالتصقت بالحائط وأمسكت جلبابي وهي تردد.. "يا نهار أسود.. هوه إيه ده.. هوه إيه ده" وتدفعني إلى الخلف مرة وتجذبني إليها مرة أخرى.. وهي تردد في همس..

"هوه إيه ده.. همّه أهل المحلة علموك القباحة.. إوعى.. إوعى كده".. وفجأة انهارت مقاومتها ومالت برأسها على كتفي، وأسبلت عينيها، وانتفضت انتفاضة عنيفة وعادت وجذبتني بذراعيها وطوقتني، واستمرت فترة خائرة القوى، ثم دفعتني بعيدًا عنها بعنف وهي تقول.. "ياقلبك.. يا قلبك الجاسر.." ووقفت تصلح من شعرها الذي تهدل طوحت به إلى الخلف، وعصبت رأسها بمنديلها، واتجهت نحو الباب، وابتعدت واضعه يدها على عينيها لتخفي نفسها عن ناظرها.. وجلست أفكر فيما فعلت بعد أن هدأت.. "ليه أنا عملت كده.. لو حد شافني كنت حاقول إيه.. لو أمي شافتني كانت حتقول إيه؟ حتقول أبو ديل نجس.. أنت أصلك سايب،

وناقص ربايه.. ولو شافني حد من إخواتي.. حيقول يا خاين.. احنا قلنا زي أختك وسيبناها معاك في كل وقت تقوم تعمل فيها كده.. وهيه كانت حتقول إيه؟ حتقول هوه اللي عمل كده.. هتدافع عن نفسها أحسن يموتوها.. وقلت لنفسي.. مش حرام.. الواحد حيروح من ربنا فين؟ أنا لو شفت واحد ماسك أختي وعمل فيها العملة دي كنت حاسيبه.. كنت قطعته حتت.. وهيه كانت زمانها في التربة.. أمال أنا عملت كده ليه؟ هل أسمح لأختي تعمل كده.. واستعذت بالله وقرأت قل هو الله أحد مرات.. وقلت.. "توبه.. توبه" ووضعت رأسي بين يدي وأنا أستغفر وأستغفر..

كنت كلما سرت في القرية وددت أن أراها، وكلما رأيتها قادمة من بعيد أقول لنفسي أكلمها.. وكلما اقترب منها ينتابني الخجل وأحاول إخفاء عيني في الأرض.. ولكنها كانت ترفع وجهها وكأن شيئًا لم يحدث.. فعلمت أنها لم تخرج من بيتنا غاضبة..

وكنت كلما أدخل منزلاً من المنازل ينظر الكثيرون إلى جلبابي.. الولاد.. والبنات يتمنين للشبان الذين يحبونهن مثل هذه الجلباب.. وشعرت بالملل من بقائي في القرية.. لأن كل شيء فيها يسير ببطء، وشعرت بالحنين للعودة.. بالحنين للمكن وهو يدور مسرعًا، ويزداد سرعة في دورانه.. وكما كنت أشعر بالحنين إلى أمي.. شعرت بالحنين إليه.. الشيء الذي لم أكن أشعر به من قبل!!

(١٥) وقفوا بعيدًا والنار مشتعلة

كان وصولي قبل بدء الليل بساعات، واتجهت فورًا إلى المنزل، وكان الولد الغريب والسيد الصفتي يجهزان ما يلزم لهما من طعام قبل الذهاب إلى المصنع.

وعندما رأياني تهلل وجههما فرحًا، وسألاني عن الأهل، وكانا ينصتان باهتمام شديد، ويتلون وجهاهما عند كل كلمة أقولها عن أهلهما..

وفي الطريق إلى المصنع قال الولد الغريب:

- انت اتأخرت ليه؟ البت امتثال ما كانتش على بعضها رايحة جايه تسأل ومسهمة زي اللي ضاع منها شيء عزيز عليها.. وكمل الولد الغريب.. ومرات كتيرة كانت تنور لنا الحجرة.. وطلبت منا في يوم من الأيام هدومنا عشان تغسلها ولكن الواد السيد رفض وهمس في ودني.. لحسن تشوف القمل اللابد في الخياطة..

كان يتكلم وهو يتلفت حوله فسألته مندهشًا:

- إنت خايف؟
- أيوه خايف.. أنت أصلك ما شفتش.. أهل المحلة عملوا عصابات، عاملينها في كل مكان.. بيستفردوا بالناس على غفلة ويدوروا الضرب بالسكاكين ويختفوا.. واسترسل قائلاً:
- من يومين واحنا ماشيين سمعنا عصابة نزلت على دراع عامل، وقف يلف.. يلف، وانكفى على الأرض وهو يستغيث ويصرخ من الألم.. جرينا ناحيته ولقينا اتنين رجاله ورانا في الضلمه وقالوا لنا "مش هتفلتوا من إيدينا يا ولاد الكلب" لكن كنا أسرع منهم..

.. من وقتها ما عدناش بنمشي إلا مع بعض.. وبنبعد عن الشوارع الضلمة.

كانا يتكلمان وهما يمدان الخطى خلفي لأن قدمي كانتا تسبقاني شوقًا لرؤية المكن.. وكان الجو باردًا، والظلام يخيم على الشوارع.

وبالقرب من المصنع سألت الغريب عن عبد العظيم ففاجأني بقوله:

-دلوقت هتشوفه.. عمل دقن زي السكسوكة زي شعره، شعره طول في حته من دقنه، وشايل مصحف بيقرا فيه بعد ما ياكل.

- ابتسمت وأسرعت الخطى.. كانت حشود العمال مجتمعة عند الباب عندما انطلقت الصفارة.. فأفسحت لنفسي وسط الحشود وسمعتهم يتكلمون بحماس ويلوحون

بمناديل الأكل، وكل منهم يمني نفسه بالانتقال إلى العنابر الجديدة ويترك الماكينات التي ملأها الصدأ.

وقلت في نفسي لو كل واحد أزال الصدأ بالجاز لكان المكن أسرع في الدوران. المكن زي الجلابية الجديدة تتسخ باللبس ويلزمها الغسيل والنظافة.

دخلت العنبر وأبطأت الخطى في الطرق الموصلة إلى مكني، أنظر إلى السيور في اهتزازها، وأذني قد سددتها من الضجيج، وأخيرًا وصلت إلى مكني وكان لقاء اختلطت فيه مشاعر الفرح بالأسى.. فقد وجدت التروس والأجناب وقد عشش عليها الغبار.. نظرت إلى مكني وعيناي فيها ظلال حزن لهذه الوساخة، وكما يضحي المحب ليرى المحبوب في أجمل صورة.. تمنيت لو أخلع جلبابي لأزيل به الأتربة التي عششت في كل مكان لولا أن العمال حولي يقيلونني مرحبين بي..

وجاء عبد العظيم مبتهجًا مادًا ذراعيه ورفعني إلى أعلى، وعاد وضمني إلى صدره في حنان، وقبلني ثلاث مرات مثلما ضمني أخي عند أول لقاء، وإذا بي أكتشف أن أحد العمال ربط منديله بجوار الفرامل، فأيقنت أن مكني سلموه لغيري، للعامل صاحب المنديل المربوط.. فابتعدت بعيدًا.. بعيدًا كي لا يلحظ العامل حزني.. ودخلت الرؤساء وانتشروا بين المكن.

ووقفت في مكاني أرقب العامل الذي لم يبدأ في العمل بعد، وهو يحاول إدارة المكنة وكأنما يده تعبث في قلبي.. ولمحني الرئيس فلوح لي بيده، فاتهجت نحوه.. وعندما اقتربت منه ابتسم فشجعتني ابتسامته وجعلتني ازداد اقترابًا، ووقفت أمامه كالزنهار، وحييته رافعًا يدي، فانفرجت أساريره، واتسعت ابتسامته كاشفة عن أسنانه البيضاء المرصوصة، واقترب ويداه خلف ظهره وهز رأسه ثم مال بها على أذني قائلاً:

- إنت كنت فين.. إنت أتأخرت أكتر من اللازم، وسكت ساهمًا يفكر، والعمال القريبون منه يلفون حول المكن مسرعين ويودون لو أنه انصرف.

وعاد وجذبني من يدي وسار دون كلام، ثم وقف بالقرب من مكني، وأشار إلى العامل بيده، ودفعني بيده وهو يقول.. "ياالله أنت مكانه.. كنت هتموت وأنت بتشتغل، وأقل تعويض لك وقوفك على المكن من جديد..

واندفعت إلى المكن كالريح، وخلعت جلبابي، وأخذت أمسح به الغبار ليعود إليه لمعانه.

والتف العمال حولي يهنئونني بعودتي، وجاء عبد العظيم بعد أن ابتعد الرئيس تمامًا، وبدأ يصلح بسرعة خاطفة بقايا الفتل المقطعة في السداء.. ويقول لي.. "اجتهد.. عوض ما فاتك" ثم أضاف "أنت مبسوط" فأجبته "مبسوط إني رجعت لمكني اللي كنت باحلم بيه واللي أتعودت عليه".

وهز عبد العظيم رأسه في استغراب وأضاف.. "أول مره يعملها الريس، يرجع عامل لمكنه، لكن أنت راجل جدع وتستحق" قالها وهو يربت على كتفي، فبادرته بقولي "كله من فضلك، وبتعليمك".. فابتسم وهز رأسه، وأسرع عائدًا لمكنه.

وفي النصف الثاني من الليل، تجمع عديد وعديد من العمال، وكانوا يتحدثون بصوت مرتفع يحاولون أن تسمع أصواتهم من خلال الضجيج، ودار الحديث كله حول زيادة إيجارات المساكن. وعجبت لتجمعهم في غير المعتاد في مثل هذا الوقت الذي يغلب فيه النعاس، فاتجهت نحو عبد العظيم أسأله فقال.. "كل شيء بيزيد.. أصحاب البيوت رفعت الإيجار، وأبو تلاته مليم أصبح بخمسه مليمات، وأبو مليم طماطم أصبح بمليمين" فقلت له متعجبًا.. "ده في اليومين ا للي غبتهم؟" أجاب.

– من نهار العلاوة والحاجات كل يوم بتغلى، والعمال بتلعن الزيادة من يوم ما جت.. أصحاب البيوت.. وبتوع الطعمية.. الطعمياية الواحدة الواحد بياخدها على لقمة واحدة!! واللي خدناه باليمين خدوه بالشمال..".

"والعمال ما زالوا يتحدثون وقد ترك بعضهم المكن متوقفًا والبعض الآخر يدور حوله في بطء والرؤساء في غفلة من ذلك، نائمون.. والذي آثار دهشتي واشمئزازي أن العمال الذين كانوا يتحدثون، كان كل واحد منهم يحمل "مردن" المكوك في يده ويخبط به على خانة العشرات في العداد.

والسرقات تزداد كل يوم، وحاولت في أول الأمر أن أغمض عيني آخذًا بنصيحة عبد العظيم.. "أغمض عينيك لما تشوف واحد بيعمل مصيبة".. ولكنني لم أستطع أن أسكت واتجهت إلى كل من أعرفهم من الذين يسرقون أحاول أن أثنيهم عن ذلك فوجدتهم جميعًا يكررون ما قاله لي عامل المحلة الذي بدأ بالسرقة الأولى.. "مش معقول نروح من غير ولا مليم لأهالينا إيه اللي رماك على المر.. اللي أمر مهنه.. هوه الواحد عايز يسرق.. اللي مالوش خير في أهله مالوش خير في حد.. معقول نطفح الدم طول الليل، وأهلنا تموت من الجوع".

– يعني انتوا زي اللي بيلعبوا حاوريني يا طيطة..
– مضبوط.. إنت جبتها على حقيقتها.. همه يسرقونا من هنا.. واحنا نسرقهم من هناك.. نقول لهم.. صلحوا المكن ما يصلحوش.. نسرق في العداد.. عرفنا آخرتها.. نعمل إيه؟ كنا بنتحايل.. دلوقتي لأ.. كلمة ورد غطاها، تعالى صلح، جه.. جه.. مجاش، أهي خبطة ورا خبطة نجيب تلاتين بنط، وكل مكنة جايبه تلاتين بنط، وآخر المدة نقبض أكتر من أجدع واحد من اللي عاملين أوليا.. قلت..

"احنا نقدر نعتمد على أنفسنا في تصليح المكن.. مره بعد مرة كل واحد يقدر يكتشف عيوب المكن.. ويصلحه.."

وتركته واضعًا يده على جبهته وعيناه حمراوتان، والنعاس يملأهما.. وأسعدني عندما جاء لي وهو يقول مبتهجًا.. خلاص يا عم.. من بكره هاعمل بالكلام اللي انت قلته.. الواحد اتعلم الكسل واتكل على السرقة.. والليل كان بيطول من كتر البصصان للساعة.. الشغل بيقطع الوقت، والقرش الحلال مفيش أحسن منه.. أنا لما شفت المكن بتاعك شغال قلت ليه ما أبقاش زيك".

وتطلّع إلى مكنه الواقف في غيظ وأضاف..

"أنا لو كنت أقدر أرجع العداد كنت رجعته!!"

واتجه إلى مكنه يمسحه من الغبار.

ومع اقتراب الصباح انفكت صوامل كامة ذراع المكن، فأوقفتها، واتجهت أبحث عن المفتاح فلم أجده، وحاولت أن أوفق مفتاحًا – يغنيني عن الرئيس – من بعض قطع الحديد الملقاة بجوار المكن، فلم أستطع لأن المفتاح المطلوب من نوع خاص هو نمرة أربعة..

وتلفت بعيني أبحث عن الميكانيكي، ووقعتا على واحد من الجدد واقف بجوار دولاب الملابس. ولم أكن أعرف اسمه.. وتوقفت على بعد خطوة منه متهيبًا، واستجمعت شجاعتي ووقفت بجواره وهو مسند بذراعيه على الحائط، وحييته رافعًا يدي بالسلام، وأومأ برأسه، فتقدمت وفي صوت خفيض طلبت المفتاح لربط المكنة.

- مين حيربطها؟
- أنا.
- أنت؟! قالها مستغربًا.
- أيوه.. أيوه أعرف أربطها.
- تعالى وريني هتربطها إزاي..

قالها وهو يجذبني من يدي.

وقبضت على المفتاح بيدي المرتعشة خوفًا من وقفته.. وعندما ربطت الصواميل الثلاثة فرحت، وقرصت عليها، وهو واقف ساند بكوعه على جوانب المكن يرتجف.. وخصلات شعره تهتز صاعده نازلة بفعل هواء السيور.. وعندما أدرت المكنة اقترب مني وسألني:

- عرفت إزاي إن الكامة مفكوكة؟
- من توقف المكنة عن الحركة وعدم قدرتها على حدف المكوك في الروجة.

- وعرفت إزاي أنها الكامة؟
- فتشتت فيها.

فهز رأسه طويلاً وقال...

- لو كل عامل عمل زيك كان ريح الميكانيكي ووفر جهده وزاد إنتاج العامل. لاحظت من نبرة صوته، وموقفه، إنه ليس شريرًا، وتمنيت لو أن كل "الميكانيكية" الجدد مثل هذا الرجل في طيبة قلبه.. وقبل أن ينصرف ويترك مكاني، إذا بزميل له آخر، وعلى وجهه سيماء الطيبة هو الآخر ممتلئ الجسم، وجهه يميل إلى الاسمرار يأتي ويتحدثان.

وسمعت اسم سالم يتردد في حديثهما وسمعت هذا الزميل يقول له.

- أنا جبت قميص أزرق ومطوة بحدين.. مش هتيجي معايا مصر الفتاة.

فرد عبد العزيز نهود وكنت قد عرفت اسمه من زملائي قبل أن أتوجه إليه..

- لا.. أنا ماليش دعوه بالحاجات دي.. أنت واحد يظهر عليك فاضي..

كنت وأنا أدور حول المكن تلتقط أذناي شيئًا من حديثهما عن غير قصد وانصرفا متشابكي الأيدي في خطوات بطيئة..

انتهى الليل دون أن تقع حادثة ضرب في عنبر النسيج، لا من الرؤساء، ولا فيما بين العمال، فيما عدا بعض الإصابات البسيطة جدًا!! كأن تتلف التروس أصابع أحد العمال أو تقع تقالات الحديد على أصابع قدم عامل آخر..

وانقشع الليل، وبزغت الشمس، والتقيت بزميلي عامل الوردية الجديدة، ووجدته فرحًا..

وتتابعت الأيام، وذات يوم من أيام الشتاء القارصة البرد، وأطراف أصابع اليد ترتعش، والأجسام تنتفض، والعمال تخرج من المنازل جماعات تصطك منهم الأسنان، وترتجف الأبدان، داسين الأعناق بين الأكتاف، كاشين في أنفسهم، والآذان محمرة ولسان حال كل عامل يقول..

- لو كان الواحد في يوم البرد ده ما يخرجش من حجرته!!

وعلى طول الطريق إلى المصنع والبرد يشتد والجلاليب تلتصق بالأجساد.. وبعض النسوة في كسوف يخفين رءوسهن في الأرض.. وهن يحاولن جذب ملابسهن قبل أن تطير، وبعض الرجال يحملقن حيث تكشف ملابس النسوة وهي تطير..

كنت أسير في الحشد المتحرك وأنا كاشش في نفسي كالقنفد.. ودخلت العنبر، ولم أستطع أن أضع يدي على الفرامل من شدة البرد.. ولم يمض وقت طويل، إذا بدخان كثيف

يملأ العنبر كاد أن يخنق العمال، وتطلعت الأنظار، وتلفتت الوجوه تبحث عن مصدره، قال أحد العمال وهو يحاول أن يدفئ كفيه في إبطيه.. "فين النار دي نــدّفى عليهــا.. دي فكــرت الواحد لما كان يقعد في الدرة يشوي..".

وإذا بالرؤساء يخرجون من العنبر، وخلفهم المباشرون والميكانيكية، واجتاحتني الرغبة كما اجتاحت غيري، أن نعرف مصدر هذا الدخان الأسود الذي يملأ العنبر، واتجهت نحو الباب وإذا برائحة شيء يحترق والعمال تندفع من العنابر تستنشق الهواء في الطرقات، وإذا بهم يجدون الطرقات أكثر اختناقًا، والدخان يتصاعد ويتكاثف فيها، يحجب الناس عن رؤية بعضهم البعض الآخر. واندفع العمال غير مبالين بما قد يقع عليهم من غرامات، اندفعوا نحو الباب الخارجي.. وأصوات عالية تتساءل:

– مش معقول يكون حد بيدّفى..

– هيه دي نار حد يدّفى عليها.. ده حتى شرب السجاير ممنوع!!

والدخان يزداد تكاثفًا.. واندفع العمال من جديد نحو الخارج، بينما تراجع آخرون وقد تذكروا أنهم تركوا طعامهم على المكن يريدون أن يحضروه، واندهش العمال عندما رأوا السماء مغطاة بسحب كثيفة من الدخان الأسود وكانت دهشتهم أشد عندما رأوا نارًا مشتعلة تتصاعد من مخازن بالات القطن المكدسة في بدروم تحت عنبر الكرت.. ووقفوا متهيبين مذعورين.. إلا أن صوتًا ارتفع من بين النيران..

– الشركة بتتحرق!

كانت الرياح تهب في قوة، والنيران تتوهج وتقذف بعواميد متلاحقة من الدخان الأسود، تقسم السماء المتوهجة وتتجه في اتجاهات متمايلة كأنها شجرة لها فروع متعددة، وقطع من القطن المشتعل تتصاعد إلى أعلى.. وارتفع صوت من بين النيران والدخان.

– انتم واقفين تتفرجوا والنار بتاكل القطن؟

وصوت آخر يضيف.

– ربنا ينتقم منهم –خليهم يتلقوا وعدهم.. ويتدفنوا من غير ما حد يعرف لهم تربة..

وثالث:

– هوه الحرام ينفع.

إلا أن أحد العمال من عمال السحب الذين يغطي رءوسهم الغبار صاح فيهم:

– انتم واقفين تتكلموا.. منتظرين إيه؟

هتستنوا لما نتحرق!!

وصاح آخر وهو يضع يده على صدره يريد أن يوقف الرعشة التي شملت بدنه..

– فين شهامة الفلاح؟ اهجم يا جدع انت وهوه.. نسيتوا لما كنا في البلد نرمي نفسنا في النار".

وتجمع الرؤساء والمديرون بعيدًا عن النار والدخان.. أما العمال فاندفعوا إلى البدروم يقابلون الوهج المشتعل من البالات، وخلع أحدهم جلبابه وطوح به بعيدًا حتى لا تمسك فيه النار.. وفعل آخرون مثل ما فعل، واندفعت جموع أخرى كثيرة.

وبينما نحن نزيح البالات التي لم تمسك بها النار إلى الخارج إذا بالسقف تتساقط منه المياه، فتزداد النار اشتعالاً واختنق البعض وساد الذعر.. والأصوات تتعالى تعبر عن حركة تضم الجميع وتحث على التضحية من الجميع.

– ارفع يا جدع.. لو اتحرقت الشركة هنروح كلنا لبلادنا.. ويشمت أهل المحلة فينا..

وكلما أمسكت النار بأحد العمال رفعه آخرون إلى الخارج.. وشحذ العمال جهودهم وتدحرجت البالات الثقيلة كما يدحرج الإنسان كرة صغيرة..

ويتنادى العمال لإنقاذ بالة قبل أن تمسك بها النار في حركة جماعية عمالية جبارة..

– ارفع.. هيلاهوب.. هيلاهوب.

واندفعت وراءهم ناسيًا الجروح التي لم يتم التئامها في رأسي.. والولد الغريب والسيد الصفتي يحاولان إرجاعي دون جدوى.. وأمسكت النار بجلباب أحد الواقفين فأسرع إليه الولد الغريب وأمسك به يحاول إطفاء النار، فالتهبت يداه وتسلختا.. وكنت وقتها أدفع مع آخرين إحدى البالات إلى الخارج، وإلى جوار البالات التي تم إنقاذها كان يتمدد عدد من الجرحى المصابين بحروق في أرجلهم وأيديهم وملابسهم محترقة ويتمددون في انتظار إسعافهم.. وعربات الإسعاف في كل مكان تعمل أو يعمل من بها من الرجال بتفان وشجاعة.. يلقون بالمصابين إلى داخل العربات كما يلقى الطوب من قمينة محترقة ورائحة اليود منتشرة في جو المكان.. وقرعات أجراس مدوية من عربات حمراء تدخل تباعًا عليها رجال ذوو همة وشجاعة بفانلاتهم الزرقاء، وعلى رءوسهم خوذات نحاسية. تلمع فيها وهج النيران.. يركبون الخراطيم في سرعة نادرة.. والعمال تلقي بنفسها في النار وتشترك في دفع بالات القطن نصف المشتعلة.

وصوت يصيح في تأثر وصدق.. لا محبة إلا بعد عداوة.. زق يا جدع.. إياك بس يتمر فيهم.. وسقط رجلان من رجال الإطفاء.

وامتدت النيران إلى بالات القطن المعزولة أمام المخازن، وانضم إلى العمال عدد من الميكانيكية الجدد، وتطاير القطن المشتعل، ورجال المطافئ يسقط بعضهم من الاختناق.. وعلى البعد يقف المديرون والمهندسون ذوو الوجوه الحمراء من الخواجات يضعون أيديهم على صدورهم منصوبي القامة، لا يتحركون، ولوح أحد الميكانيكية الجدد بيده في وجوههم وقال "همه واقفين كده ليه زي الأصنام؟ ورد أحد زملائه.. "دول ياكلوها باردة.. ويقفون وقت النار والشدائد من بعيد".

ولاح لي وجه عبد العظيم من وراء كتف أحد العمال ومن خلفه آخرون يصعب معرفتهم من كثافة الدخان.. كان يصرخ غاضبًا..

- الميه بتزود النار.. كل واحد يملا حجره تراب ويرميه على البالة.

كان العرق يتصبب من جبينه رغم برودة الجو.

وقال آخر:

- تراب إيه.. هوه احنا في البلد.. هوه فين التراب؟

ورد عبد العظيم:

- جنب الحيطة عندك.. ارموه على البالة اللي هناك..

وكانت عربات الإسعاف، وعربات المطافي تدخل وتخرج وأجراسها تدق كأجراس الكنائس الحزينة وهي تشيع عزيزًا مات..

وبعد جهد شاق تلاشى الدخان شيئًا فشيئًا.. ومع تلاشي الدخان وخمود النيران اقترب الرؤساء والمديرون، اقتربوا شيئًا فشيئًا يأمرون العمال في غلظة بالتوجه إلى العنابر..

ولم يكن العمال قد هدأت أنفاسهم فتباطئوا يبحثون عن ملابسهم فلم يمهلوهم وأصدروا الأوامر للخفراء فأسرعوا يفرقون العمال..

واتجه العمال إلى العنابر يسبون ويلعنون وقال أحدهم وهو يعدو:

- أنا مش قلت.. بعد النار ما تنطفي.. هيعاقبونا!

وقال أحد الميكانيكية الجدد:

- إحنا لم نطفئ النار عشانهم.. إحنا اقتحمنا النار علشان بلدنا.. وعشان ولادنا وقال آخر وهو يلهث:
- وقفوا بعيد لما كانت النار قايده.. إنهم كلاب لا يصلحون إلا لإصدار الأوامر، مش قلت لك يا عبد العزيز..

فأجاب عبد العزيز وهو يلتقط أنفاسه..

- صحيح.. حاجه مؤسفة لكن كلامك صحيح يا سالم.

واتجه العمال إلى المكن.. يبحثون عن خرق يمسحون بها أيديهم، مستحضرين صور من ماتوا ومن رقدوا على الأرض ممددين يلفحهم الهواء ويكشف عن سواعدهم المتجمدة. واقتربت ساعة انتهاء العمل والعمال لا زالوا يفكرون.. وانتهى اليوم.. والسواد يغطي الوجوه والملابس.

(١٦) زي أولاد المحلة

ونحن في الطريق إلى المنزل، قال عبد العظيم، وهو يضع يده في جيب جلبابه.. "تلات أربع اليوم راح واحنا بنطفي الحريقة، كل ده على حسابنا" قلت "إنت حتروح فين؟"

- للجامع.. تيجوا معايا؟
- إنت مش قلت إنك تعبان؟
- البيت بتاعنا مافيهش ميه.
- وإيه يعني.. إن ما صليتش النهارده حتتحاسب؟
- بتتكلم ليه باللهجة دي؟ تعالى صلي معايا.. وسدد ما عليك.. خلص الدين قبل يوم القيامة.
- أنا تعبان، وخلصان، مش كفايانا أتناشر ساعة شغل؟

وأسرع الولد الغريب قائلاً:

- روح بيتك يا عبد العظيم، صلي لك ركعتين في البيت ونام.
- الأوده اللي أنا ساكن فيها مليانة ناس بتتهكم علي "انت رايح على الجنة حدف".. "أتوسط لنا عند ربنا.. قول له العمال تعبانه واغفر لهم خطاياهم".

إزاي أصلي قدامهم.. أحسن أصلي في الجامع، وأروح طاهر.. آكل لقمتين وأنام.

ومن بعيد لاحت مساكن المهندسين والمديرين مصطفة إلى جوار بعضها، تنبعث منها الأنوار المتلألئة، ورائحة المأكولات الشهية، تثير المعدة، وتجري اللعاب.. ثم لاح شبح امرأة ورجل ملتصقين بالحائط يقبلها وتقبله، فتوقف عبد العظيم عن السير فجأة وهو يردد..

"أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.."فحملق أحد العمال في وجهه وقال له "إيـه؟.. نزلت عليك الولاية.." واكتفى عبد العظيم بالنظر إليه في إشفاق، وقهقه الولد السيد.. وأمام الباب الخارجي.. كان البعض يقفون في حلقات يتحدثون ويتنادون.

"إستنى شويه.. ما تمشيش لوحدك".

وعبد العظيم ما زال يدعونا إلى الجامع، التقطت أذني حوارًا.. "هنسكت لإمتى هيه أهلنا علمتنا وآخرتها نشتغل ببلاش.. ستة صاغ نعمل بيهم إيه؟ وصوت آخر يقول..

"لازم نتساوى مع الرؤساء الآخرين. لازم نقبض بالشهر زيهم" ويضيف صوت آخر.. "اتكلموا كلام معقول.. هيه كل الناس بتشتغل بالشهر.. نطلب زيادة معقولة.." ويضيف رابع.. "بتقول إيه همه الرؤساء اللي بيقبضوا بالشهر أحسن مننا في إيه؟ مش متخرجين زينا؟ مـش

مدرسة واحدة اللي اتخرجنا منها، عاملين لهم مساكن، وسايبينا تايهين في كل بيت ليلة، مع اللي يسوى واللي ما يسواش.

وتجمع العمال حولهم.. وصمت الجميع، وساروا.. ولأني أردت أن أعرف ماذا يريدون، أخذت عبد العظيم ومن معنا وسرنا وراءهم.. ولكنهم ظلوا صامتين..

كان السواد يملأ السماء ويخفي النجوم، والعمال يسيرون في الطريق ورءوسهم تغطيها طبقة كثيفة من الغبار، يجرون أرجلهم المتعبة، ويتبادلون الحديث في صوت منخفض.. وعند أحد أعمدة النور المجاورة للبحر وقف عبد العظيم فجأة وقال.. "أنا تعبان.. أنا تعبت.." وجلس في الأرض واضعًا يده على جبهته، ولاذ بالصمت.. كان الهواء يداعب شعره، والموج يتلاطم في البحر.. وقلت:

- من يوم ما أطلقت لحيتك، ورحت الجامع، وأنت كلامك بقى قليل.. كنت زمان غير كده.. هوه كل اللي يصلي ينزل عليه سهم الله!! ليه عملت كده يا عبد العظيم؟

ورفع يده على جبهته ورد على تساؤلي قائلاً:

- أنا رحت الجامع عشان أكفر عن ذنوبي.. ودق بقدميه الأرض وارتعشت عضلات وجهه..

قلت.. "ذنب إيه؟" قال.. "ذنب وقعت فيه.. الشيطان شاطر.. لعب بيا".

قالها بحرقة واغرورقت عيناه بالدموع، وتنهد بحرارة، وأطرق كمن ينتظر حكمًا قاسيًا، ثم عاود الكلام.. "الواحد لو كان في البيت "لوحده" ودخلت عليه امرأة، كان الشيطان ثالثهما.. قلت.. "مين المرأة دي؟"

وتلفت حوله.. وطلب من الولد السيد أن يبتعد.. "دي أول مره أتكلم مع واحد في هذا الموضوع لثقتي الكبيرة فيك.." تفتكر صاحبة البيت اللي رحنا لها يوم الخناقة".

- أيوه.. المره اللي كانت لابسه ملابس فاضحة..
- أنا رحت لها أكتر من مره.. لم يمر يوم إلا وكنت هناك.. كانت تعرض نفسها علي كل مرة.. وفي يوم أحد "أخرجت ابنها" وقعدت قدامي، وكشفت عن ساقيها.. بياض إيه!! قالها دون أن يدري، وعض على شفتيه وجفف دموعه، وحاول الكلام فتلعثم لسانه، ونظر إليَّ بأسى، وعاد وأخفى عينيه بيديه..

- الشيطان شاطر.. بيدي هذه التي سوف يأكلها الدود.. سحبتها بعنف نحوي.. واستسلمت.. ولم أعرف بعد ذلك نفسي.. وخرجت، وعلى الباب أمسكتني ابنتها من جلبابي ودارت بي الدنيا..

والآن أريد أن أكفر عن ذنبي..

قالها وهو يخبط رأسه في العمود، وعاد يبكي من جديد.. وواصل كأنه يكلم نفسه..

- أتجوزها.. مش معقول.. وأمي وإخواتي مين هيساعدهم.. وإخواتي بعد ما يجوزوا مين هيهتم بالبيت ويسرح الغيط.. أمي هيه اللي هتعمل كل حاجه!! أمي عايزه تجوزني واحده تساعدها في البيت.. تحفر معاها الزريبة، وتشيل السباخ من تحت البهايم.. مش هيه دي اللي هتساعد أمي؟! دي هدومها لحد الركبة، وعندها تلات ولاد.. وأنا لسه ما دخلتش دنيا..

وسكت.. ثم قال بصوت أعلى..

- أنا هتجوز واحده من بلدنا تعرفني وأعرفها، واحده تعيش مع الزمن..

ونهض وهو يؤكد لي وهو في الحقيقة يؤكد لنفسه..

- مش هاروح بعد النهارده ناحيتها.. هابعد عن الحي ده كله..

ثم وضع يده في يدي وقال:

- هاروح البيت وأصلي هناك..

طلبت منه أن يأتي معي فرفض، وسار في الطريق ينقل رجليه في صعوبة، ورأسه بين كفيه، وجسمه ينتفض من شدة البرد.. واعتراني حزن شديد من أجله، وأردت أن ألحق به فشدني الولد السيد قائلاً.. "تعالى أنت رايح فين بكره تشوفه"..

طوال الطريق كنت لا أرى شيئًا إلى صورته.. مرة مرفوع الرأس يشجعني كلما مر المدير، أو كلما انتابني خوف من المكن، ومرة وهو يحدثني عن أمه وأخته يوم أن تركهم في القرية دون أن يتمكن من مساعدتهم في حرث الأرض، ورش السبخ، ومرة يوم أن خطف المقص مني، وطاح في أهل المحلة لأنهم اعتدوا على العمال، ووجهه الأسمر المشبع بالاحمرار والابتسامة تعلو وجنتيه بزهو النصر، وهو يتقدم من الشيخ علي واضعًا يده في يده، أما صوته اليوم بوجهه الشاحب المحزون. فقد بدا لي أكبر بكثير عن يوم أن وقفت بجواره على المكان.. كان كالرجل العجوز الذي أضناه الزمن، وكبر في غير أوانه، وغطت وجهه التجاعيد..

دخلت الحجرة، وكانت مظلمة، والولد الغريب نائم في أحد الأركان، غارق في النوم وهو فارد يده المربوطة بالشاش أمامه.. وصحا عندما أضيئت الحجرة، ولمحني فأخفى عينيه بيديه، فلمحت الدموع من خلال الأربطة، وعندما اقتربت منه زاد في البكاء، حتى أصبح كبكاء الطفل يوم مولده.. وعلى صوت البكاء جاءت صاحبة البيت، وقالت وهي تحل له الأربطة.

– انتم مالكم.. هيه عين وصابتكم!!

ثم صرخت في ابنتها.. "امشي يا بنت.. انت واقفه كده ليه؟ ناوليني لوفه من بتاع النخل تكون حمرة، وأحرقيها قوام، وانخليها لحد ما تبقى زي الششم، هيه دي اللي هتنشف الجرح بسرعة.. وما يبقاش مدهنن..

كانت امتثال واقفة أمام أمها، لا تتابع ما تقوم به أمها مع الجرح بقدر ما كانت تصوب عينيها نحوي وكأنهما يقولان لي "إنت جيت إمتى.. ودخلت ازاي، ده أنا واقفة في الشباك من المغرب علشان أشوفك وأنت داخل.." ورغم كثرة طلبات أمها ظلت عيناها علي كأنها تستطلع أفكاري.

وكانت الأم تسأل وأنا أجيب متلعثمًا. فقد كان شبح عبد العظيم ماثلاً أمامي.. وهمت واقفة وهي تقول..

"كان مالكم ومال الحريق.. ما كانت تتحرق على أصحابها". وقال الولد الغريب في صوت لا يكاد يسمع! فكري هو السبب رحت أحوشه انحرقت.

وطقطقت امتثال أصابعها، وتصعبت وأضاف الولد الغريب.. "أنا هاعمل إيه.. بعد الزوادة ما تخلص.. مين راح يديني.." وأدار وجهه للحائط وهو يردد "كان مالي.. إنت السبب"

وجذبت الأم ابنتها فترددت وكادت تقول لأمها "ما تسيبيني وياهم" ودفعتها الأم في غيظ.. ونظرت امتثال لأمها في غيظ وهي تعدو نحو الباب..

واستمر الولد الغريب في بكائه، ولم ينم إلا بعد أن طمأنه الولد السيد بقوله.. "بكره تقوم وتيجي معانا.. يمكن الرؤساء تحسب لك اليوم" وأكدت أنا نفس الكلام.

وفي الصباح كان الولد الغريب بجانبي، وكلما مر الرئيس على المكن، كان يخفي يديه خلف ظهره، وعندما مر الكاتب مليت اسمه، وساعدني العمال المجاورون لي بالوقوف في وجه الكاتب كي لا يراه.. واستمر يأتي معي ونفعل ذلك كل يوم إلى أن شفيت يداه تمامًا وفك الأربطة.

وذات يوم أحد، لم يذهب أحد منا إلى البلد على عكس عادتنا وقلنا لأنفسنا "لما نشوف أهلينا حتعمل إيه؟"

وقال الولد السيد.. "إحنا نتفسح النهارده.. ونمشي في البلد على كيفنا "قلت.. فين" قال الولد الغريب.. "في شارع محب" واقترح الولد السيد.. "نروح نشرب كركدية في قهوة.." فقال الولد الغريب مصممًا.. "شارع محب أحسن.. هناك جنينه البلدية.. ومزيكة الأيتام بتبقى هناك!!"

ودون أن نستقر على رأي، لبس كل منهما جلبابه الحريري، ووقف الولد الغريب يسرِّح شعره أمام مرآة صغيرة اشتريناها وانحنى الولد السيد يلبس حذاءه الأبيض الكاوتشوك ولولا معرفتي الوثيقة بهما، ما كنت عرفتهما، فهما في زينتهما لا يختلفان عن أهالي المحلة إلا في لون البشرة الأكثر بياضًا والعيون الخضراء.. أما هما فأكثر سمرة في الوجه إلا أن شعر كل منهما يختلف عن الآخر.. شعر الولد الغريب أكرت، وعيناه ضيقتان، ووجهه يميل إلى الاصفرار قليلاً، وله دقة خضراء جنب أنفه، وأخرى تحت الذقن، وكان دائم السكوت، وكثيرًا ما كان يحدف الصغار بالطوب، كلما ناداه أحدهم "يا أبو دقة" ووجهه كان يزداد خجلاً.. أما الولد السيد فكان ذا وجه أبيض، وعيناه دائمًا دامعتان.. وشعره يغيظ بوقفته الولد الغريب، حتى كاد مرة أن يقصه له بموس من أمواس الحلاقة.. أما أنا فلبست حذائي الأسمر الذي اشترته لي أمي. وتأهبنا للخروج.. وفاجأنا صوت امتثال يرن عاليًا.. "على فين كده.. لابسين اللي على الحبل؟" قال الغريب "رايحين شارع محب" قالها وهو يغمض إحدى عينيه، أما السيد فقال وهو يضع يده على رأسه.. "حنروح القهوة نشرب كركدية" ثم أخذ يهز كتفيه وهو يصلح من جلبابه وعادت امتثال وسألتني.. "وانت".. "وياهم" قالت.. "اوعوا تتأخروا.. ما تتأخروش بره". وهزت رأسها لي، وأسندت ذراعيها على الحائط فبان صدرها.. وركزت نظرها في عيني وكأنها تريد أن تقرأ أفكاري.

وعلى بسطة السلم أسندت امتثال ظهرها على الترابزين وتقدم الولد الغريب والولد السيد، وكنت أمسح حذائي بخرقة لأزيد لمعانه، وأسرعت للحاق بهما، وإذا بها تفرد قدميها لتعوقني، فتوقفت قبالها، فلاحت لي كزهرة في حاجة إلى من يقطفها، وانتابتني رجفة شديدة، وكدت ألمس ما علا من صدرها، ولكن شيئًا منعني، وإذا بها تمد يدها وتقول.. "خد العطر ده.. وحط على جلابيتك وعلى شعرك".. ولم تتوان هي فأسرعت وملست بيدها على شعري، ثم أضافت.. "أنت حتتأخر؟" ثم همست في أذني.. "حاول تسيبهم بره، وأرجع بسرعة.. أنا مستنياك.." واقتربت بجسدها مني، وكدت أن أفعل ما فعلته مع البنت رقية، لكنني تذكرت استغفاري وقراءتي بعد ذلك قل هو الله أحد.. واكتفيت بأن لمس كتفي صدرها، إلا أنها عادت

ومدت رجلها لتعوقني عن الخروج، فدفعت بها جانبًا وأسرعت باللحاق بالغريب والسيد الصفتي.. وعلى باب العطفة وجدتهما واقفين ينتظران، وكانت هي واقفة على الباب تنظر لنا.

كانت السماء مليئة بغيوم حجبت الشمس، والشوارع زاخرة بالعمال في كل ناحية والأنظار تتطلع إلينا في ملابسنا الحريرية التي لا يلبسها الناس إلا في الصيف، وتندر أحدهم قائلاً.. "يظهر عليهم ما لبسوش حرير قبل كده".

فرد آخر: "دول يظهر من الفلاحين وبيشتغلوا في الشركة.."

كانت العربات الكارو في كل مكان، تعدو مسرعة أو تغرز في الوحل محملة بالطوب ومبانٍ متعددة تقام في كل مكان، وعمال الكهرباء تحمل على الأكتاف لففًا من أسلاك النحاس الأصفر، وآخرون يدكون الأرض بعد أن أقاموا أعمدة النور، وآخرون يمدون في الأسلاك في شوارع لم تسكن فيها العمال بعد، ونسوه يسرن وشبان يلاحقوهن.

وأمام البوستة وقفت امرأة وقد لفت جسمها بملاءة سمراء كاشفة عن وجهها الأبيض، وعيونها الخضراء، وعلى بعد خطوات منها وقف رجلان يلبسان الملابس الإفرنجية وهمس أحدهما.. "تدفع كام وأنا أجيبهالك؟.. زي ما تقول.. "حدد".. "عشرة صاغ".. "عندك أوده".. "بس روح ومالكش دعوة".

ووقف الولد الغريب يحملق فيهما وحاول السيد أن يجذبه من جلبابه فقاوم.. "لما نشوفهم حيعملوا معاها إيه!! لما نشوف مين فيهم هيخسر الرهان".

وتقدم الرجل من المرأة ووقف قبالها وابتسم. وأخفت المرأة وجهها بطرف ملاعتها. واستدارت برأسها، فاقترب أكثر وأكثر، غير عابئ بالمارة في الطريق، وهمس في أذنها، فإذا بها تسير خلفه، ولحق بهما الرجل الآخر..

وحملق الولد الغريب في وجهي مشدوهًا، وعاد وتطلع للولد السيد، وابتسم ابتسامة كشفت عن أسنانه المعوجة وقال.. "تعالوا يالله، تعالوا نشوفهم رايحين فين!" وعاد وقال كمن تذكر شيئًا كان قد نسيه.. "يا نهار أسود.. هيه النسوان هنا سهل كده!!" وقال الولد السيد.. "يمكن تكون قريبتهم.. فهز الغريب رأسه وقال.. "تبقى قريبتهم، ويتراهنوا عليها؟!" وأضاف وهو يلوح بيده.. "والله ما احنا إلا رايحين وراهم نشوفهم همه داخلين في أني بيت".

ودورنا الجري خلفهم، ثم أبطأنا السير عندما أصبحنا على بعد خطوات منهم، وهم يدخلون من عطفة ويخرجون من أخرى، والمرأة تسير خلفهم، تعدل من ملاعتها، وتكشف عن ساقيها البيضاوين وكعبها الأحمر..

وقال الولد الغريب.. "لما نشوف بنت الكلب دي حتخش معاهم في أني بيت؟"

كانت الشوارع مبتلة.. والهواء يقذف الشبابيك فيرج الزجاج رجا.. وتوقفوا أمـــام أحـــد المنازل.. ودخل الرجل الأول، ومن شباك الدور الأول أطل برأسه، ولوح بيده، والهواء يصك الشبابيك؟ فتقدم الرجل الثاني ومن خلفه المرأة تهز كتفيها..

وتقدمنا إلى الشباك بخطى بطيئة.. وهمس السيد في أذن الغريب.. شيلني.. شيلني، لما أشوف، لما أبص عليهم ورفعه الولد الغريب، وإذا بالرجلين واقفان، والمرأة تخلع ملابـــسها، فأسرع واحد منهما يغلق الشباك بعنف بعد أن نظر إلينا وهو شاحب الوجه.

ووقفنا من بعيد ننتظر المرأة حين خروجها.. والولد السيد يكرر وصف ما كان رآه من جسمها وهي تخلع ملابسها ووجهه محمر، وشعر رأسه يلعب به الهواء.. وإذا بالشباك يفـــتح فتهلل وجه الواد الغريب.. وأطل أحدهما برأسه فلمحنا، فعاد وأغلق الشباك من جديد.

قلت لهما.. "ياالله بينا هوه أحنا حنفضل واقفين.. دول مش هيخلصوا دلوقـــت".. فقـــال الولد السيد.. "نستنى نشوف إيه أخرتها وياهم" فأجبته بحسم.. "مالناش دعوة.. ربنـــا يـــسهل لعبيده".

واحمر وجه الولد الغريب من الغيظ، ولما شرعنا في السير قلت.. "لو فـــضلنا واقفـــين ماكانوش خارجين في يومهم".

وكنا كلما تقدمنا خطوات ينظر أحدنا للخلف عسى أن يكونوا قد خرجوا.. وأمـــام أحـــد المقاهي المكتظة بالعمال تسمر الولد الغريب في مكانه، ورفض أن يتحرك وقال.. "ياالله نقعـــد في القهوة.. على شرط نشرب كاركاريه".. وبالقرب من الباب ذي الضلفتين، وضع كل منـــا قدمًا على الأخرى، كاشفين على الشرابات الملونة.. وصفق الولد الغريب على يديـــه وطلـــب كاركاريه..

(١٧) عزومة

ونحن ننتظر الطلبات كان خمسة من الجالسين يتناقشون مناقشات حادة. كانوا يرتـــدون جلاليب بيضاء مزهرة وكل منهم يفرق شعره. وملامحهم تدل على أنهم ليسوا مـــن العمـــال. فالشمس لم تلفح وجوههم. وظهر من حديثهم أنهم من الميكانيكية الجدد. فقال أحدهم محتـــدًا.. "إيه الفرق بيننا وبين الغنم؟"

- تقصد إيه بالغنم؟
- أقصد العمال اللي جايين من ورا البهايم. حد منكم يقدر يقول إيـــه الفـــرق بيننـــا وبينهم، ستة صاغ إيه اللي إحنا بناخدهم؟!

وخبط على الترابيزة بكلتا يديه ثم أضاف..

- إيه الفرق بين الجاهل اللي جاي من ورا الحمار، وبين واحد متعلم أهله صـــرفوا عليه دم قلبهم!!

ذكرتني هذه الكلمات بما قاله وكيل النيابة في المحكمة. وتفرس المتكلم وجوه الجالسين وهز رأسه وعاد يقول:

- همه بيشتغلوا بالإنتاج والواحد منهم بيقبض من خمسين لخمسة وستين قرش فـــي المدة.. إحنا بنقبض كام؟ اتنين وسبعين قرش!! إيه الفرق؟!

وقال آخر وهو يرفع صوته فوق صوت الأول:

- وأنت محموق قوي كده ليه، ما تقول حل بدل ما تسرسع وتـــتكلم كـــلام ملـــوش معنى.

وقال آخر:

- أنا بس عاوز أعرف، ليه بتشتم في العمال؟ همه دول اللي حددوا لنا الأجر؟!

فرد في احتداد واضح:

- دول ما بيكلوش إلا البرسيم.. الواحد منهم بيجيب الأكل في شوال.. عيش متفرفت عامله بسيسه، ويقعد يسف فيه جنب الحيطة.. والشركة بتعاملهم زي البهايم.

واعترض آخر:

- ياريت.. البهايم بتتعامل أحسن منهم، الواحد منهم ياخد على قفاه ولا يقدرش يبص وراه.. ليه الشركة ما تتأمرش؟

وقال آخر:

- همه العمال ذنبهم إيه؟ مافيش واحد فيكم قدم حل لحد دلوقتي.. مثلاً نجتمع.. ونجمع بتوع الشهادات ونطالب كلنا بالزيادات.

وقال آخر وهو يهز رأسه:

- لقد بحّ صوتنا.. والنتيجة لا شيء!

وعاد السابق يرد عليه:

- انتم بس قاعدين تتكلموا، ولا أنتوا عايشين في الدنيا.. اللي قاعد يقول العمال بهايم، واللي بيزود ويقول البهايم أحسن منهم.. حد منكم عرف عمال النسيج عملوا إيه.. حد اتحرك واتكلم مع حد فيهم؟ دول وقفوا المكن، كلهم وقفوا، وحولوهم من يوميه خمسة تعريفه للعمل بالإنتاج؟..

ثم شوّح في وجوههم غاضبًا

- احمدوا ربنا اللي متخرجتوش قبل كده.. كانت الشركة عملت لكم أربعة صاغ في اليوم، وشغَّلت العمال قبل كده بقرش صاغ وبتلاته أبيض.. وشغلّوهم كمان ببلاش.. احمدوا ربنا.. انتم عارفين عمال النسيج عملت إيه كمان؟ واحد منهم موّت الرئيس، والشطارة مافيش حد منهم اعترف. دي شهامة ولاّ لأ؟! يستحقوا الشتايم اللي نازله عليهم من المتعلمين!!

وسكت لحظة ونكس بصره للأرض، ثم رفعها وتطلع حوله.. وقال:

- بدل كده علموهم، دول منكم.. إذا كنتم عاوزين تحققوا مطالبكم، اتصلوا بالعمال.. وبالذات عمال النسيج.. حد منكم سمع عن عباس حليم؟
- وعباس حليم ده يبقى إيه؟
- آه.. واحد زيك مش عارف عباس حليم!!

وقهقه بصوت عالٍ

- أمال بتلوموا العمال على إيه؟.. عباس حليم النبيل ابن العيلة المالكة.
- بيعمل إيه؟

وابتسم ساخرًا وخبط على الترابيزة

- متعلمين إيه؟.. إنتم ولا أنتم هنا.. ده ما بيضربش إلا بالكرباج، بيضرب الأغنيا اللي في الشركات..

وتطلع كل منهم إلى الآخر

- أهو ده اللي إحنا عايزينه

- عشان تعرفوا أنكم مش في الدنيا.. ناس زيّكم حيجيبوه.. بني آدمين ما بيخافوش، حايجيبه سواقين التكسى..
- وعرفت منين؟
- عرفت منهم.. جاي يعمل نقابة للعمال. نقابة لكل العمال اللي في المحلة الكبرى.

ومن بعيد جدًا، من أماكن متفرقة، ارتفعت نداءات الله أكبر.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. وكان آذان العصر، وقاموا للصلاة..

ودفع الولد الغريب الحساب للقهوجي وقال:

- ياللا بينا نروح على شارع محب، نسمع مزيكة الأيتام بتدق هناك.

وقال السيد الصفطي:

- يا ريتنا نستنى لما يرجعو من الصلا، دول كانوا يتكلموا عن العمال.. كنت عاوز أعرف عباس حليم ده حييجي إمتى؟
- وليه مسألتهمش.. كنا سألناهم علشان نقول للعمال عن النقابة.

وقال الولد السيد:

- وكنا حنسألهم إزاي.. واحنا منعرفهمش..

قلت:

- الراجل أبو شعر أحمر هوه اللي كان بيتكلم كويس وعارف أحسن من الباقيين.

وقال الولد الغريب متفلسفًا ومستعجلاً الانصراف:

- حنستعجل ليه.. يا خبر بفلوس، بكره يبقى ببلاش..

كانت الشمس تميل للغروب، ونحن في طريقنا للمنزل.. وبين الحين والحين كنت أتحسس جيبي خوفًا من ضياع الفلوس التي احتفظت بها لأبعث بها إلى أمي في أقرب فرصة.. وعندما اقتربنا إلى المنزل تذكرت قول امتثال لي "سيبهم بره وتعالى"، وقلت في نفسي.. "هي عاوزاني ليه.. قالت لي ليه كده؟ دلوقتي تزعل علشان نسيت.

وعندما وصلنا إلى المنزل كانت امتثال واقفة في الشباك، وعندما رأتني اختفت.. وبعد قليل ونحن في الحجرة عادت تناديني:

- تعالى.. أمي عاوزاك.

كدت أسألها عايزاني ليه، إحنا دافعين اللي علينا، وجال في خاطري أنها ربما تريد مثل أصحاب البيوت الآخرين أن ترفع الإيجار.. وعادت تستعجلني:

- يالله.. أمي فوق.

وفي قوة جذبتني من يدي، ثم أمسكتني من جلبابي، ولخوفي على جلبابي تركت نفسي حتى التصقت بصدرها.. كان الولد السيد وقتها واقفًا على الباب.. فمسكت بطرف أصابعي، وسرت وراءها، تسبقني على السلم وكلما طلعت سلمه تلفتت وراءها.. وأنا غارق في التفكير فيما ستقوله أمها لي.. فهذه أول مره ترسل لي أمها.. كانت دائمًا تأتي هي إلى حجرتنا كلما أرادت منا شيئًا.. وامتثال عند كل بسطة تزعق:

- قرب!.. إنت خايف.. إنت مكسوف؟!

وبالقرب من باب حجرتها وقفت قبالي رافعه خصلات من الشعر من على عينيها.

كان الباب مغلقًا ورائحة شهية تنبعث من الداخل فتطلعت إلى عينيها فلاحت لي أكثر جمالاً. أسنانها البيضاء التي كشفت عنها الابتسامة باتت كأسنان طفل لم يذق أكلاً من قبل، وكان وجهها مشرقًا، وصدرها يعلو ويهبط.

واقتربت مني حتى التصت بي، وقالت في همس:

- ماجتش ليه بدري؟
- أنا أتأخرت مع الأولاد..
- خد.. حط ريحه قبل ما تخش..

وملأت كفها ودعكت يديها بها، ثم ملست بها على صدري فاقترب وجهها مني، واندفعت بلا إرادة وجسدي كله قد تحرك عندما لمس صدرها وشعرت بدفء قربها مني، وكبست صدرها، فجزّت على أسنانها وقالت في همس إيه ده.. إيه ده ودفعتني بعيدًا فاندفعت ثانيًا، ولكنها في هذه المرة تركت يدي وجذبتني نحوها، وقبلتني من خدي. وإذا بصوت أقدام من أول السلم، فدفعتني بعيدًا عنها في حنان، وقذفت بالباب ودخلت خلفها وقلبي مضطرب الخفق.

وجدت أمها جالسة على كنبة، بفستان كاشف عن ذراعيها وساقيها حتى الركبة، عارية طارحة شعرها الأصفر المتموج للخلف، وعيناها الخضراوان تضيئان بنظرات تبعث الطمأنينة ووجهها أبيض مشبع بالاحمرار..

كدت لا أعرفها في بدء دخولي، لأنني لم أرها في تلك الملابس من قبل، ولا في هذا الجمال، فقد كنت أراها في ملابسها السمراء التي لم تكن تخلعها.. كان أمامها طرابيزة مصطف عليها صحون منقوشة ومعالق بيضاء لامعة.. وفي الركن سرير بأربعة عواميد من النحاس الأصفر مفروش بملاية منقوشة متعددة الألوان، تصل حتى البلاط الأبيض وفي مواجهة المدخل دولاب بدرفتين من البنور، رأيت نفسي في بنورة بكامل هيئتي، والحجرة مغلقة الشبابيك ينبعث منها الدفء.

وفي ركن آخر كنبة يجلس عليها رجل أبيض الوجه بياضًا يميل إلى الاصفرار، تعدى الخمسين يملأ الشيب شعره، نحيف جدًا يتكلم في بطء المريض الذي طال مرضه. وبجواره امرأة أخرى تعدت الأربعين ودون الخمسين، لم يسبق أن رأيتها..

تملكني الخجل فقالت الأم مبتسمة:

– تعالى، خش، اتفضل، اقعد على الكرسي.

وقال الرجل:

– حصلت البركة..

قالها بعد سعال استمر فترة وصدره يعلو ويهبط.

وجلست قبالتها ورأسي إلى الأرض، إلا أنني كنت كثيرًا ما أختلس نظرات لوجه الأم متمنيًا الجلوس إلى جوارها.. ثم أختلس نظرات إلى ساقيها العاريتين.. وكنت أجدها هي الأخرى تنظر وتطيل النظر إليّ..

وقال الأب لابنته..

– هاتي يا امتثال..

وإذا بالأطباق تفرش الترابيزة والمعالق.. وتحركت الأم وجلست بجواري فارتعشت رعشة خفيفة وتحركت يدي لتلامس سيقانها ولكني حشتها وأنا أقرأ قل أعوذ برب الناس..

قالت الأم:

– هاتي يا بنت فوطة يحطها على رجله.

وقلت في نفسي.. "يا أرض انشقي وابلعيني.. فوطة إيه؟.. معالق إيه؟ حاكل إزاي، أنا ماكلتش بمعالق أبدًا.. هوه أكل المعالق يشبع!.. طول عمري باكل بإيدي حتى الرز المدسوس في الفرن ما كناش ناكله إلا بإيدينا. وكنت بسابق إخواتي، والجدع اللي يغلب التاني في الأكل.. آكل إزاي بالمعالق.. أرفض الأكل؟ مع إني جعان..

وكان كل شيء قد أعد على الترابيزة، وأمسك الجميع بالمعالق، وأنا راسي في الأرض وقالوا جميعًا في نفس واحد.. اتفضل.. فقلت وكنت قد عزمت على ألا أقرب الأكل:

– أنا شبعان.. أتغديت بره في الدكان.. فضلت أن أكذب على أن يقال إني معرفش آكل بالمعالق.. أو يشتموني في سرهم.. ولكن الأم حلفت وقالت وهي تتنهد.. ما توقعش حلفاني.. إحنا النهارده عزمينك، والأكل ده معمول علشانك.

وأمسكت بلقمة صغيرة وبدأت ألبّط من طبق الدمعة كما لو كنت ألبّط مش.. إلا أن الأم أمسكت بالملعقة، وحاولت وضعها في يدي، وأنا أرفض وهي تحلف، وأنا أرفض، وتحت

إلحاحها أمسكت بالمعلقة في غضب بعد أن ألح الأب وألحت امتثال، وبدأت أخذ على طـرف الملعقة بعض حبات الأرز محاذرًا ألا يسقط شيء على المفرش، متذكرًا قول أمي "إذا قعـدت في مجلس كل على مهلك، وقوم بنص بطن، وكمل الأكل في بيتك"..

وأكملت ثلاث معالق بالعافية، وحمدت الله بصوت عالٍ، مع أنـي لـم أكـن شـبعت، واتجهت للحمام أغسل يدي، ووجهي في الأرض، أتحاشى أن أنظر إلى أحد أو أرى نظراتهم. وأحنيت ظهري أشمر جلبابي متفاديًا البلل، وإذا بجسم خلفي تنبعث منه رائحة العطـر التـي مسحتها امتثال في صدري، وقلت في نفسي "أعمل نفسي مش شايفها، وأرجـع إلـى الخلـف وألصق ظهري بصدرها ثم أعتذر". وفعلت ذلك إلا أني وجدتني وسط صدر أعرض وأعلى.. وكان صدر الأم التي قالت بصوت هامس:

– هو أنت معدتش بتشوف؟ هو أنت بترجع بضهرك!

وتلعثمت وانخطف لوني:

– معلهش ما حسبتش حد ورايا.

إلا أنها احتضنتني من ظهري مسبلة عينها وقد احمرت وجنتاها وقالت:

– خد الفوطة – امسح إيدك.

وأحنيت رأسي خجلاً ومسحت في جلبابي فوضعت الفوطة بين يدي.

خد الفوطة.. الجلابية حتخسر.. ما تتكسفش.

ومسحت يدي.. وخرجت.. إلا أني لم أذهب إلى الحجرة، بل دورّت الجري على السلم قافزًا درجاته.

ووجدت الولد الغريب والسيد الصفتي جالسين بالجلاليب الحريرية لم يخلعاهـا بعـد.. وجلست بجوارهما ساندًا رأسي إلى الحائط.. وسرحت قائلاً لنفسي.. "أحسن أني مـا قعـدتش عشان ما حطش وشي في وشها.. إزاي أحط وشي في وشها.. ليه بس.. ليه عملت كده؟".

كان قلبي يخفق عاليًا.. ووجهي يزداد اصفرارًا.. وقال الولد الغريب، وهو يغمز بإحدى عينيه..

– إنت مالك.. جي تجري زي اللي عامل عمله؟

وقال الولد السيد:

– أيوه يا عم.. كل يوم كانت بتسأل عليك.. مفيش على الحجر غيرك.. ومفيش في الحجرة غيرك.

ومنعني الخجل من الرد، وقال الولد السيد يغمز مبتسمًا:

- طلعنا وراك وشفناك على البسطة.

وقال الولد الغريب:

- أيوه يا عم، أكلوك أكلة طول عمرك ما كلتها.

وكدت أركله بقدمي غيظًا لكني توقفت.. أما هو فأضاف:

- يا عم.. قوم هات لنا طعمية.. ما دام هو أكل..

وإذا بصوت الأم يرتفع مناديًا عليّ.. ولم أرد فاستمرت تنادي.. فقال الولد الغريب:

- قوم يا عم كلم، لسه بيندهوا عليك.. إلا أني لزمت مكاني، وإذا بها تقف في الباب بنفس الملابس التي كانت ترتديها بل لفت رأسها بجدائل شعرها الأصفر.. وجذبتني من يدي، تحاول أن تأخذني معها، ولكنني عصلجت، فجلست على الأرض وسألتني:
- نزلت ليه؟
- تعبان.. عاوز أرتاح.
- إنت مكسوف؟

سكت

- قوم.. قوم معايا ما تتكسفش.. إرفع راسك وكلمني.

كان الحوش مظلمًا إلا من لمبة غاز خافتة الضوء يلعب بها الهواء، وفجأة دفعت برأسي بين نهديها وعادت تضمني بذراعيها:

- قوم ما تتكسفش.

وغرزت أصابعها في أكتافي، وضغطت على الأرض بقدميها وجزت بأسنانها على شفتيها.. وإذا بالولد الغريب والولد السيد يقفان بجوارنا.. فارتخت يداها، وتطلعت لهما في غيظ، واتجهت إلى السلم وهي تردد:

- ردوا الباب.. ردوه قبل ما تناموا.

وساد الصمت الحجرة، صمت لم تعرفه من قبل.. إلا من وشوشة بين الولد الغريب والولد السيد لم أتبين منها شيئًا.. ثم أخذ كل منهما مكانه للنوم.. وناما.. وبعد فترة ليست قصيرة خلعت جلبابي وتمددت بجوارهما.

واسترجعت ما حدث. وسألت نفسي.. هل ارتكبت ذنبًا وكيف أستغفر وأكفر عنه؟ ونمت دون أن أصل إلى شيء. كل ما أذكره أنني قبل أن أغرق في النوم استعذت بالله وقرأت الفاتحة ثلاث مرات، مثل أمي عندما تحاول أن تبعد عنها الأحلام المزعجة.

وفي النصف الثاني من الليل صحوت على زغد من الولد الغريب في جنبي وهو يقول:

– أصح! أصح!.. مالك، إنت مكبوس؟!

كنت وقتها أصرخ بصوت عالٍ من آثار حلم أرعبني، فقد رأيت في النوم جملاً أجــرب أطاح بي وهو يخرج من حلقومه رغوة بيضاء وكلما أسرعت بالجري كان يلاحقني. وقــذفت بنفسي، خوفًا من ملاحقته في معجنة طين سوداء.. كانت من العمق بحيث أخفت كل جــسدي حتى عيني، ورأيت بها "روبة" الوحل وهي تتماوج في بطء من كل ناحية لتقضي على حياتي. ومن بعيد وقف الجمل يضرب الأرض بخفيه وينبعث من حلقومة رغاوٍ كثيفة ويندفع نحــوي في غيظ ليفترسني. وأنا أزعق مستغيثًا، مغروسًا في الأرض.

وبينما أنا أستغيث أيقظني الولد الغريب واختفى بعدها كل أثر للنوم من عيني، وتمنيــت لو أن الظلام انقشع وحل محله نور يبعث في قلبي الطمأنينة.

ولم أقص الكابوس على الولد الغريب وكنت هممت بذلك. فأنا قد سمعت أمي وهي تقول لأخي لا تقصص أحلامك على أحد إلا إذا كان كبيرًا، وإلا بعد أن تسمع منه كلمة "خير" فــإن لم تسمعها توقف عن قص حلمك عليه.

وسألت نفسي.. "من إذن يفسر لي منامي هذا، لــيس أمــامي إلا عبــد العظــيم، أو أم امتثال"... وبمزيد من التفكير استبعدت أم امتثال.. لما حدث مني معها وقت أن كنت أغــسل يدي"

وعدت وقلت لنفسي.. "بس هيه جت بعدها ودفعت رأسي في صدرها. وعادت وقبلتني وهي تضمني في حضنها. لماذا إذن أخاف. إنها قبلتني من خدي مثلما كانت تفعل أمي.. إنها لم تفعل شيئًا يغضبني، بل حاولت إرضائي، فلماذا أستمر في خجلي؟

وفي الصباح لم أر الأم ولا ابنتها. انتظرت أن تنادي، ولكن صوتها لم يجلجل في فنــاء البيت كما تعودت أن أسمعه.

(١٨) أسرار المكن

أزف الوقت، وأخذ كل منا منديله، وسرنا في الطريق إلى العمل.. وفي الطريق بـــدأنا الولد الغريب بالسؤال:

– احنا هناكل لحد امتى من الطابونة؟ الماهية ما تكفيناش ناكل وندفع أجرة السكن.. حد يروح يجيب لنا زوادة ناكل منها.

وقال السيد الصفتي:

– إحنا هنتمحك تاني.. نستنى أما نشوف أهالينا هيعملوا إيه.. هيسألوا فينا والا لأ؟

وقال الولد الغريب:

– هوه أحنا هنضربهم.. الفلوس هتخلص منّا ولو حد منهم جه مش هيلاقوا معانا ولا مليم. ثم قال لي:

– ما تتكلم.. اللي هيمشي ورا السيد مش هيكسب.

– انت مش وافقت لما تبقى مش قد الشيء ما تعملوش – هوه أنت هتعمل مناحة كل شويه!!

فسكت ولم يجب بعد أن نظر إلي بعينين يتطاير منهما الشرر..

وعاد الولد السيد وقال:

– خلاص – ناكل من الطابونة، ناكل عيش خاص وفلافل.. نسيب البلد مدة.

فرد الولد الغريب:

– ده عيش مافيهوش بركة، الواحد بياكل تلات أرغفة وما يشبعش.

– بكره بطنك تاخد عليه، اعمل مره من البندر هوه أنت ما سمعتش اللـــي بيقولـــوه علينا.." عيش مفرفت من البلد.. يعبوه في اشوله ويسفوا منه نعمل مـــن البنـــدر مرة!!

وغطى على كلامنا ضجيج المكن وزئير السيور وعجلات عربات اللحمة التي تعدو في الطريق مسرعة.. وأنا على مكني، اقترب مني بعض العمال المجاورون وقالوا:

– ما سمعتش..

– ما سمعتش إيه؟

– العنابر الجديدة انفتحت

وبعد لحظات دخل الرؤساء العنبر وبأيديهم كشوف من الــورق، وســاروا مــسرعين يتطلعون في الوجوه ثم يعودون يتطلعون في الورق. وفجأة جمعوا عمال اليومية كلهم، ومــن بينهم الغريب والسيد، وقفا يتطلعان نحوي ووجهاهما يتهللان بالفرح ويلوّحان لي وإذا بالرئيس يأخذ عمال الإنتاج من على المكن، ويضع آخرين مكانهم، واقترب مني، وأشار لي بيده بعــد أن نظر في الورق الذي معه، وتوجهت إليه في تباطؤ، وقبل أن أصل إليه، دفع بأحد العمــال ليحل محلي.

وسألت نفسي.. "ماذا حدث؟" وسألت العمال فلم يجيبوا، فهم أيضًا لا يعرفون..

وجمعنا الرئيس – وعلى الوجوه كآبة – وقال: أنتوا دلوقت أحسن من غيركم. هنوديكم عنابر أخرى جديدة هتشتغلوا على أربع ماكينات – مين عاوز يستنى هنا ومين عاوز يــروح العنابر الجديدة؟

وتطلعت إلى مكني وملأ الحزن قلبي، وقلت للرئيس – سيبني هنا..

وقال غيري:

- سيبنا هنا.. اللي عرفناه أحسن من اللي ما نعرفوش، وكان العمال يعلنون تذمرهم الذي يكبتونه.. وعاد الرئيس وقال:
- كل واحد يقف ورا التاني..

قالها وسكت.. ولم ينبس أحد من العمال بكلمة.. واكتفوا بهمهمات غير مسموعة.

وأحس الرئيس بما يعتمل في النفوس من مرارة تختفي وتبدو في وجوهنــا الــشاحبة.. واتجه إلى الداخل وسارت العمال خلفه، وبدأ في تسليمنا المكن، وما إن ابتعد حتى أخذ العمال يخرجون ما في صدورهم.

- إيه ده؟ هنشتغل إزاي هوه احنا قدرنا على ماكنتين لما نقف على أربعــة الواحــد هيلف حواليهم زي الحلزونة..

وقال آخر:

- هوه احنا هنلاحق نصهم مواكيك.. يا سنه سوده – ده الواحد لما كان بيروّح مــا كانش بيقدر يقيم وسطه من الشغل على مكنتين..

وقال ثالث:

- المشكلة مش في الأربع ماكينات، لكن مشكلة اللحمة اللي زي الزفت، الماسورة ما تتلحمش أكتر من ثانية واحدة، لحمة تخينة خيط/١٢ – مش معقول نشتغل علــى قماش مفتخر ودمور اللحمة بتاعته زي الدوبارة..

وقال رابع:

- يا ريت على قد اللحمة والمكن من غير شوك توقف المكنة كل ما تخلص ماسورة اللحمة.

وقال آخر:

- هوه ده مكن يشغلوه على أربعات، ده مكن جلى من بلاد بره مصدي وعمالين يغسلوه هنا بالجاز.

وقال آخر:

- يا جماعة همه عاوزين يطفحونا الدم، ويشغلونا مطرح اتنين، ونطلع آخر المدة ولا حاجه ناخدها.. اللي نقبضه على ماكنتين نقبضه على أربعة.

وتركتهم يتحدثون ويولولون، واتجهت متراخيًا نحو ماكيناتي الأربعة قائلاً لنفسي.. "لقد اتخذ الرؤساء القرار، وليس أمامنا إلا التنفيذ، ولا فائدة من الصراخ أو الولولة، أو التباطؤ أو التراخي- وتطلعت وإذا بي أرى الرؤساء يرمقوننا من بعيد بنظرات حادة ليروا ما سنفعل.. وتذكرت الحلم الذي رأيته وقلت في نفسي.. "أنا ابن حلال.. الحلم فسر نفسه.. واقفين زي الجمل اللي جرى ورايا إلى أن وقعت في الوحل.. ووقف من بعيد يحفر في الأرض ولا يكتفي بما أنا فيه، بل يريد افتراسي"

وها أنا أرى الرؤساء من بعيد يتحفزون مع علمهم بأن هذا الأمر ليس سهلاً.. لسرعة المكن ورداءة الخيوط، وعدم وجود شوك وعدم اهتمامهم بالتصليح.. وعدت أقول لنفسي.. "همه دول يهمهم حاجة.. همه عاوزينا نقف على المكن.. نقف وخلاص وسطنا ينقطم، نقبض ما نقبضش.. همه مش خسرانين حاجة".

وفكرت أيضًا متسائلاً.. "همه ليه ما وقفوناش كلنا على أربع ماكينات.." ولم أجد تفسيرًا لذلك وعدت أفكر.. "نكتب شكاوى.. لمين؟؟ للحكومة زي ما كتبنا" وفكرت أيضًا.. "وهيّه الشكوى دي مين راح يختم عليها؟ ثلاثمائة عامل.. أربعمائة.. ألف.. وإيه يعني.. الباقي كله مش هيمضوا ما داموا واقفين على ماكنتين.." وانتهى بي التفكير إلى ما يشبه القرار.. "هافضل واقف ونفسي مكسورة، وآخر المدة هاعمل إيه؟.. هوه حد هيديني وأنا في غربة؟ لازم اشتغل على آخر جهدي، وأكسر نفسي، علشان أدّي لأمي وإخواتي.. همه عاوزين يزهقونا ويكسروا نفسنا، ونمشي ما نتلفتش ورانا.. لازم اشتغل وأوريهم إني قدّها وقدود، هاتعب، الواحد مش هيقدر يقيم وسطه، مش مهم.. لازم نشتغل.."

وبدأت أخلع جلبابي، وشمّرت أذرعتي، وبدأت أدور ماكينة وراء الأخرى بعد أن أخذت كل الفتل، وكتبت اسمي عندما بدأت العمل، حتى لا أتحمل عيوب من سبقوني.

واتجهت أنظار عديدة نحوي، وخاصة من العمال الكبار الواقفين على مكنتين، ودار المكن واستمر في الدوران، وتلفت قائلاً لنفسي.. "فين الرؤساء.. فين همه دلوقت ليروني وأنا واقف على المكن ليتأكدوا أنني استطعت أن أديره.. بل استطاع غيري أيضًا بشيء من الجهد أن يديروه.. ونستطيع أكثر من ذلك لو بذل الرؤساء معنا بعض الجهد. إلا أنهم لا يفعلون.."

واشتغلت بحماس، وبدأت ألف كالنحلة حول المكن.. ولم تقع عيناي على أحد من الرؤساء.. وعدت ووضعت يدي على الفرامل بعد أن فردت وسطي، وطقطقت ظهري، وتطلعت لما حولي ناظرًا للماكينات، قائلاً لهم في غيظ وهي تدور.. "فين لما كنت باخاف أقرب منك.. فين لما كان عبد العظيم يمسك بكلتا يدي ويضعها على الفرامل قائلاً.. ماتخافش.. زق.. زق ما تخافش.. فين الأول.. وفين دلوقت" شتان بين موقفين كنت خايف ودلوقت مش خايف.

وعدت أتأمل المكن وأخاطبه "كثيرًا ما أخفتني.. كثيرًا ما ارتعب جسدي من الاقتراب منك وقت أن كنت تدفع بالعمال إلى عجلاتك فتنفجر بطونهم وتتدلى ألسنتهم.." كان عبد العظيم على حق يوم أن حثني أن أهجم عليك ولا أهابك، وأسيطر عليك قبل أن تسيطر عليّ" وهأنذا الآن لم أعد طفلاً هاربًا من أمه، هاربًا من الكتاب، لم يسبق له أن رأى ماكينة في قريته.. لم أعد مجرد صبي، بل لم أعد مجرد عامل، يعمل على ماكينتين، بل أصبحت أدير أربعة ماكينات.. ونظرت له برأسي مرفوعة ويدي تتحرك من فرملة إلى أخرى وأواصل خطابي له "أنتم الآن خاضعون لي، بعد أن كنت بالأمس خاضعًا لكم، أديركم وأوقفكم عندما أريد، وأستطيع أن أدفع الفرامل بيدي، وأستطيع أن أدفع بها بقدمي دون ما خوف"

وأوقفت الماكينة، وقذفت بالمكوك في الدرج، ووضعت قدمي في الفرامل، بدلاً من يدي ودفعت بها قويًا، فدارت دونما إبطاء.

واجتاحني إحساس بالفرح بعد أن شعرت بسيطرتي واتجهت نحو الولد الغريب على مكنه لأريه ما فعلت مع مكني، فحاول منعي خائفًا، ولكنني صممت على ألا أديرها إلا بقدمي. وبعد أن دارت نظر إليّ في ذهول وهو لا يكاد يصدق، فأعدت ما قاله عبد العظيم لي.. كنت أريد بذلك أن أكسر عنده عقدة الخوف من الماكينة لا بالكلام وحده بل بالفعل كذلك.

وعلى بعد خطوات منا وقف بعض العمال يراقبونني وابتسموا لما فعلت – واتجهت نحو مكني وبدأت أديره بقدمي مخاطبًا له من جديد.. "أستطيع أن أفكك قطعة قطعة وأكومك ثم أعود أركبك، كما أستطيع أن أتركك تحت رحمة الغبار وأحرمك من التزييت إلى أن تحترق

وتصدأ.." ونظرت في ابتهاج للماكينات ثم أدرت ظهري لها وأخرجت القطن الذي كنت أسد به أذني، حتى أعود فأسمع وأستمتع بالضجيج، ضجيج المكن وزئير السيور، وأصوات العمال العالية عند انتهاء نوبة العمل. ثم عدت وتطلعت إلى المكن دون أن تتجه عيناي إلى الساعة المعلقة على الحائط وسط عنبر النسيج، وتطلعت حولي إلى العمال بوجوههم الشاحبة وهم يجرون خلف الماكينات لملاحقة الفتل الزائدة، ولتقطيع العقد التي تركها عمال السدا، نتيجة استعجال الرؤساء لهم ورأيت آخرين وقد أخفوا رءوسهم، وآخرين منتصبي القامة، وأيديهم على الفرامل استعدادًا لحدف المكوك في الدرج، وآخرين وهم يسيرون متباطئين في الطرقات حاملين على الأكتاف لوحات ملأى بغزل القطن، وآخرين مائلين مستندين بظهورهم على أجناب ماكيناتهم المُعطّلة في انتظار مجيء الرئيس الذي تعبت الأعين في البحث عنه، إذ إن الرؤساء كانوا في الحجرة خارج عنبر النسيج – وعدت وتطلعت إلى المواكيك وهي تندفع من درج إلى درج في سرعة لم ترها العين، وقلت في نفسي.. "من هذه السرعة المجنونة، ومن هذا الاندفاع القوي خرج المكوك، خرج من الدرج نتيجة عيب ما – وبدلاً من أن يتخذ الاتجاه الصحيح، اندفع خطأ، وبنفس هذه الاندفاعة القوية قتل العامل الذي وقف مكانه. قتله في الحال، واندفع الدم من رأسه.. أحمر سائلاً، ثم لزجًا ثم تجمد في الحال على أجناب المكن وفي الطرقات وانتهى العامل في لحظات وإلى الأبد.. وكأنه لم يوجد.. انتهى لخطأ في المكوك، كان من المكن تلافيه، لو أن العامل عرف السر، سر اندفاع المواكيك في غير اتجاهها الصحيح. كم من عمال قتلتها أيها المكوك؟ وكم من وجوه شوهت، وكم من عاهات ستبقى إلى الأبد، إلى أن ينتهي العمر؟ من المسئول؟ إنها عدم المعرفة بأسرار المكن.. أسرار لا يعرفها العمال لأنانية الرؤساء يحتفظون بأسرارك ليبقوا هم أصحاب هذا السر.. وهذا هو ما دفعني ودفع الكثيرين غيري لكراهيتك أما الآن وقد انكشفت تلك الأسرار لي، لحبي الشديد للمعرفة، وانتباهي لهم وهم يقومون بالتصليحات في بعض الأحيان، وبأعمال الصيانة في أحيان أخرى، بحل وربط الصواميل بعد انتهاء كل سداء، لولا انتباهي لما عرفت أنا الآخر أسرارك، واستمرت كراهيتي لك، وإذا كنت أنا قد عرفت فهناك كثيرون وكثيرون جدًا ممن يشحنون في عربات النقل من بلادهم ومن قراهم لم يسبق لهم رؤيتك.. إلا أنهم سمعوا عنك من سنوات طويلة أنك لا تدار إلا بالدم.. دم ابن آدم الحيّ.. كنت بالأمس مثلهم عندما كنت في قريتي، يوم كانت أمي كسائر الأمهات يمنعن الأطفال من الاقتراب من بوابير الطحين قائلات.. "إياكم أن تقتربوا من هناك، فإنها لا تدار إلا بعد أن يذبحوا لها أطفالاً ويظفّروا بدمائهم العدة، وتدار بعدها بالعفاريت!!"

"إنني قد سمعت هذا في القرية، وما زلت أسمعه كلما ذهبت إليها، إنها فكرة قديمة، وقديمة جدًا، لا أعرف مصدرها، وما زالت تتردد للآن، والكل يرددها مع أنهم لا يعرفون مصدرها.. أما وقد عرفتك، وعرفت أنك تدار بالكهرباء.. فإنني أستطيع أن أحبك وأحب المكن كله.. بل وأعشق الضجيج الذي تحدثه.. أنا لم أعد أطيق الحياة في قريتي الهادئة التي يسير فيها كل شيء ببطء.. إنني أحب السرعة التي تتمثل في حركتك.. وصدقني إنني أحبك مثلما أحب أمي التي ترمّلت عليّ ورفضت الزواج بعد أن مات أبي لكي تجنبني المهانة والإذلال.. أمي التي اختارت لي أن أكون حرًا.. وأحبك مثلما أحب أخي الذي غرس فيّ الكرامة والاعتزاز بالنفس، وأحبك مثلما أحب الولد الغريب، والولد السيد الصفتي.. وأحبك مثلما أحب أختي خسكية، وكل من يحبونها. وأحبك مثلما أحب كل الناس الذين يعملون لكي لا يجوعوا.."

"أقول ذلك الآن لأنفس عن نفسي قليلاً.. إنني كنت بالأمس أكرهك، أما الآن فأصبحت أحبك، لأن حياتي أصبحت مرتبطة بالوقوف إلى جوارك والدوران حولك، ولأن فدان الأرض وتسديد إيجاره أصبح هو أيضًا مرتبطًا بذلك.. إنني منذ تلك اللحظة يا ماكيناتي الأربع سأواليك بالتزييت، وسأمسح عن أجنابك كافة الغبار والأتربة، وسأجعلك كالعروسة في ليلة الزفاف.. سأجعل كل من يدخل العنبر من الزوار يعود وفي ذهنه صورة طيبة عن العمال. سأفعل هذا لأن هذا يزيد الإنتاج، وسأفعل هذا لأننا أصبحنا متلازمين لا غنى لأحدنا عن الآخر".

وتطلعت إلى الساعة ورأيتها تلتقي عقرباها عند الثامنة مساءً. وعدت وتطلعت للمكن في انتظار نوبة الوردية الجديدة، مجتهدًا أن أترك لزميلي عامل الوردية الثانية، ما يعينه على زيادة الإنتاج، وشعرت بقدميّ وقد تصلّبتا، وذراعي وقد تراخيا، ووسطي وقد أصبحت أقيمه بصعوبة.

وجلست بين المكن وقد تمكن مني الإرهاق، وحسسّت بيديّ على ما أنتجته من أقمشة ففرحت وعدت أخاطب المكن.. "أليس لك صاحب؟ وأين ومن هو؟ بقى لي أن أعرفه!"

كان عقربا الساعة قد توقفا عند الثامنة، الثامنة مساء، ودخلت نوبة الوردية الثانية، وإذا بأصوات جديدة عديدة وعفية ترج الجدران!!

رواية

الرّحلة

"٣"

فكري الخولي

إهداءِ

إلى الذين غابوا عنا وما زالوا يعيشون بيننا..

وإلى الذين ما زالوا يساعدون على استمرار الرحلة واستمرار المسيرة إلى أن تنتصر.

فكري الخولي

اجتماع

خرجت من العنبر بعد أن سلمت مكني متمنيًا أن أصل للبيت لأستريح من عناء العمل، بينما كان الولد الغريب والولد السيد الصفتي يسيران بجانبي يطيران فرحًا، قائلين:

- خلاص. استلمنا المكن ومابقاش حد أحسن من حد.

وعاد الولد السيد الصفطي قائلاً:

- كل مكنة جابت ٨٠ بنط.

وقال الولد الغريب:

- المكنتين بتوعي جابوا ١٥٠ بنط. يعني كل مكنة جابت ٧٥.

واسترسل قائلاً:

مكن تعبان.. طول النهار بيقطع فتل. أخلص من مكنة ألاقي التانية مقطعة!

عاد وسألني:

- مش أحسن من اليومية؟

قلت:

- أحسن.

قال: انت أول ما اشتغلت كنت بتجيب كام؟

قلت:

- مكنة كانت بتجيب ٩٠ ومكنة بتجيب ٩٥.
- على طول؟
- في أغلب الأحيان.
- يعني إحنا مش حنقبض؟!!
- ليه؟!.. دا أول يوم.. بكرة إيدك تاخد، تاخد على الشغل.
- انت قبضت خمسه وخمسين قرش أول مرة.. أما احنا.. حنقبض كام؟
- كل ما تجدعنتم كل ما قبضتم أحسن.

فعاد الولد السيد الصفتي قائلاً:

- بقى اليومية مش كانت أحسن لنا؟!

فرد الولد الغريب:

- يومية إيه؟!.. ما تسيبك.. هو احنا حنفضل كدة؟!

قلت:

- لازم تتجدعنوا لحسن بكرة يشغلوكم على أربعات.

فهز الولد الغريب رأسه وهو يردد:

- فال الله ولا فالك.. الواحد مش عارف يقيم وسطه..

دانا الأول كنت فاكر إن الشغل على المكن سهل.

- علشان تعرفوا إن الله حق!

- دلوقت بس أنا عرفت.. الله يكون في عون اللي بيشتغل على أربع ماكينات.. الواحد اتخيل من البص ورا المكن.. الواقف على أربعه يتعمي.

فرد الولد الغريب قائلاً:

- الواحد قلبه انقطع من شفط المواكيك!

قلت:

- قلبكم انقطع من الشغل على ماكينتين.. أمال أنا أعمل إيه؟!

وقال الولد السيد:

- نفسك انسدت، وأديك ماشي تنهج.

وعاد قائلاً: أنا دلوقت بس عرفت إنها شغلانة تقصر العمر.

وبينما كنا نتحدث، وإذا بصوت يزعق.. كان صوت عبد العظيم، فاتجهت نحوه، وإذا به مع آخرين، مستندين بظهورهم إلى جدار بواجير الحلاجة القريبة من المصنع، واقفين في جانب مظلم.

استطعت أن أراهم بصعوبة، فحياني بيده المطبقة على السبحة، وقدمني للآخرين قائلاً:

- هو ده اللي وقف المكن يوم ما طالبنا بالزيادة.

فهز كل منهم رأسه ومدَّ إليَّ الآخرون أيديهم، فعاد عبد العظيم قائلاً:

- انت كنت فين لحد دلوقت؟

- كنت باسلم المكن.. سلمته لزميلي.

- عملت إيه النهاردة؟ عملت إيه في الشغل على أربعة ماكينات؟

- شغلتهم.
- جبت كام؟ كام بنط؟
- كل مكنة.. جابت خمسة وتمانين.
- يعني يبقى كل المكن جاب كام؟

فرد أحد الواقفين:

- يبقوا كلهم جابوا ٣٤٠ بنط.

وعاد وقاطعه أحد الواقفين:

- خبر إيه؟ هو إحنا حنقعد نتكلم في السكة.. ماتياللـــه.. الناس زمانهم منتظرينا.

وعاد عبد العظيم وأمسكه من كوعه، وهمس في أذنه:

- ابقى اتكلم الكلام ده هناك.. هناك ناس كتير حانتكلم معاهم.

وعاد عبد العظيم وقال:

- تعالى ويانا.
- فين؟
- تعالى وبس.
- بس إزاي!.. مش لازم أعرف.. لازم نعرف إحنا رايحين فين!!

فرد أحد الواقفين:

- شيء لمصلحتك.
- أنا تعبان.

فعاد عبد العظيم وقال:

- تعالى لما نشوف.. ما نشوفهم عايزينا ليه.. دانا قلت لهم عليك وما رضـــيتش أروح وياهم إلا لما آخدك ويايا..

كان يتكلم والولد الغريب والولد السيد الصفطي يغمزان لي، ولكنني لا أبالي بغمزهمـــا، وتلفت لهما قائلاً:

- ما تيجيوا بنا يا أولاد!

وإذا بهما يقولان:

- لا .. لا .. إحنا تعبانين. تعالى نروّح.

قالوها في غضب. وترددت لحظة، ولكن لرغبتي في معرفة ما سيحدث قلت لهم:

- روحوا انتم على بال ما آجي!

فعاد الولد الغريب قائلاً:

- نروح ازاي!.. نروح ونسيبك؟.. نسيبك تيجي لوحدك.. البيت بتاعنا ضلمة.

وعاد الولد السيد قائلاً:

- خلاص. نستنى لما نروح سوا.. مش معقول حنسيبك تيجي لوحدك.. اللي يجرى عليك يجرى علينا.

فهز عبد العظيم رأسه وهو يردد:

- فيكم الخير والله يا ولاد!

وسار عبد العظيم في المقدمة مع من كان بجواره، وبدءوا يدخلون منعطفًا ويخرجون من آخر، وكانت رائحة نتنة تنبعث من أكوام الزبالة بجوار المنازل القصيرة، وشوارعها المبتلة من كثرة ما قذف من المنازل من مياه جعلت المنعطفات كالبرك، وقال أحد العمال:

- انتم رايحين فين؟.. مفيش حتة تانية؟.. مفيش شارع تاني نروح فيه؟ إيه الشوارع المطينة دي!!

ياللا نرجع.. ياللا نشوف حتة نور.. ياللا يا جدع انت وهوه!

فرد آخر:

- مفيش حتة تانية غير دي.

فزعق آخر:

- عالم ببواطن الأمور!.. مشي يا عم. أهي ليلة.. لما نشوف الحاجات الكويسة اللي انتم عمالين تقولوا لنا عليها إياك نلاقي السعد!

وتقدمنا الخطى في الظلام. وفي مكان قريب من المصنع دخلت العمال دخلت العطفة. وبجوار أحد المنازل توقف العمال، وخبط أحدهم على الشباك، ودخلنا إحدى الحجر، وقبل أن نجلس مال على أذني عبد العظيم قائلاً:

- ما تتكلمش.. إوعى تتلامض لما نشوف حايحصل إيه.

قلت:

- هوه انت مانتاش عارف؟

- لا.

ودخلنا حجرة لم يكن بها شيء سوى قفف كثيرة بعضها بجوار بعض، وحصير مفروشة في الأركان، ولمبة جاز على الرف عبأت الحجرة بالدخان.

لم نستمر في الجلوس طويلاً حتى دخل علينا آخرون، وجلس كل منهم في مكان في أحد الأركان المبتلة من آثار نشع على الجدران، وكان من بين الذين دخلوا ثلاثة لم يسبق لي رؤيتهم. أحدهم بجلباب صوف كحلي ولاسة وحرير بيضاء والثاني ببنطلون أزرق به بقع كثيرة من زيوت المكن وحذاء غليظ أسمر له رقبة سوداء شبيه بما تلبسه العساكر.

وازدحمت الحجرة، ولم يبق فيها مكان لقدم، واصطف آخرون خلف الباب. وقال أحد العمال:

- ياللا خلصونا.. الواحد بطنه سقطت من الجوع!.. ياللا علشان نلحق نشتري حاجة لنا قبل الدكاكين ما تسك.

وقال آخر:

- إحنا جايين ليه؟

ورد ذو اللاسة الحرير البيضاء:

- ماحدش قال لكم؟

- لا.. ما حدش قال لنا.. ما نشعرش إلا واحنا جايين.. كل ما سمعناه إن فيه حاجات حاتسمعوها.. حاجات كويسة".

وانحنى ذو البنطلون الأزرق، وعاد وركز على إحدى قدميه واضعًا طرف أصابعه على فمه، وعاد ووضعها على ذقنه، واتجهت الأنظار، اتجهت كلها نحوه، وخاصة عندما قال: اسمعوا يا جماعة.!

وإذا بالحجرة كلها تنصت، ومالوا بآذانهم نحوه.

وعاد وأشعل سيجارة ووضعها بين أصابعه المرتعشة، وبدأ يقول في صوت هادئ:

- انتم عارفين.. عارفين الشركة بدأت إزاي؟.. بدأت بحوالي ٣ آلاف عامل.. بدأت بطرقة واحدة، طرقة نسيج واحدة، وغزل وسحب وبرم وكرد وتنظيف.. حوالي أربعة ماكينات طباعة وماكينتين للتبييض وديزل صغير. دي الشركة عند بدء العمل. النهاردة بقت أد إيه؟ بقت أد إيه بعد خمس سنوات والسادسة اللي احنا ماشيين فيها دلوقت؟ فيها كام طرقة دلوقت؟.. طرقة نمرة واحد وطرقة نمرة اتنين وطرقة تلاتة وطرقة أربعة.. أربع طرقات.. علاوة على ذلك، ديزل ضخم يشغل كل تلك الطرق.. وورشة خراطة وبرادة ليس لها مثيل في مصر، وأيضًا مكن الطباعة والصباغة ازداد أضعاف أضعاف ما كان عليه من قبل..

واليوم لو حسبنا حنلاقي عدد العمال بس النهاردة حوالي سبعتاشر ألف عامل.. ولسة عنابر أخرى جديدة!!

قال ذلك وسكت، وأشعل سيجارة. وتطلعت الأنظار إليه وهو يقول:

- هية دي الشركة!!

قالها بنفس الهدوء وعاد وتطلع إلى اليمين وإلى اليسار، وأطبق إحدى يديه وأغمض إحدى عينيه، وقال في صوت رن في الحجرة:

- هية دي الشركة!!.. زادت وكبرت. إزاي كبرت؟

تشغيل العمال ببلاش في بداية عهدها!!

.. وعندما بدأت العمال تهرب عادت وأعطت لكل عمال الغزل قرش صاغ واحد في اليوم!!.. أعطتهم بعد سنة بدون أجر.. ما عدا عمال النسيج.. خمسة تعريفة.. هية دي الشركة!!!.. كبرت على أشلاء أعداد من العمال اللي كل يوم بتهرسهم عجلات المكن. وتخطفهم السيور دون أن تدفع لهم الشركة "مليم واحد" من التعويض.. يموت العامل كالكلب اللي ملهوش صاحب..

وتململت العمال وتزحزحت عندما قال ذلك، ولكن عيونهم لم تتزحزح من الاتجاه نحوه، وعاد وانتفض وهم واقفًا، ودس يده اليمنى في جيب بنطلونه الأزرق، وجز على أسنانه، وعاد بنفس الصوت الهادئ بعد أن قذف بدخان سيجارته في الهواء:

- حد شاف المستشفى؟! حد شاف اللي شوههم المكن؟!.. حد شاف المرضى بالسل؟!.. اللي بيطفحوا الدم هناك؟!.. عنبر بحاله امتلأ، وكل يوم بيزيد!!.. احنا نموت ونشوه.. ومباني تقام، ومداخن ترتفع، ودخان يتصاعد.. يتصاعد عاليًا!!

ولوح بيده وهو يقول بصوت عال:

.. حنستنى كدة لإمتى؟! حنستنى عشرين وتلاتين في حجرة؟!.. حنستنى فريسة للمرض؟!.. الوباء انتشر في المحلة.. انتشر فيها كلها.. مفيش بيت إلا وفيه سل من كترة المتكدسين في السكن.. قولوا!.. اتكلم انت وهو!.. بعد ما كان العامل واقف على مكنتين وقفوه على أربعة!!.. كل واحد عارف بيجيب كام بنط؟!.. كل واحد عارف بيجيب كام متر من الأقمشة في اليوم؟!.. لو الواحد منكم عرف ما كانش سكت.. سكت لغاية دلوقت.. حسبة بسيطة لو عملناها حنلاقي العامل الواقف على أربعة ماكينات بيجيب في الاتناشر ساعة حوالي مية وعشرين متر.. بياخد عليهم كام؟!.. بياخد خمسة قروش صاغ!!.. تمن مترين منهم بيشتريهم، والباقي مية وتمنتاشر متر.. كل ده داخل في جيوبهم.. جيوبهم همّه!!..

ويا ريت حتى بيسيبونا في حالنا.. كل يوم الغرامات بتزيد!!.. اللي بيعطوه لنا باليمين بياخدوه منا بالشمال.. ما يهمهمش حاجة. ناكل.. ما ناكلش.. نتعرى.. القمل يعشش في هدومنا.. عيالنا تموت ما نلاقيش كفن.. كل ده ما يهمهمش!!.. وفيه ناس بيقولوا لنا اصبروا!.. نصبر لحد إمتى؟!!.. الصبر حرق الدكان!

وعاد وزعق بصوت عالٍ رج الحجرة:

.. ميّة وعشرين متر في اليوم، ومع هذا نمشي عرايا!! الواحد منا عريان.. هدومنا مقطعة.. ليه؟؟ لأن مفيش معانا فلوس حانجيبها منين؟؟ مش حانجيبها واحنا قاعدين كدة، واحنا قاعدين نبص لبعض..

وقاطعه أحد العمال:

- الكلام ده إحنا عارفينه. عارفينه من طأطأ لسلام عليكم.. نعمل إيه؟؟..

قولوا لنا يا متعلمين. قولوا لنا إيه اللي نعمله؟؟

قال ذلك في غضب وعاد ووضع يده على خده في انتظار الإجابة. وعاد ذو البنطلون الأزرق قائلاً:

- نعمل إيه؟ نعمل إيه؟! نعمل كل حاجة.. إحنا ما بقناش لوحدنا، معانا ناس تانية.. ناس كبار جدًّا.. ناس من مصر.. ناس تقول للشيء كن فيكون!!

فرد أحد العمال:

- ده يبقى ربنا.. مفيش غيره!!

ورد ذو البنطلون الأزرق:

- ربنا له رسل.. كل واحد منا رسول الله في الأرض.. يرشد فلان وينهي فلان.

ورد آخر:

- أمال ليه مافيش حد بينهي الظلمة؟!

ورد آخر:

- ماهو ربنا راح يجيب ما هو أقوى.

وعاد ذو البنطلون الأزرق:

- ماهو اللي راح يجيبلنا واحد من اللي ربنا باعتهم لنا.. جاي لنا عباس حليم.

فرد آخر:

- مين جابه؟! حد راح له؟!

فرد ذو البنطلون الأزرق:

– أيوه.. ناس جايباه.. ناس من مصر وناس من هنا.. قالوا له علـى الظلـم، وهـو جاي.. جاي علشانا.. واحنا ماجيناش إلا عشان كده.. جينا نقول لكم: علـشان أنـتم كمـان تتكلموا. قال ذلك وسكت. وساد الحجرة صمت، وعلت الفرحة الوجوه، وإذا بصوت يرتفع:

– إحنا ما جيناش النهارده إلا علشان كدة.. كل واحد فيكم يتكلم مع الآخرين.

وإذا بصوت آخر يقول:

– هو حايعمل إيه مع الظلمة؟!

فرد ذو البنطلون الأزرق:

– بالكرباج !!.. بالكرباج حايضربهم.. حانشوفهم وهم متكتفين، متكتفين بالأحبال!!

وازدادت وجوه العمال احمرارًا، ومالوا بعضهم على بعض قائلين:

– يا سلام..!! حايكتفهم..!! بالكرباج.؟. جاء اليوم اللي حانشوفهم متكتفين فيه بالحبل.. حانشوفهم وهم ماشيين زي القرود!!.. حانشوف عباس حليم وهو بيقول لهم: عجين العجـوزة إزاي!!

وانتهى الحديث، وأشرقت الوجوه بالبسمات.

وعاد وقال ذو الجلباب الجبردين المخطط:

– بكرة.. بكرة حاتشوفوا عباس حليم.. حاتشوفوه على الـشوارع.. حاتـشوفوه فـي الصور!!

وعندما سمعت ذلك تذكرت ما سمعته في القهوة من أيام، وسألت صـاحب البنطلـون الأزرق متلهفًا:

– امتى عباس حليم جاي؟؟.. امتى جاي؟ وحانشوفه؟؟! حانشوفه ماسك الكرباج؟!!

قلتها متلهفًا: امتى يجي اليوم؟!!

وإذ به يقول:

– قريب.. قريب خالص.. يوم الأحد.. يوم الأحد القادم..

وخرجنا من الحجرة وفي ذهن كل منا رسمت صور عديدة.. في خيالي تصورت عباس حليم الآتي من مصر.. إنه رجل لا تسعه بوابة المصنع.. تصورت إنـه تخـين جـدًا، كمـا تصورت شنبه المبروم الذي تقف عليه الصقور!! وتصورته وهـو واقـف ماسـك كربـاج، كرباجه الطويل الملفوف عليه أسلاك من النحاس الأصفر، وهو مفرود على الأرض استعدادًا

لضرب الرءوساء، وخاصة بعد ما سمعت اليوم ما سمعته في القهوة من عبد العظيم: "اللي له ضهر ما ينضربش على إيده".

فرد عبد العظيم:

- تقصد إيه؟

- أقصد الشركة.

- مانتاش مصدق يعني واللا إيه؟

- مصدق قوي.. بكرة تشوف.. حاتشوف الرءوساء وهي متكتفة.. بكرة المية تكدب الغطاس.. بلاش غرور.. وعاد وطبطب على كتفي:

- اسمع من هنا وفوت من هنا. الواحد بيسمع الكلام ده.. كلام يخلي البحر طحينة.

وإذا بصوت يرن من الخلف قائلاً:

- خلاص.. بكرة حاتشوفهم.. حاتشوفهم زي القرود في الشارع.. واحنا بنجري وراهم وهم مربوطين بالحبل.

أصوات وأصوات على طول الطريق.. عباس حليم جاي.. بكرة جاي.

فرد آخر قائلاً:

- طبعًا. طبعًا حايضربهم.

وعاد آخر:

- حايضربهم لوحده؟؟ حايضربهم ازاي؟! أمال احنا حنعمل إيه؟؟

فرد آخر:

- حنتفرج.. هو احنا نقدر نعمل حاجة؟.

- أيوه يا أخي نعمل كل حاجة.. ما نعملش ازاي؟ هو جاي إلا علشاننا قال هيعمل نقابة.

- لمين؟

- هايعمل نقابة للعمال كلهم.

فقال آخر:

- طيب يا عم ما تزعلش.. انت زعلان ليه؟ بكرة المية تكدب الغطاس. ورنت هذه الكلمات في أذني، وملت على عبد العظيم قائلاً:

- ماهو صحيح. حايضربهم إزاي؟

فرد عبد العظيم:

- هو انت زعلان ليه؟ هو انت مش سمعت؟ كل الناس بتقول إنه جاي.. جاي علشانهم.. إحنا مش حيبقى لنا دعوة.. حانقف نتفرج عليهم.

قلت:

- وحنقف نتفرج ازاي يا عبد العظيم؟ داكه الساعة مش حتيجي الطوبة إلا في المعطوبة.. هوه يضربهم برة، ويرجعوا هم يضربونا جوة.

فعاد قائلاً:

- ما احنا كلنا حنروح النقابة.

قلت:

- وهية النقابة دي هتاخد كل العمال؟

قال:

- طبعًا. تاخد كل العمال. نقابة كبيرة.. هوه واحد زي ده قريب الملك وحاييجي ياخد أودة صغيرة. ده حييجي ياخد بيت كبير يساعنا كلنا. ووقتها اللي يعمله ربنا هوه اللي يكون.

وتوقف عن السير تجاه ناحية شارع البهلوان وعاد قائلاً:

- الدنيا دلوقت نور. تقدروا دلوقت تروّحوا. وأنا حارجع لأني تعبان وبكره حنتقابل.

عباس حليم في المحلة

ونحن في الطريق إلى المنزل لم يكن يشغل ذهني شـــيء ســوى مـــا ســـمعته اليـــوم وما سمعته منذ أيام، يوم أن كنت في القهوة من أحاديث حول عباس حليم. وفكــرت: الكــل يتحدث أنه منقذ، وإن الذين يتحدثون هم من الميكانيكية الجدد. هم الذين كانوا يتحـــدثون فـــي القهوة، وهم أيضًا من تحدثوا اليوم. إنهم بلا شك متعلمون. وتذكرت ما قالته لـــي: "عـــايزاك تتعلم".. تذكرت هذه الكلمة، وقلت في نفسي: لو سمعت كلامها وتعلمت لكنــت الآن مـــثلهم، أتكلم كما يتكلمون وأعرف مثل ما يعرفون. ها أنا الآن أسمع منهم ما كان فـــي الإمكـــان أن أقوله لو تعلمت. وعدت وسألت نفسي: أكان في الإمكان أن أتعلم مثلهم لو أن أبي قد عـــاش؟ ولكنه مات بعد ولادتي بشهرين أو ثلاثة ولم يترك لنا مليمًا واحدًا. وحتى أمي قـــد اســـتدانت ما كفنته به.

صحيح أن أمي حاولت أن تعمل بالوصية، حاولت أن تعلمني حتى ولو فك الخط. ولكن أكان من الممكن أن أكون مثل هؤلاء؟ طبعًا لا.. لأنهم قد تعلموا في المـــدارس، والمـــدارس عايزة فلوس، وكما قالت النيابة في محاكمة الذي قتل الرئيس الظالم إنها الصفوة المختارة التي قد تعلمت من خلال العرق والدم، وكانت تقصد النيابة دم أهاليهم. تذكرت هـــذا وقلـــت فـــي نفسي: لولا إن لهؤلاء أهل لم يكن من الممكن أن يتعلموا.

وعدت وتذكرت ما كنت أسمعه من أبي: ما لم تعلمهم الأهل ســوف تعلمهـــم الأيـــام والليالي. وها أنا الآن أتعلم من تلك الأيام، أتعلم من خلال كلمة هنا وكلمة هناك. أتعلـــم مـــن خلال انتباهاتي لكل ما يقال.. وقلت في نفسي: لو استمريت على تلك الانتباهات سوف أتعلـــم وأعوض نفسي عما فاتني. أتعلم من خلال حياتي، وعدت وقلت في نفسي: إن الميكانيكية هـــم الذين يتكلمون عن عباس حليم، ولكنهم لم يتكلموا عن العمال وما يمكن أن يعملوه. يقولون إن عباس حليم حايضرب بالكبراج.. حايضرب الرءوساء. وإذا كان هو سيفعل ذلك فلم يتكلمـــون عن النقابة؟!

إنهم يقولون لنا: تكلموا مع العمال. ولم يقولوا لنا ما ستفعله العمـــال قـــدر مـــا قـــالوا ما سيفعله عباس حليم.. أسئلة عديدة محيرة.. ثم عدت وقلت في نفسي: يوم أن تكلمـــت مـــع عمال النسيج عن الزيادة لم يكن في ذهني ولا في ذهن أحد من العمال ما ســـيفعل ســـوى أن عمال المحلة قد توقفوا عن العمل، وأن الشركة قد فصلت معظم من توقفوا، وما قيل مـــن أن أهالي المحلة قد توقفوا وحدهم دون العمال.. قيل يومها هذا.. كما قيل إننا لو توقفنا جميعًـــا،

ووقفنا كل المكن لأخذنا كل ما طلبناه.. قيل هذا يومها أيضًا ولم نكن قد اتفقنا على من يتقـدم بعملية توقيف المكن، يومها وقفنا حائرين.. لولا أنني قد أوقفته.. أوقفته، ولم أكـن أظـن أن أحدًا من العمال سوف يتبعني، لم أكن أظن هذا لأنني قد شعرت بأن صغر سني يحـول دون ذلك، ولكن حدث غير ما توقعت. وتوقف كل المكن لأن العمال كانت لها في ذلك مـصلحة. لم لا يقال إن العمال ممكن أن تعمل ويكون لها شأن.. لم لا يذكرونهم؟ لم يقال إن عباس حليم وحده هو الذي يفعل وسيفعل.. نفس الأسئلة التي سبق أن حيرتني.. وأخيرًا قلت في نفـسي، متذكرًا ما كنت أسمعه من عديدين في قريتي: يا خبر بفلوس.. بكرة يبقى بلاش، وعلى إيـه؟ مافيش حد فاضل غيره نشتكي له، وما دام الناس بتقول إنه منقذ العمال، أهو بكرة يوم الأحـد جاي، وحنبقى نقعد جنب الحيط ونسمع الزيط.. كلام سمعته من أمي.

وكنا قد وصلنا إلى المنزل، وعندما دخلت الحجرة لم أتمالك نفسي من كثرة التعب، كما لم يتمالك الولد الغريب ولا الولد السيد الصفتي أنفسهم، ففرشـنا الحـصيرة دون أن تكـنس الحجرة. كما لم يتمالك أحد منا أن يذهب لشراء فول مدمس من الـدكان، فاكتفينـا بالعـشاء ببعض قطع المخلل الموجودة بالحجرة، وبعدها أمال الولد الغريب والولـد الـسيد الـصفتي رأسيهما إلى الحائط ولم تمر لحظة إلا وقد ناما. ولم أشعر إلا بعـد أن سـمعت شـخيرهما، فهممت لغلق الحجرة، وأخذت مكاني بينهما.. وإذا بالحجرة تنفتح ببطء شديد وهالني المنظر. كانت واقفة على أطراف أصابعها وملاءتها السوداء مدلاة على كتفها العاري من الأكمام.

ولم تتحمل عيناي المنظر، فكان جسمها شبه عارٍ عدا قميص نوم شفاف بـلا أكمـام، وشعرها منكوش ومدلى على جبينها. فأحنيت رأسي في الأرض، بينما كانت هي تطل برأسها في الحجرة لترى ما بداخلها، فسمعت الشخير المنبعث، وعادت وأطلت برأسها نحو السلم، ثم عادت بعد أن اطمأنت وأمسكت بالباب ودفعت به في تباطؤ لكي لا يحدث ضجيجًا أو أزيـزًا يوقظ النائمين، ودفعت بنفسها إلى الداخل، وعادت وردت الباب خلفها وألصقت نفسها خلفـه، وهالني المنظر.. جسمها.. سيقانها العارية حافية القدمين.. كان كل ما بها ينتفض، وصـدرها يعلو ويهبط.

اعتقدت بعدها أنها جاءت غاضبة، أو أن أحدًا يجري خلفها لأن منظرها كـان يـوحي بذلك، ووقفت قبالها مشتت الفكر غير قادر على الوقوف من كثرة ما بجسدي من الانتفاض أنا الآخر. فحاولت إبعاد عيني عن التطلع نحوها. ولكن عيني لم تهاودني، كالتي تقول: اتركنـي أشبع من هذا الجسد، اتركني أغوص في كل ما فيه من جمال. لماذا تحرمنـي؟ لـم تحنـي الرأس؟ إنها جاءت كاشفة عن كل ما بها.. لكي تشبعني أنا. تعوضني عن البص في الحديـد. حديد المكن وشحومه السوداء. تقوم أنت وتمنعني؟!! ادفع بي نحوها لأستمتع.

ولم أستطع المقاومة، ووقفت أمامها وعيناي قد تصلّبتا على وجهها الشاحب، ووقفنا قبال بعض وعين كل منا في عين الآخر دون أن ينبس بكلمة وتحركت قدماي، تحركت ببطء نحوها. وتذكرت ما سمعته من عبد العظيم.. إذا وجدت امرأة مع شاب كان الشيطان ثالثهما.

استغفرت الله، وقرأت سورة الفاتحة، وعدت وقرأت سورة قل أعوذ برب الناس. قرأت هذا سريعًا محاولاً أن أمنع نفسي من التحرك نحوها، ولكن هذا كله لم يمنع جسدي من الحركة ولا من الانتفاضات الشديدة.

فاتجهت مدفوعًا دون إرادة مني، وارتفعت يداي لتلمس جسدها. وفجأة توقفت بالقرب منها محاولاً أن أكلمها، أن أسأل ما بها، ما أدخلها هكذا عارية.

ورفعت أصابعها على فمها قائلة: هس!! هس!! هس!! فآثرت الصمت وعدت واستغفرت الله، وقرأت، وقرأت ولكن كان هناك شيء خفي أقوى من القراءة. شيء لم أتبينه دفعني دفعًا نحوها، وإذا بيدي تمتد، وتمتد بثقل شديد رغم كل ما بذلته من جهد لمنع يدي من الاقتراب منها، وأطبقت بقوة على ذراعها العاري، ووقفت أنتفض قبالها وعيناي تحملقان بكل ما بها. حاولت هي أن تنزع يديّ وقد ماتا على يديها، فعادت وضمتني نحوها، وجلست على الأرض وهي تهمس:

- انت كنت فين؟ كنت فين لحد دلوقت؟
- كنت في الشغل.
- في الشغل؟! في الشغل لحد دلوقت؟!
- أيوه.
- أنا حلمت وأنا نائمة إنك بتجري والناس بتجري وراك.

فقمت مفزوعة من النوم ونزلت أجري علشانك.

وعادت قائلة:

.. من أول الليل وأنا رايحة جاية على الأودو ما لقتش فيها حد.

كانت بتتكلم وصدرها يعلو ويهبط، وعيناها تتسعان، وعادت وقبلتني، ورفعت يدها، وعادت بأطراف أصابعها لترفع خصلات شعر نزلت على جبيني، وعادت قائلة:

- شعرك ملبد ليه؟ شعرك كان ناعم. هوه مليان قطن من إيه؟
- من الشغل.
- ماتسرّحوش؟

– أسرّحه إيه؟! هوه أنا مالك.. دانا باصحى من الفجر ويدوب باعقد الرغيفين وباطلع جري.

– هوه المصنع مافهوش مية؟

– مية فين.. دول قافلين الدورة.. لا تفتح إلا نصف ساعة في اليـوم، وكلنـا بنطلـع شعرنا منكوش.

– يا خرابي! أمال بتعملوا إيه طول النهار؟!

فخجلت أن أجيبها.

وضمتني بذراعها، وتنهدت ومالت بخدها على وجهي، فأحسست بدفء ينبعـث منهـا، ولم أتدارك بعدها نفسي وكأن جسمي قد مسه ماس كهربائي، فانتفضت انتفاضة شديدة.. نسيت السور التي كنت أقرؤها، واستجمعت شجاعتي وعزمت أن أفرد أذرعتـي وأحتـضنها مـن وسطها، ولكن شيء ما قد منعني. وتجسمت أمامي صور عديدة، صور متلاحقة.. صورة عبد العظيم وهو جالس بجوار عامود النور على البحر ويده مقبوضة على جبهته والدموع تـسيل من عينيه وهو يردد: "إيدي.. إيدي داهية.. إيدي اللي راح ياكلها الدود، هي اللي جرجرتها.. جرجرتها بالقوة". وتذكرت عندما حاول أن ينطح رأسه في العامود وهو يقول: "بـاكفر عـن ذنوبي".

عندما تصورت هذا شعرت بجسدي يتراخى ويتراخى، كما تجـسدت أمـامي صـورة زوجها المريض وهو يسعل على الكنبة يوم أن كنت معزومًا عندها، تصورته وهـو يقـول: "اتفضل. اتفضل كل".. تجسدت صورته أمامي وهو يسعل ويواصل سعاله، وإذ بي أشعر بأن جسدي كأنه دلق عليه صفيحة ماء باردة، فوجدت نفسي أنسحب، أنسحب في هدوء وهي تدفع بي نحوها وأنا أدفع بنفسي بعيدًا، بعيدًا عنها، وهي تعود وتجذبني مـن قـدمي، وكـادت أن تحدف بنفسها فوقي بعد أن تكوم قميصها إلى ما فوق فخذيها، وكدت أن أعـود، وإذا بالولـد الغريب يقوم مفزوعًا وهو يصرخ صرخات متتالية وهو يردد:

– فين.. فين.. فين الحرامي؟؟

وتطلع ذات اليمين وذات اليسار، وإذ بها تسرع تلف نفسها في الملاية وهي تنظر نحوه بعينين يملأهما الغيظ، وهمت واقفه تنظر وتنظر نحوه دون أن تنبس بكلمة كالمتـسائلة: هـو شافنا؟ هوه بيعمل كدة ليه؟ بيصرخ ليه؟ هوه عاوز يجيب الناس مـن بـرة؟ لجـل.. اللـي ما شافش يشوف. ولكنها اطمأنت عندما عاد ونام مرة أخرى. وتطلعت لي، فلمحت من خلال تطلعها، عينيها وهي مغرغرة بالدموع، فجذبتني نحوها مرة أخرى، وضمتني في تردد:

- ماتبقاش تتأخر برة.. أنا باقلق علشانكم.

قالت هذا وسكتت، وكانت عيناها قد تساقطت منها الدموع، وخرجت من الحجرة وهـي تمسحها بطرف ملاءتها..

وعدت وعدلت الولد الغريب والولد السيد الصفتي من نومتهما المتعبة، وأخذت مكـاني بينهما وحاولت أن أتذكر ما حدث وإذ بجسدي يعود ويتحرك عندما تجسدت صورتها أمامي: فاستعذت بالله ونمت بعدها هادئ الأعصاب.

وفي الصباح اتجهت للعمل، ولم يكن في ذهني سوى ما أراه على الجدران من صـور، وعلى طول الطريق لم يغمض لي جفن عن التطلع في الأركان، وإذا بي أجـد العمـال هـي الأخرى تتطلع ذات اليمين وذات اليسار. فأيقنت أنهم الآخرون يتطلعون لما أتطلع إليه قـائلاً لنفسي: "لا بد أنهم قد عرفوا".

وبالقرب من البوستة كانت ناس كثيرة واقفة، ناس ترش الملح مـا ينـزلش وآخـرون يندفعون مهرولين من أماكن مختلفة، وكل منهم وضع ذيله في أسـنانه فأسـرعت الخطـى، وهناك وجدت صورة ضخمة، صورة بعرض الحائط والجميع يتفرجـون، والـصور لرجـل واقف، مشمر أذرعته، وفي يده كرباج طويل جدًّا وإذا بأصوات عديدة تردد:

- هوه ده.. هوه ده اللي جاي يوم الأحد.

ومنهم من يقول:

- شايف الكرباج! شايف يا واد أنت وهوه! كرباج لسوع جنتهم.

أصوات. أصوات. وشخصت الأعين في الاتجاه نحو الصورة، وإذا بصوت آخر:

- صور قدام. صورة تانية على الجدران من هنا لحد المصنع.. وبينما نحن نتحـدث وإذ بأتومبيل يتوقف وسط تلك الحشود.

واندفع منه اثنان.. واحد منهم لابس بدلة وعلى رأسه طربوش أحمر غامق، وأخرج من الأتومبيل رزمًا متعددة، وكانت هذه الرزم عبارة عن صور لعباس حليم في مواضع مختلفة.

وفي سرعة وزعت في الحال والثمن ثلاثة مليمات للصورة، ولم يكتـف الواحـد مـن العمال بصورة واحدة، بل اشترى كل منهم أكثر من واحدة، واشتريت ثلاثة صور. صـورة وهو واقف بجوار حصان أسمر، وأخرى وهو راكب أتومبيل ويطل برأسه من الشباك، وثالثة وهو مشمر عن ذراعيه ولافف الكرباج على ذراعه. وكانت هناك صور أخرى عديدة تبـاع كنت أود شراءها لو كان معي نقود أكثر.

وعلى طول الطريق كانت العمال، كل العمال، تحمل الصور، لم تكن يـد خاليـة مـن صورة، وكل منهم يتفرج وآخر يقول: بتاعتي أحسن، وآخرون يسألون اشتريتوها منين؟.. من شارع البهلوان. وآخر يقول: من شارع الحنفي.. هناك صور كثيـرة.. اشـترينا علـى قـد ما معانا، وبكرة هنشتري ونعلقها في الأودة. وآخر يقول: حاعلقها قـدامي، وآخـر يقـول: حاعلقها فوق رأسي والجميع يرددون: هو ده.. هو ده اللي حينقذنا.. وكل منا دخل إلى العمل وفي ذهنه أنه يحمل عباس حليم الحي لا عباس حليم الذي على الورق.

واجتاحتني رغبة ملحة أن أعلق تلك الصور.. أعلقها أمامي على المكن خوفًا مـن أن توضع تحت المكن وتبتل بالزيوت. ولم أتردد فعلقت كل صورة على ماكينة بجوار الـورق، وإذا بي أجد العمال تفعل مثلما فعلت. فبان العنبر كله عبارة عن صور ترتفع وتنخفض حسب الورق، وعمال تعدو من هنا وعمال تعدو من هناك ليتفرجوا.

وإذا بالمباشرين والمساعدين وبعض من الرءوساء يعدون هم الآخرون في الاتجاه نحو الصور. وكان البعض ينظرون لها وهي معلقة وشفاههم تتحرك بكلمـات ليـست مـسموعة، والبعض الآخر اكتفى بلمها وأعطاها للعمال ثانية.. أعطوها لهم خلسة.. وكانوا من الميكانيكية الجدد، وقد فهم من خلال تصرفهم هذا أنهم لا بد أن يكونوا مشتركين، أو على علم بمـا قـد يحدث يوم الأحد القادم.. يوم أن يأتي عباس حليم.

ومع أن الرءوساء قد مزقت الصور، إلا أن ما تبقى كان أكثر، وبين الحـين والحـين كانت العمال تخرج من تحت مناديل الأكل الصور، وتقف أمامها متأملـه ورءوسـهم تهتـز إعجابًا كلما نظروا للكرباج الملفوف على يده، ويعودون ويتطلعون للرءوساء ممـن قطعـوا الصور.. ويتمتمون بكلمات، وكانت نظراتهم باديًا فيها الحقد..

كان العنبر كله شبيهًا بخلايا النحل.. خلايا النحل الهائج، والمكن يتحرك والسيور تهتز، والرءوساء تعدو من هنا وآخرون يعدون من هناك، وعمال تقف وأيديهم على الفرامل رافعين رءوسهم في انتظار ما قد يحدث من الرءوساء.

واقترب مني أحد الميكانيكية الجدد، ممن عينوا أخيرًا، ملوحًا بيده وعندما وقفت بجواره قال لي وهو يركن ذراعيه على أحد أجناب المكن:

- هه.. انت زي الناس دول؟

قلت:

- ناس مين؟

- مانتاش عارف؟

- لا.

- هه.. الناس اللي اشترت الصور وعلقتها على المكن؟

فتأكدت أنه يمتحنني، وخاصة أنني قد علقت الصور وهو لا بد قد رآني قبل أن أشيلها، وهو لم يأت إلا ليمتحن قوتي ويعرف ما إذا كنت خائفًا أم لا.

وترددت لحظة قائلاً لنفسي: أقول إيه؟ أكذب؟ لا.. يمكن يقول أنا شفتها، وشفتها متعلقة.. أبقى أودي وشي فين!! أعمل إيه لو حط إيده تحت المكن وطلع الصور.. فأسرعت قائلاً:

- أيوه.. أيوه.. أنا اشتريت، اشتريتها زي الناس اللي اشتروها.

- اشتريتها بكام؟

- بتسعة مليم.

- تسعة مليم! مش كنت أولى بهم.

وعاد قائلاً:

..الواحد منكم يبقى في قفا مليم ويروح يصرف فلوسه على الفاضي.. يصرفها في كلام فارغ.. أنتم فاكرينها سايبة؟! كلب مين اللي ضحك عليكم وخلاكم تصرفوا فلوسكم على حبة ورق لا حتجيب ولا حتودي!! قوللي مين يا ولد اللي ضحك عليك؟؟ قوللي وأنا أروح له.. أروح له أفقعه قلمين على خلقته علشان يحرّم يضحك على الناس..

أدركت في الحال أنه يريد أن يعرف، فقلت له في سرعة خاطفة:

- مافيش حد.. وهم حايقولولي ليه؟ أنا اللي اشتريتها.

فعاد قائلاً:

- ليه؟ هي الفلوس فاضت؟

وكدت أن أقول له: وانت زعلان ليه؟ هوه احنا أخدنا الفلوس من جيبك!

ولكنني ترددت أيضًا وخفت من أن أفصل من المصنع كله. وقلت:

- هيه حاتفيض من إيه؟ هو احنا معانا حاجة.. أنا وفرت ثمن الغموس واشتريتهم وحاتغدى عيش حاف.. وعاد قائلاً:

- وإيه اللي كان غاصبك؟ وهم حايعملوا لك إيه؟

فلم أجب على كلماته هذه. فعاد قائلاً:

- انتم فاكرين إيه.. فاكرين انها سايبه.. هم دخلوها في أدمغتكم.. فاكرين جاي وحايعمل وحايخلي؟!! دا كلام فاضي اللي انتم بتقولوه. حايضرب مين ولا مين.. دي شركة فيها عشرين ألف واحد.. حاييجي هو يضربهم؟! حايضرب كل دول! ها.. ها.. ها..

قلت:

وهو حايضرب العمال.. دا جاي علشانهم.

فقال:

- دي شركة.. عالم تاني.. مافيش حد يقدر يخشها.. دي مليانة خفر ومليانة ضباط، وفيها ناس تانية، ناس محدش شافهم، وقت الجد حايشوفوهم.. هو فيه حد يقدر عليهم؟!! بيضحكوا عليكم.. شوية ناس..

قال هذا وسكت. فاعتقدت أنه يكسر من عزيمتنا فلم أبال بما قال من كلمات قائلاً لنفسي: مش معقول تكون كل الناس بتتكلم وكلامهم يطلع على الفاضي!

وتركته واقفًا، وبدأت ألف وألف حول المكن لكي لا أسترسل في الكلام. وعاود هو من جديد ووقف بجواري، وقبل أن يتركني قال لي:

- بكرة تقتنع إن كل اللي بيقولوه لكم ده كلام فاضي.

وجز على شفتيه قائلاً..

.. لولا إنك عامل جدع، منتبه لعملك لقطعتلك الصور.. أنا شفتك وانت بتشيلها، وشفتك وانت بتعلقها، وعملت نفسي مانيش شايفك.. خلي بالك لاحسن حد غيري يبقى يشوفك.

قال هذا وتركني يتطلع في وجوه بقية العمال

وانتهى اليوم. وخرجت العمال من العنابر يحملون تحت إبطهم ما تبقى من صور. وكانوا في سيرهم يحكون الأرض بأقدامهم المتعبة محدثين أصواتًا عالية.

ومرت الأيام تباعًا وصور عديدة تعلق كل يوم على الجدران، وعمال عديدون يقفون في انتباه متأملينها وشفاههم تتحرك ويرفعون أيديهم إلى السماء، ولم يكن عمال الشركة وحدهم هم المتحمسون، بل كان هناك عمال آخرون، عمال النسيج اليدوي من أهل المحلة يمرون هم الآخرون على بعضهم بعضًا قائلين لأنفسهم: يوم الفرج قرب، وعمال بوابير الحلاجة هم الآخرون حتى عمال المخابز! كنت أرى ذلك كلما مررت في عطفة أو شارع.. كان الكل في حالة انتظار.. في انتظار يوم الأحد.. حتى النساء خرجن من المنازل، ووقفن أمام الصور يتفرجن في الشارع من كثرة ما سمعنه من كلمات.

وجاء يوم السبت، والعمال على طول الطريق يتحدثون قائلين لأنفسهم: خلاص! بكرة جاي.. بكرة حانشوفه.. مافيش حد منا حيروح.. كانوا يسيرون بهامات مرفوعة.. داكين الأرض بأقدامهم، وكلما اقتربوا من المصنع كانوا ينظرون لكل شيء فيه بعيون حادة النظرات مستحلفين للرءوساء ويعودون وينظرون في غيظ للغفر.

وفي المساء كانت المحلة كلها ساهرة، عمال تروح وعمال تيجي في الشوارع، وعربات الكارو محملة بالأخشاب، وأخرى محملة بالكراسي متجهة للمكان المخصص للاستقبال بجوار البورصة خلف شارع سوق الطباخين.. ولم ينم العمال ليلتها.

وفي الصباح خرجوا إلى الشارع.. عمال الغزل بالجلاليب الزفير المخططة وآخرون بجلاليب من الدبلان، وآخرون بجلاليب من الكتان المقلم. وعمال بواجير الحلاجة هم الآخرون قد خرجوا. وعمال النسيج اليدوي خرجوا بملابسهم الحريرية البيضاء. وسواقو التاكسي كانوا أكثر الناس حماسًا بلزق الصور على الجدران، واتجه العمال نحو الصوان الضخم وتجمعوا، تجمعت الألوف، وإذا بصوت يقول: أيها العمال.. أيها العمال! فلنتجه للمحطة.. فلنتجه جميعًا لمقابلة الزعيم.. الزعيم جاي في القطر.

وتحركت العمال في طوابير متراصة.. عالم تسد عين الشمس!! وفي ثواني.. دخل القطار بطيئًا.. بطيئًا محدثًا ضجيجًا: تشك.. تشك.. وصفارات عالية متقطعة: توت.. توت.. توت.. وتدافعت العمال إلى الداخل، وبينما كان القطار يزعق ويدخل في بطء اندفعت العمال إلى الداخل، وإذا برجل يطل من الشباك.. رجل أبيض له عينان زرقاوان، ضخم الجثة، حليق الذقن والشارب.

وتوقف القطار، وبدأت العمال تقذف بنفسها من كافة الأبواب، وازدحمت على الرصيف، واتجهوا نحو العربة، وتعالت الهتافات تدوي.. هتافات تصم الآذان: عاش الزعيم.. عاش الزعيم المنقذ! عاش قاهر الظلمة!.. عاشت العمال! واختطفوه خطفًا، وحملوه على الأكتاف.. خرج من على الرصيف للباب الخارجي محمولاً على الأعناق.

وفي الميدان الفسيح كانت العمال تسد كل الطرق المؤدية.. عمال تحمل الأعلام.. أعلام خضراء، ولافتات مكتوبة بمياه الذهب مرحبة بالزعيم! وآخرون محمولون على الأعناق، وهتافات تدوي، وعربات التاكسي مزّينة بباقات الورد..

وبينما كانت الهتافات تدوي كانت عمال الوردية الثانية قد خرجت، ولم تتجه إلى المنازل لتستريح، بل اتجهوا بملابسهم الملطخة بالزيوت وشعورهم الملبدة بغبار القطن يجرجرون أقدامهم المتعبة هاتفين:

عاش الزعيم المنقذ!.. عاش قاهر الظلمة..

هتافات على طول الطريق.

والنسوة تطل من الشبابيك ومن شرفات المنازل يزغردن زغاريد متواصلة. وكانت الهتافات ترج جدران المنازل.

وصل الموكب إلى الصوان الضخم في أكثر من ساعتين مع أن المسافة من المحطة لم تكن تستغرق دقائق، وتصدّر الصوان من الداخل معظم الميكانيكية الجدد، وكانت هذه مفاجأة بالنسبة للكثيرين، وتساءل كل منهم: إيه دول!.. إيه اللي جايبهم؟.. جايين ليه دلوقت؟.. مش هم دول اللي بيضربوا العمال!!.. مش هم دول اللي قطعوا الصور؟!.. وقال آخرون: معلهش! ماهماش كلهم.. فيهم ناس كويسين.. وقال آخرون: كويسين إيه؟ كلهم أولاد كلب.. حانقول له عليهم.

ودخل عباس حليم إلى الداخل محمولاً على الأكتاف على تصفيق حاد متواصل وهتافات حتى خيّل لي أن كل ما بداخل الصوان تزحزح، واندفعت العمال خلفه، اندفعوا إلى الداخل يحمل كل منهم حذاءه تحت إبطه خوفًا من ضياعه وسط الزحام، مرددين ما يقال من هتافات. وإذا بصوت ينبعث من الداخل:

أيها العمال.. أيها العمال! كل واحد يسكت نفسه.. كل واحد يسكت اللي ريحه.. ماحدش يهتف. والعمال لم تسأل: نريد كلمة من الزعيم.. نريد أن يخرج الكرباج لنضرب الظلمة. ونط آخر على الكرسي ولوح للعمال بكلتا يديه، واستمر يلوح ويلوح: هدوء.. هدوء.. حاتسمعوه.. حاتسمعوا كلمة الزعيم..

وأنصت العمال وانتظرت، ووقف آخر ولم يتكلم طويلاً بل اكتفى بكلمتين وسط هتافات في داخل الصوان وخارجه إلى أن بحت الحناجر، وإذا بصوت آخر يقول: والآن.. ستسمعون كلمة النبيل ستسمعونها عالية!

وانتظرت العمال. وما زالت تنتظر وصمت كل من كان في الصوان وخارجه، وعندما سمعت ذلك قلت للولد الغريب:

- يالله نروح.. نروح قدام.

ونظر لي في ذهول قائلاً: نروح فين! بص. بص قدامك..! شايف الدنيا عامله إيه!.. الدنيا موت.. الواحد قادر يتّعتع. قلت: تعالى يا عم نطلع قدام.

قال: لا.. تعالى نطلع برة.. الدنيا حر والواحد حيموت.

- هتموت من إيه؟

– من الحر.. هنسمع إيه.. نسمع الكلام ده.. أنا عطشان.. الهدوم بتاعتي بقت ميـــة.. مية من العرق.

– لو كل واحد قال كدة يبقى مافيش حاجة راح تحصل.. لازم تيجي نسمع.. إحنا لنـــا مصلحة في السمع.. أمال كنا بنتعب نفسنا ليه!

وإذا بعباس حليم على المنصة وسط أعلام خضراء ملوحًا بيديـــه، وتعالــت هتافـــات.. هتافات هزت كياني، فزعقت في وجه الولد الغريب:

– انت واقف تتكلم.. يالله غطوا علينا.. شايف طلعوا فوق الدكك.. امسك ياولـــد فـــي هدومي وتعالى.. تعالى نقف!

– نروح ازاي؟!

فزعقت في وجهه، وأخيرًا أمسك بجلبابي، وبدأنا نزحف من تحت أقدامنا واقفين، حتى وصلنا إلى قدام بعد شق الأنفس.

وحملقت بعيني في الاتجاه نحوه، بينما كان الولد الغريب ينهج، من حين لآخر يخـــرج لسانه ويمشيه على شفتيه ويعود ويبلع ريقه. وأطلت النظر في انتظار ما يقوله عبـــاس حلـــيم لأسمع ما يشفي غليلي، وإذا بتهتهة: ب.. ب.. ب.. ب.. تنبعث من فمه.. كلام ليس معروفًا، ولم يستطع أحد من الواقفين أن يفهم، وتلفتت العمال متسائلة،.. كل منهم يسأل الآخـــر إيـــه.. بيقرا إيه؟.. هو بيتكلم باللوندي؟ فرد آخر: هوه بيكلمنا.. ده بيتكلم مع الميكانيكية، وقال آخر: ده بيتكلم خواجاتي! وآخر يقول: طبعًا يا عم هوه حيستعنانا.. حيكلمنا ليه؟ ده حيتكلم مع الناس اللي يفهموه. وقال آخر: ما تسمع يا جدع انت وهوه.. بلاش دوشة.. هو احنا جايين نـــسمعكم ولا نسمعه. فرد آخر بتهكم: فصيح! فصيح قوي.. فصيح.. أهلك.. هاتسمع إيه؟! انت مـــش حتفهم حاجة حتى لو كنت دخلت الأزهر.. كلامه متفهموهش لا انت ولا اللي خلفوك.

وكادت أن تنشب معركة لولا تدخل من كانوا بجوارهما وقال آخر: يتكلم كلام نفهمه.. واحد يزعق عليه.. ازعق عليه يا جدع انت وهوه.. يالله نزعق.

وكان عباس حليم قد انتهى من كلماته بتهتهة ليست معروفة أيضًا. وزعق صوت مـــن الأركان رن في الأذن: مفهمناش حاجة!.. فسروا لنا كلامه.. بيقول إيه؟ وترددت الأصـــوات مطالبة، ووقف واحد ممن كانوا بجواره قائلاً: أيها العمال.. عباس حليم جه النهارده، زيـــارة علشانكم.. هو بيحبكم.. وبيقول إنه راح يفتح نقابة هنا.. نقابة يشترك فيها كل العمال.. عمال المحلة.. والاشتراك قرش صاغ للعيال الصغار، وتلاتة للكبار، وخمسه للأكبر.. وكل واحـــد يتصور صورتين.. صورة للكارنية.. والكارنية هايخده معاه.. هايخده له.. والزيارة اللي جاية هوه راح ييجي بعد ده ما يتم.. راح ييجي وهتشوفوه هيعمل إيه..

قال هذا وسكت، وزعاد وزعق من جديد زعقة عالية أرغمت الجميع أن يسمعوا: هايخلّص نار سبع سنين.. سبع سنوات من الظلم اللي عشناه.. هيمشي قدامكم وهيوريكم هيعمل إيه..

وعندما سمعت العمال ذلك لاح في وجوههم الأمل، وتألقت أعينهم بالرجاء وعاد قائلاً:

أيها العمال.. يا عمال المحلة.. جاء وقت العمل فلا تضيعوه.. وليعلم كل منكم أن الطريق شاق.. شاق وطويل، وعلينا جميعًا.. علينا أن نقتنصه لا يجب أن نتوانى.. أن يتوانى أحد منا في دفع الاشتراك في النقابة.. من خلال النقابة نكتب الشكاوى ونتقدم بها لكل من يهمه الأمر.

تقدمنا في الماضي بالشكاوى وصناديق البوسطة امتلأت، ولم يتحرك أحد ممن بيدهم الأمر.. وتجاهلوا ما يؤلم العمال.. لم تتحرك الحكومة للآن.. حتى النيابة هي الأخرى قد أغمضت عينيها.

وزعق من جديد زعقة عالية، ولوح بيده، وعاد وشبك يديه من جديد، شبكهما خلف ظهره: جاء وقت العمل.. جاء الوقت لنقف جهارًا لنقول: أين من دفنتموهم تحت التراب؟!.. أين من دفنتموهم في الظلام؟.. أين ما يستحقونه من تعويض؟؟ قال هذا وسكت ولوّحت العمال بأيديها، وهتف آخرون من الخلف: يسقط الظلم، وحامي الظلم! وانطلقت الهتافات تدوي، هتافات هزت العمدان واستمرت الهتافات.. هتافات وهتافات.. وانطلق صوت آخر محذرًا: إياكم أن تخدعوا.. أوعوا حد يقول جه وما عملش حاجة.

وقال آخر: اليوم ده ليس يوم ضرب من ظلمونا.. إن يومهم آتي.. إن يومهم لقريب.. قريب جدًّا لو اتحدتم.. لو اتحدت أيديكم اتحادًا لا ينفصم.

وختم كلامه بالهتاف لعباس حليم ثلاث مرات، وبحياة العمال ثلاث مرات أيضًا. وتعالت الهتافات تدوي: عاشت العمال.. عاشت وحدة العمال.. يسقط الرءوساء الظالمون.

وخرجت العمال بعدها من الصوان يجرجرون أقدامهم المتعبة، وعلى الباب وقف كل منهم يصلح من ملابسه التي تهدلت، وآخرون يلبسون أحذيتهم وآخرون، وآخرون يسرحون شعورهم المنكوشة، وعلى جانب الطريق وعلى طول الشارع تجمعت العمال في حلقات.. منهم من يقول: نقبنا راح على شونة.. قعدنا نقول هو جاي جاي يضرب.. وأهو جه ولا ضرب ولا سيح دم!

وقال آخر: دا جه من غير كرباج.

وآخر يقول: كل تأخيرة وفيها خيرة.

وآخر يقول: العجلة من الشيطان.. صبرنا كتير وما بقاش إلا القليل هي الدنيا اتبنت في يوم؟!

وآخر يسأل: هوه ليه كان بيتهته؟

فرد آخر: كان بيتكلم كلام فيه ألغاز علشان مافيش حد من الشركة يعرف جاي إمتى وهيعمل إيه..

فرد آخر: زمانهم قاعدين في الشركة بيشخوا!!

أحاديث وأحاديث.. ونحن نسير قال الولد الغريب:

– شايف .. الجلابية انقطعت!

قالها في غضب.

.. ده اللي جالنا.. ده يمسكني من هنا، وده يمسكني من هنا لما قطعوهالي.. كل ده علشان خاطرك..

وعاد قائلاً: آدي اللي جالنا من عباس حليم.. جابلنا إيه؟.. جابلنا جلابية؟ ..ماخدناش غير البهدلة ووجع القلب.

وعاد وبص في الجلابية المهلهلة بعينين دامعتين، وتوقف فجأة، واحمرت عيناه، وعرقصت قورته، وكشر وجهه، وسكت لحظة وهو يتأمل الشرط اللي على كتفه، وتمتم:

– وشك وش خسارة!.. لو قعدنا في البيت ماكانش أحسن؟!.. كنا استريحنا.

فابتسمت لكي أهدئ من غضبه، وقلت في هدوء:

– لو قعدنا في البيت كنا حنسمع الكلام ده؟.. كلام أول مره نسمعه ومن المفيد إننا نسمعه.. اللي زينا لازم يسمعوه.

فلوح في وجهي وكادت أطراف أصابعه تطرف عيني، وعاد ونظر لي في غيظ:

– كلام إيه اللي احنا سمعناه؟؟.. كلام في الهوا.. طلع طظ فش.

قلت في هدوء أيضًا:

– أنا عارف إنك زعلان علشان جلابيتك.

فعاد قائلاً:

– طبعًا زعلان، ما ازعلش ليه.. سارقها؟ ده أنا اشتريتها من لحم الحي. عندي كام جلابية؟.. جالنا إيه في اليوم الأسود ده.. ما خدناش حاجة غير الشحططة ووجع القلب.

واستمر يسب ويلعن، وقلت في نفسي: أحسن أسيبه لما يهدا.. ماهو صحيح عنده حق.. الواحد ما يشتريش الجلابية إلا بعد خلع الضرس. قلت هذا في نفسي، واقتربت منه محاولاً تهدئته، وإذا بصوت يرن في أذني، فتلفت حولي، وإذا بعبد العظيم يلوح لي بيديه من إحدى المقاهي بشارع الحنفي فأخذت الولد الغريب، واتجهنا نحوه.

كان جالسًا مع الآخرين في حلقة طويلة ممتدة، منهمكين في أحاديث فأفسحوا لي مكانًا بجوارهم، وقد فهمت أنهم يتحدثون فيما حدث اليوم فأنصت بأذني لما يقال، وكان المتكلم عامل لم يسبق لي معرفته، وهو من عمال النسيج في صالة نمرة (١) عنبر التعبئة كما يسمى في ذلك الوقت، لأنه كان يخرج أقمشة مبرد وهي لبدل العساكر، وكان المتكلم أسمر الوجه وله رأس كبيرة وشعره حلق بالمكنة، كان يتكلم ويداه على ذقنه:

- ..أنا مش عارف.. مش عارف واحد في مصر، وحايعمل.. كلام مش داخل دماغي..

قالها وسكت. فرد عبد العظيم بعد أن تطلع حواليه بعيون زائغة كمن يبحث عن شيء، وعاد وأحنى رأسه وهزها مرة، وعاد وهزها طويلاً، وكوم السبحة في يده، وعاد ونطقها عاليًا، وعاد ونطقها من جديد، وقال في صوت هادئ:

- أنا ماكنتش عاوز اتكلم، ولكن بعد أن سمعت من الأخ مصطفى قوله: "أنا مش عارف واحد من مصر راح يعمل إيه".. الكلام ده مايبقاش كدة.. الكلام هل العمال في حاجة إلى واحد زي ده تستند عليه؟ هي الرءوساء الكبار خايفين منه؟ هل نشرتك في النقابة؟.. ده الكلام اللي يجب إن احنا نقوله، أنا رأيي مثلاً إن لا قدر الله وما عملش حاجة إن الرءوساء الكبار رايحين يعيشوا في رعب مدة. والهتافات اللي حصلت النهارده حاتخوفهم، وحاتخليهم يفكروا.. حاجات ما حصلتش قبل كدة.. الحاجات دي شجعت العمال وحاتشجعهم وحاتخليهم يعرفوا إن فيه ناس زي عباس حليم ممكن يبقوا وياهم. باقول ممكن، وعشان كده احنا ماخسرناش حاجة، ومش حانخسر حاجة، وحاتخلي العمال تخش الشغل وراسهم مرفوعة.. النهاردة غير زمان يا مصطفى.. والا إيه؟

فرد مصطفى محمد قائلاً:

- أنا راخر باقول كدة وما عنديش اعتراض. ولكن أنا باسأل.. بسألك.. هل هو واحد لوحده يقدر يعمل كده. اللي خايف منه إن العمال تعتمد عليه وما تعتمدش على نفسها.. كل ما سمعناه إنه راح ييجي يعمل كل حاجة.. ودا اللي أنا باقول عليه لا.. ما فيش واحد لوحده يقدر يعمل حاجة.. لازم يعتمد على العمال لازم ينظمهم.. قال هذا وسكت.

وقلت في نفسي: ده بيتكلم كويس.. دا عارف كل حاجة، وعارف الحاجات دي منين.. ياريتني كنت أعرف مثل ما هو عارف.. قلت هذا في نفسي. وقلت: أسأله إيه يعني النقابة؟ أسأله؟ باسمع من بدري عن النقابة، سمعت هذا من الميكانيكية، وسمعت من عباس حليم النهاردة أيضًا.. النقابة دي تبقى إيه؟ بيقولوا من خلالها نكتب الشكاوى.. طيب ما احنا كتبنا الشكاوى من قبل.. كتبنا الشكاوى للحكومة!.. أمال تبقى إيه النقابة دي اللي يكتبوا من خلالها الشكاوى؟!... فقلت اسأله واسأل عبد العظيم أيضًا.. يمكن همه يعرفوا.. وأنا كمان أبقى عرفت منهم فسألت:

اتكلمتوا عن النقابة.. تبقى إيه هيه النقابة دي يا مصطفى يا محمد؟ هل هي راجل يا مصطفى يا محمد؟

فابتسم وقال: النقابة هي احنا.

قلت: طيب إذا كانت النقابة هيه العمال، والعمال هي في المصنع وكتبنا الشكاوى من قبل فإيه الفرق؟ تقدر تقول لي يا مصطفى يا محمد؟

فعاد قائلاً: أنا راخر مانيش عارف إيه الفرق.

قلت: نسأل مين يا مصطفى يا محمد؟

فقال: نسأل اللي قالوا عليها.

فعدت وسألت عبد العظيم، فرد هو الآخر وقال:

– أنا راخر ما أعرفش. وعاد قائلاً: إحنا حانتعب نفسنا ليه؟.. بكرة نسأل اللي قالوا لنا عليها.. ولكن الشيء اللي ممكن نقوله إن ما فيش حد منا كان عارف إن عباس حليم ده راح ييجي.. واهو طلع لنا من تحت الأرض.. بلاش مقاطعة.. العمال هيه كل حاجة. ولكن إذا كان واحد راح يعمل حانقوله لأ.. لا ما تعملش!.. نسيبه يعمل، واحنا وراه.. ويالّلا بينا وبلاش مقاطعة.. يالّلا ندفع الاشتراك.. يالّلا بينا.. يالّلا نتصور.

أشواق وأمل

عدت إلى المنزل منهك القوى. كانت العمال تشغي في الشوارع وعلى الأرصفة تتجمع في حلقات تحت أعلام خضراء عالية، أمام ماكينات المصوراتية يتصورون، كل منهم يـدفع بالآخر..

أنا مستعجل.. وأنا راخر مستعجل.. خدني جنبك.. خـدني وراك فـي الـصف.. أنـا تعبان.. كل الناس تعبانة.. مين هنا مش تعبان.. صدري واجعني.. تاعبني م الكحة.. صدرك تاعبك؟ اتفضل خش.. خش يا عم.. خش مطرحي.. وانت؟.. هاروح في الآخر علشان مافيش حد يقول اشمعنى.

وآخرون يولولون:

- يا واد يا محمد.. حنتصور إزاي؟
- حاتصور زي ما انا.
- اخلع اللبدة عشان تبقى كويس.
- لا. خليني زي ما انا.. خليني عاوجها على ناحية..
- حتتقمع؟
- طبعًا حاتقمع.

وآخرون.. وآخرون.

يا واد يا سيد.. يا واد يا حسين.. زرر جلابيتك يا واد انـت وهـو علـشان صـدرك ما يبقاش مفتوح.

واتجهت إلى المنزل تاركًا الأصوات تدوي، ويداي مطبقتان على الصورة، كانـت أول مره أتصور فيها، وكنت أخرجها على طول الطريق من جيبي، وأقف بين الحين والحين أتأمل صورتي. وكان الولد الغريب يحملق هو الآخر في صورته متمنيًا أن تراها أمه لو روّح فـي القريب. ولم نجد الولد السيد بالداخل، فأشعلنا عودًا من الكبريت، وأضأنا اللمبة، ولم نـستمر طويلاً في الجلوس إلا ودخل مطأطئًا رأسه على غير عادته، وعيناه مغلقتان وشعره مـنعكش كأنه آتٍ في التو من معركة.

وجلس على طرف الحصيرة يخلع الجزمة، وانتظرنا أن يتكلم وبقي صامتًا على غيـر عادته كالنعسان، فسألته، فأجاب دون أن يلتفت في صوت يشبه الصمت:

- كنت برة.
- بتعمل إيه؟
- باتفسح.
- فين؟
- في الشارع.
- ماجيتش ليه ويانا؟
- وأنا مالي.. مالي أنا ومال وجع الدماغ ده.
- يعني بعدت.. بعدت عن وجع الدماغ؟

فلم يجب، فعدت وسألت:

- مالك؟.. معرقص قورتك ليه كدة؟.. فيه حاجة؟ فأحنى رأسه في الأرض واستمر صامتًا، وأسرع الولد الغريب وأعطاه صورته، فأطال النظر فيها وأعادها دون أن يبتسم، فأيقنت أن شيئًا ما حدث، فأعدت السؤال من جديد:

- مالك؟.. ما تتكلم.. انت رايح تحزننا!

فعاد وأحنى رأسه في الأرض واضعًا يديه على عينيه، فاقتربت منه وألححت، وإذا به يبكي:

- الفلوس .. الفلوس ضاعت.. ضيعتها!
- وضيعتها فين يا ولد؟!.. حد سرقها؟
- لا.
- أمال؟
- فيه واحد لقيته في شارع السكة الحديد حاطط قدامه طبلية وناس كتير متلمين حواليه وماسك في إيده تلات ورقات من بتوع الكوتشينة وبيزعق.
- اللي يحط هنا يكسب.. تدفع قرش تاخد اتنين.. تدفع اتنين تاخد أربعة.

ولقيت الناس كلها بتكسب، فقعدت أبص والناس بتحط إيدها ع الورق وقعدت أقول لنفسي ليه ما العبش ما دام كله مكسب، ورحت مطلع القرش وحاطه ع الطبلية فطلعت على الفاضي، وطلعت غيره وغيره لما الفلوس كلها خلصت. خلصت الفلوس مني ولم أكسب، وخلعت جلابيتي، كنت عايز أبيعها عشان أكسب الفلوس من تاني فمافيش حد رضي يشتريها.

ووقفت أعيط جنب الرجل، لكن ابن الكلب ما رضيش يرجع لي ولا مليم من فلوسي..

فهز الولد الغريب رأسه..

- وأنا راخر هدومي انقطعت من الزحمة.. وأضاف:

- انت خسرت فلوسك وأنا خسرت الجلابية.

فرد الولد السيد:

- الجلابية تتخيط.. شيء يتقدر عليه.. أما الفلوس اللي راحت فمش عارف حاعمل إيه طول المدة.. لسة بدري ع القبض..

فرد الولد الغريب قائلاً:

- استلف.

- وحاسددها منين؟

- لما تقبض.

- هو القبض حيقضي إيه واللا إيه؟

فزعق الولد الغريب في وجهه قائلاً:

- أمال كنت عاوز تكسب.. فاكر إنها طاقية الاخفا..

ماسبتنا ورحت ودي الوقت جاي تعيط.. بتعيط لما خسرت!! افرض كسبت يا أخـــي.. كنت جاي علينا بتهلل والباب ده ماكانش ساعك تخش منه.

وهز رأسه:

- مش كده واللا إيه؟.. والراجل دكهوه كان هيخش على بيته ويدور العياط لو خسر.. عملت فالح ودورت الجري ع القمار.. هو اللي يروح ع القمار يكسب؟!

قال هذا وسكت، وانتظرت أن يقول الولد شيئًا، وإذا به يقول:

- وانتم مالكم.. هيه مش فلوسي.

وعاد مرة أخرى معيطًا، وإذا بنقرات متوالية على الباب، فأسرع الولد الغريب وفـــتح، وإذا بامتثال تدخل ملفوفة بملاية أمها السوداء، واندفعت إلى الداخل وأسندت ظهرهـــا علـــى الحائط ووقفت تنهج كما لو أنها آتية من مشوار طويل، وتزحلقت الملاية من علـــى رأســـها فتهدل شعرها ذو الخصلات على بدنها ولم ترفع أصابعها لرفـــع تلـــك الخـــصلات واكتفـــت بتحريك رأسها. وتطلعت، وطال تطلعي، وشعرت للتو بحركة تنتاب جسدي وتحرك شيء ما، وكان صوتها الهامس:

- كنتم فين يا ولاد؟ اتعلمتوا اللعب!

فأسرع الولد الغريب وأعطاها صورته ووجهه يتهلل فرحًا:

- شوفي.. شوفي الصورة.. اتصورنا النهاردة.. أتصورت أنا وفكري. ووقفت تحدق في الصورة بعينيها الواسعتين متأملة، وقالت بصوت أكثر عذوبة بعد أن نظرت لي بعينين متسعتين:

- فين.. فين صورتك؟.. وريها لي.

ومددت يدي بعد أن اقتربت منها، ووقفت تحملق بعينيها في الصورتين، ثم تعود وتحملق في وجه كل منا، وارتفع صوتها:

- شعركم منعكش في الصورة كدة ليه؟

- م الهوا.. الهوا نعكشه.

وعادت:

- أمال فين صورتك يا واد يا سيد؟

فرد الولد الغريب منفعلاً:

- ما اتصورش ويانا.. ضيع الفلوس في لعب الورق.

وعندما سمع الولد السيد ما قاله الولد الغريب، وضع رأسه ما بين يديه وبكى:

- هئ.. هئ.. هئ..

واستمر يبكي وينهنه ورد قائلاً:

- وانتم مالكم ماهي فلوسي.. مالكمش دعوة.

واقتربت امتثال منه وطبطبت على كتفه.

- ماتزعلش.. فداك الفلوس

وأطبقت بيدها على الصورتين. وعادت قائلة:

- هاخدهم معايا أوريهم لأمي.

وسارت نحو الباب بظهرها، وعيناها ترمشان لي كالقائلة:

"تعالى.. تعالى ورايا.. مش قادرة أقول قدامهم.. مش قادرة أقول حاجة بلساني باقولها بعيني.. تعالى ورايا ع السلم".

وتسمرت في مكاني، وهي تتزحزح ببطء بظهرها إلى الخارج ورموشها المدببة تطبق ثم تفتح كالقائلة:

"كل غمضة من عيني بتقولك تعالى".

واستمرت تتزحزح إلى أن خبط ظهرها على الباب، فاعتدلت تعدل من ملاءتها على العتبة وعيناي لم تفارقاها ناظرًا لكل جسدها قائلاً لنفسي:

"لما تمشي حاروح مدور الجري وراها، حاجري على السلم واعمل نفسي عاوز الصور، وأفتح إيديها بالعافية وهي حتعصلج.. مش حترضى.. و.."

وشعرت بالدم يجري في جسدي، وانتظرت على مضض أن تنتهي من تصليح ملاءتها وتتجه بعيدًا لكي أجري.. وكان الولد الغريب قد غمز الولد السيد وركزا على ركبهما يتطلعان لها ويعودان ويطيلان النظر لي ثم يعودان يتبادلان النظرات، راكزين على أيديهما كالقطط التي تقف في تحفز في انتظار أحد الفيران التي تخرج من الشقوق لافتراسها قائلين في سرهما:

"ما تطلعي.. ما تطلعي.. بتتلكعي ليه.. عايزة حاجة.. عاوزاه.. ما تقولي.. قولي له يطلع وراكي.. واقفه تتحزقي في الملايه قوي وترجعي وتسيبيها.. عايزة توري له قميصك الحرير الأبيض وجسمك اللي زي الشمع.. هو عارف.. فكي الملاية ولميها.. أيوة كدة.. أهو كدة امال!!"

وبعد أن انتهت من ملاءتها عادت ونظرت لي، وأغمضت إحدى عينيها كالقائلة:

"أنا حامشي.. حامشي على مهلي.. حصلني"

وتحركت أنظار كل من الولد الغريب والولد السيد الصفطي في اتجه وقفتي. فوقفت كالتائه بين الخروج وبين البقاء قائلاً لنفسي: "حاطلع.. يبصوا ما يبصوش.. مش مهم حيحصل إيه؟"

واندفعت خارجًا أنادي كالمجنون: يا امتثال.. يا امتثال، آخذاً باب الغرفة في يدي.. صوتي شق سكون الليل الهادئ:

- يا بنت يا امتثال.. هاتي الصورة.. هاتي الصورة يا بت.

واندفعت نحوي امتثال لتكتم فمي:

- إيه؟
- هاتي الصورة.
- اسكت!
- هاتي الصورة هافرج عليها اخواتي.
- ماتزعقش.

كنت أزعق ولم أكن أظن أن صوتي عالٍ، وكتمت أنفاسي من جديد وأنا أفـتح يـديها بالعافية، فقاومت وانسابت ملاءتها وقميصها الأبيض قد برز في الظلام فأضاء جـسمها لـي، وخدودها الحمراء بانت رغم الظلام الدامس، ومطت بوزها نحوي في همس:

- ماتزعقش.

قلت أنا الآخر في همس:

- هاتي الصورة.

- إوعى.. إوعى إيدك.

وتلفت حولي فلم أجد ضوءًا ينبعث من الحجرات المجاورة، فلم أتمالك بعـدها نفـسي، وأمسكت بوسطها في يدي، وجذبتها نحوي رغم مقاومتها:

- إوعي إيدك.

وتعلقت برقبتي. وغرزت رأسها في صدري، ثم سكتت فأدرتها دون مقاومـة، أدرتهـا إلى الحائط وأطبقت على شفتيها قائلاً:

- هيه.

- لا.. لا.. لا..

ثم أفاقت فجأة، وزحزحتني بعيدًا بكلتا يديها قائلة في صـوت يـشبه الـصمت وهـي تقرصني من خدي:

- لا.. لا.. كله إلا كدة.. سيبني.. سيبني أطلع.

وتزحزحت إلى الوراء على البسطة تصلح من ملاءتها وشعرها الذي تهدل.. وعيناها لم تفارقاني ووجهها الباسم الذي لم يحجب الظلام ضوءه. وأسبلت عينيها وهي تقول:

- لا.. أوعى.. أوعى.. ما تعملهاش تاني.

وأردت أن أدفع بها من جديد نحوي، فدفعتني بعيدًا، وألصقتني بالحائط.. واندفعت إلـى فوق وهي تردد:

- بعد ما افرجهم.. بعدما افرجهم حاجيبها لك..

حاجيبها لك تاني.

وقزحت السلم في خطوات، ثم اختفت بين حواريه المتعرجة وهي تلوح بيـدها ويـدها الأخرى مطبقة على الصورة.

- حاجيبها لك.. حاجيبها لك.

وانتشرت رائحة جميلة تنبعث في الهواء البارد بين الباب الخارجي والـداخلي للـسلم. ووقفت أتطلع ذات اليمين وذات اليسار شاعرًا، ولأول مره أنني غير قادر على النزول، وغير قادر على أن أتزحزح من مكاني وهي تبتعد مسرعة إلى فوق. فاندفعت وراءهـا وإذا ببابهـا مغلق، فعدت وكأن قلبي قد اختطف.

عدت إلى الحجرة وكان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يأكلان، فاندفعت بينهمـا، وانتظرت، وطال انتظاري، ولكنها قد غابت فنمت.. نمت قبل أن تعود..

صحوت على أصوات أطفال عالية آتية من بعيد رنت في أذني كالحلم، وعندما صحوت اندفعت خارجًا، اعتقادًا مني أن الوقت قد تأخر وأن يوم العمل قد ضاع.

وفي ذعر اندفعت إلى الخارج. خارج الحجرة ناظرًا للأبواب المجاورة لي فلم أجد بابًا قد فتح، فأسرعت خارج البيت أسأل عن الساعة، فلم يكن أحد يسير في الطريق سوى أطفـال بملابس رثة مهلهلة، يقفون على الأبواب زاعقين بعضهم علـى بعـض محـدثين ضـجيجًا، وعربات يد صغيرة تعدو محملة بقدر الفول المدمس يدفع بها أصحابها فـي سـرعة نـادرة ويتوقفون أمام محلات البقالة لوضعها قبل أن تفتح، ونسوة ذات عيون خـضراء تطـل مـن أعالي شبابيك المنازل بقمصان نوم بلا أكمام كاشفة عن صدور عارية بيضاء وشعور مبتلـة، يقذفن بمياه الاستحمام في الشارع، ثم يعدن لإلقاء نظرة في الطريق.

كان الضباب ما زال مخيمًا، الشمس لم تشرق بعد.

واجتاحتني رغبة ملحة لم تجتحني من قبل.. رغبة أن أرى امتثال قبل أن أخرج، ولـم أعرف لهذه الرغبة سببًا.. شوق لم أعهده من قبل.

وأسرعت إلى الداخل عسى أن تطل هي الأخرى من الشباك، وانتظرت تحتـه وطـال انتظاري، وعيناي لم تفارق الشباك لحظة، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وأزف الوقت..

وفي الحجرة صحيت الولد الغريب والولد السيد الصفطي من نومهما وازدادت الرغبـة في اللقاء واجتاحتني كلما لاح وجهها الباسم المحمر وعيناها المسبلة على السلم.. آه لو تأتي.. قائلاً لنفسي:

"الله يخرب بيت الشغل وبين صحابه.. على بيت اللي بيروحوه.. الشمس بتروح طالعة من هنا وبندور الجري ع الشغل من هنا ما تتامشي إلا بعد نصف الليل والناس كلهم نايمين.. لا بنملك نقعد مع حد، ولا حد بيملك يقعد ويانا.. حامشي من غير ما اشوفها؟ مش معقول مـا اروحش الشغل؟ واليوم؟.. اليوم هيروح؟.. ومش بس، والغرامات اللي بتنزل على دماغنا زي الرز.. وعلى إيه نسمع نفسنا كلمة.. كلمة من واحد ما يستاهلش.. أول ما اطلع مـن الـشغل أروح جاي..

وأسندت رأسي إلى الحائط ووقفت ساهمًا، في الوقت الذي كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يربطان العيش في المناديل. وعدت وترددت بين الذهاب إلى العمل وبين الجلوس بجانبها.. بعيدًا.. بعيدًا عن كل من الولد الغريب والولد السيد.

ومرت بخاطري خواطر متلاحقة، مستذكرًا كلمات من هنا وكلمات من هناك.. كلمة من أمي، وكلمات من أخي.. ووقفت أمام هذه الكلمات كثيرًا.

كثيرًا ما سمعت أخي:

اللي معاه مال، يمشي في الطريق ويميل.

وتوقف ذهني عندها:

"صحيح اللي معاه مال يمشي في الطريق ويميل.. والمال ده ييجي منين؟.. م الشغل!! واللي ممعاهوش قرش ما يساويش قرش"

فاندفعت خارجًا..

"الشغل أحسن"

وإذا بعين ترى عمالاً يخرجون من أماكن متعددة متمهلين في السير، لم يكونوا في سيرهم حانين رءوسهم كما كانوا منذ أيام مضت، بل كانوا في سيرهم ينظرون لبعيد.. لكل ما هو قادم، محدثين أصواتًا لا تنقطع.. مناقشات حادة على طول الطريق حول ما حدث بالأمس من هتافات قائلين:

- ماحدش منا راح يسكت!

- نستنى لما ييجي.

- ماحدش منا كان مصدق إنه جاي.

وأصابع تمتد، وأخرى تلوح:

- شايفين الغفر.. الغفر واقفه.. واقفين على الباب شايلين العصي في إيديهم مستعدين للضرب.

وأصوات أخرى:

- لو حد منهم جه ناحيتنا.. لو حد مد إيده حنضربهم.. اللي له ضهر عمره ما ينضام.. قريب الملك النهارة ويانا.

وأصوات أخرى ترتفع.. ترتفع في حماس:

- فلننتظر.. فلننتظر!

وبجوار المكن توقفت، والرعوساء تجري في الطرقات ناظرين لنا بعيون تتطاير منهـا الشرر وشفاههم تتحرك:

"فيم يتمتمون؟.. لا أدري"

وأدرت المكن متفاديًا نظراتهم المليئة بالغيظ واندمجت في الشغل متنقلاً من فرملة إلـى أخرى، غير عابئ بما قد يحدث وأسندت ظهري على أجناب المكن، والمكن يدور ويدور.

وسرحت متمثلاً امتثال أمام عيني وكأنها بجواري على المكن، ونظرت إلـى الـسيور، وحملقت في السقف بعين، وعدت ونظرت للساعة وكأنها واقفه لا حركة فيها قائلاً:

"دوري.. دوري مسرعة لأتمكن من المرواح قبل أن تنام".

واهتز جسدي كما تجسدت الصورة، وتأملت ملابسها، وتلفت كـالمجنون جـازًّا علـى أسناني عندما توقف المكن قائلاً:

"بتوقف ليه؟.. ما توقفش.. ضيعت الصورة من ذهني"!!

ومن الغيظ كدت أن أدفع بالفرامل لأوقف المكن كله وأدفع نفسي للخارج، ولكن الخوف من الغرامات حال دون ذلك، وغرقت في التفكير، ولم أنتبه إلا بعد أن أمسكني الولد الغريـب من جلبابي وهزني هزًّا، وتلفت كالمذعور، وإذا بي أجد عينيه تبكيان والدموع تنـزل علـى خديه وأصابع يد معلمة على وجهه جعلته محمرًا، فسألت متلهفًا:

- مالك؟.. بتعيط ليه..؟ امسح عينك.. امسح الدموع.. انت بتتهنه!!

جرى إيه يا ولد.. حصل حاجة؟

- مفيش .. الرئيس ضربني.. ضربني بالقلم على أصداغي.

- ليه.. عملت حاجة؟

- مفيش.. كنت واقف ع المكن أرقص.. أرقص م الفرح لما سمعت إن عباس حلـيم جاي، ففرحت ووقفت أرقص ع المكن وهوه داير.. فبصيت لقيت الرئيس جاي وراح مـدور الضرب بالأقلام.

- وعيطت قدامه؟

- أيوه.. عيطت قدامه.

- طيب امشي.. امشي من جنبي.. هوه بيعيط إلا المرة.

قال في حزن:

- أمال كنت أعمل إيه؟

- تعمل إيه.. تعمل إيه إيه..؟ ماتعيطش قدامه.. انت فاكر إن العياط راح يحنن قلبـــه؟ انت طمعته.. كل ما يمر ويلاقيك راح يدور فيك الضرب.. الضرب على طول.. حايستهفاك.

- أعمل إيه؟

- خلاص.. راح تعمل إيه..؟ كل اللي انضربوا قبلك ما فيش حد منهم عيط.. عيطـــوا في سرهم واستحملوا.. استحملوا الضرب قدامه..

- هو إيه!

قالها وسكت .. وعاد قائلاً:

- القلم نزل على صرصور ودني خلاني واقف قدامه زي الفرخة المدبوحة.. هو أنـــا عيطت إلا غصب عني.

ومسح إحدى عينيه، واسترسل:

- حرقة الضرب عيطتني.

- كسرت قلوبنا!.. كنت تكتمه.. تكتم العياط لما يمشي.

فالتف حولنا آخرون مشتركين في الحديث. قال أحدهم بغيظ:

- ضربوه م الغيظ.

وقال آخر:

هو بس اللي كان واقف ع المكن يرقص!!.. كلنا كنا بنرقص.. هو ابن الكلب استهفاه.. هو فاكر حيخوفنا..؟

وقال آخر:

- والله العظيم لو جه ناحيتي مش راح أفخت إلا عنيه.. هوه مش حانبقى زي العامـــل اللي موت واحد منهم.

فلوح عامل بإحدى يديه:

- وعلى إيه نودي نفسنا في داهية.. ما هو جاي اللي أقوى منهم.

ونحن نتحدث، إذا بأصوات تعلو من بعيد، والرءوساء تعدو مسرعة في كافة الاتجاهات يدفعون كالمجانين كل من يقابلهم.

- دور الماكينة.

- عطلانة.

- مايهمش.. دورها دي الوقت يا ابن الكلب.. المدير بيمر..

وتحرك المدير وهو يتمتم بالشفاه كأنما يقول لنفسه: "بهايم! شحناهم في العربات، والنهاردة يهتفوا ضد الشركة".. ومن خلفه الرءوساء تقرش على الأنياب، ولم يحتمل نظرة العمال له فأسرع إلى الخارج ولم يكمل السير في العنبر.

وعادت البسمات، واهتزت الرءوس فرحًا، وتطلعت نحو الولد الغريب وإذا به رافع المكوك عاليًا.. ماشي يتمختر كالقائل للعمال:

"أهو.. حاتشجع.. أنا اتشجعت.. لو ضربني حد مش حعيط".

واقتربت الساعة، وانتابني الفرح لقرب انتهاء اليوم قائلاً لنفسي: "دوري يا ساعات دوري".. ممنيًا نفسي أن أرى امتثال حتى ولو من الشباك، حتى ولو لم تكلمني وقلبي يدق كدقات المكن كلما تجسدت صورتها أمام عيني. وتكهرب جسدي، فدفعت بالفرامل فرملة إثر أخرى، ناظرًا للسيور في اهتزازها والعمال في تمايلهم، والمباشرين وهم يتجمعون في حلقات، وإذا بعقارب الساعة السابعة تتوقف على الثامنة.

فاندفعت إلى الخارج دونما انتظار لزميلي عامل الوردية الثانية.

ومن خلفي كان الولد الغريب والولد السيد الصفتي.. حاولت أن أزوغ في الزحام عسى أن أتمكن من لقائها بعيدًا عنهما قائلاً لنفسي:

"أقول إيه لما اشوفها..؟ ماكنتش قادر أروح الشغل علشانك؟.. أقول لها زي ما قالت لي..؟"

مش معقول.. فيه واحد يقول للواحدة أنا باحبك.. عندما تصورتك أمامي كنت أدفع بالفرامل، وإن ما أنتجته اليوم من أقمشة أكثر مما أنتجته في أي يوم من الأيام؟ حا اقول لها إنني ما كنت أستعجل يوم العمل في يوم من الأيام مثلما كنت أستعجله اليوم.. وإنه مر رغم الساعات الطويلة دون أن أشعر..

وأنا غارق في التفكير.. إذا بصوت أقدام ترتفع خلفي، وهمسات عالية تهمس: "بتهرب منا؟.. بتهرب منا في الزحمة؟.. فاكر إيه؟.. حتسبقنا.. إحنا مراقبينك".. وتلفت، وكان الولد الغريب والولد السيد الصفطي هما المتحدثان، فتباطأت في السير قائلاً:

- إيه يا ولاد!

فتبادلا النظرات وابتسما..

- إيه.. انت اللي كنت فين.. انت بتسألنا؟..

هو احنا اللي سبناك؟.. احنا عارفين.. عارفين ليه انت مشيت.. بتسبقنا عشان تروح لها.. اطلع من دول.. بتضحك علينا؟

قلت مغتاظًا:

- باضحك عليك إيه يا واد انت وهو.. اختشي!

- رايحين نقول لأمك.. رايحين نقول لها إن البنت وأمها رايحين ياخدوه.. ياخدوه منك.

كنت أحدثهم ورنين غير منتظم يشبه رنين المكن يرن في أذني مع أن المصنع قد ابتعد، وعربات نقل محملة بما أنتجه العمال من أقمشة تحدث هديرًا في الشوارع، وعربات أخرى فارغة في اتجاهها للمصنع، وتحت الكوبري السفلي بجوار أحد بوابير الحلاجة كان عدد من العمال بينهم مصطفى محمد واقف هو ومحمد الكافوري، في حديث حول النقابة، والتف حولهم آخرون وآخرون. قال مصطفى محمد:

- انتم مستنين إيه؟

وتكاثر العدد ورد الكافوري

- مستنين أحد الميكانيكية.

فزعق أحد الواقفين:

- عاوزين إيه منهم؟.. ده مفيش حد منهم بيدعي حد للنقابة.

وزعق آخر:

- دول لما بيشوفوا المدير بيشخوا.. بيشخوا على نفسهم لما يشوفوه.. جربوا النهاردة قدامنا.

وقال آخر:

- مالناش دعوة.. همّه في حالهم واحنا في حالنا..

دول بيخافوا.

وزعق آخر:

- همه دول راح يبقوا ويانا؟.. هيبقوا ويانا ليه؟

هوه فيه فرق بين دول وبين غيرهم؟

وقال آخر:

- ما تستعجلوش.. كلهم زي بعض.. ما فيش فرق.

وقال آخر:

- هو فيه حد بيجري ورانا.. اما نتجمع.

وأردت أن أذهب إلى المنزل للقاء امتثال قبل أن تنام. هكذا فكرت وكانت يد مـصطفى تشدني قائلاً لي:

تعالى ويانا.

وخجلت منه. وفي شارع البهلوان، وفي الدور الثاني دخلت، وفي طابور ضخم دخلـت العمال واحدًا وراء الآخر، وجاء صوت هادر من إحدى الغرف في الأرض.. صوت صاحب المنزل:

- إيه.. رايحين فين..؟ رايحين كلكم فين..؟ البيت هيتهد.
- رايحين النقابة.
- هيه راح تساعكم.. يقطع النقابة وأصحابها.

فرد أحد العمال:

- همه دول حاجة.. ده لسّه جاي!

وتوقف الرجل على الباب محاولاً أن يمنع العمال:

- حتهدهولي.. حتهدهولي!!

ولم يتمكن.. واندفعت العمال إلى فوق وهو يصرخ في الأرض.

وعلى بسطة السلم كانت يافطة مكتوب عليها بالخط العريض:

"النقابة العامة للعمال"

وفي داخل الصالة صورة ضخمة تجمعت العمال حولها، وبعيون محملقة. قال أحدهم:

- شايفين.. شايفين مناخيره.. شايفين وشه؟.. زي ما شفناه.. زي ما شفناه بالضبط.

وزعق مصطفى فيهم:

- انتوا جايين تتفرجوا؟
- أيوه جايين نتفرج.. أمال جايين نعمل إيه؟
- فرد مصطفى قائلاً:
- اقعد يا جدع أنت وهو.. اقعد على الكرسي.

وبدأ يدفع بيديه الواقفين:

- اقعد.. اقعد.. اقعد ع الكرسي!
- حنقعد فين؟.. هو فيه حتة.. الأودة مليانة.
- أيوة جايين نقعد.. لما نشوف عباس حليم جاي إمتى..

- حانسأل مين؟
- نسأل الميكانيكية اللي جم قعدوا معاه ووقفوا جنبه.

وقال آخر:

- دي الوقت ييجي.. هييجي في الوقت اللي هو محدده.. همّه الميكانيكية عارفين حاجة؟.

وصوت آخر يقول:

- يالّلا بينا نروح.. يالّلا بقى يا جدعان.. بقى لنا مدة مافيش حد مهم جاي.. هنسمع إيه منهم؟.. هم دول زي قلتهم.. اللي راح يعمل عباس حليم.. عباس حليم بس.

وصوت آخر:

- طولوا بالكم.. عايزين نشوف منهم إمتى جاي؟

والأحاديث مستمرة، وإذا بأفواج أخرى من العمال تدخل، ولم يبق في الصالة موضع لقدم، والتصق العمال بعضهم ببعض، واتجهت الأنظار كلها نحو الصور المعلقة على الجدران. وطال الانتظار ولم يأت أحد من الميكانيكية. قال محمد الكافوري بحماس:

- يالّلا بينا ده وجع قلب.. آدي احنا جينا وما استفدناش حاجة.

ولم ينتبه أحد من الواقفين.. وخيم الصمت.. والتفت العمال فجأة، وإذا بواحد يفسح لنفسه الطريق.. شاب طويل أسمر، يلبس جاكته وقميصًا أزرق بزراير بيضاء وبنطلونًا شورت به بقعة كبيرة من زيت المكن، وتطلع إلى الوجوه كالباحث عن شيء، ولما لم يجده عاد مسرعًا إلى الخارج، وأسرع خلفه مصطفى محمد وتبعه الكافوري، ثم تبعهم أعداد أخرى غفيرة، وبقي آخرون ينظرون لبعضهم البعض في تلهف:

- إيه..؟ .. حصل إيه؟

وعاد مصطفى قائلاً:

- خلاص خلاص يا جماعة مافيش حد منهم جاي.

قالها بحزن، وتدافعت العمال على السلم عائدين من حيث جاءوا.

وجاءت البنات

وعلى ناصية نفس الشارع وقف مصطفى وبجواره الكافوري وأعداد أخرى من العمال يتساءلون في ذعر. وفي صوت هامس لمن حوله قال:

- الدنيا مقلوبة.. سمعت دلوقت من الميكانيكية إن الشركة حتعين بنات في الشغل.. حتحول الشركة إلى بنات.

فرد محمد الكافوري في يأس:

- أهو ده يبقى الكفر.. الكفر بعينه!

وقال آخر مكتئبًا:

- واحنا حنروح فين؟

- حيروحونا.

وآخر:

حيفصلونا.. الشركة حتفصل كل من اشترك في النقابة.. أمال إيه؟ همّ هيسكتوا؟.. لما سمعوا إن عباس حليم جاي، هم هايسيبوه لما يضربهم؟

وشحبت الوجوه، وساد الظلام وقطع الصمت أحد الواقفين:

- بقى فيه بنات حتقف ع المكن؟! دا مايبقاش فيه دم..

ديك الساعة ماحدش يقدر يحكمها.. بنات إيه دول؟!.. يا نهار أسود يا جدعان.. البت تجري ع الراجل؟.. مش معقول!!.. مين يستغني عن بنته؟! دا كلام فاضي!!.. بقى فيه راجل في الدنيا. حتى لو كان شحات يقبلها على نفسه؟ يقبل إن بنته تتغرب وتقف في وسط الرجالة..؟ دي تبقى قلة حيا.

وقاطعه آخر وهو يكاد يكلم نفسه:

- انت راح تعمل واعظ.. انت راح تعمل إيه..؟ قول لنا نعمل إيه لو عينوهم؟

- نموتهم.. هو أكل العيش بالساهل؟

وزعق آخر:

- يا جدعان مش معقول.. دي إشاعة.. إشاعة طلعتها الشركة من يوم ما عرفت إن عباس حليم راح ييجي.. والله العظيم دي إشاعة. أنا باقول الكلام ده وبكرة تشوفوا.. بكرة تعرفوا..

سمع العمال هذا، ووقفوا ساهمين وكأن هذه الكلمات الأخيرة نزلت عليهم كالصاعقة، متجهين إلى منازلهم يفكرون فيما سمعوه.

كانت الشوارع شبه خالية، خالية من الضوء تمامًا، وسرت مهمومًا شارد الذهن، ومن على بعد خطوات من المنزل لمحت شبحًا يطل من الشباك وكانت امتثال.. وعلى الضوء المنبعث من الحجرة لوحت بيدي، وأشاحت برأسها إلى الوراء وابتسمت، وأطلت نظري واكتفينا بالنظر، وتوقفت لحظة في انتظار أن تنزل، فلوحت برأسها كأنما تقول لي: "مش قادرة لأنك أتأخرت".

فدخلت مفكرًا فيما سمعته، قائلاً لنفسي:

"مش معقول.. مش معقول الشركة حتعين بنات" ولم يطل بي التفكير فنعست من كثرة التعب.

ومرت الأيام وتتابعت. وازدادت الإشاعات حول تعيين العاملات، وقابلها العمال بالغضب.

- لو حدث هذا هنضربهم.

وقال آخرون:

- عاوزين بنات يشغلوهم.. طبعًا عايزين يشغلوهم زي ما هم عاوزين.. ماهم غلابة ما يقدروش يدافعوا عن نفسهم.. اشمعنى دي الوقت؟!.. ما جابوش ليه بنات من الأول؟!

وزعق آخر:

- لما عرفوا إن العمال راحوا النقابة وعرفوا الطريق.

وكلما زادت الإشاعات كلما ازداد العمال غيظًا، ناظرين لما حولهم وكأنهم مع المكن في وداع، قائلين في نفوسهم وهم ينظرون إلى المكن: "مش راح نسيبك.. ولو سبناك حنكسّرك قبل ما نسيبك.. حنسيبك لهم..؟! حنسيبك للبنات؟!.. حنرجع البلد تاني؟؟.. يا سنة سودة.. مش معقول!.. إيدينا خدت ع الشغل ده.. إيدينا نعمت.. نعمت من قلة مسك الفاس.. ده احنا لما نروح زيارة إيدينا بتفأفأ من مسكة الفاس.. حتيجي شوية بنات تاخد المكن منا؟.. واحنا..؟ حنسرق..؟ حنروح فين؟؟.. نخلي لهم المكان؟.. دي نصيبة".. أفكار قاحلة سوداء!

وذات يوم ونحن متجهون إلى المصنع، وعلى الباب الخارجي كانت الإشاعات قد تحققت بالفعل، كان هناك بجانب السور الممتد مئات العاملات ملتصقات بجانب السور الأصفر المدهون.. بنات من مختلف الأعمار.. منهن من لا تتجاوز العاشرة، ومنهن من هي فوق ذلك بقليل، ومن هي فوق الخامسة عشرة والسابعة عشرة، معظمهن من الفلاحات ذوات الوجوه السمر بملابس شيت ملونة واصلة للأرض مغطيات رءوسهن بطرح سوداء. وأخريات من اللائي لم تلفح الشمس وجوههن بملابس حتى الركبة ليست جديدة، ولكنها مشغولة، وأخريات بملايات سوداء وأحذية من ذات الكعب وعيونهم خضراء، واقفات يغالبهن الحزن البادي عليهن.

ومن على بعد وقف العمال في حلقات، وآخرون يروحون ويجيئون بالقرب منهم ثائرين كالنمور يصطدمون بالواقفين.. لقد أعماهم الحقد على من جاء. وآخرون يصفرون، وفي وسط هذا الجو المشحون بالغضب وقف البعض –وقف على بعد خطوات منهن– يغمزون بأعينهم وتتعالى بينهم صيحات الفرحة تارة أخرى، ثم يعودون يتزحزحون للاقتراب منهن دونما حياء!

وقد عبرت كل تلك الجموع الواقفة عن مختلف تلك الأحاسيس، فمن ضيق وقلق، إلى قلة حياء وعدم مبالاة، أو فرحة أو حزن أو ألم، وفي غيظ تلفتّ حولي باحثًا عن عبد العظيم أو مصطفى محمد أو محمد الكافوري أو حتى الشيخ علي دويدار أو أي أحد ممن سبق لي معرفتهم، قائلاً لنفسي:

"لم تعد إشاعة.. إنهن واقفات في انتظار فتح الأبواب.

أين عبد العظيم؟؟.. أين هم؟؟؟

وبينما كنت أبحث عنهم، كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يزعقان:

– أهم.. أهم.. تعالى.

واتجهت، فلم يكن سوى عبد العظيم ومحمد الكافوري واقفين في حلقة طويلة ممتدة، وتبدلت الوجوه وتلونت وشخصت الأعين في الاتجاه نحوهن.

– أهم.. ياللا.. ياللا نضربهم..

وآخرون ترتفع أصواتهم:

– يا سنة سودة!.. جايبين بنات.. بنات م القرى! بنات م الريف لابسين طرح سوداء!!.. يا ولاد الكلب.. جايين وعينهم مكحلة.. مكحلين عينهم ولاد الكلب الواحدة منهم جايه زي اللي رايحة ليلة الدخلة!

وأصوات ارتفعت:

- مستنيين إيه..؟ مش قلتوا هنضربهم.. ماتياللـــه ما هم واقفين.. واقفين قدام عيـــنكم أهم.. بس كلام!!

وقال آخر:

- هنضرب ولايا..! الواحد يهز طوله ويضرب بنت..

وصوت آخر:

- هتعمل إيه..؟ إذا كان مفيش في وشهم دم.. جايين الشغل وســايبين الرجالـــة فـــي البيت.. الواحدة منهم جاية وسايبة أخوها زي النطع.

وآخر يقول:

- دول مالهمش أهل تحكمهم..

وعندما سمعت البنات أخفت كل منهن وجهها بطرف ملاءتها.. وآخريـــات بأيـــديهن، وولين ظهورهن لنا بانفعال يضربن الأرض بكعوب أحذيتهن.. وانتظرت أن يقول مـــصطفى شيئًا، ولكنه استمر صامتًا يستمع للكلمات، وازداد الصياح، وزاد الهرج، وصفافير المـــصنع تعلن بدء العمل. واندفعت العمال إلى الداخل تسب وتلعن بكل من جـــاءوا يزاحمـــونهم فـــي العمل. واتجه كل منا إلى مكنه، واضعين أيدينا على قلوبنا. كل منا يقول لنفسه: "أين عبـــاس حليم..؟ أين هو الآن.. لم لم يأت..؟ مين.. مين راح يقول له.. مين حايقول لـــه إن الـــشركة استبدلت العمال بعاملات!".

وبجوار المكن وقف الكل يترقب.. لا ابتسامات ولا ضحكات، ولا صـــوت ولا حركـــة سوى ضجيج المكن وزئير السيور.. كل منا في انتظار أن تحل بنت محله. بعد لحظات ينتهي كل شيء كأننا لم نشتغل على المكن، كأننا لم نره. سنعود كما كنا.. نسير وراء البهائم علـــى مهل وراء المحراث.

أفكار وأفكار، والبنات تدخل من الباب الخارجي يسوقهن الرءوساء كما تـــساق الغـــنم، وخفقت القلوب وزاد خفقانها.

أهم.. أهم جم.. أهم دخلوا.. ماذا نفعل؟

أفكار سريعة عاجلة

- ماذا نفعل..؟ نكسر المكن.. نخليه بسيسة؟؟

واقتربت البنات تهرول في السير، البنات الفلاحات يمسكن بأذيال ملابسهن، يمـــسكنها بأيديهن، ويتدافعن خلف الرئيس بسرعة واضعات أحذيتهم تحت إبطهن، والبنات ذات الفساتين

الكاشفة يجرين هن الأخريات واضعات أيديهن على صدورهن، وتعالت الأيادي.. تعالت ملوحة معلنة العمال بالداخل:

- أهم جم.. تعالوا شوفوا جايين عاملين إزاي..؟

شايفينهم..؟ أهم.. بص!

وبدأت الرءوس تطل من الأبواب ناظرة، والبنات تتلفت ذات اليمين وذات اليسار بوجوه شاحبة واجمة. والعمال تعلن بعضها بعضًا:

- فاتوا عنبر الغزل.. فاتوا عنبر البرم.. أهم فاتوا عنبر النسيج.. دخلوا ناحية الديزل.. يبقوا راحوا فين يا ترى..؟ آه.. راحوا العنابر الجديدة..

نسأل..؟ نسأل مين؟.. نسأل وقت الغدا. وقت الغذاء.. هنشوفهم.

وازدادت التساؤلات: "أين ذهبوا؟"

وجاءت الأخبار قائلة:

- ودوهم عنبر الفانلات.. عنبر جديد خالص.

وازدادت التساؤلات.. فمنهم من يقول:

- خلاص.. بعدوا عنا..

ومنهم من يقول:

- دورنا جاي..

وآخرون يقولون:

- نضربهم.. نضربهم عشان الشركة ما تعينش..

وازداد العمال غيظًا، واقتنع الكثيرون بالضرب.. ضرب العاملات عند الخروج.. وقال آخرون:

- هنضربهم ليه..؟ إحنا هنعمل زي أهالي المحلة ما عملوا معانا..؟ سيبوهم ياكلوا عيش زي ما بناكل..

وارتفعت أصوات أخرى:

- نضربهم.. حنضربهم.

واقتنعت بالفكرة، واتجهت نحو الولد الغريب، وكان هو قد تحمس، كما تحمس الولد السيد:

- هنضربهم بإيدينا..؟ هنضربهم إزاي؟.. العنابر بتبقى مقفوله ولو واحدة منهم مسكتنا بإيديها مش راح تسيبنا.. هتمسك فينا زي العلقة وهنودي نفسنا في داهية.

قلت:

- وحنعمل إيه..؟

قال الولد الغريب:

- نستناهم وهم طالعين آخر النهار ونضربهم.

- نراقبهم الأول وهم طالعين.. نشوف هيطلعوا إمتى.. وساكنين فين.. ولما نتأكد إن البر أمان نبقى نضربهم ونزوغ بين المكن.

وتوالت الأيام، وكل يوم يمر تزداد العاملات عددًا. لا يخلو المصنع كل يوم من تعيين الكثير من العاملات.. عاملات في العاشرة والحادية عشرة.. خليط من الألوان: فلاحين، ومن البندر، تدفع بهن الشركة في عنابر مختلفة: في التدوير والشلل وفي الفانلات. حددت مواعيد لخروجهن ولعملهن تسع ساعات عمل لجميع العاملات.

وهكذا مرت الأيام، ولم يتمكن أحد من ضرب عاملة فالشركة حددت لهن مواعيد للخروج في الثانية عشرة إلا ربع، بينما يخرج العمال في الثانية عشر، وفي الدخول يدخلن في الواحدة والربع، بينما يدخل العمال في الواحدة، وفي الصباح يدخلن في السابعة والربع، بينما ندخل نحن في السابعة. واكتفت العمال بالبصق على العاملات من أبواب العنابر كلما مررن أمامهم. وازدادت الضغينة، كما ازدادت الكراهية من العاملات، نفس الضغينة التي كانت بين أهالي المحلة والعمال قبل ذلك.

لم يتمكن أحد من ضربهن للاختلاف في المواعيد.. وذات يوم قلت للولد الغريب:

- إيه رأيك.. همه بيمروا علينا في الساعة الخامسة والنصف فإيه رأيك نضربهم وهم طالعين..؟

- نضربهم ازاي..؟

- نضربهم ازاي إيه.. كل واحد مننا يمسك لوحة مليانة بالمسامير المدببة وننتظرهم وهم طالعين.. نعمل نفسنا طالعين نملا اللوح ونروح داخلين في وسطهم ومعشقين المسامير في أفخادهم.. إيه رأيكم في الفكرة دي يا ولاد..؟

وفي نفس واحد قالا:

- فكرة كويسة.. فكرة كويسة..

ورد الولد السيد:

- أهو كدة.. بالطريقة دي نقدر نهرب ومافيش حد يعرفنا.

وذات يوم وقف كل منا على مكنــه، ولــم نــشعر بطــول الوقــت، ولا بالــضجيج، ولا بسرعة حدف المكوك في الأدراج ولا شيء على الإطلاق. ننظر إلى الساعة في انتظــار أن تتحرك وتتوقف على الخامسة والنصف.

كان قلبي يرتجف كلما اقتربت الساعة، وأمسكت باللوحة في يدي أعد فــي المــسامير، قائلاً لنفسي:

كام.. مية..؟ ميت مسمار في اللوحة.. مدببين..؟ أيوة مدببين.. حامسكها مــن هنــا.. أمسكها م الوسط وأدفع بها في فخد أي واحدة.. أي واحده تقابلني.. تتعوّر مش مهم.. مــا دام أهاليهم ولاد الكلب سمحوا لهم بالدخول في العمل.. لما تروح الواحدة مــنهم وتعــيط لأمهــا ويقولوا إن العمال ضربونا.. يبقى أحسن.. راح يمنعوهم.. وبالطريقة دي نبقى كسبنا.. هــو فيه بنات بتشتغل..؟ أمال الرجالة تعمل إيه..؟ البنات للبيت والرجالة للــشغل.. للــشغل فــي المصانع.

وأنا غارق في التفكير حول ما سأفعل، إذ بالولد الغريب والولد السيد الصفطي يأتيــان وبيد كل منهم لوحة من ذات المسامير المدببة، واتجهنا خلف بعض نحو باب عنبر النسيج، في نفس الوقت الذي توقفت فيه العقارب على الخامسة والنصف.

وعلى الباب بدأ كل منا يطل برأسه مترقبًا، وإذا بهن يخرجن من العنــابر مهــرولات، يمسحن من على وجوههن غبار القطن الأبيض العالق بشعورهن، متلفتــات حــولهن كــأنهن يسرن في متاهة، دافعات بعضهن بعضًا. وأخريات يتعــصبن بمناديــل حمــراء وخــضراء وصفراء مشغولة بالترتر، محدثات ضجيجًا في سيرهن.. شباشب تطرقع تك.. تــك.. تــك، وأحذية من ذات الكعب العالي تدق الأرض.

وبينما هن منشغلات في دفع الغبار من على رءوسهن ووجوههن كنا نحن نستعد قائلين في نفوسنا:

"قربوا.. قربوا شوية.. حتستلقوا وعدكم دي الوقت"

كنا نطل.. ثم نعود لنختفي كي لا يروننا.. قائلين في نفوسنا أيضًا:

"أهم.. أهم قربوا.. أهم جم.. جم.. جم يا ولاد.. اهجم.. اهجم.. في أي حتــه.. اغــرز بالمسامير في أفخادهم.. في بطونهم.. في أي حتة من جسمهم".

واقتربن منا، سائرات في تباطؤ، ناظرات للسقف.. للسيور الغليظة الموضوعة فوق العنابر، متأملات في استغراب ثم يعدن يتطلعن من أبواب العنابر على العمال وهم واقفون على الماكينات.

لم تكن واحدة منهن متوقعة أن يحدث ما سيحدث.. لهذا ظللن سائرات في طمأنينة يحكون الأرض بأحذيتهن، ومر الجزء الأول أمامنا، وكن بالكثرة بحيث سددن الطريق.

قلت للولد الغريب:

- اهجم!
- نهجم سوا.
- إوعى واحدة تمسكك من هدومك.
- وانت كمان.

ونظرت لوجهه، فإذا به شاحب مصفر ويدان ترتعشان باللوحة.

ووقفنا في صف ملتصقي الأكتاف، واندفعنا ثلاثتنا كالعميان وسط الصفوف المتراصة دافعين بالمسامير في الأجساد. وانطلقت الصرخات عالية:

يا خرابي.. يا خرابي.. يا دهوتي..

وبدأت الأصوات تعلو ويعلو السباب.. يعلو من كل جانب.

- إلهي يحرق قلب أمكم عليكم.
- إلهي يهرسكم البابور.. إلهي يقطعكم أوتومبيل يا ولاد الكلب.

ونحن نطيح كالمجانين، وهن يجرين من هنا ويجرين من هناك.

وتعلو الأصوات وتعلو..

- يا خرابي.. يا دهوتي.. آه يا امه.. آه يابا.. يا ولاد الكلب

واندفعت إحداهن نحوي بقوة وأمسكت بجلبابي، وآخريات تجرأن وأمسكن بأحذيتهن ورفعنها عاليًا متجهات نحوي، وأخريات، وأخريات وقفن من بعيد رافعات شباشبهن في أيديهن، والصرخات تدوي كأنهن في جنازة يشيعن عزيزًا قد مات.

وشعرت بالمصيبة قائلاً لنفسي: رُحت في داهية مالم أتخلص منهن.. أتخلص إزاي..؟

وأمسكت باللوحة في يدي، واستجمعت قواي قائلاً:

- سيبوني.. سيبوني يا ولاد الكلب.. سيبوني لافتح بطونكم وهن يغرزن أظافرهن بجسدي.

- إلهي يحرق قلب أمك عليك يا ابن الكلب.. هو انت إيه.. عفريت..؟

ووجدت نفسي وسطهن تائهًا، وهن يتكاثرن وشعرت بنقط دم حمراء تنزل من صدغي.. وصرخت إحداهن:

- إمسكيه.. امسكيه من شعره يابت..

وأخرى تقول

- كعبلية.. كعبلية يابت من رجليه.

قلت لنفسي:

"ياه.. مافيش فايدة.. وقعت واللي كان كان.

أفتح بطن واحدة منهم.. أفتحها واجري.. أجري في العنابر.. مين حيشوفني؟

واستجعمت شجاعتي، ودفعت باللوحة بكل قوتي. دفعت بها دون أن أعي وإذا بي أسمع صرخات عالية. فجاءت اللوحة في بطن إحداهن، فارتمت في الأرض صارخة مولولة. فتلهت البنات فيها. واندفعت بنفسي داخل العنابر.

والتفت البنات كلهن حول البنت. ومن خلف المكن القريب من الباب وقفت أتطلع ناظرًا للبنات وهن يرفعن جلبابها ويصرخن عاليًا. ورأيت الدم ينزف من أماكن متعددة في خطوط مستقيمة على فخذها الأبيض فلطخه الدم، وآهات حزينة تنبعث.

- آه.. آه ياني.. آه يامه تعالي لي.. آه يا ابن الكلب.

واقشعر جسدي كلما رأيت الدماء تنزف والدموع تسيل.. دموع من وقفوا بجانبها وهم ينظرون لها تارة وينظرون في اتجاه العنبر مرة أخرى. ولم أحتمل. وإذا بقلبي هو الآخر يخفق كلما رأيتهن يجففن دموعهن، وإذا بعيني هي الأخرى تتساقط منها الدموع على خدي دون أن أبكي. حاولت أن أخفي نفسي لكي لا أرى الدم فلم أستطع فبقيت أختلس النظرات وهن يرفعنها إلى أن قامت شاحبة الوجه دامعة العينين منكوشة الشعر فازدادت الدموع تساقطًا من عيني كلما رأيت البنات ينظفن جلبابها ويمسحن عينيها ويقمن بتسوية شعرها الذي تهدل.. وسارت تعرج بجانبهن.. وحزنت لهذا قائلاً لنفسي:

"هاروح فين من ربنا..؟ كان مالي..؟ لو أصابتني دعوة من الدعوات المقززة التي سمعتها أبقى أعمل إيه..؟ أقول إيه لأمي..؟ أعمل إيه لما تروح الواحدة منهم دي الوقت لأمها وتوريها الدم..؟ حيدعوا علي. حيقولوا يحرق قلب أمه عليه.. أنا خالفت كلام أمي. أمي كانت موصياني أن أكون في حالي.. كثيرًا ما سمعت منها (الخلف الخرة يجيب لأهله النعيله) وكان مالي.. ما تتحرق الشركة على أصحابها.. هو أنا حاعدل الكون..؟! الأرزاق بيد الله.. وهي

أختي حُسنْ مش كانت رخرة بتشتغل..؟ إيه الفرق بين شغل الفاعل والشغل في المـصنع..؟ كانت بتشتغل ليه مش عشان تربيني..؟ ساعدت أمي.. ياما شالت الطين على دماغهـا. يامـا طلعت السقالة وراء البنايين واشتغلت بعد موت أبويا.. اشتغلت مع الرجالة.. وأمـي كانـت عارفه ما حشتهاش.. وما حشتهاش ليه..؟ م الجوع والاحتياج.. مش أحسن ما كانت تمد إيدها لحد..؟ ما هو أبويا مات وما سابلناش حاجة ناكل منها.. ليه ما يكونوش أبهـات دول مـاتوا رخرين وجم الشغل عشان يساعدوا اخواتهم. أختي كانت بتجيب لي حاجات وهية جاية مـن طنطا".

أفكار كثيرة راودتني، ولم أشعر بالوقت. وإذا بالود الغريب والولد السيد الصفطي يأتيان متهللين، قائلين:

- عملنا اللي علينا.. عملناها ونفدنا.

وكل منهما يقول:

- أنا غرزت اللوحة بتاعتي في بطونهم.. وانت عملت إيه..؟ قعدت تقول لنا اجـروا وانت ما عرفتش.. شفناهم ماسكين في هدومك وخفنا نجيلك لاحسن يطبقـوا فـي هـدومنا.. إوعى واحدة منهم تكون عرفت شكلك.

قلت:

- شكلي؟.. شكلي إيه.. ده كلهم عرفوه.

- يا سنة سودة.. رحنا في داهية.. دي الوقت يستنونا.. حيستنونا في السكة.

وشحب وجهاهما عندما قلت لهما ذلك.

- وحنعمل إيه دي الوقت..؟ لازم نستخبى.

وأضاف الولد الغريب:

- نستخبى فين؟

- نستخبى في الزحمة.. نقعد مدة ماحدش منهم يـشوفنا لمـا يتـوه شـكلنا عـنهم.. ما يشوفوش وشنا أبدًا..

قلت:

- حنطلع الساعة الثامنة مساء ونستخبى وسط الناس.. في وسـطهم وهـم طـالعين ونشتري الغموس معانا الصبح ونتغدى جنب المكن.

ونحن منهمكون في الحديث إذ بوردية الليل تدخل.

"آه.. لقد سرقنا الوقت!"

واندفعنا بلا إبطاء وكل منا يمسك بجلباب الآخر. ودفسنا برءوسنا وسط من كانوا أطول منا. وانطلقنا كالريح. وبقينا على هذا مدة. ظننا أنهن قد نسونا. وفي يوم من الأيام، ونحن جالسون بجوار الحائط بجوار عنبر النسيج قبل أن يفتح، إذ بالبنات تأتي من بعيد، فوقفت على حيلي ناظرًا في وجوههن، وكانت مفاجأة لي عندما وقفن قبالتي يتأملن وجهي.

- هوه.. هوده.. مش هوه يا بت ده.

- هوه بعينه.. هوه ابن الكلب يا بت يا محاسن.. اجري يا بت.. اجري يا بت اندهيلها..

وكدت أن أجري من وسطهن.. لكنني خشيت أن تضحك البنات.. ودفع بي هذا للوقوف قائلاً لنفسي:

"ماكنت في حالي.. اللهم اخزيك يا شيطان".

وجرت واحدة منهن إلى الداخل وبقيت الأخريات يشتمن ويلعن:

- إلهي تعدم أمك.. إلهي تعدم اخواتك.

وكدت أن أدفع بقدمي في بطونهن عندما سمعت منهن شتيمة أمي. لكني عدت وقلت في نفسي:

"من الغيظ بيشتموني.. طول بالك ياواد.. اللهم اخزيك يا شيطان".

ولكن حدث غير ما توقعت، حدث أن وجدت عددًا من العمال يمسكون بأيديهم مراين طويلة من الخشب تتقدمهم فتاة ذات عيون خضراء تسرع الخطى تاركة ملاءتها السوداء تجرجر في الأرض، فتاة ذات رموش مدببة وحاجباها مكسوان بشعر ثقيل أسود، ذات وجه أبيض وخدود حمراء ورقبة طويلة مثل رقبة الغزلان التي كثيرًا ما رأيتها في الصور. فهززت رأسي:

- "هية دي؟.. لازم تكون دي محاسن.

وحملقت النظر فيها تاركًا البنات الواقفات بجانبي يولون ويشتمن. هالني جمال منظرها ولم أبال بالشتائم، مانعًا يدي من أن تمد لأن عيني قد بكت يوم أن ضربتهن.

واقتربت الزفة، وأمعنت النظر في محاسن قائلاً لنفسي:

"هية.. هية دي البنت اللي أنا دفعت بالمسامير في جسمها.. هية بعينها اللي وقعت على الأرض متألمة".. وبدأت أستعد لملاقاة الآتين، قائلاً لنفسي:

"يا خرابي.. دي الوقت البنات هيفرحوا.. هيفرحوا لو ضربوني"

فأخرجت المقص من جيبي، وأطبقت عليه في يدي قائلاً لنفسي:

"لو ضربوني مش حا اقدر أقيم وشي في وشهم.. دول لازم من المحلة".

واندفع الولد الغريب كما اندفع الولد السيد الصفطي مشمرين عن الأذرعة، وكـــادوا أن يضربوا البنات الواقفات، لولا أني غمزت لهم بأن يبتعدوا عنهن قائلاً:

- استنوا.. استنوا لما نشوف.

وقد تسمرت عيني على إحدى المراين الطويلة التي في أيديهم:

"حاخطفها.. حاخطفها من إيده وأدور الضرب على طول لو ضربني، مستعينًا بكلمـــات أخي: (العصاية السابقة سابقة).

واقتربت من الولد الغريب مذكرًا إياه بما سمعته من عبد العظيم يوم أن هجم علي أهالي المحلة. مستذكرًا قوله:

"اهجم يا ولد.. اضرب يا ولد.. اضرب يا ولد في أي مكان ما تهابش".

قلت لهم هذا في السر، ووقفنا مستندين بأيدينا على الحائط في انتظار ما سوف يحـــدث. وإذا بالبنت تتوقف ناظرة متأملة، والعمال من خلفها يصيحون:

- فين؟.. فين؟.. فين هوه.. شاوريلنا عليه.. فين ولاد الكلب؟

وإذا بالبنت تنظر في وجهي:

- أهه.. هو ده بعينه.

وعندما قالت ذلك، إذا بالمراين ترتفع. كادت أن تهوى على رءوســـنا لـــولا أن أملـــت رأسي، فهوت على الأرض فانكسرت. فهجم الولد الغريب على إحداها، كما هجم الولد الـــسيد على أخرى، واختطفت ذراع ماكينة كانت بيد أحدهم ونزلت بها ضربًا دون أن أحدد الهدف. وصرخت البنات مولولات، وقد شعرت أنهم بكثرة بحيث إنهم سيغلبوننا. قلت:

"حاضرب بالمقص.. أعور واحد.. أسيح دمه.. لما يشوفوا الدم بيشرشب من واحد الكل حايخاف" وفتحت المقص، وبدأت أضرب في الواقفين خبطًا هنا وخبطًا هناك إلى أن جـــاءت خبطة في كبشة واحد، فارتمت العصا من يده، ولم أتوان في اختطافها، وإذا بصوت يقول:

- يا نهار أسود!.. عيال حتضرب رجالة.. مافيش حد قادر يمسكهم.. امسك يا جدع.

كنا نضرب ونزوغ بعيدًا خوفًا من أن يمسكنا أحد، زاعقين:

- اضرب يا ولد في أي حته.. في دمغتهم.. في رقابهم.

وشجعتنا العمال الواقفة، وقد تعوّر أكثر من واحد، وتوارى بعضهم هربًا بعد أن تـــدخل الكثير من العمال، ولم يبق سوى البنات ملتصقات بالحائط يصرخن، وقد توجه الولد الغريـــب نحوهن قائلاً بصوته الغاضب:

- جبتوا عجولكم.. أهم جريوا.

وكاد أن يخبط إحداهن بالعصا لولا أن منعته.

وسارت البنات يجرين، ماسكات أطراف جلابيبهن بأيديهن، يتطلعن خلفهن مكسورات الخاطر، وكنا ننظر لهن ونحن ممسكون العصي بأيدينا، وهن يبتعدن عن العنابر يشتمن من بعيد.

وقفت على المكن، والتف حولنا البعض:

- نهاركم أسود.. ليلتكم سوداء.. حتموتوا النهاردة أكيد.. دول من أهالي المحلة.

- زي بعضه.

- حيستنوكو برة.

- مش مهم.

- وفي الوقت الذي كانت العمال فيه تحدثنا كانوا هم هناك مع بعض يقولون:

- دول لازم مش لوحدهم.. فيه عيال تعمل كدة.. دول لازم من العصابات الموجودة.. يا من عصابة المنوفية يا من عصابة الجعفرية، وحنعمل إيه..؟ نروح ونصالحهم.. هم البنات هينفعونا..

وجاء العمال يبحثون عنا خلف المكن.. وعندما رأيتهم أمسكت العصا بيدي، وإذ بهم يقولون:

- إحنا عمال زي بعض.. مالناش إلا بعض.

وقال واحد منهم:

- هو اللي يسمع كلام البنات يكسب.. تعالوا بكرة.. تعالوا بعد الضهر نعرفكم بشغل الفانلات.. نفرجكم على المكن ونوريكم البنات وهيه بتشتغل.

وسررنا لهذا.. وفي اليوم الثاني توجهت أنا والولد الغريب والولد السيد الصفطي إلى عنبر الفانلات، وفي انتظارنا كان أحدهم واقفاً أمام العنبر وعندما دخلنا وقفت البنات تنظر، ينظرن في ذهول قائلات في نفوسهن:

"الله.. دول اتصاحبوا.. ماهم رجالة.. يا عيني علينا.. يا عيني ع الولايا.. الولايا دايمًا ولايا ومنكسرين"

وعيناي تبحث في كافة الماكينات.

"أين محاسن..؟ أين هي لتراني"

وإذ بها تقف بجوار إحدى المكن تنظر هي الأخرى، وتعمدت الذهاب نحوهـا، وعلـى الماكينة توقفت كالقائل لها:

"أهه.. من أتيت بهم لضربنا أدينا ضربناهم وبقينا النهاردة حبايب..

والتقت عيناي بعينيها وتسمرت، وأشاحت بوجهها لتخفي ابتسامتها.

وقد تصورت أن الوقت قد تأخر بعد أن رأيت كل العاملات، فأخذت الولـد الغريـب والولد السيد الصفطي مشيعين بنظرات العاملات وهن مثلنا على المكن يشتغلن.. الفرق أنهن يشبهن العصافير. إنهن يعملن مثلنا تمامًا، فمنهن من كانت خائفة وهي تقترب مـن الماكينـة مثلما كنت خائفًا عند بداية التعيين، ومنهن من كانت تكنس الأرض وتدفع بثوبها إلى ما فـوق الركبة مثلما كانت رتيبة تكنس حوش منزلنا. وكان بعض المباشرين يجلسون على الكراسـي حانين رءوسهم مختلسين النظرات إلى ما تحت تلك الملابس، هازين أقدامهم. فخرجت بعد أن رأيت كل ذلك خاشيًا على البنات منهم.

وفي الساعة الخامسة اجتاحتني رغبة أن أرى البنات وهن يخرجن لأريهم نفسي، وفـي الموعد المحدد أخذت الولد الغريب معي، وعندما رأتنا البنات توقفن فجأة عن السير نـاظرات لنا. ومن الخوف قلن:

- تعالوا يا بنات.. تعالوا ابعدوا عن ولاد الكلب.. دول واقفين.. ومنهن من استمر في الوقوف واستمر في السب واللعن: قاطعين علينا الطريق.. قاطعينه علينا يـا ولاد الكلـب.. مالكوش اخوات؟!

ومنهن من كانت تزعق:

- اخلعوا الشباشب يا بنات.

ووقفنا من بعيد نضحك وتقدمتهن محاسن:

- تعالوا يا بنات.. تعالوا ما تخافوش.

دافعة ملاءتها على كتفها.

أحبت أن تتجرأ، وبدأت في المقدمة، ولكن البنات وقفن خائفات واضعات أيديهن علـى صدورهن، شاحبات الوجوه.

ومحاسن تزعق:

- تعالوا.. تعالوا يا بنات.. تعالوا ما تخافوش.

وأردنا تخويفها.. تخويفها فقط، فدورنا الجري نحوهن، وإذ بهـا تعـود إلـى الخلـف مسرعة.

- يا خرابي.. يا خرابي.

وجرت البنات الأخريات. ووقفنا نضحك، نضحك عاليًا. وهن من بعيد يولولن..

وتظاهرنا بأننا دخلنا العنابر، واختفينا وراء الأبواب. وسرن يتحسسن الخطى، خطوة وراء الأخرى، مطلات برءوسهن. وعندما أحسسنا باقتراب أقدامهن اندفعنا خارجين، وإذا بهن يعدن أدراجهن ممسكات بجلاليب بعضهن. ومحاسن بينهن تضحك. ووقفنا أيضًا نضحك من بعيد، ملوحين بأيدينا:

- تعالوا.. تعالوا.. تعالوا ما تخافوش.. إيدينا فاضية أهي.

رافعينها إلى أعلى، وأصواتنا تعلو:

- أهي فاضية أهي.. تعالوا.

ولكنهن استمررن في خوفهن.

ومن على المكن القريب من الباب وقفنا نتطلع، ورأيناهن وهو يندفعن كالريح خالعات شباشبهن. وخرجن من جديد وهن يتطلعن حولهن ومحاسن في المؤخرة تبتسم. واجتاحتني رغبة ملحة في السير خلفها، ولكن الخوف من الغرامات كان حائلاً.. واتجهت نحو ماكينتي قائلاً لنفسي:

"لو كانت أختي زينب مثلها لحطيتها بين عيني".

وعدت وقلت:

"بنت زي دي تطلع وتتبهدل" لو كنت من أهلها أديها زي ما هي عاوزة. وأنا كنت ليه باعمل كدة؟ بنت زي دي أضربها؟؟! عملت من كلام الناس وطلعوها في دماغي.. همه أهلها ودوها الشغل ليه؟ ماودوهاش إلا للاحتياج. بنت زي دي تتلف في الورق.

وتصعبت في نفسي:

"أختي ياما شالت طين على دماغها.. ياما طلعت وراء البنايين اشتغلت علشان أمي وعلشاني.. هي كانت أكبر مني، وأخويا الكبير إبراهيم سابنا ومشي.. اتجوز وخد مراته ومشي.. يمكن تكون دي أبوها مات وأمها مشغلاها زي أختي ما اشتغلت".

اجتماع مع فرج أفندي

وأنا غارق في التفكير، إذ بأحد الميكانيكية يخبط بمفتاح على أجناب إحدى الماكينـات، فتلفت، فإذا به ينظر في وجهي متأملاً:

– أنا شفتك الأيام دي بتتلامض.. شايفك بتتنطط قوي.. مش رايـح تجيبهـا البـر.. ما فيش حد راح ينفعك.. خليك في نفسك ومالكش دعوة بحد.

قال ذلك وتركني. ولم أعرف سببًا لهذه الكلمات سوى أنني قد اعتقدت أنه قـد عـرف ما حدث مني قبل العاملات. فنظرت له في غيظ وهو يبتعد قائلاً لنفسي:

"انت مالك.. مالك انت.. لك دعوة بيّ..؟؟ هو انت عامل ريس؟؟.. انت عبارة عن حتة ميكانيكي.. يا دوب حتة ميكانيكي ماهيتك كام؟؟.. مش ستة صاغ؟؟.. وإيه يعني ستة صاغ.. أنا قريب منك مع إني لم أتعلم.. ماهية فالصو. ومع هذا فأنت تعاملنا مثلمـا تتعامـل معـك الرءوساء الكبار لا فرق بينك وبينهم مع إن ماهياتهم أكثر منك بكثير.. أضعاف مـضاعفة.. انت قلدتهم.. بتقلدهم في المعاملة؟ مهما فعلت فأنت زفت وقطران.. كنا فاكرين انكم أحسن.. كنت فاكر انك حتعاملنا معاملة أحسن من معاملتهم. عملتم زي المثل اللي بيقول: (طلعت ستي أزرط من سيدي) تعلمتم في المدارس كيف تحتقرون العامل.. العامل الفقيـر مثلـي. إنكـم تعاملوننا على هذا الأساس.. تعتبرون أنفسكم نخبة مختارة. مثلما قال وكيل النيابة يومًا!! فاكر إيه..؟ فاكرها سايبة؟ ما خلاص عباس حليم راح ييجي.. جاي من مصر، وحيربطكم ويلففكم زي القرود في السكك".

وتركت المكن شغال، واتجهت نحو عبد العظيم ممتلئًا بالغيظ، وإذا به واقف على المكن كالزنهار يبتسم.. عندما رآني قلت سائلاً:

– عباس حليم جاي إمتى؟.. اتأخر ليه؟.. المباشر بيهددنا.. دايمًا بيهددنا.

فأسرع قائلاً بعد أن تلفت حوله:

– بتسيب مكنك ليه؟ دايمًا بتسيبه.. روح على مكنك وماتسيبهوش أنا مش قلـت لـك أكتر من مرة خليك في حالك؟ هو انت مش عارف إن من يوم عباس حليم ما جـه بيتلككـوا على العامل..؟

قلت:

– أنا جاي أسألك. عباس حليم جاي..؟ وجاي إمتى..؟

فوضع يده على كتفي، وقال بصوت منخفض:

- الأسئلة اللي زي دي تبقى برة.. احنا دي الوقت في الشغل والعمل فيه ناس رقباء. لازم تعرف الحكاية دي.. اعرفها من دي الوقت.. العمل عمل والنقابة نقابة. النقابة شيء والعمل شيء آخر.. في النقابة تتكلم زي ما انت عايز.. تقول ما في الخمر، لا حد ييجي ناحيتك ولا يقولك انت بتقول إيه.. بعيدًا عن الرقباء. أما هنا زي ما انت شايف.. المكن حيتعطل.. حيتعطل واحنا واقفين نتكلم.

ولوح بيده نحو عاملين يتكلمان:

- أهم واقفين والمكن بتاعهم واقف.. متلهيين عن الشغل تقدر تقول آخر المدة الواحد منهم يروّح بكام مليم؟

وهز رأسه:

- ولا حاجة.. انتبه لشغلك.. القرش اللي في جيبك هو اللي ينفعك.. والقرش مش راح ييجي إلا بالشغل.. الشغل ده..

وخبط بيده على الماكينة.

- انت مش عاجبني في أحوالك الأيام دي.. رايح جاي تتنطط.. انت مش لك أهل..؟ هي مش أمك محتاجة منك قرش.. مش قلت أبوك ميت..؟ قلت لي أول ما تعينت.. ليه ما تراعيش دلوقت أكل عيشك..؟ مرة في مرة تتفصل.. لولا إنك عامل جدع كان الميكانيكية فصلوك.

لكن جدعنتك في الشغل هي اللي حامياك.. روح.. روح انت دي الوقت ع المكن وفي النقابة نبقى نتكلم.. الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح.

ودفعني من كتفي:

- في الخارج نبقى نتكلم.. في النقابة هناك.

اتجهت فور خروجي إلى النقابة عسى أن أجد ما يطمئنني، عسى أن أعرف عن مجيء عباس حليم، عن قرب مجئ الزعيم المنقذ. كنت متلهفًا أن أسمع شيئًا عما يخيف الرءوساء ومن هم على شاكلهم، متلهفًا على سماع قرب مجيئه لمنع الشركة من الاستمرار في تعيين العاملات. كنت متلهفًا أن أسمع عن قرب اليوم الذي تنتهي فيه عمليات الظلم التي نلقاها.

كنت أدفع بنفسي وسط جموع العمال المتعبة السائرة وهم يجرجون في أقدامهم مطمئنًا نفسي عما سوف يحدث.

كانت السماء تملأها السحب والنجوم تلمع. وأمام باب البوستة وتحت ضـوء الـثلاث لمبات التي في عامود النور كان مصطفى محمد والكافوري وآخرون وآخرون غيرهم واقفين في حلقات صغيرة متناثرة يتطلعون في الاتجاه إلى شارع البهلوان بينما كانت عمال أخـرى كثيرة يتجهون إلى منازلهم مطاطئي الرءوس من كثرة التعب. واتجهت نحو الحلقة التي يقف فيها مصطفى، قائلاً لنفسي:

"إيه اللي موقفهم هنا..؟ ليه ما روحوش؟..

ويجواره توقفت، ولكنه لم يكلمني.. كان محتقن الوجه.. والاصفرار قد تغلب على لون وجهه الأسمر، ومحمد الكافوري تصطك أسنانه. مع إن الجو كان دافئًا، فوقفت بجوارهم أنـا الآخر، واندفع مصطفى إلى حلقة ملتصقة بالحائط، هامسًا فـي أذن أحـدهم، فتحركـوا فـي اتجاهات عديدة، ثم عاد سريعًا وحملق في الوجوه:

- الله.. انت جيت..!.. انت جيت إمتى؟
- جيت من شوية.
- أمال ما شفتكش ليه؟
- ازاي ما شفتنيش؟.. ده أنا وشي في وشك م الصبح.
- والله الواحد يظهر عليه راح يتعمي.. والله ما شفتك.

وأضاف:

- فين عبد العظيم؟

قالها في حزن.

- مش عارف.. هو ما جاش؟

كان يكلمني وعيناه تتطلع في طول الشارع وعرضه، وإذ بأحد الأفندية ببنطلون أزرق به بقع كثيرة سوداء وقميص أخضر بأكمام طويلة مليء بالزراير الصفراء، رفيع الجسم طويل القامة أبيض البشرة وعيناه خضراوتان وشعره طويل تدلى على وجهه، يقـف بجـوار أحـد المطاعم المجاورة للبوستة، وأسرع مصطفى قائلاً:

- أهه..

قالها بشغف.

- أهه..

واتجه نحوه في خطوات مسرعة، واستمر وقوفهما طويلاً.

ووقفت مستغربًا، وكدت أن أسأل محمد الكافوري عما حدث، وإذ بمصطفى محمد يعود من جديد ومن خلفه الأفندي ذي البنطلون الأزرق. وأخذ محمد الكافوري وهمس في أذنه، ثم عاد من جديد وأخذني أنا الآخر وقال:

- انت ساكن فين؟

- في صندفا..

فهز رأسه وتركني مرددًا:

- دي بعيدة.

وأخذ أحد الواقفين وهمس في أذنه هو الآخر، ثم عادوا ووقفوا ساهمين وفجأة قال مصطفى:

- اتفضل.. اتفضل يا فرج أفندي.. اتفضل نروح عندنا.. عندنا في البيت.

قلت منفعلاً:

- بيت إيه..؟ بيت إيه دي الوقت. أنا جاي أسأل بس راح نعمل إيه..؟ الرعوساء بتهددنا. جاي أسأل.. عباس حليم جاي؟ وجاي امتى..؟ الواحد وسطه انكسر.. انكسر من الوقفة على أربع ماكينات.. لسة هنروح البيت ونقعد تاني!

فأمسك مصطفى بيدي وضغط عليها بقوة ضغطًا لم أعهده.

ومط بوزه في أذني:

- احنا حنقول لك.

وسار في المقدمة، ومن خلفه كان فرج أفندي. وتلفت حولي باحثًا عن عبد العظيم فلم أجده. آه.. لقد تأخر وكانت العمال تسير جماعات جماعات. وعدت ونظرت إلى الشارع.. شارع البهلوان: المكان الذي كان على ناصية المقر الذي اتخذه عباس حليم مقرًّا للنقابة عسى أن أرى العمال وهم يطلون في الترسينة على السائرين في الطريق، فلم تقع عيناي على أحد، وأطلت النظر أكثر مارًّا بعيني على الحجرات، فلم أجد ضوءًا ينبعث، حتى اللمبة الحمراء الموضوعة على اليافطة، كانت هي الأخرى مطفأة. فأيقنت أن هذا الاجتماع في بيت مصطفى له علاقة بالموضوع، وأن فرج أفندي ذا البنطلون الأزرق ما جاء إلا لهذا الغرض. فأسرعت السير بجوارهم.

وفي أطراف حي سوق اللبن توقف مصطفى محمد قائلاً:

- اسمعوا يا جماعة.. مافيش عندي في البيت حاجة.. استنوا لما اجيب عودين قصب، نتسلى فيهم واحنا قاعدين بنتكلم.

وأمام دكان صغير جدًّا ينبعث من داخله ضوء خافت من لمبة صفيح ذات شريط من القطن عبأ الدكان كله بالدخان الأسود توقف. وعلى الباب كانت امرأة تجلس على كوم من القش، بيضاء، تضع يدها على خدها، وأمسك مصطفى بأحد عيدان القصب قائلاً:

- بكام يا ست؟

وهمت المرأة مفزوعة كأنما كانت في حلم، وتنهدت وهي تشير برأسها:

- العود اللي في إيدك ده بقرش واللي جنبه بقرشين.

ووقف مصطفى يقلب في العود، وقال:

- ده مليان سوس.. مافيش غيره؟

وكانت المرأة قد سرحت من جديد ولم ترد. فعاد مصطفى:

- مافيش غيره؟.. ما فيش غير ده؟

انتبهت المرأة.

- فيه.. فيه ياخويا، عاوز كام؟.. يا بنت يا محاسن.. يا محاسن هاتي لبشة من عندك.

ورن الاسم في أذني.

"محاسن.. محاسن مين؟ .. الاسم ده أنا سمعته من قبل.. هي.. هي البنت دي.. ماتقولش إلي أنا كنت شفتها.. هية لازم البنت اللي أنا ضربتها في الشغل..؟.. مش معقول تكون هية.. إيه اللي جابها..؟ دي بنت حلوة، إيه اللي يخليها تيجي وتبيع قصب في دكان زي ده..؟ مش معقول تكون هية.

وتأهبت للجري وأمسكت بذيل جلبابي في أسناني وقلت لنفسي:

"هاتقول لأمها.. لو هيه.. حتقول لها: هو ده اللي ضربني.."

كدت أن أقول لمصطفى: ماتسيبه.. سيب العود وتعالى أحسن الليلة مش حاتفوت. لكن البنت كانت قد خرجت تحمل لبشة من عيدان القصب طويلة جدًّا من بيت مجاور للدكان. وركنت اللبشة للحائط. ووقفت أمامنا تصلح من شعرها الطويل المتهدل من آثار حمل القصب. وتأملت وجهها.. "دي هية.. هية والله". وتزحزحت إلى الخلف، وأدرت ظهري، وفكرت في الجري، وجاء صوت مصطفى يناديني:

- تعالى.. تعالى ونقي ويايا..

وعملت نفسي مش سامع، فزاد في المناداة، فجعلت نفسي مره أخرى مش سامع، فشدني من جلبابي:

- تعالى.. تعالى ويايا.

فاعتدلت واضعًا رأسي في الأرض لكي لا تراني البنت، وكانت البنت وأمها تنظران وبيد كل منهما عود تقشره. فتأملت البنت وجهي واستمرت تتأمله، وكأنها تقول في نفسها: "هو ده.. هو ده اللي ضربني". وخشيت أن تصرخ في وجهي، وانتابني الخوف عندما اقتربت البنت من وجهي، فحاولت إخفاءه لكنها وقفت متصلبة. واحتقن وجهي، وتزحزحت إلى الوراء خطوه.. وإذ بها تقف ساهمة واجمة، وأمسكت بعود القصب الطويل في يدها. وأحسست بالخوف من أن تدفع العود في وجهي.. "ياخرابي. حتضرب. حتضربني بالعود. أنا دي الوقت قدام بيتهم، الكلب ما يتشطرش إلا قدام بيته. حتقول لأمها. أهي حاتقول.

وانتظرت أن تفعل، لكنها بقيت صامتة، وشجعني هذا الصمت، وأطلت النظر فيها، قائلاً: "خلاص. هي علقة والا اكتر. قرب يا ولد.. قرب عليها.. قول لها العود ده بكام".

وأمسكت بالعود:

- أحسن ده يا مصطفى.

ولمحت ضوءًا ينبعث من عينيها، لمحتها من خلال الظلام.

وكانت هناك دموع محبوسة، تأملتها وهي واقفة تقلب في القصب، تأملت ما تلبسه قائلاً لنفسي: "جلباب قديم مقطع، كثير القطوع من الجوانب وكثير الرقع على الصدر. هذا ما تلبسه البنت هنا في البيت، وفي المصنع جلباب جديد كاشف للركب، والسائرون في الطريق ينظرون في شغف وهي تسير، وفي شغف ينظر الميكانيكية وهي تتمخطر بين المكن. مين حيمنعهم من إطالة النظر؟ مين حيمنع إيديهم من أن تمسك بالأذرع العارية؟ مين حيمنع الأيدي من أن تمتد على هذه الصدور؟.. إنها لو لم تستجب سوف تطرد، سوف تفصل من العمل واستغرقت في شرودي.. ما الذي يدفع البنت أن تترك البيت وتذهب إلى المصنع وسط هذا الجمع الكبير من المباشرين والرءوساء من ذوي القلوب الغليظة التي لا ترحم. مين السبب في إرغامها على الذهاب إلى المصنع تسير وسط هذا الجمع من المباشرين والمساعدين الذين يسيرون في الشارع يقولون للأرض انشقي ما عليكي قدي.. ما من مرة أسير فيها في الشارع إلا وأجد الكثيرين منهم من الأفندية يطاردون النساء الجميلات في الشارع.

فما الحال إذا وقعن تحت أيديهم في عمل يستمر ساعات وساعات بنفس الفساتين الكاشفة".

ونظرت في إشفاق إلى البنت وأمها قائلاً في نفسي:

"مين.. مين يا ترى يدفع الأذى عـنكم..؟ مـين.. مـين المـسئول..؟ ده احنـا لحـد دي الوقت لم نستطع أن نمنع الأذى عن أنفسنا".

وعدت ونظرت لوجهها الشاحب المصفر قائلاً لنفسي:

"إنها لم تكن تود لي ولأمثالي من العمال أن يروها في الدكان وهي تبيع القصب للنـاس مع أمها. كانت تود ألا نراها إلا بفستانها الجديد وحذائها اللامع لا بتلك الملابس المهلهلة. هذا بالتأكيد ما دفع بها إلى الغضب.

وكان مصطفى محمد قد دفع ثمن ما اشتراه. وسرت بجواره تاركًا البنـت فـي نفـس المكان جنب لبشة القصب معقودة اللسان لا تتكلم.

وفي منزل في إحدى العطف المعتمة دخل مصطفى في حجرة على الشارع مفروشـة بالحصير ولها أربعة شبابيك.

جلس فرج أفندي ذو البنطلون الأزرق على الطرف دون أن يخلع الحذاء كمـا وقـف مصطفى وأمسك بعود القصب وعلى ركبته كسره إلى نصفين، ثم إلى ثلاثة، ثم إلى أربعة إلى أن حوله إلى قطع صغيرة وقذف بها أمامنا وهو يردد:

- لو كان عندنا وابور كنا عملنا لكم شاي.

فرد محمد الكافوري:

- القصب أحسن.. بيروق الدم ويجلي الصدر من الغبار.

وعاد قائلاً:

- ماتياللـه يا مصطفى اتجدعن علشان نشوف فرج أفندي حايقول إيه.

فرد فرج أفندي بصوت ليس عاليًا:

- مش حاقول إلا كلمتين.. كلمتين بس سمعتهم النهاردة من الرئيس.. رئـيس القـسم المباشر.

قال مصطفى:

- ما تخلع الجزمة ونخش على الحصيرة.. اقعد مستريح.

فرد فرج أفندي بنفس الصوت الهادئ:

- بتعذبني لما باجي ألبسها.

وأضاف:

- الموضوع ما يستاهلش.. أنا جيت أقول لكم علشان تكونوا على بينة.

قلت متسرعًا:

- إيه الحاجات دي؟

- حاجات خاصة بالنقابة.. النهاردة سمعت من الرعوساء الكبار جدًّا إن عباس حلــيم مش جاي. ولما سألت قالوا فيه ناس من مصر تدخلوا.. ناس كبار جدًّا اتصلوا بيه وقالوا لــه ما تروحش.. ناس من قرايبه.

قال محمد الكافوري منفعلاً:

- مين اللي راح له..؟ .. مين اللي راح من قرايبه؟

فرد مصطفى في غيظ:

- يبقى مين..؟ يبقى الملك.. مافيش غير الملك.. ما هو أصله نبيل.. م العائلة المالكة.

فرد فرج أفندي في صوت أكثر حدة:

- الوسايط.. ما فيش غير الوسايط.

قلت:

- ما فيش فايدة.

فرد مصطفى بعد أن جز على أسنانه:

- طبعًا مافيش فايدة.. هو أنا مش قلت.. مش قلت قبل كدة مش معقول واحد قاعد في مصر وعايش في مصر راح يقدر يعمل حاجة للعمال.. دول غلابة.. لهم رب.. مش قلت لكم الكلام ده في القهوة.. جالك كلامي يا محمد؟ عشان تعرف.

وأطبق الصمت على الحجرة، وقاطعه محمد الكافوري:

- يعني الهيصة بتاعتنا ما نفعتش.. الهيصة راحت ع الفاضي.

يا قوة الله يا رجالة.. يا خسارة التعب اللي تعبناه..

فقاطعه فرج أفندي قائلاً:

- مافيش حاجة راحت في الفاضي.. احنا كسبنا.

فرد مصطفى بصوت كئيب محزون:

- إيه الكسب اللي كسبته العمال؟

قال فرج أفندي في حدة..

– أقل شيء كسبناه موقف العمال، وتضامنهم يوم ما قابلوه والكلام اللي سمعوه والخطب اللي سمعوها.. شعور الرءوساء الكبار بكراهية العمال لهم.. هو ده اللي نقدر نقول كسبته العمال.. لولا خوفهم من العمال ما كانوش جريوا للبحث عن واسطة.

فهز مصطفى رأسه:

– صحيح كل ده حصل.. وراح يحصل.. ولكن الكلام مش راح يفضل.. مش راح ينفع حنبقى زي ما احنا لا زيادة ولا حاجة. يبقى مافيش حاجة كسبتها العمال.

قال هذا وسكت.. بينما هز محمد الكافوري رأسه هو الآخر قائلاً:

– الغلابة طول عمرهم يبقوا غلابة.. صدق المثل اللي بيقول المية ما تطلعش في العالي.

فرد فرج أفندي:

– بتقول إيه؟.. كلام إيه اللي انت بتقوله ده.. ميّة إيه يا جدع انت وهو اللي ما بتطلعش في العالي.. هو انتم مش فلاحين والا إيه..؟! هو الفلاح لما بيدّور الطلمبة اللي في الأرض بتطلع الميّة والا ما بتطلعهاش؟.. بتطلعها من سابع أرض.. بيحصل والا ما بيحصلش؟.. اتكلم انت وهو.. والا إيه يا سي مصطفى..؟ والا إيه يا سي محمد..؟

قالها متهكمًا:

– كلام فاضي اللي عمالين تقولوه.

فابتسم مصطفى ابتسامة صفراء..

– وانت حتزعل ليه.. الشركة وأصحابها؟.

فهب فرج أفندي وقال:

– أنا ميكانيكي وممكن أبقى كويس لو مشيت وياهم. لكنني فضلت السير معكم، وأبلغكم كل ما حدث.. تقوموا انتم بتهدّوا من عزيمة الواحد بالكلام الفاضي اللي بتقولوه انت وهوّه..

قال هذا وسكت.. ووضع يده اليمنى في جيب بنطلونه الأزرق. واقترب من مصطفى قائلاً:

– قمت ليه..؟

فرد في غيظ:

– أنا جاي أقول لكم بس علشان ما فيش حد منكم ينصدم.

فرد مصطفى قائلاً:

- قول لنا نعمل إيه؟

فرد فرج أفندي في صوت يشبه الصمت:

- شجعوا العمال.. شجعوهم.. الرعوساء من بكرة حتقول لهم اتسندتوا علـــى حيطـــة مايلة.. هيهدوا من عزيمتهم.

فارتفع صوت محمد الكافوري:

- صحيح اتسندنا على حيطة مايلة.. الرعوساء حيقولوا كدة واحنا حنقول إيه..؟

فازداد فرج أفندي غيظًا.

- إذا كان عباس حليم استجاب للواسطة احنا بكرة نعملها.. وديك الساعة مـــا حـــدش منهم حيقدر ييجي ناحيتنا.. عرفنا الطريقة، عرفنا إن ما فيش حاجة ممكن ما تتعملش.. كـــل شيء ممكن عمله.. بكرة النقابة نعملها إحنا ونخلي رئيسها من العمال..

فصمت محمد الكافوري، كما صمت مصطفى، وساد الصمت لحظة قطعه فرج أفندي قائلاً:

- قولوا للعمال كدة.. وأنا رايح أقول للميكانيكية والمباشرين الجدد.. حاخليهم يبقوا مع العمال.

قلت:

- واحنا راح نفضل كدة ساكتين؟.. إحنا كتبنا شكاوى في الأول.. ما نكتبها من تاني.. نكتبها للحكومة.

فابتسم فرج أفندي وقال:

- دي فكرة.. فكرة ممكن نعملها.

فرد الكافوري:

- ما احنا عملناها.. هو احنا لسة راح نعملها؟

وتمشى فرج أفندي في الحجرة جيئة وذهاب وهو يتمتم.

- بكرة نعمل النقابة.. نعملها لما تتجمع العمال.. حييجي يوم، واليوم ده مش راح يبقى بعيد طالما أصبحنا منتبهين.

ومد يده وهو متجه نحو الباب، وضغط على أيدينا قائلاً:

- بكرة في المصنع حنتقابل.

وعلى الباب الخارجي قلت لمصطفى:

- ما فيش سكة غير دي..؟

- مالها دي..؟

- سكة بعيدة عن الدكان.. بعيدة عن الولية ودكانها.

قال مذهولاً:

- ليه..؟ مال الولية ومالك..؟

قلت:

- أصلك انت ما شفتش.. عارف.. أصل البنت دي هية اللي ضربتها في المصنع.

فوضع أصابعه بين أسنانه قائلاً:

- آه.. أتاري أنا ما خدتش بالي.. ما خدتش بالي وانت واقف بتترجف. ما شفتش البنت دي وهي ساندة راسها للحائط وما بتتكلمش.. امش من الشارع ده وما توريش نفسك.. أوعى توريهم وشك.

وهمس في أذن محمد الكافوري قائلاً:

- الولية دي غلبانة.. فتحت الدكان بعد جوزها ما مات.

قالها وتصعب، وأضاف:

- الدنيا.. الدنيا مش على حالة واحدة.. الواحد كل يوم بيتعلم لا بتخلي العالي عالي ولا الواطي واطي.. تعرف الولية دي يا محمد من سنة ما كانتش تقدر تبص م الشباك.. ولية كانت تقول للقمر قوم وأنا اقعد مطرحك. جوزها كان بيغير عليها حتى م الهوا.. تشوفها دي الوقت تتحسر.

ولم يرد محمد الكافوري واكتفى بهز رأسه. قال هذا وافترقنا، وهو يردد:

- دنيا وحشة.. لا بتخلي الراكب راكب ولا الماشي ماشي.

وفي الطريق إلى المنزل قلت لنفسي:

"من سنة كانت أم محاسن هذه الشباك ما يشوفش وشها. واليوم تجلس بالباب لتبيع القصب لكل من يسير في الطريق.. يشوفوا وشها ويشوفوها كلها".

وأثارت هذه الكلمات ذكريات قاتمة، قلت في نفسي:

"أمي كانت كدة.. كانت في نفس الجمال.. ولما مات والدي اتبهدلت حتعمل إيه.. إذا كانوا ماتوا ولم يتركوا لنا شيئًا نأكل منه، وبنتها راحت المصنع، الحال من بعضه.. كل الناس اللي بتشتغل أبهاتهم ماتوا واتيتموا زي ما اتيتمت. لقمة العيش بتجبر الواحد والواحدة على الشغل.

إلى أن تضاء اللمبة من جديد

ودخلت حجرتي قبل أن يطول بي التفكير فلم أجد لا الولد الغريب ولا الولد السيد الصفتي مع إن الوقت قد تأخر. فجلست أفكر فيما سوف أسمعه وما قد سمعته، قائلاً لنفسي:

"الرعوساء حيقابلونا بشماتة.. حيقولوا جت الحزينة تفرح ما لقتلهاش مطرح.. حيكونوا هم أكثر شماتة.. راح ييجي الواحد منهم ويمسك الراجل من قفاه وحيقولوا احنا مش قلنا لكم.. مش قلنا لكم عباس حليم مين وبتاع مين.. ما حدش يقدر يخشها.. حيقولوا.. وحيقولوا.. وانا.. حاقول إيه..؟ حاقول مالكمش دعوة.. حاسيبهم وأقول الكلام ده للعمال.. العمال ماهماش في حاجة إلى كلام آخر.. حنزعل شوية. لكن الزعل راح يعمل إيه..؟ بكرة كل واحد راح يعرف.. يعرف الحقيقة من نفسه.. ما عادش ممكن الضحك علينا.. ما عدناش نتسند على حيطة من الطوب الني زي ما حصل.. ما عدناش نتسند إلا على حيطة من الطوب الأحمر".. وبينما كنت أفكر كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يدخلان، وعندما رأيتهما قمت واقفًا.

- كنتو فين..؟

- كنا فين إيه..؟

قالوها في تلهف.

- كنا بندور عليك.

وعادوا في همس:

- انت مش راح تبطل.. مش حتبطل تسيبنا وتمشي..؟ رحنا النقابة ودورنا عليك. لقيناها مقفولة. وعمال بتروح وعمال بتيجي.. الكل يحوم حواليها.

وكدت أقول لهم ما حدث، ولكن شيئًا ما قد منعني، قائلاً:

"بكرة يعرفوا.. أحسن يعرفوا في المصنع.. حيقعد كل واحد منهم ويقول لي: مش قلنا لك مش قلنا لك مافيش فايدة.. أحسن ما اقولش.. أريح نفسي من كلامهم".

وآثرت الصمت على الكلام. وكانوا من التعب بحيث لم يأكلوا.

اتجهت للمصنع معتقدًا أن أحدًا من العمال لا يعرف ما حدث، ولن يعرفوا إلا من خلال تطلع الرعوساء لهم.. تطلعاتهم الحادة، لكن حدث غير ما توقعت، فقد كانت العمال قد تعودت إلقاء النظر على البنيان العالي متطلعين لما في داخله من خلال الشبابيك كلما خرجوا من المصنع أو عادوا إليه. وبالأمس عندما وصلوا إلى الناصية التي تعودوا إطالة النظر فيها،

ناصية شارع البهلوان المجاور للبوستة، فلم تقع عيونهم على اليافطة، ولا على الضوء المنبعث من الحجرات، ولا على اللمبة الحمراء التي أضاءت اليافطة.. "آه.. لقد عرفوا".

كنت متلهفاً في السير لأبلغ عبد العظيم عما حدث عسى أن أسمع منه ما سمعت بالأمس. وفي الطريق نفسه كنت أستشعر الخوف مما قد يحدث.. كان القلق السائد على الوجوه ينذر بشيء قد يحدث. إن ما يحدث الآن سيقود حتمًا إلى ما هو شديد التوتر ينذر بصدام وخيم العاقبة. وكلما تأملت الوجوه كنت أستشعر الغضب.. كان السخط يزداد بصورة محسوسة وكلمات حادة ناقمة، ومناقشات حادة منذرة.. منذرة كل من تحدثه نفسه أن يعتدي.

كانت تعليقات مذعورة مبلبلة ساخطة على طول الطريق. كنت أجد كل من يحيط بي يتنفس.. يتنفس في قلق.. كانت أمواج الاضطرابات تتنفس في تباطؤ في القلوب في انتظار أن تنفجر.. لقد أخذت الأفكار الناعسة تستيقظ، والخضوع المألوف الهادئ للعواصف اليومية وللأحداث يفقد ثباته.

استطعت أن أرى ذلك بوضوح. كان السير في تباطؤ وحك الأرض بالأقدام يثير الرعب في نفس كل من تسول له نفسه أن يعتدي.. ثورة عارمة.

"لغاية إمتى راح نسكت..؟ اللي اتكلمنا عليه راح ولا جاش".

الكل يسير في خطى ثابتة، والغفر على الأبواب في ابتسامة صفراء، والرءوساء تسير في تمايل.. كان شبح الخوف قد زال؛ شبح عباس حليم الذي خيم على قلوبهم فترة.

اتجهت فور دخولي إلى المكن، وقبل أن يأتي أحد من الرءوساء كنت واقفاً أمام عبد العظيم، وإذا به يقول:

- أنا عرفت.. عرفت ما حدث.

وسألت:

- وما العمل..؟

فتلفت حوله وقال في همس:

- اللي فيه الخير يقدمه ربنا.. قادر وغيره لا يقدر.

قلت:

- ربنا بيقول اسعى يا عبد وأنا أسعى معاك.

وتدخل أحد العمال المجاورين قائلاً:

- عرفتم الخبر الأسود..؟

- أيوه عرفنا.

- وما الحل؟

فقلت له:

- نكتب شكاوي.. نكتب بكثرة.. نكتب عن الزيادة وعن الدية وعن فتح الدورة وتخفيض ساعات العمل الطويلة.. نكتب وبكثرة.

وأصبحت كلمة الشكوى هي السائدة. صارت على الألسن لم يعد أحد من العمال يخشى أن يقولها حتى ولو كان الرئيس واقفًا أمامه. إلا أن بعض الرءوساء قد تجنب الوقوف في وجه العمال الغاضبة الحانقة قائلين: غضبة وراح تمر.

وفي مساء نفس اليوم وعلى الباب الخارجي كان مصطفى محمد واقفًا في ركن من الأركان المظلمة بجوار أحد المنازل، وبجواره كان محمد الكافوري وفرج أفندي وآخرون وآخرون وكان عبد العظيم هو الآخر قد حضر، والأصوات وكل الأحاديث حول النقابة وكتابة الشكاوى.

"لازم نكتب.. ونكتب بكثرة"

أصوات على طول الطريق.

وفي أحد المنازل القريبة من المصنع اتجه الجميع يتقدمهم بعض الميكانيكية الجدد، وفي المقدمة كان فرج أفندي ذو البنطلون الأزرق، وعلى طول الطريق كانت رياح باردة تداعب زجاج المنازل وتهمس في القش وتخرخش فيه وتقذف بالدخان المنبعث من المداخن العالية.. تقذفه بعيدًا، بعيدًا وتلفح بالقش الملقى على الأسطح. وكان كلب يعوي في مكان ما. ومن حين لآخر كانت النوافذ تفرقع من آثار الرياح الباردة. وارتعش نور المصباح على أحد أبواب المنازل وكاد أن ينطفئ ليعود ليستعيد الحياة منتعشًا ويستمر في اللهب متلألئًا ثابت الاشتعال. والعمال تسير في ثقة متطلعين نحو المستقبل. كانت الوجوه متعبة والأفكار كانت جريئة، وبينما كان فرج أفندي يتحدث عن العمل الذي سوف ينجز لم يكن يخفي عدم رضاه عن بعض زملائه الذين تنكروا لما تعاهدوا عليه وهو العمل مع العمال.

كنت أسمع هذه الكلمات كما كان يسمع غيري. كنا ننصت متعطشين للمعرفة.

وفي حجرة ضيقة ذات جدران بيضاء دخلت العمال.. واحدًا وراء الآخر، كان الحماس باديًا على الوجوه رغم شدة التعب.

وفي الركن وقف فرج أفندي، وتكلم كلمات قليلة مقتضبة، إذ قال:

- إن الحالة أصبحت من الصعوبة بحيث لا تحتمل. يجب ألا نتأخر دقيقة واحدة نحو العمل في كتابة الشكاوى ولا شيء غير ذلك.

واعتدل في وقفته، واسترسل قائلاً:

– كنت بالأمس كلما تطلعت إلى ناصية شارع البهلوان وجدت العمال تدخل وتخرج كنت أستشعر أن الوقت قد حان وأن ساعة الخلاص قد اقتربت ولكن حدث غير ما كان أحد يتوقع.. بالأمس القريب وعلى ناصية نفس الشارع كانت النقابة تعلوها لمبة حمراء.. النقابة التي كان يرأسها ما يسمى بالنبيل الذي أولته العمال الثقة، وكان موقف العمال رائعًا. قابلوه أحسن مقابلة وهتافاتهم رجت الجدران. كان هذا دافعًا لي ولغيري ممن تخرجوا من المدارس الصناعية أخيرًا. أسرعوا بالانضمام للعمل مع العمال. لم يكن أمامنا غير العمل جنبًا إلى جنب لأننا نشرب سويًّا من نفس الكأس.

ولوح بيده للواقفين، وأخرج من جيبه علبة سجائر، وأشعل سيجارة وأضاف:

– كنت بالأمس أكرهكم.. أكره التطلع إليكم. كنت بالأمس القريب أعتبر نفسي متعلمًا ولا يجب لي ولا لأمثالي ممن تعلموا الاقتراب منكم ولا السير معكم في الطريق باعتباركم جهلة. هكذا قد تعلمنا في المدارس، وعندما تقدمنا بأوراقنا للمصنع، وقبل أن نتسلم العمل قيل لنا هذا أيضًا.. قيل لنا عاملوا هؤلاء بغلظة. عاملوهم بالعنف. لا تضحكوا في وجوههم. لو فعلتم غير هذا لعجزتم عن إدارة العمل. واليوم أحب أن أعترف بعد أن عشنا فترة بينكم أنكم عمال طيبيون، تحبون ولا تكرهون. كثير منكم قد رأيتهم يتقنون العمل ويشتغلون بحماس. عيونكم لا تبتعد أبدًا عن العمل. تلمحون كل ما يعيقه وتصلحون كل ما أفسد. إني قد رأيت هذا بوضوح.

وتلفت حوله وأضاف:

– وأستطيع أن أقول إن الكثيرين منكم استطاعوا أن يعرفوا خبايا المكن أكثر ممن تعلموا. أقول هذا الآن بعد أن رأيت بعيني. إن السير معكم أفضل بكثير ممن يعتبرون أنفسهم متعلمين.

قال هذا وصمت. ثم عاد قائلاً:

– لا علم إلا علم الحياة.

وتمشى في الحجرة وهو يقول:

– إذا كان هناك الكثيرون ممن يتصرفون بعقلية المتعلمين فسوف يعرفون يومًا أنهم بتصرفهم هذا إنما يجلبون لأنفسهم المتاعب، وسوف يعرفون هذا مؤخرًا. إن حياتنا مشتركة، إن شبح الموت يقترب رويدًا رويدًا، وأصبح من الواجب إبعاده.

وختم كلمته قائلاً:

- ولن يبتعد الموت إلا إذا عمل كل منا، وما جئنا اليوم إلا من أجل هذا العمل.

وكادت العمال تصفق، كادت أن تصفق طويلاً، ولكن مصطفى محمد زمجر فيهم قائلاً:

- يجب ألا يعرف أحد ما قاله فرج أفندي، ويجب أيضًا ألا يعرف أحد في أي مكان نجتمع.

فامتنعوا عن التصفيق بالأيدي، ولكن القلوب كانت تواصل التصفيق.

وقبل أن نخرج تلفت فرج أفندي وقال:

- سأكتب الشكوى.. سأكتبها في البيت على مهل. كل من يعرف الكتابة فليكتب إلى أن تضاء اللمبة.. تضاء من جديد.

دعوة لمصر الفتاة

ومرت الأيام، وابتعدت عن بعضها بعضًا، وازدادت تباعدًا.. وبينما كنت متجهًا إلى المنزل في مساء إحدى الليالي بعد انتهاء نوبة العمل، وبجواري كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يقولان:

– نفسنا نستريح يوم.. تعبنا خالص، تعبنا من الشغل.. كان هناك جمع من العمال بجوار أحد المنازل، والجمع يزداد ويتكاثر، ومن بعيد كانت شعلة من النور تطفأ ثم تشتعل. كان الولد الغريب يقول:

– تعالوا لما نشوف.

وفي وسط هذا الجمع كان رجل يجلس القرفصاء واضعًا رأسه بين يديه يواصل القيء من شدة السعال.. سعال متواصل. وتزاحم الجمع. ودخلت وسط الجمع الصامت والهدوء العميق، وجلست أمامه. حاولت أن أتبين وجهه لكنني لم أتمكن من معرفته. كانت خصلات شعره السوداء تتدلى على وجهه، وشفتاه مفتوحتان، وعيناه تبرقان من شدة ما انتابه من السعال. وإذا بصوت يشق الظلام الدامس:

– واحد ياخده من إيده.

– واحد ياخده ويمشي.. مافيش حد من بلده؟ انت ساكت ليه على نفسك؟ ساكت ليه لدلوقتي.. امسح يا جدع الطراش ده.

وبينما كان العامل الجالس يتنفس بصعوبة، وإذا بصوت حزين:

– فيه دم!!

وتأوه العامل المريض، قائلاً بصوت لا يكاد يسمع:

– واحد ياخدني من إيدي.. اسندني يا جدع.

قالها في حزن أحزن الواقفين، وعندما تطلع الجمع إلى وجهه انتابتهم انتفاضة شديدة، وقال أحدهم:

– بتشتغل فين؟

– في الكارد.

وتمتم آخر:

– سل .. سل.. كل الناس اللي في العنابر دي عيانة بالسل. وانتشرت همهمة بين الواقفين، بينما وقف العامل مستندًا إلى أحد الحوائط، يمسح العرق المتصبب على جبينه، ويرفع خصلات شعره الجافة إلى الوراء. واقترب منه أحد الواقفين:

– ما تروح المستشفى.. سايب نفسك ليه؟

– رحت.. رحت قبل كدة.. الحكيم طلعني.. طلعني م الزحمة.. ما فيش سراير هناك فاضية.. هو قال كدة.

ورد آخر:

– هيّة حتلاحق.

واقتربت من وجهه متأملاً، بعد أن رن صوته في أذني..

"آه.. لقد عرفته..!"

وكدت أن أتجمد في مكاني. وخرجت الكلمات متلعثمة:

"ده إبراهيم.. إبراهيم نوار!!"

مالك يا إبراهيم..؟ مالك..؟ إيه اللي جرالك..؟

لكنه لم يرد. فاقتربت منه وهمست في أذنه:

– إبراهيم.. انت مش عارفني..؟

فضغط على يدي لكي أسكت..

"آه.. لقد كان العامل الذي اتجهنا إلى حجرته ذات يوم واتجه معنا إلى الخبيزة.. هو.. هو بعينه بتاع محلة البرج".

وبينما كنت أتأمل وجهه متذكرًا، انتشرت في الفضاء رائحة دخان حادة تزكم الأنوف.. شيء يحترق. ومن جديد ساد الظلام والسكون الشارع كله كأنهما يتربصان لسماع كلمات العامل المبحوحة وهو يهمس في أذني:

– أنا باشتغل باسم غير اسمي.. غيرته.. غيرته لما اشتغلت في عنبر تاني بعد ما انفصلت في المرة الأولى.. راح أعمل إيه..؟ كان لازم اعمل كدة ما دام ماعندناش شغل في البلد.

قلت:

– ما اشتغلتش ليه في عنبر تاني؟

– قسمتي..

واستند على كتفي، وأخذته من يده. وسار يترنح بجانبي ولم يستمر طويلاً في السير، فتوقف وهو يطوي ركبتيه، يطويهما في حذر شديد.. كأنه يخاف أن تنكسر، ثم فرد كلتا يديه يمسح العرق عن جبهته حيث يرمي شعرًا جافًّا عديم الحياة إلى الخلف، فاضطرب كل ما يحيط به، وترنح. والتفت إلى الناس من جديد، وانطوى على نفسه متوجعًا، وانتابته نوبة عنيفة من السعال أفسح الواقفون له لكي يتقيأ من جديد، وإذا بأصوات ترتفع:

- شيله.. شيله.. شيله.. إسعاف.. إسعاف يا جدع بينما كان يضغط هو على يدي ويقول بصوت حزين باكٍ:

- لا.. لا.. ما تسبنيش..

وعلى تلك الأصوات الحزينة خرجت امرأة شابه من المنزل المجاور، امرأة سمراء ذات شعر مضفر:

- شيلوه.. شيلوه يا رجاله.. شيلوه جوة.. آه يا خرابي يا قلب امك يا ابني!!

وهي تخبط على صدرها:

- على الغربة وعلى أصحابها.. ع الشركة وعلى يوم ما جت.. دخلوه جوة يا جدعان.. جوة الأودة على السرير.

وبينما كانت المرأة تهرول.. كان هو يضغط على يدي..

- أوعى تسيبني.. ما تسيبنيش..

وانكسر صوته الحاد المرتفع كثيرًا والهادئ في الوقت نفسه، واستدار إلى الحائط، وراح يعبث في شفتيه في عصبية شديدة وهو يراقب الواقفين بعينين ثابتتين لا ترمشان وأسرعت المرأة تفتح الحجرة، وإذا بأجراس تدق.. ترن.. ترن.. ترن..

وكانت عربة الإسعاف.. واجتذبوه من أيدينا. حاولت أن أركب معهم. لكن الرجل بالبنطلون الأصفر ذي الأزرار النحاس اللامعة دفع بي جانبًا دفعة ألصقتني بالحائط. بينما كانت يدا إبراهيم نوار قد ماتتا على جلبابي، ورأسه قد مالت على كتفي..

- لا.. لا.. ما تسيبنيش.. أموت هنا.. أموت هنا لأ.. مافيش حد من بلدنا.

لكن أيدي الرجال كانت أقوى من يدي المريض المحتضر. وسارت العربة دون أن أركب، سارت تشق طريقها وسط الشارع المزدحم الصاخب.

ترن.. ترن.. ترن..

وتجمدت الناس.. كل الناس متطلعين بعيون حادة للعربة وهي تبتعد بعيدًا. وانعقدت الألسن وسبحت الأفكار، سبحت لتبحث لها عن طريق، وساد الصمت. بينما كانت أصوات الأجراس ترن. كان هناك صوت ينطلق في الجو:

عليل يقول للطبيب.

امتى أطيب وامشي..

واسيب بلاد السل يا طبيب..

واكل بصل وامشي.

وسرت ساكنًا غارقًا في التفكير في العامل الذي قد عرفته، ولم أتمكن من الذهاب معه.

وفي الصباح اتجهت كالعادة، اتجهت للمصنع شارد الذهن لما رأيته بالأمس، وبجوار المكن وقف أحد الميكانيكية الجدد، سالم طلبة، وقد لمحت من عينيه الواسعتين ووجهه المحتقن الأسمر كأنه يريد أن يقول شيئًا لي. فأدرت الماكينات، واتجهت نحوه، فإذا به يسألني:

- مين كان معاكم امبارح..؟
- ما فيش حد كان معانا امبارح.
- يبقى أول امبارح..
- ولا أول امبارح..

فحملق في وجهي..:

- يبقى من مدة.. وأضاف
- انت بتخبي..؟

وقد أدركت أنه يريد أن يعرف الاجتماعات، فأردت إخفاء الحقيقة عنه.

إنه يريد أن يعرف مَنْ مِن الميكانيكية الجدد كان معنا، فآثرت الصمت، فبادرني سائلاً بصوت رن في أذني:

- انت خايف..؟
- حاخاف من إيه؟
- أمال مالك؟
- ما ماليش.

فابتسم ابتسامة كشفت عن أسنانه وقال مداعبًا:

- انت فاكر إيه..؟ انت شايفني باعمل حاجة.. باعمل حاجة مع حد..؟

- لأ.

- أمال ليه خايف.. خايف من إيه..؟

- حاخاف منك ليه؟

فعاد بصوت حاد..:

- هو فرج أفندي قال لكم على حاجة؟

- لا.. لا.. لا والله العظيم ما حد قال حاجة.

ونظر لي متفحصًا، وخبط بالمفتاح على رف الماكينة، واسترسل قائلاً:

- وانت راح تعمل إيه؟ حتعمل إيه بعد النقابة ما اتقفلت؟

- حنكتب شكاوي.. نكتبها للحكومة.

فأغمض إحدى عينيه وقال:

- الحكومة..!!

قالها متهكمًا.

- حكومة..؟ حكومة إيه؟! هي الحكومة عملت حاجة.. ماهي سايبانا.. سايبانا طـــول عمرنا في الشقا.. لا راح تعمل ولا حتسوي..

قلت:

- أمال راح نعمل إيه؟

فأومأ برأسه وهزها طويلاً، ولم يجب، فأعدت القول:

- نكتب.. نكتب. كل يوم نكتب. والظرف اللي مايصيبيش يدوش.. هو فيه حاجة تانية نعملها؟

فارتكن إلى المائدة وضم رجليه وقال:

- ما تيجي ويانا.

- آجي وياك فين؟

- معانا.. حزب مصر الفتاة.

- قلت:

- هو الحزب ده راح يعمل حاجة؟

- هيعمل من أجل الاستقلال.. استقلال البلد م الإنجليز.

- ما فيه حزب الوفد.. فيه سعد والنحاس.. اخواتي بيحبوه. وبلدنا كلها وياه..
- ماتيجي انت ويانا.
- أخويا يضربني.

سمع هذا وابتسم وأضاف:

- انت منين؟
- من طنطا.
- أمال ليه دورت الجري ع النقابة.. ما خفتش من أخوك ليه امال؟
- هي النقابة زي الحزب.. النقابة حاجة تانية.. الناس راحت فيها كلها.. راحت مع عباس حليم اللي راح يكتف الرءوساء ويمنع الظلم ويجيب دية اللي بيموتهم المكن وهيفتح لنا دورة المية ويقلل ساعات العمل الطويلة. ده اللي خلاني رحت معاه..

فرد مبتسمًا:

- واهو يا عم ماجاش.. وآدي احنا كمان بطلنا نروح.

ثم هز رأسه في بطء، وقال بصوت ممطوط:

- يعني انت مع اخواتك؟

قلت:

- أيوه مع اخواتي.

فابتسم وتركني ذاهبًا وهو يقول:

- تعالى.. ما تخافش.

وجاء عبد العظيم يجري. وفي ذعر قال:

- مالك؟.. بيقول لك إيه؟
- بيقول لي تعالى ويانا حزب مصر الفتاة..
- بس.. ما قالكش غير كدة.. ماقالكش حاجة تانية؟
- سألني راح نعمل إيه.. قلت راح نكتب شكاوي للحكومة.

فمد عبد العظيم يده لي وهو مشرق الوجه.

- أهو كدة.. كدة الشغل.. إوعى يوقعك.

أحاديث الحب والزواج

كانت مواسير اللحمة قد انتهت. فوضعت المكوك على الدرج، ورفعت اللوحة على كتفي لتغييرها. وكانت الساعة الثانية عشرة إلا ربع ظهرًا، وإذا بي أجد نفسي وجهًا لوجه أمام جيش العاملات الخارج، الخارج للغذاء. فالتصقت بالحائط قاذفًا بالألواح على الأرض، وأخفيتها بين قدمي، وشبكت يدي على صدري. فعلت هذا بسرعة نادرة لكي لا يرينني. كنت راغبًا ألا أخيفهن مثلما كنت أفعل ذلك من قبل. وازددت التصاقًا بالحائط، وكانت العمال تتطلع من خلال الأبواب، والبنات تسرع الخطى مهرولات في سيرهن، وعيناي لم تكن تبحث إلا عن محاسن، وإذا بها تأتي متأخرة.. بعيدًا عنهن تخفي وجهها بملاءتها السوداء فاندفعت دونما إرادة سادًّا عليها الطريق، فأشاحت بوجهها جانبًا، وأسرعت بالسير في الجانب الآخر دون أن تنبس بكلمة، وأسرعت خلفها أيضًا إلى الجانب الآخر مادًّا ذراعي محاولاً إعاقتها عن السير. فحاولت أن تلف من تحت ذراعي المثبتين بالحائط. وكانت الدموع تملأ عينيها.

قلت في حزن:

- بتعيطي ليه؟
- سبني ابعد عني.
- أنا مش عايز منك حاجة.. مش عايز حاجة والله.
- سبني.. سبني.. في حالي.. سبني باقولك.
- بتعيطي ليه.. حصل حاجة؟.. أنا غلطت.. غلطلت لأني ضربتك.. انتي زي أختي.
- ابعد عني.. ابعد عني باقولك.. ابعد عني دلوقت.. أنا بعيط ع اللي جرالي.
- إيه اللي جرالك؟
- اتخصم لي يومين.. خصمهم المباشر.

وقذفت برأسها من تحت ذراعي، وأسرعت خارجة، دون أن أعرف من هو هذا المباشر ولا حتى هذه الغرامة، وقلت في نفسي، وأنا متجه داخل العنبر:

"إنها من مباشر –بلا شك– أراد إخضاعها له.. من المحتمل أنه حاول أن يمسك بإحدى ذراعيها العاريتين. إنها بلا شك قد تكون رفضت، وبهذا يكون قد استغل سلطته. ومن هو هذا المباشر يا ترى؟.. هل لي أن أعرفه؟.. ولو عرفته.. ماذا أفعل؟ أضربه.. أضربه أنا والولد

الغريب والولد السيد الصفطي. نستناه برة.. واسترجعت في الحال كلمات عبد العظـيم لـي.. احنا راح نتحول لعصابات.. "أمال أعمل إيه؟.. ما هي بنت..".

وكنت قد وصلت إلى مكني، وعاد سالم طلبة ووقف بجواري.

وقلت على الفور:

- انت لك أصحاب في عنبر الفانلات؟

- أيوه ليَّ.

قال هذا وابتسم. قلت:

- اعمل معروف باطلب منك طلب.

- خير إنشاء الله.

قالها في حماس.

- طلب إيه ده؟

- فيه بنت غلبانة.. غلبانة والله.. خصموا لها يومين، وبتجري على اخواتها.

- تعرفها..؟

- أيوه . أعرفها؟

- تعالى معايا بعد الضهر وأنا آخدك معايا هناك.

وفي الساعة الواحدة والنصف أخذني من يدي وفي عنبر الفانلات تلفتت الأنظار إلينا.. أنظار العاملات ذوات الأذرع العارية وهن يرحن ويجئن كالعصافير المغلوبة التائهة وهي تتنطط من فرع لآخر باحثة عن القوت.. عاملات تعمل في جهد على المكن. وأخريات تكنس الأرض بنشاط ملوحات بشعورهن إلى الخلف كلما تدلت على جباههن.

وتجمع المباشرون حولنا مادين لنا أيديهم. استمروا يتهامسون فترة وعيونهم لم تفارق العاملات ملوحين بأيديهم نحو الجميلات منهن، وكانت العاملات أيضًا تختلس النظرات نحونا.. ينظرن من خلف أجناب المكن، وقال سالم طلبة بعدها للواقفين:

- لي طلب عندكم أرجو إجابته.

قالوا في نفس واحد:

- اطلب واحنا نجيب.

- فيه بنت هنا شغالة خصمتوا لها يومين. أرجو رفعهم.. رفعهم عنها.

- غالي والطلب رخيص.. أمرك.

وهمس أحد الميكانيكية في أذن إحدى العاملات:

- هاتي الدفتر من المكتب..

وخشيت أن يسألوني: من أين تعرفها؟

قلت في نفسي: "ماذا لو سألوني..؟ وماذا لو سألوها هي الأخرى.. حتقول بالتأكيد: أنا ماأعرفوش. ماذا يكون وجهي..؟ يا رب ماحدش يسأل".

وفرحت جدًّا عندما أمسك أحد المباشرين الدفتر وبدأ يبحث عن الاسم المطلوب، وعيناي متجهة نحو محاسن، وتلاقت الأنظار، وحملقت بعيني كالقائل:

"لو سألوكي.. قولي أعرفه. إحنا جايين نشيل عنك الغرامة. لو سألوني حاقول أيوه أعرفها".

ولم أعرف ما إذا كانت قد فهمتني أو لم تفهمني. وإذا بالمباشر يقطع تفكيري.

- اسمها إيه؟

- محاسن.

- محاسن إيه؟

محاسن بس.

لأنني لم أكن أعرف اللعب، استمر يفرز الأسماء. وفجأة لوّح بيده. لوحها نحو محاسن. فجاءت على عجل شاحبة الوجه تنتفض كأنها داخلة على جهنم. قال المباشر:

- علشان خاطر دول.. علشان خاطرهم بس شلنا الغرامة.

هازًّا رأسه، معلقًا نظراته بصدرها الناهد وخدودها الحمراء وذراعيها العاريتين البيضاويين وشعرها الأصفر المجدول الملفوف على الرأس. واستطرد في قوله ملتفتًا إلى سالم:

- وصيها علينا.. وصيها والنبي.

وتهلل وجه البنت فرحًا عندما سمعت: شلنا الغرامة.

ورددت في كلمات سريعة وهي تنظر إلى وجهي:

- ربنا يخليكم.. ربنا يستر ولاياكم وما يغلبلكوش ولية.

كانت تقول وهي لا تصدق أن الغرامة قد انشالت.

وأسرعت، ومن خلف المكن وقفت تمسح دموعها ونظرت لها ملوحًا بيدي وأنا في اتجاهي خارج العنبر.

عدت بعدها على المكن فرحان، وكأنني قد قمت بعمل يكفر عما حدث من قبل. ولم أشعر بالدقائق ولا بالساعات من كثرة ما انتابني من تفكير، فيما عسى أن يكون قد حدث متمنيًا أن أراها وتكون دموعها قد جفت.

وفي الساعة الخامسة والنصف اتجهت لرؤيتها.. كانت محمرة الخدين باسمة.. سارت من أمامي هذه المرة دونما خوف هي وبقية العاملات. سرن كأنهن يعرفنني منذ مدة، وكن في سيرهن مطمئنات وشفاههن تتحرك. لم تك عيناي متجهة في البحث إلا فيما في وجهها من دموع، وقد أغراني صدرها البارز قائلاً لنفسي كلما تأملتها: طاب وطلب الأكال.

واجتاحتني رغبة ملحة في أن أسألها: هل حدث شيء؟

وتلفت حولي خائفًا من أن يكون أحد من الرءوساء قد رآني وأسرعت الخطى، فأبطأت هي في السير، وقد لاحظت العاملات ذلك. فتوقفن فجأة. والتففن حولي داعيات:

- ربنا يخليك. شلت عنها الغرامة.

كن بكثرة بحيث اختفيت وسطهن، شعرت بالخجل كلما أحطنني وكن يتكلمن في نفس واحد.. واللي تقول: "ربنا ينصرك" واللي تقول: "ربنا يقدرك على الطيب" واللي تقول: "تعالى حوش عننا الغرامات نازلة على دماغنا زي الرز".

وبكى بعضهن.. وزعقت أخرى بصوت حزين باكي:

- هما ولاد الكلب الرءوساء والمباشرين يعملوا كدة فيها.. هم فاكرين إيه؟ فاكرينا سايبين؟ فاكرين إحنا مالناش أهل؟ هي اللي تحاول تحافظ على شرفها تتبهدل؟

كن يتكلمن منفعلات. وقالت أخرى:

- لازم نبين لهم العين الحمرا.. هم فاكرين إيه؟ انتوا شفتم البنت الفلاحة لما جه المباشر يمسكها من دراعها عملت إيه؟ نتشت دراعها من إيديه.

وجزت على شفتيها قائلة:

- لو كل البنات كدة.. لو نعمل زيها ما كانش حد منهم اتجرأ.. وانتفضت محاسن في الوسط وهي ترفع ملاءتها:

- أصل فيه بنات مايعة.. هي الكلبة لما تهز ديلها الكلب يجري وراها.. اللي تفشخ ضبتها واللي تعوج له رقبتها.. واللي تتقصع.. ده هو اللي بيطمعهم فينا.. خلاهم يخربوا بيوتنا.

وأخرى تقول:

- ربنا يتوب علينا من خلقهم.

وبينما كن يتحدثن كان أحد الرعوساء آتيًا من عنبر الفانلات فتفرقن على الفور خارجات وتمنيت أن أخرج.. أخرج خلفهن لأسمع منهن ما حدث، لكن الاختلاف في المواعيد كان حائلاً واتجهت نحو مكني قائلاً لنفسي:

"إن ما حدث لهن من غرامات إنما يرجع إلى رفضهن معاكسات الرعوساء".

وفكرت: "هل يقدرن على الاستمرار في المقاومة؟"

هذا هو السؤال؟؟ وانتهى اليوم ولم أجد إجابة له، واجتاحتني رغبة ملحة أن أتجه إلى الدكان، دكان القصب بحجة الشراء.

وفي الساعة الثانية مساء اتجهت نحو هناك، وكان معي الولد الغريب. سار بجانبي دون أن يسأل إلى أين نتجه.

وأمام المحل توقفت.. وكانت محاسن جالسة، وعندما رأتني لم تتمالك نفسها، فهمت واقفة وهي تردد:

- يا مه.. يا مه. الجدع ده اللي جه وشال عني الغرامة.

كانت مفاجأة للولد الغريب، ولم يكن يعلم أن محاسن ذات الوجه الأحمر والعيون الخضر تبيع القصب في دكان. كان يعلم غير ذلك من جمال منظرها، كما لم يكن يعلم أيضًا أنني قد رأيتها هنا من قبل.

وأمسكت بي أمها قائلة:

- اقعد.. اتفضل.

ودون أن تفكر كسرت أمامي أكثر من عود قصب، داعية:

- ربنا يخليك يا خويا.. دي زي اختك.

وأكثرت من الدعوات.

وكانت محاسن قد اختفت فجأة جاءت بعدها مغيّرة ملابسها وكأنها ذاهبة إلى المصنع مسرحة الشعر، مكحلة العينين، كدت ألا أعرفها مما بهرني من جمالها، لكن أظافرها كان عالقًا بها سواد من آثار زيت المكن، وجلست قبالتي، واستمرت تكسر، وتتحدث في حضورنا.

وشعرت بميل نحوها يزداد. فانتهزت فرصة بعد أمها وسألت.. سألت سريعًا:

- بيعملوا إيه المباشرين جوة؟

قالت:

- بيعملوا إيه.. بيضربونا..

وتتلفت حولها، واسترسلت:

– بيخلوا الواحدة واقفة جنب المكن ويتحكوا فيها.. ويعملوا إنهم بيدوروا المكن ويمسكوا في صدرها.

وأخفت عينيها في الأرض وقالت:

– ولاد الكلب اللي تحافظ على شرفها يضربوها، ويسيبوها مكنتها ويخلوها تكنس الأرض.

قلت:

– مافيش حد هناك تشتكوا له؟

قالت:

– نشتكي لمين..؟ كلهم زي بعض.

قلت:

– كل البنات كدة؟

قالت:

– بعضهم والبعض بيستسلم.. هيعملوا إيه؟ إذا كان الرئيس الكبير ساكت.. ده فيه بنت اشتكت له.. دفعها بإيديه وقال: طفحوهم الدم.. هنعمل إيه بعدها؟

فعدت وسألت:

– ماهيتك كام؟

فصمتت لحظة..

– ماهيتي قرشين صاغ في اليوم.

قلت:

– جابولك الغرامة دي علشان إيه؟

فحملقت بعينيها، واحمرت وجنتاها..

– علشان ما رضيتش.. لقيته جه فبعدت.. كنت عارفه إنه راح يمسكني.

وسمعت صوت أقدام أمها آتية فآثرنا الصمت.. وبقينا فترة ينظر كل منا للآخر. وقبل أن أخرج سألتني أمها:

– انت منين..؟

فقلت:

- من طنطا.

قالت:

- بلد السيد البدوي.. اللهم اجعلنا من بركاته.. ابقوا تعالوا.. تعالوا باستمرار.. دي زي أختك.. حافظوا عليها دي بنت ناس ماهياش سايبة.. الأيام بس هي اللي وحشة اللي خليتها تروح تشتغل في المصنع.. ربنا يوعدها بابن الحلال اللي يهنيها.

سمعت هذا وخرجت قائلاً لنفسي:

"لو روحت البلد راح أجيب لهم من أمي هدية.. فطير"

ولاح وجه أمي الحنون أمام عيني. وسألني الولد الغريب:

- مش هيه دي البنت اللي انت ضربتها؟

فقلت:

- أيوة. هيّة.

- وعرفت ازاي الدكان؟

قلت:

- من ساعة ما كنت مع مصطفى محمد.. يوم ما اتأخرت عنكم.

وكانت دهشتي عندما دخلت المنزل.. وكنت أظن أن البيت قد نام، وأن لا أحد للآن سهران. وكانت دهشتي عندما وجدت حجرات المنزل مضاءة. وقلل من الفخار على الشبابيك مغطاة بغطيان من النحاس الأصفر، وكنت وقتها عطشان. وتوقفت أمام إحدى القلل..

"ولكن كيف السبيل لو مددت يدي.. قد تنده امرأة من الداخل لتقول لي: سيب القلة.. ماذا أقول؟"

وفكرت وعيناي للقلل المليئة وهي تشع المياه منها والغطيان فوقها تضوي.. خيل إلي أنها قد ملئت من بير زمزم الذي كثيرًا ما سمعت عنه ولم أره.. مياه تحيي العليل.. وفكرت: "أشرب..؟ أمد إيدي.. أكشف نفسي؟ مش معقول".

وصلت ميتاً من العطش، وكان الولد السيد قد تعود أن يتركنا في كثير من الأوقات، وعندما رآني هلل في وجهي:

- فيه جواب جالك.. جالك من البلد.. جالك هنا على البيت. وكانت أم امتثال هنا دلوقت.

توقفت لسماع هذا. لم يسبق لي أن رأيت ولا أن سمعت عن جوابات ولهذا تلهفت قائلاً:

- فين..؟ فين هوه..؟

ولم يمهلني، وقد قزح السلم ولم أعرف إلى أين يتجه، ولم تمر لحظات إلا ودخلت علينا الأم موردة الخدين باسمة، بنفس الفستان الذي جاءت به ذات يوم، جلست على طرف الحصيرة كالعروسة الحلاوة. خيل إليَّ أن كل شيء على جسمها يضوي. كنت أرى من خلال ضوء اللمبة الخافت. وكدت أسب وألعن لتأخري في الخارج. وإذا بها تزعق:

- كنتوا فين يا ولاد..؟ ماكنتوش كدة.

فرد الولد الغريب:

- النقابة.. النقابة بتأخرنا.

فردت الأم قائلة:

- نقابة إيه..؟ نقابة إيه اللي واخدة عقلكم..؟ هية بنت.. ها.. ها.. هوّة فيه بنت اسمها نقابة..؟ النقابة اللي عملها عباس حليم وانقفلت.. ها.. ها.. هو انتم إيه.. هو انتوا قرود.. تعالى اقعد جنبي.

وجذبتني من جلبابي، وفي شوق أمسكتني من طوقي، وكادت أن تلف يدها على رقبتي.

- هية أمك في البلد وانت هنا راح تدور على حل شعرك.. بقالنا أكتر من شهر ماشفناش وشك..

وقرصتني في خدودي. والولد السيد الصفطي يقول:

- أهو كدة.. أقرصيه.

وبعد أن هدأنا من الضحك قالت الأم:

- خد.

وهي تضع يدها في صدرها.

وكان الجواب ينبعث منه رائحة أنعشت جسدي، فأعدته من جديد على أنفي. ومررته من جديد مرات، وفي كل مرة كنت أقول. الله.. الله.. هازًّا رأسي وكانت الأم تضحك كلما قلت الله. الله، ومن كثرة الضحك سحبت الأم يدي واستمرت تداعب أصابعي وتضغط عليها ضغطًا مستمرًّا، وتراخت يدي ونامت على فخذها، وحاولت في هدوء أن أرفع يدي خوفًا من أن يراها أحد، ولكن يدي الأم قد ماتت عليها ومررتها على وركها في عصبية وهي تزعق:

- ما تقرا الجواب.. اقرا وقول لنا فيه إيه.. وطمنا.

وردت امتثال:

- أنا اللي استلمته.. استلمته الصبح.

فسحبت يدي وأمسكت بالجواب. ومن جديد عادت الأم وأمسكتني من يدي، وضغطت عليها، وجذبت كتفي وأجلستني أمامها، والتصقت بكل صدرها بي، وكلما أحنيت كتفي نحو الأرض خجلاً مالت هي الأخرى بكل ثقلها.

وأحسست بدفء أعقبته رعشة ملكتني كلي. رفعت كتفي بعدها والتصقت تمامًا بها، وقرأت.. وكان الجواب من أمي..

قالت الأم وهي تدفعني إليها:

- قول.. زعق.

ولكن الجواب مكتوب بخط منعكش لم أستطع قراءته، فهممت واقفًا محاولاً قراءته على ضوء لمبة الغاز بالحائط ولكن الأم جذبتني إليها جذبًا وهي تقول:

- قومي يا امتثال.. قومي هاتي اللمبة.

وعلى هذا الضوء استطعت أن أتبين كلمات قليلة مقتضبة موقعًا عليها باسم أمي..

ابني الحبيب

إلى من أحبه وأهواه، وفي الحب دائمًا لن أنساه

ابني..

منذ فترة ونحن في قلق. لم يصلنا أخبار مطمئنة. بل وصلنا أخبار أنك تدور على حل شعرك، وكل يوم يمر ولا نراك وكأنه سنة كاملة، وخاصة عندما أسمع أصوات من كانوا يلعبون معك في الشارع.. إنني كلما سمعت هذا -وكنت وقتها باكل- انسدت نفسي عن الأكل.

صورتك لم تبرح خيالي كلما ذهبت إلى الغيط أو نمت.

الأخبار اللي سمعناها أقلقتني وأقلقت اخواتك ولا مجال للكتابة عنها هنا.

اخواتك بخير والحمد لله. معزة أختك خسكية ولدت أربعة. أما من جهتي فأنا كل يوم جمعة باطلع م الفجر على الترب كما كنت أفعل دائمًا لزيارة المرحوم والدك وأقعد من الفجر لحد الصبح على التربة علشان أوريه نفسي وأقرا الفاتحة نيابة عنك، وباكسر العيش وبافرده على التربة، وبادي للعيال الصغيرين قراقيش.. رحمة ونور على روحه. وأنا يا ابني العزيز في انتظارك على شوق. إنني أخشى أن أموت وأتركك تتبهدل. كل اخواتك اتجوزوا وما بقاش إلا أنت. إنني لا أستريح إلا إذا تزوجت. احضر حالاً لتزيح عن قلبي المخاوف والأحزان.

أمك

وأغلقت الخطاب، وجلست شارد الذهن، قائلاً في نفسي..

"ومين هيقول لها غير الولد الغريب، والولد السيد الصفطي. أنا عارف انهم متغـاظين مني. كثيرًا ما سمعت منهم أنهم سيبلغون أمي كلما رأوني أتكلم مع امتثال أو أمها".

وقد لاحظت الأم شحوب وجهي، وطبطبت على كتفي قائلة:

- مالك..؟
- مافيش..
- تفتكر مين قال لهم؟
- مش عارف.
- طب معلهش. تعالى وياي وما تزعلش.

وأخذتني من إيدي، وخرجت معها على فوق.. وفي المطبخ أجلستني وقالت في همس، وهي تضع أطراف أصابعها على رأسي:

- انت حتروح وحتقول لهم إيه؟

قلت:

- هو أنا عارف؟.. عارف إيه اللي سمعوه.
- مين اللي قال لهم؟
- لازم الولد الغريب والولد السيد، هما دايمًا كانوا بيقولوا راح نقول لأمك.
- تفتكر قالوا لها إيه..؟
- مش عارف.. لازم قالوا لها على النقابة. أو عن سهري في الخارج.
- تفتكر..؟

قلت:

- أمال راح يقولوا لها إيه؟

قالت:

- هم شافوك بتتكلم مع امتثال..؟
- طبعًا شافوني..
- انت بتحبها؟

فسكت خجلاً، لم أستطع الإجابة، فكررت السؤال، فلم أجب أيضًا. فجلست بجواري وألصقت كتفها بي.

- انت بتحبها..؟ إذا كنت .. أجوزها لك.

قلت في خجل:

- هو انا قد المقام. أنا عامل وانتي..

قلتها وسكت، فضمتني إليها:

- وإيه يعني.. هو انت راح تفضل كدة..

قلت:

- دي عاوزة مهر كبير وأنا ما اقدرش.

- أحوشهولك أو أدفع لك من معايا..

فانفرجت أساريري، وكانت امتثال قد دخلت علينا ولمحتني أبتسم، وقد لاحظت أمها تكلمني، فوقفت ساهمه بجوار الباب، وزعقت أمها:

- اخرجي يا بت اعملي قهوة.

واستمرت الأم تحدثني:

- أمك راح ترضى؟

- أقول لها.

قالت:

- هي راح تقعد معاك هنا..

قلت:

- أمي راح تخدها معاها في البلد.. اخواتي البنات اتجوزوا وأمي عاوزاها، عاوزاها تساعد في البيت.. قلت هذا وسكت، وكانت امتثال قد دخلت.. ومعها القهوة، واستمرت واقفه، وهميت بعد أن شربت بالوقوف، وهمست الأم في أذني قائلة:

- خليك صاحي. لا تنام.. لا تنام إلا لما أجيلك.

ولم تمر لحظات إلا وقد حضرت، حضرت وكأنها قد عرفت سبب تجهمي لأن ميعاد القبض لم يكن بعد قد حان، وعليّ أن أسافر، ولأنها أيضًا كانت على علم بما بيني وبين أمي من حب ولن أؤخر لها طلبًا. فأسرعت بمد يدها وأعطتني ما يوازي ما كنت أقبضه، وقالت بصوت ناعم:

- روح علشان تبقى مطمن..

وتلفتت وكأنها تقول للولد الغريب والولد الصفتي: "يا ملاعين .. انتو السبب"

واستدارت الأم لي، ولمحت في عينيها بريقًا يلتهب وكأنها تريد أن تقول لي شيئًا ثم انطلقت مسرعة كأنها خشيت أن تعود إلى الكلام.

وفي الصباح أرسلت بورقة مع الولد الغريب طالبًا فيها إجازة ثلاثة أيام، وقبل أن أخرج للسفر جاءت امتثال، ووقفت أمامي مستندة بذراعها على الباب، وكنت وقتها ألبس جلبابي الحرير وبعد أن خرجت من الباب توجهت إلي ووقفت قبالتي، وقد أطاحت بشعرها إلى الخلف وأسبلت إحدى عينيها، وقالت في صوت رقيق ناعم:

- انت حتسافر؟

قلت:

- أيوة.

- راح تقعد هناك كام يوم؟

قلت:

- يومين أو تلاتة.

- بحالهم؟

- أيوه أمال عاوزاني أقعد هناك كام يوم؟

ففرت الدمعة من عينها وهي تعد على أصابعها:

- الخميس.. الجمعة.. السبت. أف.

وعادت وعدت من جديد على أصابعها ثلاثة..

- تلاتة بحالهم؟

وأطرقت برأسها في الأرض وأطبقت رموش عينها وهي تردد.

- ولا يوم.. ولا يوم.

وكان البيت كله في هدوء بعد أن خرج كل سكانه. فأخذت كل ما كان معي من أشياء وخرجت، وإذا بصوت هامس يهرول خلفي:

- فكري.. فكري.

فعدت أدراجي حيث كانت امتثال تمسح دموع عينها، فاقتربت منها واضعًا ما كان معي من أشياء على الأرض. ونظرت حولي في بلاهة:

- إيه؟

- انت حتسافر؟

ومطت بوجهها نحوي كأنها تقول..

فاقتربت منها مادًّا يدي وأنا أردد..

- يومين.. يومين أو تلاتة..

وفكرت فيما يمكن أن أفعله لكي أدخل في نفسها البهجة.. وكان الهواء الخفيف المنبعث من أعلى أسطح المنازل يداعب شعرها المنكوش، ورفعت رأسها في بطء، وانهمرت من عينها دموع كثيرة حتى نزلت على صدرها، وقالت في لهجة توسل:

- توعدني إنك لن تتأخر..

وكان جو البيت هادئًا وتقدمت منها ولمست يدي كتفها العاري، وملست على شعرها بيدي، وقبلتها مرات، ولم تبعد يدي كما كانت تفعل من قبل.. ولم أتركها إلا بعد أن سمعت أصوات أقدام آتية، فابتعدت عنها خطوات وعدت وتقدمت منها مادًّا يدي، فطبطبت عليها وهي تقول:

- ماتنساش تجيي بسرعة.. إوعى تتأخر.

واتجهت إلى الباب ولكن صوت امتثال رن في أذني:

- لا تنسى تسلم لي على اخواتك.

عدت أدراجي ونظرت إليها في ضيق، وكان وجهها في غاية الاحمرار، وانتهزت فرصة عدم وجود الولد الغريب والولد السيد الصفطي، فخطر في بالي ألا أسافر، وأحسست أن هذه فرصتي:

"لم لا أبقى.."

ولكن حبي الشديد لأمي غلب على كل شيء ودفعني للسفر، فأسرعت بالهروب..

وكانت الشمس مشرقة خلف المنازل البيضاء، وهبت نسمات رقيقة ملأت خياشيمي برائحة الخبز الساخن الخارج لتوه من المخبز وكان الناس مسرعين بادية على وجوههم آلام التعب.

آه لو عرفوا ما حدث

وفي القطار جلست في مقعد إلى جوار امرأة سمينة تخرج بين الحين والحين قطعة من الحلوى من شنطة بجوارها وتمصمص فيها، وفي المكان المقابل كان يجلس رجل يلبس جلبابًا من الكشمير، وعيونه تنظر دائمًا من الشباك متطلعًا إلى الأرض الخضراء التي يطويها القطار طيًّا. وأحسست بالوحدة وانتابتني الهواجس.

"ياترى مالها؟.. عيانة؟.. لم تتعود أن ترسل لي مثل هذه الخطابات.. هل يمكن أن يكون مكروهًا قد ألم بها أو بأحد من إخواتي وحاولت إخفاءه؟ لمّ لم تذكره في هذا الخطاب؟ أم يا ترى سمعت شيئًا عني؟ لا أظن أن يكون هذا هو السبب".

وهززت رأسي لكي أطرد هذه الهواجس وأخذت أردد لنفسي:

"ياخبر بفلوس بعد ساعة ببلاش".

وكانت عجلات القطار تطوي الأرض، وعندما توقف أسرعت بالنزول، وكان علي أن أقطع المسافة من طنطا إلى قريتي على قدمي بعد أن بحثت في الأماكن التي كان من الممكن أن يكون بها أحد من إخوتي أو أقاربي يبيع بيضًا أو.. جبنة.. أو سمنة.. أو يشتري بعض ما يحتاجونه.

وكان الجو شديد الحرارة، حتى إن كل ملابسي ابتلت بالعرق، ودهشت حينما وجدت باب منزلنا مغلقًا بالمفتاح، وفكرت أنه ربما تكون أمي في الغيط. وفي أي غيط هي الآن؟

وبينما كنت غارقًا في التفكير فإذا بالبنت هنا بنت الحاج محمود الصيرفي تخرج من المنزل المجاور، وعندما رأتني صرخت عائدة إلى الداخل:

- يا مه.. يا مه زينب.. فكري.. فكري جه..

ووقفت على الباب أمسح العرق المتصبب على وجهي، بينما كانت أمها تخرج وتفرك يديها من بقايا العجين. وعندما رأتني مدت يدها الملفوفة في شاشتها، مرددة:

- الحمد لله ع السلامة.. أمك في الغيط.. مالكش حق تقف ع الباب لا تقف كدة لوحدك.. هو انت غريب.. ليه ما جيتش؟

وفي نفس الوقت شدتني من يدي طالبة مني أن أدخل إلى البيت، ولكني رفضت، وأخرجت منديلاً حريريًّا من جيبي، وكان تفوح منه الرائحة التي سكبتها امتثال عندما كانت في الحجرة، فنفذت إلى خياشيم أم البنت هنا، فوقفت تشم وهي تقول:

- الله.. الله.. إيه الريحة الحلوة دي؟ حط لي شوية.

روايح المحلة الكبيرة جت.. هات.. حط شوية.. كل ذلك تقوله بينما تجذبني من يـــدي محاولة إدخالي إلى المنزل بينما تنادي ابنتها قائلة:

- افرشي يا بت الحصيرة ع المصطبة.

وفي تلك اللحظة كانت أختي خسكية تدخل من أول الحارة، فجرت إلي وهي تردد:

- آه يا خويا.. آه.. يا خويا.. فين أمي؟ هيه ما جتش؟ فأخذت أتلفت حولي. وكانـــت نسوة عديدات قد التفت حولنا، يحاولن جذبي إلى منازلهن حتى تأتي أمي وإذا بأختي خسكية، تنط من أحد البيوت المجاورة لبيتنا، وفشت الضبة من الداخل، وفرشت الحصيرة في حـــوش البيت.

وجلست أستريح من الحر، ولم تمض فترة طويلة إلا وكانت أمي قـــد جـــاءت وشـــقت طريقها وسط الناس مطوقة إياي بذراعيها، وقبلتني مرات عديدة، واستمرت دقائق وهي تردد:

- آه يا ابني.. هات إيدك يا وله.. هات إيدك حطها على قلب أمك.. شوف بيعمل إيه؟ بيرفرف ازاي؟ ليه بس يا بني ملوِّثنا.. هي أمك ناقصة.

وعادت تضمني إلى حضنها من جديد وهي تقول:

- انت أكلت؟ قومي يا بت هاتي لاخوكي.. هاتي له لبن يطري ريقه من الحر.. انـــت جاي في الحر دلوقتي ليه بس.

فردت أختي قائلة:

- الجواب بتاعك جابه على وشه.. أنا مش قلت لك يا ولية لا ترسلي.

فردت أمي:

- هوه أنا أعمل إيه..؟ شورة أخوكي السودة.. ماقلت له بلاش.. قال لي ابعتي لـــه.. أهو جه يا عيني في عز الحر.. هوِّي يا بت.. هوي على وشه.. هوي له بالطرحة.

وبينما كانت أختي تهوي لي كانت أمي تحملق في وجهي قائلة في صوت هامس:

- كنت فارق شعرك ودخلت براسك عريانة كدة.

وهمهمت:

- هو احنا ناقصين بلاوي.. هاتي لبدة أخوكي يلبسها يا بت.

وأضافت:

- هو احنا ناقصين حد يتكلم علينا يقول ابن السيدة البناية راح المحلة الكبيرة رجع فارق لنا شعره.

ولكن أختي حسكية ردت في صوت ناعم:

- ما تسيبيه يا ولية.. خليه.. إوعي تتعكشه يا وله.. خليك كدة حلو.

وكان أخي محمد قد حضر هو الآخر:

- حمد الله على السلامة.. حمد الله على السلامة.

ولم تمر دقائق إلا وكانت رقية قد حضرت بجلبابها الشيت المنقوش، وثدياها بارزان من خلال جلبابها الواسع، وخلعت شاشها الأسود، وكومته في يدها، ومسحت قطرات العرق الجارية على وجهها، وقالت في لهفة:

- افسحوا لي.. افسحوا لي أقعد جنبه.

قالتها بصوت ممطوط ناعم.

- انت حضرت إمتى..؟ أنا لسه جاية من الغيط دلوقتي وسمعت في السكة.. كنت رايحه بالأكل لاخواتي.. النهارده إيه يا أمه السيدة..؟

فقالت أمي:

- النهاردة الأربع.

فردت رتيبة:

- النهاردة الأربع.. ده جاي في غير ميعاده. انت جيت بدري ليه..؟

فقالت أمي:

- احنا بعتنا له.

فأمسكت رقية الطرحة، ولوحت بها أمام وجهي قائلة:

- النهارده حر موت.. مافيش ولا نسمة هوا.. الغربان هربانة من الحر.. هاتي يا بت يا خسكية شوية ميه ورشيهم في الحوش وقدام الباب.. خلي الطراوة تيجي.

وأضافت:

- تقوم معايا على البيت.

فقالت أمي:

- سيبيه يا بت قاعد.. يقطع الحر واصحابه.

وما إن أحضرت خسكية اللبن والعيش حتى قامت رقية من جواري وكذلك باقي النسوة وقلن:

- لما تبقى تاكل نبقى نيجي..

وكانت الفرحة تطل من عينيها وأنا آكل.. وسألتها عن سبب إرسال الجـواب.. فقـال محمد:

- كمان شوية هتعرف.

قالها بصوت حازم هادئ.

وفي المساء تجمع كل إخوتي، ولاحظت إن نظراتهم تفضح تساؤلهم عما أحضرت لهم من هدايا من المحلة الكبيرة، فأسرعت بالقول:

- أنا جايب منديل لكل واحدة منكم.. وأختي حسكية جبت لها صابونة ممسّكة.

فأسرعت خسكية إلى الداخل فدخلت رقية في التو، فقلت بصوت مسموع:

- رقية لها منديل وياكم.

وعندما سمعت رقية ذلك كادت أن تحتضني لولا وجود إخوتي. فكررت قولي لها:

- اختاري اللي يعجبك.. أحسن واحد فيهم.

وأسرعت أمي قائلة لخسكية:

- اديها يا بت من الحاجات اللي أخوكي جايبها.. مش خسارة.. فرفـضت أن تأكـل ما أعطتها أختي من أكل.. فلافل وطحينة وقالت:

- أنا آخدهم لأمي تاكلهم معايا.

وقالت لي:

- ابقى تعالى عندنا.. أمي مستنياك.

وأسرعت إلى الخارج. وخلا البيت بعد أن خرجت رقية مع باقي النسوة. كنت متلهفًـا لمعرفة سر الجواب، وخاصة بعد أن رأيت بعيني أن كل إخوتي بخير، ولم أر ما يبرر مثـل هذا الخطاب، وسألت متلهفًا.. فقالت أمي بعد أن أغلقت الباب وهي تفرك يدها.

- هاقول لك حاجة تفرحك.

وابتسم أخي، واقتربت خسكية مني، وأخذت أمي توشوش..

- أنا بعت لك علشان أفرح بيك.. عاوزة واحدة تساعدني بعد ما اخواتك اتجوزوا.. واختك خسكية هاتدخل في الشهرين الجايين.. وأنا عاوزاك تتجوز معاها.. هاجوزك واحدة كويسة.. بنت على قد حالنا.

وجزت على شفتيها. فسألت من جديد:

- انتي ليه عايزه تجوزيني دلوقتي..؟ أنا لسة صغير.

فقال محمد:

- علشان كدة بعتالك.. من زمان الفرح ما دخلش لنا بيت. ماعندناش في الحجر غيرك.

وعادت أمي تقول:

- واحدة تنفعك.. تعيش مع الزمن وياك.

وانتظرت، وانتظرت بفارغ الصبر أن تنطق باسمها.

وتجسدت أمام عيني صور عديدة.. رقية.. محاسن.. امتثال.

وقلت لنفسي: "مين من دول يا ترى هاتختار؟ دول تلاتة والتلاتة أحسن من بعض". وترددت بينهن: "محاسن.. فقيرة ومن أصل.. ورقية.. من عيلة الواحد يتسند عليهم وقت الضيق..".

وعادت صورت امتثال تظهر أمام عيني وهي تقول: "ياخاين.. أنا باحبك.. قول لأمك أنا باحبك قول لها عني".

ولكن صوت أمي كان مخيبًا لكل آمالي.. قالت بصوت حاكم المحكمة وهو يزعق على المتهمين:

- زينب إبراهيم غرابة..

وكان ذلك أغرب من الخيال بالنسبة لي.. وأضافت أمي:

- قوم يا واد يا محمد.. قوم اما نخطبها له.. ما حدش عارف الزمن هايجيب له إيه.

وأذهلتني المفاجأة، ودارت بي الدنيا وأنا لا أحس بأمي وهي تتكلم، ولم أدر ماذا أقول.

"أواجهها بالرفض؟.. إيه؟.. أقول أنا صغير.. أقول لها أنا عايز واحدة من الثلاثة.. إنها لم تتعود مني المناقشة.. وزينب دي تبقى مين؟ صحيح دي تبقى بنت خالي. إنني لم أرها. منذ متى؟ منذ أن دخلت المصنع.. ماذا أقول لامتثال التي في انتظاري. ماذا أقول لها؟ بعد أن سمعت من أمها: إياك تكون من نصيبك".

وتجسد لي وجهها المشرق وهي تقول لي: مع السلامة.

تجسدت لي وهي ترفع خصلات شعرها بينما تفسح لي مكاناً.

فقلت لأمي وأنا مرتجف.

- مش هاتجوز إلا اللي انا عارفها.. اخطبوا لـي واحـده مـن التلاتـة.. محاسـن أو امتثال أو رقية.. انت عارفاهم..

لم أكن قد حددت من منهم سأختار. وفوجئت أمي وشحب وجهها، ونظرت إليّ مبهوتة. فأعدت لها ما قلت. وإذا بصفعة تنزل على وجهي..

- بتقول إيه؟ وكمان بترد.. هو علشان ما رحت المحلة بتعمل كدة..معقول يا فكـري؟ فكري.. فكري.. تعمل كدة!! بتحب إيه حبك برص.. فاكر انك حتدور على حل شعرك؟

وأحسست بالمهانة، وخشيت من صفعة أخرى. فاندفعت هاربًا من البيت، وأخذت أجري وأتعثر في الظلام الدامس، وهواء لافح يصفعني.. لا صوت ولا حركة والنجوم تملأ الـسماء وكلب يعوي من بعيد.

وكنت أشعر كأنني أسير في المقابر.. كانت القرية كلها قد نامت مع أن الساعة كانـت قبل العشاء. وتمنيت أن أقابل رقية لتسمع ما قلته لأمي.. أين امتثال لتسمع مـا قلتـه؟ لكـي يعرفوا أنني قد تجرأت، وأنني لم أخنهن في غيابهن.

وعلى نفس الكوم العالي المجاور للجامع جلست، نفس المكان الذي جلست فيه مع رقية ذات يوم، وتذكرت ما كان بيننا، وتمنيتها.. "آه لو تعرف.. أنها الآن مع أمها في انتظـاري".. وأخذت فكرة السفر فورًا تلح علي، وأسافر ولا أرجع ثانية..

"مش معقول.. إنها لم تسمع من إخواتي مثلما قلت..

لم تعجلت؟ ولم لم أحدثها بعيدًا عن إخواتي..؟ لم لم أسألها في هدوء عن سبب رفضها رقية؟ وبلا مفاجأة.. هل كان لي أن أجرح كرامتها؟ إنها لم تسمع شيئًا مماثلاً مـن إخـواتي أو حتى من محمد.

وهاجمتني الهواجس:

"هل أهرب..؟ هل أغضبت أمي؟.. هي التي ربتني.. هاروح دلـوقتي وأبـوس علـى إيديها. أكلمها لوحدها.. إنها هي التي خطبت لاخويا، ولم يعارضها أحد سواء البنات أو الولد، وكلامها دائمًا نافذ.. لم لم أفهم هذا..؟ من الصعب أن تقبل هذا الكلام، وخاصة أمام إخـواتي وإنها إذا فعلت سيتمرد عليها أخي.. إنها كانت على حق فيما قالت. وكان علي أن أفهم ذلـك،

وخاصة أن كل إخواتي كانوا قريبين منها.. كان علي أن أطيعها حتى على حساب من أحب طالما أن الوقت لم يحن".

واتجهت نحو البيت.. ومن بعيد كانت أمي ما زالت مطرقة برأسها في الأرض، ويدها على خدها. ونظرت خسكية باستياء، وأخذت تقترب حتى أصبحت ملاصقة لي وهي تنظر إلى أمي في خوف، وقالت هامسة:

- خبر إيه يا ولد.. كدة تزعل أمك؟.. قوم بوس على إيديها..

وتطلعت إلى أمي خلسة، ولمحت من خلال نظراتها أنها تشفق علي. وكبرت في مخي من جديد ألا أبوس على إيديها، ولاحت لي صورة الثلاثة كأنهن يتوعدنني وفي عيونهن دموع غزيرة.. لاحت لي امتثال وكأنها تلبس فستان حداد أسمر والدموع تغمر عينيها، ورقية تبكي وهي بطرحتها السوداء. فأغرقت في التفكير. وأفقت على صوت أختي من جديد..

أختي خسكية:

- واد يا فكري.. هو انت فاكر إن البنت دي زي ما كنت بتشوفها، ده خراط البنات خرطها.. دي بنت طول المارد وعليها كل حتة بز واخوه.. زي الرمان.

وابتسمت أمي، وحاولت أن تخفيها بيديها ولكنها فشلت، فقذفت أختي بعود حطب كان بيدها وهي تردد:

- ع الخلف واللي خلفوه.. هو انتوا إيه..؟ خلفة شياطين؟

وهمت واقفة.. وضحك أخي ضحكة عالية:

- هو انتي يا ولية هتعملي عقلك بعقل الولد.. بقى هو جه يومين تزعليه.. تعالي هنا. مش انتي بكيتي شوية؟ آدي انتي نزلتي الدموع الفسدانة.

وأمسكها من جلبابها، وأفلتت نفسها منه وهي تقول:

- علي الطلاق من دراعي ما أنا قاعدة..

وأخويا يقول:

- عيب.. عيب يا ولية.. ده كلام من ورا ضهرك.. هو انتي هتستغني عن فكري؟ ده فكري اللي يفتح قلبك يلاقيه قاعد جوة متربع.

وأمسكتني من رقبتي، وجزت على أسنانها وضحكت عيونها مدمعة، وضحكت أنا الآخر، وقالت أختي..

- خلاص يا وله.. اقبل عشان نفرح بيك.

فلم أرد.. فعادت تقول:

– إيه اللي عاجبك فيهم؟.. امتثال لا هي من طينتنا ولا احنا من طينتهم.. على قد لحافك مد رجليك.. هو عاجبك اللي بيضحك في وشك.. دي لو حصل لك حاجة تسيبك وتدور تجري على غيرك.

وكان محمد يتحدث في نفس الوقت مع خسكية حديثًا آخر:

– ما تسيبه يتجوز على مزاجه.. هي اللي هاتتجوز واللا هو.. هو فيه واحد هياكل لقمة غصب عنه.. مش كفاية احنا مجوزانا عِنْد.. طول النهار مغروزين في الطين.. هو ده ماله ومال الكلام ده.

فردت أختي قائلة:

– عاوزة تجوزه قريبتها.. لو لعبت بديلها تلاقي حد يردها.

فقالت أمي:

– انت فاكر إنك قاعد في المحلة على طول..؟ أنا خاطبة لك واحدة تطلعها من الباب ترجع لك من الحيط.. أبوها ميت وامها حبت واحد وابوها بيموت واتجوزته.. عاوز واحدة زيها..؟

وغمز لي أخي طالبًا مني الموافقة.. ولكني لم أرد خائفًا أن أصفع على وجهي من جديد. فانتظرت انفرادي بأمي دون إخواتي.

وفي الصباح طلعت مع أخويا على السطوح، وجلسنا نتحدث في نفس الموضوع إلى أن استطاع أن يقنعني أن أرضخ لإرادة أمي. وما كادت أمي تسمع الخبر حتى أطلقت زغرودة من قلبها المحزون أعقبتها أخريات من خالتي وخالاتي.

واتلمت نسوة من الجيران تتساءل:

– خير.. خير.. فكري هايتجوز..؟

– ها نفرج بيه؟

– على مين يا أولاد..؟

– على زينب بنت خاله.

وزغردت أخريات.. وأخريات يتأملنني.. وقالت واحدة منهن في همس:

– مش لكل من جري يا اولاد.. تبقى في بقك وتقسم لغيرك!

وقالت أخرى:

– كل شيء قسمة ونصيب!

وقالت ثالثة:

- بقى رقية اللي رايحة جاية.. ده مفيش واحدة في البلـــد مـــش عارفـــة إن فكـــري هايتجوزها.. يا عيني يا بنتي!

وهزت رأسها:

- الحمار الداير يقطع في أظرط (....).. بقى ولد زي السكرة يقع في بنت سمرة زي دي ويسيب اللي وشها زي الورد!!

وردت أخرى:

- ما بلاش كلام فارغ يا ولية انت وهية.. انتم عايزين تحرضوا الولد علـــى أمـــه؟.. مش كله سخماط.. سخماط واحد؟

وكدت أن أتراجع متذكرًا ما قلته لأخي عندما قال: "راجل؟"

قلت له: "أيوة راجل".

وخشيت أمي أن أتراجع فأسرعت إلى شراء ما يلزم من سكر وشربات لأكتب عليهـــا كتابي.

وكاد الحكيم أن يرفض لصغر سني، ولم يقبل إلا بعد أن لهف قرشين. وكانت العادة في القرية ألا يرى العريس عروسه إلا ليلة الدخلة، ومع ذلك طلبت من أمي أن أراها، وألححـــت في طلبي، ولكنها قالت:

- يوم الدخلة أحسن لك.. تشوفها على شوق، ولم أحاول معارضة أمي لأننـــي كنـــت أعرف نتيجة ذلك مقدمًا.

وأسرعت في السفر حتى لا ترى رقية وجهي. وكل ما كان يشغل تفكيري هو: كيـــف أخفي الحقيقة عن امتثال هي الأخرى؟ واستطعت أن أخفي الأمر بعد أن أقنعت الغريب بعـــدم الكلام في هذا الموضوع.

ولم يمر ثلاثة شهور إلا وقد جاء أخي، وكانت امتثال معي في الحجرة تجلس بجـــانبي تضحك. جاء بزوادة أكل في غير موعدها، وكان أول كلمة قالها:

- خلاص.. خلاص يا عم.. مبروك.. جهزنالك اللي انت عايزه..

حاولت أن أغمزه لكي لا يتكلم، ولكنه استرسل:

- جبنالك سرير ودولاب وفرش مرتبتين وكل حاجة انت عايزها ومـــافيش إلا إنـــك تجهز نفسك علشان ليلة الدخلة.

سمعت امتثال هذه الكلمات وتساءلت، فرد أخي:

- جوزناه.. جوزناه واحدة على قده.

قالها وكأنه يخاطبها. وجاءت أمها على الصوت، ومدت له يدها واسترسل أخـــي فـــي الكلام:

- أمك عجلت بالفرح علشان عاوزة واحدة تساعدها في البيت.

سمعت الأم وابنتها هذا الكلام، ووقع عليهما كالصاعقة ولم يستطيعا الرد على الكلام أو الاستمرار في الوقوف، ونظرت الأم كما نظرت امتثال نظرة فيها التقزز والاشمئزاز وكأنهما تقولان: طفل مدلل، لم يكن يقدر على الوقوف أمام أمه! وانصرفا دون أن يغلقا الباب فقلـــت في نفسي: "آه لو عرفوا ما حدث".

يا فلاح يا فلاح .. دم البنت الحلوة ساح

مر أسبوعان وكأنهما عامان إن لم يكن أكثر من كثرة التفكير. وسألت خلالها العديد من زملائي ممن سبق لهم الزواج كيف أتصرف مع زوجتي فمنهم من قال:

– لازم توريها العين الحمرا أول ما تخش.. الواحدة من دول لو ركبت ما تنـزلش.. أتصلب على أي حاجة.. قولها لها: عايز اشرب، إذا أبطأت خد أي حاجة جنبك وناولها بيها في أي حته من جسمها ولا يهمك.. وبعد كدة هاتمشي زي الألف.. ساعة ما تشوفك جاي من الشغل تقف زي الفرس.. أنا عملت كدة مع مراتي.. بتبقى تتمنى الساعة اللي ما اكونش فيها في البيت من الخوف.. وتبقى انت بعد كدة تغمض عينيك ولا تقفلهم.. لازم تعمل كدة وإلا تضحك عليك.

واستطرد في حديثه عندما سألته:

– آخد وشها ازاي؟

– هاتلاقي الداية قاعدة بسلامتها جنب الست العروسة وجنبها المحرمة. شاش خفيف جدًّا.. والداية ساعة ما تشوفك مانتش عارف هاتروح هية مادة صابعها وواخداه ودي تبقى في وشك طول العمر.. كل الناس تقول عليك ده ما عرفش ياخد وش العروسة.. وتسقط من نظرها.. وأضاف:

– الديّ في الأودان يقلب الأفران.. رايحة تبص لجوزها على إنه ما طلعش شهم.. وكله من ودودة النسوان مع بعض.. زي ماحنا كدة بنحكي.. فأول ما تخش صلي ركعتين لله، وتزحزح الداية بعيد عنك، وتلف الشاش على صابعك، وتروح فاقعه جواها.. إلا والدم ملغمطه.

قلت:

– وهي تخليني؟

فرد:

– مانت هتلاقي تلات أربع نسوان قاعدين جوة.. نسوان متنقيين.. أول ما تبدأ العملية هايروحوا مكتفينها ورافعين رجليها فوق السقف، وتبقى كل حاجة قدامك واضحة.. إوعى الداية تاخده.. أحسن يبقى فيه بنات زي ما انت عارف يكون حصل لهم حاجة فيبقوا متفقين مع الداية علشان تتستر عليهم، وباسم التستر على الولايا تلبسها للعريس على إنها بنت..

قلت:

- وازاي رايحة تطلع دم إذا..

قال:

- وهي هاتغلب.. دول ما بيغلبوش.. بتجيب موس وياها وهي داخله، وتروح مستغفلة العريس وخابطه الموس في أي حته فينزل الدم.. وهي طبعًا عارفه تضربه فين.

وهز رأسه لي وقال:

- هي دي كل الحكاية.. جمد قلبك وما تخافش.

وأزعجتني كلماته الأخيرة، فبدأت أسأل:

- هل البنات كلهم كدة؟

فطمأنني قائلاً:

- قليلين.. قليلين خالص.. يكون واحد ابن كلب قليل الأصل وعدها بالجواز وتخلى عنها..

فأعدت الأسئلة على واحد من الميكانيكية الجدد سبق لي معرفته، فلم يختلف عما قاله الآخر إلا في أخد وش العروسة؛ إذ قال:

- خدها على حجرك.. خدها على مهل.. هتقعد يوم.. يومين تلاتة.. أنت جي مستعجل على إيه؟

قلت:

- أهلي وأهلها يبقوا مستعجلين. ولازم ياخدوه على طول علشان يلفوا بيه في البلد.. ده شرف بنتهم..

فرد..

- ده شرف.. شرف مين غير شرفك انت.. ما دام انت مطمن يبقى خلاص. العروسة للعريس والجري للمتاعيس.

وأغمض إحدى عينيه وقال:

- انت عارف إيه معنى تاخد وشها بصباعك؟ يعني تدفعه كله جواها. ده زي فقع العين.

واشمأز:

– يالطيف! الله يكون في عونهم.. هو يعمل العملة دي إلا الجهلة.. روح يا جدع خد وشها بحجرك.. ده ممكن ينقطع بيت الولد.. يخليها ماتخلفش طول عمرها.. هيه المصايب بتيجي إلا من كدة.. أعوذ بالله.. اللي قال لك كدة مين؟ ده جاهل. تطبطب عليها.. تحسس عليها.. لما تقول لك حاسب أو تحس إنها أتألمت فأنت تحاسب لغاية ما كل شيء يمشي بسهولة.. إوعى تعمل الحكاية دي.. إوعى أحسن لك.

مر الأسبوعان، وفي يوم الدخلة اختليت بأمي وسألتها فقالت بعد أن حدثتها عن كل ما سمعته:

– أوعى تعملها.. أبوك الله يرحمه عمره ما حط إيده علي.. هوه يضرب مراته إلا الراجل الوحش.. إن ضربت القطة تخربشك. قول لها بالراحة على اللي انت عاوزه.. البنت في بيت أبوها غير في بيت جوزها.. علمها على طبعك.. بس ما تخليهاش عاوزة حاجة.. إن قالت لك عاوزه قرش اديها اتنين وما دام كل حاجة عندها هاتحبك ما دام متهنية.. هاتروح بيت أبوها ليه؟.. لا تغضب ولا تهرب. وأحسن لك تديها الفلوس كلها في جيبها تجيب اللي عايزاه وتحطه في دولابها ولا تبص للي في إيد غيرك.. هاتحبك وهاتتمسك بيك.. شوف أنا ما كنتش عاوزة حاجة لما كان أبوك الله يرحمه عايش كان مهنيني.. وكل ما وريتها إيه اللي معاك لا هاتقولك عاوزه الشيء ده ولا ده.. أوعى تضربها أحسن تفتح عينها، ولو شفتها ماشية مع حد ولا بتتكلم مع حد أوعى تقول لها انت ماشية معاه ليه والا بتكلميه ليه.. لاحسن بالطريقة دي تفتح عينيها على شيء لا تعرفه.. انت عارف الواحدة لو حبت تخون جوزها تخونه حتى ولو كان نايم في حضنها.. الواحدة زي الزرع.. دايمًا عاوزة المية.. ومادام تسقيها هاتشرب ليه من حد تاني.. أنا باقولك الكلام علشان تاخد بالك أوعى تخونها.. فاهم..؟ إياك تعمل كدة أو تخونها..

وكان صوت خالتي عفا الله يناديها، وتركتني دون أن تكمل كلامها، وإذا بأخي يدخل حاملاً بين ذراعيه ملابس الفرح. وعندما رأته النسوة في طريقه إلى المندرة انطلقت منهن زغاريد قوبلت بأخرى عديدة، ولم تمر لحظات إلا وتزاحمت الناس، وأطفال صغيرة اندفعت وسط النسوة.. واللي يدفع في الحوش البراني للبيت بطشت الحموم والمياه الساخنة لاستحمامي، وقد لمحت رقية وقتها وقد غطت وشها بالشاش وتندفع إلى الداخل بملابس سوداء.

وأسندت ظهرها إلى الحائط، وألقت نظرة على الحوش وتطلعت إلى السقف وكأنها تلقي نظرة أخيرة على البيت الذي كانت تمني نفسها به، وعادت وتطلعت إلي من خلال النسوة الواقفات وقد غطت الدموع عينيها، ولم تحتمل أكثر من ذلك فأسرعت خارجة.

وكان أخي يزعق مناديًا، ولما أمسك بيدي ردد هامسًا:

– شد حيلك.. أوعى تكسفنا.. أوعى يقولوا ابن محمد الخولي معرفش.. أمك هاتكون جوة وياك.. وعندما لبست جلبابي الكشمير والتف الناس حولي شعرت بالبهجة تملأ قلبي، وكان الملح يتساقط فوقي، وكانت أمي هي التي تلقي به، وكان صوتها يعلو بأغنية ترددها:

– عين الحسود فيها عود يالا لا للي..

وعم علي المصري يقول:

– ياالله.. وسعي يا بنت انت وهيه.. ابعدي الشمع من جنبه، وسع يا جدع انت وهوه.

واصطف الرجال على الصفين، وطه مشعل يصفق، والرجالة تنشد أناشيد عالية متصلة..

وفرش منديله ع الرملة

والحلوة تجيله ع الرملة

واستمرت الزفة أكثر من ساعتين تسير حول القرية، مع إنها كانت في العادة لا تسير أكثر من دقائق.

وكان الولد الغريب والولد السيد الصفطي قد أحاطا بي والأنظار تتطلع إلى ملابسهما الزاهية.

وعلى ناصية الحارة همس أخي في أذني منتهزًا فرصة انشغال الناس حول حلقة الرقص، ودفع بي قائلاً:

– اسمع.. أنا راح أداري عليك وانت تجري.. تجري على آخر الشوط واوعى حد يشوفك.. فعلى بال ما نحصلك تكون خلعت هدومك واستعديت..

دخلت المندرة مدفوعًا، وعندما رأتني النسوه أسرع بعضهن للخارج. وتوقفت لحظة محاولاً أخذ نفسي ناظرًا أمامي وكان السرير ذو الأربع عمدان والكوشة اللامعة فوقه تضوي، والملاية البيضاء الواصلة للأرض، والمساند ذات اللون السماوي الملتصقة بالحائط، والدولاب ذو الضلفتين، وصينية القلل المليانة، والقياس المفروش ذو الخطوط الملونة، وكل ذلك جعل من الحجرة شيئًا مختلفًا عما سبق أن رأيته في بيتنا منذ أن ولدتني أمي.. فأخي تزوج. وكذلك إخواتي، ولم تأت لهم أمي بمثل ما أتتني به.. هنام في العالي..! ارتفعت عن الأرض!

وكانت العروسة ذات الوجه الأسمر بين النسوه، كل تهمس للأخرى دون أن أسمع شيئًا من همسهن.. كان فستانها الحريري الأخضر الفاتح قد أبرز مفاتن صدرها العريض الممتلئ يزينها

شعرها الأسود اللامع وضفائرها مجدولة تصل إلى قرب فخذها، وعيناها السوداوان الواسعتان قـد أضفتا عليها كثيرًا من الصفاء.. وقلت في نفسي: بعد لحظات لن يبقى أحد سوانا..

واتجهت فخلعت جلبابي ودفعت به فوق السرير، وكانت أمي تتمشى في المندرة، وألقت علي نظرة، وكأنها قد عرفت سبب ارتباكي، فأطلقت زغرودة أنستني الصلاة. وكأنها الزفة قد وصلت بضجيجها.. ودفعت بي أمي قائلة:

- قرب.. انت ليه واقف؟! الناس جم.

وفي حركة سريعة التفت النسوه وأحاطوها، وقد رأيت ما سبق أن سمعت. وأسـرعت في لف الشاش على صباعي وتذكرت ما قاله الميكانيكي الشاب، لكن كرباجًا لسوع ظهري فقد سمعت صوت أمي وهي تقول:

- قرب.. قرب يا ولد متلبش كده ليه؟

فأربكني صوتها ولم أستطع أن أفعل إلا كما أمرتني.

وانطلقت صرخة مدوية كتمت في الحال.. اخرسي يا مقصوفة الرقبة .. اخرسي.

وارتفعت أصوات غنائية كأنهم يريدون أن يغطوا على صوتها.

ثم أعقبتها أصوات أغاني في الخارج..

سبع البراري اصطاد غزالة الليلة..

يا فرحة أمه يا هناها الليلة..

وأعقبتها أغاني أخرى عديدة، وكان الدم يلطخ أصابعي.

وانطلقت أمي في نفس اللحظة تعلن سلامة الفتاة لكل من في الخارج، وعادت وأخرجت في عجلة أول قميص به عشرون بقعة دم.. وانطلقت الأغاني..

يا بلحة ومقمعة شرفتي عمامك الأربعة

يا فلاح.. يا فلاح دم البنت الحلوة ساح

وصوت آخر:

قولوا لابوها يقوم بقى يتعشى..

قولوا لابوها إن كان جعان يتعشى..

وكان القميص الثاني قد خرج كذلك. على أثر ذلك أخذت النسوة تتسرب واحدة بعد أخرى..

مبروك.. مبروك يا ولاد..

وهم يمطرونها بقبلاتهم.

وخرجت أمي كذلك وأغلقت علينا الباب.

وبقينا ننظر إلى بعض وأصوات الأغاني تبتعد.

وقد لمحت دموعًا كثيرة بللت خدها. وأسندت رأسها إلى الحائط وكأنها تبكي. وإذ بي أسمع:

- عطشانة.. عاوزة أشرب.

فأسرعت إلى القلة. وهي تقول:

- روحي.. روحي هتطلع.

فدفعت القلة إلى فمها. فقالت فجأة، وكأنها استيقظت.

- لا..لا.. وديها مطرحها.. يا كسوفي.

وأنا أقول:

- اشربي.. بللي ريقك.

فخفضت ناظريها إلى الأرض. وكانت أمي تسمع أصواتنا، فخشيت أن أكون قد اتبعت معها غير ما أشارت به في أسلوب معاملتها، فأسرعت بفتح الباب، فإذا بها تجدني أمسك بالقلة لأسقيها، فابتسمت لي وهي تأخذ القلة من يدي..

- يا دي الدلال! أيوه كده ادلعوا على بعض.. هات ياوله عنك.

ودفعت بها إلى فمها، فشربت بعين كسيرة وكأنها تدعو لي.

وكانت أختي وبقية إخواتي قد دخلوا.. وابتسم أخي لما رآه..

- إش.. إش.. إيه ده كله.. دي نومة ولا نومة العمدة.. مافيش في الدست غيرك.. قومي يا ولية.. قومي هاتي لهم يتعشوا ويانا..

وفي الحوش جلست بجانب أختي، وإذا بأمي تدفعني لكي أجلس بجوار مراتي، وتقول:

- تعالي يا بنت.. تعالي هنا جنبه.

ودفعت بها إلى جواري. ثم تقول:

- أكلها يا ولد.. دي بقالها تلات أيام ما أكلتش.

فرد أخي.. دي فرخة مستنياك جوة. هوّه يفسخ وهيّه تفسخ وكل واحد يأكل التاني.. دي ليلة واحدة في العمر.

وأضاف:

- خدها في حضنك يا وله.. انت قاعد لخمة ليه؟

كل ذلك مع ضحكات عالية من إخواتي عندما طوقتها بذراعي وكانت تحاول تخليص نفسها مني قائلة:

- هوّه إيه..

وقال أخي في حماس:

- يالله قوم خد عروستك وخش على جوه..

قالها وهو يغمض عينيه.

وكانت لمبة الجاز نمرة عشرة عالية تنير المندرة، والهواء يداعب الملاية الموضوعة فوق السرير. وذهبت في بطء إلى الدولاب، ودفعت فيه جلبابي الكشمير، ثم ألقيت بنفسي على المرتبة وأحسست بنعومتها لأول مرة، وكذلك كل ما كان موجودًا.

وكانت زوجتي تسرح شعرها أمام الدولاب بالمشط وهي لا تريد أن تترك المراية وكانت تضع صدغها عليها ثم تعود وتنظر إلى صدرها، وقد لاحظت أنا ذلك فناديت في صوت هامس:

ماتيالله.

فخلعت فستانها وتحركت في المندرة وكأنها تتأمل كل ما بها.

وفي بطء التصقت بالسرير وهي تتطلع إلى الباب خوفًا من وجود أحد، ووجدت ثقبًا في الباب فأسرعت بسده ثم عادت وهي متهيبة من الخوف، واستمرت في الالتفاف حول نفسها، ثم عادت واتكأت على طرف المرتبة وهي تقترب، وقالت:

- اتأخر شوية جوه جنب الحيط.. جنب المساند.. خش انت

وأسبلت عينيها، وكان ضوء اللمبة قد كشف عن جسدها ولمست نهودها وهي تخطو من فوقي، فأمسكت بذراعيها وأطبقت جامدًا، كنت أخشى أن تدفع بي بعيدًا مثلما كانت تفعل امتثال، لكنها لم تفعل، ونامت في مواجهتي بعد أن شدت اللحاف فوقها، فدفعته بعيدًا بيدي، فعادت لتجذبه.. وهكذا دون أن تتكلم ونظراتنا للباب، ثم همست:

- قوم اطفي اللمبة.. أحسن حد يشوفنا.

قالتها في صوت ناعم، وأطبقت رموش عينيها.. ذكرتني برتيبه وامتثال وهي تقول:

"اقفل.. اقفل الباب.. الباب مفتوح.. يا خرابي"

وامتثال على السلم تهمس:

"إوعى تعملها.. إوعى تعملها"

وعندما تذكرت ذلك تخيلتهن وتلاشت صورة زوجتي، وشعرت بكياني كله يتحرك، وإذا بصوتها الحالم "حد يشوفنا"!

طوقتها بذراعي بينما كانت تغمض إحدى عينيها.. وتطلعت لي وكأنها عرفت السبب.

وعادت أمي إلى البلد مطمئنة

مرَّ الأسبوع كالبرق، مع أني لم أبرح البيت لحظة إلا في أوقات قليلة لزيارة بعض أقاربي، وعندما حان ميعاد السفر أرادت زوجتي أن توصلني، لكن أخي وأمي رفضا لا لسبب إلا لأن ملابس الخروج لم تكن قد أتت من عند الخياطة.. فبكت طويلاً.

وعلى المحطة قالت أمي:

- انت دلوقت مابقتش على حل شعرك.. بقيت مربوط من رقبتك القرش اللي تصرفه في الهلس اصرفه على مراتك.

وقال أخي:

- دي حتبقى في عنيا على ما تيجي.. بس يا عم تشد حيلك ويانا في البيت.. انت عارف.. ربنا يفتحها في وشك.

وقالت أمي:

- يرزقه برزقها.

وزعق القطار، وتحرَّك، وأنا أنظر من الشباك. وكان أخي وأمي يمسكان ببعضها ويلوحان لي وسط الزحام.

لم أشعر بحقيقة ما حدث إلا عندما وصلت حجرتي في المحلة.

كانت الدنيا من حولي ساكتة، والغرفة خالية مقبضة، وعلى ضوء اللمبة الخافت رأيت الحجرة ملآنة بالتراب فارغة، ليس بها إلا الحصيرة في أحد الأركان، وأسراب البق تمرح؛ فانقبض قلبي ولم أطق البقاء. فخرجت أنتظر الولد الغريب على باب المصنع، ولم تكن الوردية قد خرجت بعد. فوقفت أنتظر على الرصيف، ورأيت عبد العظيم خارجًا، وكأنه يزحف، وفكرت: "أنادي عليه..؟ لا.. سوف يراني.. أمال الولد الغريب مش معاه ليه؟ أنده عليه؟ أعزمه على الفطير والكحك؟

ومرَّ أمامي دون أن يرفع يده، وانتابني شعور بالمرارة "أيتجاهلني؟.. لم يسلم عليَّ؟ ألسنا أصدقاء؟ هل هو زعلان لأني تزوَّجت دون أن أوجِّه له الدعوة؟ لم يحضر أحد من أصدقائي. ده لو الفرح كان يوم غير يوم الأجازة لما حضر الولد الغريب ولا السيد الصفطي.. وما قيمة الدعوة إذا كنت عارف إنه مش حيقدر يحضر؟!..

هوه بس كلام؟.. لا.. لازم ماشفنيش..

وبينما أنا غارق في التفكير، إذا بالولد الغريب يمسك بي.

- انت جيت.. جيت.. أنا قلبي كان حاسس والله العظيم كان حاسس إنك جاي.. الله.. واد يا سيد.. راح فين الواد السيد الصفطي؟ ده كان جاي ويايا.. هات إيدك.. انت مش قايل إنك حاضر امبارح.. لم تحضر ليه؟ دا احنا قاعدين زي الغلابة من غيرك.. جبت لنا إيه وياك.. يا واد يا سيد يا صفطي.. هوه راح فين؟

ده كان معايا دلوقت أهه.. لازم تاه.

وتطلَّعت إلينا الأنظار.

- تعالى.. إنشا الله ماجه.

وسرنا وسط الزحام، وإذا بصوت يناديني:

- يا فكري يا خولي.

وتلفَّت. كان عبد العظيم في مواجهتي، وما كدت أمد يدي حتى أحاطني بذراعيه في شوق بالغ.

- مبروك.. مبروك.. تعالى.. أنا مش سألتك النهارده عليه يا واد يا غريب.. حمدا لله على سلامتك.. وعقبال البكاري.

تعالى نشرب قهوة.

ونادى على مجموعة من العمال كانت بالقرب منا:

- تعالوا بقى لما نصليها غيابي..

فقال أحدهم:

- بس..

فقاطعه عبد العظيم:

- بس إيه..؟ تتحمل علشان خاطره تلات أيام ذنب.. نبقى نلم فيهم جزم المصلية ونناولها لأصحابها زي بعضه.

وعلى القهوة قال أحدهم لي:

- هوه الأخ ما..

فلحقه عبد العظيم من جديد:

- ما بيصليش.. ما بيصليش.. ما تتعبش دماغك.. أنا غلبت..

فرد عليه آخر:

- جرى إيه يا عبد العظيم.. الدعوة عايزة صبر. والصبر ييجي منين إلا بالإيمان بالله..

وأضاف:

- الأخ متجوز؟

فابتسم الولد الغريب وصاح:

- ما شفتوش الحنة في إيديه ازاي.. ده لسه جاي.

فرد عليه آخر:

- عال.. الواحد دينه لا يكمل إلا لما يتجوز.. يعني بقيت كامل؟

واللا إيه يا عبد العظيم؟ اقرأ الفاتحة وتعالى معانا.. خد عهد على الشيخ.. ما احنا كنا أشقيا زيك واحنا صغيرين.

فردَّ عامل آخر:

- علشان تكسروا نفسه يا جدعان.. حرام عليكو يا رجاله.. انتم عايزين تكسروا نفسنا أكتر ما هي مكسورة؟

فردَّ عبد العظيم:

- وإحنا كسرنا نفسكم في إيه ؟

فقال العامل:

- هوه فيه أكتر من كده كسر نفس.. فيه حد يشيل جزم الناس في هدومه.. دي جمعية إيه؟! الدنيا اتملت جمعيات.. كل واحد واخد له شوية تحت باطه.. إشي جمعية أنصار السنة المحمدية وإشي الصوفية.. والبيومية.. والتوكلية.. والرفاعية والشاذلية.. جمعيات زي النحل.

وأضاف:

- أنا رحت كل دول ولفيت.. ما سمعتش منهم غير الصبر.. اللي بيبص لعيشة الناس تحرم عليه عيشته.. هوه مافيش في الدين غير الصبر.. كل جمعية تذم في التانيه.. لما كفرت منهم كلهم.

القرآن ضد الظلم يا ناس.. اقرأوا القرآن أحسن لكم.. سيبك يا عبد العظيم.. ارجع لأصلك تاني.. من يوم ما رحت المدعوقة دي وانت سارح وتايه.. الصبر.. الصبر.. وقمنا. ونحن في الطريق همس في أذني:

- سيبك منهم.. دول اتدروشوا..

فردَّ عليه الغريب:

- دا سابهم من زمان.

كانت الحجرة كما هي. فسألت:

- هيّه..

فقاطعني الولد الغريب:

- هيّه مين دي خاصمتنا.. خاصمونا زي ما نكون إحنا اللـــي جوزنـــاك.. لا البنــت ولا أمها.. ما عدش حد منهم بيهوب ناحية الأودة.

وكان الولد السيد الصفطي قد دخل، فطوّقني بذراعيه:

- أيوه كده.. كنا زي الغلابة.. اللمة حلوه.. شيل يا واد يا غريب الحصيرة.. نفضها.. يا نهار أسود.. استنى يا واد.. ده البق نـــازل منهـــا زي المطـــر.. يـــالله نقتلـــه.. أتارينـــا ما بننامش.. داحنا بنقول الواحد بيهرش من إيه!!.

أف.. !

ولمَّا اقتربت منه صاح الولد الغريب:

- ابعد أنت.. ابعد أحسن هدومك الجديدة تتوسَّخ..

وجلست على الحصيرة بجانبهما دون أن يغمض لي جفن..

"هل هي تنام مثلي..؟ هل تفكِّر فيَّ؟.. كنت بالأمس نائمًا معها على المرتبة. لــم يكــن هناك بق ولا براغيث.. السرير بتاعي.. ما فائدة تركه هناك وأنا وحدي بهذا الــشكل.. لمـــا لا آتي به هنا لأنام؟ أجيب السرير وأسيبها هي هناك تساعد أمي، ولمَّا أروح ليلة ننامها ســـوا على الأرض زي بعضه. لقد أتت به أمي علشاني.

أفكار عديدة راودتني.

وروحت في الأسبوع التالي قبل أن أقضي المدة، ولمَّا رأتني زوجتي أخلـــع هـــدومي، صاحت بأمي:

- يا عمة.. تعالي شوفي ظهر ابنك.

جاءت أمي تجري من الزريبة قائلة:

- يا ضنايا يا ابني.. من إيه؟

- من البراغيث والبق اتلموا علي..

- ما بتتضفوش الأودة..

- تتضف إزاي؟ إذا كنت باطلع من الصبح وأرجع بعد العشاء

- سخني له ميه يا بنت.. قطيعة على الغربة وعلى أصحابها.

نضفي له ظهره بالليفة.

وخرجت وهي تدعو على الغربة وعلى أصحابها.

وقالت امرأتي وهي تحميني:

- ماتاخد السرير.. ما تاخده معاك..

قلت:

- يا سلام.. فيكي الخير.. ده أنت عمرك أطول من عمري..

طيب .. وأمي؟

فقالت:

- اتمسكن لما تتمكِّن.

قلت:

- وانتي هتعملي إيه؟

فقالت:

- أستحمل.. احنا بنكنس وبنرش.. أما أنت يا عيني..

صمت لحظة.. ثم سألتها:

- ما تيجي معايا.. تقدري تيجي مدة هنا ومدة هناك.

فاحمرت وجناتها، وابتسمت وقالت:

- أنت عاوز أمك تفضحني.. دي مش مجوزاك إلا علشان أشتغل معاها في الغـيط.. عاوزها تقول انتي خسرتيه..

اعمل معروف.. اوعى تجيب السيرة دي قدامها.

فقلت:

- انتي مستعدة؟

فصمتت ولم تجب. وعادت تقول:

- اعمل معروف.. اوعى تجيب لها سيرة.. انت عارف لما مشيت حصل إيه؟.. رحت معاها الغيط. رحت غصب عنها.. ما طقتش أسيبها تشتغل لوحدها، وهي تقول: يا بنت الحنة على رجليكي.

ولمَّا حملت الحمل، وجبته علشان أطلع الحطب فوق السطح واحنا ماشيين في السكة انقطعت السلبة؛ فوقع الحمل في البحر، رحت قالعة الهدوم وطبة وراه، والموج يجرفني وأنا أعوم وأزقه على الشط لحد ما طلَّعت الحطب كله.

ولما طلعت لقيت الرجاله واقفين يخبطوا إيد على إيد. وكان القميص بتاعي لازق على جسمي. وانكسفت أطلع والبلد كلها واقفه على الشط. ما انكسفوش ومشيوا.. فضلوا واقفين يبحلقو لي. وشخطت فيهم مرة:

امشي يا راجل انت وهوه خلوا البنت تطلع من الميه.. انتم واقفين كده ليه؟

وأخذوا يتساءلون..

مين دي..؟

دي مرات فكري أبن امكم السيدة البناية.

أما نقت لابنها صحيح..

بنت.. قلبها زي الحديد.. تنزل البحر مليان.. ده لو كان راجل كان سابه ومشي..

فسألتها بتعرفي تعومي؟

- أيوه.. سيدي الله يرحمه علمني العوم.. كان يربط القرعة في وسطي ويرميني في البحر.. أنت فاكرني إيه؟ ده أنا كنت باطلع أجدع نخلة.. وأطلع الجميزة أجيب الجميز من طرفها.

فضحكت طويلاً. وسألتها:

- وأمي عملت إيه؟

- طايره بي طيران.

قلت:

- يعني العملة دي ما جاتش إلا على دماغي.

فأسرعت بالقول:

- أنا ماليش دعوة.. أنتم حرين مع بعض.. ما تحشرنيش..

وكنت وقتها قد جلست على السرير، أنظر للشيء الذي أصبح لا غناء لي عنه.

وفي الصباح كانت أمي أول من دخلت لتصحيني، وفي شوق قبلتني من فمي. فانتهزت فرصة هذا الرضا وقلت في نفسي:

"هذه فرصتي.. هيه دلوقت مبسوطة"

فأمسكت بيدها وأجلستها بجواري، وقلت في توسل:

- أهون عليكي؟.. شايفة.. شايفة يامه جنبي عامل إزاي؟

قالت وهي تدفع بأطراف أصابعها على رأسي:

- كان على عيني.. أعمل إيه بس يا ابني؟.. إيه في إيدي أعمله؟

قلت:

- في إيدك.. في إيدك يا أمه تعملي كل حاجة..

أهون؟.. هو أنا مش ابنك؟

قالت:

- قوللي بس.

ونظرت لي نظرة حانية لأم تخاف على ابنها.. وقد لاحظت زوجتي فأسرعت بالخروج وأغلقت الباب علينا.

قلت بتوسل:

- اسمعي يا وليه.. انتي شارية السرير ده لمين؟

قالت:

- شارياه لك.. هو فيه أعز منك.

قلت:

- خلاص.. اديهولي آخده معايا..

فنظرت لي في ذهول:

- تاخده معاك..؟ اتهوست والا إيه؟ ده مزيِّن المندرة.. كل حد مـا ييجـي بنفتحهـا في وشه ونفرَّجه على السرير.. هو أنا أبني وانت تهد.. عاوز تزيِّن بيـوت النـاس بيـه..؟ ولمَّا واحد يسرقه؟ ده مكتوب علينا في قايمة قد الدنيا يطلع إزاي؟

- يعني إيه؟ مش عايزه تديهولي..؟ خلاص سيبيني أموت.

وإذا بالباب يُفتح. وكانت أختي حُسْن تتعصَّب بمنديل أحمر غامق مشغول، وزعقت عليها أمي:

- تعالي يا بت.. تعالي شوفي الواد البايظ ده.. عايز ياخد السرير قال.. قاعد عمال يقطع في قلبي م الصبح.

واستدارت بوجهها لي:

- مش بقالك سبع سنين.. سبعة هناك يا ابني.. هو القمل والبق والبراغيت ما زحفتش إلا دلوقت؟!

فقالت أختي حُسْن:

- هو اللي يجيله نعمة يسيبها.. ده يمسك ويتبت عليها بأسنانه وأضافت:

- هو ما دام داق نوم العلالي حيسيبه؟.. ما تتعبيش نفسك.

النهارده واخده.. بكره واخده.

فزعقت أمي:

- كمان شويه حيقول أنا عاوز مراتي.

فابتسمت أختي حُسْن وقالت:

- آدي دقني أهه.. إن ماكنش يقولك أنا عاوزها.. وتلفتت نحو الباب، وعادت ورددت:

- يا بنت الكلب يا أمه.. حد يتجوِّز ويسيب مراته.. ما عزوبية إلا بعد جواز.

فدفعتها أمي بيديها..

- قومي.. يا بنت ياالله.. هو أنتي معايا والا معاه..

فتحتوا عينيه جاتكوا شوطه.

وأسرعت خارجة

دخلت زوجتي بعدها مكتئبة الوجه مذعورة:

- عملت إيه..؟ انت قلت لها..؟ حتسود عليَّ عيشتي.. يوم وحتسيبني.. ياما أسمع.

فردت حُسْن:

- حتسمعي إيه يا بنت.. اقعدي جاك كسر رقبتك.. يا اختي عليها..

خشي يا بت خشي.. ياما تحت الساهي دواهي بقى أنتي مش عاوزاه؟

وهزت ذراعيها

- مش عاوزاه؟

وأغمضت عينيها

- ماتقولي يا بنت الحق.. قولي قدامها.. مش أحسن ما تقولي من وراها؟

فوضعت زوجتي يديها على عينيها:

- هو إيه ده؟.. إيه الكلام اللي بتقوليه ده؟

وعادت أمي في التو وكأنها قد سمعت.

وقعدت أتحايل وأخي يتحايل، وفين وفين لما حن قلب أمي وقالت:

- أديك المرتبة.

وغمزتني أختي قائلة:

- اسكت.!

وإذا بزوجتي تقول:

- المرتبة لوحدها تبوظ.. ماتدي له السرير بالمرة.

ونظرت لها أمي بعينين ملتهبتين من كثرة ما بكت، وقالت:

- انت راضيه؟.. لو راح مالناش دعوة.

فردت زوجتي:

- أمال أعمل إيه..؟ فداه.. هو العدو لما يجرى له حاجة حييجي السرير ينفعنا؟.. اللي يعيش ياما يجيب.

وجلست بجانب أمي بعدما شعرت أنها قد هدأت.

- خلي مراتي تيجي معايا.. خليها تيجي تنصبه معايا.. مرة.. مرة بس.. شايفة هدومي..؟ هدومي عامله إزاي.. وسخة.. تجهِّز لي لقمة أعرف أشتغل.. ده لو استنيت على كده راح أموت.

وطبطبت على كتفها، واندفعت وأمسكت بيديها:

- هاتي إيدك.. إيدك أبوسها.. هاتي رجلك!!

وفين وفين لما قبلت أن تذهب زوجتي معي، ولكنها لم تحتمل رؤية السرير وأختي تفكه.

سافرت معي على الرغم من أمي. لم تكن تودُّ أن تفارقها، وقد أحسست بما في قلب أمي من حزن، فأرسلت لها بمجرَّد أن وصلت.

واستقريت في إحدى الحجر، وعندما جاءت أمي، ورأت الحجرة قد زيَّنهـا السرير، والصور المعلَّقة بجواره.. صور عنتر بن شداد، والزناتي خليفة، وأبو زيد الهلالـي، عـادت بعدها إلى البلد مطمئنة.

ولم يمر وقت إلا وكان الولد الغريب هو الآخر قد تزوَّج من البلد. ولم يبق سوى الولد السيد الصفطي. كانت الحجر قريبة من بعضها البعض.. في الصباح نخرج للعمل، بينما هـنَّ يتجمعن ويذهبن سويًا لشراء ما يحتجنه من أكل، وينتظرن في حجرة أم الولد السيد حيث هي أكبرهم، إلى أن نعود لنأخذهنَّ في المساء.

وذات يوم من أيام الأحد، وبينما كنا نتحدَّث، وإذا بالولد الغريب يقول:

- ماتياله كل واحد ياخد مراته.. ناخدهم نفسَّحهم. إيه رأيك؟

فانتعشت زوجتي، واحمرت وجناتها، بينما أسرعت زوجة الولـد الغريـب وأخرجـت من صندوق أحمر بجوار السرير جلبابًا من الشيت به نقط سوداء وحمراء وبيـضاء، وآخـر أسمر خفيف زي رمش العين بحيث يكشف عن الجسد لو لبس لوحده؛ ولهذا أخرجت الجلباب الشيت بالنقط السوداء، وصرخت زوجتي وهي تجري كالقطة في الحجرة:

- ماتيالله.. روحي ألبسي هدومك لاحسن يرجعوا في كلامهم.

وانتفض الولد الغريب هو الآخر يلبس جلبابه، بينما أخذت زوجتي وخرجت متجهًا إلى البيت، وبعد أن لبس كل منا جلبابه كان الولد الغريب قد أتى مع زوجته.

وسرنا مع بعض في الشارع حيث الناس. كانت زوجتي تسير تائهة حيـث الـشوارع مزدحمة. العربات الكارو بصهيل الخيل فيها وهي تندفع. ونساء ريفيات كثيـرة مـع عمـال متشابكي الأيدي في اتجاهات مختلفة. همست زوجتي في أذني كالخائفة من أن يسمعها أحد:

- بص. شوف.

ملوحة بيدها حيث كان أحد العمال يسير مع إحدى الشابات.

- شايف الحنة لسه على إيديهم.. دول عرسان.

وهزتني من كتفي:

- أمال أمك كانت مالها؟

وتوقَّفت فجأة، وأغمضت إحدى عينيها، وحملقت بالأخرى إلى فوق حيث كانت امـرأة تمسك بكلب بإحدى العمارات العالية وتداعبه، ثم تعود وترتكز على ركبتها وترفع بقدم الكلب الأمامية وتقبله، وقفت زوجتي مذهولة وكأنها تريد أن تسأل، فلحقتها:

- إيه..؟ كلب!!

قالت:

- وتمرر بوزه على شفايفها!!

وأضافت:

- هو ما..

فقلت لها:

- الناس اللي في العلالي كده.. ما بيحبوش إلا كده.. في كل بيت كلب

فقرصت على يدي

وفي شارع البهلوان ببيوته العالية كانت الناس تندفع من كافة الاتجاهات وصوت يرتفع عاليًا:

- الله أكبر.. الله أكبر والمجد لمصر.

وصوت أقدام تدق الأرض.. كان جمع من الناس الشبان بقمصان خضراء، وبنطلونات قصيرة قد توقفوا في الشارع، وعلى بعد خطوة وقف شاب طويل القامة وقد لف على رقبتـــه منديلاً أحمر غامقًا. وهتف ثلاث مرات:

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر والمجد لمصر.. مصر حرة.

وتقدَّم شاب قائلاً:

- يمين شمال.. على اليمين در.

وحملقت بعيني أبحث بينهم عن عمال، فلم أجد سوى سالم طلبة الميكانيكي.

آه.. هم دول بتوع مصر الفتاة؟ حزب مصر الفتاة اللي دعاني له في يوم من الأيام.

وقالت زوجتي:

- يا صلاة النبي!

وعيناها مثبتتان عليهم وهم يسيرون وسط الشارع يدكون الأرض.

ولمحني سالم طلبة، فأسرع إليَّ يحييني..

وقلت لزوجتي:

- زميلي في الشغل.

فنظرت إلى وجهه بعينين متسعتين قائلة:

- ابقى اتفضل عندنا.

قالتها وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد، وقبل أن ينصرف همس في أذني:

- فيه أخبار هتعجبك.. سمعت إن الشكاوى كلها تحوّلت للشركة.. الشكاوى اللي بعتناها وصلت الشركة وفيه ناس جايين من مصر.. جايه تحقق في الكلام اللي إحنا بعتناه، وفيه ناس تانية جت من مصر وبتسأل في البلد.. بتمر على البيوت وبتسأل عن كل كام في الحجرة.. يظهر الشكاوى اللي بعناها نفعت..

وانبسطت زوجتي عند سماعها هذا، وقالت:

- إياك يارب عشان خاطري يكون قدمي كويس.. ابقى هاته البيت هات الجدع ده معاك.. هاته يسلينا ما احنا زي الغلابة في الأودة.

والتصقت بي. فنبهتها زوجة الولد الغريب قائلة:

- ملزوقة فيه ليه كده؟

فلكزتها في كتفها:

- وانتي مالك.. ما تروحي تمشي جنب جوزك.

بينما شخط فيها زوجها:

- هو أنتي إيه..؟ لسانك زي البربنط.. ما تمشي ساكتة.

فردت قائلة:

- ماهي بتقول له اتفضل.. بتقولها بالفم المليان.

فردت زوجتي وقد علت حواجبها:

- مايبجي.. هو أنا باقولها كده وكده.. ده الضيف برزقه.. قالتها في حماس، وقد رفعت وجهها في وجهي. فردت زوجة الولد الغريب:

- طب وإيه يعني.

فردت زوجتي:

- هو بيتنا فاضي؟.. بيتنا مليان.. فكري الله يخليه مش مخلينا محتاجين حاجة.

وبينما كنا نشق طريقنا وسط تلك الحشود قالت زوجتي:

- إيه الناس دول؟

قالتها وهي تكاد تختنق. فرد الولد الغريب:

- همه دول حاجة.. أمال لو شفتي الناس اللي في الشركة حتعملي إيـــه؟ ده جـــزء.. جزء منهم.

فردت زوجتي:

- يا صلاة النبي.. ده ولا مولد السيد البدوي!

- أمال فين الحمص؟.. هو فيه مولد بلا حمص؟

فرد الولد الغريب:

- مافيش هنا غير الفول السوداني والترمس.. هو أنتي فاكرة الناس دول جايين يقروا الفاتحة؟ جايين يستباركوا.

تعالوا جنب الحيط عبال فكري ما يشتري لنا..

فردت زوجتي:

- مش حاسيبك.. مش حاسيبك.. خدني وياك.. آه لو كل مرة تجيبني.. هاتني أتفرج.

وعلى إحدى العربات وقفت، وفردت زوجتي منديلاً أبيض مشغولاً بالترتر بـــالخطوط الحمراء القاتمة اللون استعدادًا لوضع ما سوف نشتريه، وإذا بصوت نسائي يزعـــق مناديًـــا، ولما تطلَّعت، كانت محاسن ومعها عاملات أخريات، ولم أتمالك بعدها نفسي، فاندفعت مناديًا:

- محاسن.. محاسن..

ولم أنتبه إلا على صوت إحداهنَّ وهي تقول:

- مين دي..؟ مين اللي معاك؟

وأغمضت إحدى عينيها غامزة. وكانت زوجتي قد تسمَّرت حيث تركتهـــا. فأســـرعت ثانية:

- تعالي.. تعالي.. دول عاملات معايا في الشغل..

فسارت متعثِّرة بخطى بطيئة، وأسنانها قد التصقت ببعضها بينما هنَّ يضحكن مـــادات أيديهنَّ.. وابتسمت محاسن ابتسامة كشفت عن أسنانها البيضاء، وقالت وهي تعـــدل ملاءتهـــا وترفع إحدى خصلات شعرها بيدها الأخرى:

- كنت فين؟.. ماعدش حد بيشوفك.. ماعدناش بنشوفك ع الباب واقف.

بينما همست أخرى سائلة:

- مين دي؟

قلت:

- دي مراتي.

قلتها في صوت عالي رن في الأذن..

- دي مراتي.. تعالوا معايا لما أعرفكم ببعض.

فشحبت وجوه بعضهنَّ، وكان وجه محاسن أكثرهنَّ شحوبًا، وأرادت أن تخفي هذا الضيق بابتسامة باهتة، وقالت:

- أنت اتجوزت؟.. اتجوزت من امتى؟

قلت:

- من مدة..

قالت وهي تخفي عينيها:

- أتاري ماعدش حد بيشوفك.

وأضافت: ساكنين فين؟

- في صندفا.. تعالوا لما أوريكوا.

فأدارت محاسن وجهها وبكت، فاجتاحت عيني سحابة سوداء، ولم أنتبه إلا وزوجتي تدفعني قائلة:

- تعالى.. يالله واقف ليه؟.. دول مشيوا.

حقق حقق يا حاكم

عدت إلى المكن وقد توقفت بجواره وأحسست بضيق لم أكن أعـرف مـصدره، كـان المكن أمام عيني كأنه لا يوجد، ونبضات قلبي تزداد في الارتفاع دائمًـا، وخـوف ينتـابني. وتوقَّفت إحدى الماكينات فجأة بسبب عطل في الترنك، وبقيت فترة من الزمن متوقفة بـسبب عدم قدرتي على التصليح؛ لأنه كان يحتاج إلى فك وربط، وهذا لم يكن فـي مقـدوري لقلـة المفاتيح.

فأسرعت إلى سالم طلبة الميكانيكي لما بيني وبينه من مودة. ولما رآني رمش بإحـدى عينيه.

- لازم من الورشة..

وتلفَّت حواليه، ونظر لي وابتسم ابتسامة سمحة، وأضاف:

- حتتعطل.. حتتعطل شوية.. استحمل.

ومسح يديه بقطعة قطن من العادم، وقذف بها على الأرض. واتجه حيث أحضر اثنـين من البرادين، وأخذوا يناضلون لرفعه حتى احمرت وجوههم، احمرت مـن الإجهـاد، وهـم يقاومون لرفعه ويتبادلون الصياح، حتى حسبت أنهم سيتشاجرون، وصاح أحدهم وهم يضعونه في الطرقة، ويبصقون فوقه..

- مكن ابن كلب! إنجليزي وسخ.

فردَّ الآخر:

- من سنة ألف وثمنماية.. مكتوب عليه من سنة ألف وثمنماية.. مرَّ عليه كـام سـنة وآخرتها.. جابوه بعدما استهلك زي الكراكة.. زيها في الشغل.

وزعق:

- هي العمال بتموت من شوية.. شيل.. شيل قبالي ع الورشة.. وابتسم سـالم طلبـة، وهز رأسه وهو يرفع معهم، وتمتم وهو يقترب مني:

- تصوَّر.. ميه سبعة وثلاثين سنة شغال وآخرتها جابوه.

قلت مافيش مكن غير ده؟

فارتفع صوته عن ذي قبل:

- فيه مكن ياما عندهم. مكن زي التراب

قلت:

- وليه ما بيجيبوش؟

فأومأ برأسه وأضاف:

- هو احنا اتحصلنا على ده إلا بالعافية.. احتلوا مصر لحد دلوقت تلاتة وخمسين سنه.. تلاتة وخمسين سنه من الاحتلال من سنة ١٨٨٢ وآخرتها إيه.. شوية مكن خردة.. وقرش على أسنانه عندما قال:

- الاحتلال يعني التحكُّم.. التحكُّم في البيع والشرا.

قالها وتنهد. وصمت لحظة، وعاد بعد أن مرر لسانه على شفتيه.

- بيبيعوا لنا إزاي المكن الجديد! هم عايزينا نتقدَّم!! دول بياخدوا القطن ويبيعوا لنا القماش غالي، عاوزين بس هم اللي يشتغلوا..

وتلفت حواليه:

- أمال الحاجات اللي بتحصل في البلد دي بتحصل ليه؟ ما سمعتش عن المظاهرات.. ما سمعتش عن الجامعة..؟ المدارس كلها مقلوبة والمظاهرات مالية الدنيا.. راح صدقي الكلب وجه عبد الفتاح يحيى باشا.. وانشال عبد الفتاح يحيى وجاءت وزارة نسيم.. وما عمله صدقي بالشعب بيكمله نسيم.. تقتيل وتذبيح للشعب. الدم.. الدم جري في الشارع عشان مصر تتحرَّر.. تتحرَّر في شرا المكن من أي حته.. من أي دولة هي عايزاها من روسيا.. من ألمانيا.. من فرنسا.. ونبيع القطن بالسعر اللي إحنا عاوزينه.

وثنى أصابع يديه، وأطبقها تمامًا، وفي عصبية لوَّح بها في وجهي قائلاً:

- لأ دي وقفة لنا زي اللقمة في الزور.. خانقانا في البيع وفي الشرا.. مش ممكن نشتري إلا عن طريقها.

واحمرت وجنتاه، وزعق كالأسد الحبيس:

- عاوزين بلدنا تفضل كده..؟ ولامتى راح تفضل؟

ودفع الأرض بقدميه وأضاف:

- هو احنا اتحصَّلنا على المكن الخردة ده إلا بالعافية بعد ثورة الشعب سنة ١٩١٩ وحتى ما جاش ولا اتركب إلا في سنة ١٩٢٨ وفي المصنع ده بعدما اعترفوا بالاستقلال الاسمي.. استقلال إيه ولاد الكلب!

وقذف بالمكوك في الدرج، واعتدل في وقفته، واسترسل قائلاً:

- استقلال إيه ولاد الكلب!

قالها وتنهَّد وأضاف:

- لولا الخيانة لاخذنا الاستقلال.. استقلال البلد كامل..

قلت:

- مين هم ولاد الكلب دول اللي أنت تقصدهم؟

فأسبل إحدى عينيه:

- عدلي.. عدلي يكن.. خرج على الشعب وقت أن كانت الثورة مشتعلة واهتز بدنه عندما قال:

- وصدقي من بعده.. وآخرون.. وآخرون من بعدهم، وكان قد حضر الميكانيكية من أصحابه وقتما قال هذه الكلمات، فوقفوا يسمعون، واسترسل سالم طلبة في حديثه بعد أن ضمَّ إحدى قدميه، وارتكز بكوعه على إحدى أجناب الماكينات، وحك ظهره.

- ما حصل النهارده في مصر من قتل هو احتجاج صارخ على ما قام به صدقي ونسيم لإلغاء دستور ١٩٢٣ وما قامت هذه المظاهرات إلا لنتخلَّص من أذناب الاستعمار.

وقرص على أسنانه عندما قال:

- البلد دي هي اللي لسه..

قلت وأنا أحاول أن أضحك.. وأن أبكي في الوقت نفسه.

- أتاريكم أول امبارح كنتم بتهتفوا.. لكن ليه يا سالم ما هتفتوش ضد الإنجليز.. ماسمعتش منكم غير:

الله أكبر والمجد لمصر.

- الهتافات بتاعتنا تعني كل حاجة: الله أكبر تعني على الظالم، والعزة لمصر، تعني الاستقلال.

فهز الميكانيكي المجاور رأسه، وأغمض إحدى عينيه، وهو يقول:

- مصدق الكلام اللي انت بتقوله.. مصدقه يا سالم.. قالها في هدوء، مضيفاً:

- إيه يعني مصر الفتاة دي؟.. مصر الفتاة دي إيه اللي انتوا عاملينها.. البلد في حاجة يا سالم إلى وحدة.. وحدة ولا فرقة.. انتوا بتمزقوا وحدة الشعب وخرجتوا على ما قاله سعد.. الأمة مصدر السلطات.. اللي أصر عليه سعد أنتوا بتخونوه.. أصر سعد

على إن الدستور هو إن الشعب مصدر السلطات.. الملك كما سمعت، أو كما تعرف اعترض.. وكانت المعركة بينه وبين سعد، معركة انتصر فيها.. ولم يتخلَ عن شعاره.. الملك يملك ولا يحكم والشعب هو السلطة.. إيه اللي حصل؟ إيه حصل منكم؟

خنتوا الأمان.. أول شيء عملتوه جبتوا الملك في الأول.. أول شعار قلتوه. الله. الملك.. يعني خليتوا الشعب الآخر.. مش ده شعاركم؟.. فين الشعب؟ أين هو؟ ألم يكن هذا تخليًا عما قاله سعد.. تخليتوا عن الشعب.. سيبك يا سالم وبلاش ولولة في الشارع.. بلاش تضليل. من أسوأ الأعمال اللي بتعملوه اليوم.. أنتوا مع مين..؟ مع عدلي يكن وصدقي وعبد الفتاح باشا يحيى ومع نسيم وأيضًا مع الملك. ضد مَنْ؟ الدستور.. همه عاشوا إلا بالحراب.. مع مين أنتم؟.. مش بتقول أنت دلوقتي مش بتعترف إنهم من أعداء الشعب؟ فكَّر يا سالم فيما تقوله.. فكَّر فيما قاله سعد واعمله. مَنْ وقف ضد الدستور هم من أعداء الشعب. مع مَنْ أنتم إذن؟ انضموا لموكب الشعب وسيروا مع إرادة سعد للشعب.. قولوا الملك يملك ولا يحكم.. المظاهرات مالية الدنيا ضد نسيم.. مطلب الشعب: عودة الدستور.. عودة الدستور تعني خروج ا لإنجليز وإتاحة الفرصة للشعب في الحركة.. فكَّر يا سالم إن أي خروج على الوفد خيانة لثورة ١٩١٩..

وكان أحد العمال قد جاء طالبًا إياه لتصليح ماكيناته، فاتجه مسرعًا دون أن يكمل الكلمات، نظر سالم طلبة بشيء من التفكير، خُيِّل إليَّ أنه يكاد يذهب لإلقاء كلمة أخيرة للميكانيكي الذاهب إلى التصليح.

كان كلامه تشجيعًا لأن أسأل سالم طلبة..

– كنتم شوية إمبارح.. ومكانش معاكم عامل واحد.

قال:

– بنعمل على قدر ما نستطيع.. بنزكي الروح الوطنية في البلد دي واتَّكى على كلمة (البلد دي) وأضاف:

– هي العمال هتيجي إزاي؟ هم عندهم وقت واللا فرصة للتفكير.. بيشتغلوا اتناشر ساعة.. مدفونين.. كلنا مدفونين من اللي بيحصل في البلد.. من طلعة الشمس لغاية العشا لا من شاف ولا من نظر.. تصوَّر.. بلد زي دي فيه أكتر من سته وعشرين ألف غير عمال المخابز والمحالج والنسيج اليدوي.. مجموعهم أكثر من سته وخمسين ألف.. تصوَّر!!

وعاد وقبض على يده..

- بلد واحده زي دي فيها كل هذا العدد!.. تصوَّروا لو خرجوا في مظاهرة!! وقتهـا نقدر نقول مصر حتتحرَّ ر مع عمال مصر جميعًا.

وشد على يده بعد أن لمح أحد الرءوساء الكبار من بعيد، وأضاف قبل أن يمشي:

- انت عارف.. العمال اللي بتشتغل انتاشر ساعة ما يقدروش ييجـوا.. تعـالى أنـت ويانا.

ولم أرد مكتفيًا بهز رأسي.. فابتسم لي قائلاً:

- أنا عارف.. عارف إن أخوك وفدي.. أخوك اللي في القرية وأنت حتخاف منه.

فابتسمت دون أن أجيب. وكانت الساعة قد توقفت على الثانية عشرة ظهـرًا.. وكـان موعد الغداء.

وبجوار الحائط افترشت الأرض، جوار أعداد غفيرة من العمال، وفي حماس عرضـت ما سمعته، وما سمعته بالكامل.

وكان صوت ينبعث من رجل يناهز الخامسة والأربعين من عمره وعينـاه سـمراوان وشعره خطَّ فيه الشيب.

- نسيوا يقولوا لك إن عمال الإسكندرية اشتركوا في الثورة.. ثورة الشعب سنة ١٩١٩ وكان لهم اتحاد عام، وعمال السكك الحديدية أيضًا.. نسيوا يقولولك عن العمال ودورهم.

وهز رأسه وقال:

- سعد.. سعد الله يرحمه. ما يجوزش عليه غير الرحمـة.. حـل اتحـادهم وسـجن الأعضاء!!

ولما سأله أحد العمال عن السبب.. أحد العمال الجالسين، أجاب وكأنه كان معهم:

- لما أتألفت حكومة برئاسة سعد، فرحت العمال، واعتبروها نصرًا، فتقدَّموا بمطالب.. منها تخفيض ساعات العمل، وزيادة في الأجر، ورفضت الحكومة وأضرب العمال، واحتلـوا المصانع، ورفعوا العلم.. احتلوا المصانع ثلاثة أيام، وأداروا المكن هم من الداخل.. أداروه في مهارة كـالخبراء. ولكـن سـعد، الله يرحمـه.. قالهـا وصـمت لحظـة، وأضـاف بعـد أن تنهد..

- مايجوزش عليه إلا الرحمة.. ضربهم بالرصـاص، وأدخلهـم الـسجن.. طلعهـم من المصنع.. طلعهم بالعافية ومش بس حل الحزب الاشتراكي، وأعضاؤه الآخرون.. سجنوا، ومات في السجن محامي كان مشهور.. أنطوان مارون.الله يرحمه، مات، الله يرحمـه لأنـه

دافع عن العمال.. وصدقي راخر موت عمال العنابر.. دي حاجات معروفة لكل الناس.. لكل من عاش.. ده حال العمال.. كل الدنيا على العمال.

واعتدل في جلسته، وثنى إحدى قدميه ووضعها على الأخرى وأضاف:

- انتوا زعلتوا.. زعلتوا لما عباس حليم مجاش ليكو.. مجاش ليه؟ لنفس السبب، لنفس السبب منعوه.. هم عارفين إن شركة زي دي ضخمة كبيرة فيها العدد ده.. الدنيا تتقلب لو عملت العمال حاجة.. الحكومة عارفة كويس.. واخدة بالها من اللي فات وعلشان كده خافت من مجيئة.. حتجيب وجع دماغ ليه لنفسها؟

وأخرج سيجارة من جيبه وقتما كان يهم بالوقوف. كنا نسمع ونصمت، ولم نسأل فيما لا معرفة لنا به. وزعقت الصفارة مدوية.. منادية على العمال.

ومرت الأيام، وذات يوم وقتما كنا واقفين بجوار عبد العظيم وإذا به يرى مصطفى محمد من بعيد آتيًا يرفع إحدى أكمامه ويجري كالمجنون بين المكن متطلعًا ذات اليمين وذات اليسار، فدفع بي قائلاً:

- شايف.. جاى ليه كده يجرى.

ولما توقف بادرنا القول:

- مادريتوش؟!.. الملك.. الملك مات!

قال هذا وسكت متلفتًا حواليه كالباحث عن شيء، وأسرع في الاتجاه نحو سالم طلبة، وقد لمحت من وجهه أنه قد أصيب في الصميم، بعد أن رأيت شحوب وجهه الأسمر، وانتشر الخبر كالرعد في العنبر. وامتعضت وجوه، وشحبت أخرى، وابتسم آخرون وآخرون. وفي بطء تحرَّك سالم طلبة، وأسند بظهره إلى الحائط وحملقت عيناه في السقف، وعلى غير العادة دخل مدير النسيج على المكتب، وفي يده برواز خشب به صورة، وارتفعت الهامات لترى، وإذا به يرفع صورة ويضع أخرى، وعاد بنفس السرعة إلى الخارج..

- آه.. لقد تأكَّد الخبر. هكذا قال عبد العظيم.

وفي ظهر هذا اليوم نفسه، ونحن متجهون لشراء ما يلزم من غذاء، كانت أعلام خضراء منكسة.. نكست على أبواب المصنع الخارجي يلعب به الهواء، وبينما كانت العمال تسأل، كانت أصوات آتية من الخارج. أصوات تصم الأذن:

مات الملك.. عاش الملك! فأسرعت إلى الخارج، فكان مصطفى والكافوري وغيرهم وغيرهم، في حلقات، بينما وقف الآخرون وسط زحام الباعة المتجولين يشترون ما يلزم لهم من غذاء، غير مبالين بما يحدث حولهم، وفي شماتة قال أحد الواقفين:

- اللي ييجي ع العمال ما يكسبش.

ورفع آخر يديه إلى السماء قائلاً:

- استجبت.. استجبت يا إله العرش.. لا بتغفل ولا بتنام وحملق بعينه في الواقفين.

- أنا مش قلت.. مش قلت: يمهل ولا يهمل.. أهي جت له ع الماشي.

فردَّ مصطفى محمد قائلاً:

- ماتفرحش في اللي مات.. لما نشوف اللي راح ييجي.

وكانت صيحات الباعة عالية، والهتافات تبتعد وتبتعد، ودخل العمال مشتبكين في أحاديث عدة.. اللي يقول..

- كان ملك من غير زور.. الحكما ركبوا له زور كلب..

فرد آخر..

- أتاريه هبهب..

واللي يقول..

- مات وابنه في بلاد بره.. دول استنوا ما أعلنوش الخبر إلا لمَّا جابوه لاحسن الإنجليز ياخدوا الحكم.. ياخدوه من تاني..

وقال صوت آخر:

- راح في داهية.. هوه خلاهم غيره.. موت أكتر من اللي همه موتوه..

واللي يقول:

- ابنه كان أحسن منه.. ربنا يجعل قدمه كويس..

أحاديث عدة مختلفة.

وفي المساء، كانت المظاهرات لم تخلُ منها شارع.. كلها تهتف للنحاس، والعمال يسدون الطريق غير منتبهين لما يُقال من هتافات في هذا الوقت المتأخِّر قدر ما كان اهتمامهم بالتعب وكثرة ساعات العمل، وازداد الحماس واشتد، واندفع العمال شيئًا فشيئًا.. الصوت يجتذب كالمغناطيس، وحمل البعض على الأعناق، وإذا بي أجد نفسي أنا الآخر أجري بدافع الرغبة في المعرفة جارًا الولد الغريب معي رغم تعصلجه وهو يقول:

- تعالى. مالكش دعوة..

وأنا أقول..

- تعالى نشوف..

واندمجت في الوسط، وجذبني الحماس فهتفت عاليًا ناسيًا نفسي من شدة ما سمعت.

في هذا الوقت ظهر مصطفى محمد والكافوري وفرج أفندي ذو البنطلون الأزرق على ناصية إحدى الشوارع القريبة من المركز ينظرون للمتظاهرين. وزاد العدد. وتكاثر أكثر فأكثر.. واندفعوا هم.. اندفعوا للآخرين. وفجأة دفع بي أحد السائرين.. دفع بي فوق أكتافه قائلاً:

- اهتف!

وكانت المفاجأة. قلت:

- أهتف إيه؟

- اهتف واحنا نرد..

- أهتف إيه. نزلني..

- صوتك عالي..

والتف حولي كل من يعرفونني.. التفوا كالنحل عندما يتجه للعسل، ومد لي فرج أفندي يده بورقة مكتوبة، اتضح من خطها أنها كتبت على عجل، قائلاً:

- اهتف.. اهتف.. اهتف المكتوب.. اهتف وبسرعة.. اهتف.. اهتف بمطالب.

وما كاد صوتي يرتفع، حتى التف حولي آخرون وآخرون..

(مطالبنا عادلة.. وقضيتنا أعدل.. عادلة أرسلناها يا حاكم.. دية.. دية يا حاكم.. دية دية للي يموت.. حقق.. حقق يا حاكم.. حقق حقق في اللي يموت.. السل اتفشى في العمال.. خفض.. خفض يا حاكم. خفض.. خفض ساعات العمل يا حاكم..)

وارتفعت الأصوات، وتزاحمت الناس بجواري، ولم يعد هناك من هتافات سوى ما أردِّده، كأنما كانوا على اتفاق.. وبينما كنت أهتف والأصوات ترن في الفضاء، كان ثلاثة من رجال من ذوي الجلاليب والبلاطي البيضاء.. والطواقي الصوف تعلو فوق رءوسهم يهجمون في شراسة، واختطفوا الورقة من يدي، وآخرون غيرهم انتزعوني من كتف الرجل زاعقين:

- انتوا في إيه وإحنا في إيه؟ هوه الميت مات والجنازة حارة إيه اللي جاب الحابل بالنابل.. كلام إيه اللي بتقولوه يا ولاد الكلب! تعالى.. تعالى معانا اتجرّ.. اتجرّ ع المركز.. تعا يابن الكلب..

تجمهرت العمال، وانتزعوني من بين أيديهم، وارتفع الصوت كالرعد:

- اشكوا الظلم يا عمال.. اشكوا الظلم للحكام..

وصاح صوت جنوني آخر:

- امسك.. امسك دول.. امسك اللي عندك.. امسك ولاد الكلب.. وزمجرت الجموع المحتشدة وزعق صوت أحد الواقفين:

- اضرب.. اضرب يا جدع.. اضرب ولاد الكلب.

واندفس في الوسط، واختفى من فوره، ورأى الناس وهم يهرولون نحوه، وعلت أصوات الاحتجاج المروعة من كافة الجوانب تطالب بضرب الثلاثة، وكانوا من المخبرين.

وكانت الساعة تدق الحادية عشرة والنصف وقتها كنت متجهًا إلى المنزل وإذا بصوت هادر يعدو من بعيد:

- حالتنا ساءت.. ساءت إلى الحد اللي يصعب على أي إنسان أن يشوفها.

وقال آخر:

- احنا مش عارفين ليه لحد دلوقت الحكومة ساكتة.. مش سائلين ليه فينا؟ ولا في اللي كتبناه..

رد صوت آخر أكثر علوًا:

- لمَّا تصحى !

وأنصت بأذني. وفجأة خفتت الأصوات عندما سمعوا أصوات أقدام آتية بالقرب منهم وتدق الأرض في الظلام. وبعد فترة صمت عاد يقول:

- فعلنا ما في وسعنا.. ما في قدرتنا أن نفعله، ولم يبق إلا أن نراقب الأحداث.

وهمس صوت آخر:

- صبرنا صبر الكرام والأيام والسنوات الغالية انقضت من عمرنا ومازلنا نعيش عيشة مطينة.

ثم عادوا يتهامسون بأصوات هامسة خافتة، وأخذ الظلام يطبق تمامًا في الشارع والعطف التي يسكن فيها العديد من العمال.

وتمددت في الحجرة دون أن أقفل حتى الباب. لم يكن من حديث سوى ما حدث.. الكل يتكلم:

- سمعتم.. سمعتم المظاهرات حول موت الملك.. اتحولت إلى مظاهرات تهتف بمطالب.. عيال عفاريت..

وآخر يقول:

- عيال جدعان.. إحنا مالنا ومال اللي يموت واللي يعيش.. مااللي يموت يروح في داهية.. ماكل يوم ناس بتموت.. حد سأل.. سأل في اللي بيموت منا كل يوم بالمكن.. أحسن كده اللي طلعت أصواتنا في الشارع.

وآخر يقول:

- أحسن.. اللي الناس سابت هتاف الملك وهتفت ويانا.

وآخر يقول:

- همَّه الناس دول إيه؟.. ماهم عمال.. كلهم عمال.. لمَّا شافوا واحد بيهتف بمطـــالبهم كان لازم يبقوا كلهم وياه.. أمال العساكر ليه اتدخلوا؟ ما كانوا ساكتين من الأول.. ماتدخلوش إلا لمَّا أصوات العمال عليت.

واستمرَّت الأحاديث تتردَّد أيامًا وشهورًا..

إنها شعلة قد أضيئت وأبدًا أبدًا لن تنطفئ

كان الصباح هادئًا، ساكن الريح، وجماعات عديدة تتحرك في طول الشارع وعرضه، وسحب من دخان المصانع تعلو وترتفع حتى حجبت الشمس، وأصوات بائعي الصحف من الصبيان تعلن أخبارًا تهزُّ النفوس، وخرجت. وكان عمال تقف جماعات أمام مبنى الري، وفي أيدي بعضهم جورنال. وجماعات كثيرة هاماتهم عالية يتطلعون.. وتزاحمت أنا الآخر، وإذا بعيني تقع على أول جورنال، كان بالخط العريض مكتوب فيه: قانون إصابات العمل، وتزاحم آخرون وآخرون، وكانوا من الطول بحيث حجبوا عني ما كنت أقرؤه، وحاولت أن أشبَّ على أظافري، ولكن دون جدوى. وزعق صوت من بعيد:

- سمعونا يا جدعان..

وتزحزحت إلى الخلف لأستطلع ما في وجه الرجل الذي يقرأ. وعلى الرصيف المجاور شبيت. وكان القارئ يبتسم. والمجاورون له هم الآخرون يبتسمون وصاح واحد منهم.

- بشرى! بشرى للعمال!! أصدرت الحكومة قانون إصابات العمل.

صيحات هائلة. مهللين: هيه.. هيه..

وارتفعت الأصوات: بعضها يغطي على البعض.

- كام الدية؟

وأصوات أخرى مهدئة:

- صبرنا ونلنا.. صبرنا يا رجالة.. عشنا وشفنا اللي يموت ياخد دية.

وأصوات أخرى:

- يحيا الوفد.. يحيا الوفد.

وأصوات أخرى تردِّد..

- يحيا الوفد.. مايموتش حق وراه مطالب..

وبدأ صوت آخر يعلو..

- هدوء.. هدوء! اسمع يا جدع انت وهو لمَّا نشوف.. كام يا جدع.. كام حيدونا؟.. ألف يوم؟ ألف يوم بالكامل للي يموت؟

وارتفع صوت آخر..

- وإيه تاني..؟ماية وتمانين جنية حد أقصى في حالة العجز بالكامل..

وتمتم الواقفون..

- يا سلام.. حد كان طايل.. ناخد دول ونطالب..

- مبروك يا علي.. يا علي مبروك.. علي.. أخدنا الدية..

أخدنا الدية.. من أنيابهم..

وهتف صوت آخر..

- نصر..نصر.. أول نصر للعمال.. اهتف يا محمود.. عاش الوفد.. وارتفع صوت غطى على الضجيج.

- عرفنا اللي يموت من المكن.. عرفنا آخرة ده.. واللي يموت من السل يعمل إيه؟.. من الزغبار اللي بيعشش على الصدور يعمل إيه؟ مافيش حاجة؟ بص يا جدع في الجورنال يمكن..

وزعق آخر:

- مافيش حاجة عن ساعات العمل؟

وأصوات أخرى تقول:

- لا .. مافيش.. مافيش حاجة.. مافيش حاجة زي دي..

وقال آخر:

- يمكن في الجورنال التاني.

وما سمعناه في الجورنال التاني سمعناه في الأول.. ما فيش حاجة.. مافيش حاجة عن السل.. مافيش حاجة عن ساعات العمل.. مافيش حاجة عن الدورة.. مفيش.. مفيش.. بكره حنطالب.. نطالب زي ما طالبنا.

وأمام باب المصنع. حيث تجمَّع العمال وكان فرج أفندي يتحدَّث وقد سبقني غيري في السؤال، وكانت إجابته صريحة وواضحة:

- إحنا في البداية ولسنا في النهاية.. إذا كان القانون صدر ناقص إلا أننا في أول الطريق..

وكانت الأبواب قد فتحت، وأسرعت بالدخول، وعلى الوجوه ابتسامة الأمل، وعلى المكن وقفت العمال في ثقة متطلِّعين فيما حولهم في انتباه ظاهر، تدفع أيديها الفرامل

والمواكيك وكأنهم لا يدرون من الفرحة.. ومن على بعد كان عبد العظيم يتأرجح بين المكـن ويتطلَّع في كل تلك الوجوه المرحة، فاتجهت نحوه محاولاً إخراجه عن الصمت، فقلت مداعبًا:

– ماتحلق ذقنك دي.. احلقها يا عم.. باب السما اتفتح

فنظر لي وابتسم..

– يظهر عليك مبسوط..

– مبسوط طبعًا.. ماتبسطش ليه؟ هوه أنت ما دريتش بالقانون؟..

عرفت يا عم من طالب بالحق ينول.. آدي إحنا دوشناهم بالشكاوى

فنظر لي بعينين سمراوين، وفي نظراته الحنين، وهمس:

– اسمع.. حاقولك كلمتين.. اسمعهم من هنا وخرجهم من هنا أنت حر.. حر دلوقتي.. انصح صاحبك من الصبح للضهر وبعد كده هو حر.. النهارده أحسن من امبارح.. فرق السما من الأرض.. اشتغلنا ببلاش أول المدعوقة ودلوقتي ربنا أخد بيدنا وأجرنا لله الحمد قـد زاد.. واللي بيموت بياخد دية. أهله هتلاقي قرشين والا إيه رأيك؟

قلت:

– كلام فرج أفندي إن إحنا في أول الطريق وماحناش فـي النهايـة.. مـا سـمعتش والا إيه؟.. إحنا لسه خدنا حاجة.. ساعات العمل لسه والدورة لسه ما اتفتحتش والمصيبة اللي على دماغنا الشغل على أربع ماكينات.

فتلفت حواليه وقال:

– افتكر.. كويس إنك قلت لي زمان صاحب عيلة والدنيا ما بتتبنيتش في يوم.. اتبنـت في ست أيام.. بلاش دوشة.. سيب كل شيء ماشي لما ربنا يأمر راح ناخـد. ربنـا بيـرزق الإنسان من غير ما يدري.

قلت:

– حاجيب إزاي؟ هوه مش قال: اسعى يا عبد وأنا أسعى معاك؟ هـو القـانون جـه إلا من كتابة الشكاوى؟

– أف.. أف.. انت أصلك ما بتصليش.. لو جيت الجامع معايا وسـمعت مـا كـانش لسانك الزفر ده قال.. تعالى واسمع القناعة.. سيبك من المشي ده وانتبه لشغلك ولأكل عيشك ولأمك ولاخواتك.. ما حدش حينفعحك. اسمع كلامي اسمع اللي باقولهولك. أنا بـرأت ذمتـي وانت حر.

فاكتأبت، وأدرت ظهري محاولاً أن أضحك مثلما يضحك الآخرون مفكِّرًا فيما سمعته ناظرًا لعبد العظيم..

"سبحان مغيِّر الأحوال! بقى هو ده عبد العظيم الشهم. لقد تعلَّمت منك يا عبد العظيم الشهامة والإقدام على العمل. لقد علمتني كيف لا أهاب المكن ولا الرءوساء مسليًا لي عن حياتي المهببة مطمئنًا إياي كيف ننظر إلى اليوم الذي يقول فيه أحد أنتوا ما بتفهموش".

وسألت نفسي..

"أصحيح .. صحيح أنه سيبقى؟

وقلت..

"أبدًا.. لا أصدق هذا.. أبدًا أبدًا إن المظالم التي نحياها ستجبره كما أجبرته فيما مضى على السير في نفس الطريق وألا يتخلى عنه".

وكانت ضجة المكن عالية، والسرور بالقانون لا حدود له بين عمال كثيرًا ما طالبت به. في هذا الوقت أيضًا كان الميكانيكية الجدد كل منهم يسلِّم على الآخر مهنئًا بعضهم بعضًا، وانتهى اليوم على تهاليل العمال وفرحتهم، لا بانتهاء ساعات العمل الطويلة، ولكن لظهور أشياء جديدة في الآفاق. في نفس الوقت ظهر مصطفى محمد بجواري وهمس:

– الليلة.. الليلة على الباب تستنى.

واتجه نحو عبد العظيم ووقفت أترقب وجهيهما، واستطعت أن ألمح ما في وجه عبد العظيم من حزن مثلما كنت ألمحه عندما يتملَّكه الغضب. واستمرا يتهامسان فترة أيقنت بعدها أنه لن يأتي الآن معنا..

في المكان المحدَّد لم يكن أحد سوى مصطفى واقفًا وحده يتفرَّس في الوجوه بعين لا ترمش، ولمَّا لم يجد أحدًا أسرع في القول..

يالله بينا.. يظهر الفرحة أنستهم..

وفي الطريق كانت الشوارع مكتظة، ومعاكسات الرجال لبعض النسوة تزداد مما دفع بالولد الغريب هو الآخر أن يكفي طاقيته على جبهته ووضع إحدى يديه خلف ظهره واقترب من النسوة..

– سلام يا قمر.. نفسي أشوف.. أشرب سجاير.. الجوزة والقهوة وأشوف زي الناس ما بتشوف.. الليلة يا قمر".

عندما رآه مصطفى يفعل هذا صفق بإحدى يديه، وابتعد وقال وهو يضع يده على فمه:

- خلق!.. خلق عفاريت..

ودعاه وهو لا يكاد يصدق.

- تعالى.. تعالى. ما تكسفناش.

وابتعدت النسوة وسارت على الرصيف وهنَّ يتبادلن الغمزات.

وعلى ناصية شارع البهلوان توقَّف قليلاً ومالت عيناه فجأة على ناصية نفس الشارع، واهتزت رأسه مرات، وفي صوت صامت:

- شايف! فين لمَّا كان الشارع كله تهتزُّ جدرانه عندما كانت أصوات العمال تعلو بالهتافات فيه..

وتلفت حواليه وهو يكاد لا يصدق أن هذا ما حدث، ومدَّ يده لي واتجه قائلاً:

- مع السلامة.. إلى أن نلتقي وفي هذا المكان..

مرَّت شهور أربعة، وفي الشهر الخامس من عام ١٩٣٧ وبينما كنت واقفًا مع مصطفى بجوار البوستة إذا بفرج أفندي يقف بجوارنا قائلاً:

- انتوا فين؟.. فين ماحدش شافكم..

- إحنا.. إحنا فين؟! قول لنا أنت.. أنت اللي ما عادش حد بيشوفك، انت بتقول لنا قابلوهم بالصوت ليغلبوكم؟

فين أنت طول هذه المدَّة؟

وبينما كنا نتحدَّث إذ بأحد الأفندية من المقاهي المجاورة يلوِّح بكلتا يديه زاعقًا..

- يا فرج أفندي.. يا فرج أفندي..

ولمَّا رأه أسرع نحوه.. وعاد بعدها متهلل الوجه باسمًا..

- بشرى.. بشرى عظيمة.. إشاعة سمعتها دلوقت عن شغل العمال ٨ ساعات.

فصفق مصطفى.. صفق طويلاً..

- مين اللي قال؟ مين اللي قالك الكلام ده يا فرج أفندي؟

- لفندي كاتب في الإدارة. شافه بعنيه.

- روح اسأل.. روح اتأكد.. اتأكد من جديد.

- اتأكدت م الكاتب.. شافه بعينه.. فيه بيقول..

(بناء على ما وصلنا من شكايات عديدة، لا من داخل المصنع فحسب بل أيضًا من الأهالي، وتقارير أخرى واردة من إدارة المستشفى عن انتشار مرض السل الناتج عن الزغبار. نرجو عمل اللازم وإفادتنا)..

هذا ما رآه

وقد أسرعت قائلاً بعدما استذكرت ما سبق أن سمعته يوم أن كنت بالمستشفى..

- صحيح الجواب ده (.. أنا سمعت من الحكما يوم أن كنت هناك.. سمعتهم وهم يتكلَّمون مع بعض: (كتبنا للحكومة.. كتبنا وسوف نكتب) سمعت منهم هذا يا فرج أفندي..

فانتفض الولد الغريب في وقفته..

- يعني حنشوف السما؟ حنشوف الشمس وهي طالعة.. هيه هيه..

واهتزت فرائص مصطفى وهو يردِّد:

- حد عرف غيرنا؟

فردَّ فرج أفندي:

- اللي بتحبل في مصر بيعرفوا في إسكندرية. يا خبر بفلوس بكره يبقى ببلاش.

وكانت الساعة قد دقت العاشرة والنصف مساء.

كان كلب من على أعلى أسطح المنازل يحملق للقمر الساطع يواصل نباحه يريد إخافته.. ولم تكن على طول الطريق سوى أصوات متفرِّقة وضحكات بعض النسوة من حين لآخر تخرج عالية من بيوت لا يعرف الحزن طريقًا لأبوابها.

كانت شمس الصباح هادئة، ومياة النيل الحمراء تعلو وترتفع، والعمال تعدو من كافة الاتجاهات، وأحاديث لا تنقطع في اتجاه واحد حول جواب الصحة الذي وصل للمصنع يقول بتشغيل العمال ثماني ساعات.

- النهارده أول الاسبوع.

- آدى إحنا داخلين جوه وراح نعرف..

- يا سلام.. حنتمشى ونشوف الشمس.. طاقة القدر انفتحت.. هي الرءوساء راح ترضى؟

- هم أكبر من الحكومة؟ قول يا رب..

كانت أحاديث عديدة.. وأنا في وسطهم أسمع.. كان الكلام في ثقة بأن الجواب قد وصل وإن الشركة ستنفذ، وتطلَّعت بعيني وإذا بالرءوساء يتهامسون بجوار مكتب مدير

النسيج ثم يعودون ويتحرَّكون بين المكن، ثم يعودون ويتحـدَّثون مـن جديـد. والمباشـرون والميكانيكية الجدد في أماكن أخرى من العالم. وسالم طلبة يتحرَّك بينهم فـي همـة ونـشاط، ثم يعودون يتحدَّثون أحاديث مقتضبة، وبان من ملامح وجوههم أن شيئًا ما سوف يحدث. قلت لنفسي..

"إن ما سمعته اليوم في الطريق لا بد أن يكون له علاقة بحديثهم.. حديثهم الآن".

وكان صوت يزعق، يزعق في بداية دخوله العنبر..

- هو.. هو.. هو!

وكان الولد الغريب يلوِّح بيديه..

- تعالى.. تعالى.. تعالى بص.

فقد كانت أعداد غفيرة من عمال النسيج والسحب والكرد والتنظيف.

- هيه.. هيه.. هيه.

مغطين على الضجيج وهم يخرجون جماعات من عنـابرهم، وقـد غطـى الزغبـار رءوسهم، وأذرع تلوِّح، والعمال تسأل والجواب..

- شغلونا ٣ دوريات.. ٣ دوريات اشتغلنا ٨ ساعات.. هيه.. هيه.. هيـه ٨ سـاعات حنشوف الشمس.. حنروح الجناين.. شارع محب حنشوفه بالنهار.. حنتفسح في الجناين.

- حيجولكم.. سلامو عليكم.. عقبالكم يا جماعة..

وكلمة "هو" ترج الأرض. وبأياد تقبض على الفرامل وبأخرى تحدف المكوك: "بنشتغل بالإنتاج.. حنتجدعن.. يوم العمل حيقل.. ماكنت أنتجه في الاثنى عشر سـاعة حانتجـه فـي الثمان ساعات.. لازم أجيبه"

وانطلقت على المكن أعمل بكلِّ قوتي، ولم أشعر بالوقت من كثرة الإجهـاد، وتوقفـت الساعة على الثانية عشر ظهرًا كالمعتاد.

دهشت وانزعجت..

"حصل إيه؟ مش قالوا لنا حنشتغل ٨ ساعات؟ عمال الغزل والتنضيف اشتغلوا.. أمـال مالنا؟! مالنا إحنا ليه ما جولناش.. يمكن عامل الكهربا نسي.. لما نشوف.. خمس دقايق أهـم فاتوا.. كان خمسة واهم فاتوا.."

- تعالوا لمَّا نشوف.

- يوه.. ده راح يتغدى.

- إحنا مش قلنا؟

- عاوز تقول إيه؟

- عاوز أقول إنه ما يقدرش.. مايقدرش يوقف أكثر من دقيقة ما يقدرش إلا لو كان عارف وإلا انفصل في الحال..

ثورة في النفوس..

- إحنا مالناش دعوة.. كل واحد يستنى على مكنه.. اوعى حد يتعتع.. مش حناكل، الساعة ٣ حنروح.. الرءوساء راحت تتغدى..

- إزاي؟ هم مش ويانا؟

ودارت المواتير.

- الله.. الساعة بقت واحدة!

حديث حول المكن.

- الحكومة مش قالت.. الشركة حتنفذ؟

كلام لا ينقطع، وعقارب الساعة تتحرَّك، وعيون زائغة تنظر في لهفة. وكانت الأصوات هادرة.. عمال السحب والبرم والغزل والتنظيف في التقاء في الطرقة، عمال الوردية الثانية، الساعة الآن ثلاثة.

"دي الوقت حتوقف، تلاتة وخمسة، ما وقفتش.

دي الوقت حتقف. الساعة بقت تلاتة وربع.. تلاتة ونص، وتراخت الأيدي وهبطت العزائم. وسار البعض في تكاسل:

- اشمعنى!

- مش معقول.. حنستني كده لامتى؟ ولامتى.. توقف المكن نستنى ليه في الشغل.

اجتماعات في كل مكان، ومكنة تتوقَّف وأخرى تدور، وأيدي كسولة تتحرَّك على الفرامل، ووجوه شاحبة تنظر، تنظر للسقف ويتمتمون:

- عمال الغزل دلوقت نايمين وآخرون في الشارع، وإحنا هنا في الشغل؟ وعمال تعدو نحو الباب لإلقاء نظرة في الطرقة، ومواكيك تقع في الأرض دون أن يهتمَّ أحد برفعها.

- مش معقول نشتغل ١٣ ساعة وغيرنا تمانية..

والرءوساء والمباشرون والميكانيكية ينظرون من بعيد دون أن يتحـرَّك واحـد منهم في اتجاه المتجمعين وعلى الباب الخارجي لم يكن هناك صوت لبائعة فجل ولا كرات، حتى الطعمية اختفت من السوق، وأصوات متعبة متهالكة:

- حناكل إيه؟
- اللي سبق أكل النبق.
- هوه فيه حاجة حتستنى.
- اتفضل.. شايف آدي العمال جايين.. جايين م البوظة..
- رايحين فين؟
- رايحين ع الشون نمص قصب.
- ها.. ها.. انتم لسه؟ ياه الله يكون في عونكم إحنا الوقت عرفنا قد إيه التعب، قد إيه بتتعبوا.. ده احنا شبعنا نوم واتمشينا لما موتنا. وانتم لسه؟

الله يكون في عونكم..

- طبعًا.. الله يكون في عوننا كلتوها ع الجاهز.. شميتوا الهوا ع البحر.. جت لكم ع الطبطاب.
- اشتروا لنا غموس؟
- حد كان قال؟
- احنا حناكل إيه؟
- أي حاجة.. أي حاجة تاكلوها..
- ودي الوقت رايحين فين؟
- لسه حنتمشى.. حنستعجل ليه؟.. دول ٨ ساعات.. فركة كعب نشتغلهم وتتنتا طالعين.
- اشتكوا.
- شبعنا شكاوي وآخرتها آدي انتم خدتوها ع الجاهز.

كان الولد الغريب غاضبًا غاية في الغضب. إذ قال وهو يلوِّح بيده في وجهي.

- تقدر تقول عمال الغزل عملت إيه؟

فردَّ الولد السيد:

- وده ماله؟

- ماله إزاي؟
- هوه في إيديه حاجة يعملها؟
- فين الأفندية؟ فين فرج أفندي؟ فين يا سي فكري؟ قلبتم الدنيا كلام. فين.. راحوا فين؟ راح فين مصطفى؟ فين الكافوري؟
- ما تستعجلش. بكره حتشوفهم.. الدنيا ما اتبنتش في يوم.
- هو ده يوم. دول تسع سنين. تسعة بالكامل واحنا في القطران.

وفي اليوم الثاني كانت سحب دخان المصنع السوداء تتكاثف من مداخن المصنع ذات المباني العالية، وأخرى من بواجير الحلاجة بيضاء تحاول كل منها التغلب على الأخرى وتضفي عليها لونها، وأصوات منذرة..

- مش ممكن حنستنى.. مش ممكن يكون الأمر ده لعمال الغزل.

الحكومة قالت يبقى خلاص.. ثمان ساعات عمل للجميع.. وحتى لو ما قالتش إحنا حننفذ.. مش ممكن نسكت.. الشركة بتفرّق.. حاولت البحث في الزحام عن فرج أفندي أو مصطفى فلم تقع عيناي إلا على الوجوه الشاحبة، وبجوار المكن توقَّفت في تراخ، وبدأت أدير ماكينة وأوقف ماكينة أخرى. وجوه تتطلَّع لبعضها البعض، وعمال النظافة مستندون بظهورهم على أجناب المكن. وفي غيظ اتجهت نحو عبد العظيم..

- ماحدش شافك ليه إمبارح؟ ولا النهارده؟ إيه الحكاية.. هوه اللي جرى ده مش على بالك؟

وقبل أن يجيب تلفت حوله وقال..

- تنك ماشي على مكنك دلوقت..
- هوه كل ما قولك حاجة مالاقيش عندك غير الكلمتين دول؟!
- اللي يجرى علينا يجرى عليهم.. روح ع المكن دلوقت.. الدنيا مقلوبة وماحدش عارف إيه النهارده راح يحصل..

وشاور بإصبعه:

- شايف الرءوساء داخلة طالعة إزاي؟.. إبعد عني دلوقت.. الرءوساء بتبص وتشوف العمال بتعمل إيه.

ودفع بي قائلاً..

- روح..

وجز على شفتيه..

- روح لما نشوف إيه النهارده راح يحصل..

كانت الساعة قد توقَّفت على الثانية عشر ظهرًا..

"لا فائدة.. سيبقى الشغل كما هو ١٢ ساعة وكأن الحكومة لم تأمر" ولم يتوانَ أحد.. فاتجه كل منهم للخارج، ونظرات صارمة لعنابر الغزل..

وعلى غير العادة عاد الكل وفي أيدي كلٍ منهم منديل الأكل لم يفتح. وفي كآبة وقف الكل في الطرقة، طرقة عنبر النسيج ورن صوت حاد عاليًا.

- مافيش رجالة! العيال أحسن منكم.. الرجالة حتشوف حاجات زي دي وتسكت.. شايفين.. بصوا للعنابر..

وتطلَّعت العمال لبعضها البعض، وفي غيظ قال آخر:

- نكتب للحكومة.

وهمهمت أصوات أخرى عديدة..

- كفاية كفاية.. حنكتب لأمتى؟

واقترب الولد الغريب مني..

- تعالى دوَّر على أصحابك.. شوف يمكن عندهم حل..

ومن على بعد كان مصطفى محمد واقفًا، وفي غضب قال الولد الغريب:

- أهم.. أهم واقفين.. واقف كده ليه يا عبد العظيم.. واقف وكأن الدنيا مش على بالك.

ملوِّحًا بذراعه في وجهه..

- ماتشوف عايزين إيه؟ ما تشوف حنعمل إيه؟ مش معقول نتعب نفسنا وناس تاخدها ع الجاهز.. مش ممكن حتتحسن.. ياما سمعت منك.. وأنت يا مصطفى وأنت يا عبد العظيم وأنت يا سي فكري.. رايح فين؟ رايح النقابة.. جاي منين؟ جاي من النقابة.. كنت فين؟ عند مصطفى. رايح فين؟ عند الكافوري. مليتوا دماغنا كلام. فين أنت دلوقت؟

وفي شفقة نظر مصطفى للولد الغريب وقلع طاقية ونفضها من الزغبار العالق بها وضحك ضحكة هادئة وربت على كتفه:

- ما تستعجلش.. كل تأخيرة وفيها خيرة..

قلت:

- تقصد إيه يا مصطفى؟

قال وعلى وجهه ابتسامة جادة..

- اصبر

- غير كده؟

- العجلة فيها الندامة. اصبر وما صبرك إلا بالله..

- نصبر إيه؟ الحكومة مش قالت؟ يبقى عايزين إيه؟ نقعد؟ مش ممكن.

وارتفع صوت الولد الغريب من تاني:

- مش معقول! هوه أحنا مش عمال.. انت خايف يا مصطفى.. أنت لازم خايف يا عبد العظيم.. والله العظيم أنتوا لاتنين خايفين..

وتطلّع حوله، وجذبني من يدي وهو يحلف بالأيمانات أنهم خائفون..

- تعالى دول خايفين..

- إيه رأيك يا عبد العظيم؟ ما تتكلم.. ما نوقف المكن زي ما وقفناه في المرة الأولى.

فارتعش جسده وقال في غضب..

- نوقّف إيه؟

ملوِّحًا بيده في وجه الولد الغريب..

- نوقفه زي ما وقفناه.. حايحصل إيه؟ حنخاف لامتى؟

وقد سمع بعض العمال المجاورين لنا، فردُّوا في نفس واحد..

- هو ده.. مافيش غير ده.. الحل ده مافيش غيره.. وارتفعت أصواتهم..

- يا عمال الحل جه.. حنوقف المكن.. نوقف المكن كله مشوحين بأذرعتهم.

- نوقف لما نخش.

وتعالت الهتافات مدوِّية.

- عاشت العمال!

ومن بعيد كان الميكانيكية الجدد، وسالم طلبة في وسطهم يضحك، وثنى أصابع يده ووقف يشجِّعنا خلسة، بينما جذبني عبد العظيم من يدي قائلاً في صوت هادئ ومرتجف في الوقت نفسه:

- الواحد يبقى له في كل خطوة سلامة وأنت لك في كل خطوة عفريت..

ما كنا واقفين في أمان الله!

وزعق مصطفى..

- حنوقف المكن كله؟ حنوقفه إزاي؟

فارتفعت الأصوات بحماس..

- حنوقفه واللي ما يوقفش حنضربه..

واحتقن وجه عبد العظيم، ومالت رأسه على الحائط واضعًا أصابعه في فمه، وفي نفس الوقت فتحت الأبواب.. واندفعت العمال هاتفة..

- حنوقف المكن.

وعبد العظيم يراقب الضوضاء غير العادية التي سيطرت على العنبر.

والعمال في هياج.. يجتمعون ثم ينتفضون. وأحسست بالخوف من الجو المشحون بالغضب والحماسة تتجلَّى شيئًا فشيئًا، وعبارات التشجيع تتداول من حين لآخر.

- شد حيلك.

- شدوا حيلكم.. أهي دي الرجولية والا بلاش.

وهتف صوت مناديًا:

- يا عبد العظيم، يا مصطفى اللي ما يوقفش حنموته..

وتحرَّكت المواتير في بطئها المعهود، وأدار البعض ماكيناته وأسرعت العمال في أصوات مذعورة..

- وقف المكن يابن الكلب.. وقف يا ابن الملعونة وإلا قتلناك.

وفي حماس أسرع البعض وأخرس المكنة وأخرس صوتها. ولم يعد صوت لماكينة يرتفع سوى أصوات العمال الهاتفة..

- تحيا وحدة العمال.

وفي صوت هامس في أذن مصطفى محمد..

- عاوزين نزعق على العمال ييجو هنا في الصالة.

ملوِّحًا بيديه.

- شايف العنبر.. شايف قد إيه.. مانقدرش نسك العمال لوجه حد من الرءوساء الكبار.. أحسن حد يخاف ويدور ماكينته.. لو ماكينة دارت رحنا في داهية.

- حنعمل إيه؟ إذا كان كل شيء تم فجأة. حد كان عارف إن ده راح يحصل؟

- أنت كنت عارف يا مصطفى.

- أبدًا.
- ولا أنا. أمال إيه؟
- حاجة بمحض الصدفة..
- هوه ده يبقى كلام.. حاجة زي دي لازم نعملها وأحنا عارفين.. لازم كان يتعمل لها ألف حساب.. هوه نزول البحر زي طلوعه..

لو جه حد وقال واقفين ليه مين حيتقدم؟ هو ده بس مطلبنا، لنا مطالب كان لازم العمال تعرفها.. قانون إصابات العمل اللي ماتنفذش، وفتح الدورة وساعات العمل، مين حيدافع عن كل ده؟

فشخصت عين مصطفى للأرض، وهز رأسه..

- صحيح. مين حيتقدم؟ لا نقابة ولا حاجة. أهي انقفلت وخلاص وآدي احنا واقفين واللي كان أهو كان..
- انده.. انده بقى.. انده عليهم..
- إزاي؟
- اقف على ماكينة وصفر بلسانك.. انده..
- تعالوا هنا.. كلكم تيجوا..

وبقى عبد العظيم وحده وهو يداعب شعيرات طويلة من ذقنه، فأسرعت نحوه..

- واقف ليه؟
- ركبتنا الهم؟

قالها وتنهد وأضاف:

- إيه راح يحصل؟ حنعمل إيه؟ ما كنا واقفين.. ليه بس قلتها.. آدي احنا واقفين. حد فكر حنرجع إزاي ولإمتى حنستنى؟

وجزَّ على أسنانه؟ واسترسل قائلاً:

- اللي واقف على البر عوام.. آدي أنت قلتها وسكت وتلقفها غيرك..
- كان باب السما مفتوح.. المهم المكن واقف.. تعالى نقف مع العمال وبلاش وقفة كده لوحدك..

ودفعت يدي في يده، وبينما كنا متجهين، إذ بصوت يقول:

- كل واحد يقعد على ماكينة.. وبلاش وقفة في الطرقة..

وآخر يلوِّح..

- تعالو يا عمال.. تعالوا نطلع برة..

فاغتاظ عبد العظيم وقال..

- نسمع كلام مين منهم؟ بقى ده إضراب! إزاي ده.. إزاي ده راح ينفع.. اللي يمشي ورا العيال ما يخلاش..

- اتقدم أنت واتكلم.. حنعمل إيه؟ اللي عنده كلمة حيقولها..

وبينما كانت العمال تتجه نحو الجلوس على المكن، كان أحد المديرين المتخصصين في تصميم الأقمشة يدخل ومن خلفه أحد المترجمين، ولمحت العمال وجهه الأحمر، وارتفعت أصوات الاحتجاج من كل جانب..

- ماحشد يشتغل.. إوعى حد يخاف.. ماحدش يشتغل إلا اللي قالت عليه الحكومة يتنفذ..

وهتف صوتًا مدويًا..

- كفى ظلمًا يا رءوساء؟!

ارتفعت أصوات أخرى هاتفة..

- مطالبنا عادلة..

وأصوات أخرى رجت الجدران..

- افتحوا الدورة للعمال.. افتحوها يا ظلمة.. ٨ ساعات عمل للجميع.. وتوجَّهت الجموع الهاتفة على المكتب يتدافعون بالأكتاف نحو المدير الفرنساوي الواقف على الكرسي في الصالة، وأياد تلوح من كافة الاتجاهات، وأصوات تدوي..

- افتحوا الدورة يا ظلمة.. هاتوا لنا زيادة يا ظلمة.. كفاكم ظلم تسع سنوات..

والمترجم يسجِّل ما يُقَال، ويعود ويهمس في أذن المدير الفرنسي ما يُقَال من هتافات، وإذا ببياض وجهه واحمراره يشحب وينقلب إلى صفرة قاتمة، وبحركة هيستيرية رطن بكلمات سريعة لم يفهمها أحد، فأسرع المترجم بصوت غليظ..

- الباب مفتوح يساع الجمل.. اللي مش عاجبه يورينا عرض كتافه..

ولم يكمل الكلمات إلا وأحد العمال قد صوب لوحة من لحمة غزل القطن وقذف بها نحوه، وتوالت كالمطر من بعيد مواسير اللحمة.

- ماجبتلناش حاجة يا ابن الكلب.

واهتاجت العمال وهتف البعض:

- يسقط المدير الظالم.. يسقط المدير الفرنساوي..

وارتجفت أعضاؤه وإذا برزمة من المواسير صوبت بنشان دقيق فهوت على رأسه، وسال الدم، وأسرع خارجًا يهرول كالمخبول خارج العنبر، وتوقفت المواتير بعد دقائق، مع أن الساعة لم تكن قد توقفت على الثالثة، وتهللت الوجوه. وكان عبد العظيم أول من ضحك وهو يردِّد..

- بداية طيبة..

وأضاف..

- ناقص لزق المنشور على الجدران..

وتزاحمت العمال نحو الباب، واندفع مصطفى ليحوش..

- رايحين فين؟

- المواتير وقفت..

- استنوا.. الساعة لسه اتنين.. انتظروا.. انتظروا..

- عايزين نطلع.. عايزين نروَّح قبل الغزل..

وإذا بباب العنبر يفتح بعنف، وطلت رءوس شاحبة على الباب، وعصى مخبأة خلف الظهور، آمرة بتوعُّد..

- اخرجوا..

وفي ثبات تقدَّمت العمال كتلة مردِّدين في صوت مزعج..

- المعاد لسه ما جاش.. في المعاد راح نطلع.. الساعة ٣ بالظبط واجتاحت العمال موجة الفرج وهم يعجلون بالمراوح.

- نستنى ليه..؟ ياللا نروح..

وارتفعت أصوات أخرى..

- تعالوا يا جدعان.. تعالوا نتكلِّم..

أصوات يغطي بعضها على بعض..

عايزين نعرف إحنا رايحين فين؟ لازم نعرف سكة نمشي فيها.. عمال الليل لسه ما عرفوش ما دام المنشور لسه ما نزلش..

واختلطت الأصوات..

- نقول لهم.. كل جماعة ساكنين مع بعض يقولوا لبعض..

- ده عمل همايوني.. لازم زملاؤنا يعرفوا.

ثورة عارمة في النفوس..

- كل ناس ساكنين مع ناس يقولوا لهم..

فارتفع صوت مصطفى محمد عاليًا..

- ده ما ينفعش.. لازم نكلف ناس تمر على الأحياء.. ناس مخصوص..

- ونجيبهم إزاي؟

- نختارهم.. نختارهم من وسطنا.. عاوزين عشرين أو تلاتين..

كل واحد جدع يقدِّم نفسه.. جدع بصحيح..

وارتفعت الأصوات: أنا.. أنا..

وتبارى الكل، كل يريد أن يتقدَّم، إلى أن تجمَّع الثلاثون وكنت ممَنْ تقدَّموا بحماس. وتعالت أصوات..

- ومصطفى والكافوري وعبد العظيم..

واندفعت العمال خارجة، وفي ذهن كل منهم تبليغ عمال الليل بما حدث. وارتكن عبد العظيم ثانية على أحد الحوائط البعيدة وشفتاه بين أسنانه ولون وجهه الأسمر قد اختطف، فأسرعت في الاتجاه نحوه..

- ياللا بينا.. العمال كلها مشيت.. ياللا علشان نقدر نمر ع العمال.. وفي الطريق كانت تمتمات تخرج بصعوبة من بين الشفاه المطبقة..

- إيه ده؟ نعمل العملة ونروح نعملها لغيرنا.. المرة اللي فاتت عملناها ما كانش حد منهم عارف. والمرة دي برضه عملناها بس على أسوأ.. هيه الشركة حتسيبنا؟ مش معقول.. المدير ساح دمه.. عمل همايوني!

فرد الولد الغريب:

- يعني إيه عمل همايوني.. أنت كده متأخَّر وحتأخرنا معاك.. هات إيدك.. همه عملوا كده من شويه.. من اللي شافوه.. وآخرتها جه مدير ابن كلب يقول اللي عاجبه واللي مش عاجبه.. قرب.. ما يجيبها إلا رجالها..

ومررنا على الناس في أحياء عديدة، وفي مكان ما بشارع سوق اللبن اجتمع البعض، وكان فرج أفندي أحدهم، وكان أول مَنْ تكلَّم فقال..

- والآن وقد تعدَّلت الأحوال، وبعد أن كانوا هم المهاجمين لنا دائمًا. أصبحنا الآن مهاجمين ولكي نستمر لا بد من نظام.. وماقمتم به اليوم هو أحسن دليل على بداية المعرفة الصحيحة.. لقد اخترتم أناسًا منكم.. عمال وليسوا من غير العمال، وهذا بداية طيبة لمعرفة

الحقيقة.. إنها بداية وليست نهاية.. ولم يعلَّق المنشور فقد كنت آخر مَــنْ خـــرج ولـــم أره.. وهناك اجتماعات في المصنع في أماكن ما خلف المكاتب لا يحضرها إلا الكبار، ولا يعــرف أحد ما يخبئه الغد.. فتلكونوا على يقظة.. لقد بدأ المصنع بعنبرين والآن به أكثر من عـــشرين من البنايات الضخمة.. العنابر تتكاثر والعمال تموت وهي تشيِّدها.. تسع ســنوات منـــذ بـــدأ العمل.. عنابر تُقَام وعمارات تُشيَّد لراحة الخواجات ومَنْ في حكمهم من الأسياد.. والعمـــال هم.. أنتم.. أصل هذا التشييد.. لا تجدون مكاناً للراحة.. إنها شعلة قد أضـــيئت.. اشـــعلتموها اليوم وأبدًا أبدًا لن تنطفئ..

معركة الـ ٨ ساعات

توجه عمال الليل إلى المصنع.. إلى مصير لا يعرف مداه. لقد توقف العمل ولم نكن نحن أول من بدأ.. ولم يسبق لنا أن واجهنا الرءوساء في موقف عنيف حاسم.. هل نستطيع أن نواجههم.. نتوقف من أجل أن نرى الشمس وهي تغمر البيوت والشوارع.. من أجل ثمان ساعات عمل.. المهم ماذا نفعل.. عمال الوردية الأولى ينظرون ما سنفعله، ماذا يقال عنا لو لم نتوقف مثلهم.. لو استغنت الشركة عن كل من يتوقف عن العمل سنلاقي مصيرًا أسود، هل هناك ضمان؟ فلنبدل الجهد، حتى لا يقال عنا إننا لا نستحق أن نرى الشمس، فلنبذل الجهد من أجل مصلحتنا أيضًا، مصلحة من تطحنهم ساعات العمل الطويلة.

وشقت صفارة المصنع سكون الليل الهادئ، وفي رهبة اندفع العمال إلى الداخل، وأيدينا نحن عمال النهار على قلوبنا تنفطر.. الطريق كله صفوف طويلة من الخفراء من ذوي البدل الصفراء يحملون في أيديهم العصي ملوحين بها ليتوجه العمال إلى حوش عريض لسماع كلمة قبل العمل..

وتوجه العمال إلى هناك، وأحيطوا من كافة الجوانب بالخفراء، وفجأة سرت همهمة، "المدير"، وأفسح المتجهمرون الطريق لرجل طويل القامة، حليق الشعر، يشع من عينيه بريق كاللهب: "أفسحوا لي....".

قال ذلك وهو يدفع العمال من طريقه بإشارة من يده ويتفحص الوجوه بنظرات ثابتة.. أفسحت العمال له الطريق، وزدات همهمتهم وهم يرون نظراته الحادة القاسية، وخيم الصمت، وصاح المدير بصوت غاضب بعد أن اعتلى كومة من الحديد..

– عرفتم ما حدث؟ طبعًا عرفتم. قالوا لكم الأوباش.. لن نسمح أبدًا بالأشياء التي حصلت تتكرر مرة أخرى، وقد اتخذنا لكل شيء عدته.. وسيجازى المجرمون على فعلتهم الشنيعة، ولن تشتغلوا إلا اثني عشر ساعة، ومن لا يعجبه فالباب يساع الجمل، أنا جيت أقول لكم الكلام ده قبل ما تدخلوا..

وأطبق الصمت، وعلت الوجوه كآبة، وسرت همهمة، واعتقد هو أنه قد انتصر، وتطلعت الوجوه لبعضها، وارتفع من بينها صوت حاد قوي..

– مش حنشتغل..

وعاد صوت المدير من جديد: "ستجازون.. لن نرحم.. الأبـواب مفتوحـة لكـل مـن لا يوافق أن يعمل ورأسه في الأرض، لكل من يقول كلمة واحدة لأي واحد من رءوسائه..

وملأ الاستياء صدور العمال.. وسكت المدير، وارتفع صوت من الخلف: ادخل اشتغل انت.. لترى بنفسك ما نعانيه من قسوة.. الحكومة أمرت بثمان ساعات عمل..

ورد المدير بجفاء وبلهجة آمرة: إذا لما تعودوا وتدخلوا إلى العمل في ظـرف خمـسة عشرة دقيقة سوف تكونون مثل من توقفوا.. هذا هو أمرنا.. وعلت الأصوات هادرة: لن نقبل إلا ما أمرت به الحكومة، لا تفرقة في المعاملة.. وارتفع صوت قوي آخر: كلنا علـى بـره، الباب يساعنا، ويساعنا كلنا واشتغل انت أيها المدير دوِّر المكن انت.

وهاصت العمال واندفعوا إلى الخارج..

- العمل للجميع...

كان هذا هو صوت الهتاف الهادر، وبأصوات تشق الليـل: عاشـت وحـدة العمـال.. لا تفرقه في المعاملة. ثمان ساعات عمل للجميع.

هتاف على طول الطريق، ونظرات الإعجاب ممن ليس لهم علاقة بالمصنع، وزغاريد النساء، والباعة يصيحون: "يحيا عمال النسيج".. وعمال الخراطة والحدادة والنجارة يتهامسون قائلين لبعضهم: "لن نسكت".. العمال البسطاء وقفوا المكن، وضربوا المدير في وضح النهار.. دول جدعان.. أحسن مائة مرة من المتعلمين.. لازم احنا كمان نوقف الورش..

غليان على طول الطريق، واجتماعات طول الليل، وكلمـات جريئـة لـم يـسبق أن سمعناها.. أيها العمال نحن أبناء عمل واحد.. مصنع واحد، يجمعنا النـضال والـدفاع عـن حقوقنا.. سنقاوم القوى الجشعة التي تعيش من جهودنا ومن عملنا.. لقد دقت الساعة وآن لنـا أن ندافع عن أنفسنا.. شعارنا المجموع للفرد، والفرد للمجموع.

صاح أحد الحاضرين: إنه يقول الحق وصوت آخر ارتفع "فليقل لنا ما سوف نفعلـه".. ويرد.. "غدًا ترون".

وعاد واسترسل في حديثه القوي: فلنستمر ولنستكمل ما تم، ولن تكونوا وحدكم فهنـاك عمال آخرون يقفون بجانبكم وغدًا ستعرفون.. نحن عمال الورش..

في الصباح، العمال مشحونة وملتهبة وممتلئة بالانفعال والإحساس بـأن أمـرًا شـديد الخطورة سيحدث. كانت المداخن تلفظ دخانًا أسود قاتمًا، وصاح العمال من أمـاكن متعـددة: هدوء.. هدوء لغاية ما نخش. فتحت الأبواب على مصراعيها. لم يكن أحد علـى الطريـق. الغفر ملتصقة بالأبواب.. دخلت العمال المصنع، سرعان ما تجمعت من كل جانب، يحرضون

بعضهم بكلمات حادة.. الاستياء الشديد هو المسيطر والغضب يحلق ويملأ الصدور.. وبرزت العيون السوداء من الوجوه التي يملأها الضيق والتعب.. وصاح أحد العمال: "كل واحد يقف على مكنته".. خفقت القلوب أكثر وتطلعت العيون نحو الأبواب، والدقائق تمر ولم يحضر أحد من الرءوساء. وتوجسنا شرًّا وزعق صوت محذرًا: النهاردة القبض، ميعاد القبض النهاردة.. لو حد طلب مننا الخروج نرفض.. مطلبنا هو الأجر.. لن نخرج إلا ومعنا ما نستحق.. وعلى هدير السيور ارتفع صوت بالغناء "ياليل يا عين، منين أجيب ناس تفهم معنى الكلام وتلوه" واندفعت الأصوات مهللة للصوت جالسين على المكن مطوحين أرجلهم، وأصوات أخرى كثيرة "حاسب على المكن، حاسب على القماش.. إوعى الفتل تتقطع.. شيل رجلك من على القماش".

واهتزت السيور هزًّا عنيفًا على غير العادة، ونفضت من على كاهلها ما كان عالقًا بها من سنين، وانتشر في العنبر غبار قاتم السواد، على أثر هذه الانتفاضة، وارتفع الصوت من جديد "والله إن عشت يا حكومة لألبسك بدل الطرابيش طرح وشاشات".

وبينما العمال يغنون، كان أحد رءوساء الغفر مشهور بقسوته وغلظته يتمختر في الطرقة؛ كان هذا هو سعيد بلبول ذو الشوارب الضخمة، كان يسير معتزًّا بنفسه وبضخامته وبعرض أكتافه، كان عاوج الطربوش على ناحية.

واتجهت الأنظار نحوه، واقترب رويدًا من الجمع الجالس، وفي صوت بطيء هادي قال: "اتفضلوا.. "

- "على فين؟!"
- "على برة.. "
- "مش طالعين.."

واحمرت عيناه الواسعتان، وقضم على أسنانه، وعندما رأى العمال تتجمع حوله، تقهقر إلى الخلف قائلاً في صوت ممطوط.. انصح صاحبك من الصبح لحد الضهر.. ولم تمكنه العمال من أن يكمل كلامه. "مش عاوزين نصيحتك.. ومش حانقبلها".. لم يواصل حديثه، بل ظهر عليه الارتباك الشديد، وعيناه زائغتان تنظران نحو الباب.. وبينما كان يخرج، قال عامل من عمال الغزل يسير في الطرقة، بصوت رن في العنبر.. "عمال الورش أضربوا وعمال النجارة والحدادة كلهم أضربوا وضربوا رئيسهم وشالوه مرابعة ورموه برة..".

ووقف بجواره عامل آخر من عنبر البرم دفع بنفسه وسط الجموع المحتشدة.. وقال خلوا بالكم حوش المصنع البراني امتلأ عساكر لابسين برانيط على دماغتهم..

ارتفعت وسطنا أصوات عالية: تحيا وحدة العمال، وتعالت الهتافات التي شحذت الهمم، وارتفعت الأذرع متوعدة في الهواء، وقال أحد العمال.. اقفلوا الأبواب.. وساد الهرج.. فين اللجنة اللي انتخبناها.. اجمعوا حرس على الباب.. فين فكري.. فين الناس.. فين همّه.. العساكر بره والغفرا بتتجمع.. لازم فيه حاجة.. يلاّ نستعد.. اجمع يا جدع.. اجمع.. كل عشرين أو خمسة وعشرين ييجوا.. ييجوا هنا على الباب.. والباقي يدخل هناك جوه.

وأصدرت اللجنة عددًا من الأوامر واستجابت لها العمال في الحال..

- اللي واقفين على الباب ما يطلعوش حد.. اجمع الحديد.. كل الحديد ييجي وكل الثقالات بتاعة المكن تتربس بها الأبواب..

ونشط الغريب في حماس شديد في جمع ما كان يقابله من حديد، وكلمة "هوو" رجت العنابر وجلس كثير من العمال على المكن ثائرين مهددين، وصاح من بينهم "أخذونا على خوانة، أخذونا على خوانة ولاد الكلب..

ومن باب عنبر التوسيعات رأينا الغفر والعساكر خمسمائة.. نعمل إيه؟

- إوعوا حد يفتح الأبواب.

- كل واحد واقف على باب يمنع أي حد من الخروج.

واصطف الخفراء وترددت الأصوات قاسية بالأوامر ودقت الأرض بالأحذية..

- غفرا.. استعد.. إهجم!!

وانهالت العصي على الرعوس.. اخرج .. اخرج يا ابن الكلب..

هز عبد العظيم رأسه، وتدافعت العمال إلى الخلف، وبدا لعبد العظيم الخطر الرهيب الذي سنواجهه، وبدا له أيضًا العودة مرة أخرى للبلد، للعمدة لكرباج الخولي في جمع القطن وشيل السبخ والشغل في الوسية.. الصبر؟ وماذا سيفعل الصبر.. وارض بما قسم الله لك.. ماذا أفعل إزاء هذه الوحشية وصاح بأعلى صوته: أيها العمال فلنهجم: فلندافع عن أنفسنا بأي حاجة في أيدينا.. وكانت رعوس ينفجر منها الدم وعمال بتجري وتتكفى على الأرض داخل العنبر، وشمر عن أذرعة وتحول إلى إنسان مجنون غاضب يبحث عن أي شيء يمسك به في يده ويضرب به والصرخات تعلو في العنبر.. آه.. آه.. يابا والبكاء من قسوة الضرب والأنين، وعمال يختبئون تحت المكن.. آه يا ضهري.. أه يا رجلي.. يا دراعي.. يا ولاد الكلب.. أخدونا على خوانة، هنروح فين.. الأبواب مغلقة، نحن محاصرون، والعمال والحرس اللي على الباب رفضوا أن يخرج أي إنسان، واتحشرت الآلاف داخل العنبر، والدم يسيل من على الوجوه، وكان صوت عبد العظيم القوي أبرز الأصوات.. اضرب.. اضرب بالحديد..

بأي حاجة.. اخلع أي ماكينة واضرب بها يا وله.. الدفاع عن أكل العيش واجب.. وارتفع من ناحية أخرى صوت آخر يساند عبد العظيم: اضرب، اضربوا يا عمال..

صوت آخر: الماهية هتروح يا وله.. النهاردة القبض.. اضرب..

وتشجعت العمال، وعلى أكوام من الحديد اندفعت، وبأيد لا تعرف الخوف قذفوا بقطع الحديد في كل الاتجاهات، وتساقطت على رءوس الغفر، وعبد العظيم يوجه المعركة: ابعدوا عن المكن، احدفوا الحديد في وجوههم.

اندفعت العمال كالموج، والغفر تتشبث في المكان، والعمال تهتف.. وانتهى كوم الحديد، وكادت الغفر تنتصر، وبدأت الأنظار تبحث عن شيء تدافع به، وتذكرت العمال مضخات الحريق المعلقة على الجدران. اندفعت وانتزعت أنا والعمال مضخات الحريق ودفعت بها في اتجاه الغفر. واندفعت منها المياه كالسهام، وأمسكت أخرى وركنتها على صدري وصوبتها في اتجاه الغفر، وتبعنا آخرون، وكانت المياه من القوة بحيث أزاحت الغفر بعيدًا بعيدًا.. وبدأوا يتقهقرون إلى الخلف ونحن نتقدم.. اندفعت العمال تخلع السماسم بعد أن نزعوا منها الخيوط ودفعوها في وجوه الغفر، وقذفنا بالجرادل والمواكيك والأسياخ، والغفر يتقهقرون، ونحن نتقدم وازداد صوت العمال وارتفع من أجل ثمان ساعات عمل: كسروا ميهمكوش.. عمال الورش أضربوا وواقفين معانا..

واتجهت حشود العمال الضخمة تحاصر الغفر محاولين الإمساك بهم، ورئيسهم يصدر أوامره بعد أن فر الكثير منهم: أسرعوا أسرعوا إلى الخلف العمال طبقوا علينا من كافة الاتجاهات.. هنقع في إيديهم.. إجري.. إجري بسرعة ..

سمعت العمال كلام رئيس الغفرا وأسرعوا خلفهم يطاردونهم.. وخرجوا من الباب يجرون وراءهم حتى أوصلوهم إلى قرب الإدارة، وهناك كانت العساكر تقف في طوابير محكمة، والمديرون والضباط في ذعر وهم يستعدون لهجوم آخر علينا.. رأت العمال هذه القوة الجديدة فأسرعوا بالعودة إلى العنبر، وإذا عبد العظيم يأمر بصوت كالرعد: أيها العمال، عودوا إلى العنبر ولا تتركوه..

عادت العمال بسرعة وأغلقوا الأبواب. التف العمال حول عبد العظيم وهو يصدر أوامره بصوت حازم صارم: فتح عينك انت وهوه.. فتحها كويس.. إوعى حد يخش.. وكانت فرق من العمال تجمع الحديد مرة ثانية من جوانب العنبر استعدادًا لما قد يحدث..

وبينما كان هذا يحدث كان بعض الميكانيكية الجدد في مقدمتهم سالم طلبة شاحب الوجه يشد على يد عبد العظيم بحرارة، وعلت الهتافات: عاشت الرءوساء مع العمال.. وصوت آخر يصيح: الميكانيكية بس.. الرءوساء الكبار أعداؤنا. ووقف أحد الميكانيكية على إحدى

الماكينات وخطب في العمال، وقال كلامًا مثيرًا هاجم فيه الذين يقولون القناعة والصبر، وفي آخر الكلام قال: الآن أنا معكم لأنكم أعدتم الثقة إليّ.. لا خضوع.. لا خضوع للظالم.. لا تذهبوا لمن يخدعونكم بكلمات الصبر. وارتفعت الهتافات: عاشت الميكانيكية مع العمال.. قال عامل من الذين يقفون بقرب الباب.. الغفر.. الغفر جت تاني.. اقفلوا الأبواب.. إوعى حد يخش. وانطلقت هتافات مدوية: تسقط الشركة.. يسقط الرءوساء.. عاوزين يموتونا.. مش هانموت.. وتكررت المحاولات.. وارتفع صوت آخر: كسروا المكن.. هوه السبب.. هوه اللي بيموت العمال.. هانحرق قلب الشركة عليه.. ننتقم.. مش هنطلع إلا جثث..

وتحول العنبر إلى ضجيج كبير.. مكن يكسّر وأصوات ترتفع وأصوات عمال آخرين: وقف يا جدع.. ابعد عن المكن.. المكن مالوش دعوة.. وصرخات باكية حزينة: آه يا مكنتي.. مكنتي انكسرت.. آه يا ولاد الكلب.. هاشتغل على إيه.. وديتونا في داهية.. آه يا خرابي.. وأصوات أخرى: هو انتم معانا ولا معاهم.. المكن هو اللي بيأكلنا عيش..

- إحنا مع المكن وضد الرؤساء.. سيب المكن انت وهوه.. وتدافعوا نحو المكن واحتضنوه ليحموه من الحمقى والمتهورين..

وفجأة ارتفعت النداءات من العمال الواقفين بجوار الشبابيك..

- العسكر.. العسكر جت.. ح يحاصرونا.. اتحصرنا خلاص..

قفزنا على الجرادل والماكينات القريبة من الشبابيك لننظر من خلالها.. رأينا العساكر تقف في صفوف منتظمة وفي يد كل منهم عصا وبعضهم كان يحمل بنادق.. وترددت الأسئلة والإجابات في أنحاء العنبر:

- إيه دول..!! دي الحكومة.
- حكومة إيه.. هي معانا ولا مع معاهم؟
- أنا مش قلت لكم.. مش قلت لكم الحكومة مش ويانا.. جاية ليه؟
- جاية تحامي عنهم.
- هي مش اللي قالت على التمن ساعات.. خلاص مالناش حد..
- كسر المكن يا جدع..
- لا. وقف إيدك انت وهوه.. يمكن الحكومة تبقى معانا.

وصرخ من ينظرون من الشبابيك: العسكر يا جدعان.. العسكر هجمت.. وارتفعت الأصوات الحادة الآمرة.. اهجم يا عسكري.. اهجم.. وانطلقت الصفافير من كل ناحية حول

العنبر.. وأصوات أحذية العساكر تخبط الأرض بشده وهم يجرون بكل قوة في اتجاه العنبر من كل ناحية..

نفرت عروقي من الغضب وشعرت أن الدم يقفز في عيني.. قفز أحد العمال على ماكينة وصرخ بكل قوة: الهمة يا رجالة.. لو طردونا من العنبر.. راحت القبضية.. وراح الشغل. دافع عن حقك يا وله.. يا إما نحمي نفسنا.. يا إما حايلبسونا طرح!!

واقتحم العسكر أبواب العنبر وهجموا وعصيهم تنزل على الرءوس كالمطر، وتراجع العمال في ذعر، وتداخلت صرخات العسكر مع أصوات العمال: اضرب.. اضرب يا عسكري.. آه يا نافوخي.. اضرب.. اه يا كتفيٍ.. اجري يا وله.. اضرب..

وفجأة ارتفع صوت عبد العظيم وغطى على كل هذه الصراخات..

- اضرب يا وله.. اهجم يا وله.. التمن ساعات يا وله.. القبضية يا وله.. حاصروهم، اطردوهم من العنبر زي ما طردتم الغفر..

وترددت عشرات الهتافات من العمال، وبعضها من عمال كنت أعتقد أنهم مترددون أو جبناء.. السيد الصفطي. الولد الغريب.. جرجس مينا.. مصطفى الدمنهوري وأصوات أخرى لم أميز أصحابها.

- يحيا العمال.. التمن ساعات.. حاصروا العسكر.. أكل عيشك يا وله.. خش عليهم يا وله.. عمال النسيج رجالة.. وبدأ العمال يستجمعون شجاعتهم.. وامتلأت عروقنا بالغضب والحماس، وسقطت الثقالات الحديدية والجرادل على العسكر مثل المطر.. قذفناهم بكل ما وصل إلى أيدينا، ونجح بعض العمال في انتزاع عصي من العساكر.

قفز سالم على إحدى الماكينات كأنه أسد هايج وأخذ ينادي على العسكر:

- انتم مننا يا عسكر – أنتم غلابة زينا – لكم إخوات في وسطنا..

- حرام تضربوا إخواتكم ونضربكم عشان الرءوساء والبهوات.. حرام تحاربونا في رزقنا!

- اهجم.. اضرب يا عسكري.. اضرب يا كلب!!

وأصبحت صرخات الألم.. يا دماغي.. آه يا كتفي.. تتردد من العمال والعسكر.. وبدأنا نضغط عليهم كالمطر وضربات العصي وقضبان الحديد في يد العمال..

وفجأة سمعنا أصوات تأتي من عند العسكر: إحنا مالنا ومالهم.. حنبقى إحنا والزمن عليهم.. ح نضيع نفسنا علشان مين.. اجري يا دفعة.. اهجم يا عسكري.. اضرب يا ابن

الكلب.. اضرب يا ابن (الشر..) ولكن العمال كانت قد أصبحت كالسيل الكاسح.. وتراجع العساكر أمامنا خطوة خطوة.. ثم فجأة أعطونا ظهورهم وجروا خارج العنبر..

حاول بعض العمال أن يتبعوهم، ولكن عبد العظيم صرخ فيهم: ارجعوا يا عمال.. لو خرجتم من العنبر ح يحاصروكم..

وأسرعنا نغلق الأبواب، ونجمع التقالات والأشياء الثقيلة ونضعها وراء الأبواب، وأصبحت العمال كالمجانين من الفرح والحماس، ودوت الهتافات: ثمان ساعات عمل للجميع.. يحيا العمال.. يسقط المديرون.. ووقف سالم طلبة على أحد الماكينات وخطب فينا: كنا بالأمس ضدكم... أوهمونا إننا متعلمين وأحسن منكم.. واتضح أنكم أشجع منا وأنتم اللي طلبتم ٨ ساعات.. من اليوم الميكانيكية معكم.

وانطلقت الهتافات: يحيا العمال مع الميكانيكية.. تحيا وحدة المظلومين.. وسمعنا صوتًا بجوار الشباك: انتبهوا فيه ضباط جايين علينا. وقفز سالم وعبد العظيم وآخرون إلى الشبابيك..

ونادى سالم بصوت قوي: اللي ح يعتدي علينا تاني، ح ندافع عن أنفسنا ولن نخرج إلا أشلاء.. إحنا مظلومين يا عالم.. عاوزين حقنا..

سمعنا صوت أحد الضباط: انتو عاوزين إيه.. ندعوكم للخروج بسلام.. روحوا لأهاليكم أحسن. نوعدكم لو خرجتم في سلام حنسيبكم تروحوا في سلام.. ماذا والا احنا عندنا أمر نضرب بالرصاص..

أجاب العمال كلهم في نفس واحد: تمن ساعات.. والقبض.. فأجاب الضابط بصوت رقيق: التمن ساعات ح تدرسهم الإدارة.. والقبض.. اخرجوا وانتم تقبضوا..

وهلل العمال واتجه الكثير منهم إلى الأبواب.. ولكن شعرت بالمؤامرة فقفزت على إحدى الماكينات وأنا أصرخ: وقف انت وهو.. دي مكيدة.. لو خرجنا ح نتضرب ومش حنقبض.. وسمعنا الضابط ينادي بصوت قاسي ورهيب: أمامكم مهلة خمس دقايق وبعديها هنضرب بالرصاص.. في المليان.. إذا ما خرجتوش واحد ورا واحد..

حانعمل إيه.. إيه العمل يا ولاد.. دبرنا يا إخوانا وفجأة جاءني الإلهام. ناديت على الزملاء: نخرج عشرين ورا عشرين.. اللي يقبض يرجع لنا.. لما نلاقيهم سالمين ومعاهم القبض يخرج بعدهم عشرين غيرهم يوصلوهم إلى باب الشركة ويرجعوا ويقبضوا ويجوا يطمنونا.. ويستمر الحال كدة لغاية ما نخرج كلنا..

نادى سالم على الضباط وأخبرهم بهذا القرار، وسمعنا صوت كبيرهم يقول.. موافقين.

- واتفقنا فيما بيننا أن يخرج القيادات متوزعه على الدفعات..

وقد كان واستمر القبض بهذه الطريقة حتى الساعة السادسة مساءً..

اجتاحني شعور قاتم، فلم أعد أشعر بنفسي أين كنت ولا إلى أين أتجه.. وكان سيل أسود من الناس يتحركون في بطء، الشوارع ضيقة وفي كل مكان وجوه مصفره تتحرك وتتحـرك، والنظارة تملأ النوافذ، والأسطح ممتلئة بالنسوة ينظرن للوجوه الشاحبة وهي تخطو في كـل مكان، ونسوة أخريات تقف على الأرصفة تبحث في لهفة عن أبنائهن.. وعربات كثيرة ممتلئة بالجنود تندفع في اتجاه المصنع، وعساكر أخرى قد ملأت الميادين، وأصوات أطفال صـغيرة تزعق على جوانب الطريق وهم ممسكون بتلابيب أمهاتهم.

- يا خويا يا محمد.. يا خويا يا سيد..

وأصوات أخرى: يا حسن .. يا إبراهيم.

صراخ في كل مكان وارتفع صوت نسوي: يا فكري يا خولي ولم أنتبه لـصاحبته لما انتابني من غم.. وإذا بالصوت يعود من جديد.. يا فكري يا خولي.. يا فكري يا خولي.. وإذا بي أجد نفسي قد توقفت.. مين يا ترى.. الصوت ده أنا سمعته وأعرفه.. وتراجعت.. آه.. دي مراتي.. واندفعت تحتضنني مرددة بصوت حزين باكي..

- أهوه.. أهوه.. تعالى..

وجلست بي على الأرض وعيناها محمرتان من العياط: آه.. يا فكـري.. الحمـد لله.. الحمد لله اللي لقيتك..

والنسوة والأطفال والرجال يتساءلون عما حدث.. والباعة أصحاب الدكاكين يـرددون بأصوات عالية: ح تعملوا إيه.. هو ربنا مش أنصفكم..

- لسة..

- حالنا واقف.. إلهي ربنا يوقف حالهم..

دعوات ودعوات.. وأسئلة حائرة..

- انتوا قبضتم..

وأصوات أخرى ترتفع: بتسألوا على إيه؟ هو مافيش صبر!

- مال الناس هايروح.

- اللي له حاجة بكرة يخدها.. هي الكلبة قتلت عيالها!!

وآخرون..

- دكاكينا مفتوحة.. مفتوحة علشانكم، اللي له حاجة عند حد ييجي واحنا نـديها لـه.. قلوبنا معاكم يا رجالة.. هي الناس إيه؟

مش دايم غير المعروف.. هو ده معقول يا ناس.. حد يطالـب حـد دلوقـت.. داحنـا نفاديكم. ودعوات النسوه ترتفع: ربنا يخليكم.

وشبان آخرون: الناس ما بتتعرفش إلا في الزنقة.. ياما كسبتم.. الدنيا على دي ودي يا رجالة.. وأخريات تسأل عن أبنائهن، وزوجتي قد همت واقفه تنفض التراب العالق بالجلباب:

- قوم.. قوم بقى مالكش دعوة.

وأصوات النسوه ارتفعت.. ما تسيبيه نسأله.. تسألوه على إيه؟.. على أولادنا..

- قول لنا يا خويا.. حد مات؟

- أبدًا كلهم صاحيين..

- فين امال؟

- جايين.. جايين دلوقت.

- أمال الناس خادوهم ليه.

- مش عارف.

ودفعتني زوجتي من يدي: تعالى بقى كفايه.

- متلهفة عليه كدة ليه؟

- زي ما انتم متلهفين على أولادكم..

وفي وسط هذا الصراخ اندفع شاب نحوي، وهمس بكلام فـي أذنـي، وكـان الجنـد يتجمعون فاتجهت فور سماعي هذا الكلام تاركًا صراخ الأطفال والنسوه على جوانب الطريق تزعق:

- يا سيد.. يا محمد.. يا سيد..

ودارت الأرملة.. دارت تلاحقني: وبعدين هتعملوا إيه؟

خرجت دون أن أسمع.. لا أحد يقول ما يجب عمله، حتى اللجنة التي اختيـرت وقـت الأحداث.. لم أنتبه ولم ينتبه أحد لذلك وكأن القبض كان هو المطلب.. صحيح كان هو المطلب العاجل.. صحيح إن التوقيت جاء في نفس موعده والخوف من ضياعه قد تقـدم غيـره مـن مطالب.. ولكن ماذا نفعل الآن ونحن لم نتفق.. هل سنعود باكرًا؟ وهـل يـسمحون.. إنهـم ما صدقوا أن أخرجونا، وماكينات كثيرة قد انكسرت، ومياه الأكسجين قد ملأت العنبر دفاعًـا

عن النفس ضد الجنود والغفر.. هل يسمحون بالعودة بعد أن حدث هـذا.. لا أظـن.. أسـئلة محيرة..

وصلت إلى الحجرة دون أن أهتدي إلى شيء، ولم أنتبه إلى منظر زوجتي إلا بعـد أن جلست وهدأت أعصابي.. كانت حافية الأقدام وشعرها قد تنعكش وكأنها قائمة لتوها من النوم، ووجهها الأسمر المشبع بالاحمرار قد تحول وكأنه قطعة من الليمـون الأصـفر. وسـألتها.. فأجابت في هدوء وهي لم تكن قد أخذت أنفاسها..

– أنا كنت نايمة.. قمت بعدما خرجت، وصحيت على أصوات في الشوارع فـاكرة إن فيه حريقة في البيت فقمت زي ما أنا بلبسي فلقيت الناس كلهـا بتجـري وبتقـول.. "موتـوا العمال.. موتوهم في الشركة"، فدورت الجري معاهم وسبت الأودة مفتوحـة، ومـا فكـرتش إلا في وسط السكة، فرجعت وأنا بجري على آخر الشوط، ولبست هدومي التحتانية – كنـت ناسياها– دورت الجري من تاني..

وفي ضيق قلت: عملت ليه كده؟

قالت وهي تضع يدها على خدها الأيمن وكأنها ترسم صورتي:

– اتلهوجت.. ومن اللهوجة.. هو أنا لية إلا انت..

ومسحت عينيها.. وإذا بالولد الغريب يدخل مهرولاً.. دافعًا باب الحجرة بذراعه..

– انت قاعد؟

قالها في لهوجة: قوم.. قاعد ليه؟.. قبضوا على ناس جنبنا في البيت..

– تعرف حد منهم..؟

– أبدًا

فهممت واقفًا ألبس جلبابي بينما وقفت زوجتي مذعورة!!

– رايح فين؟! وألصقت نفسها في الباب وهي تبكي وتصرخ في الوقت نفسه..

– انت جاي زي هم الموت كدة ليه؟ يا قاعدين يكفيكم شر الجايين. ما صـدقت إنـي لقيته.. ماكنا قاعدين في أمانة الله. إلهي يشحطط قلبك يا غريب يا ابن آمنة..

وأدارت وجهها لي..

– فكري ما تسمعش كلامه.. علشان خاطري.. احمد ربنا اللي نفـدت.. ابعـد عـن الشر.. آه يا بختي الأسود يانا.. أمك حتقول إيه؟ ح تقول قدمك أسود علينا.. ما طول عمـره كان شغال.. هات إيدك لما أبوسها..

وفي عصبية جذبت الولد الغريب من جلبابه، فدفعت بها وخرجت لأرى بعيني ما يحدث خارج البيت، وهي تولول من خلفي: فكري.. فكري.. إخص عليك يا فكري.. ح تسيبني وحدي.. ح تسيبني في الغربة..

- خليكي.. خليكي لما آجي..

وفي شارع السكة الجديدة كان الظلام قد خيم، والقهوة مزدحمة فجلست بالقرب من الناصية وعيني على الطريق، ولم أكد أصفق طالبًا شايًا حتى وقفت عربة كبيرة محملة بالجنود واندفعوا من فوقها واحدًا تلو الآخر مصدرين الأوامر بألا يتحرك أحد من مكانه.. وتقدم شاب في مستهل العمر لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، طويل القامة، ذو وجه مستطيل أبيض، يلبس جلبابًا من صوف الغنم الأحمر وطاقية صوف بيضاء.. فتطلعت الوجوه مذعورة..

- إيه.. حصل إيه يا ولاد؟!!

حملقت بعيني.. آه سيد البغل.. يا ابن الكلب!!

كانت يكفي أن يرفع يده ملوحًا في وجه أحد الجالسين حتى تنقض عليه الجنود.. وآخرون يدفعوه يده من الخلف..

بينما وقف آخرون مرددين في همس.. أحمد الطور يا ولاد.. الولد اللي فضل طول عمره يتزلف للرءوساء.. وتدافعت الناس تهرب.. وآخرون يزعقون. مالناش دعوة.. إحنا غلابة.. واخدينا ليه؟.. أمي مالهاش غيري.. ما بشتغلش في الشركة!

ووسط هذا الصراخ.. أعمل إيه؟ إيه اللي كان جابني؟ دول بياخدوا كل من هب.. وشعرت بانتفاضة ودقات قلبي قد ازدادت.. أعمل إيه دلوقت؟ مراتي لوحدها.. سايبها من غير ولا مليم.. ح تعمل إيه؟ ح تروح فين؟.. يادي الشحططة.. ما كنت متواري.. هي شطارة أروح للقضا بنفسي؟.. وأمي ح تعمل إيه؟ ح تلطم صداغها.. إيه الكم ده؟ ربك يستر.. أعمل إيه؟.. أمي كانت بتقول إن وقعت في زنقة قول: يا بركة دعا الوالدين، أدور الجري.. أوقع الكراسي ورايا.. أعطلهم.. وتقدمت خطوة بعد أخرى متظاهرًا في الاتجاه نحوهم، بينما "سيد البغل" في مواجهة أحد الجالسين ملوحًا بيده. فزعق الرجل..

- ما بشتغلش في الشركة.. ما بشتغلش في المدعوقة.. ح تروح فين من ربنا؟.. ح تروح فين يا ابن الدايخة..

وراح مناوله بالقلم على صدغه.. واندفعت كالريح منتهزًا الفرصة، ولم أكن أشعر بنفسي.. خيل إلي أن كل من بالشارع يجرون خلفي.. ولم أسمع سوى أصوات ترتفع..

بيجري ليه.. هو حرامي.. وصوت آخر: دا يظهر عليه شركاوي.. آه.. ما هي الشركة واقفه.. الحكومة قالبة الدنيا.. وقف يا جدع.. يا جدع ما تخافش..

وكانت إحدى العطف المسدودة.. وبجوار أحد المنازل في العطفة المسدودة ألصقت ظهري وفكرت.. أروح فين؟.. أشوف مصطفى.. لم أجده.. واتجهت نحو عبد العظيم لرؤياه فلم أجده هو الآخر.. فين همه دلوقت؟ هربوا؟ وإيش بعد.. وفي متاهة تلفت حولي قائلاً لنفسي: اللي فيه الخير يقدمه ربنا.. قلت هذا لنفسي.. وكانت الشوارع قد خلت تمامًا من الناس ما عدا العربات المحملة بالجنود تبحث.. فاتجهت متجنبًا الطريق العام إلى المنزل وقت أن كان القمر يعلو فوق المدينة حين الدنيا أظلمت..

بزغت الشمس بنفسجية اللون تحمل معها ريحًا خفيفًا باردًا، وقتما كنت خارجًا كالعادة.. لم يكن في ذهني سوى نفس الأسئلة.. أسئلة الأمس.. هل سندخل؟ هل يسمحوا؟ وكانت أصوات بائعي الصحف تتردد عاليًا وهم يصيحون في الشوارع.. إضرابات خطيرة في مصانع المحلة الكبرى.. هكذا كانت العناوين تملأ الصفحات.. عمال المحلة يضربون عن العمل.. العمال يضربون مرعوسيهم.. عمال السباكة والحدادة يضربون.. المهندس عبد الرحمن كرشة أصيب بجروح خطيرة.. عمال النسيج يعتصمون في العنابر.. مقاومة عنيفة يخرج بعدها العمال.. مئات الماكينات تتكسر.. القبض على المحرضين.. الجنود تطوف الشوارع.. التحقيق المبدئي يكشف عن المأساة.. وتجمعت العمال جماعات وفي أعينهم بريق ملتهب.. لم يعلق أحد على شيء.. الرءوس تهتز، وتمتمات كثيرة تنبعث من الشفاة.. احنا كسرنا؟.. كدابة الجرايد.. فين كانوا.. فين كانوا من زمان.. معلهش الحق بكرة يبان.. وارتفعت الهامات وأغمض البعض عينه، وفنجلت أخرى كأنهم ينظرون لشيء بعيد.

وبالقرب من المصنع كانت الجنود مصطفة ولمعان السيوف البيضاء تبرق في أيديهم وهم يلوحون بها لمنع العمال من التقدم.. وتوقف الجمع مرددين بأصوات غاضبة!

- ح نتعطل.. هي دي حكومة؟!!

وارتفع صوت شاب مصفف الشعر وهو يشب على أظافره: حكومة مين؟ اللي تقوله النهاردة تسحبه بكرة.. قول يارب..

وازداد الجمع.. وتعالت الأصوات مرددة..

- وعمال الغزل ليه حايشينهم

وزمجر آخرون: بلاش تفرقة..

وانطلقت صرخة عالية اقشعر لها البدن من إحدى العاملات المحتشدات، وتعالى الصراخ، وتطلعت الأنظار، وشحبت الوجوه من المنظر.. منظر الجنود وهم يخطون في ثبات وفوهات البنادق على أكتافهم تلمع، يتقدمهم جنود آخرون من راكبي الخيل، وفي الوسط صف طويل ممتد شدت أيديهم في جنازير سوداء قاتمة، يسيرون متمايلين من الإعياء، وارتفعت الرقاب النحيلة إلى أعلى، وشب آخرون على الأظافر، وارتفعت الأصوات عالية..

هوه.. هوه.. العمال.. العمال اللي خادوهم إمبارح.. سالم.. سالم طلبة.. ومحمد طلبة القطان.. وسع يا جدع.

وهاجت الناس، ودعوات كالمطر تنزل.. إلهي يخرب بيوتكم وازداد الصراخ، واختلط الحابل بالنابل، وتدافعت العاملات في الوسط.. وسط الجموع المحتشدة، وصاح رجل طويل القامة رفيع الجسم، مرددًا بصوت جهوري: ابعد يا جدع.. إيدك ف إيدي يا جدع.. وكانت أصوات أخرى تزمجر، وترتفع في الفضاء: علشان يخوفونا.. مش ح نخاف.

وارتفعت الأيدي ملوحة. وامتدت الأذرع: شدوا حيلكم.. إحنا معاكم..

وبينما كان رجال البوليس يشقون طريقهم. ارتفع صوت جندي من بينهم: ابعد انت وهوه.. الأوامر النهاردة شديدة..

وارتفع صوت جندي آخر: ياللا يا رجالة.. أنا لي فيكم أخ..

وزاغت عيني باحثة عن شيء.. فلم أجد أحدًا من اللجنة المختارة، واندفعت في الوسط قائلاً لنفسي.. مفيش حد.. فين فرج.. فين عبد العظيم دلوقت.. فين مصطفى؟.. بينما كان شاب يدفع بنفسه دونما خوف.. مسلمًا على سالم..

- قالولكم إيه؟
- بيقولوا حرضنا..
- حرضتوا إيه ولاد الكلب..

واختلطت الأصوات: رايحين فين.. النيابة .. هو انتوا قتلتوا.

واندفعت الجنود تعدو وهم يطلقون صفافيرهم، وخلعت العمال طواقيها ملوحين بها؛ كأن أسرابًا من الغربان السود قد حلقت فوق الرعوس، بينما اندفع في الوسط ضابط طويل القامة أصفر الوجه، يتبعه جنود آخرون، يدفعون الناس في غلظة، وصاح الضابط بصوت عالٍ، ولكنه مرتعش: "اسمعوا الأوامر.. أصغوا بآذانكم.. الكرنية الأحمر ما يدخلش، ما يهوبش ناحية الشركة..

ولم يكن الضابط يعلم من المقصود، وأحسست بفرحة عند سماعي هـذا.. ولـم أكـن أعرف سببًا لهذه الفرحة، وكانت أصوات أخرى تتردد: بركة يا جامع.. بركة اللي جت منـك ما جت منا.. وتدافعت عمال الغزل وآخرون في أيديهم كارنيهاتهم الصفراء متجهين للمصنع..

ارتقى شاب قمحي اللون على الأكتاف، وهو يصيح بأعلى صوته.. أيها العمال.. أيهـا العمال.. إن استنوا اليوم، مش ح يستنوا الثاني، المكن من غيرنا ح يصدي..

تبعه صوت آخر.. مش ح يلاقوا فلوس يدوها للعمال.. نستحمل.. نشتغل فـي الفاعـل وما نروحش..

بينما زعق آخر..

شفتوا زملاءكم مقيدين بالسلاسل، جابوهم علشان يخوفونـا.. شـفتم إزاي.. علـشان يخوفونا.. ياللا وراهم على النيابة.. كل واحد يدفع قرش نجيب لهم ياكلوا..

واندفعت الأيدي في الجيوب، وذهب آخر للشراء، واندفعت متجهًا نحو سالم وقـت أن كان يحيي الناس بإيماءة من رأسه، وأغمض إحدى عينيه حين رآني، ورفع صوته الهادئ:

- ابعد.. خليك انت للعوزة.

وكانت عيني تحملق في الحديد، وهو يواصل كلامه في هدوء وجدية:

- روح لفرج.. قول له يبعت لحزبنا في مصر.. يبعت محامين تطلعنا.

وكان الآخرون يقضمون الأكل، وينظرون في ثقة لموقف العمال..

اعتبرت ما قاله سالم لي أقل ما يجب أن أفعله.. وفي الطريق استذكرت آخر ما تفوه به من كلمات.. وحنينه للمكن.. وبينما كنت أواصل السير سمعت أصوات نسائية تتردد.

- هوة!! هو والنبي.. يا جدع ياللي ماشي.

ورأيت العاملات تندفع مهرولة.. اندفعن نحوي وهن يرفعن بملاءاتهن إلى أعلى، بينما أخريات خلعنها، ومحاسن من بينهن شاحبة الوجه، تنظر لي وإصبعها الخنصر في فمها..

وتجمعت العاملات يسألن، وأنا أجيب إجبات مقتضبة، لما كنت فيه من عجلـة، بينمـا دفعت إحداهن بمحاسن في اتجاهي.. قربي.. يمكن يقولك حاجة..

صحت بأعلى صوتي..

- عاوزة إيه.. عاوزة إيه يا محاسن.. انت عارفة البيت؟

فاتسعت عيناها وكأنها تستحلفني أن أبقى، فسحبت يدي بالرغم منها، وانـدفعت إلـى طريقي.. بينما وقفت تنظر إلي وأنا أبتعد.. كان الهواء الخفيف البارد يرفع خصلات شـعرها المتدلي على عينيها، فاندفعت في طريقي.. بينما وقفت تنظر لي.

لم يكن في ذهني سوى شيء واحد أفعله.. أن أجد فرج أفندي.. أين ألاقيه؟ كنت أفكر وعيناي زائغة في الوجوه تبحث عنه وفجأة أحسست بيد تسقط على كتفي.. هتفت من الفرحة.. مصطفى.. يخرب بيتك.. كنت فين؟ قلبت الدينا عليكم.. شفت اللي حصل؟ ياريتك كنت موجود.. أنا مش قلت اللي تخاف منه ما فيش أحسن منه.. جالك كلامي؟

فطبطب على كتفي وعيناه مركزتان في عيني.. وقال بعد فترة صمت:

- إيه اللي خلاك تطلع؟
- أعمل إيه.. هوه احنا اتفقنا على حاجة؟
- ماانتش خايف؟!
- ربك يستر.. فين فرج؟

وبدأ الناس يلتفون حولنا، فأمسك بيدي واتجه بي إلى حيث كان فرج أفندي في أحد البيوت بجوار سوق الجراية.. سمعت صوته وأنا ما زلت على العتبة. ولم يقطع حديثه عندما دخلنا.. كانت الحجرة ممتلئة بالعديد من العمال ينصتون إليه بشغف، وعيونهم مركزة على الكلمات التي تخرج من شفتيه متدفقة ورتيبة في نفس الوقت.. رأيته راكعًا على إحدى قدميه وحبات العرق تتساقط من جبهته..

- لم يكن من المستطاع منع ما حدث.. اللي جرى ده زي القشة اللي قصمت ظهر البعير.. إنه نذير بحوادث أخرى.. وعلى الجميع أن ينتبهوا..

يقول بعضكم إن عمال النسيج وحدها هي التي أضربت... وأنا أقول وعمال الورش.. مطلب واحد جمع بينهم، ألا وهو الثماني ساعات.. هذا ما حدث.. حدث دونما ترتيب.. المصلحة جمعت بينهم..

ويقول آخرون وح نعمل إيه؟ ونصف المصنع بيشتغل، ويسأل البعض وإلى متى سنستمر؟ وأنا أقول من كان ينظر للوجوه المصفرة، والغليان الذي يكمن في الصدور؛ كان يستطيع أن يتنبأ، وكانت الشركة على علم، ولهذا فرقت.. أستطيع أن أقول وأنا مغمض العينين أن هناك مطالب جماعية سوف تحدث في القريب، وأن ما جمع عمال الورش سوف يجمع كل العاملين في المصنع.. فإلى متى سنستمر؟ أقول إلى أن تعترف الشركة بأن للعمال مطلب ألا وهو الثماني ساعات لمن لم يأخذوه بعد..

واسترسل في القول مطمئنًا..

إن العمود الرئيسي في المصنع هو الذي قد توقف. هم الذين ينتجون ما يباع.. ولن تستمر الشركة طويلاً في الاستغناء عنهم.

وازداد صوته صرامة وثقة وتأكيدًا: بقي أن نحتمل ويقوي بعضنا الآخــر.. إنهــا أول تجربة، ومنها سوف نتعلم كيف تتم وحدة تشمل كل العاملين علــى الأرض.. وعلــيكم أنــتم يتوقف المصير..

وختم كلامه قائلاً:

فلنتجه.. يتجه كل منا إلى الآخر.. مع الآخر.. لنجعل من كل حي.. كل حــارة مكانًــا للاجتماع لنطارد روح الهزيمة التي قد تعترض البعض.. إنها محنــة، وفــي المحــن تبــان الرجال.

وارتفع صوته حادًّا حاسمًا، وبرزت عيناه، وهو يقول:

تمت هذه الأحداث دون أن يكون للعمال قائد، وهذه هي الآن مهمتنا.. تمت الأحداث قبل أن تكون فيه لجنة تتفاوض باسمكم.. فلنواصل الاجتماعات إلى أن نتمكن مــن خلــق هــذه القيادة.. إلى أن تعترف الشركة بأن للعمال حق.. لن يتم هــذا إلا إذا أوجــدنا هــذه اللجنــة. أسرعوا.. إن العدو الشرس لا يقبل أن تقام للعامل رأس ليقف في مواجهته ليقول أنا..

وتلفت حوله وهو يأخذ نفسًا عميقًا في الهواء، وأضاف فــي صــوت أكثــر رزانــة.. لا يجب أن نقلق فلكل معركة ضحاياها..

وتصلبت عيناه عندما رآني جالسًا بالقرب من العتبة، فتوقف عن الكلام بينمــا كانــت الأنظار متجهة إليه، والرءوس ممدودة في انتظار الكلمات التي ترتوي بها القلوب..

ولم ينتبه أحد إلا بعد أن تمشى في الحجرة جيئة وذهابًا، فأسرعت بتعريفه مــا حــدث، فأغمض عينيه، ومالت رأسه إلى الحائط وهو يردد

- خدوه.. خدوا سالم. أف.. ومحمد طلبة.

ونظر للجالسين وهو يردد: من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته، قوموا، قــوم انــت وهوه وخليكوا رجالة، وازرعوا الطمأنينة في القلوب.. وتلفت حواليه وهو يــنفض بنطلونــه الأزرق، مرددًا:

- عن إذنكم.. عن إذنكم أما أروح أبعت الجواب ده..

النبي قبل الهدية

ولم أكد أدخل الحجرة بعد يوم طويل مجهد حتى رأيت زوجتي تبكي:

- كنت فين.. كدة تسيبني.. تسيبني أهاتي.. الولد الغريب جه.. والولد السيد الصفتي.. مجيتش ليه وياهم؟

- آجي إزاي. لو كل واحد عمل كدة يبقى مافيش فايدة.. هو انت تكرهي الراحة؟

- ارضى بنصيبك.

- اقعدي ساكتة، بلاش كلام فاضي.. إيش عرفك بالكلام ده؟ انت تاكلي وبس.. لا تتدخلي.. إن كان عاجبك كدة عاجبك، مش عاجبك اتفضلي روحي.. هو كل ما اطلع تنوحي ورايا؟

ولم أنته من الكلام حتى سمعنا الطرق على الباب.. فتوجهت وهي تمسح عينيها، وارتفع صوت من الخارج..

- فكري هنا..؟

- دي محاسن.. اتفضلوا..

وأسرعت زوجتي لعمل الشاي، ولم تكن محاسن وحدها؛ بل كانت أمها معها، واشتبكت في الحديث مع زوجتي، وتزحزحت محاسن بالقرب مني وقالت في صوت هامس..

- عملت إيه؟

- ده اللي عاوزه أسمعه منك.. قولي..

- أقول إيه.. وأعيد إيه.. ده أنا ركبي سايبة من اللي شفته الصبح..

قلت في صوت مرتفع.. وبعدين؟

قالت من يوم ما انتم أضربتوا وهمه مانعينا من طرقة نسيج واحد وبنروح للشغل من طرقة نمره اتنين..

وتوقفت عن الكلمات وكأنها تتذكر، وثنت إحدى قدميها تحتها..

- انت عارف إن عمال الورش قدامنا على طول ويدوب كل بنت وقفت على الماكينة، وبتقول لسة يا هادي، وسمعنا تهاليل عالية، ودورنا الجري على الشباك، كان واحد واقف على الماكينة والعمال ملتفة حواليه. وفضل يهتف وهمة يرددوا.. عاشت العمال.. عمال الورش..

عاش عمال النسيج، وأقول لك الحق، كنت أرد في سري وياهم وأنا مش عارفة هم عــاوزين إيه..

وبعد شوية الرئيس الكبير جه. شخط حتة دين شخطة. أرعبتني.. وفي نفس واحد كأنهم تافين في حنك بعض: ثمان ساعات عمل.. لا تفرقة..

واستمرت تحكي في انفعال وكان لصوتها الرنان المشحون بالحماس أثــر فــي تنبيــه زوجتي، فأنصتت للحديث..

- وسمعت الرئيس الكبير بيشخط بصوت مرعب "اللي عاجبه على كدة عاجبه.. واللي مش عاجبه يدينا عرض كتافه".. وهو قال كده وما خلصش.. راحوا هاتفين وهمه بيــشوحوا بإيديهم المسودة في وشه.. يسقط الظالم، يسقط الظالم.

فتقدم منهم وراح مناول واحد بالقلم على صدغه.. وهو عمل كدة، والدنيا انقلبــت.. ده يجري من هنا.. وده يجري من هنا، وراحوا خاطفين أسياخ مولعة، ورفعوها في إيديهم..

- مش ح نطلع. مش ح نطلع..

وهو يشتم فيهم: يا ولاد الكلب.. ح أقطع عيشكم..

راح واحد حادفه بحديدة في دماغه، سقط بعدها على الأرض.. واحــد مــش عارفــة شكله.. صرخنا في الشبابيك والرءوساء جم وكرشونا.. من ساعتها ما شفتش حاجة..

وسحبت ملاءتها وكورتها وكأنها تستعد.. ونظرت إلي وهي تمسح جبهتها، وأضــافت وهي تخطط بأصابعها على الحصيرة..

- الكلام ده من يومين.. والنهارده، أدي انت شفت.. ودخلنا وكل واحد مش قادر يبص في وش التاني.. كلهم. بيقولوا لولاهم ما كنا احنا، لولا عمال النــسيج.. ســمعت الرءوســاء بيقولوا.. لو اشتغلنا يوم، حنوقف التاني. هوه الغزل له سوق؟ وهوه فيه غير النــسيج اللــي بيشتغل؟ بنستنفع من وراه.. لا المصبغة ولا المبيضة ولا التجهيز. كل دول متــوقفين علــى النسيج.. ح يدفعوا لنا فلوس منين؟

- إنشاء الله الشركة راح يتخرب بيتها..

فردوا كلهم في نفس واحد.

- إياك على الله ينقفل بابها

ورد واحد تاني:

- واحنا كمان ح يتخرب بيتنا..

سمعت هذا النهاردة – وتوقفت عن الكلمات لحظة وأسرعت قائلة:

- صحيح الكلام ده؟ صحيح راح يتخرب بيتنا؟

وكررت السؤال أكثر من مرة، فلم أرد لأنني لم أكن أعرف هذا. ولم أكن أعــرف أن توقف عمال النسيج يعني توقف المصنع كله، ولكنني خرجت من هذا بشيء واحــد بعــد أن فكرت فيما سمعته هو أنه لا غنى عنا.. وتذكرت ما سمعت من فرج وآخرين، ولكني خشيت أن أفصح عن هذا لمحاسن، خائفاً أن يكون هذا غير صحيح. ولكنني قلت لنفسي طمئنهم.. بعد أن رأيت ما بوجهها من شحوب.

- احييني النهاردة.. وموتني بكرة.. مدام بتشتغلي يبقى خــلاص، رزق يــوم بيــوم والنصيب على الله..

فانفرجت شفاهنا عن ابتسامة عريضة..

وإذا بأمها تقول..

- ربنا يخليكم ويسترها على ولاياكم.. ياللـــه يا بنتي ياللـــه يا محاسن ربنا يوصــل عيشك وما ينقطعش..

وبينما كانت تخطو على العتبة، توقفت محاسن ويدها اليمنى تندفع في يدي، مرددة فـــي صوت هامس..

- النبي قبل الهدية..

فتلفت حولي خائفاً من أن تكون أمها قد رأت وأجبتها بنفس الهمس..

- وأنا قبلت..

وكانت ستة برايز مربوطة في منديل حرير أبيض..

غمرتني الفرحة عندما وجدت في يدي ما كنت سأقبضه.. ياله من شعور طيب تجاهي، ولاد الحلال ياما.. هي من بلد وأنا من أخرى، ولكن الأيام جمعت بيننا، وبالصدفة تعارفنـــا.. يالها من إنسانة تحفظ الجميل. مين قدم السبت يلاقي الحد قدامه.. لعل هذا ما قالته لنفسها قبل أن تحضر.. كما وقفت بجانبي، فأنا أقف بجانبك أساعدك وأنت تدافع عن الحق. عن الثمانيـــة ساعات عمل للجميع.. أقف معك والدنيا كلها ضدك..

قلت لنفسي يالها من بنت.. وفكرت ماذا أفعل؟ إنه دين لا بد من أن أسدده. إنها تعلم أن العامل لا يبقى معه مليم واحد بعد انتهاء القبضية.. وفي غمرة التفكير زعقت زوجتي بصوت رخيم..

- الأكل جاهز..

فدفعت ما كان معي من نقود في حجرها، فبان في وجهها البشر، وثنت إحدى يديها وشفتاها تتحرك كأنها تحسب كم ستكفي من الأيام..

ومرت الأيام.. وبعد ما يقرب من الخمسة وأربعين يومًا باعت فيها زوجتي أكثر من قطعة نحاس دون أن تشعرني.. وكلما سألتها تقول وهي تبتسم:

- هو اللي جابنا.. والا احنا اللي جبناه!!
- قلت.. وأهلك لما يعرفوا؟

قالت، وكأنها ضربت في الصميم:

- العفش ده بتاعي.. بتاعي أنا..

قلت: والقائمة.؟.

- سأقطعها.. هاجيبها منهم.. حكمهم علي لما كنت وياهم.. أنا عارفه بعد ربنا ما يعدهالك ح تجيب بدل الحلة اتنين.. وهوه حد بيقول يا رب انحسني..

واغرورقت عيناها، وأضافت قائلة: متفكرش.

وبينما كانت تواصل الحديث سمعت صفارة من بين الشفاه، تنبعث من الشارع وتعلو وترتفع كلما اقتربت من الشباك. نظرت فإذا جموع من العمال متشابكو الأيدي وعيونهم إلى أعلى، ورأيت مصطفى رافع اليد ملوحًا..

- انزل.. انزل بسرعة..

أمسكت زوجتي في هدومي..

- رايح فين.. هو مافيش يوم ترتاح.. ارتاح لك ساعة.. ياما اني خايفة..
- اسكتي.
- الحجر الداير لا بد من لطّه.. انت مش هاتيجيبيها البر؟

لم أحتمل نبرة الخوف والتضرع في صوتها، فأزحتها عن طريقي برفق وخرجت.

- أسرع مصطفى نحوي بخطى مسرعة، متهلل الوجه.. عرفت اللي حصل؟

قسموا العنبر. قسموه أربع عنابر بدل من واحد.. والبناية على ودنه شغالة ليل ونهار.. الشغل راح يبدأ.

قلت وأنا أتطلع في الوجوه..

- فين عبد العظيم
- يظهر عليه روح.. ناس كتير هاجرت..

- انت شفته؟
- من يومها ما شفتوش.
- وانت عملت إيه؟
- أصحاب البيت منعوني.. لولاهم كنت روحت.. رفضوا يخلوني أشيل حاجاتي.. ما بياكلوش لقمة من غيري..

قلت في نفسي: ياما فيه ناس كتير طيبين وأمرا.. ولاحت في خاطري صورة محاسن.. ودفعت يدي في يده والفرحة تملؤني..

- اتفضل.. اتفضلوا يا رجالة.. تعالوا نشرب شاي..
- على إيه مش مستاهلة.. اللي تصرفه علينا اصرفه على نفسك، القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود..

وبينما كان يقول هذا، قاطعه أحد الواقفين..

- قول لنا يا مصطفى.. طمنا.. فرج قال في كلامه لازم نعمل لجنة نتفاوض لازم، لازم.. ولغاية النهاردة ما شفناش حاجة.. كل ما نروح ما نلاقيش غير شدوا حيلكوا، اتجدعنوا.. أوعوا حد يروح ناحية الشركة.. مافيش كلمة لا عن لجنة تتفاوض، ولا عن حاجة.. إيه الحكاية؟

ونظرت إلى مصطفى الذي كان واقفًا شارد التفكير وكأنه يبحث عن الكلمات.. وبعد فترة من الصمت أجاب وكأنه كان يعرف ما في ذهن فرج.

- لجنة إيه دلوقت.. هي الشركة معترفة بحد؟ ده مفيش كلمة لا على لسان رئيس أو مدير إلا وقال العمال دول زي النسوان.. بيعتبرونا زي نسوانهم... كلهم بيقولوا هو الواحد ياكل لقمة غصب عنه؟ الواحد لما يتزوج واحدة مش عاجباه مش بيطلقها.. أهو انتم زي النسوان، نشغل اللي نشغله، ونفصل اللي نفصله... هي الجزمة لما تتعب صاحبها مش بيقلعها.. أهو انتم الجزم.. ما سمعتوش الكلام ده؟ كلنا سمعناه.. بيقولوا عاوزين إيه؟ إحنا دلوقت في عركة.. الأول ننتصر وبعدين نبقى نشوف إيه حكاية اللجنة.. كلام فرج مش لجنة، فرج يقصد النقابة.. زي ما أنا عارف، ودي جايه، مش ممكن نعملها دلوقت.. بعدين.. نعملها واحنا جوة.. واحنا بنشتغل لو انتصرنا.. أي كلام الآن عن لجنة أو نقابة تضييع للوقت.. كل همنا الآن أن نقول للعمال.. إوعى حد يروح ناحية الشركة.. مفيش كلمة لا عن لجنة تتفاوض، ولا عن أي حاجة أبدًا..

كان يتكلم في سرعة وفي وضوح دون أن يستريح لأخذ أنفاسه وأضاف..

- إذا كان حد عرف حاجة من كلام فرج غير كده يبقى غلطان.. فرج عاوز لجنة زي اللي احنا عملناها في الإضراب، تحرس المكن، تلم الحديد تتكلم مع المـال، تـسمع أخبـار تقولها.. ده اللي احنا عاوزينه.. وعلى فكره عاوز أقول لكم حاجة قبل ما انـسى، القـضية بكرة، وفيه محامين جاية من مصر..

وتطلع إلى فوق فرأى زوجتي، فزعق قائلاً..

- طمنها..

وارتسمت على وجهه علامات الجد..

- هي منين؟

قلت: من بلدنا، وقريبتي..

فأطرق بوجهه إلى الأرض وهو يردد.. الضفر ما يطلعش مـن اللحـم.. الواحـدة إن ماكنتش تخاف على جوزها، تخاف على مين؟ يا ريت الناس كلهم زيـك.. وتـأبط ذراعـي، وسار على مهل، ثم أضاف..

- تعرف، الواحد شاف حاجات اليومين دول لو عاش عشرين سنة ما كانش شـافها.. الله لا يوريك..

وظهرت على وجهه علامة يأس قاتلة، وهو يردد:

- فيه نسوان سابت الرجالة.. سابوهم في الإضراب.. رفضوا يروحـوا معـاهم بلدهم.. اتطلقوا.. تصور.. ماقدروش يستحملوا.

قلت: ليه يا مصطفى؟

قال وهو يشد على يدي: مافيش حب يربطهم.

قلت وأنا ابتسم: ما انا مراتي مكنتش بحبها، وباعت حاجتها من غيـر مـا تقـوللي.. وصابرة معايا... وكل ما أقول لها روحي ترفض وتقول حافضل هنا معاك..

قال وهو يفرك على يديه:

- أهو ده الحب.. هي دي اللي تتحب.. اللي تقف مع الواحد في محنتـه دي مـرات زمن، مش تاكلك لحم وتسيبك عضم..

وجز على شفتيه: نسوان ولاد كلب عاملينها تجارة..

فرد أحد الواقفين زاعقًا..

- إيه الكلام ده يا مصطفى!! إذا كنت شفت نسوان كدة، احنا شفنا نسوان من البلد دي شالت المشنة وباعت الفجل على رجالتها.. غلط الكلام ده يا مصطفى تقوله..

فأجاب مصطفى في غيظ..

- دول قلة، قلة اللي عملوا كده..

فرد آخر: لا يا مصطفى.. لو دورت على الحقيقة تلاقي الذنب مش ذنبهم ذنب الإدارة.. هو فيه واحدة بتقول يا رب انحسني..

فرد مصطفى قائلاً: كلهم زفت.. فيه نسوان كتير رافقت.. رافقت على جوزها.. أنا شفت بعيني..

فرد الواقفون حرام عليك.. ما عندكش ولايا.. هو في واحدة بتفرط في عرضها إلا من الجوع..

توقف مصطفى حائرًا، وكأنه قد وقع في حيص بيص: وأنا كنت بقول كدة ليه؟ سيبونا من الكلام ده.. وتلفت حواليه وقال وهو يشد على يدي.. إوعى تنسى تيجي المحكمة بكرة..

الحكم جاهز

صحوت مبكرًا تاركًا زوجتي تسبح في النعاس متفاديًا شجارها معي، أو مشاكسة تؤدي إلى منعي من الخروج، وكان الشوق إلى رؤية سالم ومن معه يحرك أقدامي.. كنت أعـرف أنهم سيأتون بالقطار من سجنهم البعيد في طنطا، وعلى المحطة كنت أول من حضر، ومـن ثانية إلى أخرى كانت جماعات متفرقة من العمال في ملابسهم الزرقاء والبيضاء تقـف فـي زوايا مختلفة يتهامسون، وعند الساعة التاسعة والنصف كان الميدان قـد ازدحـم وشـحبت الوجوه، وظهر التحفز والترقب عليها في انتظار صوت القطار.. واقتـرب الوقـت، وازداد الناس، وسدت كل الطرق المؤدية إلى المحطة، سدت بالناس، وبعضها توقف علـى جوانـب الطريق، متأهبة ومتحفزة.. وزدات الأسئلة.. إيه دول؟ هما ورانا ورانا؟ حكومة إيه دي؟ هيه ما تتشطرش إلا على الغلابة؟

وارتفع صوت حملته الريح إلينا: الحق راح فين لما الزور بقاله سوق؟ وسمعت صـوتًا يتردد في الفضاء لم أنتبه لصاحبه: المحامين جايين في القطار. ورن الـصوت فـي أذنـي، فتذكرت ما كنت أسمعه من أمي، عن حكايات قالها أبي عن مصر.. تـصورت أنهـم نـاس عراض الأكتاف، وشوارب يقف عليها الصقر، قوم لا يتكلمون مثلنا.. لـو تكلمـوا يـسكت الآخرون، بلغوا من العلم ما لم يبلغه الآخرون. وإلا لما سموها مـصر، مـصر أم الـدنيا.. لا يسكنها إلا قوم قد تعلموا، ومن مدارسها تنشب المظاهرات.. وفيها يسكن الملك.

واقترب صوت القطار مدويًا توت. توت. توت.. واهتاجت الناس.. المدافعون عنا قـد وصلوا وتدافعوا من كل ناحية يقذفون بعضهم فوق بعض، وصوت القطار يدوي في الفضاء.. عاشت المحامين.. عاش منقذو العمال..

دخل المحامون إلى المحكمة والعمال من خلفهم.. رغم زمجرة الجنود وصياحهم.. ومن الزحام حولي لم أستطع أن أرى المحامين، كنت أكاد أطير مـن الفرحـة التـي غمرتنـي.. أحسست أن العمال لم ولن يكونوا وحدهم.. ناس أتت للدفاع عنهم.. ناس مـن مـصر.. وإذا برجل يدفع بي، وكانت الدفعة من القوة بحيث أجلستني في الصفوف الخلفية، وتدخلت الجنود، وفي غلظة بدأوا يخرجون العمال من القاعة.. أخرجوا كل الواقفين..

أطبق الصمت وساد الهدوء، وزعق الحاجب.. محكمة!

وقام الجالسون وقوفًا في خشوع في الوقت الذي كان فيه ثلاثة يدخلون واحدًا تلو الآخر، يتقدمهم رجل من باب جانبي، رجل أشيب نحيف الجسم، له وجه مـستطيل أبـيض وعينـاه

ضيقتان كعيني الفأر، جلس في الوسط وعلى يمينه رجل ضخم الجثة قمحي اللون، عيناه سمراوتان ينبعث منهما بريق كاللهب، أخذ يتطلع بهما في القاعة، فأشاع الفزع.. وعلى اليسار جلس رجل يميل وجهه إلى الاحمرار، حليق اللحية، له عينان خضراوتان متسعتان كأنها لا ترمش..

خلع الرجل الأشيب طربوشه، وعاد فوضعه في مؤخرة رأسه.. وبدأت الهمسات تتردد في القاعة.. أين المتهمون وبدأنا نسمع خارج القاعة أصوات عالية لجنود شاكين السلاح، يتدافعون من العربات، وآخرون يدفعون الناس في غلظة، ورنين السلاسل وهي تفك من الأيدي، تحدث أنيناً شاكيًا.. وصراخ النسوة تدمع له الأعين فتسقط الدموع غزيرة على الجنود..

بدأت الوجوه الشاحبة تدخل في هيأة مهيبة، والجنود متأبطة أذرعها.. كان سالم في المقدمة يحيى الناس بإيماءه من رأسه، وانفرجت من شفتيه الغليظتين ابتسامة هنا، وابتسامة هناك.. كان بملابس السجن الوسخة، وحزنت لرؤيته، وفر الدمع من عيني وأنا أتذكر بدلته الأنيقة وشعره اللامع، وهو يسير أيام العطلة، وكأن الأرض تهتز تحت أقدامه..

– هكذا السجن، فيه الرجال تتهان.. وانتبهت على صوت هامس بجواري.. دول كام.. خمسة وخمسين، خمسة وخمسين متهم.. يا نهار مش فايت..

– وتكوم المساجين داخل قفص من القضبان الحديدية، واهتزت رءوسهم المرفوعة كأنهم يلوحون بها للناس.. وارتفع صوت الحاجب مناديًا.. وهمهم المساجين كلما سمع واحد منهم اسمه.. مطأطئين كل يهمس في آذن الآخر والحاجب يواصل المناداة، وتقدم المحامون أمام المنصة الخضراء، وفي المقدمة كان شاب أبيض طويل القامة ذو عينين خضراوين، وفي يده دوسيه كبير الحجم.

– وارتفعت الهامات، وازداد الهمس.. إيه دول؟ كل دول محامين؟

– أمال.. هية العمال دي شوية..

واتجهت الأنظار نحو المحامي الأبيض، بينما وقف رجل على أكتافه وشاح أحمر مزين بالهلال، يقلب في الأوراق بسرعة البرق، وتململت الناس في القاعة، وأقدامهم تدق الأرض..

– النيابة.. وترددت الأصوات.. النيابة.. النيابة.. تذكرت الماضي القريب.. قلت لنفسي النيابة ضدنا.. وكانت ضجة الأصوات عالية.. أسكتت بدقة قم على المنصة الخضراء معلنة بدء الجلسة.

ساد الهدوء.. كان أول من سئل هو سالم..

- انت متهم بتدبير إضرابات وتكسير المكن..

أطبقت يده على القضبان الحديدية، وتركزت عيناه على قاضي الوسط.

- إن ادعاءهم كاذب تعوزه الأدلة..

قال القاضي: در على السؤال.. حرضت والا لأ، كسرت المكن والا لأ..

قال سالم: محصلش..

قاطعه القاضي: اجلس.. غيره اللي بعده.

وكما قال سالم قال الآخرون.. أجابوا نفس الإجابة.. إجابات كدت أن أصفق لها لولا أن أدركني الصوت الغليظ القاسي.. صوت النيابة.

- حضرات القضاة.. اليوم نقدم لكم قضية من أخطر قضايا العصر.. سبق أن قدمنا قضية عامل أعمت الأحقاد قلبه فقتل رئيسه.

شعرت بجسدي كله يهتز وأنا جالس في مكاني.. وعمني الغضب والانفعال بينما ارتفع صوت بالقرب مني.. اخرس.. انت كداب – بينما وقف سالم يبتسم..

- يوجهون التهم زورًا.. وازداد الهمس.. قول وخلصنا.. احنا جايين نسمع المحامين.

وارتفع صوت النيابة..

- اليوم نقدم لكم هذه القضية التي تفوق الأخرى في البشاعة.. قضية مجموعة مجرمة أبت أن تدور العجلة بسرعة، فأوقفوها عن عمد.. استغلوا عملهم في خديعة الغوغاء، فدفعوها إلى الهياج لإسكات صوت المكن.. إن من السهل أن يقتل الإنسان، ولكن من الصعب أن تدمر الآلات، هذه القلة المنحرفة من المجرمين، استغلوا عملهم في إثارة البعض، مستغلين جهالة من أرادت الشركة إيواءهم.. وامتدت يده نحو القفص.. هؤلاء هم المرشدون المضللون للجهلة، لولاهم ما هاجوا.. القدر وحده الذي تدخل لإنقاذ الشركة، لو تركوا لحظة واحدة لما تبقى اسم شركة مصر، ودمر كل ما شيدت به مصر المستقلة السائرة في طريق التصنيع، والازدهار.. ولكن القدر وحده.. القدر الرحيم يا حضرات القضاة، هو الذي تدخل لإنقاذ الشركة، بعد أن بدأوا في تكسير الآلات.. آلات مصر يا حضرات القضاة..

وختم كلامه قائلاً: أنا لن أطيل عليكم فالأوراق بين أيديكم تشهد بجرائمهم البشعة، والأدلة ثابتة من واقع أوراق القضية.. ثم صمت برهة وقد اكتسى وجهه بملامح خطيرة صارمة، وارتفع صوته حادًا وهو يشير إلى سالم وزملائه.. يا حضرات القضاة، إن هؤلاء المجرمين يستحقون الشنق!!

وشعرت بجسدي كله يرتعش من الغضب والذعر.. وترددت الهمـسات فـي القاعـة: شنق.. شنق يا ولاد الكلب.. هو انتم ما اكتفتوش قتل؟!!.. إلهي يخرب بيوتكم..

وتطلعت عيني إلى سالم خلف القضبان الحديدية، رافعًا رأسه في كبرياء، وعينه متجهة نحو وكيل النيابة ينظر إليه بغضب، وعلى شفتيه ابتسامه مملوءة بالقرف والاشمئزاز.. قلـت لنفسي.. مظلوم، وأيمانات المسلمين والنصارى واليهـود وكـل ملـة، مظلـوم يـا سـالم.. لا كسرت ولا خربت.. دلوقت أستطيع أن أقول ياما في السجن مظاليم.. التفت مره أخرى إلى سالم كان يتحدث مع الباقين وهو مشرق الوجه مطمئن.. فطمأنني موقفه.. ورن صوت فـي أذني من رجل يلبس بدلة ويجلس في المقعد المقابل لي.. رخصت.. والله رخصت يا إنسان.. بقيت أرخص من المكنة.. وانحنى إلى الأمام، وثنى أحد أصابعه وكأنه يستحلف للرجـل ذي الوشاح الأحمر.. وعاد الصمت إلى المكان، والناس في القاعة تنتظر على مضض ما سـوف يقوله المحامون.. وشخصت العيون عندما خطا المحامي الشاب ذو العيون الخضراء متمـشيًا أمام المنصة الخضراء، ناظرًا إلى ما فوق الرءوس، إلى الآية المكتوبة بمياه الـذهب.. ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾.. كأنه يقول لمن سوف يحكمون هل قرأتم؟.. وارتفعت هامتي عندما سمعت أصوات قائلة.. أحمد.. هوه.. أحمد حسين..

فوقفت أشب على أظافري ولكن رجلاً من الخلف شد جلبابي قائلاً: اقعد.. اقعد..

وتردد صوت المحامي في المكان:

حضرات القضاة، هالني ما سمعت. ما سمعته الآن يعتبر جريمة إن صح التعبير؟ كيف يقال هنا وفي هذه الساحة.. وعلى الملأ.. وفي ساحة العدالة؟ كيف تقول النيابة إن من السهل أن يقتل إنسان على أن تدمر الآلة.. أي كلام عن مصر المتحضرة.. إنه تحريض سافر ضـد من يصنعون الحياة.. ولوح بيده نحو المتهمين في القفص الحديدي.. أهذا قول عـن مـصر المتحضرة كما تزعمون، هل مفهومكم عن الحضارة أن تصبح أرواح الناس أرخـص مـن الآلة؟

احتقن وجه القاضي الذي يجلس في الوسط، وتململ فـي مكانـه وقـال: خليـك فـي الموضوع، وإلا أوقفتك..

وهاج الناس في القاعة، وتحركت الأجساد في عصبية، وتعالت الهمـسات الغاضـبة.. واسترسل المحامي وهو يدفع طربوشه إلى الوراء..

أردت أن أسجل هذا، ما سمعتموه من كلمات مثيرة قـد يجعلكـم تتعجلـون الحكـم.. ولو أنني أستطيع القول إنكم بالفعل قد حكمتم.. إن حكم الإدانة يطـل الآن مـن الأدراج.. إن رائحته تفوح، وإن ما يحدث الآن إنما هو من سبيل الأخذ بالعدالة لكي لا يقال إنكم بالفعل قـد

حكمتم قبل أن تسمعوا كلمة الحق.. وخبط بيده خبطة قوية على المنصة الخضراء، وكأنه يستصرخ الضمائر.. إن المجرم الحقيقي ليس هؤلاء.. إنهم لم يكسروا الآلات.. أقولها عالية لتسمع الدنيا، ولكي لا يختلط بالذهن ما تردد صداه، وما أشيع في الجرائد.. إن من الصعب أن يصدق عاقل أن عاملاً يكسر أو يشترك في تخريب ما تغرب من أجله طويلاً.. الآلة التي يعمل عليها ويعول منها أسرته وأولاده.. إن ما حدث من قبيل الدفاع عن النفس ضد الهمجية.. همجية الغفر.. همجية من دفعوا بالغفر للاعتداء بوحشية على العمال المطالبين بحقهم في الثمان ساعات.. فإذا كان لا بد من محاكمة حاكموا الإدارة.. حاكموا المشرفين، حاكموا الذين يظنون أنهم يعيشون في عصر عبودية الإنسان.. إن العمال بدأوا مسالمين.. كل ما فعلوه أنهم طالبوا بحقهم في الثمان ساعات.. لا يوم واحد، بل يومين، لم يحدث منهم ما يشين موقفهم، وكان من الممكن أن ينتهي اليوم في سلام.. لو كان الذي يحكم هو العقل. ولكن المصالح الأنانية أعمت عيون المديرين، وكأنهم لا ينظرون المطالب العادلة لحق هؤلاء العمال في الراحة والعلاج.. ثم صمت فترة وأخذ ينظر إلى الرجل ذي الوشاح الأحمر، ثم استأنف كلامه موجهًا الحديث للنيابة.. إنني أتساءل كيف أتيتم بهؤلاء؟ كيف اخترتموهم؟ هل هم وحدهم عمال النسيج أم هناك آلاف وآلاف غيرهم؟ هل تقصت النيابة الحقيقة، وإلا لما بقي هؤلاء لحظة.. لو تقصيتم الحقيقة لما كانت هذه القضية..

والتف نحو قاضي اليسار وصرخ: لو أن العدل هو السائد لما بقي هؤلاء يعانون مرارة السجن.. لو أن العدل هو السائد لحل أصحاب المصالح الأنانية محلهم في هذا القفص.. إنهم أبرياء.. غالبيتهم العظمى قبض عليهم في عرض الطريق.. أقول هذا من واقع الأوراق.. وأمامي أسماء أخرى ليس لهم اسم في المصنع.. وهذا دليل قاطع على بطلان التحقيق.. وسوء حظ الآخرين أنهم ليس لهم اسم في المصنع.. إن الشاهد الوحيد المدعو "سيد البغل" لم يحدد نوع ما فعله كل منهم.. لم يشر لاسم كل هؤلاء.. لم يقل سوى ما أملي عليه إرضاء لسادته... إنه رعديد، والرعديد هو الذي ينجو بنفسه حتى على أشلاء غيره من الناس، ولو أن النيابة بذلت الجهد وتحرت الحقيقة لاتضح لها أنه ضمن الخصوم أنه كثيرًا ما حرض أهل بلدته على العمال، كثيرًا ما شارك في الاعتداء عليهم ليضطرهم إلى ترك العمل في الشركة.. ولما فشل في ذلك استمر في إثارة الرءوساء على زملائه بالدس والكذب والوقيعة، ظنًا منه أنه بهذا يثني العمال عن العمل.. هذا ما أردت أن أقوله توضيحًا للعدالة.. وليس لي مطلب سوى الإفراج عنهم.

اختتم مرافعته، وتزحزح إلى الوراء وهو ينظر إلى كل من كانوا بالقفص، طاويًا الدوسيه الكبير الحجم، وعاد إلى مقعده وعيوننا جميعًا شاخصة إليه في انبهار.. فجأة ضجت

القاعة بالهتافات التي بدأت داخل القفص، ثم من قاعة المحكمة: ينصر دينك.. يحيا العــدل.. ربنا على الظالم يسقط الظلمة.. أنصفوا العمال..

ومال قاضي الوسط إلى الأمام ووجهه قد احمر من الغضب، وأخذ يدق على المنــصة الخضراء، وارتفع صوته حادًا قويًا: هدوء، مش عاوز أي شغب في القاعة.. اللي ح يعمل أي ضجة ح طلعه بره.. اخرس انت وهو.. أي واحد ح يعمل ضجة ح حطه في القفص..

وعاد الهدوء للقاعة!! وسمعت بعض الهمسات.. محامي تاني هايتكلم.. ربنا معاه. لــم يكتف المحامون بالكلمة الأولى؛ بل تقدم آخر وكأنهم كانوا متفقين؛ إذ قال المحامي الآخر في صوت حاد النبرات: "أيها السادة أعضاء المحكمة.. إنني سأبدأ من حيث انتهى زميلــي.. وإذا لزمت الدقة فإنني أقول لمن اتهموا هؤلاء الأبرياء وتسببوا في سجنهم، وادعوا كذبًا وافتــراء أنهم كسروا المكن، أو حرضوا على هذا العمل كما يزعمون.. أقول والحق يقال: إن هــؤلاء العمال بسواعدهم وعلى أكتافهم أقيم هذا الصرح الشامخ، ولأنهم يعتبرونه مصدر رزقهم فلــم يضنوا بالعرق والجهد.. عشر سنوات من الصبر والمعاناة.. وكل أملهم أن يعيشوا كآدميين.. لو حصرنا كم من التضحيات لتهنا في العدد.. عدد ضحايا السل، وتهنا أيضًا في عدد ما شوه من الأجساد، وما بتر من الأعضاء، والعجز الكامل عن العمل، وعدد القتلى أثناء العمل.. كل ذلك بسبب الظروف الصحية البشعة التي أجبروا على العمل فيها، وبــسبب عــدم الاهتمــام بتحسين أو صيانة الآلات، والإهمال المفضوح المتعمد من جانب ذوي المصلحة.. كل همهــم أن يعصروا هؤلاء المساكين ويحولوا عرقهم إلى نقود ومكاسب.

صمت قليلاً وخطا خطوتين في اتجاه النيابة ثم ارتفع صوته حتى أصبحت القاعة تدوي به وهو يقول: إن الصرح الشامخ الذي تتكلم عنه النيابة، والذي يعلو ويعلو كل يوم، والثــراء الفاحش الذي امتلأت به الجيوب؛ قد بني على أجساد وأرواح وسواعد هؤلاء العمــال.. أيــن النيابة.. أين النيابة من كل تلك الجرائم.. أين كانت النيابة وقت أن كانت الناس تــدفن تحــت الأنقاض.. أين كانت النيابة والماكينات تبقر البطون وتقطع الأذرع وتهشم الرءوس.. وخطــا خطوة أخرى في اتجاه النيابة.. وفجأة رفع يده وأشار بها إلى الرجل ذي الوشاح الأحمر..

"إنكم تحققون مع المظلومين، وتحبــسون الــضحايا.. ولكــنكم تتجــاهلون المتــسببين الحقيقيين.. أين كنتم والشكاوى تملأ الأدراج في الوزارة.. حتى مكاتبكم قد مُلئــت بــشكاوى واستغاثات هؤلاء العمال.. ليتكم تحركتم منذ البداية.. لو كنتم فعلتم لما كان هذا قد حدث الآن وياللأسف تتحركون لا لتحاسبوا من أساءوا بل لإدانة من ارتفعت أصواتهم تطالب بالحق!!

وتمشى أمام المنصة، وتوقف أمام قاضي الوسط ملوحًا بيده قائلاً: النيابة تطالب بتوقيع أقصى عقوبة على هؤلاء المظلومين، وتحرض على شنقهم

- تتكلم عن الحضارة.. أي حضارة لقوم يقيمون صناعتهم على الأشلاء.. أشلاء العمال.. هل التحضر يعني السجن لمن يصرخ من الظلم؟ التحضر أيها السادة يعني فك القيود، وإصدار التشريعات العادلة لمن يصنعون الحياة.

صاح بأعلى صوته: أين التشريعات التي صدرت لتنظيم حقوق العمال وحمايتهم؟ أين يا من تتكلمون عن مصر المتحضرة؟! – إن العالم يسير ومصر لا تسايره.. كلنا يعرف السبب.. الاستعمار.. ولكن لسوء حظ مصر أنه يوجد بيننا من يدافعون عنهم.. سلطوا السيوف ضد المصريين.. سايروا الاستعمار في بطشه.. إن ما يحدث الآن لهو خير دليل.. إن دستور سنة ٢٣ لم يفرح به الشعب لحظة.. دائم الإلغاء.. أيها السادة.. إن العمال كانوا وما زالوا أبناء لهذا الوطن.. إننا جميعًا مدينون لهم.. إن ما قاموا به في ثورة ١٩ يجعلنا نفخر بهم.. إن الاستعمار ومن يساندونه يعرفون من هم العمال.. لهذا ليس غريبًا ألا تصدر أي تشريعات لحمايتهم.. لهذا نجد السيوف ترفع والسجون تفتح، والنيابة تطلب لهم السجن والشنق.. إنهم يعتقدون أنهم قادرون على وقف الزمن، وهم مخطئون.. إنكم تعلمون ما حدث في أمريكا، وكانت للعمال مطالب عادلة تجاهلها الحكام.. خرجوا في مظاهرة سلمية.. تآمرت عليهم قوى الغدر، وألقيت قنبلة ليحاكم العمال زورًا.. وكانت المحاكمة المشهورة.. وحكم بالشنق على عدد منهم لإرهاب الباقين.. أيها القضاة.. إنكم تعلمون ما حدث.. ثارت الدنيا واهتزت المشاعر وتحركت المظاهرات في كل أنحاء الأرض.. واستيقظ الضمير العالمي.. حتى ضمير من دبر الجريمة.. كان أحد الضباط الذين اشتركوا في التواطؤ مع السلطة وأصحاب المصانع اعترف في آخر أيام حياته أنه هو الذي ألقى القنبلة.. وأعيدت المحاكمة وبرِّئ من شنق ظلمًا وزورًا.. هذا هو عيد أول مايو.. عيد العمال..

حضرات القضاة.. يا روح العدل.. يا ضمير مصر.. إن ما حدث هناك يحدث هنا.. نفس المؤامرة.. نفس الظلم وتجاهل الحقوق.. نفس تلفيق التهم لتشويه صورة العمال.. إنهم صانعو الحياة.. صانعو الخبز.. ناسجو الملابس التي تلبسونها.. بهم وبفضلهم ارتفعت المداخن.. بنيت العمارات رصفت الطرق.. كيف ننتظر من العمال الذين يبنون الحضارة أن يقبلوا الحرمان من أبسط الحقوق الإنسانية؟!

توقف عن الحديث فجأة.. فساد القاعة هدوء رهيب.. ولكن صوته رجع مجلجلاً.. حضرات القضاة.. إن البعض يعتقد أنه بهذه المحاكمات يستطيع إيقاف عجلة الزمن.. أقولها عالية.. إن ما حدث اليوم هو الشرارة الأولى.. إنه نذير لقوم يتجاهلون حقوق الإنسان، وإذا كانت بعض الماكينات قد تكسرت كما يدعون.. ففي الغد قد يحدث ما هو أشد، ولعلكم سمعتم ما حدث للقيصر!!

أفرجوا عن هؤلاء وابحثوا عن الأسباب.. إن العبد وحده هو الذي يعمل تحت القهر، أما الحر فمن حقه أن يتوقف عن العمل إذا لم يحصل على الأجر العادل مقابل عمله..

يا حضرات القضاة.. قولوها معنا، إن المشاكل لا تعالج بالسجن.. بل بإصدار القوانين العادلة.. قولوها معنا قبل أن ينفذ السهم ويقضى على من أراد العبودية للإنسان، كما حدث في بلاد في طريقها الآن إلى تشييد الحضارة الحقيقية بسواعد من عاشوا في الظلام ذات يوم.

واتجه ناحية المسجونين داخل القفص الحديدي.. وأشار إليهم قائلاً.. إن القط يولد أعمى ولكن الضوء دائمًا يكون في داخله.

ودار حول نفسه في مواجهة المنصة ويده متجهة إلى باب القاعة: حضرات القضاة افتحوا الأبواب.. اتركوا الضوء يخرج.. اتركوا النور يخرج من خلال الظلام..

شعرت بجسمي كله ينتفض بالحماس والغضب وانتشرت الهمسات في القاعة، والأجساد تتحرك في عصبية.. ولاحظ المحامون أن كلماتهم لم تسجل في الأوراق فثاروا ثورة عنيفة، أدت إلى أن ترفع الجلسة.

خرجت من المحكمة وجمسي كله ينتفض ويرتعش من الحماس.. لسنا وحدنا.. إن الأفندية الذين جاءوا من مصر معنا.. المتعلمون يشهدون بعدالة قضيتنا.. العمال في أمريكا انتصروا.. نستطيع أن ننتصر مثلهم.. المحامون يطلبون قوانين لتحمينا.. عمال مثلنا انتصروا على القيصر ويبنون الحضارة.. من هو القيصر؟ لا بد أنه أحد المديرين الظلمة!!

التف حولنا العمال خارج المحكمة، وسألونا عما حدث في المحكمة.. انتشرت التجمعات في الشوارع والحواري تسأل وتسمع الإجابات وترتفع الهتافات.. وازداد الإصرار على الاستمرار في الإضراب حتى نأخذ حقوقنا.

بعد أسبوع صدرت الأحكام.. حكم على سالم بسنة، وعلى الآخرين بأشهر.. وكان هذا بمثابة الشرارة الأولى كما قال المحامون..

ما سمعناه من المحامين، ونجاحنا في تنظيم الإضراب فتح عيوننا على أشياء كثيرة لم نكن نفهمها.." شعرت أن غطاء أسود كان يغطي عيني قد بدأ ينزاح، وأصبحنا أكثر فهمًا وأكثر ثقة في أنفسنا.. تشكلت لجنة كثيرة فيما بيننا لتقوية العمال وتشجيعهم على الاستمرار في الإضراب، ولجان لمساعدة الأكثر احتياجًا.. من معه يساعد من ليس معه.. وعلى رأي المثل.. المليان يكب على الفاضي، ويد الله مع الجماعة.

وتعاطف معنا أهل البلد والجيران وساعدونا وشاركونا طعامهم، والتجار باعوا لنا على الحساب، والعمال في الورش والمصانع الصغيرة قدموا لنا أقصى ما يقدرون عليه..

نهاية خائن

استمر "سيد البغل" في وقاحته.. كان يعترض العمال ويهددهم أنه يخبص علـيهم، وأن الحكومة صاحية ومش نايمة وفكر بعض العمال في أن ينتظـروه علـى أول الحـارة لـيلاً ويضربوه بالشومة على رأسه إلى أن يقضوا عليه.. ولكننا قررنا أن العمال ليسوا قتلة..

وقررنا أن يقاطعه كل العمال.. لا أحد يكلمه أو يرد له السلام.. الكل يغادر القهوة التي يجلس فيها البغل، ولكن البعض لم يلتزم بالقرار، وكـانوا يـشتمونه كلمـا رأوه: "يـا بغـل يا ابن البغل.. يا خاين العيش والملح" "يا خسيس" "يا كلب السلطة".. وبدأ يجري فـي اليـوم أكثر من مرة إلى القسم ليشكو العمال، وتكررت شكاواه حتى ضاق الحكام.. وأخيـرًا طـرده الضباط من القسم قائلاً.. "انت كل يوم ح تجيب لنا مشاكل؟ غور من هنا واوعى أشوف وشك تاني".

وفي يوم دخل القهوة ونحن فيها.. جلس وهو ينظر إلينا متحديًا ومتحرشًا، وطلب شايًا.. بدأنا نتحرك لمغادرة القهوة، وإذا بصاحب القهوة يصرخ في وجهه.. ما عندناش شاي.. مـا عندناش بن.. ما عندناش كراسي تقعد عليها.. غور بقى وقفت حالنا وحال البلد.. إلهي يوقف حالك.. يا بن الخسيس..

وفي أثناء عودتي للمنزل سمعت صراخًا وصوات بعض النسوان.. كانت سـيدة تبيـع الجبنة القريش.. رأيتها واقفة وقد لفت ملاءتها حول وسطها، وهي تصفق بيـديها وتـصرخ بأعلى صوت وتشير إلى امرأة أمامها.. ما عنديش جبنة يا روحي.. بطلنا نبيع يـا ضـنايا.. جوزك خبص على إخواته وقطع عيشهم.. وقف حال الـسوق.. لا أودة بنقـبض إيجارهـا.. ولا بيع ولا شرا.. غوري من وشي يا مرة!! شوفي واحدة تانية تبيع لك السم اللي تتـسمميه انت وجوزك.

وسمع البغل، وجاء لنجدة زوجته التي وقفت وسط حريم السوق تبكي.. ولا أدري مـن أين ظهرت محاسن ومعها عاملتان من صديقاتها.. وصرخت محاسن "قولوا ورايا يا عيـال.. قولوا ورايا..". وفي مجموعات تجمع الأطفال من كل ناحية وأخذوا يرددون وراء محاسن:

"يا خاين يا بن المفضوحة.. بكرة ح تقف ف إيـدنا دبيحـة" "خنـت العـيش والملـح يا بغل.. ارحل عنا..!!".

واندفعت إحدى العاملات تهتف وتكرر الهتاف والأطفال يرددون: "سالم واللـــي معـــاه رجالة، وانت يا بغل كناسة وزبالة"..

وانهال الطوب على الخائن وزوجته، اللذين جريا أمام الأطفال.. وسط ضحكات أهـــل البلد وزغاريد النسوان..

من ألف هذه الأغاني لست أدري، ولكن الأطفال حفظوها، وردوها في كل حارة فـــي البلد، حتى أصبح البغل وزوجته لا يجرؤون على الخروج إلى الشارع.. واستيقظنا ذات يـــوم فإذا البغل قد هرب من البلد ليلاً وسافر حيث لا ندري.. وقد رفضت زوجته أن تسافر معـــه، وعلى حد قولها.. "هوه اللي جابه لنفسه".

وأخيرًا تراجعت الشركة.. وصحونا ذات يوم على إعلانات كثيرة ألصقتها الشركة فـــي الشوارع تطلب من العمال العودة للعمل.. وتعلن تخفيض ساعات العمل إلى عشر ساعات بدلاً من اثني عشرة، وأن العمل سيكون على ماكينتين بدلاً من أربع.. مع زيادة في الأجور..

واتفقنا أن ننهي الإضراب بهذه المكاسب، على أن نستمر في الـــسعي لبـــاقي مطالبنـــا بالطرق التي نتفق عليها.. وعلى رأي فرج والمحامين إنها الشرارة الأولى.. وستستمر..

وفي هذه الأيام كان شبح الحرب يخيم على العالم.. الحرب التي ستحمل إلينا الكثير من المعاناة.. الكثير من المطالب والكثير من الواجبات.. والنضال.. على طريق الرحلة..

العودة بعد الإضراب

وبدأ شبح الحرب يخيم على العالم، وجموع عمال النسيج تتجه إلى العمل بعد إضـــراب هو أخطر الإضرابات على الإطلاق.

عادت ولم تكن تعلم ما الذي حل بعنبر النسيج الواسع.. لقد تحول عنبر النـــسيج إلـــى عنابر، كل عنبر قائم بذاته.. وتجمع العمال في الطرقات الممتدة على طـــول تلـــك العنـــابر وجلسوا القرفصاء كل وراء الآخر، ولما كانت الأعداد هائلة، فقد أجلـــسوهم فـــي الطرقـــات المجاورة.. والخفراء بزيهم الرسمي يملأون المكان، مسلحين بالعصي التـــي تـــستخدم فـــي الشغب، وتمتمات هنا وهناك وتنهيدات مكبوتة لا تستطيع الإفصاح عما في الصدور.. مـــاذا حدث؟ ما حدث قد نسيناه أو كدنا ننساه، لماذا تذكروننا بالماضي، ألم يكفكم ما حدث، لقد كان مروعًا تقشعر منه الأبدان.. ومن المسئول؟

كنا نجلس على المكن في أمان ولم يخطر في بال أي منا إطلاقًا أن ما حـــدث ســـوف يحدث.. لم نكن نطلب المستحيل.. ثمانية ساعات عمل شأننا شأن الآخرين من عمال الغـــزل وعمال التحضيرات، ألسنا مثلهم؟ أليس مرض السل منتشرًا بيننا مثلما هو منتشر بينهم! فلماذا التفرقة؟ نحن لم نطلب سوى ما سمحتم به، وجلسنا على المكن هادئين.. كنا في انتظار أحـــد يقول لنا كلمة تهدئ من روعنا لكنكم جئتم بالشوم والكرابيج لدفعنا بالقوة خارج عنبر النسيج.. لم يكن أحد منا يصدق أنكم بهذه الوحشية إلى أن رأينا الدماء وهي تسيل وآهات هنا وهناك.

أكان من الممكن أن نفعل سوى ما فعلناه؟

كنا ندافع عن نفس وجدت نفسها مقهورة ومحشورة بين المكن، فوق بعضها الـــبعض، والعصي تنهال فوق الرءوس.. وزعق صوت وقتها "ارحمونا" فلم تسمعوه!! لم يكن لنا مطلب غير الثماني ساعات مثل زملائنا.. أعطونا الثماني ساعات، فأغلقتم الآذان ووجدنا أنفسنا فـــي موقف دفاع، كل منا يدافع عن نفسه خوفًا من الضياع.. ما حدث كان خرابًا بعنبـــر النـــسيج الواسع اللامع المكنات.. لو كان لهذا المكن صاحب لأتى وسمع شكوانا ولو جاء صاحب هذا المصنع وطلب منا العمل عشر ساعات بدلاً من الاثني عشر ساعة ربما اعتبرها خطوة علـــى الطريق.

وها أنتم أيها السادة اعترفتم بظلم العمل اثني عشر ساعة، فقبلتم تخفيضها إلـــى عـــشر ساعات.. وهذا ما قرأناه في المنشور المعلق، لو حدث هذا منذ الساعات الأولى من الإضراب لما سالت دماء، ولما ذهب أحد إلى السجن ولبقي عنبر النسيج الواحد الواسع اللامع!!

وارتفعت الهامات في غضب وبأصوات وكأنها كانت على موعد.. جئتم بنا إلى العمل وللآن تركتمونا جالسين.. جاءت هذه الأصوات العالية فجأة.. كانت وكأنها تعلن رفضها لما يرونه حولهم، وكانت عنابر النسيج قد فتحت إيذاناً بالدخول ودخل العمال وتسلم كل عامل ماكينتين بدلاً من الأربعة بالأمس، والكل يسأل نفسه عن باقي المكن، وكان الرد واضحًا.. لقد تكسر المكن!!

ومرّت أيام وليالي وهذا يجيء وهذا يروح، ورياح باردة، ورياح متربة والأحوال ليست مستقرة وناس لابسة الأبيض وناس لابسة السواد وناس نايمة وناس صاحية وناس فرحانة وناس زعلانة.. الفرحان فرحان بالعودة إلى العمل بعد غياب طويل والآخر زعلان على صديق له أخذوه إلى السجن.. وبدت الدنيا وكأنها ظلام دامس بحيث لم يعد الأخ يعرف أخاه.. وبدأت التساؤلات وكأنها ظلام دامس بحيث لم يعد الأخ يعرف أخاه.. وبدأت التساؤلات والكل يسأل حتى نفسه.. أين من كانوا معنا بالأمس.. والإجابة واضحة. لقد استفادت الشركة مما حدث فقسمت العنبر الواسع إلى عنابر وغيرت المواعيد فبدلاً من أن كنا نتقابل وقت تسليم الورادي، غيرت المواعيد وجعلت الفرق بين كل وردية ووردية ساعة لكي لا يتقابل العمال ويضعف ترابطهم.. فوردية النهار تبدأ من السابعة إلى السادسة مساء، إذ إن لقاء العمال قد يؤدي إلى أشياء لا تريدها الشركة.. وتساؤلات أخرى عديدة؟ لماذا كان موقف الحكومة مع الشركة؟ فدفعت بالألوف من الجنود واحتلت كل موقع فيها والطرق المؤدية إلى الشركة.. بل هي التي ضربت العمال وقيدتهم بالسلاسل وسارت بهم في الشوارع لإرهاب الآخرين.. ولماذا لم تسألنا الحكومة لتعرف منا الحقيقة؟ ولماذا لم تقف معنا ضد الظلم؟ واحد يتساءل وآخر يجيب.. حكومة مين وبتاع مين.. الحكومة هي الحكومة.. هو حد ينسى إن صدقي باشا رئيس الحكومة في يوم من الأيام قال: أنا هخلي كل اثنين يتخانقوا على مليم.. حكومة صدقي زي حكومة محمد محمود وزي حكومة زيور.. كله زي بعضه.. همه اللي ألغوا الدستور وزوروا الانتخابات.. حد ناسي.. مين منا ناسي؟؟ دا احنا كلنا من الريف.. لما كان الواحد يخش عشان ينتخب لو انتخب حد من الوفد كانوا يعلمون على ضهره بالطباشير.. ويا ويل ويله لما يخرج.. ميعرف الضرب جايله منين ولا منين.. من الغفر، ومن العمد ومن العساكر ومن الناس اللي واخدين فلوس منهم.. هيه الحاجات دي مش كلنا عارفينها؟ يعني الحكومة مع الشركة والشركة مع الحكومة.. هو حد في البلد دي غلبان غيرنا.. نقول يا رب! ربنا يقصص عمرهم، فيقول صوت آخر مبقلنا عشر سنين بنقول يا رب ولا مجيب.. الدنيا اتشقلبت والدنيا اتبرجلت واللي فوق جه تحت واللي تحت جه فوق.. حكومة ونيابة وعساكر ومحكمة ومحامين ومتهمين وهيصة وآخرتها، اللي احنا فيه فضلنا فيه.. وآخر يقول.. لا ده إحنا

كسبنا.. كسبنا ساعتين منهم.. مش قالوا في الأمثال اجتهد يا عبد وربنا وياك.. همه في الأول مش قالوا باب الشركة يساع جمل ولما قمنا كلنا ومشينا وقلنا الباب يساعينا كلنا وأوقفنا كلنا المكن وأضربنا، أجبرناهم على آخد ساعتين.. يعني أجبرنا الحكومة وأجبرنا الشركة.

فيقول آخر: وهمه الساعتين يساووا ما حصل؟ فيرد آخر.. ما هو كل شيء بحسابه ولسه ياما نشوف.. وياما نسمع.. وكان صوت كلب يعوي من بعيد..

ومرت ليالي وأحاديث لم تنته على كل طريق وفي المقاهي والشوارع والبيوت حول ما حدث.. ولا أحد قادر على النسيان.. فما حدث كان فظيعًا!! أيادي عمال مسلسلة في الحديد وعساكر بالبنادق ماشية جنبها طوابير.. يالي سواد الليالي.. هكذا كانت تقول في وقت كان الخبر في الراديو.. وعصبة الأمم في آخر اجتماع والحرب على الأبواب.. وناس تهرول هنا وهناك ويعلن الراديو بين الحين والحين أن أخبارًا هامة ستذاع وأخذت الولد الغريب والولد السيد الصفتي لنبحث عن أقرب مكان فيه راديو والناس تزداد وشبح الخوف على الوجوه.. وفي وسط البلد كان شارع البهلوان مليان من الناحيتين في انتظار نشرة الأخبار.. وكان صوت المذيع حزنان كالذي انخطف له ولد ومارجعش.. وبدأنا نسمع التحذير من الحرب وأخطارها.. وقدم مندوب السوفيت تحذيرات من هول الحرب والتدمير الذي لن ينجو منه أحد. ثم قال ويعلم الله وحده ما سوف يصيب البشرية لو قدر لهذه الحرب أن تقوم.. وبدأت أحاديث الناس في كل مكان حول الحرب ومن الذي سيبدأ.. ومن الناس من يقول ألمانيا هي التي ستبدأ لأنها تريد استعادة ما فقدته في الحرب الأولى، وآخر يقول بل بريطانيا العظمى هي التي ستبدأ لأنها تريد مزيدًا من المستعمرات.. ما هي بلدنا مصر مستعمرة بريطانية ولها مستعمرات غيرها كثيرة، ولا تغيب عنها الشمس، والإنجليز هم كل شيء من كثرة المستعمرات .. وآخر يقول واحنا إيه حنخده من الحرب سوى المزيد من التحكم أكثر ماهم متحكمين.. همه اللي بيشكلوا الوزارة ويشيلوها إذا لم تعجبهم.. وعلى كل إذا ما قامت الحرب سواء من ألمانيا أو بريطانيا، محدش خسران فيها غيرنا. كل حاجة رايحين ياخدوها، هم مخليين حيلتنا حاجة؟.

وفي صباح اليوم التالي كانت الأخبار في كل الجرائد..

ألمانيا تعلن الحرب على بريطانيا.

ومرت الأيام واختفت الأشياء الضرورية لحياتنا مثل السكر والزيت والصابون، ولم تصبح في متناول الأيدي، وأصبحت بالبطاقات.. وطوابير العيش تتزاحم على الأفران، والأشياء التي لا تستطيع أخذها من المحلات تجدها مع آخرين لكن بأسعار مضاعفة.. والأجور لم تعد كافية.. والشكوى أصبحت على كل لسان.. وغارات الألمان لا تنقطع لا ليلاً

ولا نهارًا، واسم هتلر أصبح على كل لسان على أنه هو الذي سيحرر مصر من الاستعمار البريطاني.. وناس كتير سمت هتلر بمحمد هتلر المخلص للبحار من براثن الاستعمار الإنجليزي.. وكل شيء راح يبقى على ما يرام ما دامت البحار حتتخلص من سيطرة بريطانيا العظمى.

وتمر الأيام، وتتوالى الأحداث، وتتصدر العناوين الصحف بالبنط العريض الواسع، "فرنسا تستسلم أمام قوات هتلر الوحشية". "هتلر يعلن الحرب على روسيا".. وتعالت الأصوات هنا وهناك، والناس تتعجب لما جرى!! "هتلر جراله إيه يا ناس هو ضد بريطانيا ولا فرنسا ولا إيه ولا إيه؟!" "وإيه اللي خلاه يحارب روسيا كمان؟" "هو ناوي يحكم العالم كله ولا إيه؟" "دا حيبقى سواد.. الدنيا حتبقى سواد.." "هوه أد روسيا، ده روسيا بحر مالوش نهاية اللي يدخل فيها ميطلعش".. "دا الناس اللي فيها تسد عين الشمس" "أهو فتح على نفسه فتحه مهواش طالع منها والله العظيم ما هو طالع؟؟ هوه رايح على فين؟ دا رايح على جهنم.. مين يقبل في روسيا إن ألمانيا تحكمه أو هتلر يحكمه؟ دي بلد مفيهاش عمد ولا مشايخ.. كل العمد فيها ماتوا ولا فيها بيه ولا باشا ولا صاحب مصنع ولا وسية ولا تفتيش.. كل حاجة فيها ملك للحكومة.. دولة اشتراكية".. أهي روسيا كدة.. العمال والفلاحين فيها همة كل حاجة.. ناس اتخلصوا من الظلم! حيقبلوا حد يحكمهم.. بلد مافيهاش حد جعان ولا حد عريان.. مفيهاش كمان ناس مع الإنجليز.. هتلر إيه اللي خلاه يروح روسيا؟ دول وحوش حيكلوه أكل، ومفيش حد منهم حيتعاون معاه.. هناك مفيش ملك ولا صاحب عزبة، ومحدش ذلنا غير دول؟ اللي همه العمد وأصحاب العزب.. وهوه حد جاب لنا الإنجليز هنا غير دول".

ورنت هذه الكلمات في أذني.. كنت ولأول مرة أسمع عن هذه البلد اللي اسمها روسيا.. رنت هذه الكلمات الجريئة، وشعرت بأن شيئًا جديدًا يولد في قلبي..

وتناثرت الإشاعات هنا وهناك.. كل واحد يقول للآخر.. حقولك حاجة لكن متقولش.. بيقولوا إن طيارة بها ناس من الضباط، ناس كبار في الجيش وقعتها الإنجليز.. بيقولوا كانت رايحة ألمانيا.. يعني همه بقى مع الألمان؟! طبعًا حيدوهم أخبار ضد الإنجليز.. يا نهار مش فايت هيه الإنجليز رايحة تسكت.. ولم يمض وقت حتى أصبحت هذه الإشاعات حقيقة بالإعلان عنها في الجرائد.. وفي كل موقع عمال يقال إن الإنجليز اكتشفوا إن الملك فاروق مع الألمان، مع هتلر ومع موسوليني.. وتتناقل الإشاعات هنا وهناك إن علي ماهر هو الآخر مع الألمان.. ومظاهرات في القاهرة تملأ الشوارع.. وأحمد حسين رئيس مصر الفتاة على رأس مظاهرات تهتف وتهتف ضد الإنجليز وتقول تقدم يا روميل، تقدم من العلمين.. تقدم كل البلد هنا عوزاك ضد الإنجليز.. لم يعد أحد مع الإنجليز.. كل الكبار وكل الحكام كلهم مع

الألمان حتى الملك، الإنجليز همه اللي خلوه ملك على مصر.. عيلة كلها خاينة.. هي اللي استعانت بالإنجليز ضد ثورة عرابي.. عرابي اللي أصله كان فلاح.. وهو اللي أعلن الثورة على الخديوي.. الخديوي اللي غرق مصر بالديون.. عيلة كلها من أولها لحد آخرها كلهم خاينين.. وفاروق ابن أحمد فؤاد واللي عينته الإنجليز ملك على مصر..

الإنجليز اللي نفوا سعد زغلول وأحمد فؤاد الملك موجود لأنه كان بيطالب بالاستقلال.. همه عايزين إيه؟ عايزين يروحوا للسيد الجديد هتلر علشان يحميهم زي الإنجليز ما كانت حامياهم من الشعب.. وهمه شايفين السيد الجديد غول عمال يكتسح بلاد وبلاد..

أفكار وأفكار.. وأحاديث تقال كنت أحس أنها تضيء لي ليلاً كان غاية في الظلام!!

النقابة من جديد

ولم تمر أيام كانت البلاد تصطخب بالمظاهرات.. والأحاديث لا تنقطــع عــن اقتحـــام الإنجليز للقصر الملكي بدباباتهم.. والأخبار تقول إن الملك استدعى مصطفى النحاس للقصر.. والمظاهرات كأن هتافاتها الرعد..

وكأنها أمواج من البشر تهتف للنحاس.. زعيم الأمة.. وعمت البلاد من أقــصاها إلـــى أقصاها أفراح بعودة الوفد وعودة النحاس لحكم البلاد..

والتفت خلفي فجأة على يد توضع على كتفي.. وكانت المفاجــأة.. وانفجــرت أشـــواق إنسان لإنسان فرقت بينهما الأيام أيام ما بعد الإضراب.. وتعانقنا.. كان هو مصطفى محمد.. بالوجه المربع المليان.. وتبادلنا السؤال عما صنعت بنا الأيام.. لكنك يا مصطفى كما كنت لم تنل منك الأيام.. بل يبدو أنك ازددت قوة.. وأجاب مصطفى.. نعم أنا أقوى لأننـــي مـــررت بامتحان مرير.. كان امتحانًا لنا جميعًا.. بداية نحن لم يسمع واحد منا من قبل عن إضـــراب أو عن عمال قبلنا عملوا إضرابًا.. ولو كان أحد قبلنا سبقنا كنا بدأنا من حيث انتهوا واســتفدنا من التجربة.. لكن ما حدث كان لنا بداية من الصفر.. وكانت البداية يا فكري يا خولي صغيرة ولكنها كانت أكثر من طيبة.. كان كل منا واقفًا على مكنه محافظًا عليه وكأنه يملكه.. ولكــن الشركة سامحها الله كانت تعتبرنا أغنامًا ومواشي نساق.. كان هذا ظــنهم فأرســلت الخفــر مسلحين بالعصي والكرابيج، ولكننا كما تعرف أثبتنا لها أننا بــشر.. وفرضــنا علــيهم ذلــك بشجاعتنا.. أنت الذي نطقت بكلمة الإضراب.. وقت أن كنا واقفين أمام عنبر النسيج.. كـــان ذلك.. وهو شيء لا ولن ينسى.. الساعة الواحدة بعد الظهر والعمال محتشدة أمام عنبر النسيج وبدأ الباب يفتح.. قلت وقتها "إذا كنا رجالة يجب أن نكون مثل عمال الغزل الــذين أصــبحوا يعملون ثماني ساعات في اليوم.. ولسنا أقل منهم.. وتلقفت العمـــال كلمـــة الإضـــراب هـــذه ونفذوها على الفور.. كان هذا في الماضي.. أما الآن فتعال معي نعرف ماذا نريد أن نفعله.. لقد ذهبت حكومات صدقي ومحمد محمود وعلي ماهر.. ونرجو الله ألا تعود، وجاءت حكومة الوفد التي يسمونها حكومة الشعب..

نحن نريد أن يستفيد العمال من هذه الحكومة.. ونفكر في عمل نقابة للعمال وأنا واثـــق أنك من أشد المتحمسين لهذا العمل.. فتعال معي لأعرفك بالناس المتحمسين لهـــذا العمـــل.. وصمت.. وكأنه ينتظر مني جوابًا.. قلت.. ما هو سبق لنا عمل هذه النقابـــة بقيـــادة عبـــاس حليم.. وكان العمال جميعًا متحمسين لها.. وما حدث أنت تعرفه.. كان فظيعًا.. لم يحقق شيئًا

لا من قريب ولا من بعيد.. أتعتقد أننا لو عملناها من جديد ستلاقي هذا الحماس الكبير؟ وهل سيتركوننا؟.. على كل حال فأنا معك.. ولأثبت لك أنني أكثر حماسًا.. تعالى نلتقي بالآخرين المتحمسين.. وشعرت بقبضته القوية وهو يقول كنت واثقًا منك.. ومن أنك سيكون لك دور كبير..

وسار بي إلى أن وصلنا إلى المكان وكأنه كان على موعد.. المكان كان على الشون في أول المحلة الكبيرة في حجرة في الدور الثاني يبدو أنها سكن لواحد من العمال لأنها كانت خالية.. لم يكن بها شيء سوى حصيرة مفروشة وصندوق خشبي في أحد أركانها، ويبدو أن بداخله كل ما يملكه صاحب المكان. واستقبلنا بحماس شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين، قمحي اللون أسمر العينين يشع منهما ضوء الإصرار والتحدي.. وبدا لي أنه ليس من عمال النسيج دلت على ذلك ملابسه المعلقة فوق مسامير على الحائط.. وبدأ هذا الشاب يتحدث مع مصطفى محمد عن أسماء لم يسبق لي سماعها، وفي سياق الحديث سمعته يقول له إن عمال الورش لهم دور كبير.. شأنهم شأن عمال النسيج.. وأثناء حديثهما كان ثمة أصوات وأقدام تدق الأرض تقترب.. وهم الشاب واقفًا وهو يقول: أهم وصلوا.. وانفتح الباب على مصراعيه، وكان فرج أفندي في المقدمة ومن خلفه محمد الكافوري.. وما إن لمحاني حتى كانت أصواتهما أعلى من صوتي بطريقة لا شعورية هي هي هي.. وكمان هي.. الورد كان شوك من عرق النبي فتح.. والله رجعنا تاني.. تاني يا قمر وأمسك كل منا بتلابيب الآخر وانهالت القبلات كل يقبل الآخر.. وفي شوق أمسك فرج أفندي بيدي وأجلسني بجانبه وكأنه يقول للحاضرين إنني شيء مهم.. وبعد أن هدأت ضجة اللقاء واعتدل كل في مكانه قال فرج أفندي موجهًا حديثه للحاضرين.. أيريد أحد أن يقول شيئًا، وسكت الجميع فوقف فرج أفندي وأسند ظهره للحائط ويداه خلف ظهره، وارتفع صوته موجهًا حديثه للحاضرين.

أيها الإخوة الأعزاء نحن اليوم أكثر عددًا عما كنا بالأمس وكل يوم حنزيد لأننا ندعو لقضية عادلة وهي تكوين نقابات لكل أهل البلد، أهل المحلة الكبرى.. يعني عمال المحلة الكبرى وعلى رأسهم الشركة.. والدعوة لهذه النقابة ليست جديدة.. لقد سبق أن أقمنا هذه النقابة وأعطينا ثقتنا لمن يسمى بالزعيم عباس حليم، ويبدو أن شيئًا ما قد حدث وأمكن إبعاده عن هذه النقابة.. ولوح بيده وكأنه يسأل حتى نفسه؟ لماذا تهمل نقابة المحلة بالذات بينما النقابات ما زالت موجودة في مصر في القاهرة وعباس حليم هناك وموجود على رأس هذه النقابات.. وعلى العموم يجب ألا نضيع الوقت أكثر مما ضاع ونبدأ على الفور.. وأنا أعرف أن بيننا الآن من يريد أن يعرف الأسباب التي أدت إلى عدم حضوره مرة ثانية وأنا من جانبي أحب أن أوضح أنني سوف أوافق على أي تفسير يقال المهم ألا نعمل زي العجائز الذين

يندبون على الميت، وهم يعلمون أنهم مهما ندبوا وصرخوا وولولوا فلن يعود.. وآخر خبر أحب أن أقوله للحاضرين أننا قد اتصلنا بأحد المحامين الكبار في ظننا.. اسمه عبد الحميد لطفي ليكون مستشار هذه النقابة.. وبدلاً من اجتماعاتنا في الأماكن التي ينام فيها العمال وتتسبب في عدم الراحة لهم قد أخذنا مقرًّا وسوف يعلن وتعلق على بابه يافطة يكتب عليها هنا مقر النقابة.. وبدلاً من اجتماعاتنا في الأماكن التي ينام فيها العمال وتتسبب في عدم الراحة لهم قد أخذنا مقرًّا وسوف يعلن وتعلق على بابه يافطة يكتب عليها هنا مقر النقابة.. وعلى الحاضر أن يعلن الغائب ليعرف الجميع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وانتشر الخبر كالبرق بين كل الناس بين مؤيد ومعارض.. وكان عدد كبير من المؤيدين يزداد ويزداد لفوائدها الكثيرة.. إلا أن المعارضين يعارضون لمجرد المعارضة.. فمنهم من قال نحن لا نعترض على تكوين النقابة إنما نعترض على السرعة التي يتحرك بها الداعون لها، كان يجب على الداعين لمثل هذه النقابة أن يتدارسوا الأسباب الحقيقية التي أدت إلى بعد عباس حليم عن الاستمرار.. هذه الشركة تعتبر من أكبر الشركات في مصر وفيها عمال تعد بالآلاف المؤلفة.. وعلى الباب الخارجي للشركة يافطة مكتوب عليها بالخط العريض الواضح.. بنك مصر.. ولم نعرف أحد من أصحاب هذه الشركة سوى طلعت باشا حرب.. ولم نعرف عن طلعت حرب هذا إلا من خلال التمثال النصفي الموجود في مدخل الشركة.. ويتبين لنا بوضوح أن هذه الشركة لمجموعة من أصحاب النفوذ مسيطرة على الحكام.. كل الحكام.. والأمثلة على ذلك كثيرة.. ترك الحكام الشركة تفعل بالعمال ما تشاء.. عشرات العمال تموت يوميًّا بين المكن ولا من مجيب.. قانون إصابة العمل الذي أقرته حكومة الوفد سنة ١٩٣٦ لم ينفذ حتى هذه اللحظة.. مرض السل منتشر بسبب قلة التغذية.. وأخيرًا تدخلت الحكومة في الإضراب الذي قام به عمال النسيج للمطالبة بثماني ساعات عمل.. فقبضت على العشرات من العمال وأودعتهم السجون.. لكل ذلك نرى أن الحكومة أي حكومة وراء منع عباس حليم من أن يكون على رأس أي نقابة تنشأ هنا في المحلة الكبرى.. وسوف تكون مانعة لإنشاء أي نقابة ينشئها العمال.. هل تدارس القائمون على تأسيس هذه النقابة هذه الثغرات وما هو العمل لو تدخلت الحكومة لمنع هذه النقابة من أن تقام ونحن نعرف أن القائمين بهذه النقابة يقولون إن عباس حليم ما زال موجودًا على رأس النقابات في مصر.. فنحن نقول لهم إذا كان عباس حليم ما زال موجودًا على رأس هذه النقابات.. فكلها نقابات صغيرة لا تمثل خطرًا على الحكومة مثلما تمثل نقابة عمال هذه الشركة التي بداخلها عشرات الآلاف المؤلفة.. فهل أعددنا العدة لكي نقاوم الحكومة إذا ما وافقت مع الشركة لمنع هذه

النقابة من أن تقام.. وعلى كل حال نحن قلنا رأينا لكي نكون سويًّا على بينة فيما سوف تخبئه لنا الأيام.. وإذا كانت الأغلبية تريد ذلك.. وبعد هذا الوضوح فنحن لن نقف عقبة في مواجهة هذا التيار الجارف الذي يعمل من أجل أن تقام مثل هذه النقابة..

هذه الأفكار أخذت في الحسبان وبدأ الكل يعمل بإخلاص داخل العنابر وفي كل قسم من الأقسام وفي خارج الشركة بين عمال النسيج اليدوي وعمال الورش من حدادة ونجارة وحتى بين عمال المخابز.. عمل ليل نهار، ودعاية واسعة النطاق.. وجاءت الأخبار عن المقر الجديد للنقابة في شارع سوق الطباخين المتفرع من شارع البهلوان.. وانتشر خبر المقر في كل مكان، وتدفقت العمال وملأت الشوارع والكل متجه نحو المقر هناك.. وأيادي تلوح وأيادي ترتفع إلى السماء فرحة مستبشرة باليوم المنتظر. والمقر كان ملآن على آخره، وهتافات تعلو إلى السماء: "تحيا نقابة العمال".. وفي الحوش الداخلي للنقابة كان فرج أفندي واقفًا على كرسي بحيث يراه كل الناس وهو يصيح، نحن كنا على ثقة بأن الجميع سوف يستجيب للنداء.. ومصطفى محمد ومحمد الكافوري واقفان يحييان كل الناس.. وفي نشوة الأفراح إذا برجل متوسط الحجم طويل القامة له بشرة سمراء قاتمة اللون وعلى رأسه طربوش أحمر فاتح، يشق طريقه بصعوبة من بين الجموع المحتشدة، وعندما لمحه مصطفى محمد ارتفع صوته حتى خيل إلي أنه وصل إلى عنان السماء.. يحيا عبد الحميد لطفي المحامي.. يحيا مستشار النقابة.. ورددت الجموع بأصوات عالية تحيا وحدة العمال.. العمال قوة لا تقهر.. يسقط الظلم في كل مكان..

لم يتكلم عبد الحميد لطفي في شيء سوى أنه وقف وقفة الإنسان الشامخ المليان الشبعان.. في الوقت نفسه وقف ليقدم للعمال نفسه في صوت هادئ رزين قوي النبرات.. أنا عبد الحميد لطفي المحامي جئت لكم بدعوة من زملاء لكم وبكم ومعكم سنسير معًا على الطريق.. وسيقتصر دوري على شيء واحد وهو أن تعرفوا ما لكم وما عليكم.. ما لكم أنكم جزء من هذه الأمة.. فلكم أن تعيشوا عيشة الرجال لا عيشة الحيوان.. وبما أنكم تعطون فلكم أن تأخذوا مقابل ما أعطيتموه.. ولا تثقوا كثيرًا في الوعود فكم من وعود كثيرة قدمت على امتداد دورات مجالس النواب منذ أن عرفناه، وعلى لسان كل رئيس للحكومة يأتي بعد كل انتخاب، ولكنها تنتهي بعد خروجه من باب البرلمان.. لقد حطم الاستعمار الإنجليزي الصناعة التي بدأها محمد علي، ولم يبق منها إلا صناعة بعض الحرف التي تصنع يدويًّا، والتي نشأت منها النقابات الموجودة.. والنقابات دخلت على منعطف جديد بعد بداية النهضة الصناعية ودخول المكن في عملية الإنتاج.

وبعد ثورة ١٩١٩ التي أخذت من عمر مصر سنين سمحوا لنا بإنشاء بعض الصناعات ومنها مصانع النسيج.. وكان من المفروض على الحكومة أن تسن القوانين اللازمة لحماية العمال من أمراض المهن وإصابات العمل، ولتحديد ساعات العمل عند بدء إنشاء هذه الصناعات.. وبدلاً من أن تفعل الحكومة ذلك تركت الباب وعلى مصراعيه مفتوحًا لأصحاب تلك المصانع لينهشوا في الأجساد كما يحلو لهم.. وارتفعت يداه إلى أعلى وهو يقول.. وعليه فعليكم أنتم مسئولية الدفاع عن أنفسكم بتنظيم أنفسكم داخل نقابة ترعى شئونكم وتطالب الحكام بالإسراع في سن القوانين التي تجعل منكم مواطنين لا رعايا..

قال ذلك وجلس وطلب فرج أفندي بإنهاء الاجتماع، ولم تمر لحظات حتى كان المقر من كافة الطرق محاصرًا بالقوات من ضباط وعساكر تقتحم المقر وتحاول أن تقبض على العمال.. وتصدى لهم المحامي المستشار قائلاً لهم بأي حق تقتحمون هذا المكان؟ هذا المكان له قدسيته ولا يقتحم إلا بأمر من النيابة.. وما إن سمعت العمال ذلك من المستشار حتى انفجرت الأصوات عالية "يسقط الظلم" "عاشت نقابة العمال".. هتافات من كل مكان "حزينة يا مصر على عمالك".. وتوالت الهتافات "حزينة يا مصر على عمالك".. ولم يعد من هتاف آخر سوى هذا الهتاف وكأنه صرخة من قلب مليان بالمرارة.. "حزينة يا مصر على عمالك".. "لن نخرج إلا على الأشلاء" ووقف أحد الضباط ليهدئ من هذا الهول قائلاً نحن لم نأت لنقبض على أحد.. جئنا لنحافظ على الأمن، ولنعرف لماذا هذا الاجتماع.. وها نحن قد عرفنا من مستشار نقابتكم أنه بغرض إنشاء نقابة.. وقد طلبنا منه أن يتفضل في أي وقت يشاء عند السيد المأمور ليتبين ما إذا كان لكم الحق أم لا؟ واخرجوا في أمان ولن يتعرض لكم أحد.

وصاحت العمال من جديد وهي تتجه نحو الباب الخارجي: "مواطنون لا رعايا.. مواطنون لا رعايا".

وتوالت الأحداث وتباعدت، وفي ذات يوم وإذا بي أجد نفسي في أحد شوارع المحلة وجهًا لوجه مع عبد العظيم شيحة الذي أشرف على تعليمي مهنة النسيج وهو يسير مع مجموعة من العمال.. ولم يكن يبدو عليه الاهتمام بما يجري من حوله.. هكذا تقول الابتسامة العريضة على وجهه.

ولم نكن التقينا منذ انتهاء الإضراب فبادرني قائلاً.. في أي قسم من أقسام النسيج الآن.. وأجبته.. نسيج واحد صالة اتنين.. فأضاف.. أما أنا قد ذهبوا بي إلى نسيج واحد.. صالة خمسة.. والظاهر انهم كانوا على علم بدورنا في الإضراب.. ولولا ستر الله لكنت أنا وانت الآن مشرفين في السجن.. أعماهم ربنا عنا.. ويعود ويسألني وانت عامل إيه دلوقتي يا أسطى فكري طبعًا انت دلوقتي أسطى من النساجين المهرة أصبحت الآن بتعلم.. وأجبته

قائلاً الفضل كل الفضل راجع إليك يا معلم عبد العظيم.. وسألته.. وانت فين دلوقت يا عبد العظيم من الأحداث التي تجري الآن فأجاب أي أحداث تقصد.. النقابة مثلاً؟؟ قلت نعم هي النقابة.. مش كانت إحدى الآمال التي كنا نحلم بها، وهاهي الآن توشك أن تتحقق فأين أنت منها؟.. فاحتقن وجهه وتلفت لي بعينين تخفيان وراءهما أشياء لم يفصح عنها إلا أنه قال.. كل وقت وله أدان.. ما حدث في الماضي شيء وما يحدث الآن شيء آخر.. في الماضي لم نكن نعرف الكثير، لم نكن نعرف للمكن صاحبًا، والآن وبعد الإضراب عرفنا الكثير.. عرفنا أنه له أنيابًا أدخلت أصدقاء لنا السجون.. اتضح أن له أصحابًا تتكلم في الحكومة اللي قبضت على الناس ولم تسأل عن الأسباب التي أدت إلى الإضراب أليس في ذلك ما يدعو إلى التفكير؟ واتسعت عيناه وهو يحملق في وجهي ويقول.. "وعلى العموم أنا فكرت في كل ما جرى وحمدت الله أنني لم أكن من الذين سيقوا إلى السجن.. في السجن مظاليم.. فكرت يا أسطى فكري ألا يكون لي دعوة بما سوف يجري، فما قمت به ضد أهل المحلة عندما أرادوا طردنا من هذه البلدة وما قمت به أثناء الإضراب كان يمكن أن يقضيا عليَّ بالموت أو بالسجن.. وأعتقد لحد كدة كفاية وعلى غيري أن يكمل.. فالطريق يبدو عليه طويل وطويل وليس له نهاية.. البداية كما رأينا هنا فظيعة فظيعة ويعلم الله وحده ماذا تكون النهاية.. وعلى العموم يجب أن تعلم أنني لا أدعو أن تأخذوا بموقفي فلكل إنسان طاقته.. أنا لي أم لا تملك شيئًا على الإطلاق سوى عملي وأنا العائل الوحيد.. لولاها كنت قد فعلت الكثير والكثير جدًّا ولكن هذا قدري.. أفهمت.. أفهمت السبب؟ وعلى العموم فلن أكون بعيدًا كل البعد.. إنني سأدفع الاشتراك للنقابة إذا ما قدر لها أن تقوم شأني شأن كل الناس.. ولا إيه رأيك يا أسطى فكري.. قلت له.. أنت تخاطبني بالأسطى فكري.. إيه الحكاية.. قال حكاية إيه.. كلمة الأسطى لا تقال إلا للعامل الماهر وأنت أصبحت من العمال المهرة.. قلت له أمّال انت تبقى إيه وانت الذي أشرفت على تعليمي، تبقى على كدة "معلم" وأنا لا أناديك أنا الآخر إلا بالمعلم عبد العظيم.. قال دعك من كل هذا.. وأريد سماع رأيك لأنني بالفعل أحترمك.. قلت له يا معلم عبد العظيم.. أنا أختلف معك وأنا الذي كنت دائمًا أهتدي بأفكارك.. كنت لي قدوة ولا أنسى أنك الذي أزحت عني الخوف من المكن وقت أن كنت أهابه في بداية تعليمي.. أنت الذي قلت إنه عبارة عن حديد نسيطر عليه قبل أن يسيطر علينا.. أتذكر ذلك يا معلم عبد العظيم؟؟ وأنا لم أتخيل ولا كنت أتخيل أن الذي أزاح عنا الخوف يخاف هو اليوم.. ولولا وجود أمك لفعلت الكثير والكثير جدًّا.. مَن من العمال الموجودة هنا يا معلم عبد العظيم يملك شيئًا.. الناس على الله وكل منا وراه أسرة.. أنا مثلاً تزوجت ومعي الآن ولد وبنت علاوة على أمي ولا نملك شيئًا على الإطلاق.. لو كل واحد قال اللي بتقوله يا معلم عبد العظيم يبقى نقول على الدنيا السلام.. وهذا باختصار ردي وما سمعته منك الآن شيء يخيف.. ألم تر أن

ما تقوله الآن دعوة للسكوت، والسكوت معناه الرضاء بالأمر الواقع يعني نرضى بما نحن فيه واللي احنا فيه ما يرضاش به كافر. قلت ذلك بانفعال شديد وأطبقت على يده بقوة ودفعته نحوي والدموع تترجرج في عيني ولم أعرف كيف حدث ذلك.. نظر إليّ نظرة وانفتحت عيناه واتسعت حتى الآخر وغاب في الصمت وكأنه عاش مع كل الماضي.. وفي الصمت أسبلت عيناه وعاد وفتحهما وهو ينظر إلي نظرة توسمت فيها الأمل، إذ قال وهو باسم.. إذا عشت مع مهزوم ومشيت معه تنهزم.. لازم تنهزم.. وإذا عشت مع من يحمل أملاً تزداد أملاً وسلم على وهو يقول: شكرًا لمن أعاد إليّ الأمل.

وكان رد الفعل لاقتحام العساكر والضباط لمقر النقابة صداه بين كل الناس.. والأحاديث لا تنقطع.. كل يقول للآخر.. مال الحكومة ومال العمال.. عمال بتعمل نقابة إيه دخل الحكومة في الموضوع.. الحكومة لكل الشعب.. فيه نقابات موجودة إشمعنا يعني لما بدأنا احنا نعمل نقابة؟! هو احنا لقمة في زورها! ومش قادرة تبلعها.. حكومة إيه وزفت إيه.. كنا بنقول الحكومة ويانا جت علينا.. وآخر يقول انتوا عرفين الحكومة وقفت ضد إنشاء النقابة هنا ليه؟ علشان كل وقت وله أدان.. الحكومات زمان لما سمحت للعمال بإنشاء نقابات لأنهم ما كانوش عمال بالمعنى اللي احنا فهمينه.. زمان مكنش فيه صناعات كبيرة زي دلوقت.. كانت ورش صغيرة. ورشة بتشتغل صفيح وورشة بتشتغل حديد وورشة لحام وورشة نحاس، وبين كل ورشة وورشة ساعة زمان مكنوش يهموا الحكومة، وعلشان كدة قالوا لهم اعملوا نقابات.. لأن دول ماكنوش يقدروا يعملوا حاجة. لكن دلوقت الحكومة تخاف وتترعب لأن الشركة فيها آلاف مؤلفة من العمال لو أضفنا إليهم عمال أهل البلد لو قدر الله لهذه النقابة أن تقوم واعتدي على أحد من عمال الشركة أو أحد من عمال المهن ماذا يكون موقف النقابة؟ طبعًا الدفاع عنهم بكل الوسائل وإن لم يستجب صاحب المهنة لما تقوله النقابة فالحل الأخير طبعًا هو الإضراب العام.. والإضراب العام معناه شل حركة البلد يعني لا مخبز يطلع عيش ولا مكنة نسيج تطلع متر قماش.. هذا هو بالضبط ما تخشاه الحكومة الآن من قيام مثل هذه النقابة.. فهمتم موقف الحكومة؟ ولماذا تقف لنا بالمرصاد؟ الموضوع ليس كما يتصوره البعض وعلى كل دي معركة لازم نخوضها.

وبينما الأحاديث تتداول كانت أخبار أخرى تتداول تشابه ما نحن فيه.. أخبار تقول إن عمال شبرا الخيمة الموجودين في مصر قد أقاموا نقابة مثل التي أقمناها.. إلا أن الحكومة قامت وأغلقتها.. لكن عددًا من العمال عسكر أمام النقابة، وافترشوا الأرض وأعلنوا الإضراب عن الطعام واستمر أيامًا.. ولما لم تستجب الحكومة تجمهرت كل عمال المصانع وحملوا المضربين عن الطعام على الأكتاف، وساروا بهم في شوارع القاهرة وساروا يهتفون مثلما كنا

نهتف "حزينة يا مصر على عمالك".. وكان لهذا الهتاف الحزين صدى عند أفراد الشعب فانضموا مع العمال المضربين والمتظاهرين في الوقت نفسه، وهم يهتفون "حزينة يا مصر على عمالك" وانضم إليهم آخرون وآخرون حتى أصبحت أعدادًا هائلة بحيث أصبحت الأجساد متلاصقة بعضها ببعض والهتاف بنفس الشعار يشق عنان السماء "حزينة يا مصر على عمالك"، ولم تستطع عساكر الحكومة رغم كثرة عددها وقف هذا الزحف الهائل.. سيل لا يحصى ولا يعد من البشر كان غير قادر على التعبير.. الكل يهتف بالعمال وبحياة المضربين عن الطعام.. افتحوا النقابة للعمال.. واستمرت المظاهرات على طول امتداد الشوارع المتجهة حتى وصلت إلى المقر الرئيسي لمصطفى النحاس ولم تتفرق المظاهرات إلا على وعد من مصطفى النحاس رئيس الحكومة بوضع تشريع رسمي يحقق للعمال إنشاء النقابات للدفاع عن مصالحهم.. إشاعات هنا وهناك وأفكار تقول إن النحاس لا ينكث بوعد أعلن أمام كل الناس.. وتمر الأيام ويتحقق ما سمعناه.. وتنشر كل الجرائد في الصفحات الأولى والمانشتات العريضة أن عبد الحميد عبد الحق وزير الشئون الاجتماعية يتقدم نيابة عن حكومة الوفد إلى السادة أعضاء مجلس النواب بمشروع قانون يبيح للعمال إنشاء نقابات للدفاع عن حقوقهم، ويحق وفقًا لهذا القانون لكل خمسين عاملاً في مهنة واحدة أن ينشئوا فيما بينهم نقابة ترعى مصالحهم.. ولم تمر أيام إلا وكانت كل الجرائد بالمانشتات العريضة الواسعة تقول: "مجلس الشيوخ يعترض على القانون".. ويتولى المعارضة صدقي باشا قائلاً لن نسمح لهذا القانون أن يمر إلا إذا سمحت الحكومة لأصحاب الصناعات أن يقيموا لهم اتحادًا يرعى مصالحهم.. وحكومة الوفد تقبل هذا الاعتراض وتوافق على إنشاء اتحاد لأصحاب المصانع يسمى اتحاد الصناعات.

وما إن سمع العمال وتأكدوا من صحة هذه الأخبار المنشورة في الجرائد المسموعة أيضًا في الراديو حتى توجهوا إلى مقر النقابة ليزدادوا يقيناً.. ولم يكن أحد ليصدق نفسه.. عمال من كل المهن جاءوا ولم ينفضوا عن كواهلهم غبار العمل الذي يعملون فيه.. وكأن كل منهم أراد أن يجعل مما عليه من غبار علامة مميزة عن الآخرين لكي لا يتوه، وأن تتعارف عمال كل مهنة على زملائهم من عمال المهن الأخرى وسط أمواج من البشر.. عمال المخابز ترى ملابسهم ووجوههم ورموش أعينهم وعليها دقيق مما كانوا يخبزونه.. وعمال الحدادة ترى وجوههم وملابسهم كلها سواد في سواد، وعمال الغزل والبرم والتنظيف والكرد ترى رموش أعينهم وشعورهم عالق بها غبار القطن.. وعمال بقباقيب وعمال لابسين أحذية وعمال لابسين مراكيب وآخرين حفاة.. وآخرين لابسين براطيش.. وعمال تعبانة وعمال فرحانة وآخرين في حيرة.. والمقر لا يهدأ.. ناس تدفع ناسًا وأعداد مهولة في كل لحظة تزيد وتزيد..

وكان صوت مصطفى محمد مصطفى عاليًا أعلى من صـــوت الحاضـــرين وهـــو يعلـــن أن مستشار النقابة سيوضح لكم كل جديد.

وصدر قانون النقابات

وخرج مستشار النقابة على الحاضرين قائلاً: "جميعكم جئتم تسألون ما العمل؟.. في البداية كنا نعتزم إنشاء نقابة لكل صناع الحياة هنا في المحلة.. ولكن الظروف قد تغيرت بعد أن أعلنت الحكومة عن مشروعها الجديد المقدم لمجلس النواب وأقره مجلس الشيوخ.. القانون الجديد يبيح لكل عمال مهنة يزيد عددهم عن خمسين عاملاً أن ينشئوا فيما بينهم نقابة ترعى مصالحهم.. وعليه فعلى عمال المخابز أن يعملوا فيما بينهم نقابة مستقلة وكذا عمال النسيج اليدوي.. وكذا عمال حلاجة القطن.. وهكذا.. ولعمال الشركة وجميع عمال شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى أن يعملوا فيما بينهم نقابة تجمع شملهم.. لا تضيعوا الوقت والقانون أصبح نافذ المفعول..

وما إن سمع العمال هذا الحديث حتى بدأ الوجوم على كل الوجوه، وكل ينظر إلى وجه الآخر دون كلام.. كان الكل يريد نقابة واحدة.. نقابة عمال عامة لكل الناس.. القوي يحمي الضعيف، والعمال الكثيرة تحمي العمال القليلة العدد.. ما حدث في البداية جعل ألفة بين الجميع، الماضي كان أفضل من الحاضر.. كنا نعتقد أن الحاضر سوف يكون أفضل من الماضي وبدا أن المستقبل سيكون أكثر لعنة من الماضي والحاضر!! ياللعجب.. كيف يسمح لأصحاب كل المصانع والشركات والورش بعمل اتحاد يضمهم ويشملهم جميعًا، والعمال يبقون مفتتين.. كل نقابة تعمل منفردة. إلا أن صوت المستشار علا وارتفع من جديد ليقول.. ونحن مستعدون للإسهام معكم في التحضير لإقامة هذه النقابات.. وقد دعا فرج أفندي عمال الشركة إلى عقد الجمعية العمومية لانتخاب مجلس إدارة النقابة ويجب أن تكون الدعوة شاملة لكافة أقسام الشركة وعلى كل من يرى في نفسه الكفاءة أن يتقدم بنفسه للترشيح لعضوية المجلس.

وكان يومًا ولا كل الأيام.. ناس رايحة وناس جاية وناس بتأيد ناس ونوس بتوزع لست بالأسماء.. وناس واقفة مع ناس وناس بتهتف بأسماء ناس، وناس بتحمل ناس وبتهتف بأسماء ناس.. وفرج أفندي محمد والكافوري ومصطفى محمد مصطفى على أكتاف ناس.. وعساكر وضباط واقفة لكن بتقرش على الأنياب.. وعمال في صفوف بعضها وراء بعض لتنتخب ما تراه من ناس.. وناس بتغني بأسماء ناس وينتهي الاجتماع في سلام ويخرج المحامي مستشار النقابة ليعلن على الملأ ما استقر عليه الناس بالإجماع وكان فرج أفندي ومحمد الكافوري ومصطفى محمد مصطفى ممن أجمعت عليهم كل الناس.

وقيل لكل الناس على لسان المستشار للنقابة بأن الأوراق خالصة بما أسفر عنه هذا الاجتماع من أسماء الذين سجلت أسماؤهم بالحضور للجمعية العمومية ومن وافقت عليهم العمال ليكونوا أعضاء لمجلس إدارة النقابة.. كل هذه الأوراق سوف تكون غدًا في مقر إدارة النقابات في مصر وحسب القانون الذي يقول بأن النقابة التي تودع أوراقها في إدارة النقابات إذا لم يصلها اعتراض في فترة شهر من تاريخ إيداع أوراقها تصبح في حكم القانون مسجلة ولها أن تباشر أعمالها..

وما إن سمع العمال المختارون ما قاله المستشار حتى علت هتافاتهم مدوية بحياة العمال والنقابة والمستشار وكل من ساهم وساعد في وضع حجر الأساس لهذه النقابة والنقابات الأخرى.

ومرت الأيام وكل يوم كان يمر وكأنه دهر من الزمان.. ليس أصعب على الإنسان من أن ينتظر وخاصة إذا كان هذا الانتظار يتوقف عليه المستقبل، ومر الشهر بطول الشهور بل السنين وأخيرًا جاءت الأخبار من مصر بأنه تم تسجيل نقابات منها نقابة عمال المخابز ونقابة المحالج ونقابة النسيج اليدوي.. وعلى مجالس هذه النقابات الثلاثة أن تباشر أعمالها كما تريد.. وتساؤلات ترددت لم يأتنا خبر بالموافقة.. فإن أوراقنا ذهبت مع الأوراق.. تساؤلات ولا أحد قادر على أن يجيب ويريح الناس.. وناس بتقول يا ليل وناس بتقول يا نهار، وجاء الخبر مفاجئًا لكل الناس.. الخبر يقول عن خطاب مختوم بعلم الوصول بتوقف نشاط نقابتكم إلى أجل غير مسمى إلى أن ننتهي من إعداد اللائحة المنفذة للقانون والتوقيع.. إدارة النقابات.. سيف أبو سيف راضي المدير العام.

وما إن شاع خبر الشؤم حتى أخذ الكل يتجه نحو النقابة وكان السؤال الحاسم. ما العمل؟ لائحة إيه اللي بيقولوا عليها.. والنقابات التي أودعت أوراقها معنا تسجلت، وجاء فرج أفندي وعيناه تذرفان الدموع وهو لا يصدق ما حدث.. يبكي وليس ينفع البكاء.. أليس هو الذي قال ذلك ذات يوم.. ماذا يقول الناس وهو واحد ممن شاركوا في إحياء فكرة النقابة.. ماذا يقول وهو الذي أحيا الأمل في الناس.. أيقول ضعنا وعلينا السلام.. ولماذا هذه النقابة.. ولمن تتجه؟ والقانون صريح ويقول إن اعتراض إدارة النقابات ليس نهائيًّا وعلى النقابة المعترض عليها أن ترفع الأمر إلى القضاء ويكون حكم القضاء نهائيًّا، لم يا فرج لم تعلن ذلك؟ ورفع فرج أفندي يده اليمنى بعد أن مسح بها عينيه الدامعتين قائلاً: لا للدموع سنرفع الأمر للقضاء، وبصفة عاجلة لكي لا يقال عنا إننا رفعنا راية الاستسلام..

ولم يمر يوم واحد على ما سمعناه حتى كانت المفاجأة في ساعة الغذاء منشور معلق على جدران الشركة من داخل الأبواب يقول: إن الشركة حرصًا منها على مصالح العمال

وحقوقهم قد قررت إنشاء نقابة من داخل الشركة وعلى من يرى في نفسه الكفاءة أن يرشح نفسه لعضوية مجلس النقابة.. وسوف يشرف على الانتخابات كل مفتشي ورؤساء إدارة النقابات بالقاهرة، وتلاحقت الأخبار وكأنهم أرادوا أن يشلوا عقول الناس عن التفكير.. خبر يقول، بناء على رغبة إدارة الشركة بإنشاء نقابة ترعى مصالح العمال استجابت الإدارة العامة لمكاتب العمل بإرسال موظفيها إلى الشركة للإشراف على عملية الانتخابات والتوقيع المدير العام راضي أبو سيف راضي.

وما أن قرأ العمال هذه الإعلانات المتعاقبة حتى وقفوا في ذهول والصمت قد خيم على وجوه المحتشدين في المكان.. وعلا صوت في تهكم واضح من المحتشدين هاء هاء هاء هاء.. وأعقبته أصوات أخرى من المحتشدين متهكمة وبسخرية هاء هاء هاء. الناس اتجننت؟ ورد آخر. لهم حق يتجننوا؟ اللي حصل يجنن. الشركة تعمل نقابة ليه؟ وإدارة النقابات تقر ذلك ومديرها العام يقر ذلك أمال النقابة اللي احنا عملناها راحت فين؟ إيه وجه الاعتراض. قالوا إن اللائحة التنفيذية لم تصدر وإذا كان كلامهم صحيح أمال إيه حكاية النقابة اللي الشركة حتعملها.. فين اللايحة؟ اللايحة بس للنقابة اللي عملتها العمال؟ المؤامرة على العمال واضحة.. ورد آخر، يبدو أن التاريخ يعيد نفسه، ومن حكومة الوفد التي سبق أن فعلت ذلك من سنين بعد أن تولت الحكم بعد ثورة ١٩١٩.. عندما رأت في العمال قوة منظمة في الاتحاد العام، أقدمت على حله والقبض على زعمائه.. الخوف من العمال واضح.. ومن يدري؟ الشركة تعمل نقابة ومن داخل الشركة والحكومة طبعًا توافق واحنا لسة في البداية.. أمال قدام حيعملوا في العمال إيه؟ إذا كانت البداية مهببة على كدة ممكن القبض على أعضاء النقابة الخارجية إذا ما بدا منهم أي مقاومة لنقابة الشركة، وآخر يقول هو العدل راح فين.

وآخر يقول عدل إيه وبتاع إيه وهو بعد اللي احنا شايفينه راح يبقى فيه عدل؟ نقابة حتعملها الشركة.. والحكومة هي اللي رايحة تشرف على الانتخابات.. حيكون إيه؟.. انتخابات أي كلام زي الانتخابات اللي كان بيعملها صدقي، اللي مهش موافق على اللي عايزاه الحكومة يعلموا في ضهره بالطباشير ويا ويل ويله على الضرب اللي راح ياخده.. وفي النهاية رغم اعتراض كل الناس حتكون النتيجة نجاح مية في المية.. مش ده اللي احنا شفناه في الماضي وبالتأكيد راح نشوفه في هذه النقابة ما دامت الحكومة معهم.. وآخر يقول مفيش حق يموت ووراه مطالب.. إحنا أصحاب حق وكلنا أمام القانون سواء والقضاء هو الفيصل بيننا وبينهم، لما نشوف النقابة حتعمل إيه.. وبينما الكل يتحدثون فيما يجب عمله كانت أخبار أخرى تنشر في الجرائد: "مكرم عبيد باشا يخرج على الوفد ويشكل حزبًا سماه حزت الكتلة الوفدية.. مكرم عبيد يخرج الكتاب الأسود عن سرقات حزب الوفد.. أخبار كلها لا تنبئ إلا عن سواد..".

وأخبار أخرى تتلاحق.. النحاس باشا مصاب بوعكة مفاجئة والأطبـاء يمنعونـه مـن الذهاب إلى الوزارة.. ومنشتات الجرائد تخرج عن بكرة أبيها تدعو لـه بالـشفاء العاجـل.. المظاهرات تمتد لكل مدن مصر ولكنها تهتف للنحاس.. وناس بتكلم ناس.. النحاس باشا مـن أمكر خلق الله، قال عيان.. عملها ونفعت.. وخلى الشعب هوه اللي رد على الملك ومكـرم.. وبينما الكل ينشغل بما تعانيه مصر من نكبات وانقسامات، كانت انتخابات النقابة التي فرضتها الشركة قد انتهت هي الأخرى، وأصبح أعضاء المجلس كلهم من الرؤساء.. لا من العمال.

وفي اليوم الثاني كانت الأخبار في كل الجرائد.. أعضاء مجلس إدارة النقابة المنتخـب لشركة مصر بالمحلة الكبرى يلتقون بعبد الحميد عبد الحق وزير الشئون الاجتماعية ليهنـئهم بفوزهم.. وصورة الوزير تتوسط صورة الواحد وعشرين.. وبائعو الجرائد المنتـشرون فـي الشوارع المؤدية إلى الشركة ينادون بأصوات عالية.. وزير الشئون مع الفائزين أعضاء نقابة الشركة.. كانوا ينادون وكأنهم يقولون للعمال.. موتوا بغيظكم.. المية متطلعشي في العـالي.. وكان رد الفعل عنيفاً وسط كل الناس، واجتماعات هنا وهناك في كل قسم من أقـسام العمـل وفي ورديات الليل والنهار وكلام كتير يقال.. لا يمكن أن نسمح بنقابة مفروضة على العمال.. ويجب أن نرد على هذه المهازل بالأعمال.. ويجب أن تعرف الحكومة والشركة بأن النقابـة التي فرضوها ليس لها جذور في قلوب الناس، ولا نقابة إلا النقابة التي انتخبها العمال.. وكما رد الشعب على الملك والانقسام الذي أحدثه في صفوف الوفد مكرم عبيد فالعمال يجب أن ترد على الشركة وعلى الحكومة وعلى وزير الشئون الاجتماعية الذي اسـتقبل عمـلاء الـشركة والحكومة على غير رغبة العمال. هذا هو الرد الذي يجب أن يكون.. مظاهرات تطوف فـي شوارع المحلة تهتف: لا نقابة إلا نقابة العمال الخارجية.. ولكي يتم ذلك على أحـسن وجـه يجب أن نذهب إلى النقابة لكي يكون التفاهم جماعيًا.. وفي النقابة كان الغـضب علـى كـل الوجوه واضحًا، ووقف أحد الحاضرين قائلاً.. لكي ننجح يجب تأليف لجنة مـن المتطـوعين ترتب للمظاهرة وتحدد اليوم والساعة.. وما إن انتهى المتكلم حتى كـان عـدد المتطـوعين بالعشرات.. وبدأت اللجنة عملها.. يلزمنا أكثر من رزمة ورق وأقلام وأكثر من دواية حبـر أسود وأحمر وأزرق لكتابة منشورات.. للدعاية ضد نقابة الشركة.. منشورات توزع على كل بيت في المحلة الكبرى، وفي كل قسم وصالة في الشركة .. دعة لنقابة العمال الخارجية وضد نقابة الشركة... وقد نظم المتطوعون العمال في لجان.. لجنـة مـسئولة عـن لـصق هـذه المنشورات داخل أقسام العمال وفي العنابر.. وقسمت البلد على هذه اللجان بحيث يكون لصق هذه المنشورات في وقت واحد، وقد استمرت هذه اللجان بالليل والنهار، ولم يكن لها شـاغل سوى الدعاية الواسعة ضد نقابة الشركة. وفي اليوم الذي تحدد فيه القيام بالمظاهرة انقطعـت

مجموعة من هذه اللجان عن العمل في وردية المساء لإعداد أعلام وصور الزعماء سعد زغلول ومصطفى النحاس وأحمد عرابي ومحمد فريد للفت نظر الناس للانضمام لهذه المظاهرة.. كما كلفت بكتابة يفط ضخمة بحياة نقابة العمال الخارجية ويفط أخرى بسقوط نقابة الشركة.. والانتظار بهذه اليفط والأعلام والصور أمام باب الشركة في السادسة والنصف صباحًا بحيث تشمل المظاهرة عمال وردية النهار وعمال الليل الخارجين.. ولم يعرف عمال الليل إلا في النصف الأخير من الليل لكي لا تتسرب أخبار هذه المظاهرة إلى الشركة أو إلى الحكومة.. وجاء حاملو الأعلام واليفط في الموعد المحدد السادسة والنصف صباحًا وقد أخفوا ما كانوا يخبئون ورفعوها علنًا.. وما إن رأى عمال النهار ذلك حتى كانت هتافاتهم تشق عنان السماء، واستمر الهتاف أمام باب الشركة إلى أن خرج عمال وردية الليل، وانضم عمال النهار مع عمال الليل وأصبحوا آلافًا مؤلفة.. وناس تحمل ناسًا على الأكتاف وهتاف بسقوط نقابة الشركة.. ولا نقابة إلا نقابة العمال الخارجية ولا ظلم بعد اليوم.. كفى ظلمًا يا حكام يحيا العدل ولو فيها رفد.. وكلما تقدمت المظاهرة انضم إليها آخرون.. عمال المخابز تخرج وتحمل العيش مرفوعًا وعمال من النسيج اليدوي تنضم للمظاهرة وتحمل في يدها مقاطع من القماش الذي تعمل فيه.. كما خرج عمال محالج الأقطان.. وكلها رموز تضامن مع أصحاب الحق الشرعيين في تأسيس نقابتهم.. ونساء تزغرد على أسطح المنازل، وأخريات تهتف بحياة العدل.. وطافت المظاهرات في شوارع المحلة حتى وصلنا إلى النقابة. ومن على بابها انصرفت المظاهرة في هدوء وكل الناس فرحة بما حدث وفي داخل النقابة كان فرج أفندي ومحمد الكافوري ومصطفى محمد منهمكين في كتابة أوراق كانت أمامهم وعندما رآني مصطفى نظر إلي في انبهار وهو يردد أن ما حدث كان عظيمًا فلم نكن نصدق أنه سوف يحدث.. وخطا خطوات مني وقال لي.. لم نشترك معكم في هذه المظاهرة خوفًا من أن يقال أن أعضاء مجلس الإدارة هم المحضرون، ويستطرد قائلاً ومن الإنصاف أن نعترف أن ظهور عمال مثلكم وبهذه الجرأة يجعلنا نثق بأن الراية سوف تستمر مرفوعة طالما أن مصر ولادة.. وقام فرج أفندي من مكانه وعلا صوته قائلاً.. وأنا الآخر أستطيع القول إن ما قامت به هذه المجموعة من العمال قد فاق ما قمنا به في سنين وعليهم سوف يتوقف مصير أكثر من عشرين ألف عامل.. الأمل أصبح معقودًا على هذه اللجنة.. هذه اللجنة قد أزاحت مجلس الإدارة إلى المؤخرة وتقدمت هي.. وهذا شيء يفرح كل مهتم بحركة العمال.. وهتف.. يا عمال مصر اتحدوا.. يا عمال العالم اتحدوا.. وبينما كان فرج أفندي يتكلم كانت مجموعة من العمال تدخل ومعها جرنال من الجرائد المسائية وهي تهلل من الفرح.. أخبار المظاهرة وصلت مصر.. مش كنا دايمًا نقول اللي تحبل في المحلة يعرفوا عنها في مصر.. أهي أخبارنا وصلت مصر.. الخبر بيقول.. زهير صبري عضو الكتلة الوفدية يتقدم بسؤال لمجلس

النواب عن موقف الحكومة من انتهاك القانون وتسمح بإنشاء نقابة تشرف عليها برغم من أن هناك نقابة قائمة وأوراقها مودعة في إدارة النقابات.. بعد أن أدرج الاستجوابات تقرر أن يرد عليه في الجلسة القادمة.

وبعد أن قرأ فرج أفندي ما كان منشورًا صاح بأعلى صوته.. موضوعنا كله سيناقش في مجلس النواب، وكان لهذا الخبر دوي واسع بين الجموع في كل مكان.. وبدأت الناس تقول أخبارنا غطت على أخبارهم.. همه كانوا فاكرين لما يتصوروا مع الوزير راح يخوفونا.. احنا اللي خوفناهم.. لو كنا شفنا حد منهم في المظاهرة لأكلناه.. همه لهم وش يبانوا.. طبعًا مالهمش همه حاجة واحنا حاجة..

وتوالت الأحاديث ومرت الأيام وجاءت أخبار تقول.. مجلس النواب يجتمع ويناقش الاستجواب المقدم من النائب زهير صبري.. وقد تولى الرد على الحكومة النائب محمد صبري أبو علم باشا إذ قال: "أيها السادة أعضاء مجلس النواب.. هل صحيح أن الحكومة انتهكت قانون النقابات بالتدخل لصالح نقابة ضد أخرى.. هذا الاتهام لا يستند على شيء سوى التجني على الحكومة.. عندما فعلت الحكومة ذلك ما فعلته إلا للصالح العام وليس سوى الصالح العام.. النقابة المزعومة لم يحضر جمعيتها العمومية إلا عدد لا يزيد على الألفين بينما عدد العمال الحقيقي في هذه الشركة يزيد على العشرين ألفًا.. فأيهما يستحق الرعاية بالتسجيل هكذا فعلت الحكومة.. أي عيب في هذا أيها السادة أعضاء مجلس النواب.. إن ما تقدم به السيد النائب المحترم ما هو إلا مغالطة وافتراء وهذا هو ردنا على ما جاء بالاستجواب.

وكان رد المستجوب النائب زهير صبري..

أيها السادة أعضاء مجلس النواب إن ما قالته الحكومة الآن وأمامكم لم يكن إلا استمرارًا في المغالطة.. ما الذي حدث.. ما حدث كما يلي.. أولاً الحكومة قد سنت القانون رقم ٨٥ لسنة ١٩٤٢ الخاص بقانون النقابات وهو بداية طيبة منها إلا أنها لم تترك الخيار لأصحاب المصلحة أن يختاروا فيما بينهم من يستطيعون الدفاع عن مصالحهم.. وهذا هو موضوع احتجاجنا اليوم.. جميع النقابات التي أرسلت أوراقها مع هذه النقابة قد أصبحت في حيز التنفيذ بل أعلنت ببدء نشاطها إلا هذه النقابة! أخطرتها إدارة النقابات بأنها أوقفت لحين صدور اللائحة التنفيذية! ما هي هذه اللائحة التنفيذية أيها السادة؟ ولماذا هذه النقابة بالذات التي سوف تنتظر اللائحة التنفيذية؟ وإذا كان ما تدعيه الحكومة صحيحًا لماذا ذهبت هي وهيئتها لفعل شيء شائن.. لخلق نقابة أخرى.. وأين إذًا هذه اللائحة التنفيذية؟ لم يوجد لائحة، ولن توجد لائحة لكنها رشوة من بنك مصر لوقف شيء اسمه حركة العمال..

ثانيًا: يتكلم مندوب الحكومة وكأنه هو وحكومته يقرآن الغيب.

يقول السيد النائب مندوب الحكومة إن النقابة التي أرسلت أوراقها لم يحضر جمعيتها أكثر من ألفين بينما عدد العمال في الشركة يزيد على العشرين ألفًا.. مالك انت يا حكومة وهذا الموضوع؟.. ده موضوع يخص العمال وحدهم.. وأنت أكثر علمًا بأن القانون يحرم وجود نقابتين لعمال في المهنة الواحدة وفي البلد الواحد.. وهل اشتكى إليك فريق من عمال هذه الشركة أيتها الحكومة أنهم غير ممثلين في النقابة محل النزاع؟.. فإذا كان فأين شكواهم؟ ماذا حدث أيها السادة.. إن النقابة محل النزاع قد قامت بكل التزاماتها القانونية.. أعلنت عن فتح باب الترشيح وعن موعد انتهائه وعن موعد عقد اجتماع الجمعية العمومية وعن الموعد المحدد للانتهاء من عملية الانتخابات.. وأرسلت كل الأوراق إلى إدارة النقابات.. وكما هو معلن أن تبقى الأوراق ثلاثين يومًا في إدارة النقابات وإذا لم تخطر النقابة بأي شيء في خلالها تعتبر في محل التنفيذ.. والحكاية التي نحن بصددها لم تخطر إلا في اليوم التاسع والعشرين أي قبل الموعد المحدد بيوم واحد.. ويا ريته كان اعتراضًا له قيمة، لكنه اعتراض مشكوك فيه وفي نزاهته.. والأخطر من كل ذلك أنه في اليوم الثلاثين الذي كان من المفروض أن تباشر فيه النقابة أعمالها كانت هناك في اليوم نفسه الحكومة ومكاتب العمل ليعلنوا عن نشأة نقابة أخرى غير التي أرادها العمال.. وهنا قام آلاف العمل بمظاهرة أجمع فيها العمال كل العمال على أنهم وراء نقابتهم التي أنشئوها، وليسوا وراء النقابة التي أنشأتها الحكومة مع الشركة.

وما إن سمع العمال بما حدث في مجلس النواب من مناقشات حتى ثارت ثائرتهم يهتفون بسقوط نقابة الشركة وبحياة نقابة العمال.. هتافات هنا وهناك في النقابة وفي الشوارع المؤدية إلى النقابة.. ولافتات يمسك بها العمال وأيادي تلوح وأخرى ترتفع وأصوات تعلو إلى السماء تنذر بالويل للمتآمرين.

وكان فرج أفندي ومحمد الكافوري ومصطفى محمد بين الجموع، وقالوا ما يمكن أن يقال.. واقتربت من فرج أفندي وهمست في أذنه عن اللجنة التي استطاعت أن تخرج بالمظاهرة.. سمع هذا مني وكأنها الإنقاذ الوحيد لتهدئة النفوس الغاضبة، وقال بصوت عالٍ خاشيًا ألا يسمعه أحد.. أيها المجتمعون هنا في النقابة يجب أن نخطركم بأننا قد رفعنا القضية ضد الحكومة مع طلب وقف نشاط النقابة الأخرى.. وها أنتم قد رأيتم أن أصواتنا قد وصلت إلى أعلى سلطة وهي مجلس النواب.. نعم مجلس النواب رغم أن الأغلبية فيه للحكومة إلا أنه قد أثيرت فيه قضيتكم وليس أمامنا إلا أن نستمر في العمل والعمل وحده هو الذي يتقرر به مصيرنا.. والعمل الذي نريده الآن هو أن تتصرفوا بهدوء.. وعلى اللجنة التي نظمت المظاهرة أن تجتمع وتقرر ما يجب أن يكون..

وطال الاجتماع ذات ليلة ولم يكن قد تقرر فيه أي قرار بعد.. والكل مختلف.. بينهم من يقول ردنا على ممثل الحكومة أن نقوم بمظاهرة أخرى.. ومنهم من يقول "نعم إضراب" ومنهم من يقول مجموعة من العمال تنتحر في ميدان عام ليعلم العالم كله أن في مصر عمالاً.. وكنت آخر من تكلم وقلت.. لم يتطرق أحد منكم لما قاله مندوب الحكومة أن النقابة التي عليها النزاع لم يحضر جمعيتها العمومية أكثر من الألفين من العمال.. ردنا يجب أن يكون بالعمل الجاد لا بأي كلام.. إذا كنا جادين فعلاً يجب أن ننص في لائحة النقابة على وجوب أن يكون لكل عضو استمارة فيها صورة وكرنيه يثبت فيه عضويته وبه صورة ويصدق على الاستمارة اثنان من أعضاء مجلس الإدارة هما الرئيس والسكرتير العام.. هل فعلنا نحن ذلك؟ نحن معنا العمال كما ترون وهم ليس معهم أحد.. علينا أن نثبت للجميع وللحكومة أن العمال معنا وليسوا معهم.. وليتم ذلك بسرعة علينا أن نحضر هنا في النقابة.. تسهيلاً للعمال.. مصورين يصورونهم.. ومجموعة من العمال تلصق الصور واحدة في الاستمارة وأخرى في الكارنية.. هكذا نفضح كذب الحكومة وتآمرها .. هذا هو رأيي باختصار.. فما رأيكم؟

واستجاب الكل.. واستجاب أيضًا مجلس إدارة النقابة.. وألصقت على الجدران في كل مكان منشورات تناشد العمال أن يبادروا إلى النقابة للرد على الذين لا يريدون لنا أن نعيش عيشة البشر وعيشة الرجال.. حيث سيجدون من يصورونهم ويساعدونهم على استكمال الاستمارات وكارنيهات العضوية للنقابة.. وتحولت النقابة إلى خلايا من البشر.. وطوابير لا آخر لها.. حتى قال القائلون.. ليت الذين يسيئون إلينا يحضرون ليروا ما نفعل، وأننا قادرون على الفعل.. الطوابير يهيأ لمن يراها أنها لن تفرغ إلا بعد عمر طويل.. إلا أن كل شيء له بداية له نهاية.. عشرون ألف عامل وعاملة أو أكثر ومعهم في جيوبهم كارنيهاتهم.. إنهم أعضاء في هذه النقابة.. متى تتحرك هذه القوة وترفع بهذه الكارنيهات التي تحمل صورهم في وجه الظالم.. مطالبين بحقوقهم الضائعة..

ومرت الأيام.. وكل شيء يبدو كأنه لا يتحرك.. هادئ كالهدوء الذي يسبق العواصف.. وذات يوم وفي نهايته اتجه العمال إلى النقابة والشمس في طريقها إلى الغروب والنقابة تموج بالناس.. تسأل عن أخبار الوفد الذي ذهب إلى مصر ليعرض الموضوع على رئيس البلاد.. ذهبوا.. ولم يعودوا.. الكل شارد في خواطره.. وعرفوا من تجربتهم أن الحكومة مع الشركة وأن الشركة لها أنياب.. فهل يا ترى يمكن للحكومة أن تستجيب لهم وتقف مع العمال..

وبينما العمال في أفكارهم المتأرجحة بين الأمل واليأس ارتفعت أصوات صادرة من الباب الخارجي.. هيه هيه هيه هيه !! وبدأ الكر والفر وناس تقع وكراسي ترتفع في الهواء، والكل يجري في هرج ليعرف ما جرى.. وكان الخبر تلغراف وصل من مصر وفد العمال

الذاهب إلى رئيس الوفد ورئيس البلاد.. يقول إن الرئيس رفض مقابلة الوفـد الـذي يحمـل الاستمارات والصور.. رفض أن يراهم أو حتى يرى الصور!! فقرر وفد العمال الإضـراب عن الطعام أمام بيت الرئيس.. وبعث يطلب نجدة سريعة من العمال!!

وفد العمال والنحاس

لم ينتظر العمال من يقع عليه الاختيار للسفر للقاهرة والكل يتسابق في قطع التـذاكر.. والذي معه يقطع تذكرة لمن ليس معه.. وكثيرون لم يجدوا ما يسافرون به وعـادوا.. كانـت ليلة مظلمة حقًّا.. والمسافر واحد وأربعون ليس فيهم من يعرف الكثير ومنهم مـن لا يعـرف شيئًا عن القاهرة.. أنا مثلاً لا أعرف إلا ما كنت أسمعه من أمي عن أهل البيت والسيدة زينب أم هاشم والحسين، لأنها كانت تعمل "ليلة" لهم كل سنة. وعندما توقف القطار سألنا فقيل لنـا هذه محطة مصر.. ونزلنا جميعًا وأمسك كل منا بيد الآخر حتى لا يتوه أحد فـي الزحـام.. كانت ساعة المحطة تشير إلى العاشرة مساءً، وبدأنا نسأل عن منزل رئيس البلـد مـصطفى النحاس.. والناس يسألوننا عن أمرنا وعما نريده من النحاس.. فأخذنا نشرح لهم، وأشار علينا البعض بعد أن استوعب مشكلتنا ألا نذهب إلى بيت الرئيس بل نذهب إلى دار النقابات وهـي في شارع اسمه قنطرة الدكة.. فهناك يمكن أن نقضي الليل، ويوجهوننا في الصباح إلى حيث نريد.. وتطوع بعض أولاد الحلال وأوصلونا إلى هناك..

وفي دار النقابات استقبلونا بترحاب وحماس كأنهم يعرفون بقدومنا.. ولدهشتنا وجـدنا بينهم زملاءنا الذين استنجدوا بنا.. واندفعنا نتبادل الأحضان وهم لا يكادون يصدقون حضورنا إليهم بهذه السرعة.. وقصوا علينا قصتهم، ونام كل منا على كرسي حتى الصباح..

.. وبدأنا نفكر.. ليس من الحكمة أن نضرب جميعًا عن الطعـام.. واقترحـت علـى مصطفى محمد أن يختار معه اثنين يعاونانه على خدمة الإضـراب ويكونـون صـلة بـين المضربين وزملائنا في المحلة فوافق على هذا الاقتراح.. وتقدمنا مصطفى.. لأنـه يعـرف الطرق المؤدية إلى رئاسة مجلس الوزراء.. وسرنا على الأقدام.. لقصر المسافة بينها وبـين دار النقابات.. وكنا نلفت إلينا أنظار الناس لكثرتنا، والتصاق بعـضنا بـالبعض، ولاخـتلاف أرديتنا.. فالبعض بالجلاليب الدمور.. والبعض بالجلاليب الدبلان أو الزفير المقلم، والـبعض بالجلاليب الصوف والبعض جلاليبهم من الحرير السكروتة، وأما عن الرءوس فبعضها عريان وبعضها بطربوش أو طاقية أو لبدة.. كنا خليطًا من الناس يمشون بأقدام ثابتـة تـدق علـى الأرض.. عيونهم تشع بالتحدي فالكل يعلم أنه لم يأت لنزهة أو لزيارة أهل البيت كما يفعـل الآخرون، وإنما جئنا وربما نموت من أجل هدف واضح وهو تسجيل النقابة التي تآمرت عليها الشركة والحكومة معًا ليبقى العمال بلا قيادة حقيقية..

كل ما حولنا غريب علينا، الطريق تملؤه العربات اللامعة المسرعة، والأرصفة تزدحم بالماشين.. والمحلات الفخمة الملآنة بالأثاث الفخم، والعمارات العالية البنيان.. وناس فوق.. وناس تحت.. والأنظار ترصدنا كأننا شيء غريب لم يسبق لهم رؤيته.. وعلى مدى البصر شيء هائل يقترب.. عالم كالمطر من البشر، يقتربون يحملون الأعلام الحمراء والخضراء، ويحملون على الأكتاف ناسًا يهتفون للنحاس "ألف سلامة يا نحاس".. "نحن فداك يا نحاس" وعرفنا بعد السؤال أن هذه المظاهرات متجهة إلى مجلس الوزراء لتهنئة النحاس بشفائه من مرضه.. وكانت فرصتنا لم نتركها تضيع.. وسرنا معهم نهتف مثلهم لندخل معهم مبنى مجلس الوزراء.. وحملني مصطفى محمد على كتفه.. والتف حولنا كل من كان معنا وبصوت ينطلق كمن يريد أن تسمعه الدنيا كلها.. هتف وردد زملائي الهتاف "عاشت وحدة العمال" "عاش عمال المحلة الكبرى" "عمال المحلة يناشدونك يا نحاس تسجيل نقابتهم".. واندمجت مظاهرتنا في الجميع، إلا أن صوتنا كان الغالب، إذ إن بعض الآخرين رددوا شعاراتنا "عاشت وحدة العمال" "عمال المحلة يشكون الظلم للنحاس" "عاشت النقابة الخارجية وتسقط نقابة الشركة".

وفي فناء المجلس وهتافاتنا تدوي، التف حولنا ضباط من كافة الرتب وطلبوا منا أن نكف عن الهتاف ونخرج من المكان بسلام.. فزادت قوة الهتافات تطالب بمقابلة النحاس.. "رعاياك يا نحاس" "نظرة منك يا نحاس" "عمال المحلة يشكون الظلم للنحاس".. ودخل واحد من الضباط وسطنا، وطلب أن نحدد عشرة من بيننا ينتحون جانبًا، وظننا أنه يريد أن يبلغنا خبرًا هامًا، وطلب منهم كتابة شكوى بموضوعنا لتقدم للنحاس بناء على طلبه، وأحضر الورق والقلم وصدقناه وكتبنا الشكوى، وجلسنا ننتظر إلى ما بعد الظهر.. وفوجئنا بحركة غير عادية.. اختلطت فيها العربات بالناس بالعساكر والضباط المندفعين نحو باب من الأبواب.. وفهمنا أن النحاس سيخرج من هذا الباب.. وأحسسنا بمرارة الخيبة وقذارة الخدعة فبدأنا نهتف من جديد بصوت أكثر قوة ومرارة.. وهجم علينا العساكر والضباط وأحاطوا بنا، ولمحنا النحاس يركب عربته، فارتفعت هتافاتنا في جنون "المضربون عن الطعام يشكون الظلم للنحاس" وتحركت السيارة، وكادت المفاجأة تضيع عقولنا، فاندفعنا، كل منا يلقي بنفسه منطرحًا على ظهره متلاصقًا مع الآخرين صانعين صفًّا طويلاً من النائمين يمتد على طول الطريق ليقطعه على عربة النحاس حتى لا تهرب.. والهتافات المجنونة تعلو "لن تمر إلا على أجسادنا يا نحاس".. "أجساد عمال المحلة المضربين عن الطعام يا نحاس".. واندفع نحونا الضباط والعساكر وذهل مصطفى النحاس لمنظرنا راقدين، وبدا كما لو أن هناك تدبيرًا لاغتياله، فقد كان الخلاف مع مكرم والسراي في ذروته، وعجز الضباط عن زحزحتنا، إلا أن الخوف في البداية اختفى ونزل النحاس من عربته، وطلب من الضباط أن يحضروا أفرادًا منا

ليسمع شكواهم.. وتوجه ثلاثة منا إليه وبدا كما لو كان لم يسمع عن موضوعنا مـــن قبـــل.. وبصوت كأنه صوت فلاح سأل عن عبد الحميد عبد الحق، فحضر في الحال.. ولم نقم مـــن رقدتنا إلا بعد أن قال النحاس لنا "إذا لم يحل المشكلة عبد الحميد عبد الحق وهو المسئول عن النقابات، تعالوا لي هنا في هذا المكان.."

الوزير يساوم ويناور

وذهبنا مع الوزير إلى مبنى الوزارة.. وطالت المناقشات، ولم نتفق.. طلب منا في أول الأمر أن يضم خمسة من نقابتنا إلى نقابة الشركة.. إلا أننا اعتبرنا الاتفاق معه على هذا الحل خيانة للأمانة التي حملها لنا العمال.. وأعلن الوزير لنا أن هذا آخر ما يستطيع أن يعمله.. كان وقت العمل الرسمي قد فات بكثير.. وخرجنا عائدين إلى دار النقابات والليل وشبح الفشل يخيمان علينا.. ولم يخرجنا من وجومنا إلا الحماس الذي استقبلنا به العمال هناك.. كانوا مبهورين بموقفنا ومبادرتنا الشجاعة إذ ألقينا بأنفسنا أمام عربة النحاس.. وقدموا لنا الطعام عن غير قصد إلا ما هو معروف عن العمال من العطاء.. فرفضناه لأننا مصرون على مواصلة الإضراب عن الطعام..

وفي اليوم التالي تداولنا الأمر والوجوه يعلوها الإصرار والتحدي.. واقترح أحدنا أن نقسم أنفسنا إلى أربع مجموعات.. كل مجموعة من عشرة، واحدة تتوجه إلى وزارة الخارجية لنسمع سفراء العالم صوتنا.. وثانية تتوجه إلى وزارة الداخلية، لتسمع كل المسئولين هناك صوتنا ولنقول لهم ألا هل بلغنا اللهم فاشهد.. وثالثة تتوجه إلى وزارة العدل لنسألهم عن العدل.. ورابعة تتوجه إلى رئاسة مجلس الوزراء ليعرف مصطفى النحاس أن الوزير لم يفعل شيئًا.. ولتكن شعاراتنا وهتافاتنا.. "عمالك تهان يا مصر"، "حزينة يا مصر على عمالك".

وحدث ما كنا نرتب له.. ونام العمال أمام باب وزارة الخارجية، والتف الناس والصحفيون حول النائمون المضربين، بل كان من بينهم أجانب من رجال السفارات.. والكل يعجب من أن حكومة الشعب التي جاءت لترد الحقوق للشعب، تقف ضد العمال وحقوقهم.. وأعلن صوت أن وزير الشئون حضر ومعه مساعدوه.. وقال لنا.. ماذا أتى بكم إلى هنا.. هل المشكلة يمكن أن تحل هنا.. المشكلة لن تحل إلا عندي.. وكان الرد "إننا كنا عندك ولم تحل المشكلة.. وتبين لنا أن كل وزارة ذهب إليها المضربون كانت تستدعيه ليقابل زملاءنا.

كان الإعياء الشديد قد حل بالمضربين.. وتجمعوا في الطرقة الممتدة حتى مكتب الوزير.. الكل نائم ممدد الأرجل بجوار الآخر، والموظفون يجدون صعوبة في انتقالهم من مكتب إلى آخر، فتعطلت أعمالهم، ونحن شامتون لأن مصالحنا معطلة ونقابتنا موقوفة عن العمل!! وصاح واحد من الراقدين "لا يشعر بالجوع إلا من جاع" "هوه هيحس بينا ليه؟" "هوه شبعان" وكأنما حركت كلماته الباقين والتفوا في صوت واحد رج المكاتب "حزينة يا مصر على عمالك" "الموت لمن يريدون لنا الموت.." وأخرجت هذه الضجة الوزير من مكتبه ووقف

على بابه وهو غاضب وجز على أسنانه وهو ينظر للعمال ثم دخل وأغلق باب مكتبه دون أن ينطق بكلمة.. ومرت ساعة قبل أن يستدعي إلى مكتبه ثلاثة يتحدثون باسم زملائهم.

وبدأ المفاوضة مهددًا.. أنتم هنا منقطعون عن العمل والشركة أبلغتنا أنها ستتخذ إجراءات فصلكم، ونحن طلبنا منهم مهلة يومين.. حتى يمكنكم العودة للعمل.. ورد عليه أحد المندوبين بأننا لم ننقطع عن العمل، فنحن هنا رغم عناء الإضراب نتردد على مكتبك ومكتب رئيس الحكومة، نريد رفع الظلم عنا، وأن نتجنب الانفجار الذي لا نعرف عواقبه.. وعاد الوزير وهو ينظر للوجوه الشاحبة المتحفزة، يكرر التهديد..

إذن فالشركة كانت على حق عندما طلبت التدخل لحماية النقابة من أمثالكم.. وإذا كنا ما زلنا في أول الطريق وفعلتم كل ما فعلتموه. كيف إذن لو تركناكم وشأنكم ولم نتدخل.. أي خسارة ستحل بالشركة ومصالحها.. هذه الشركة تعتمد على إنتاجها البلد بل تعتمد عليها كذلك جيوش الحلفاء.. ونحن في حالة حرب.. ألا تفهمون؟ لماذا لا تفهمون؟! لو تركناكم وشأنكم فقولوا على مصر السلام.. وأصبحنا جميعًا تحت رحمتكم.. كانت الشركة على حق حين رفضت أن تترك النقابة لمن تعميهم الأحقاد وتملأ قلوبهم.. هذا ما لمسناه بأنفسنا.. وأنتم تطلبون المستحيل..

وكان الرد صارمًا وقاسيًا.. نحن لا نطلب المستحيل.. نحن نطلب تنفيذ القانون يا باشا.. نحن لم نطلب سوى رقم التسجيل.. أنت اسمك عبد الحميد عبد الحق وليس اسمك عبد الحميد الظالم.. كانت الساعة قد اقتربت من السادسة.. وأخذ ينظر إلى الواقفين أمامه بنظرات تومض بالغضب ومال بكرسيه إلى الوراء، وبعد صمت من التفكير قال.. اسمعوا.. أقول لكم وعلى مسئوليتي.. وإشفاقًا مني عليكم.. فالوضع ليس كما تتصورون.. أنتم تعتبرون أنفسكم على حق، والآخرون أي الشركة ونقابتها يعتبرون أنفسهم على حق، ونحن حيارى بينكم.. أقول على مسئوليتي، أتفهمون ما معنى على مسئوليتي؟! ليس أمامي خيار إلا أن أضم النقابتين في نقابة واحدة، وعليكم أن تعطوني الآن عشرة أسماء يكونون في مجلس النقابة.. عشرة منكم واحد عشر من الآخرين، على أن يكون الرئيس والسكرتير والوكيلان وأمين الصندوق من نقابة الشركة.. أعطوني الأسماء..

وكان الرد رفضًا حاسمًا.. لقد جئنا لا لإدماج النقابتين، ولن نتنازل عن نقابتنا..

ولم يمهلهم الوزير ليشرحوا موقفهم.. فهم واقفًا والغضب يملأ ملامحه صارخًا فيهم.. مشيرًا إلى الباب.. اتفضلوا!!

الوفد يسجن العمال

بعد لحظات كانت الوزارة محاطة من كل جانب بالعساكر والضباط.. وتوجه بعضهم إلى أعلى حيث العمال المعتصمون أمام مكتب الوزير.. كانوا من الكثرة بحيث كان على رأس كل عامل أربعة جنود.. وهال العمال ما رأوه.. وارتفع الهتاف "حزينة يا مصر على عمالك" ونظروا إلى الجنود نظرات الأسى والعتاب.. وخاطبوهم.. يا رجال البوليس ورجال بلك النظام ويا ضباط أنتم منا ونحن منكم، وعار عليكم أن تقفوا مع الظالمين ضدنا.. نحن أصحاب قضية عادلة.. وحاول الضباط أن يقنعونا بالخروج وكان الرد قاطعًا بالرفض.. إلا أن القلوب الغليظة لم تستجب لندائنا وحملنا الجنود بالقوة في عملية خطف ليس لها مثيل.. وفي وقت قليل كنا مكومين في عربات محملة بالجنود.. وخلا المكان من أصحاب الحق..

كانت الشمس قد غابت، وحل الليل المظلم، والعربات مسرعة في شوارع القاهرة حتى توقفت عند مكان عليه يافطة.. قسم شرطة عابدين.. ولما اكتملنا داخل القسم علت الهتافات.. "الحق راح فين؟" إلا أن قوة القسم تكاثرت علينا وأدخلونا غرفة أغلقوا علينا بابها..

كل شيء كان قد أعد بعناية ليلفقوا لنا تهم العصيان.. وفتح الباب والجنود مصطفة تملأ المكان.. وجنود تنادي اسمًا وراء الآخر.. ووقفنا أمام ضباط.. وأعدوا الأوراق والأقلام.. وتوجه الاتهام.. أنتم متهمون بترك العمل والاعتصام في مبنى وزارة.. وأجبرتم الموظفين على التوقف عن ممارسة عملهم.. وكان جوابنا أننا لسنا كذلك.. إنها مؤامرة على قضية عادلة.. نحن نمثل خمسة وعشرين ألف عامل وعاملة.. وجئنا لتقديم الاستمارات المثبت بها صور العمال الذين اشتركوا بملء حريتهم وباختيارهم.. ونحن مصممون على أن نعود برقم التسجيل الذي ينتظره العمال..

وانتهى المحضر على أن يحال إلى نيابة عابدين العسكرية للنظر فيما تراه.

وأعادونا إلى الحجز.. وأغلقوا الباب.. ووقف عليه ديدبان.. ولم نعد نسمع إلا وقع الأقدام على الأرض.. في لحظات أصبحنا مسجونين وسرحنا في الأفكار.. إنهم على كل شيء قادرون.. وأن يحولوا النهار إلى ليل.. أهذا هو القانون الذي كان الناس من سنين طويلة يحلمون به!! هاء.. هاء.. هاء.. لقد أفرغه عبد الحميد عبد الحق من محتواه..

وعدت بذاكرتي إلى الماضي الذي سمعت عنه.. كان العمال في اتحادهم العام أكثر إيجابية في ثورة ١٩١٩ التي قادها سعد زغلول.. وبعد أن فرض الشعب إرادته، وتكونت الحكومة برئاسة سعد، وظن العمال أنهم انتصروا على الاستعمار ولم يبق إلا أن يجنوا ثمار

كفاحهم.. تقدموا بمطالب رفضها سعد، فما كان أمام العمال إلا أن يعتصموا بالمصانع.. ولـم تتوقف عجلة الإنتاج لحظة.. واستمر الاعتصام أيامًا.. وبـدلاً مـن أن تـستجيب الحكومـة لمطالبهم اقتحمت المصانع بالقوة، وقبضوا على قادة العمال، وأضرب قادة العمال عن الطعام في السجن إلا أن سعد زغلول تركهم إلى أن ماتوا.. وها هو النحاس يفعل بنا ما فعلـه سـعد زغلول ويتركنا نموت وتموت معنا حركة العمال.. ومزق الصمت صوت رن في أذني آتيًـا من بعيد.. الله أكبر.. الله أكبر.. وتيقنت أن الفجر قد لاح.. وانقشعت الغيوم.. وكل يكشف عن وجهه الحقيقي.. كشف عبد الحميد عبد الحق وزير الشئون عن وجهه الحقيقـي.. ولـم يبـق أمامنا سوى النيابة.. وما ستقوله في علم الغيب.. هل سـتقف إلـى جانـب حـق العمـال.. أم ستخذلنا؟!

وكانت تصلنا أصوات أقدام تدق الأرض في الحوش الخارجي وتردد صـارمة يمـين شمال، يمين شمال، كتفًا سلاح، ١- ٢، ١- ٢، ١- ٢، على اليمين در، على الشمال در، استعد.. إنها القوة التي انتزعتنا من الوزارة تستعد لترحيلنا إلى النيابة.. وفتح البـاب ووقـف العمال والإصرار يعلو وجوههم على الرغم من الإعياء.

واصطف العمال في طابور طويل يحرسهم عساكر مدججون بالسلاح.. وما أن التقـت عيوننا بالشارع والناس وعربات الترام رايحة.. جاية.. تموج بالحياة والناس ينظـرون إلينـا ونحن ننظر إليهم، وكأنهم يسألوننا عن شحوبنا، وهواننا.. وكأننا نسألهم لماذا لا تقفون معنـا فنحن على حق.. وانتقلت نظراتنا من الشارع إلى بعضنا البعض، وكأننا تفاهمنا على شيء!! أن نكرر ما قمنا به أمام عربة النحاس.. ونظرنا جميعًـا للـشارع فـي إحـساس واحـد.. هيلا هب.. هيلا هب.. وأمسك كل منا بيد الآخر مسكة من حديد حتى لا يستطيع الجنود حجز أحد منا على الآخرين..

وبينما الجنود مشغولون بالحديث بعضهم مع البعض.. اندفعنا إلى الشارع.. وإلى شريط الترام.. وعليه نمنا كلنا ممددين الأرجل.. وهتاف من الأعماق كأنه يقول للدنيا كلها اسـمعي "حزينة يا مصر على عمالك".

في لحظات.. كان الشارع قد توقف عن الحركة تمامًا.. التـرام والعربـات الملاكـي والأجرة والناس المتكدسون.. والعسكر التي تمنع الناس من الاقتراب من النائمين.. والنـاس تدفع العساكر والعساكر تدفع الناس.. والنائمون يرفعون أيديهم ملوحين للناس.. وضباط مـن الرتب الأعلى جاءوا ليثنوا العمال عن موقفهم.. وهتاف يدوي "تحيا نقابة العمـال".. "تـسقط نقابة الشركة".. ويرتفع صوت المأمور بنداء موجه إلى العمال "يا عمال المحلة الكبرى.. أنتم

من هذه اللحظة أمانة علينا توصيلها إلى النيابة التي ستحقق في مطالبكم.. لقد عبرتم تعبيرًا كافيًا عما في نفوسكم.. والنيابة في انتظار لسماع أقوالكم فلا تضيعوا الوقت..".

واستجاب العمال للنداء، وهموا واقفين.. وتحركوا يحرسهم الجنود المسلحون إلى نيابة عابدين.

وقريبًا من القسم كان مبنى النيابة.. ودخلنا هاتفين الهتاف الحزين "حزينة يا مصر على عمالك".. وهتافاتنا الأخرى.. وتجمع الناس حولنا.. ومنهم من همس في آذاننا.. نحن محامون تطوعنا للدفاع عنكم وسنحضر التحقيق.. واصطف العمال أمام مكتب وكيل النيابة واحدًا وراء الآخر.. ونودي عليهم.. وسئلوا عن أسمائهم وأعمارهم وعملهم وعناوينهم ثم أنت متهم بالامتناع عن العمل في وقت تحتاج فيه البلاد إلى كل سنتيمتر من إنتاجك لأننا في حرب.. ثم أنت متهم بالتجمهر مع آخرين وإحداث شغب بمكتب الوزير ترتب عليه تعطيل الموظفين عن أداء أعمالهم.. فما قولك؟!

ويجيب العامل.. هو "الحق ضاع والباطل بقى له سوق.. وبدل ما احنا بقينا متهمين!! بقى الدولة كلها وبكل قوتها تقف ضد تسجيل نقابة للعمال.. إحنا ماجيناش مصر إلا عشان نعرف أسباب عدم تسجيل النقابة.. ولما ما عرفنا طلبنا كلنا إننا ناخد رقم التسجيل.. ومالناش طلب غير رقم التسجيل.. كانت هذه هي الاتهامات وكان هذا هو رد الجميع.. وأقفل المحضر على ذلك..

وفي النصف الثاني من الليل تمت المحاكمة في استعجال.. وكانت عسكرية.. ولم يكن سوانا في المحكمة.. والأغرب أن تنعقد في النصف الثاني من الليل.. محاكمة عسكرية والعساكر مدججة بالسلاح والقاعة ليس بها إلا نحن والمحامون..

يا سلام يا ليل.. أن يحدث لنا كل ذلك فيك يا ليل.. ما هي كل المصايب عادة ما تحدث بالليل.. والكلاب لا تعوي إلا فيك يا ليل.. واللصوص وقطاع الطرق لا يفكرون في نهب الناس إلا فيك يا ليل.. وها نحن العمال انتزعونا من وزارة الشئون وحبسونا في قسم عابدين فيك يا ليل.. وها نحن نقدم للمحاكمة وفيك يا ليل.. ولكن يا ليل.. مهما طالت الليالي فما من ليل إلا وله آخر..

وارتفع صوت أشاع الرهبة في المكان "محكمة" ووقف الجميع.. وعلى المنصة كان ثلاثة.. على اليمين شاب مستطيل الوجه عيناه خضراوان.. وعلى كتفه وشاح أحمر.. وفي الوسط رجل قمحي اللون علا رأسه الشيب وأمامه الملفات، وعلى اليسار رجل ثالث في سن رجل الوسط وليس أمامه سوى ملف..

وبدأ الحاجب ينادي على العمال واحدًا واحدًا.. إلى أن اكتمل العدد.. ووقف جمع من المحامين في صف طويل بطول المنصة، كل سجل اسمه عن مجموعة من العمال.. وبعد انتهاء هذه المراسيم. وقف ذو الوشاح وهو وكيل النيابة وقال..

حضرات القضاة.. نحن أمام قضية فريدة في نوعها.. ولم يسبق لها مثيل على امتداد قضائنا منذ أن نشأت المحاكم.. وإذا لم يردع فيها المتهمون بأقصى العقوبات فإن الصناعة ستعصف بها الرياح.. هؤلاء المتهمون الواحد والأربعون عاملاً الماثلون أمام عدالتكم جاءوا من المحلة الكبرى، من شركة مصر للغزل والنسيج للقيام بأعمال تمس سلامة وسمعة البلاد أمام العالم.. وهاكم بعض هذه الأعمال.. تسلل هؤلاء المتهمون وسط مظاهرات التأييد التي اجتاحت المدينة متجهة إلى رئاسة مجلس الوزراء لتهنئة رئيس الحكومة بشفائه، وبدلاً من أن يشاركوا الشعب فرحته، حملوا بعضهم على الأكتاف وحولوا المظاهرات إلى ما يزعمون أنه مطالب العمال.. ويا ليتهم اكتفوا بذلك، بل إنهم تمادوا وافترشوا الأرض في حوش رئاسة الوزراء، وحاولوا بأجسامهم الممدة أمام سيارة الرئيس أن يمنعوها من السير.. كل ذلك أمام عدسات المصورين لصحف العالم.. ولو كانوا على حق كما يدعون فهل هذه هي الطريقة لإظهار الحق، ويا ليتهم توقفوا عند هذا الحد، بل إنهم في اليوم الثاني قسموا أنفسهم على مجموعات، توجهت كل مجموعة إلى وزارة من الوزارات وفعلوا من جديد، ما فعلوه في اليوم الأول.. ونقلت الصحافة.. وكأنها في انتظارهم.. صورهم إلى بلاد العالم.

وبهذا يكونون قد أساءوا لسمعة بلادهم.. ولهذا أناشد عدالتكم ألا تأخذكم بهم شفقة..

كان البعض يظنون عندما بدأت النيابة مرافعتها أنها ستقف معهم إلا أن مرافعة النيابة كشفت بوضوح أين تقف النيابة.. وتهيأ المحامون للدفاع.. وانبرى واحد منهم قائلاً.. حضرات القضاة.. يسعدني وزملائي المحامين أن نقدم لعدالتكم هذه الصفوة من العمال الواقفين أمامكم.. هذه الصفوة التي أبت في عزة أن يسلت منها حق حتى لو كانت الدولة هي التي تسلب هذا الحق، فلم يخافوا ولم يضعفوا..

واستمر الدفاع يسرد في وضوح وفي تفصيل قصة إقامة النقابة الحقيقية للعمال.. وقصة النقابة العميلة التي عينتها الشركة..

واستطرد الدفاع إلى الحجة الكاذبة التي أعلنتها الحكومة في تحفظها على نقابة العمال وهي عدم صدور اللائحة التنفيذية.. حجة لم تثرها الحكومة في وجه عديد من النقابات التي سمحت لها بالنشاط.. ثم انتقلت الحكومة إلى حجة أوهى وأدهى.. وهي أن الجمعية العمومية لم يحضرها إلا ألفان.. وهذا هو وفد العمال يحضر ومعه البرهان.. على زيف ادعاء الحكومة وهوا استمارات اشتراك عشرات الألوف عليها صور العمال..

وبدلاً من أن ترعوي الحكومة وتعود إلى الحق تمادت في باطلها وقدمت هؤلاء الأبطال أصحاب الحق للمحاكمة.. إنها بهذه المحاكمة لا تحاكم الواقفين أمام عدالتكم، إنما تحاكم عمال القطر كله.. إنها بهذا تريد إشاعة الرعب في نفوس العمال.. وإنها لسابقة خطيرة من الاعتداء على حرية الحركة العمالية في اختيار ممثليها.. وتفتح بهذا التدخل الباب واسعًا يدخل منه أصحاب النفوس الضعيفة الذين يتقبلون الرشاوى ليحققوا مصالح أصحاب النفوذ.. ونعود ونتساءل.. أي مصلحة لنا في أن نخيف عمالاً هم درع الصناعة ودرع الوطن.. ألا تفطن إلى احتياجنا لشجاعة العمال وقوتهم في مواجهة المحتل؟ كنا نظن أن حكومة الوفد تزرع الطمأنينة في نفوس هؤلاء الشجعان، وتترك للعمال حرية الاختيار.. إنه العار الذي يلاحق الوفد وحكوماته في موقفها من العمال.. العار الأول كان عام ١٩٢٤ يوم تدخل سعد زغلول وهدم اتحاد العمال، وسجن أعضاءه، وتركهم في السجن يموتون وهم مضربون عن الطعام.. والعار الثاني يحدث الآن عام ١٩٤٢ بتدخلها لتفرض على العمال نقابة غير نقابتهم.. معذرة أيها السادة على الإطالة فهذه القضية لها خصوصيتها.. هي قضية عمال متمسكين بحرفية قانون صدر لصالحهم، وبدلاً من أن يكون النزاع بينهم وبين أصحاب رأس المال، نجد النزاع أصبح بينهم وبين الحكومة التي أصدرت القانون لصالحهم إلا أنها انضمت إلى صف أصحاب رأس المال ضد العمال.. العمال الذين أحيا القانون فيهم الأمل في حياة أفضل.. هكذا يزداد الأثرياء ثراء ويزداد العمال فقرًا.. ومكمن الخطر الآن هو أن يقف العمال والحكومة خصومًا في وقت كان الوفد أملاً للشعب.. لقد فقد الشعب وفقد العمال ثقتهم في حكومات ما قبل الوفد.. فمن للشعب والعمال إذا وقف الوفد منهم هذا الموقف؟!

وإني في ختام دفاعي أهيب بهيئة المحكمة ألا تأخذ بادعاء النيابة، ولا بالادعاءات الكاذبة لوزير في حكومة ظالمة.. وألا تستجيب لأصحاب العقول المقفلة الذين يفضلون مصالحهم على مصالح البلاد.. وأهيب بهيئة المحكمة أن تأمر بالإفراج عن هؤلاء العمال الأبرياء ليعودوا ومعهم ما جاءوا من أجله..

ورفعت الجلسة.

وعاد القضاة بعد مداولة استمرت طويلاً وأعلن قاضي الوسط الحكم..

حكمت المحكمة على كل من المتهم الأول حتى الأخير بالسجن شهرين لكل منهم مع استعمال الرأفة.. وساد الصمت.. كصمت القبور.. ثم أفاق الناس من هول الصدمة على هتافات ترج جدران لمحكمة.. "يسقط الظلم" "تسقط نقابة الشركة" "تحيا نقابة العمال".

وتحرك الجنود ووضعوا الكلبشات في أيدي العمال.. تلك الأيادي خلقت لإدارة الماكينات.. والتي يحبها الله ورسوله.. والتي تجسد أشرف ما في الحياة.. قيمة العمل..

وصاح الضباط والجنود.. فكوا هذه القيود.. هؤلاء ليسوا مجرمين!!

واصطف المحامون بأروابهم السوداء وساروا كأنهم في جنازة يشيعون شـــهيدًا أطلـــق عليه الرصاص من جبان!!